كتاب الشعب

من أنباء الرسل

الجزء الأول

(بين آدم الأول وآدم الثانى)

آدم ـ ادريس ـ نوح

عبد السلام محمد بدوى

١٤١٧ هـ - ١٩٩٧م

□ الغلاف من تصميم : حسن احمد خليل
□ طبـــع بمطـــابع دار الشـــعب
٩٢ ش قصر العينى القاهرة ت ٣١٨١٠

● رقم الايداع بدار الكتب ٨٢/٤٨٩٤
● الترقيم الدولى ٤ - ٤٠٠٠ - ٩٠ - ٩٧٧ ISBN

الطبعة الثانية

بسم الله الرحمن الرحيم

(وكلا نقص عليك من
أنباء الرسل ما نثبت
به فؤادك وجاءك فى
هذه الحق وموعظة
وذكرى للمؤمنين)

١٢٠ هود

صدق الله العظيم



تقديم

نعوذ بالله من الشيطان الرجيم ... ونستعين باسم الله الرحمن الرحيم ... ونحمد الله .. العلى القدير .. اللطيف الخبير .. السميع البصير .. ونصلى ونسلم على البشير النذير .. والسراج المنير .. معلم البشرية الاول .. النبى الأمى .. .. وعلى آله .. واصحابه .. والتابعين ..

« وبعـــد »

فبين يدى مسلسل « من انباء الرسل » .. اقول :

قرات الكثير .. من كتب القصص القرآنى .. منها :

« قصص الانبياء » للاستاذ عبد الوهاب النجـار ، « وقصص القرآن » .. لجاد المولى ، « وقصص الانبيـــاء » لابى اســـحاق احمد بن محمد بن ابراهيم النيسابورى الثعلبى .. المسمى « بالعرائس » .

وكذلك .. ما كتبه نوابغ المفسرين .. منها :

تفسير النسفى .. المســمى - مدارك التنزيل - وقد ابلى بلاء حسنا .. فى ميدان النحو والرواية .. وقرات ما كتبه .. فخـر الدين الرازى .. والحق انه اوسع كتب التفسير .. افقا ، واشمل .. تفريعا واستنباطا .. وقرات بعد ذلك.. تفاسير ابن كثير .. والكشاف للزمخشرى ، وروح المعانى للألوسى .. الى الخازن .. والقرطبى .. والبيضاوى .

كما قرات الكتاب المقدس بعهديه : القديم والجديد .

□ □ □

وخرجت من هذه الجولة .. بحكم صادق .. على ما حشيت به .. اغلب هذه الكتب من الدسيس الاسرائيلى .. والخرافات .. والترهات .. وخاصة كتاب ((الجلالين)) وكتاب ((العرائس)) ...

وهذا الكتاب الأخير ((العرائس)) للثعلبى .. مفترى عليه .. به كثير وكثير .. مما دس على الأئمة .. ورجال التفسير .. وأولى العلم .. من أوهام الاسرائيليين .. وشعوذة المجوس .. بحيث يشعر القارىء فيه .. أحيانا .. انه يقرأ حكاية .. من حكايات ((ألف ليلة وليلة)) غير اننى أقرر ـ للحق ـ ان فيه الكثير .. من الآراء القيمة .. والدرر الغوالى . مما يؤكد لنا .. أن ما فى هذا الكتاب من حشو باطل .. ولغو مفضوح .. مدسوس عليه .. وليس من قوله .

وقد دفعنى الى تلك الجولة .. الشاقة .. المضنية .. حرصى على سلامة موقفى .. أمام ربى .. يوم يأتيه كل منا فردا .. يوم يسألنى ـ سبحانه عن موقف كل رسول .. مع قومه .. وموقف كل قوم مع رسولهم ..

فالمسلم .. شاهد عليهم جميعا يوم القيامة .. فهذا النص يقول :

((وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس)) فنحن المسلمين .. بحكم موقفنا .. وموقعنا .. شهداء يوم القيامة على جميع الأمم .. والأقوام السابقة .. والشهادة على السماع .. باطلة قانونا .. ولابد لكمال الشهادة .. من الرؤية والمشاهدة .. ولعل هذا .. هو المقصود .. من قوله تعالى :((ان فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد)) وربما تقول : كيف أشاهد احداثا مضت ووقائع انقضت ؟ .. ونحن نقول : أن المسلم .. اذا بلغ مرتبة حق اليقين .. فى ايمانه بكلام مولاه .. كان سماعه للقرآن شهودا ..

ولتقريب هذا المعنى .. أقول :

أن اليقين .. على ثلاث درجات :

علم .. وعين .. وحق ..

فمثلا .. أنا اعلم يقينا .. انه توجد فاكهة .. اسمها تفاح ولكنى .. لم ار هذه الفاكهة بعد .. فهذا ((علم اليقين)) بالنسبة لهذا النوع من الفاكهة ..

ثم رأيت تفاحة أمامى .. على المائدة .. وقيل لى هذه تفاحة بعينها .. هنا صار العلم عينا ((عين اليقين)) فاذا لمستها .. وشممتها .. وذقتها .. صار العين حقا .. وصار ايمانى بوجود هذه الفاكهة .. فى درجة ((حق اليقين))(1) .

□ □ □

(1) اقرأ « كلا لو تعلمون علم اليقين لترون الجحيم ، ثم لترونها عين اليقين » ٥ ـ ٧ التكاثر.
و « ان هذا لهو حق اليقين » ٩٥ ـ الواقعة .

ومن هنا كان لزاما على المسلم الحق .. ان يرى القصص القرآنى .. بدرجة حق اليقين .. ليعيش القصة .. واحوالها .. ونقاشها وصراعها .. ونتائجها .. ليكون صادقا فى شهادته يوم الدين .. ولتتم العبرة .. وتكمل العظة .. وتتحقق الذكرى .

ونزول القرآن نفسه .. كان بالمشاهدة .. فى صدر الرسول الكريم .. عليه الصلاة والسلام .

والدليل على صحة قولنا هذا .. عبارة وردت .. فى مقدمة هذا التقديم فى سطوره الأولى .. وهى « معلم البشرية الأول .. النبى الامى » ..

المعلم الأول .. أمى ، تناقض عجيب .. وتباين غريب ولقد كان لزاما .. ان يكون محمد .. اميا ..

فلو انه ـ عليه السلام ـ تعلم القراءة والكتابة .. لكان له معلم .. علمه الألف والباء .. والواو والياء .. والأثر الحكمى .. يقول : « من علمنى حرفا .. صرت له عبدا » . فمن الذى يستحق .. ان يكون محمد « عبدا » له .. غير ربه ـ سبحانه ـ ؟
لافضل لمخلوق عليه مطلقا ..

مات ابوه .. وهو فى بطن امه جنينا .. وماتت امه .. عقب عودته طفلا من قبيلة بنى سعد .. فلا أب ولا أم .. لهما عليه فضل تربية .. أو رعاية .. او تاديب .. أو تعليم .

وقد يسأل سائل : الم يكن جبريل معلما له ؟ ..

ونحن نقول : لا .. لم يكن جبريل معلما له .. وما موقف جبريل منه ـ حال نزوله عليه بما معه من آيات الله ـ الا كموقف ساعى البريد .. يحمل اليك الخطاب المسجل .. وهو لا يدرى شيئا عما فيه ..

حيث كان نزول جبريل بالقرآن .. عن طريق القلب .. لا عن طريق السمع .. فالله ـ سبحانه ـ يقول « نزل به الروح الأمين على قلبك » ولم يقل على سمعك ..

لم يكن جبريل يقرأ .. ومحمد يقرأ بعده .. كلا .. وانما كان يتنزل بما معه .. من آيات .. على قلب الرسول .. وهو لا يعرف ما معه منها .. فيحصل التفاعل .. بين الروح الأمين « جبريل » .. والقلب الأمين « قلب محمد » .. والآيات .. فيرى صدره الشريف الآيات مشاهدة .. ويحاول .. أن يخرج تلك المشهودات عن طريق اللسان .. خشية زوالها من صدره .. فيقول الله له فى بعض النجوم القرآنية : « ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى اليك وحيه » .. وفى نجم آخر .. يقول له « لا تحرك به لسانك .. لتعجل به .. ان علينا جمعه وقرانه » بمعنى .. اننا يا محمد .. بعد انتهاء صرعة الوحى .. التى يرجف منها جسمك

.. ويتصبب لها جبينك المشرق .. بقطرات العرق .. كأنها حبات اللؤلؤ المنثور .. بعد انتهائها والفراغ من تنزلها .. سنخرج هذه المرئيات .. من صوادق الآيات .. من صدرك عبر اللسان .. فلا شأن لك بتحريك لسانك .. أو ابراز الحروف .. انما هذا .. من عملنا نحن:

«ان علينا جمعه وقرآنه» أى وقراءته.. «فاذا قرأناه» نحن «فاتبع قرآنه» ولتأكيد هذا الامر «ثم ان علينا بيانه»(١).

ولقد كان جبريل ـ عليه السلام ـ أول ما يسمع الآيات.. يسمعها من فم الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ وهو يمليها.. على كتبة الوحى.

ويبرز هنا سؤال آخر: هو «ان حديث حراء.. جاء بلفظ القول» غطنى حتى ظننت أنه الموت.. ثم أطلقنى .. وقال: اقرأ .. قلت: ما أنا بقارىء .. فغطنى الثانية ثم أطلقنى.. وقال: أقرأ .. قلت ما أنا بقارىء .. وفى الثالثة .. قال: «أقرأ باسم ربك الذى خلق .. الخ الآيات» ولقد كانت أقرأ الأولى أمرا تكوينيا .. والثانية: أمرا تدوينيا .. أما الثالثة: فكانت أمرا تبيينيا.

فالتعبير هنا .. يقال .. وقلت .. وهذا قد يوحى الى الفهم .. أنه عن طريق السمع ..

ونحن نقول للرد على هذا السؤال الوجيه: أن القول .. ليس معناه الكلام .. وانما القول .. تقرير فى أعماق النفس .. واليك الدليل:

انظر معى بعين البصيرة .. الى قول ابن مريم لأمه .. لحظة ميلاده ـ عليه السلام ـ «فاما ترين من البشر أحدا فقولى أنى نذرت للرحمن صوما .. فلن أكلم اليوم أنسيا»..

أى قولى: أنك صائمة .. والصوم يقتضى عدم الكلام.. وذلك حسب الشريعة الموسوية..

فقل لى .. بالله عليك .. كيف تقول انها لا تتكلم؟ .. وكان قولها لقومها .. بالاشارة .. عندما لاقوها بما لاقوها به .. من الاتهام والتأنيب «فأشارت اليه» حيث قالوا «كيف نكلم من كان فى المهد صبيا»؟ ..

فالقول هنا .. كان بالاشارة .. وليس باللفظ ..

وأنظر معى أيضا .. الى قول الله تعالى «سواء منكم من أسر القول ومن جهر به» وأيضا «وأسروا قولكم أو أجهروا به»؟ ومعنى هذا أن القول .. قد يكون سرا فى النفس .. أو جهرا باللفظ؟ ونفس كلمة «لفظ» من لفظ الشىء .. أى أخرجه .. فاللفظ يخرج القول .. من أعماق النفس .. الى الخارج .. عبر اللسان .. وتكون أيضا كلمة «عبارة» .. من العبور .. أى السباحة .. فالعبارة تعبر بالقول .. من نفس القائل .. الى أذن السامع..

□ □ □

---

(١) الآيات ١٦ ـ ١٩ القيامة.

من أجل هذا .. أردت أن أقدم هذا الكتـاب ـ من أنباء الرسل ـ مسلسلا فى مجـموعات .. يتيسر للجميع الحصول عليها .. بطريقة مبسطة .. شيقة .. يستطيع القارىء .. من خلالها .. أن يعيش القصة .. وأحوالها .. وأحداثها .. ونقاشها .. وصراعها .. ونتائجها .. ليكون صادقا .. فى شهادته .. يوم الدين.

وأنا مـا أردت .. أن تكون قصـصا .. أو تاريخـا .. يحـصر كل مـا دار فى حيـاة كل رسول من رسل الله الكرام .. أو يسرد مـا جرى فيها من أحداث .. ويصـور كل ما حوت سجلاتهم من مشاهد .. فحيـاة كل واحد منهم .. بحر زاخر .. وخضم حـافل .. بالكفاح المضنى .. والصراع المرير .. صالت فـيها الأقلام وجالت .. وألفت عنها الكتـب الضخمة والاسفار الفخمة .. وانما أردت أن أعرض بعض مـا يجول فى الخاطر .. حول قصصهم .. من أفكار رسخت فى أذهان الكثيـر .. تحتاج الى شىء من التصحـيح .. والتصويب، بما عن لنا .. من منطوق الكتـاب .. ومفـهوم الحكمـة .. لما لها ـ من أثـر فى العقـيدة .. وعمق فى السلوك العام ..

كل ذلك مع الاحتـفاظ .. بتـسلسل القصـة .. وهيكلها .. وعرض جـميع أحـداثها .. ومناقشتها .. بطريقة مرئية تبلغ درجة المشهود ان شاء الله تعالى ..

وأنا حريص غاية الحرص .. على عرض ما يطابق العقل .. ويلائم الفطرة .. قد بينا فديننا ـ دين الفطرة .. «فطرة الله التى فطـر الناس عليهـا» ونبذ مـا امتـلأت به كتـبنا .. من الأوهام .. والتـحرصـات .. والخرافـات .. والخزعـبـلات .. مما دس علينا .. من أوهام الاسـرائيليين .. وشـعوذة المجـوس .. وذلك بعـد . دراسات واسـعـة المدى .. فى نور التاريخ .. وعلوم الحـفريات .. ودراسة المواقع .. والمواضع التى كانت تجـرى عليها .. الحركات الرسالية .. من لدن آدم الى الرسول الخاتم ..

فاليك أيها الأخ المسلم .. سواء كانت مسلما موسويا .. أو مسلما عيسويا .. او مسلما محـمديا .. فـالجميع مـسلم .. نعم .. الجمـيع مسلم .. لان الدين واحـد .. ولم أجد فى القرآن الكريم كله .. كلمة «الأديان» ..

نزل الاسلام .. مع آدم عليه السلام ولكنه مر بـجميع الأطوار التى يمر بها كل كائن حى .. من طفولة .. الى صبى .. الى شباب .. الى رجولة وكمال

فمثلا .. كان الاسلام .. فى أيام نوح .. مازال طفلا يحـبو .. قوامه .. الاستغفار فقط .. استغفروا ربكم انه كان غفارا يرسل السماء عليكم مدرارا .. ويمددكم .. «الخ الآيات ـ ١٠، ١٢ ـ نوح / وكان كذلك .. فى أيام هود وصالح .. من بعـد نوح «اتسغفروا ربكم، ثم توبوا اليه .. يرسل السماء عليكم مدرارا .. ويزدكم قوة الى قوتكم» ٥٢ هود.

ثم بلغ الاســـلام مرحلة الصبا .. فى ايام ابراهيم .. وهى مرحلة التسرع والاندفاع .. فحطم الاصنام .. ليبرز كلمة التوحيد .. وهى الاســـاس الاول للدين .

وهكذا اخذ الوليد ينمو .. شيئا فشيئا .. الى ان بلغ مرحلة الشـــباب على يد موسى وعيسى .. وهنا ظهرت اركانه من صلوات .. وطقوس .. وعبادات .. وصوم .. وزكاة .. وحلال .. وحرام .. ولكنها اركان ناقصة لم تبلغ درجة الكمال .. حيث تبلغها على يد الانسان الكامل والرسول الخاتم محمد ـ عليه وعليهم جميعا الصلاة والسلام .. وحق له ان يقول « اليوم اكملت لكم دينكم .. واتممت عليكم نعمتى .. ورضيت لكم الاسلام دينا » .

ومفهوم هذا النص .. واضح .. فى ان الدين .. كان موجودا ، ولكنه كان ناقصا .. فقال « اليوم اكملت لكم دينكم » .

فالاســـلام هو الاسم المهيمن .. على الدين .. فى جميع مراحل التـــاريخ البشرى .. من لدن آدم .. الى يوم الدين كان ابراهيم ـ عليه السلام ـ مسلما « هو سماكم المسلمين من قبل » و « ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما » .. « ربنـــا واجعلنـــا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك » والمتحدثان ابراهيم واسماعيل .

وهكذا نرى فرعون فى أيام موسى ـ عليه الســـلام ـ يقول عندما ادركه الغرق « آمنت انه لا اله الا الذى آمنت به بنو اسرائيل وانا من المسلمين » ومن بعـــده .. سليمان ـ عليه السلام ـ يقول فى رســـالته الملكية .. مع ســـفيره الهدهد .. الى بلقيس ملكة سبا « انه من سليمان وانه باسم الله الرحمن الرحيم الا تعلوا على .. وائتونى مســـلمين » .. كمـــا قالت بلقيس « رب انى ظلمت نفسى وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين »

وهذا أيضا عيسى ـ عليه السلام ـ يناقش الحواريين « فلما احس عيسى منهم الكفر قال من انصارى الى الله قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله وأشهد بانا مســـلمون » ..

□ □ □

واقدم اليك ايها الاخ المسلم .. اول مجموعة من انباء الرسل ـ بين آدم الأول وآدم الثـــانى .

« والله يدعو الى دار السلام ويهدى من يشاء الى صراط مستقيم » .

« بسم الله الرحمن الرحيم »

« واذ قال ربك للملائكة انى جاعل فى الأرض خليفة »

صدق الله العظيم

من نبأ آدم
نبى الملائكة

١ الملائكة جن نورى

لم يكن فى الكون ـ حسب ما علمنا الله ـ سبحانه ـ غير عالم الملائكة .. وهم .. من عناصر النور .. وليس فى طبعهم الفسوق والعصيان ... لأن الله تعالى قد فطرهم على الطاعة المطلقة ..

وعالم الجن .. وهم من عناصر النار .. وفى طبعهم .. الفسوق والعصيان ..

ولفظ الجن ـ لغويا ـ مشتق من الجيم والنون .. وكلّ مشتقات الجيم والنون .. تفيد معنى الستر ..

فنحن نقول : جن عليه الليل .. اى ستره الليل بظلمته .. ونقول عن المجنون : انه مجنون .. لستر عقله ..

ويقال للجنين جنينا .. طالما كان مستورا فى بطن امه .. فاذا ظهر فى الوجود .. لا يقال له جنين ..

ويقول ـ عليه الصلاة والسلام ـ « الصوم جنة » اى وقاية وستر عن المعاصى ..

حتى الجنات .. سميت بهذا الاسم .. لانها تستر من فيها لارتفاع اشجارها ..

ومن هذه الزاوية نستطيع ان نقول عن الملائكة انهم جن لانهم مستورون عن انظارنا .. ولكنهم « جن نورى » فهم من عناصر النور .. اما النوع الآخر .. فهم « جن نارى » لأنهم من عناصر النار ..

* * *

واراد الله ـ سبحانه ـ ان يخلق آدم .. من عناصر الطين .. فقال للملائكة « انى خالق **بشرا من طين ، فاذا سويته ونفخت فيه من** روحى فقعوا له ساجدين » ٧١ ـ ٧٢ ص .

وقد يتبادر الى الذهن .. ان الملائكة .. تلقى الله ـ سبحانه ـ يحادثهم .. ويحادثونه .. ولكن الحقيقة ان حيرتهم فيه ـ جل شأنه ـ وتعالى عن ذلك علوا كبيرا ـ اكبر واعظم من حيرتنا نحن فيه .

ولكن .. لماذا يخبر الله ملائكته هذا الخبر .. قبل خلق آدم ؟ .. ولماذا ينبئهم .. بأنه جاعل هذا البشر .. خليفته فى الأرض ؟ ..

والخليفة ـ عادة يعطي سلطات من استخلفه حيث قال في مقام آخر للملائكة:

«وإذا قال ربك للملائكة.. اني جاعل في الأرض خليفة» ٣٠ البقرة/ أعتقد أن هذه هي أول رمزيات الحياة.. مبدأ الشورى.. يضرب الله لنا المثل الأعلى.. في ملكه وملكوته.. وقوته وجبروته.. باستشارة الملائكة استشارة اخبارية.. في خلق بشر من طين.. واستخلافه.. في كوكب الطين.. ليؤهله.. هو وذريته لمنزلة أعلى وأرقى.. من منزلة الملائكة.. حيث يكون الملائكة بالنسبة لهم في الجنة.. أشبه بالحاشية والاتباع أنظر معي إلى وصف حالهم.. في هذا المقام.. «والملائكة يدخلون عليهم من كل باب.. سلام عليكم بما صبرتم.. فنعم عقبى الدار» ٢٤ ـ الرعد.

واستمع.. الى صوت الله ـ سبحانه ـ يناجيهم في الجنة.. كما جاء في الخبر «سلام من الله الخالد.. الى العبد الخالد» وتصور قوله عنهم «لهم ما يشاءون عند ربهم».

* * *

أحس الملائكة.. عظيم هذه المنزلة.. وجليل تلك الدرجة.. فغبطوا آدم وذريته عليها.. وتمنوها لأنفسهم.. فقالوا: «أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك» ٣٠.. البقرة.

وفي هذا التعبير.. من الملائكة.. رمز مستور يريدون به.. أن يقولوا.. لربهم: نحن أولى من هذا البشر.. بتلك المنزلة السامية.. وهذه الدرجة العالية.. وهم يعلمون بفطرتهم أن عنصر الطين.. فيه.. الفسوق والعصيان..والمروق والتمرد.. كما حصل أمامهم ـ سابقا ـ من عنصر النار ـ وهو أصل الجن.. من قبل آدم ـ عليه السلام ـ

ولكن الله ـ جل شانه.. قال لهم: «أني أعلم مالا تعلمون» وكرر عليهم أمر السجود له.. بعد خلقه.. وبعد النفخ فيه من روحه.. ولا عصيان في عنصر النور.. ولا تمرد في طبيعة الملائكة «فسجد الملائكة كلهم أجمعون» ٣٠ الحجر/تنفيذا للأمر.. وتمشيا مع طبيعتهم التي فطرهم الله عليها.. الا إبليس.. كان من الجن الناري.. وفي طبيعته الطاعة والعصيان معا ـ كما بينا آنفا ـ فامتنع عن السجود..

ولكن ماذا جاءبابليس هنا.. وهو من عناصر النار.. حتى أن أمر السجود.. لآدم.. قد شمله.. هو أيضا.. مع الملائكة.. وهومن غير جنسهم؟

وهذا بحث لطيف.. اخترنا له عنوانا هو.. «غباء ابليس»

* * *

وقبل أن ننتقل إلى هذا البحث.. أريد أن أقول: أننا نعلم أقدمية الجن.. في الحياة الكونية.. تلك الأقدمية.. التي كانت سببا في قول الملائكة جميعا من قبل آدم ـ عليه السلام ـ «أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء»؟ مما يدل على أنهم عاشروا قبل آدم.. كائنات أفسدت في الأرض.. وسفكت الدماء.. وهذه الكائنات.. هي الجن..

فالجن اذا.. أعلم من الأنس.. بما كان عليه.. أمر الحياة في هذه الأرض.. ومن ثم لم يتخلف عن السجود.. من الملائكة غير واحد منهم.. كان من الجن الناري.. وهو ـ عزازيل ـ الذي هو ابليس ـ أي اليائس يأسا مطلقا..

وما علل تخلفه عن السجود الا بعلة كونه:

أولا : أعلم هو وقبيله.. بشئون الحياة

الارضية .. على النحو الذى كان يجرى .. قبل تكوين آدم .

وثانيا : انه راى شرف العنصر النارى .. على عنصر الطين .. وافتخـر بذلك متكبرا « ااسجد لمن خلقت طينا » ؟ ٦١ ـ الاسراء/ ثم قوله « انا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين » ١٢ الاعراف/ وكان بهذا القياس .. الذى يواجه به .. حكمة الحكيم .. وعـلم العليم .. جديرا بأن ينادى بالطرد « فاخرج منها فانك رجيم ، وان عليك اللعنة الى يوم الدين » ٣٤ ـ ٣٥ الحجر .

❊ ❊ ❊

ولقد قال بعض قصار النظر : ان لعنـة ابليس .. مؤقتة الى يوم الدين .. ظانين انها ترفع عنه فى هذا اليوم ..

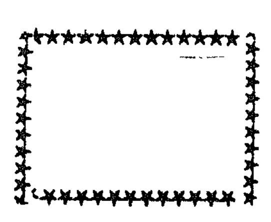
وقد جهل هؤلاء الناس .. قوله تعالى .. على لسان ابليس يوم الدين .. مخاطبا من اتبعوه .. واغتروا به :

(ما انا بمصرخكم ، وما انتم بمصرخى) ٢٢ ابراهيم / اى لا تنقذونى ولا انقذكم .

وكذلك خطاب الله ـ تعالى ـ له : « لمن تبعك منهم لاملأن جهنم منكم اجمعين » ١٨ ـ الاعراف .

وقوله له أيضا « لاملأن جهنم منك وممن تبعك منهم اجمعين » ٨٥ ـ ص .

كما نسـوا أن يوم الدين .. هذا .. هو يوم ابدى .. لسكان الجنة .. أو لسكان النار .. كما ورد فى الخبر عنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ « والله انها لسعادة الأبد ، او شقوة الأبد » .



٢ غباء إبليس

كان ابليس .. من الجن النارى .. الموجود على كوكب الأرض قبل خلق آدم ــ عليه السلام ــ وكان اسمه عزازيل.. عبد الله وجاهد نفسه .. وقيل : انه لم يترك مكان شبر فى السماوات والأرض .. الا وسجد لله فيه ..

فوصل بعبادته تلك .. الى درجة الملائكة النورانيين ... بل وصار أعلى منهم منزلة .. وارتقى منهم درجة بجهاده مع نفسه .. وصراعه مع شهواته .. وليس للملائكة شرف هذا الجهاد .. أو الصراع النفسى .. حتى أطلق عليه لقب ــ طاووس الملائكة ..

ولكن .. قاتل الله الغرور .. فقد هوى به غروره بنفسه فى هذا المقام .. الى اسفل سافلين بعد أن كان فى أعلى عليين ..

ويحضرنى فى هذا المقام .. حديث معروف عن عبد الله بن مسعود رواه الشيخان عن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ يقول فيه :

« ان احدكم ليعمل بعمل أهل الجنة .. وفى رواية ــ فيما يبدو للناس حتى ما يكون بينه وبينها .. الا ذراع .. فيسبق عليه الكتاب .. فيعمل بعمل اهل النار .. فيدخلها » .. وبالعكس .. وقد يتبادر الى الذهن ــ من هذا المعنى ــ اسناد الظلم الى الكتاب .. لقوله « فيسبق عليه الكتاب » ..

ولكن لو تدبرنا .. نص الحديث الشريف .. لوجدناه ــ عليه الصلاة والسلام ــ يقول : « يعمل بعمل اهل الجنة » .. ولم يقل : يعمل عمل أهل الجنة ..

فالباء هنا .. لم تأت عبثا .. وانما هى للتشبيه .. والعمل مع الرياء .. كعمل اهل الجنة فيما يبدو للناس .. ولكنه يضيع هباء .. ويذهب سدى ..

انظر الى قوله تعالى « وقدمنا الى ماعملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا » ٢٣ ــ الفرقان.

ففرر ــ سبحانه ــ ان لهم عملا .. ولكنه هباء .. لانهم لا يقصدون به وجه الله .. انما يبتغون به شيئا آخر فى نفوسهم ..

لا ظلم فى القضاء .. ولكن العدالة الالهية .. قضت بأن يحدد العبد لنفسه .. الجزاء الذى يبتغيه من وراء عمله ..

وكأنى ارى بعض الناس .. يوم الحساب.. يقول للملائكة : ليست هذه صحيفة حسناتى .. فقد انشأت مسجدا فى الدنيا .. وتبرعت بمبالغ كبيرة فى انشاء كذا وكذا ولا اجد فى تلك الصحيفة شيئا من هذا الذى قدمت « يوم تأتى كل نفس تجادل عن نفسها » ١١١ النحل/ فتقول له الملائكة : لقد عملت ما عملت ليقال عنك : المحسن الكبير .. ورجل البر .. والخير .. والاحسان وقد قيل .. وحصلت على الاجر الذى تبتغيه فى الدنيا « اذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا واستمتعتم بها » ٢٠ الاحقاف/ فماذا تريد هنا الآن ؟ ..

وعلى النقيض منه .. من كان يبتغى بعمله .. وجه الله .. تبارك وتعالى ..

واترك وصف هذا النوع .. من التفرد بالعمل .. لوجه الله فقط .. لا يبتغى فاعله من ورائه .. نفعا ولا مدحا ولا منصبا .. ولا جاها

اترك وصف هذا للرسول عليه الصلاة والسلام — حيث يقول :

« أول ما تسقط الصدقة .. فى كف الرحمن فيربيها .. كما يربى احدهم فلوه (١) .. حتى تأتى يوم القيامة وقد صارت .. مثل جبل أحد » .

والاصل فيها أنها صدقة قليلة .. والله يربى الصدقات مادامت خالصة لوجهه — تعالى .

وكان عزازيل — ابليس — من النوع الاول .. يبتغى بعبادته .. ان يرقى الى صفوف الملائكة وقد بلغ فامتنع عن السجود .

وهنا يتوجه اليه .. خطاب الله تعالى — « ما منعك الا تسجد اذ امرتك » (٢) .. ؟

وتتجلى صفة الانانية .. فى رده .. على خطاب الله له .. « قال انا خير منه » وبدأ .. بأنا .. واذكر هنا خبرا عن جبريل — عليه السلام — « قال لرسول الله — صلى الله عليه وسلم .. ما ابغضت احدا من الخلق ما ابغضت رجلين : اما احدهما .. فمن الجن .. وهو ابليس — لعنه الله — حين ابى أن يسجد لآدم .. وقال : انا خير منه والآخر من الانس .. وهو فرعون .. حين قال .. انا ربكم الأعلى .. ولو رأيتنى يا محمد .. وانا أخذ من حما البحر وادسه فى فيه .. مخافة أن يقول كلمة التوحيد .. فيرحمه الله بها » (٣)

فاذا قال المخلوق : انا .. فى موقف التفضيل .. فقد اشرك بخالقه .. ورازقه .. ومحركه .. ومدبر امره .. واتبع هواه .. وضل هداه ..

فانت اذا أمعنت النظر .. وتدبرت فى أن انعام النظر نفسه ليس منك .. بل هو من فيض قوة التجلى .. بصفة بصره — تعالى — الى بصيرتك .. انت كلما تدبرت هذا .. ادركت حقيقة عبوديتك .. وكلما ادركتها .. استشعرت فضله عليك .. بتنزل صفاته اليك .. والاعتراف بالفضل .. مدعاة لازدياده .. وتحقيق اسناد الصفات الى مسندها الحق .. وهذا يقتضى استشعار الذل بالنسبة لنظرك اليك .. من حيث انت .. وهذا أيضا يقتضى منحك العزة من حيث هو .

فكلما تم استشعارك .. الاعتماد عليه .. والاستناد اليه تم كمال تجليه لك .. واقباله عليك .. طردا لقاعدة « كمال الامداد .. من كمال الاستعداد » .. وبهذا تكون العبودية .. هى أشرف مقامات العبد .. وأكملها .. وهذا الشرف .. هو الذى عينه الله — تعالى — بالتجلى الكامل .. فى مثل الآيات :

« سبحان الذى أسرى بعبده » ..
و « ما أنزلنا على عبدنا » ..

و « ان كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا » .

و « عبدا من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا » .... الخ ..

وهنا مدخل واضح .. للأثر الحكمى « من عرف نفسه فقد عرف ربه » .

وتلك رمزية ثانية ..

قال ابليس (انا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين) ١٣ الاعراف/ وحقيقة عنصر النار أشرف من عنصر الطين .. فالنار بطبيعتها خفيفة صاعدة دائما .. الى اعلى .. اما الطين .. فثقيل هابط الى اسفل .. والعلوى دائما اشرف من السفلى ..

خرج ابليس .. فى هذا الموقف .. غبيا أشد الغباء .. قصير النظر .. منحط التفكير .. سيء الفهم .. فان الله — سبحانه — لم يطلب منه مع الملائكة .. السجود للطين .. لم يقل — سبحانه — فاذا سويته فقعوا له ساجدين .. وانما قال « فاذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين » .

فالتكريم اذا .. ليس للطين .. وانما هو لما فى داخل الطين من روح الله ..

فمثلا زجاجة « الكيروسين « نضعها .. فى اى مكان بالمنزل « قد يكون تحت السلم » .. او فى المطبخ .. أو بين المخلفات .. بينما زجاجة العطور .. نحفظها فى علبة رشيقة .. وفى فترينة انيقة .. والزجاج فى الحالين واحد .. وانما الفرق فيما هو داخل الزجاج ..

والانسان خلق وامر .. والخلق هو الجسم والأمر هو الروح .. الخلق ما تبصرون .. والامر

---

(١) الفلو : يعنى المهر الصغير .

(٢) تسلسل العرض هنا من سورة الاعراف ١٢ — ١٨ .

(٣) فى القرطبى وغيره — ٩٠ — يونس .

مالا تبصرون « فـــلا أقـــسم بما تبصرون وما لا تبصرون » .. ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى « وكذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا » .. « وأوحى فى كل سماء أمرها » .. « الا له الخلق والأمر » .. سبحانه .. وجل شأنه .. وتسامت قدرته .. فعالم الخلق صورة ومظهر .. اما عالم الأمر فهو الحقيقة والجوهر ..

ولنا بحث .. فى موضوع الخلق والامر .. يبين كيف ومتى يمتزج الأمر بالخلق فى الانسان ومتى يعود الأمر الى أصله والخلق الى أصله (١) وليس هذا مكان البحث .. وانما أشرنا اليه .. لندرك الفرق « بين الطين والروح » .. ونلمس غباء ابليس ..

اخطأ ابليس التقدير .. واساء التفكير .. فقال « أنا خير منه خلقتنى من نار .. وخلقته من طين » ١٢ الاعراف / فقال له ربه : « فاهبط منها « أى اهبط من تلك المنزلة .. التى بلغتها .. وانزل عن هذه الدرجة .. التى رقيت اليها « قال فاهبط منها ، فما يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج انك من الصاغرين » ١٣ الاعراف/ ولنا وقفة قصيرة .. اما هذا الرد من ابليس ــ لعنه الله ــ تشمل فكرتين : الأولى : أن ابليس .. خرج غبيا .. سيء التقدير والتفكير للمـــرة الثانية ..

فلو انه .. قال بعد أن صدر الأمر الالهى .. بطرده من رحمة الله .. لو قال : يارب اغفر لى هذا الخطأ .. لغفر له .. فقد عصى بعده آدم عليه السلام ــ واستغفر واناب .. فغفر الله له.. ولكن ابليس .. بدلا من أن يطلب المغفرة .. طلب الانظار .. أى تأجيل موته الى يوم الدين ..

والفكرة الثانية .. فى موقف ابليس هذا .. نفهم منها .. أن للجن آجالا مثل آجالنا .. يموتون بعدها .. بانقضاء الاجل والا لما كان هناك داع لأن يطلب ابليس عدم الموت الى يوم يبعثون

ولكن آجال الجن تحسب بالقرون .. ونحسبها نحن البشر بالسنين ..

واجيب ابليس .. الى طلبه « فقال الله له « قال انك من المنظرين » ١٥ الاعراف ..

قالَ ابليس ((فبما اغويتنى لاقعدن لهم صراطك المســـــتقيم) ١٦ الاعـــراف ..

وارجو أن نعى جيدا قول ابليس اللعين .. لله جل شـأنه « لاقعدن لهم صراطك المستقيم » .. وحدد لنفسه الصراط المستقيم بالذات .. ولنا عودة .. الى هذا الصراط .. بعد أن نذكر .. تحديه لنا .. بقوله بعد ذلك « ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين » ١٧ الاعراف/ فقال له ــ سبحانه ــ « قال اذهب فمن تبعك منهم فان جهنم جزاؤكم جزاء موفورا واستفزز من استطعت منهم بصوتك ، واجلب عليهم بخيلك ورجلك ، وشاركهم فى الأموال والاولاد وعدهم وما يعـــدهم الشيطان الاغرورا » ٦٣ ــ ٦٤ الاسراء ..

ويالهـــا من حـــرب ضروس بيننـــا وبين ابليس وذريته .. وقد صدر له الامر الالهى الحربى .. باعلان بدء المعركة .. بقوات فيهـــا أصوات يستفزنا بها .. وفيها جلب (٢) « بفتح الجيم واللام » على الخيول .. وعلى الارجل .. وفيها مشاركة فى الاموال والاولاد ..

***

والجن ثقل ــ بفتح الثاء والقاف ــ مكلف بالعبادات الانسانية .. من صلاة وصيام .. وزكاة .. وحج .. وتحر للحلال .. فى مآكلهم ومشاربهم .. ونسائهم .. وهذا يدل .. على قيام اشتراك فعلى .. فى الافادة من طبيعة الحياة الارضية .. وبحسبك .. أن تستشعر ذلك الاشـــتراك العنصرى .. بين آدم وذريته .. وابليس وذريته حين قال الله تعالى :

« قلنا اهبطوا منها جميعا » وصيغة الجمع هنا لآدم وحواء وابليس ، فاما يأتينكم منى هدى .. فمن تبع هداى ، فلا خـــوف عليهم ولا هم يحزنون . والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » ٣٨ ــ ٣٩ البقرة / سواء كانوا من الجن أو الانس معا ...

---

(١) نشر بمجلة الدعوة .. بعنوان « رحلة الحياة بالحواس العشر » العدد السادس / شهر ذى الحجة سنة ١٣٩٦)

(٢) جلب كطلب : أى صاح على فرسه « يستحثه على السبق ــ مختار الصحاح » .

٣ إبليس يتحدى

هذا التحدى من إبليس .. يستدعى منا منتهى اليقظة .. والحذر فللشيطان خطوط كثيرة «يدخل منها الى صدور بنى آدم فيزين لهم الشر .. ويدفعهم إلى الرذيلة .. دفعا .. أن لم تكن عندهم حصانة الايمان .. وقوة اليقين ..

يقدم ابليس .. انذارا .. لكل سائر .. على الطريق المستقيم بقوله فى سورة الأعراف «لاقعدن لهم صراطك المستقيم» ١٦ ـ لم ينذر به رواد الملاهى «والكباريهات» أو عملاء بيوت الدعارة «والبارات» .. ليس له شأن بالظلمة .. وعبدة الطاغوت .. ولا بالملحدين المارقين الخارجين على تعاليم صاحب الملك والملكوت .. فكل هؤلاء أعوانه .. وأنصاره .. وجنوده .. استذلهم الشيطان .. وخالط قلوبهم .. فلا عين لهم .. ولا أذن .. ولا لسان .. ولا يد .. ولا رجل .. وانما هى عينه وأذنه ولسانه .. ويده .. ورجله .. الشيطان هو عينهم التى يبصرون بها .. وأذنهم التى يسمعون بها ولسانهم الذى يتكلمون به .. ويدهم التى يبطشون بها ورجلهم التى يمشون بها «ولقد صدق عليهم ابليس ظنه فاتبعوه» أتبعوه انقيادا .. واستسلاما مطلقا لا هم له بهؤلاء وانما شغله الشاغل .. وهمه المائل .. هؤلاء الذين اتجهوا إلى الصراط المستقيم «لا هم له» الا هؤلاء الذين يقفون بين يدى رب العالمين «فى اليوم خمس مرات» وكأن تكبيرة الاحرام أذن له «بالدخول الى نفس المصلى ..» فقد تخطر ببالى.. وأنا قائم فى الصلاة «أشياء كثير.. لم تكن فى فكرى.. قبل الدخول فى الصلاة .. فيذكرنى بكذا .. وكذا .. واعلم يا أخى أن أجرك عن صلاتك على قدر درجة الصراع .. بينك وبين إبليس اللعين .. هو يريد أن يشغلك عنها .. بأمور دنيوية .. وأنت تصارعه .. وتستعيذ بالله منه .. لتتجه بقلبك إلى حبيبك .. وخليلك .. ورازقك ومدبر أمرك..

* * *

وأترك التعبير .. عن مثل هذا الموقف .. لقائدنا المصطفى اذ يقول فى حديث ورد فى صحيح البخارى .. عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم.. قال: «ان عفريتا من الجن تفلت البارحة ليقطع على صلاتى فأمكننى الله منه فأخذته فأردت أن أربطه إلى سارية من سوارى المسجد حتى تنظروا اليه كلكم فذكرت دعوة أخى سليمان: «رب هب ملكا لا ينبغى لأحد من بعدى» فرددته خاسئا.[1]

ولنستمع إلى جداله .. مع ربه .. فى الآية التى بين أيدينا «ثم لآتينهم من بين أيديهم .. ومن خلفهم .. وعن أيمانهم .. وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين» ١٧ ـ الأعراف/ بعد أن قال «لاقعدن لهم صراطك المستقيم» .. حصار تام .. واحاطة شاملة .. من الجهات الأربع:

من أمام.. ومن خلف .. ومن يمين وشمال،.. فاذا لاحظنا.. أن الجهة السفلية.. هى الطين بثقله وظلمته.. وحجبه الكثيفة .. فكيف الفكاك من حبائل الشيطان والخلاص من شراكه؟..

ان رحمة الله بعباده المؤمنين .. حرمت الجهة العليا.. على سلطان ابليس.. وهى

(١) صحيح البخارى ـ الجزء الرابع ـ ص ١٩٧ ـ طبعة الشعب.

الجهه الوحيده الباقية من الجهات الست.. فلا نجاة من حبائله .. ولا فكاك من شراكه .. الا بالاتجاه الى أعلى .. الى الله ومن هنا كان ختام الاذن لابليس .. فى اعلان الحرب الضروس .. على آدم وذريته «أن عبادى ليس لك عليهم سلطان» ٦٥ ـ الإسْراء .. عبادى .. الذين يتجهونْ الى .. فى كل أعمالهم «يرفعون أكفهم .. ليل نهار .. لآخذ بيدهم فى الملمات .. وأنقذهم من المهلكات .. يعلمون أن الأرض تهوى تحت أقدامهم .. الى هاوية .. ما لها من قرار .. فلا يركنون اليها .. ولا يطمئنون عليها .. وانما يستمسكون بالعروة الوثقى العلوية .. حتى اذا هوت الأرض الى قرارها السحيق .. أو الى غير قرار .. لا يهوون معها .. فهم معتصمون بحبل الله العلوى المتين مستمسكون بركنه الركين.

***

وقد يتبادر الى الذهن سؤال لطيف:

أليس اليمين جهة الخير (فكيف يأتى إبليس عن طريق الخير؟..

ولدينا عن هذا الكثير من الأمثلة:

فمثلا.. يوسوس لى إبليس ـ وهو يعلم إننى مؤمن أحب الخير ـ فيأتينى من باب الخير .. حيث يدفعنى الى زيارة جارتى فلانة .. لأنها أرمل .. مات زوجها .. وترك لها أطفالا يتامى .. فهم فى حاجة الى من يواسيهم ويمسح من عيونهم .. دموع الأسى واليتم ... وهذا عمل خير من غير شك .. غير أن إبليس يريد بهذا الدفع .. أن يدخلنى الى منزلها .. عسى أن تتاح له فرصة .. لنصب شباكه .. وأحكام شراكه .. بينى وبينها .. ومثل آخر .. كثيرا ما يحدث لنا فهو يوسوس لى فى صلاتى .. وأنا فى الركعة الرابعة من صلاة العشاء مثلا .. أن هذه هى الركعة الثالثة وهو يعلم أننى سأبنى على اليقين ـ وهوالأقل ـ وسأصلى ركعة زائدة .. واتبع صلاتى بسجدة السهو. وكلها زيادة لى فى الأجر ..

بعد هذا التحدى والعصيان/ وبعد ظهور غبائه مرتين/كان الرد القاطع .. من الله ـ سبحانه:ـ «قال أخرج منها مذءوما .. مدحورا .. لمن تبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين» ١٨ ـ الأعراف.

وقبل أن نترك إبليس ـ لعنه الله ـ لنعود الى آدم عليه السلام ـ نريد أن نعرف أسلحته التى يحاربنا بها فانت أن عرفت سلاح عدوك .. أمنت مكره .. وكفيت غدره .. واتخذت لنفسك الأسلحة المضادة .. التى تصد بها غاراته .. وتفسد بها طلقاته ..

وقد أورد لنا ـ ابن اسحاق الثعلبى ـ رواية فيها .. أسلحة الشيطان رأيت أن أقدمها للقارىء .. ليحذرها . فقال :

روى أن أبليس، قال يارب .. لعنتنى .. وأخرجتنى من رحمتك .. وجعلتنى شيطانا رجيما .. مذموما مدحورا .. فما رسلى؟ فقال : رسلك الكهنة .

قال : فما كتبى ؟ قال : كتبك الوشم.

قال : فما حديثى ؟ .. قال : حديثك الكذب .

قال : فما قراءتى ؟ .. قال : قراءتك الشعر .

قال : فما مؤذنى ؟ .. قال : مؤذنك المزمار .

قال : فما مسجدى ؟ .. قال : مسجدك السوق .

قال : فما طعامى ؟ .. قال : طعامك ما لم يذكر اسمى عليه .

قال : فما شرابى ؟ .. قال شرابك كل مسكر .

قال : فما حبائلى ؟ .. قال : حبائلك النساء .

***

٤ آدم نبى الملائكة

بعد ان خلق الله آدم ـ عليه السلام ـ ونفخ فيه من روحه .. واسجد له ملائكته .. علمه الاسماء كلها « وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال انبئونى بأسماء هؤلاء ان كنتم صادقين » ٣٠ البقرة .

* * *

واختلف المفسرون والعلماء .. فى المقصود بالأسماء التى تعلمها آدم ..

فقال بعضهم : انه تعلم اسماء الملائكة كلهم .. وهذا مردود طبعا .. فليس من المعقول .. الا يعرف الملائكة أسماءهم عندما قال الله لهم « انبئونى بأسماء هؤلاء » حيث قالوا « سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا » وقال آخرون : علمه اسماء ذريته .. وهذا مردود ايضا .. لأن اسماء بنى آدم .. كلها اسماء مكررة جيلا بعد جيل وليس فى هذا حكمة ظاهرة وقال ابن عباس : علمه اسم كل شيء .. حتى القصعة والقصيعة (١) كما قال صاحب تفسير البيضاوى (٢) ان الله تعالى خلق آدم من أجزاء مختلفة .. وقوى متباينة مستعدا لادراك أنواع المدركات .. من المعقولات والمحسات والمتخيلات والموهومات .. والهمة معرفة ذوات الأشياء وخواصها .. واسمائها .. واصول العلوم .. وقوانين الصناعات وكيفية آلاتها (٢) .

والنص والمنطق .. يؤيدان الرايين الأخيرين فاللفظ بالكلية المطلقة .. فى كلام الله ـ سبحانه ـ لما قال الأسماء كلها « يشمل ما كان وما يكون برغم مخالفة هذا لما أورده الاستاذ الكبير الشيخ عبد الوهاب النجار .. فى كتابه « قصص الأنبياء » .

حيث يقول :

يبالغ بعض الناس فيزعم ان الله تعالى ـ علم آدم اسم كل شيء كان ويكون .. وعرض عليه صورة هذه الأشياء ما كان موجودا وما سيوجد « وان آدم سمى كل شيء باسمه وهذه مبالغة لا أميل اليها (٣) » .

* * *

ولست ادرى لماذا لا يميل الاستاذ الى هذا الراى ؟ ولنا فى هذا الموضوع بحث طريف . . لا اعتقد ان احدا قد سبقنا اليه بمعنى اننى لم اقراه من قبل فالعلم كله .. كامن بالفطرة فى نفس آدم وذريته .. ولأضرب لك مثلا .. يقرب هذا المعنى ..

انا اقول لك : هذه الزلطة .. فيها نار .. فتقول انت : كيف يكون فيها نار .. وهذا سطحها بارد شديد البرودة ؟ ..

فاقول لك : اضرب تلك الزلطة الباردة بالزناد .. تخرج منها الشرار .. الذى يشعل النار ..

فالتعلم .. ما هو الا قدح لزناد الفكر البشرى لاخراج العلم الكامن فى النفس البشرية .. وان الذى اكتشف المذياع .. لم تأته الفكرة

---

(١) النسفى ٣١ البقرة .

(٣) قصص الانبياء للنجار ص ٦ ـ الطبعة الثالثة .

(٢) انبيضاوى ٣١ البقرة .

من خارج نفسه. وانما هى كامنة فيه .. واخذ يجرى التجارب العلمية .. تجربة اثر تجربة .. حتى ابرزها حقيقة .. تخدم الحياة ..

ولعل هذا هو السبب .. فى ان علماء النفس .. والتربية يحرصون اشد الحرص .. على الطريقة الاستنتاجية .. فى التعليم .. بمعنى ان المدرس الماهر .. لا يلقن تلاميذه المعلومات تلقينا واملاء عليهم .. وانما هو القادر .. على استنتاج الحقائق العلمية من افواه التلاميذ .. ولهذا قالوا : ان الطريقة التلقينية .. لا تأتى بخير ..

* * *

عرف آدم ــ عليه السلام ــ كل شىء فى الدنيا .. بفطرته التى فطره الله عليها .. وكأن الله ــ سبحانه ــ قد عرض عليه « فلم » الدنيا .. بما عليها .. من حيوان .. ونبات .. وجماد .. وعلوم .. وآلات .. ومكتشفات ..

عرف كل شىء باسمه .. وتركيبه .. وفائدته .. وخواصه .. ثم عرض ــ جل شأنه ــ تلك المسميات على الملائكة .. قائلا لهم : « انبئونى باسماء هؤلاء ان كنتم صادقين » فى دعواكم .. بانكم احق منه .. بالاستخلاف فى الأرض ؟

فراى الملائكة امامهم .. اشياء لم يالفوها .. ومسميات لم يعرفوها .. فقالوا : مقرين معترفين بعجزهم ..

« قالوا سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا .. انك انت العليم الحكيم » ٣٢ البقرة .

قال ليثبت لهم .. قدرة آدم .. وامتيازه عليهم « قال يا آدم انبئهم باسمائهم » ..

وهنا يجلس آدم من الملائكة مجلس النبوة والانباء لينبئهم باسماء تلك المشهودات .. التى امامهم .. وتركيبها وتكوينها « فلما انباهم باسمائهم » قال الله تبارك وتعالى لهم « الم اقل لكم انى اعلم غيب السماوات والأرض ، وأعلم ما تبدون ، وما كنتم تكتمون » ٣٣ البقرة .

* * *

لقد افاض الله على آدم .. الاستعدادات .. والملكات .. والغرائز الداخلة فى نطاقه وذريته فعرف الاسماء كلها .. وكانت الملائكة تجهل تماما .. علاقات آدم وذريته بهذه النشأة الأرضية .. لذلك اجابهم سبحانه ــ لما ابدوا الاعتراض على خلق آدم .. بقوله « انى اعلم مالا تعلمون » ..

ولما كانت المعروضات .. خاصة بنشأة آدم .. وهى نشأة فريدة .. لم يسبق لها مثيل .. فقد تبينت ملائكة النور .. والنار ــ ابليس ــ ان هذا شأن جديد .. من شئون الله .. فى أيام الله .. لا يعلمون عنه شيئا .. وكان حريا بهم .. ان قالوا « سبحانك لا علم لنا .. الا ما علمتنا .. انك انت العليم الحكيم » فلا احاطة لنا بعلمك .. الا ما تفضلت .. فكشفته لنا .. وعلمتنا اياه ..

فاراد ــ سبحانه ــ أن يجعل آدم .. وسيلة علمهم بالنشأة الجديدة .. فتفضل .. ووجه الأمر .. الى آدم « قال : يا آدم انبئهم باسمائهم » ونهض آدم على منصة الانباء .. فانبأ الملائكة .. ونجح فى ذلك « فلما انباهم باسمائهم » قال الرب ــ تبارك وتعالى .. للملائكة : « الم اقل لكم انى اعلم غيب السماوات والأرض واعلم ما تبدون » من الاعجاب والغبطة .. بحصول العلم بما لم يكونوا يعلمون .

« وما كنتم تكتمون » (١) فى انفسكم من استعظام نعمتى .. وفضلى على آدم .. واختصاصه بخلافتى فى الارض ..

وتبين من النص .. أن المعروضات المشهودة .. للملأ الأعلى .. والتى لم يكن لديهم العلم باسمائهم .. كانت بالنسبة لهم .. غيبا .. بدليل قوله تعالى « ألم اقل لكم انى اعلم غيب السماوات والأرض » الذى كان غائبا عنكم .. مجهولا لديكم .. فوجود آدم لهذا .. رحمة بكم .. وسعة لآفاقكم ..

* * *

وهنا يدرك اللبيب .. سر سجود الملائكة لآدم .. بوصف الخصائص الذاتية .. للفضل الالهى .. « الذى خلق من الماء بشرا ، فجعله نسبا وصهرا ، وكان ربك قديرا » .

والله ما اسمى الاشارة .. الى القدرة .. فى هذا المقام » حيث سجد النور والنار معا ، لكائن جمع النور والنار معا .. فكان اعلاه فوق الملائكة .. وادناه اضل من الأنعام ..

وهذا مضمار واسع .. تتسابق اليه الهمم العالية صعودا .. والغرائز الدنيئة هبوطا ..

والانسان هنا مكلف باسم الروح القدسى والخلد الفردوسى .. ان يعمل كادحا .. فى الترفع عما هو ادنى .. الى ما هو اعلى .. لأن الأعلى .. اخلد باق .. والادنى بائد فان ..

فمن شاء الخلود سعى اليه
ومن شاء الهبوط هوى دنيا
ومن عرف المحبة فى جهاد
لهذا كان صديقا نبيا

(١) ٣٢ ــ ٣٣ البقرة .

٥ الحياة الأولى لآدم

خلق الله تعالى حواء .. من ضلع من اضلاع آدم لتكون زوجا وسكنا له .. وقد ورد فى الخبر .. « خلقت المراة من ضلع اعوج .. فان تقمها تكسرها .. وان تتركها .. تستمتع بها على عوجها » .

وقد اخبرنى بعض اساتذه التشريح الانسانى .. أن للذكر .. ضلع ناقص ... فى آخر الجانب الأيسر .. من القفص الصدرى .. أما الأنثى .. فجميع اضلاعها .. تامة .. ولعل هذا هو سر المثل العامي الذى يقوله الانسان عن زوج ابنته « لقد اخذ منى أربعة وعشرين ضلعا » والنص القرآنى يقول « هو الذى خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها لسكن اليهـا » ١٨٩ .. الاعراف .

وقد جاء ما يؤدى هذا المعنى فى التوراة !

ففى سفر التكوين .. فى الاصحاح الثانى .. ما نصه :

٢١ ـ فأوقع الرب الاله سباتا على آدم فنام فأخذ واحدة من اضلاعه .. وملأ مكانها لحما ..

٢٢ ـ وبنى الرب الاله الضلع .. التى اخذها من آدم امراة .. وأحضرها الى آدم ..

٢٣ ـ فقال آدم هذه الآن عظم من عظامى .. ولحم من لحمى هذه تدعى امراة .. لأنها من امرىء اخذت . ا هـ / اما ما يتكلفه البعض فى تفسير قوله تعالى « وجعل منها زوجها » اى من مادتها .. وجنسها .. فنحن لا نميل الى هذا الرأى .. بسبب الأدلة التى قدمناها .

* * *

ثم قال الله تعالى لآدم : « ويا آدم اسكن انت وزوجك الجنة فكلا من حيث شئتما ، ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين » ١٩ ـ الاعراف فأين تلك الجنة ؟ ..

لقد اختلف المفسرون والعلماء .. فى مكانها.

قال بعضهم : انها من جنات الارض (١) ..
وقال الأغلب : انها لبست من جنـــات الدنيا ..

ولهم فيها اقوال كثيرة .. وصولات وجولات حتى ان بعضهم قال : انها جنة .. اخترعها الله بين السماء والأرض (٢) وهذه كلها اقوال مردودة فالكلام عن المكانية والزمانية فى مثل هذه البحوث ما هى الا سفسطة خيالية .. وشطحات وهمية .. لاداعى للنقاش فيها .. لأن المكان والزمان اعتباريان .. بالنسبة لسكان هذه الأرض .. او غيرها من الكواكب الاخرى ..

والواقع المنطقى .. انها جنـــة بها فواكه ومطاعم .. ليست من فواكه ومطاعم الدنيا .. بمعنى انها تتحلل كلها داخل الجسم ـ جسم آدم وزوجته ـ بلا فضلات .. ولا نفايات .. فليس فى الجنة مكان للبول والبراز .. ولا مجال للعرق والمخاط .. ولا يوجد فيها غير شجرة

---

(١) فى البيضاوى والنسفى ٣٥ ـ البقرة .

(٢) الثعلبى .

واحدة ــ وكانها مسمار جحا ــ خلقها الله فيها .. من عناصر الطين .. بمعنى انها تترك بقايا .. لابد ان تخرج من الجسم .. على هيئة بول وبراز .. وعرق ومخاط .. ودموع وبصاق .. تلك هي الشجرة المحرمة اوجدها الله فى الجنة .. ونهاهما عن الاكل منها .. وهو ــ سبحانه ــ يعلم انها ستكون السبب .. فى هبوطهما من الجنة الى الارض .. حيث توجد اماكن .. لمثل هذه القاذورات .. الناتجة من اكل ثمرها ..

وهذا هو تخطيط العليم الحكيم .. حيث كان الأمر الصادر .. قبل خلق آدم « انى جاعل فى الأرض خليفة » ولم يقل انى جاعل فى الجنة خليفة .. فلزم ايجاد الأسباب التى تؤدى الى الهبوط .. من الجنة الى الارض ..

***

ولقد كان بعض ائمتنا يتحدث قريبا فى المذياع .. حول آدم وحواء فى الجنة .. وطابق راى فضيلته راينا الذى سقناه عن غذاء الجنة .. فقال انه بغير فضلات ولا نفايات .. غير انه قرر ان لباسهما فى الجنة .. لم يكن لباسا ماديا .. وانما كان لباسا معنويا .. مستدلا على ذلك .. بقول الله تبارك وتعالى « يابنى آدم قد انزلنا عليكم لباسا يوارى سوآتكم وريشا ، ولباس التقوى ذلك خير » ٢٦ الاعراف .. فقرر انه لباس التقوى ..

فاذا كنا نعلم ان هذه الآية بمعناها .. كانت بعد هبوطهما من الجنة الى الارض .. ونحن لا نلجأ الى المعنى الباطنى .. الا اذا عجزنا عن ابراز المعنى الظاهرى .. والظاهر صريح .. فى قوله تعالى .. « ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوءاتهما » ١٢٧ الاعراف ومعنى هذا .. انه كان عليهما لباس .. واستطاع الشيطان باغوائهما ان ينزع عنهما هذا اللباس .. وظهرت السوءات .. والعورات فما هو هذا اللباس اذا ؟ ؟ ..

***

نحن مادمنا متفقين .. مع فضيلة الاستاذ ــ محدثنا فى المذياع ــ فى ان طعام الجنة ليس له فضلات .. ولا نفايات .. تستلزم المسالك للخروج من الجسم .. فلاداعى اذا لمسام الجلد .. حيث لا يوجد عرق .. فكان جسمهما مغطى بحلة صدفية لؤلؤية .. اشبه ما تكون باظافر الطفل الوليد لحظة ولادته .. لؤلؤية .. وردية .. شفافة تكاد تنم عن الدم يترقرق تحتها .. فلا مسام للجلد .. ولا دبر للبراز .. ولا قبل للبول ..

فعندما قاسمهما ابليس ــ اى اقسم لهما ــ انه لهما من الناصحين .. « وقاسمهما انى لكما لمن الناصحين » ٢١ ــ الاعراف .. ليأكلا من تلك الشجرة المحرمة .. وهما لم يألفا وجود من يجرؤ على الحلف بالله كاذبا « صدقته حواء أولا .. فأكلت ثمرة منها .. ثم تبعها آدم كذلك ..

وبدات عملية الهضم فى المعدة .. حتى اذا تم .. بدأ العرق اولا يلتمس طريقا الى الخروج .. وكان لزاما ان تطير تلك الحلة الصدفية .. التى تغطى مسام الجلد .. لتتفتح هذه المسام وتسمح بمرور العرق منها .. ثم تظهر السوءات .. لتتفتح الطريق أمام البول والبراز « فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما » ولم يبق من الحلة غير أطراف الأصابع فى اليدين والرجلين ..

ويذكرني هذا بأيام الصبا عندما كان الضحك يغلبنا ونحن فى مجلس الآباء والأجداد .. فنحاول كبته فى صدورنا .. فلا نستطيع .. الا اذا نظرنا الى اظافرنا فيتلاشى الضحك ، فى الحال .. وكأن الروح .. تتذكر حلة الجنة فتنقبض .

***

ولا اكتمك ايها القارىء الكريم .. ان مسألة الحلة الصدفية .. التى هى من جنس الاظافر .. كانت اجتهادا منا .. وتخريجا من واقع الحال ..

غير اننى بعد ايراد هذا المعنى حول لباس آدم وحواء فى الجنة وأنا ابحث فى كتب التفسير رأيت ابن عباس رضى الله عنه يقول فى تفسير «بدت لهما سوءاتهما » تقلص النور ــ بتشديد النون وفتحها ــ الذى كان لباسهما « فصار اظفارا فى الأيدى والأرجل » (١) ..

كما رأيت سعيد بن جبير ــ رضى الله عنه ــ يقول : كان لباسهما من جنس الاظفار (٢) .. فكان قول الشيخين الجليلين دليلا على صحة ما اتجهنا اليه ..

***

(١) القرطبى ٢٢ ــ الاعراف .

(٢) الكشاف والنسفى ٢٢ ــ الاعراف .

وقد فاتنا ان نعرف نوع هذه الشجرة .. وقد اختلف فيها المفسرون .. ولكنهم اجمعوا - تقريبا . على انها الحنطة او الكرمة .. أو التينة (٣) ..

ولا يهمنا نوعها « أو اسمها » ويكفينا ان يعلم انها شجرة من شجر الأرض « الطينى» الذى يبقى من ثمرة فى الجسم فضلات « كما بينا .. وعرف آدم وحواء بالفطرة » ان ما انكشف من جسميهما « عورات .. يلزم سترها .. «وطفقا بخصفان عليهما من ورق الجنة » ٢٢ الاعراف اى يلصقان الاوراق ببعضها لتستر ما بدا لهما من السوءات » ..

اين يتبرزان ويتبولان ؟ .. وليس فى الجنة مكان لمثل هذا - .. فسمعا نداء العلى القدير « وناداهما ربهما الم انهكما عن تلكما الشجرة واقل لكما ان الشيطان لكما عدو مبين » ٢٢ الاعراف .

* * *

احس آدم بجريمته .. فاستحى من ربه .. ولم يدر ماذا يقول ، ..

ولكن الله الرحيم بعبده آدم .. وهو يعلم ما انطوت عليه نفسه من الندم « قال له يا آدم قل : « ربنا ظلمنا انفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا ، لنكونن من الخاسرين » ٢٣ الاعراف فقالاها » ..

يؤيدنا فى هذا « فتلقى آدم من ربه كلمات .. فتاب عليه انه هو التواب الرحيم » ٣٧ البقرة .

تاب عليهما « ثم قال لهما « اهبطوا بعضكم لبعض عدو ، ولكم فى الارض مستقر ومتاع الى حين » ٢٤ الاعراف وأمر الهبوط هنا بالجمع « فقد هبط معهما ابليس » ليقوم برسالته معهما » ومع ذريتهما .

وعن ابن مسعود :

أحب الكلام الى الله . ما قاله أبونا آدم « حين افترى الخطيئة » سبحانك اللهم وبحمدك .. وتبارك اسمك وتعالى جدك .. لا اله الا انت سبحانك « ظلمت نفسى فاغفرلى » انه لا يغفر الذنوب الا أنت (١) .

ويبدو لنا سؤال .. قبل ان نترك الجنه « ونهبط الى دنيا الاكدار »

هل كان آدم وحواء مستمتعان بنعيم الجنة؟ وما مدى احساسهما بهذا النعيم ؟

وقبل ان نجيب على هذا السؤال .. اذكر ان قرية بمحافظة الغربية كان بها تفتيش لاملاك احدى الاميرات وقيل ان الفلاحين « كونوا وفدا سافر الى القاهرة لمقابلتها » وليقولوا لها ان الآفات الزراعية « قضت على القمح والذرة . فى الحقول » يقصدون من هذا تخفيف القيمة الايجارية .. او تقسيط الايجار على أعوام قادمة « فلم تفهم غرضهم » وقالت لهم مادمتم ليس عندكم قمح ولا ذرة .. كلوا جاتوه

لا شك انه رد مضحك وسواء حدث هذا من شيوكار « أو من غيرها فلها العذر .. فى تفكيرها » فهى لا تعرف معنى الفقر لانها ولدت « فى القصور » .. حولها كل ما تشتهى الأنفس من لذائذ الطعام واشهى المأكولات فلم تفهم معنى الفقر ..

ولم يدر طعم الفقر من هو فى غنى
ومصحح الابـدان ليس كمبتلى

* * *

وهكذا كان حال آدم وحواء فى الجنة .. حولهما ما تشتهى الأنفس « وتلذ الأعين » « انهار من ماء غير آسن » . « وانهار من لبن . » « وانهار من عسل » .. « وانهار من خمر لذة للشاربين » .. « فيها سرر مرفوعة » .. « فيها

(١) البيضاوى والكشاف والنسفى وغيرهم ٣٥ - البقرة .
(٣) الكشاف والنسفى ٣٧ البقرة .

فاكهة كثيرة » .. « ولحم طير مما يشتهون »
لا يعرفان معنى ، للفقر او الشقاء او الجوع او العرى .. لم يجربا شيئا من كل ذلك .. حتى يميزا بين الغنى والفقر .. او السعادة والشقاء .. أو الشبع والجوع .. والحكمة تقول : وبضدها تتميز الأشياء .. فكل ما لآدم فى الجنة .. الا يجوع فيها ولا يعرى ولا يظمأ ولا يضحى .. اما الاحساس بالنعيم .. فهـذا شىء آخر .. حتى العلاقة بين آدم وحواء « فى الجنـــة » ليست فيها العلاقة الجنسية « او العاطفة الغريزية » التى تجذب الذكر الىالانثى وتشد الأنثى الى الذكر .. لأن تلك الغريزة وليدة الغذاء الطينى الأرضى الذى لم يدخـل جسميهما بعد فلم يكن فى حياتهما هذا الاحساس بالسعادة والنعيم والراحة وهل أحسن السعادة الا اذا شقيت ؟ أو الراحة الا اذا تعبت ؟ أو لذة الطعام الا اذا جعت ؟

* * *

طردا من الجنة « ومعهما ابليس » ليؤدى كل واحد منهم دوره على مسرح الحياة الدنيا وليثبت ابليس – عمليا – ان آدم وذريته – وهم سبب طرده من رحمة الله ورضوانه – هم الذين يعصون الله « ويحاربونه » ويسعون فى الارض فسادا « بالظلم والجبروت » والكبر والطاغوت وقـــد لفت نظرى آية من كتاب الله الكريم عن الشيطان : « كمثل الشيطان اذ قال للانسان اكفر فلما كفر قال انى برىء منك انى اخاف الله » .
« الشيطان أيها الأخ الكريم » يخاف الله ..

* * *

٦ آدم فى الحياة الدنيا

ولنهبط مع آدم وحواء .. الى الارض .. لنبدأ الحياة الدنيا .. بين مطاعمها .. ومطامعها وآمالها .. وآلامها .. واحوالها وأوحالها .. ولنجرب الشقاء والعناء .. والفقر والمرض .. والجوع والعرى .. حتى اذا عدنا الى أصلنا.. فى الحياة العليا .. استطعنا ان نحس السعادة والنعيم .. والراحة والغنى .. وصلاح البال .. وحسن المآل .

***

ويبدو ان آدم وحواء .. لم يهبطا فى مكان واحد .. ليتم اللقاء بينهما والتعارف بعد حين .. فى عرفات ..

قال ابن عباس ــ رضى الله عنه ــ هبط آدم على الأرض فوق جبل سرنديب (١) .

نزل آدم فى الهند .. ونزلت حواء فى الجزيرة العربية .. وقيل أن حواء عندما جاءت .. أتاها ملاك بعنقود من اجود أنواع العنب .. صفاء وشفافية وجمالا .. فقالت للملاك : ما هذا ؟ .. قال : هذه فاكهة .. قالت : ما هذه الفاكهة المظلمة ؟ .. وذلك بالنسبة الى الفاكهة النورانية .. التى كانت تتناولها فى الجنة .. فقال لها الملاك : كلى .. فهذه من اصفى المأكولات الأرضية .. واكثرها شفافية اذا قيست بغيرها .. مما تنبت الارض من بقلها وقثائها ، وفومها وعدسها وبصلها ... كما ستشهدين فيما بعد ..

وطعام الجنة .. من نفس انواع طعام الدنيا .. ولكنه من عناصر نورانية .. لا من عناصر طينية .. انظر الى قوله ــ تبارك وتعالى (« أن لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ، كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا ، قالوا هذا الذى رزقنا من قبل ، وأتوابه متشابها ») ٢٥البقرة/ فالتفاحة .. فى خدودها الوردية الرائعة .. التى لا يستطيع فنان ابداعها .. وملاسة سطحها .. التى يعجز أمهر صناع « الدوكو » عن اخراجها .. ورائحتها الخاصة بها .. فهى ليست رائحة ورد .. أو فل .. أو نرجس .. وانما هى رائحة خاصة .. اسمها رائحة التفاح .. وطعمها اللذيذ الشهى .. الذى لا يمكن لخبراء الحلوى اخراج مثيل لها .

كل هذا الجمال .. من عناصر الطين .. فكيف تتخيل جمال التفاحة من تفاح الجنة .. التى هى من عناصر النور ؟ لا نملك الا أن نقول :

سبحان الخلاق العظيم

---

(١) الثعلبى .

٧ لقاء وتعارف

ظل كل الف .. يبحث عن الفه ..

هو يجد فى البحث عنها .. وهى ايضا تجد فى البحث عنه .. لا يقر لاحدهما قرار ولا يهدأ لهما بال ..

سار هو من الهند .. حتى دخل الجزيرة العربية .. من شرقها .. بينما هى تجوب الجزيرة .. من اقصاها .. الى اقصاها ..

* * *

وفى صبيحة يوم صاف جميل .. جلست فتاة .. رقيقة .. رشيقة .. انيقة .. فى ريعان الصبا .. وشرخ الشباب .. بعد الفجر .. وقبيل شروق الشمس .. فوق صخرة عالية .. وقد اتجهت بوجهها الى الشرق فانعكست على جبينها المشرق خيوط الصبح البيضاء .. فكسته اشراقة رائعة .. اكسبتها جمالا وجلالا .. لا يحدهما وصف .. ولا يسبر غورهما فكر .. تمد بصرها الى الأفق الشرقى .. بعينين حالمتين .. طال بهما الحنين الى الأليف المفقود ..

واذا بها تلمح من بين انفاس الصباح .. شبحا مقبلا من بعيد .. شاب فى عنفوان شبابه .. مفتول الذراعين .. بارز العضلات .. مرسلا شعره على كتفيه .. تحركه نسمات الصبح العليلة .. يسير فى خطى ثابتة .. تبحث عيناه فى جنبات الوادى .. عن جزء منه .. طال حنينه اليه .. وزادت لهفته عليه ..

مضت ستة شهور .. من البحث المضنى .. اكلا فيها من نبات الأرض .. ونمت فيهما الفريزة الجنسية .. والتقت عيناهما .. ولا يكاد كل منهما أن يصدق عينيه .. فهذا اللقاء .. فيه أمر جديد .. لم يألفاه من قبل .. ولم يعرفاه فى حياتهما الأولى فى الجنة ..

ذلك الامر هو الغريزة الجنسية .. وهى اساس العلاقة التى تربط بين الذكر الانثى ..

فهبت والهة للقائه .. وعدا مسرعا .. لاحتوائها بين احضانه .. فى نشوة غريبة .. واضطراب عجيب .. والتقى الجسدان .. فى لقاء حار مجنون ..

واذا بملك من السماء .. يقول .. :

يا آدم .. الله يناديك .. والشهوة تناديك .. فأيهما تلبى ؟ / الشهوة ، .. ماذا ، .. ماذا يشغلنى عن ربى ؟ .. انا ما زلت أتلظى بنار خطيئتى الأولى .. فكيف أخطىء ثانية ؟ لا .. لا .. والف مرة .. لا .. الشهوة تؤجل .. الى وقت آخر .. ولكنه ربى .. الذى سامحنى .. وعفا عنى .. وغفر لى خطىء .. ولم يطردنى من رحمته ـ ملعونا ـ برغم عصيانى .. ومخالفتى أمره ..

ثم رفع كل منهما يديه الى السماء :

لبيك اللهم لبيك .. لبيك لا شريك لك .. ان الحمد والنعمة لك والملك .. لاشريك لك..

وكان هذا المكان عرفات ..

وكان الزمان/ التاسع من ذى الحجة ..

وقد يقول قائل : هل كان هناك .. فى هذا الحين .. شهر ذى الحجة ؟ ..

ونحن نحيل الجواب على الله - سبحانه - حيث يقول :

« ان عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا فى كتاب الله ، يوم خلق السماوات والأرض ، منها اربعة حرم » ٣٦ التوبة/ وذو الحجة من الأشهر الحرم ..

* * *

ويظهر لهما ابليس .. لاول مرة .. على سطح الارض .. فيتطلع اليه آدم - عليه السلام - فى دهشة .. قائلا : من انت ؟ .. هل جئت خلفنا يا ملعون .. بعد أن فعلت بنا فعلتك المشئومة .. واغويتنا .. وتسببت فى طردنا منجنة الله .. ماذا تريد منا بعد ذلك ؟.

فقال له ابليس .. فى بسمته الصفراء :

لقد خدمتك يا آدم .. هل كنت تحس فى الجنة .. بأى لذة ؟

هل كنت تعرف معنى السعادة والراحة والنعيم ؟ هل كنت ترى فى حواء هذا الجمال ، وتلك الفتنة ؟ .. لقد خدمتكما .. بالنزول الى تلك الأرض .

انظر يا آدم .. لذة اللقاء بعد الفراق ، والاحساس بالراحة بعد التعب والشقاء ، ..

لقد خدمتك من حيث لا تدرى ..

وينحنى آدم - عليه السلام - ليلتقط حصيات .. يرجم بها ابليس اللعين .. طردا له من خواطره .. وابعادا له عن هواه .

* * *

ومن درور « الثعلبى » (١) التى استخلصناها بعنف .. من بين الصخور والشعاب .. وهى كثيرة وقاسية فى بحر كتابه/ وقد أشرنا فى تقديم هذا المسلسل الى كثرة الدسيس الاسرائيلى فيه .. بجانب ما فيه من الدور الغوالى ومنها :

روى عن وهب بن منبه :

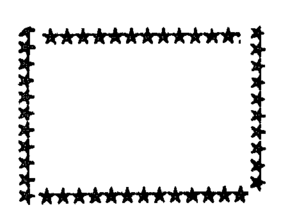
اوصى الله آدم .. بعد ما تاب عليه .. وهبط به الى الأرض قال :

يا آدم انى اجمع لك العلم كله .. فى اربع كلمات :

واحدة لى .. وواحدة لك .. وواحدة بينى وبينك .. وواحدة بينك وبين الناس ..

فأما التى لى : فلا تشرك بى شيئا .. واما التى لك : فأجزيك بعملك ..

واما التى بينى وبينك : فمنك الدعاء .. ومنى الاجابة .. واما التى بينك وبين الناس : فأن ترضى لهم .. ما ترضى لنفسك ..



(١) صاحب كتاب قصص الانبياء .

8 عوامل إبتلاء آدم

وتكون عوامل ابتلاء آدم عشرة :

١ ـ العتاب : « الم انهكما عن تلكما الشجرة ، واقل لكما ان الشيطان لكما عدو مبين » .

٢ ـ نزع الحلة الصدفية : « ينزع عنهما لباسهما » .

٣ ـ الفضيحة : « فبدت لهما سوآتهما » .

٤ ـ الخروج من جوار الله : « قلنا اهبطوا منها جميعا » .

٥ ـ العداوة والبغضاء : « قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو » .

٦ ـ الفرقة : هو بالهند ، وهى بالجزيرة العربية .

٧ ـ المنادة بالمعصية :

وقد روى أن ابراهيم ـ عليه السلام ـ قال :

يا رب .. خلقت آدم بيدك .. ونفخت فيه من روحك وأسجدت له ملائكتك .. واسكنته جنتك بلا عمل .. ثم بزلة واحدة .. ناديت عليه ـ بالمعصية .. وأخرجته من جوارك ؟ ..

فاوحى الله اليه :

يا ابراهيم .. أما علمت ان مخالفة الحبيب للحبيب .. امر شديد ..

٨ ـ تسليط العدو على ذريته :

واجلب عليهم بخيلك ورجلك ، وشاركهم فى الأموال والاولاد ، وعدهم ، وما يعدهم الشيطان الا غرورا .

٩ ـ جعل الدنيا سجنا له ولاولاده : بقاسون فيها الحر والبرد وكانا فى الجنة « لا يرون فيها شمسا ولا زمهريرا » ..

ويقول ـ صلى الله عليه وسلم :

« الجنة سجسج (١) .. لا حر فيها ولا قر » .

١٠ ـ التعب والشقاء :

« ان هذا عدو لك ولزوجك.. فلايخرجنكما من الجنة فتشقى » .

(١) سجسج : بوزن جعفر .. اليوم الذى ليس فيه حر ولا برد « مختار الصحاح » .

٩ أول قاتل وأول شهيد

كانت حواء .. تلد لآدم .. توامين فى كل بطن .. غلاما وجارية .. الا شيثا .. فانها ولدته منفــردا .. وجملة حملها .. عشرون بطنا (١) .. اولهم « قابيـل » .. وتوامتـه « اقليما » . وآخرهم « عبد المغيث » وتوامته « امة المغيث » ..

وقد روى بعضهم .. ولعله ابن اسحاق :

أن آدم .. كان يغشى حواء فى الجنة .. فحملت بقابيل وتوامته .. حيث وضعتهما فى الارض .. بعد الهبوط اليها ..

وهذا الراى مردود قطعا .. لسبب بسيط جدا .. وهو أن الغريزة الجنسية .. لم تكن فيهما .. وهما فى الجنة ..

ثم وضعت حـواء .. فى البطن الثـانية « هابيل » وتوامته « لبودا » .

* * *

وكان الولد يتزوج اى بنت من اخوته .. الا توامته .. فلا تحل له ..

وكانت اقليما .. توامة قابيل .. جميـلة جدا .. فأصر قابيل .. على الزواج منها .. بدلا من لبودا توامة اخيه هابيل .. ولكن اباه آدم .. اخبره .. ان هــذا مخالف لأمر الله

ـ تعالى ـ فلم يصدق أباه .. قائلا له : ان الله لم يامر بهذا .. ولكنك تحب هابيل اكثر منى .. وتريد ان تخصه باقليما .. لجمالها .. فجمع آدم ـ عليه السلام ـ قابيل وهابيل .. وطلب منهما تقديم قربان الى السماء .. فالذى يتقبل الله قربانه هو الذى يتزوج اقليما .. فرضـا بهذا الراى ..

* * *

وروى ان آدم عندما طلب من قابيل وهابيل .. أن يقدما قربانا الى السماء .. قدم هابيل جذعة سمينة من الغنم وكان صاحب غنم .. وقـدم قابيل حزمة من زرع ردىء .. وكان صاحب زرع ..

فنزلت نار من السـماء .. اكلت قربان هابيل .. وتركت قربان قابيل (٢) .

« واتل عليهم نبأ ابنى آدم بالحق .. اذ قربا قربانا .. فتقبل من أحدهما ، ولم يتقبل من الآخر » ٢٧/المائدة ..

وغضب قابيل .. وذهب الى هابيل .. وهو يرعى الغنم .. وقال له : ساقتلك .. قال : ولم ؟ قال : لأن الله قبل قربانك .. ولم يقبل قربانى .. وتتزوج أختى الجميلة .. واتزوج أنا أختك الدميمة .. فيتحدث الناس..

---

(١) القرطبى وغيره ـ ٢٧ / المائدة .

(٢) القرطبى وغيره ـ ٢٧ / المائدة .

انك خير منى وافضل .. ويفتخر ولدك .. على ولدى ..

فقال له هابيل : وما ذنبى فى هذا ؟ ان الله .. لا يقبل الا من المتقين ..

« قال لاقتلنك ، قال انما يتقبل الله من المتقين لئن بسطت الى يدك لتقتلنى .. ما انا بباسط يدى اليك لاقتلك .. انى اخاف الله رب العالمين» ٢٨/ المائدة .

وكأن خوف هابيل من الله .. قد فتح له باب الشهادة .. فالمقتول ظلما شهيد .. لان القاتل الظالم .. قد حمل عن قتيله جميع أوزاره وآثامه .. فأردف هابيل .. قائلا :

« انى اريد أن تبوء باثمى واثمك ، فتكون من أصحاب النار ، وذلك جزاء الظالمين » ٢٩/ المائدة ــ فيدخلك الله جهنم يا قابيل وافوز انا بالجنة ..

***

ويبدأ دور ابليس .. فى اشعال الفتنة بين الاخوين ..

وهل يلزمه .. غير جهاز آدمى .. يستذله .. ويستولى عليه ؟ .. ليكون هو العين التى ترى .. والأذن التى تسمع .. واللسان الذى يتكلم .. واليد التى تبطش .. والرجل التى تمشى .. وذلك ليتم التوازن .. والتعادل .. بين قوى الخير والشر .. حيث يكون الحال مقابلا .. لحال المؤمن الذى يقول الله ــ سبحانه ــ عنه فى الحديث المعروف « لا يزال عبدى يتقرب الى بالنوافل .. حتى أحبه .. فاذا احببته .. كنت سمعه الذى يسمع به .. وبصره الذى يبصر به » ..

الى آخر الحديث .. ونصه كالآتى :

روى البخارى عن ابى هريرة .. قال :

قال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ

« ان الله تبارك وتعالى قال :

من عادى لى وليا .. فقد اذنته بالحرب .. وما تقرب الى عبدى بشىء .. أحب الى مما افترضته عليه . وما يزال عبدى يتقرب الى بالنوافل .. حتى احبه .. فاذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به .. وبصره الذى يبصر به .. ويده التى يبطش بها .. ورجله التى يمشى بها .. ولئن سألنى .. لأعطيته .. ولئن استعاذنى .. لأعيذنه ..

وما ترددت فى شىء أنا فاعله .. ترددى عن نفس المؤمن (١) .. هو يكره الموت .. وأنا أكره مساءته » .

(١) أى قبض روحه .

وكبر الامر فى راس قابيل .. ونجح ابليس فى اغوائه واستفزازه فحمل صخرة ضخمة .. رضخ بها راس أخيه هابيل .. فخر صريعا ..

« فطوعت له نفســه قتل اخيه فقتله ، فاصبح من الخاسرين » ٣٠/المائدة .

وحلت به لحظة الندم ..

ولكن بعد نجاح ابليس .. فى تنفيذ أول جريمة قتل .. فى تاريخ البشرية ..

ولاول مرة يرى قابيل الموت .. ماذا يصنع بهذا الجسد الهامد ؟

انه لا يتحرك .. لاحول له ولا قوة ، لقد صار لاشىء .. هل يتركه هكذا فى البرية .. ليكون طعاما للوحش والطير ؟ لا .. فلأحمله على كتفى .. حتى أدبر أمرى .. واقر رأيى ..

***

ومن العجيب .. أن بعض هواة الحشو فى التفاسير .. بالغوا فى المدة .. التى حمل فيها .. قابيل جثة أخيه هابيل .. حتى وصــل بها بعضهم .. الى اربعين سنة ..

وطبعا .. لم يكن فى هذا الحين .. حنوط تحفظ به جثث الموتى .. وواضح ان تلك الآراء لا تستحق شرف المناقشة .. الا اذا تجردنا .. من عقولنا ..

***

وادرك قابيل التعب .. من حمله الثقيل .. فجلس تحت شجرة .. حتى يسترد انفاسه .. ويستعيد قوته .. والقى جســد اخيه الى جانبه .

وحانت منــه التفاته .. فراى غرابين يتشاجران فوق الشجرة .. وانتصر أحدهما .. فقتل أخاه .. ونزل الغراب القاتل .. فحفر حفرة .. فى الرمال .. وضع فيها جثة اخيــه

(٢) القرطبى ٢٧ / المائدة .

المقتول واهال عليه الرمال .. ثم طار ..

وهنا عرف قابيل .. كيف يصنع بجسد اخيه .. فصنع به .. كما صنع الغراب بجسد اخيه .

« فبعث الله غرابا يبحث فى الأرض ليريه كيف يوارى سوءة اخيه ، قال ياويلتى اعجزت أن اكون مثل هذا الغراب ، فأوارى سوءة اخى فأصبح من النادمين » ٣١/المائدة وثبت فى صحيح مسلم .. وغيره .. عن عبد الله .. قال . . قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم :

« لا تقتل نفس ظلما .. الا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها .. لأنه كان أول من سن القتل » .

وقال ايضا :

« من سن فى الاسلام سنة حسنة .. كان له اجرها .. واجر من عمل بها الى يوم القيامة .. ومن سن فى الاسلام سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها .. الى يوم القيامة » .

ثم قال :

« ان اخوف ما اخاف على امتى الأئمة المضلون » (١) .

***

وذهب قابيل باخته اقليما بعد قتل اخيه الى جنوب الجزيرة العربية وهو فزع .. يملأ الرعب جوانبه .. ويرجف الخوف نواحيه يمزع قلبه من كل شيء ..

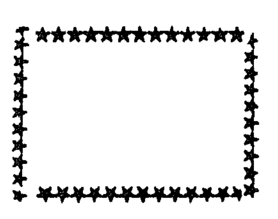
فوسوس اليه الشيطان .. ان النار .. اكلت قربان اخيك هابيل .. لأنه كان يعبدها .. فاوقد .. نارا .. تكون لك ولعقبك من بعدك .. فكان اول من بنى بيت النار (٢) .

وقال الثعلبى .. فى كتابه « قصص الأنبياء » :

وكان لقابيل .. ولد اعمى .. ولهذا الأعمى ولد .. فقال ابن الأعمى .. لأبيه : هذا ابوك قابيل يا ابى .. فرمى الأعمى اباه قابيل بسهم فقتله .. فقال ابنه له : انه ابوك .. كيف تقتله ؟ .. فلطمه فمات .. ثم قال الأعمى : ويل لى .. قتلت ربى برميتى (٣) .. وقتلت ولدى بلطمتى .

وكان الشر فى ابناء قابيل .. اتخذوا آلات اللهو . . من أنواع الطبول . . والمزامير . . والطنابير .. وانتشر فيهم شرب الخمر . . والزنا .. وعبادة النار والأوثان .. وكان من اوثانهم :

يغوث ، ويعوق ، ونسر ، وود ، وسواع ، ظلوا يعبدونها حتى أتاهم نوح بعد جده ادريس ـ عليه السلام ـ



(١) القرطبى ٣٠ / المائدة .

(٣) اى ابى .

(٢) القرطبى ٣٠ / المائدة .

١٠ وفاة آدم

مرض آدم .. قبل موته .. فأوصى الى ابنه شيث .. وكان شيث هو وارث النبوة عن ابيه آدم - حتى ورثها الى ادريس .. الذى ورثها أبنه متوشالح .. ثم لامك .. ومنه الى نوح - عليهم جميعا الصلاة والسلام -

مات آدم - عليه السلام - فى سن تسعمائة وثلاثين عاما .

على ما جاء فى التوراه ..

وقيل : لما كان الطوفان .. حمل نوح تابوت جده آدم معه فى السفينة .. وبعد الطوفان .. دفنه فى مكان بيت المقدس (١) .

* * *

وتتابع الحياة الدنيا .. حيث نلتقى ان شاء الله .. بالاقوام قوما بعد قوم .. وجيلا اثر جيل .. ورسولا تلو رسول .. حيث يقوم الصراع بين الخير والشر .. والحق والباطل .. لنرى كيف يكون النصر دائما للحق « ونقذف بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق » .

ومن حقنا الآن .. ان ننتقل الى أول رسول .. قبل نوح .. وهو نبى الله ادريس .. لنحلق معه فى عالم الفضاء ..

(* *)

---

(١) الثعلبى - والكشاف - والقرطبى ٣٧ / هود .

بسم الله الرحمن الرحيم

« واذكر فى الكتاب ادريس انه كان صديقا نبيا
ورفعناه مكانا عليا »

« صدق الله العظيم »

من نبأ إدريس
أول راكب لسفن الفضاء

١ من هـو .. ؟

هو ادريس بن يادر بن مهلائيل بن قينان بن انوش ابن شيث بن آدم .. وامه اسمها آشوت واسمه فى التوراه اخنوخ .. او .. خنوخ ..

وفى مصر .. اسمه .. هرمس الهرامسة ـ اى حكيم الحكماء ـ

وقيل سمى ادريسا .. لكثرة درسه الكتب .. ودرسه صحف آدم وشيث ـ وان كان هذا التعليل للاسم .. لم يوافق عليه صاحب تفسير الكشاف ..

***

وقد اختلف الحكماء .. فى مولده .. فقال بعضهم .. انه ولد بمصر .. وسموه هرمس الهرامسة .. وان مولده بمنف وقالوا : ان معلمه « اغثاذيمون » .. ولم يذكروا لنا .. من يكون « اغثاذيمون » هذا الا أنهم قالوا عنه كان أحد الأنبياء اليونانيين او المصريين .. وسموه أيضا « أورين الثانى » وادريس عندهم .. هو « أورين الثالث » .

وقالوا أن هرمس .. خرج من مصر .. وجاب الأرض كلها .. ثم عاد اليها .. ورفعه الله اليه من مصر .. بعد اثنتين وثمانين سنة من عمره .

وقال بعض آخر .. وهو مانميل اليه .. ان ادريس .. ولد ببابل ونشأ بها واخذ من صباه .. يضرب فى جميع نواحى العلوم الكونية .. درس علم شيث بن آدم .. وهو جد جد أبيه (١) .

وقد روى عن ابى ذر الغفارى قال :

قلت لرسول الله .. كم كتابا .. أنزل الله تعالى ؟ .. قال : « مائة صحيفة واربعة كتب .. انزل الله على آدم عشر صحائف .. وعلى شيث خمسين صحيفة .. وعلى ادريس ثلاثين صحيفة وعلى ابراهيم عشر صحائف وانزل التوراه والزبور والانجيل والفرقان (٢) » .

***

وادريس ـ عليه السلام ـ هو اول من خط بالقلم .. واول من خاط الثياب .. ولبس المخيط .. واول من افاض الله عليه فى علوم النجوم والحساب .. ورصد الكواكب ..

ويقول الحافظ بن كثير .. فى البداية والنهاية :

ان ادريس .. هو اول نبى بعد آدم وشيث .. عليهم الصلاة والسلام .

كما ذكر الشهرستانى : أن « اغثاذيمون » هو شيث ـ عليه السلام ـ

***

شب ادريس فى بابل .. على عبادة الله تعالى .. وكان رجلا آدم .. تام القامة .. اجلح ـ حسن الوجه .. كث اللحية .. مليح الشمائل والتخاطيط ـ تام الباع .. عريض المنكبين .. ضخم العظام .. قليل اللحم .. براق العينين .. أكحلهما .. متأنيا فى كلامه .. كثير الصمت .. ساكن الأعضاء .. اذا مشى اكثر نظره الى الأرض .. كثير الفكرة ، به عبسة .. اذا اغتاظ احتد .. يحرك سبابته اذا تكلم (٣) .

---

(١) من قصص الأنبياء للنجار .

(٢) من قصص الانبياء للثعلبى .. والكشاف ١٩ سورة الاعلى .

(٣) من كتاب تاريخ الحكماء .. مختصر الزوزنى .

٢ من بابل إلى بابليون

ظل ادريس – عليه السلام – يدعو اهل بابل .. الى عبادة الله وحده .. ونهى المفسدين من بني آدم .. عن مخالفة شريعة آدم وشيث .. فلم يستجب له الا القليل ..

فعزم على الهجـــرة الى الغرب .. واخبر تابعيه .. بما عزم عليه .. ولكن شق عليهم الرحيل عن ديارهم .. وقالوا له : وهل نجد فى الارض مثل بابل ؟ ..

وكلمة بابل فى لغتهم .. بمعنى (النهر) .. ولعلهم يقصدون بهذا « نهر دجلة والفرات » .. فقال لهم : عسى ان رحلنا فى سبيل الله .. ان يرزقنا نهرا غيره .. فخرجوا معه ..

* * *

ولما اشرفوا على اقليم مصر .. وراوا النيل .. خاليا من السكان .. كثير الخيرات .. وقف ادريس .. على شاطىء النيل .. وسبح الله .. وحمده على اكرامه .. وقال لمن معه « بابليون» وكلمة « يون » فى لغتهم .. مثل افعل للتفضيل .. فى لغة العرب .. فكانه يقول لهم : هذا نهر اكبر وافضل من النهر الذى تركناه ..

* * *

فسمى هذا الاقليم .. عنـد جميع الامم « بابل يون » الا العرب فانهم يسمونه « اقليم مصر » نسبة الى « مصراى » بن حام بن نوح .. الذى نزل به بعد الطوفان ..

* * *

واقام ادريس .. بصعيد مصر الاعلى .. فى قصر أنس الوجود (١) يدعو الناس الى الأمـر بالمعروف .. والنهى عن المنكر .. وتخليص النفوس من العذاب .. فى الآخرة .. بالعمل الصالح فى الدنيا .. والحكم بالعدل .. وامرهم بصلوات ذكرها لهم .. وأمرهم بصيام أيام معروفة .. من كل شهر .. وحثهم على الجهاد ضد اعداء الدين .. وأمرهم بزكاة الأموال .. معونة للفقراء والضعفاء .. وشدد عليهم فى الطهارة .. من الجنابة .. وحرم لحم الحمار والكلب (٢) وحرم المسكر .. من كل شيء من المشروبات .. وشدد فى هذا اعظم تشديد ..

وجعل لهم قربانات .. منها : لدخول الشمس رءوس البروج .. ومنها لرؤية الهلال .. ومنها لدخول الكواكب فى بيوتها وشرفها .. ومناظرتها للكواكب الأخرى .. وجعل لهم أعيادا كثيرة فى اوقات معروفة .

* * *

علمه الله جميع اللغات .. فخاطب كل فرقة بلغتها .. ورسم للناس تمدين المدن .. واجتمع حوله .. طالبوا العلم من كل المدن والبلاد .. فعرفهم السياسة المدنية .. وقرر لهم قواعدها فبنت كل فرقة .. من الامم .. مدنا فى ارضها .. وكانت عدة المدن .. التى انشئت فى عهده .. مائة وثمانيا وثمانين مدينة .. أصغرها : مدينة الرها (٣) – وعلمهم العلوم .

استخرج الحكمة .. وعلم النجوم ..

---

(١) اقدم اثر تاريخى فى صعيد مصر الاعلى .

(٢) من كتاب « تاريخ الحكماء » .

(٣) من قصص الانبياء للنجار .

فان الله ــ سبحانه ــ افهمه اسرار الفلك .. وتركيبه .. ونقط اجتماع الكواكب فيه .. واقترانها .. وتقابلها .. وافهمه عدد السنين والحساب ..

ولولا ان الله ــ سبحانه ــ عز وجل ــ ارسل على يدى رسوله ــ ادريس ــ عليه السلام ــ أصول هذه العلوم العلوية .. لما وصلت البشرية الى استقراء تلك الخواطر .. ولما هبط الانسان على سطح الكواكب الأخرى .

وجاء فى كتاب تاريخ الحكماء .. وهو مختصر الزوزنى ــ لجمال الدين ابى الحسن على بن يوسف القفطى :

وقسم ادريس الأرض اربعة اقسام ، وجعل على كل ربع ملكا يسوس امر الجزء المعمور منه ...

والملوك الاربعة هم :

الأول : « ايلاوس » ..

الثانى : « زوس » ..

الثالث : « اسقلبيوس » ..

والرابع : « زوس آمون » .. وهو آمون الملك ..

وكان اسقلبيوس .. اقوى الملوك عزما .. فانه اجتهد لحفظ الكلمة .. وقوانين الشريعة الادريسية .. وحزن لرفع ادريس .. من بين اظهرهم .. وصور صورته .. وصور رفعه فى الهياكل ..

وكان اسقلبيوس هذا .. ملكا فى الجهة التى ملكها اليونان بعد الطوفان .. فوجدوا صورة ادريس ورفعه .. وعلموا علو قدر اسقلبيوس .. وتدوينه الحكم لهم .. فى الهياكل التى افسدها الطوفان .. فظنوا خطأ .. ان اسقلبيوس هو الذى ارتفع .. الى السماء .. ا هـ ــ

* * *

كما جاء فى الصفحة ٣٤٨ .. من كتاب تاريخ الحكماء .. فى ترجمة « هرمس الثالث » بالنص :

زعم جماعة من العلماء .. ان جميع العلوم التى ظهرت قبل الطوفان .. انما صدرت عن هرمس الاول .. الساكن بصعيد مصر الأعلى .. وهو الذى يسميه العبرانيون .. خنوخ النبى .. ابن يارد ، بن مهلائيل ، بن قينان ، بن أنوش ، بن شيث ، ابن آدم ــ عليه السلام ــ وهو أول من تكلم فى الجواهر العلوية .. والحركات النجومية وأول من بنى الهياكل .. ومجد الله فيها .. واول من نظر فى علم الطب .. والف لأهل زمانه قصائد موزونة .. فى الأشياء الارضية والسماوية .. وقالوا عنه انه اول من انذر بالطوفان .. ورأى ان آفة سماوية .. تلتحف الأرض .. من الماء والنار .. فخاف ذهاب العلم .. ودروس الصنائع .. فبنى الاهرام .. والبرابى .. فى صعيد مصر الأعلى .. وصور عليها جميع الصناعات .. والآلات .. ورسم فيها .. صفات العلوم .. حرصا منه .. على تخلدها لمن بعده .. خيفة ان يذهب رسمها من العالم ــ ا هـ ــ

* * *

وبالتأمل فيما ذكرنا .. من كتاب تاريخ الحكماء .. حول ادريس عليه السلام ــ نجد نقاطا .. نركزها فيما يلى :

اولا : أن هرمس الاول ــ ادريس ــ عليه السلام ــ كان مقامه بصعيد مصر الاعلى .. وانه هو الذى يسميه العبرانيون .. خنوخ النبى .. فى التوراة ..

ثانيا ــ انه اول من تكلم فى علم الفلك والنجوم والحساب .. وأول من نظر فى الجواهر العلوية.

ثالثا ــ انه نظم الحكم فى الارض .. وقسم المعمور .. وشيد المدائن .

رابعا ــ تنبأ بحدوث طوفان يشمل الأرض كلها .. ويهلك ما فوق سطحها .. وهذا هو الذى دفعه الى تسجيل العلوم .. ورسمها على الاهرامات .. خوفا عليها من الضياع ..

خامسا ــ رأى اليونانيون صورة ادريس ورفعه .. وظنوا خطأ .. ان اسقلبيوس ــ

الذى كان يحكم منطقة اليونان .. بتكليف من ادريس .. ظنوا أن اسقلبيوس هو الذى رفع الى السماء ..

وسنرى ان شاء الله كيف رفع ادريس .. من الصور التى سجلها اسقلبيوس على هياكل اليونان .. تلك الصور التى اوقعتهم فى هذا الخطأ ..

ولكن قبل ان ندخل فى هذا البحث الغريب .. نرى أن نستقرىء التاريخ .. لنعلم .. هل كان ادريس احد بناة الاهرامات ؟ وهل كان — كما يقول البعض — احد ملوك الاسر التى حكمت مصر .. وحدثنا عنها التاريخ .. بأنها كانت ثلاثين اسرة ؟ فنجد فى موسوعة تاريخ العالم « التى اصدرها وليم لانجر » ونشرتها مؤسسة فرانكلين .. فى صفحة ٤٦ من الجزء الأول : حول سنة ٢٩٠٠ — ٢٧٠٠ قبل الميلاد .. قامت الاسرتان الأولى والثانية .. وكانت طيبة«عاصمة مصر .. وفى هاتين الاسرتين توحدت المملكتان .. مصر العليا .. ومصر السفلى .. تحت حكم مينا واخلافه .. والمقصود باخلافه : زوسر مؤسس الاسرة الثالثة .. سنة ٢٧٠٠ — ٢٦٥٠ ق.م .. ومن بعده خوفو وخفرع ومنكاورع .. وظهرت أول نصوص الاهرامات فى عهد أوناس آخر ملوك الاسرة الخامسة سنة ٢٥٠٠ قبل الميلاد — ا.هـ .

ومن هذا نفهم ان ادريس — عليه السلام — كان قبل نظام الاسر .. فهو الذى بدأ الحياة والعمران فى وادى النيل .. حيث لم تكن فى الوادى مملكة فى الجنوب .. ومملكة فى الشمال .. وحد بينهما مينا فى الاسرتين الاولى والثانية .. ولكن حدث هذا بعد ادريس بزمن كبير .

والتاريخ محدود .. فتذكر لنا موسوعة تاريخ العالم ص ٤٧ جـ ١ .. أن اعظم المصادر التاريخية القديمة .. هى حجر بالرمو « وهو حجر به تاريخ كتب فى الأسرة الخامسة .. وبردية تورين » .. وبها قائمة بأسماء الملوك .. مقسمة الى اسرات .. وترجع كتابة هذه البردية الى الأسرة التاسعة عشر .. وتسجل ٩٥٥ عاما للاسرات الثمان الاولى .. وتعطى المادة الموجودة فيها .. تاريخا دقيقا الى حد ما .. مبنيا على حساب الموتى .. وعلى معلومات فلكية للعصر الذى يلى عام ٢٠٠٠ ق.م. أما التواريخ السابقة حيثما وجدت .. فليست مؤكدة ..

غير أن التاريخ يؤكد لنا .. أن هناك رسوما وصورا .. اكتشفت فى نهاية الاسرة السادسة . حول سنة ٢٠٠٠ ق.م .. على الاهرامات والهياكل سواء كانت هذه الاهرامات والهياكل من صنع صاحب الرسوم والصور .. او من صنع تلاميذه وولاته .. مثل اسقلبيوس الذى سجل رفع ادريس بصور .. على هياكل اليونان التى خربها الطوفان .. كما تقرر الموسوعة التاريخية فى ص ٤٦ جـ١ ما نصه :

فى نصوص الاهرامات .. التى ظهرت فى الاسرتين الخامسة والسادسة : يبحر الملك فى السماء .. فى سفينة رع .. فما هو موضوع هذه السفينة .. سفينة رع .. التى ابحر فيها الملك .. وتحدثت عنها الاثار وسجلها التاريخ ؟.

الله

٣ إدريس يغزو الفضاء

لم يذكر ادريس « فى القرآن الكريم .. الا فى آيتين !

الأولى : « واذكر فى الكتاب ادريس انه كان صديقا نبيا ورفعناه مكانا عليا * » « ٥٦/٥٧/مريم » .

والثانية : « واسماعيل وادريس وذا الكفل، كل من الصابرين » ٨٥ الانبياء .

وتقول التوراة : سار اخنوخ مع الله .. ولم يوجد .. لأن الله اخذه ـ وذلك فى الاصحاح الخامس .. من سفر التكوين .. واليك نص عبارة التوراة :

٢١ ـ وعاش اخنوخ خمسا وستين سنة وولد متوشالح .

٢٢ ـ وسار اخنوخ مع الله بعد ماولد متوشالح ثلاثمائة سنة وولد بنين وبنات .

٢٣ ـ فكانت كل أيام اخنوخ ثلاثمائة وخمسا وستين سنة .

٢٤ ـ وسار أخنوخ مع الله ولم يوجد لأن الله أخذه (١) .

كما جاء فى الصحيحين .. فى حديث الاسراء .. ان رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ مر بادريس فى السماء الرابعة (٢) .

* * *

وقد اورد ابن اسحاق الثعلبى .. رواية حول ادريس ـ عليه السلام ـ لطولها نوجزها فيما يلى :

كان يرفع لادريس كل يوم من العبادة .. مثل ما يرفع لأهل الأرض جميعا .. فاشتاق ملك الموت لرؤيته .. فاستأذن الله فى ذلك .. فاذن له .. فأتاه فى صورة آدمى .. وبقى ضيفا .. عند ادريس .. ثلاثة أيام .. لا يأكل فيها .. فساله ادريس عن نفسه .. فقال له : انا ملك الموت . فطلب منه أن يقبض روحه ساعة .. ليذوق كرب الموت .. ففعل بعد اذن الله له .. ثم قال له ادريس .. بعد عودة الروح اليه : ارفعنى الى السماء .. لأرى الجنة .. فرفعه ولما مر بالنار ـ قبل وصوله الى الجنة .. طلب دخول النار .. فدخلها .. ثم خرج منها .. ودخل الجنة .. وامتنع عن الخروج منها .. والعودة الى الأرض .. قائلا : الله يقول عن الموت « كل نفس ذائقة الموت » .. وقد ذقته .. ويقول عن النار « وان منكم الا واردها » .. وقد وردتها .. ويقول عن الجنة .. وما هم منها بمخرجين » وأنا لست بخارج منها ..

فأوحى الله ـ عز وجل ـ الى ملك الموت .. أن « دعه فانه دخل الجنة باذنى .. وباذنى لا يخرج » ـ أ.هـ ـ كما روى عن ابن عباس وغيره فى تفسير « ورفعناه مكانا عليا » ٥٧/مريم روايات تقرب من تلك الرواية ..

وما دمنا قد ذكرنا ابن عباس ـ رضى الله عنه فليسمح لى القارىء الكريم .. أن نجول معا جولة قصيرة .. بين صفحات كتب التفسير

---

(١) سفر التكوين ـ الاصحاح الخامس ٢١ ـ ٢٤ .

(٢) من تفسيرى : النسفى ، والحافظ بن كثير ـ ٥٧/مريم .

لنستنشق سويا .. عبير نبي الله ادريس — عليه السلام — ونرى ما قاله أئمتنا .. من أولى العلم .. حوله ..

فنجد ان صاحب تفسير النسفى .. ذكر رواية .. هي رواية الثعلبى .. التي ذكرناها .. ولكن الشيخ أوجزها جدا .. فذكر .. ان الله رفعه الى السماء الرابعة — وقد راه — صلى الله عليه وسلم — فيها ليلة المعراج .. ثم ذكر عن الحسن انه قال . رفعه الله الى الجنة .. لا شيء أعلى من الجنة يقصد قوله تعالى « ورفعناه مكانا عليا » .. وذلك انه حبب لكثرة عبادته الى الملائكة .. فقال لملك الموت : اذقنى الموت يهن على .. ففعل ذلك باذن الله .. ثم حيى .. ثم قال له : أدخلنى النار .. ازدد رهبة .. ففعل .. ثم قال له ادخلنى الجنة .. ازدد رغبة .. ثم قال له : اخرج .. فقال : قد ذقت الموت .. ووردت النار .. فما أنا بخارج من الجنة .. فقال الله عز وجل : باذنى فعل .. وباذنى دخل .. فدعه »(١) .

ونحن نرى الآن ان الوقائع فى رواية النسفى تتفق مع رواية ابن اسحاق الثعلبى عن ابن عباس وغيره ..

❋ ❋ ❋

ويصل بنا البحث الى الحافظ بن كثير فى تفسيره .. فنجد رواية عن كعب الأحبار .. لما سأله ابن عباس .. عن رفع ادريس .. وهى رواية اشد غرابة من رواية الثعلبى والنسفى

ولكنه فى نهايتها .. قال : ان فى بعضها نكارة .. ثم ذكر عن ابن عباس : أن ادريس كان خياطا .. فكان لا يغرز ابرة الا وقال : « سبحان الله » فكان يمسى حين يمسى .. وليس فى الأرض احد أفضل عملا منه ..

وقال : ان ادريس .. رفع ولم يمت .. كما رفع عيسى .. كما ذكر أيضا رأى الحسن .. بأنه رفع الى الجنة .. لا شيء أعلى من الجنة (٢) يقصد قول الله تبارك وتعالى « ورفعناه مكانا عليا » ..

ونشرع الخطى الى تفسير الكشاف :

وقد ذكر أن الله تعالى أنزل على ادريس ثلاثين صحيفة .. وانه أول من خط بالقلم .. ونظر فى علم النجوم والحساب .. وأول من خاط الثياب .. ولبسها .. وكانوا يلبسون الجلود .

وقال عن أنس بن مالك : ان الله رفعه الى السماء الرابعة وعن ابن عباس .. السادسة .. وذكر أيضا رواية الحسن .. لا شيء أعلى من الجنة (٣) .. ورواية الحسن هذه .. وردت أيضا فى تفسير الطبرى .. وأما البيضاوى .. فقد اكتفى .. بأن قال : رفع ادريس الى السماء السادسة .. أو الرابعة (٤) .

❋ ❋ ❋

ويكفينا الآن .. تلك الجولة السريعة بين ارجاء التفاسير .. حول هذا الموضوع .. ولنا فيها ان شاء الله جولات سريعة ... ولعلنا خرجنا من تلك الجولة ... بما يشبه الاجماع على أن ادريس عليه السلام ... قد رفع الى السماء ... بطريقة ما .. حتى ان بعض المفسرين قالوا : انه الآن ينعم بنعيم الجنة ... ويعبد الله أحيانا فى السماء السادسة .. أو الرابعة .. الا ان بعض المفسرين تحرز فى تفسير « ورفعناه مكانا عليا » .. فبعد ان قرروا انه حى فى السماء السادسة ... أو الرابعة .. عاد بعضهم ... ورجح أنه رفع الذكر .. وعلو المكانة ...

ونحن نلتمس لهؤلاء العذر فى ترددهم ... ووقوفهم عند هذا الحد من التفسير ...

فلم يكن احد يتصور فى زمانهم .. ان انسانا يستطيع غزو الفضاء اللانهائى ... أو النزول على سطح القمر ... أو ارسال سفن الى كوكب المريخ .. وكوكب الزهرة .. وقد ينزل قريبا انسان عليهما .. وعلى غيرهما من الكواكب ... التى أصبح الوصول اليها فى نطاق الامكان .

ورفع الذكر .. عبر الله — سبحانه — عنه .. فى قوله لرسوله محمد — صلى الله عليه وسلم — « ورفعنا لك ذكرك » . فاذا كان هو نفس المقصود بالنسبة لادريس عليه السلام .. لقال عنه : ورفعنا له ذكره ... ولكنه تعالى يقول : « ورفعناه » .. وظاهر النص هنا .. رفعناه هو : ولقد شكك الحافظ بن كثير .. فى تفسيره .. فى أن ما ورد عن رفعه الى السماء .. قد يكون من الاسرائيليات ... وهذا قول مردود عقلا ... ونقلا .

لأننا نعلم الدسيس الاسرائيلى دائما يطعن فى عصمة الأنبياء .. ويوقفهم مواقف الاتهام ... مثل ما قالوه ... عن يوسف —

(١) النسفى ٥٧ / مريم .
(٣) الكشاف ٥٧ / مريم .

(٢) تفسير ابن كثير ٥٧ / مريم .
(٤) البيضاوى ٥٧ / مريم .

عليه السلام ـ من انه جلس من امراة العزيز .. مجلس الرجل من زوجته .. وانه زجر عن ذلك مرارا فلم يزد جر ... لولا أن ضربه ابوه يعقوب فى ظهره ضربة . اخرجت الشهوة من أظافر رجليه ... وهذا مذكور .. فى كثير ... من امهات كتب التفسير ... فجعلوا يوسف عليه السلام ... فى درجة افسق الفسقة ... وافجر الفجرة ... بل وصوروه فى هذا الموقف بصورة ... يندى لها جبين الفسق والفجور ... فضلا عن جبين الايمان (١) ..

وكما زعموا ايضا .. عن نبى الله ـ داود عليه السلام ـ أنه راى زوجة قائده أوريا .. على سطح بيتها تستحم .. فاعجبه جسمها ولما احست به ... ارسلت شعرها .. الذى فطى جميع جسمها ... فازداد هياما بها .. وارسل زوجها الى ميدان القتال .. وعمل على قتله .. ثم تزوج بها ...

وكلها جنايات تكفى اقلها .. للهبوط بالانسان العادى من اعلى عليين ... الى أسفل سافلين .. فما بالك بنبى الله داود (٢) ...

مثل هذا .. هو الدسيس الاسرائيلى .. وهو كثير وكثير فى اغلب كتب التفسير ...

اما رفع نبى الله ادريس الى السماء ... فهذا تكريم له ... وتشريف لقدره .. وليس هذا من طبع الاسرائيليين حيال الأنبياء والمرسلين ...

كل المراجع اثبتت بما لا يقبل الشك ـ حول ادريس ثلاث حقائق :

الحقيقة الأولى : ان ادريس ـ عليه السلام ـ كان يرفع له كل يوم من العمل الصالح .. مثل جميع أهل الأرض فى زمانه ... حتى احبته الملائكة ...

والحقيقة الثانية : أن ادريس رفع الى السماء بطريقة ما ...

اما الحقيقة الثالثة : فهى الاجماع التام على انه .. اول عالم فى الجواهر العلوية ... واستخراج الحكمة ... وعلم النجوم ... والفلك ... والحساب ... ورصد الكواكب ...

افهمه الله اسرار الفلك ... وتركيبه ... ونقط اجتماع الكواكب فيه .. واقترانها ... وتقابلها ... وافهمه عدد السنين والحساب وقرر كتاب تاريخ الحكماء ... أنه لولا .. ان الله ـ عز وجل ـ ارسل على يدى هرمس الهرامسه (٣) ـ ادريس ـ عليه السلام ـ اصول هذه العلوم العلوية .. لما وصلت البشرية الى ما وصلت اليه ... من استقراء تلك الخواطر ..

ونحن نضيف الى هذه العبارة ... ولما هبط الانسان على سطح الكواكب الأخرى ..

ولله دائما فى خلقة شئون ... لاثبات قدرته .. من جميع زوايا الامكان ...

فمثلا .. لماذا خلق الله ـ سبحانه ـ عيسى بن مريم ـ عليهما السلام ـ بدون اب ؟ .. هل يريد ـ جل وعلا ـ ان يضع الخلائق فى متاهات الشك .. وبيداء الشرك ؟ كلا والله وانما هى ابراز للقدرة من جميع الوجوه ... ومن كافة الاحتمالات العقلية ...

فقد خلق قبل عيسى ـ عليه السلام ـ انسانا بغير اب ولا أم وهو آدم ـ عليه السلام .

ونظيره .. خلق انسانا .. بأب وأم ... مثلى ومثلك ... كما خلق انسانا بأب من غير ام ... وهى حواء (٤) فلزم لكمال القدرة ... ان يخلق انسانا من أم بغير أب فكان هذا الأخير .. هو عيسى ـ عليه السلام ـ واراد أيضا .. ان يخرج ادريس من الدنيا .. بطريقة خاصة .. غير الطريقة التى يخرج بها الناس جميعا .. وهو ـ سبحانه ـ لا يسال عما يفعل ...

لقد عبد ادريس ربه .. حتى شف جسمه .. ولم يعد للجسم سلطان على الروح .. فصنع لنفسه زورقا ... صاروخيا من الذهب .. أنساب به ... فى شعاع من أشعة الشمس المنبسطة على سطح النيل .. وكان معبده فى وسط النيل عند أسوان ... وانطلق بزورقه الصاروخى هذا ... لحظة شروق الشمس .. بعد عمليات من الحساب الفلكى .. وبعد الرصد لكوكب الشمس .. فى نقطة ولحظة .. يتم فيها اقتران كوكبى الشمس والأرض .. ورفعه الله اليه ...

ومن شهور قليلة ... قراته .. فى جريدة الاهرام ... بحثا بقلم الأستاذ « أنيس منصور » فى سلسلة مقالات : « الذين هبطوا من السماء » ومما جاء فيه ...

---

(١) نقد هذا الموضوع باسهاب .. فى كتابنا ـ من نبا يوسف .

(٢) نقد هذا الموضوع باسهاب .. فى كتابنا ـ من نبا داود .

(٣) اى حكيم الحكماء .

(٤) حواء من ضلع من آدم .

لم يكن احـد يعلم ان لنبى الله ادريس .. اسرارا واسفارا الا فى عام ١٧٧٦ ... عندما عثر بحار اسكتلندى .. اسمه « بروس » على نسخة لأسرار النبى اخنوخ ... وجـدها فى الحبشة ...

وبعد ذلك بمـائه عام عثروا على نسخـة احرى لأسرار اخنوخ فى يوغوسلافيا ...

وهذه الكتب جاءت مترجمة ... من نصوص عبريه او يونانية ... او حبشيه ..

وهذه الأسفار بها ١٠٨ فصول ...

تتحدث عن الجنة والنار ... ويوم القيامه ... وعن الطـوفان الذى سوف يغرق العـلم كله ...

وفى الفصول من ١٧ الى ٣٦ من هـذه الاسفار .. يتحدث ادريس ... عن رحلتـه .. الى العوالم الأخرى ..

فوصف الكواكب ... ودوران الشمس .. والقمر .. والأرض ومن العجيب .. انه تحدث عن المـدارات ... غير الدائرية للكواكب وعن درجات الحرارة .. وعن تتابع الألوان ... عن قرب وعن بعد ...

وفى الفصـل الرابـع عشر ... يقـول اخنـوخ ...

وادخلونى ... فى السماء ... من حائط شفاف ... محـاط بالنـار .. والشرار .. ودخلت هـذا الجسم الهـائل اللامع الذى ارتفـع بى .

ونحن مازلنا مع الاسـتاذ انيس منصور يحكى لنا ما قراه فى اسفار اخنوخ فيقول :

وفى هذه الأسـفار .. وصف غريب .. وعجيب للسفينة التى نقلتـه مرة اخرى الى السـماء ...

ثم قال : لم يمت ادريس .. وانمـا صعد الى السماء .. ولم يعد ..

وقبل ان يختفى ... فى الملكوت الأعلى ... نصح ابنه متوشالح قائلا :

وهكذا أروى لك ياولـدى .. كل اسرار الدنيا .. فى هذه الأسفار ... وقد كشفت لك ... عن كل شيء .. فاحفظها عنى .. واعطها لأولادك من بعدك ـ ا هـ ..

ويقال ان نوحا ـ عليه السـلام ـ حفيد متوشالح ـ قـد حمـل معه فى السـفينة .. اسرار اسـفار اخنوخ ـ ادريس ـ مع تابوت جـده آدم .. كما ذكرنا فى نبـا آدم ـ عليه السـلام .

وقد اتضح الآن .. الاجماع التام ... على رفع ادريس ـ عليه السـلام ـ فى راى الدين ... والعـلم .. والآثار والتاريخ .. بل وفى التوراه ايضا كما راينا من قبل ...

وقد أورد القرطبى فى تفسـيره حول معنى قوله تعالى « وان الياس لمن المرسلين » ١٢٣ / الصافات .. ان ابن مسعود قال : اسرائيل هو يعقوب ... والياس هو ادريس ... ثم قال :

قطع الله على الياس « ادريس » لذه المطعم والمشرب .. وكساه الريش .. والبسـه النور .. فصار مع الملائكة .. فكان انسيا ملكيا .. ارضيا سماويا ...

كما ذكر عن ابن قتيبـه : حول معنى الآيه المذكوره : ان الله تعالى قال لاليـاس :

« سلنى اعطك » قال : ترفعنى اليك ... فصار يطير مع الملائكة ... كما ان القرطبى ذكر روايه عن انس ... اذكرها للقـارىء .. للعلم بما قيل حول هذا الموضوع :

قال انس : غزونا مع رسـول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى اذا كنا بفج النـاقه .. عنـد الحجر ـ حجر ثمود ـ اذا نحن بصوت يقول : اللهم اجعلنى من امة محمـد المرحومة : المغفور لها ... المتوب عليها ... المستجاب لها ... فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « يا انس .. انظر ما هـذا الصوت » ؟ .. فدخلت الجبـل ... فاذا أنا برجل .. ابيض اللحيه والرأس .. عليه ثياب بيض ... طوله اكثر من ثلثمائة ذراع ... فلما نظر الى قال : انت رسول النبى ؟ ... قلت : نعم ... قال : ارجع اليه ... فأقرئه منى السـلام ... وقل له : هذا اخوك اليـاس ... يريد لقاءك ... فجاء النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وانا معه ... حتى اذا كان قريبا منه ... تقدم النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وتأخرت .. فتحـدثا طويلا ... فنزل عليهمـا شيء من السماء ... شبه السفرة ... فدعوانى ... فأكلت معهما ... فاذا فيهـا كمأة (١) ورمان وكرفس ... فلمـا اكلت ... قمت فتنحيت ... وجاءت سـحابة ... فاحتملته ... فاذا أنا انظـر الى بياض ثيـابه فى السحابة ... فقلت للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأبى انت وامى ـ هـذا الطعام الذى اكلنـا ... أمن السماء نزل ؟ .. فقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ « سألته عنـه .. فقال : يأتينى به جبريل فى كل اربعين يوما اكلة ... وفى كل حول شربة من ماء زمزم ... وربما رأيته على الجب ... يملأ بالدلو فيشرب ... وربما سقانى » (٢) ...

(١) الكماة نوع يؤكل نيئا من الأرض بلا ورق ولا زهر .. بل قطع كالقلقاس .

(٢) القرطبى ١٢٣ / الصافات .

٤ التبشير بمحمد

وعد ادريس ـ عليه السلام ـ اهل ملته ... بأنبيـاء يأتون من بعده .. وعرفهم صفة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قائلا :

« يكون بريئا من المذمات .. والآفات كلها .. كاملا فى الفضائل الممدوحات ... لا يقصر عن مسألة يسأل عنها .. مما فى الأرض والسماء .. ومما فيه دواء وشفاء من كل الم .. وان يكون مذهبه ودعوته .. المذهب الذى يصلح به العالم ..

وكان على فص خاتم ادريس « الصبر مع الايمان بالله يورث الظفر » ...

وعلى المنطقة .. التى يلبسها « الاعياد فى حفظ الفروض والشريعة فى تمام الدين ... وتمام الدين كمال المروءة » وعلى المنطقة التى يلبسها .. وقت الصلاة على الميت :

« السعيد من نظر لنفسه ، وشفاعته عند ربه أعماله الصالحة » .

وله مواعظ وآداب ... منها :

لن يستطيع احد ان يشكر الله على نعمه .. بمثل الانعام على خلقه ...

وقال : من اراد بلوغ العلم ... وصالح العمل ... فليترك من يده أداة الجهل ...

وسىء العمل .. كما ترى الصانع الذى يعرف الصنائع كلها ... اذا أراد الخياطة ... أخذ آلتها ... وترك آلة النجارة .. فحب الدنيا والآخرة ... لا يجتمعان فى قلب أبدا ...

وقال : خير الدنيا حسرة ... وشرها ندم .

وقال : اذا دعوتم الله ـ سبحانه ـ فاخلصوا النية ... وكذا الصيام والصلوات فافعلوا ...

وقال : لا تحلفوا كاذبين ... ولا تهجموا على الله ـ سبحانه ـ باليمين .. ولا تحلفوا الكاذبين ... فتشاركوهم فى الاثم .

وقال : تجنبوا المكاسب الدنيئة .

وقال : اطيعوا ملوككم .. واخضعوا لاكابركم ... واملاءوا أفواهكم بحمد الله .

وقال : حياة النفس الحكمة .

وقال : لا تحسدوا الناس ... على مؤاتاه الحظ .. فان استمتاعهم به قليل .

وقال : من تجاوز الكفاف .. لم يغنه شىء .

بسم الله الرحمن الرحيم

« وجعلنا ذريته هم الباقين ، وتركنا عليه فى الآخرين

سلام على نوح فى العالمين »

« صدق الله العظيم »

من نبأ نوح
آدم الثانى

[١] مقدمـــة

انقسم ابناء آدم وذريته ... الى بطنين :

بطن يسكن السهل ... والآخـــر يسكن الجبل ...

وكان رجال الجبل فى وجوههم .. صباحة وجمـــال .. وفى نسائهم دمامة ... بينما فى وجوه نســـاء السهل صباحـــة ، وفى الرجال دمامـــة ...

وكان ســـكان السهل ... هم بنو قابيل « القاتل الأول » .

أما ســـكان الجبل ... فهم بنوشيث بن آدم « واخوته » ...

* * *

واتى ابليس رجـــلا .. من اهل الســـهل « ذرية قابيل » فى صورة غلام .. أجره الرجل ليخدمه .. واتخذ ابليس شـــيئا .. مثل الذى يزمر به الرعاة والمزمار هو مؤذن ابليس ـ كما قدمنا ـ فأحدث صوتا جميـــلا .. لم يسمع النـــاس مثله .. وبلغ ذلك من حولهم .. فأتوه مستمعين اليـــه .. واتخذوه لهم عيـــدا ... يجتمعون اليه كل سنة ...

فتبرج النساء للرجال ... وتبرج الرجال للنساء .. وعم الفساد ...

وقد روى المفسرون .. ان هذا معنى قوله تعـــالى : « ولا تبرجـــن تبرج الجاهليـــة الأولى » (١) .

وكان آدم ـ عليه الســـلام ـ قد اوصى .. الا يناكح بنوشيث بنى قابيل .. حزنا منـــه على ابنه الشهيد هابيل ... وقد جعل بنوشيث آدم فى مغارة معهم ... فى الجبل .. وجعـــلوا عليه حفاظا وحراسا .. لكيلا يقربه أحـــد من اولاد قابيل .. وكان آدم يدعو لأبنـــاء شيث ... ويستغفر لهـــم .

* * *

وبعـــد فترة من الزمن ... اتفق مائة من نسل شيث أهل الجبل .. على الهبـــوط الى السهل ... لينظروا حال ابنـــاء عمهم قابيل ... فوجـــدوا نساءهم آية فى الجمـــال ... فاحتبس النســـاء الرجال المـــائة .. ثم مكثوا ماشاء الله ...

فقـــال مائة اخـــرى ... ما لنـــا لا ننزل السهل .. لنرى ما فعل اخوتنـــا .. ونعلم ما حبسهم عنـــا ... وكما حصل لاخوتهم من قبل حصـــل لهم ايضـــا .. احتبسهم جمـــال

---

(١) جاء هذا المعنى فى تفاسير النسفى والبيضاوى والكشاف ـ ٣٣ ـ الاحزاب .

النساء .. وهكذا نزل اهل الجبل الى السهل ... فظهرت المعصية ... وتناكحوا ... واختلطوا ... وكثر بنو قابيل ... حتى ملاءوا الأرض ... واكثروا فيها الفساد .. ورفعوا راية الشر في كل مكان .. :

واتخذوا آلات اللهو ... من انواع الطبول والمزامير والطنابير ... وانتشر فيهم الزنا ... وشرب الخمر ... وطغيان القوى على الضعيف ... وعبادة النار والأوثان ...

***

وكانت أوثانهم .. كما قدمنا في نهاية ـ نبأ آدم ـ هي :ـ

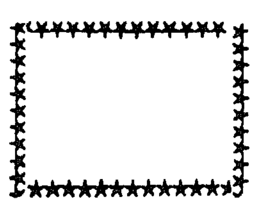
ودا ـ وسواعا ـ ويغوث ـ ويعوق ـ ونسرا ..

وكانت هذه اسماء رجال صالحين .. كانوا بين آدم ونوح ..

فلما ماتوا .. صنعوا لهم تماثيل .. تبركا بهم .. ثم عبدوها بعد طول الزمن ..

وقد انتقلت تلك العبادة .. الى العرب .. فكان ود لكلب .. وسواع لهمدان .. ويغوث لمذحج .. ويعوق لمراد .. ونسر لحمير ..

ولذلك سمت العرب .. بعبد ود .. وعبد يغوث .. (١) .



(١) الكشاف والبيضاوى ٣٢/ نوح .

٢ تعريف بنوح

هو نوح بن لامك بن متوشالح بن اخنوخ ــ واخنوخ .. هو نبى الله ادريس ، من نسل شيث بن آدم ــ عليهم السلام ــ كما بينا ذلك من قبل .

سمي نوحا لكثرة نوحه .. وخوفه من ربه .

هو أول نبى من انبياء الشريعة .. واول أولى العزم من الرسل .. واول نذير عن الشرك .. واول من عذبته امته ..

واولوا العزم من الرسل .. خمسة .. هم : محمد ــ ونوح ــ وابراهيم ــ موسى ــ وعيسى ..

تجمعهم الآية « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا .. والذى اوحينا اليك ، وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى ان اقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه » ١٣/ الشورى .

وفى حديث الشفاعة :

عن ابى هريرة .. فى صحيح مسلم « يانوح انت اول الرسل الى الأرض (١) .

وكان عليه السلام .. أطول الانبياء عمرا .. وقيل له : اكبر الانبياء .. وشيخ المرسلين .. عمر فى الأرض الفا ومائتى عام لم ينقص له سن .. ولم تضعف له قوة ..

ولم يبلغ أحد من الدعوة مثل ما بلغ ..

كان يدعو قومه .. ليلا ونهارا .. اعلانا واسرارا .. لم يلق نبى من امته .. من الأذى ما لقى ..

* * *

وقد روى أن نوحا كان يضرب .. ثم يلف فى لبد .. ثم يلقى فى بيته .. فيرون انه قد مات .. ثم يخرج .. ويدعوهم الى الله ..

وكانوا يخنقونه .. حتى يترك مغشيا عليه .. ويضربونه فى المجالس .. ويطرد منها .. ثم لا يدعو عليهم .. بل يدعو لهم .. ويقول : رب اغفر لقومى .. فانهم لا يعلمون (٢) .

* * *

كان ثانى المصطفى ــ عليهما الصلاة والسلام ــ فى الميثاق اقرا « واذ اخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وابراهيم وموسى وعيسى بن مريم » ٧/ الأحزاب .

وقد جمعت آية الميثاق هذه ــ ايضا ــ أولى العزم من الرسل فقط ..

وكان ثانى المصطفى ــ كذلك ــ فى الوحى .. اقرا :

« انا اوحينا اليك كما أوحينا الى نوح » ١٦٣/ النساء .

هو فى البعث اول من تنشق عنه الأرض .. بعد محمد ــ عليهما الصلاة والسلام ــ ..

سماه ربه شكورا .. اقرا « ذرية من حملنا مع نوح انه كان عبدا شكورا » ٣/ الاسراء .

واكرمه ربه .. بالسلامة والبركة .. « يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك » ٤٨/ هود .

وهو آدم الثانى .. لقوله تعالى « وجعلنا ذريته هم الباقين » ٧٧/ الصافات .

وقال المفسرون : جميع الخلائق الآن من نسله (٣) .

---

(١) وان صح هذا الحديث .. يكون آدم وشيث وادريس انبياء وليسوا رسلا .

(٢) القرطبى ٤٤ / هود .. والكشاف والبيضاوى ١٠ / القمر .

(٣) القرطبى والبيضاوى ٤٨ / هود .

٣ صراع فوق طاقة البشر

اختلف العلماء .. فى سن نوح .. عندما ارسله الله .. بين الخمسين .. او المائة والخمسين .. أو المائتين والخمسين ولكن المتفق عليه .. هو المدة .. التى قضاها فى الرسالة حسب النص القرآنى .. « فلبث فيهم الف سنة ، الا خمسين عاما » ١٤/ العنكبوت .

وان كان احد المفسرين .. يريد ان يقول : ان التسعمائة والخمسين عاما هذه .. هى كل عمره .. قبل الرسالة وبعدها ..

ولكن الواضح المتفق عليه .. انها مدة رسالته فقط . واوتى الرسالة وسنه مائتان وخمسون عاما .

***

بدأ يدعو قومه .. الى عبادة الله وحده .. وترك عبادة الأوثان .. التى عكفوا عليها ..

وجعل اساس دعوته .. الاستغفار ..

وظل يأمرهم بالمعروف .. وينهاهم عن المنكر .. يأمرهم بالكرم .. والصدق .. والوفاء .. والمروءة .. والنبل .. والشجاعة .. وعلو الهمة ..

وينهاهم عن الزنا .. وشرب الخمر .. والكذب .. ونقض العهد .. والبخل .. والانانية .. والخنوع .. والسجود لغير الله ظلّ يخوفهم .. عذاب الله وبطشه .. وقوته وجبروته .. ويذكرهم .. بيوم الحساب .. يوم تذهل كل مرضعة عما ارضعت .. وتضع كل ذات حمل حملها .. من شدة الفزع .. وهلع الموقف ..

***

بذل فوق ما يستطيع .. من جهد وعناء وكفاح فى دعوتهم ليلا ونهارا .. وسرا وجهارا .. ولكنهم لم يزدادوا .. الا كفرا وعنادا .. ونفورا واستكبارا .. ولم يتبعه الا قلة قليلة .. من ضعفاء القوم .. الذين لا حول لهم ولا قوة .. اعتز نوح بصحبتهم .. واصر على ملازمتهم .. فلم يزدد القوم .. الا استهزاء به .. وسخرية منه ..

وكلما مرت الأيام .. وكرت السنون .. كلما اشتد آذاهم له .. وتسليط سفهائهم عليه حتى اطلقوا عليه اسم المجنون ..

« كذبت قبلهم قوم نوح ، فكذبوا عبدنا ، وقالوا مجنون وازدجر » ٩/القمر .

قال لهم نوح « انى لكم نذير مبين ، أن لا تعبدوا الا الله انى اخاف عليكم عذاب يوم أليم » فقالوا له :

« ما نراك الا بشرا مثلنا ، وما نراك اتبعك الا الذين هم اراذلنا » طلبوا منه .. ان يطرد هؤلاء المستضعفين.. الذين اتبعوه ولكنه قال لهم باصرار « ما انا بطارد الذين آمنوا » ٢٥ — ٢٩/ هود .

وهكذا .. نرى ان شيطان الكبر .. هو اساس الكفر .. ففى كل عصور الرسالات .. نجد ان المستضعفين هم أول من يبادر الى اتباع الرسول .. أما المترفون .. المتغطرسون .. الذين اكل الكبر قلوبهم .. وقضى الحقد الأسود على آخر خيط من خيوط النور فى صدورهم .. فيقفون موقف العناد والتحدى .. وقد يكون ذلك العناد .. وهذا التحدى .. مصحوبا بيقين مكبوت فى أفئدتهم .. بصدق الرسول ..

وامانته فيما يبلغ به .. ولكنه الكبر .. والله سبحانه ـ يقول عنهم « ان فى صدورهم الاكبر ماهم ببالغيه » ٥٦/غافر .

ومن هنا نفهم .. قوله ـ عليه الصلاة والسلام فى الخبر .. لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من شرك أو كبر » .

***

ولكانى اشهد موقفا .. من مواقف نوح ـ عليه السلام ـ مع قومه .. فى صورة .. عرضتها سورة نوح ..

فهاهو واقف بين ملأ من قومه .. وقد اجتمعوا حوله رجالا ونساء .. شيبا وشبابا .. صبية واطفالا .. رجالا ونساء .. وقد تجمعوا للسخرية منه .. والاستهزاء به ..

قال : يا قوم « استغفروا ربكم .. انه كان غفارا » .

قالوا : وماذا لنا عند ربك يانوح .. لو استغفرناه ؟

قال : « يرسل السماء عليكم مدرارا » .

قالوا : وماذا ايضا غير المطر ؟

قال : « ويمددكم باموال وبنين » .

قالوا : ثم ماذا غير الأموال والبنين ؟

قال : « ويجعل لكم جنات » ..

قالوا : ثم ماذا ؟ .. قالوها .. وهم يتضاحكون .

قال : ويجعل لكم انهارا .

فينبرى له شاب من سفهائهم .. ويأتى بحركة وقحة .. فيها كل الصفاقة .. والسفالة .. والوقاحة .. تجعل نوحا ينفعل من اجل دينه وربه .. فيقول « مالكم لا ترجون لله وقارا .. وقد خلقكم أطوارا ؟ .

انت أيها الشاب الوقح .. اما عندك شىء من الوقار لربك .. الذى خلقك من ماء مهين .. وأوجدك من ميكروب .. حقير .. صغير .. متناه فى الضآلة .. يحمل سن الدوس منه الآلاف ؟

الم تعلم أن أصلك نطفة قذرة .. كان من الممكن أن تنساب مع البول .. من رحم أمك .. الى بحار المجارى ؟ ولكن الله حفظك ورعاك .. وصورك فسوك .. « ما لكم لا ترجون لله وقارا وقد خلقكم أطوارا » ؟ وقد خلق لكم سبع سموات طباقا .. وجعل لكم الشمس والقمر ؟

« الم تروا كيف خلق الله سبع سماوات طباقا ، وجعل القمر فيهن نورا ، وجعل الشمس سراجا » ؟

الم تر ان جسمك هذا الذى تتطاول به على ربك فى سوء ادب .. وعدم خشية .. هو الذى خلقه لك من عناصر الأرض .. ومعادنها المختلفة .. ومما تنبت من فاكهتها ، وبقولها ، وقثائها ، وفومها ، وعدسها ، وبصلها ؟ ..

الم تعلم ان الله انبتك من الأرض نباتا .. وانك عائد فيها خلقا جديدا .. بعد موتك .. حيث تلقى الله .. ليوفيك حسابك ؟

« والله انبتكم من الأرض نباتا ، ثم يعيدكم فيها ، ويخرجكم اخراجا ، والله جعل لكم الأرض بساطا لتسلكوا منها سبلا فجاجا » (١) .

***

لم يطلب منهم نوح .. فى الآية التى نحن بصدد عرضها .. غير الاستغفار .. الاستغفار فقط .. وجعله مفتاحا للخير كله .. من مال .. وبنين .. وجنات .. وأنهار ..

ويذكرنى هذا بموقف .. للخليفة الثانى لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عمر بن الخطاب :

خرج يستسقى (٢) .. فما زاد على الاستغفار .. فقيل له ما رايناك استسقيت .. فقال :

لقد استسقيت بمفاتيح السماء .. التى يستنزل بها القطر ..

وعن الحسن : أن رجلا : شكا اليه الجرب .. وآخر شكا الفقر .. وثالث : قلة النسل .. فامرهم جميعا .. بالاستغفار فقال له الربيع بن صبيح : أتاك رجال يشكون أنواعا .. ويسألون انواعا .. فامرتهم جميعا بالاستغفار .. فتلا قول نوح لقومه « استغفروا ربكم انه كان غفارا » .. الخ الآيات (٣) .

***

---

(١) ارجع الى هذه الصورة .. فى سورة نوح ١٠ ـ ٢٠ .

(٢) صلاة الاستسقاء عند عدم المطر .

(٣) الكشاف ١٠ ـ ١١ نوح .

وطال الصراع بين نوح وقومه.. يدعوهم فى الليل والنهار .. وفى السر والعلن .. كلما استطاع الى ذلك سبيلا ولكن فى آذانهم وقر .. وعلى قلوبهم أكنة.. وفوق أعينهم غشاوة .. وبينهم وبين ما تدعوهم اليه حجاب كثيف ..

وكلما دعاهم «جعلوا أصابعهم فى أذانهم، واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا» ٧/ نوح.

شغلتهم الدنيا .. بزينتها ومفاتنها ومطاعمها ومطامعها وآمالها وأوحالها..

نعم بذل نوح ـ عليه السلام ـ معهم .. فوق ما يستطيع البشر ليذكرهم بآلاء الله وآياته ونعمه وأفضاله .. ولكن اذا لم تشهد البصائر .. ما تصوره .. صور هذه السور ..

فكيف نسميها بصائر؟ .. وهى فى عمه قائم .. كما بين ذلك ـ سبحانه ـ فى سورة النور .. عندما قال:

«والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء، حتى جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفاه حسابه ، والله سريع الحساب»

فما هو هذا الشىء الذى كفروه «فصاروا مخدوعين خدعة .. جعلت أعمالهم هباء ، وأفئدتهم هواء؟ انما ذلك هو النور» الذى عموا فيه «وضلوا بعده فى ظلمات تتراكم» كلما ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون «فهم فى ظمأ شديد» الى نعيم الدنيا «ومتاعها الفانى» وما هى الا لمعات «من سراب خادع» يراه الظمآن عندما يضل بين الصحراوات والسباسب المترامية الاطراف والتى لا يدرى أولها من آخرها «فيظن هذا الضال» ان امام عينيه لمعان الماء» الذى هو نهمه ومشتهاه «وهنالك لا يكون الا المآب، والعرض فى يوم الحساب».

وهذا معنى قوله تعالى «لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفاه حسابه».

***

ماذا يقول نوح لمن كفر «وتولى وغدر» وطغى وفجر «ولقد جاءهم من الانباء ما فيه مزدجر»..

ولا ندرى وأيم الله «أهم عميان» أم أنهم يتعامون؟ والغالب أنهم صادقون عندما قالوا «قلوبنا فى أكنة مما تدعونا اليه وفى آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب» ٥/ فصلت.

وحق لنوح ـ عليه السلام ـ أن يقول:

«كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم فى أذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا».

***

ونور الله فى جميع القلوب واحد «قلب المؤمن .. وقلب الكافر ولكن الفرق فى الزجاجة التى يشع منها النور..» ولتقريب هذا المعنى «نضرب المثل بالمصابيح: كل الوسائل المستعملة فيها» من جنس واحد «الاناء» والغاز «والفتيل المشتعل» والنار المشتعلة «كلها من جنس واحدو ونوع واحد» فما بال هذا المصباح ضوءه قوى صاف مشع «وذلك لاينبعث منه النور»؟..

الفرق فى الزجاجة المشعة .. فهذه زجاجة صافية نظيفة شفافة .. فانبعث منها الضوء قويا.. صافيا.. وتلك تراكمت عليها الأدخنة والاغبار فحجبت الضوء.. وعزلت النور..

وأترك التشبيه فى هذا المقام. لمن اوتى جوامع الكلم ـ عليه الصلاة والسلام ـ اذ يقول «القلوب تصدأ كما يصدأ الحديد». وجلاؤها الاستغفار «أو قال تلاوة القرآن وذكر الله».

ومن اجل هذا كانت دعوة نوح ـ عليه السلام ـ تتركز فى استغفار:

«استغفروا ربكم إنه كان غفار» يرسل السماء عليكم مدرارا ويمددكم «بكذا وكذا» الخ الآيات غير انه فى واد وهم فى واد آخر..

***

٤ اليـــأس

مرت الايام « يوم اثر يوم » وعام تلو عام « وقرن بعد قرن » ونوح على هذا الحال .

هو يتوعدهم العذاب « ان لم يؤمنوا به » وهم فى غيهم سادرون « وعلى أذاه مصرون .. فلا هو يكف عن انذارهم وابعادهم ولا هم يرعوون عن اذاهم وسخريتهم » .

يمش خلفه الاطفـال والشباب والسفلة : المجنون « المجنون » فـلا يملك الا التطلع الى السماء قائلا

« انى مغلوب فانتصر » القمر

والســماء دائما « هى ملجـأ المؤمن » هى الجهة الوحيدة « التى يهرع اليها » كلما حز به الامر او ألمت به الخطوب واحاطت به الشدائد»

***

لم يؤمن معه « الا القليل من قومه الفقراء والضعفاء » بالاضافة الى اهل بيته .. « وهم : زوجه وابناؤه الأربعة » وزوجات ابنائه الثلاثة الاول .

وكان ارادة القدر « شاءت الا يخرج نوح ـ عليه السلام ـ بعد هذا الجهد الجهيد فى ذلك الأمد المديد بايمان أهل بيته كلهم .

جـاءته زوجتـه مؤنبـة موبخـة يا نوح اما كفـاك هـذا الزمن الطويل فى هذا الهواء الذى تدعيه .. والوهم الذى تحيا فيه .. من انذار قومنا « بطوفان » يهلكهم فلا يدع على الأرض من الكافرين ديارا ؟ ..

فلا هم استجابوا لدعائك « ولا كفوا ايديهم عن ايذائنا وايذائك . ولا هم نزل بهم الطوفان» الذى تعدهم به ؟ (١)

اما يكفى ما وصلنا اليه . « من سخرية القوم » وهزئهم ؟ اما تستحى من سير الناس حولك فى كل مكان قائلين : المجنون ـ المجنون ؟

اما تكف عن هذا .. حفاظا على كرامتنا .. وكرامة ابنائنا ؟

***

لم تكن زوج نوح ـ عليه السلام ـ كافرة .. فى أول الأمر وانما طول الزمن ومرور القرون والأجيال هو الذى جعل اليأس يدب الى قلبها مما ساعد ابليس على فتح ثغرة ينفذ منها الى هذا القلب .

فسلطت على نوح « لسانها » يشبعه تأنيبا ولوما وسخرية « وتبعها فى هذا الامر ابنها كنعان الابن المدلل » .

بالقسوة المحنة .. حتى بيته لم يخرج منه الا بثلاثة اخماسه .

وضاقت عليه الارض بما رحبت .

فى الشارع يترصده جنود الأذى .

وفى المنزل .. تلقاه زوجة بلسانها السليط فلا يملك الا التطلع الى السماء :

« انى مغلوب فانتصر »

***

(١) كان نوح ينذرهم بالطوفان قبل ان يوحى اليــه « انهم مغرقون » وكان يعلم نباه من اسفار جده ادريس .. وهى ثلاثون صحيفة ، وصحف شيث وهى خمسون صحيفة . من الكشاف ٦٢ الاعراف .

٥ الفــرج

وتستجيب السماء لنوح :

« وأوحى الى نوح انه لن يؤمن من قومك الا من قد آمن ، فلا تبتئس بما كانوا يفعلون » ٣٦/هود .

كان الرجل منهم يأتي نوحا .. ومعه ابنه الصغير « فيقول لأبنه : احترس من هــذا الرجل « حتى لا يضلك » فاذا مات الأب «شب الولد على بغضه لنوح » .

ويروى ان رجلا .. جاءه يحمل ابنه على كتفه .. وهو يتوكأ على عصا .. ثم قال : يابنى انظر هذا الشيخ لا يضلك ..

قال : يا ابت اعطنى العصــا .. ثم قال : ضعنى على الأرض ..

فمشى اليه بالعصــا .. فضربه فشجه شجة موجعة في رأسه .. وسالت الدماء .. فقال نوح :

رب .. « قــد ترى ما يفعل بى عبادك فان يك لك فى عبادك خيرية .. فاهدهم وان يك غير ذلك فصبرني .. الى ان تحكم وأنت خير الحاكمين » . فأوحى الله اليه :

« انه لن يؤمن من قومك الا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعــلون » واذا بــلغ الشرقمتة كان معنى هذا بدء بزوغ الخيــر .. « فان مع العسر يسرا » ومع اليأس فرجا .

فاندفع مع اجابة السماء قائلا :

« رب لا تذر على الارض من الكافرين ديارا» ٢٦ نوح/ وكان احساسه « بانحدار آلام القرون عن كاهله » . ينسيه نفسه فيقول :

« انك ان تذرهم يضلوا عبادك ، ولا يلدوا الا فاجرا كفارا » ٢٧ نوح . هل تخبــر الله يارســول الله بشيء يعلمه ؟ فى اعماق هــذا التعبير من نوح ــ عليه السلام ــ احساســه باللهفة الى الفرج « بعد هذا الصراع المضنى » « والكفاح القاسى » ما يقرب من ألف عام لم يخرج منهــا الا بثلاثة أخماس بيتة « وهم أبناؤه : ســام وحام ويافت مع قلة قليلة من المستضعفين » !

* * *

وتظل ابواب السماء مفتوحة لنوح « تنفيذا لمشيئته » وهذا مقام يذكرني بعبارة قراتها .. لبعض الصوفية المقربين يقول فيها عن الله عز وجل :

تركنا له ما نريد لما يريد.. فترك لنا ما يريد لما نريد وكانت اجابة السماء له « واصنعالفلك بأعيننا ووحينا » ٣٧/هود . اى اننا سنسوق اليك كتل الأخشاب الضخمة « وعليك انتصنع منها الدسر » . والدسرة هى المسمار الخشبى.

يقول ابن عباس :

« لم يعلم كيف صنعة الفلك » واوحى الله اليه ان يصنعها « مثل جؤجؤ الطائر .. » (١) وجؤجؤ الطائر .. او السفينة .. صدرها .

* * *

ان صناعة السفينة كانت بعين الله .. ووحيه « حتى الدفة » لم يصنعها نوح ــ عليه السلام ــ فهو لا يدرى الى اين تسير والى أى جهة تتجه وانما هى .. « تجرى بأعيننا » ..

«ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا انهم مغرقون» ٣٧/هود .

---

(١) القرطبى والنسفى والكشــاف ٣٨/هود . ــ وكررها الكشاف فى ٢٧/المؤمنون

زادوا سخرية به « وبابنائه الثلاثة .. الذين يعملون معه فى صناعة السفينة » .
يجمع الناس بعضهم بعضا ليذهبوا اليه جماعات جماعات .
يهزأون ويسخرون « ويطبلون ويزمرون ويرقصون » .
ما هذا يا نوح ؟ ابلغ بك الجنون ان تصنع سفينة فى صحراء ؟ .. وهل عندك من الخيل ما يمكنك من تسيير سفينة .. فوق الرمال ؟
« ويصنع الفلك ، وكلما مر عليه ملأ من قومه ، سخروا منه » ٣٨/هود ولكنه .. فى هذه المرة لا يقبل سخريتهم .. ولا يتجاوز عن سيآتهم واستهزائهم .. فيردها عليهم قائلا .. فقد طمأنته السماء : « ان تسخروا منا فانا نسخر منكم كما تسخرون ، فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ، ويحل عليه عذاب مقيم » ٣٨/٣٩/هود .

* * *

وتمت صناعة السفينة كما اجمع المفسرون .. من خشب الساج « ذات مساكن مطلية من الداخل والخارج بالقار .. طولها ثلاثمائة ذراع .. وعرضها خمسون ذراعا .. وارتفاعها ثلاثون ذراعا .. من ثلاثة طوابق فى الاسفل .. السباع والوحوش . وفى الأوسط . الدواب والانعام .. وفى الأعلى .. نوح ومن معه .. وما يلزمهم من الزاد » (١) .

* * *

وفى مثل هذه المواقع التى لم يرد عنها نص قرآنى .. او سنة صحيحة .. نرى ان نستعرض معا .. بايجاز بعض الآراء التى وردت فيها . ليكون القارىء على علم بالمصادر التى يبنى عليها علمه .. فالقرآن الكريم .. لم يتحدث عن صفة سفينة نوح .. غير أنها « ذات ألواح ودسر »
كما لم ترد عنها « سنة صريحة » .
وقد أجمع الكثير من أولى العلم « من رجال التفسير . كابن عباس .. والكلبى . وقتادة وعكرمة .. على الأبعاد الثلاثة التى ذكرناها » وذكرتها جميع كتب التفسير .
كما أن هذه الأبعاد « هى الأبعاد التى ذكرتها التوراة فى سفر التكوين بالاصحاح السادس .. وبصها — ١٤ — اصنع لنفسك فلكا من خشب جفر .. تجعل الفلك مساكن وتطليه من داخل ومن خارج بالقار ١٥ — وهكذا تصنعه ثلثمائة ذراع يكون طول الفلك .. وخمسين ذراعا عرضه .. وثلاثين ذراعا ارتفاعه ١٦ — وتصنع كوا للفلك .. وتكمله الى حد ذراع من فوق وتصنع باب الفلك فى جانبه . مساكن سفلية ومتوسطة وعلوية تجعله — ا هـ —
كما ذكر رأى آخر فى كتب التفسير .. عن الحسن البصرى وغيره قال : كان طولها ألف ومائتي ذراع .. وعرضها ستمائة ذراع .. ولعل هذه الأبعاد .. نقلوها من رواية وردت فى بعض كتب التفسير (٢) حول معنى الآية «ويصنع الفلك» ولا باس من تلخيصها للقارىء من باب العلم بالشىء فقط وهى أن الحواريين سألوا عيسى — عليه السلام — ان يبعث لهم رجلا شهد سفينة نوح .. ليحدثهم عنها .. فانطلق بهم الى كثيب من تراب .. فاخذ كفا منه « وقال : اتدرون ما هذا ؟ قالوا : الله ورسوله اعلم » .
قال : هذا « كعب بن حام (٣) بن نوح » .
قال : فضرب الكثيب بعصاه « وقال : قم باذن الله فاذا هو قائم » .
قال له : اخبرنا عن سفينة نوح ..
قال : كان طولها الف ومائتى ذراع وعرضها ستمائة ذراع وكانت ثلاث طوابق : طبقة للدواب والوحوش ، وطبقة للانس ، وطبقة للطير — ا.هـ —

* * *

وبعد انتهاء صنعتها « ظلت فى مكانها فوق الرمال » فى الصحراء اربعين عاما « يترقب نوح — عليه السلام — الطوفان . بين لحظة وأخرى فكانت وسيلة من وسائل الهزء به » والسخرية منه .. وقد بلغ من سخريتهم بنوح .. وسفينته .. انهم اتخذوها مباول ومبارز لهم ..
ومن طول الزمن امتلأت بالقاذورات والأوساخ .

* * *

ويزعم بعض المفسرين « أن الله تعالى » قد ابتلى قوم نوح بالعقم فى مدة وقوف السفينة — قبل الطوفان — بعد تمام صنعها « حتى لا يغرق الا المكلفون . وفى هذا الرأى تكلف ظاهر . لاداعى له — وأن كان هذا جائزا — ولكننا نرى

(١) لم يذكر القرآن الكريم .. وصف السفينة .. وانما ذكرت فى التوراة وذكرت التفاسير كلها هذه الابعاد التى ذكرناها .

(٢) القرطبى والطبرى والكشاف والثعلبى

(٣) فى هامش القرطبى « فى الاصل قبر سام بن نوح »

في كل يوم مئات الأطفال .. يهلكون .. بمختلف الامراض .. وليس ذلك عقابا للاطفال على ذنوب ارتكبوها .. أو جرائم اقترفوها كما نرى الكثير من الزلازل التى تدمر المدن والقرى بمن فيها من كبار وصغار:

وصدق الله عندما يقول:

«واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة».

وقد روت أم المؤمنين عائشة - رضى الله عنها - عن رسول الله صلى الله عليه وسلم - انه قال:

«لو رحم الله أحدا من قوم نوح .. لرحم المرأة أم الصبى وذلك أنها .. خشيت عليه من الماء .. وكانت تحبه حبا شديدا .. فخرجت به الى الجبل .. حتى بلغت قمته .. فلما بلغها الماء .. حملت الصبى .. فلما بلغ الماء رقبتها رفعته بيدها .. حتى ذهب بهما الماء .. فلو رحم الله أحدا منهم لرحم هذه»[1].

***

وقال القرطبى والكشاف .. ما معناه ..

الصحيح انه أهلك الولدان بالطوفان .. كما هلكت السباع والأنعام .. ولم يكن الغرق عقوبة للصبيان والبهائم .. وانما غرقوا بآجالهم .. كما يموتون بأى سبب من أسباب الموت .. وليكون ذلك .. زيادة .. فى عذاب الآباء والامهات .. برؤية أبنائهم يغرقون[2].

***

ولما اقترب ميعاد الغرق .. ابتلاهم الله - سبحانه - بالجرب .. والجرب مثل عملى لبحث .. قد نسميه «لذة الشر» .. فالأجرب يمزق جلده باظفاره .. ويرى الدم يسيل من جروحه .. ولكنه لا يزداد الا شوقا الى التمزيق والتجريح .. وذات يوم صائف جلس أحدهم .. يتبرز فى الخلاء .. فعبثت يده فى الأرض .. وأمسك بقطعة صغيرة .. من البراز الجاف .. والبراز اذا جف تحول الى مادة كبريتية .. وسالت القطعة فى يده .. ودعك بها بين أصابع يده الأخرى الملتهبة .. من الجرب الذى يشوبها .. فاحس أن الالتهاب قد زال فى الحال .. وبدأت جروح أصابعه تلتئم وتبرأ..

وكان هذا اكتشافا لعلاجهم من الجرب الذى هدهم .. وأشعل النار فى أجسادهم .. ووجدوا فى السفينة مخزنا مليئا بهذا العلاج .. فنظفوها تماما .. بل وغسلوها بالماء .. ليستحموا به..

***

قالت له زوجته يوما .. أما ينصرك الله؟ . فقال لها: نعم..

قالت: فمتى .. قال: اذا فار التنور ..

فخرجت .. وهى تقول لقومها .. والله انه لمجنون حقا..

يزعم .. أن الله لا ينصره .. الا أن يفور هذا التنور[3].

وقال القرطبى : فهذه خيانتها .. ويقصد القرطبى - رضى الله عنه - بقوله. فهذه خيانتها .. التعليق على قول الله تبارك وتعالى فى سورة التحريم:

«ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئا وقيل ادخلا النار مع الداخلين» ١٠/ التحريم.

وسنتعرض لموضوع خيانتها فى حينه ان شاء الله

---

(١) ذكره الثعلبى .. كما ذكره القرطبى بالنص.. بدون اسناده الى عائشة - ٤٤/ هود.

(٢) القرطبى ٤٤/ هود والكشاف فى سورة نوح.

(٣) القرطبى ٤٦ / هود.

٦ الطـــوفـــان

جلست امرأة نوح .. أمام التنور .. تصنع الخبز واذا بالماء يتفجر من بين ألسنة النيران .. متدفقا فى عنف .. فيدفعها فى صدرها ،، فتكون أول الهالكين .. غرقا .. وحرقا فى نفس الوقت .. لأن الماء خارج من التنور «وفار التنور» وفجرت الأرض عيونا .. وفتحت أبواب السماء بماء منهمر والتقى الماء .. ماء الأرض وماء السماء .. ولعلنا نذكر .. ما ذكره كتاب تاريخ الحكماء عن ادريس ـ عليه السلام ـ من أنه أول من أنذر بالطوفان .. ورأى آفة سماوية تلتحف الأرض من الماء والنار .. يقول ابن عباس فى ...

«ففتحنا أبواب السماء» بماء .. من غير سحاب .. لم يقلع أربعين يوما .. وقال على بن أبى طالب .. ـ رضى الله عنه ـ أنه المجرة .. وهى شرج السماء .. ومنها فتحت بماء منهمر .. وقيل: كان ماء السماء باردا كالثلج .. وماء الأرض حارا مثل الحميم [(١)].

***

وقال جميع المفسرين تقريبا: ان التنور.. كان فى موقع مسجد الكوفة .. عن يمين الداخل مما يلى باب كندة ..

وقيل بالشام بموضع .. يقال له « عين وردة» [(٢)].

وروى عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال:

ما أرسل الله سفينة من ريح .. الا بمكيال .. ولا قطرة من مطر الا بمكيال .. الا يوم عاد .. ويوم نوح .. فان الماء يوم نوح .. طغى على الخزان .. فلم يكن لهم عليه سبيل .. ثم قرأ «أنا لما طغى الماء حملناكم فى الجارية» .. وان الريح .. يوم عاد عتت على الخزان .. فلم يكن لهم عليها سبيل ثم قرأ «بريح صرصر عاتية[(٣)].

***

وجد نوح أزواجا .. من كل نوع وجنس .. من السباع .. والوحوش والهوام .. والدواب .. والطير .. كل زوج يأخذ طريقه .. الى مكانه الخاص به فى السفينة .. وركب هو ومن معه من المؤمنين وحمل معه فى السفينة تابوت جده الأكبر ـ آدم ـ عليه السلام ـ وأسفار جده ادريس..

---

(١) القرطبى ١/١ القمر.

(٢) البيطاوى والكشاف ـ ٢٧ / المؤمنون .. والقرطبى ٤٠ / هود.

(٣) الكشاف ـ ٦/الحاقة.

كما حمل الذر معه فى الطابق العلوى .. لضعفها .. الا يطأها الدواب .. والذر هو الحشرات الصغيرة ..

وقال القرطبى والكشاف : انه جعل تابوت آدم معترضـــا .. بين الرجال والنســاء فى السفينة ..

***

واختلف المفسرون فى عدد ركاب السفينة بين الثمانين والتســعة ! ! والأغلب .. على ما رواه ابن عباس : انهم كانوا ثمانين .. منهم نوح .. وبنوه الثلاثة : سام ، وحام ، ويافت ، وزوجاتهم ..ويقول ابن عباس ايضا : لما خرجوا من السفينة ـ بعد الطوفان بنوا قرية .. تسمى الى اليوم .. قرية الثمانين .. وهى بناحية الموصـــل (١) .

ويقول الزهرى : ان الله ـ عز وجل ـ بعث ريحا .. فحمل اليه من كل زوجين اثنين .. من السباع .. والطير .. والوحش .. والبهائم .. وقال جعفر بن محمد : بعث الله جبريل .. فحشرهم .. فجعل يضرب بيديه .. على الزوجين فتقع يده اليمنى على الذكر .. واليسرى على الانثى .. فيدخله السفينة (٢) .

***

كما يقول القرطبى :

جاءت الحية والعقرب .. لتدخلا السفينه .. فمنعهما لضررهما .. وبلائهما .. فتعهدا بعدم الاضرار بالركاب .. فتركهما تركبان .. ولهذا يقول القشيرى وغيره : فمن قال : « سلام على نوح فى العالمين » لم تضراه ..

وذكر حديثا .. حول هذا المعنى .. عن الحافظ بن عساكر .. مرفوعا .. من حديث ابى امامة .. قال .. قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم « من قال حين يمس .. صلى الله على نوح وعلى نوح السلام .. لم تلدغه عقرب تلك الليلة » (٣) .

كما ذكر القرطبى حادثا آخر .. أذكره .. مع التحفظ .. كما ذكرت حديث العقرب والحية للعلم بما قيل فقط .. وهذا الحادث هو :

قال : عن قتادة .. والحكم بن عيينه .. وابن جريج .. ومحمد بن كعب .. فاصاب حام امراته فى السفينة .. فدعا نوح الله .. أن يغير نطفته .. فجاء بالسود .. وقال عطاء : ودعا نوح على حام .. الا يعدو شعر اولاده اذانهم .. وانهم حيثما كان ولده يكونون عبيدا لولد سام ويافت (٤) .

***

ولعل القارىء الكريم .. قد لفت نظره قولى اذكره مع التحفظ .. كما ذكرت حديث العقرب والحية .. فنحن نرى .. اننا قد تجولنا كثيرا فى روضة القرطبى ـ رضى الله عنه ـ وغيرها من رياض التفسير .. وقطفنا من القرطبى .. كثيرا من الورود والازهار والرياحين ..

والسائر بين الرياض والبساتين .. ويحاول قطف الازهار والورود .. لا يسلم من بعض الاشواك .. فمثلا .. انا لا اصدق مطلقا .. ان القرطبى ـ رحمه الله ـ هذا الاستاذ الجليل والامام الكبير .. صاحب هذا المؤلف الضخم الجامع لاحكام القرآن .. هذا الرجل .. واسع الأفق .. شامل التفريع والاستنباط .. أنا لا اصدق .. انه يذكر أن ابن عباس ـ رضى الله عنه ـ قال : لم يكن فى الأرض الطوفان نهر ولا بحر .. فلذلك سخروا منه .. ومياه البحار .. هى بقية الطوفان (٥) .

فهل تصدق هذا عن الامام القرطبى ؟ واذا صدقنا أن القرطبى ذكرها ـ نقلا ـ فهل نصدق ان ابن عباس قالها ؟ ..

وهل نصدق انه يقول ايضا .. عن ابن عباس .. فى تفسير قوله تعالى « وقال اركبوا فيها بسم الله مجريها ومرساها » ٤١/ هود ـ تعلق ابليس بذنب الحمار .. وكانت يدا الحمار .. قد دخلتا فى السفينة .. فجعل الحمار يضطرب ولا يستطيع ان يدخل فصاح به نوح : ادخل ويلك .. وكررها مرتين .. والحمار يضطرب .. ثم قال له : أدخل ويلك .. وان كان معك الشيطان ـ كلمة زلت على لسانه ـ فدخل .. ووثب الشيطان فدخل ..

فهل يحتاج الشيطان الى مثل هذا ؟ ..

مع ان الحديث يقول « ان الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم ؟

ان من يكثر التجوال بين ارجاء كتب التفسير يلمس أن ابن عباس ـ رضى الله عنه ـ مفترى

---

(١) القرطبى ٤١/هود

(٢) القرطبى ٤٤/هود

(٣) القرطبى ٣٨/هود

(٤) القرطبى ٣٦/هود

(٥) القرطبى ٣٨/هو ص ٣٢٦١ طبعة كتاب الشعب

عليه .. فى كثير من المـــواقف .. التى دسها الاسرائيليون وهواة الحشو .. فى كتبنا .. وكم حاولوا تغيير كلمة او حرف من الكتاب الكريم ولكنهم لم يفلحوا .. لأن الله سبحانه ـ يقول : « انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون » .

وليت المسئولين .. يطهرون تلك الكتب .. من امثال هذا الحشو .. وتلك التاولات .. التى تضر الدين ولا تخدمه .. وانما هى مدسوسة عليه .. وعلى ائمتنا من اولى العلم .. ورجال التفسير .

* * *

وارتفع الماء فى الصحراء .. وطفت السفينة بمن فيها آخذة طريقها .. الى حيث يشاء الله .. حيث « تجرى باعيننا » ويتطلع نوح .. فيرى ابنه كنعان .. يتجه الى الجبل .. فناداه « يابنى اركب معنا ولا تكن مع الكافرين » ٤٢/ هود ـ ولكن الكافر أخذته العزة بالاثم ، وابى .. وقال: « سأوى الى جبل يعصمنى من الماء » .

وفى رأيى ان كنعان بن نوح .. أشد كفرا .. من فرعون موسى .. فقد قال فرعون حينما ادركه الغرق « امنت انه لا اله الا الذى آمنت به بنو اسرائيل وانا من المسلمين » .

ولكن هذا قال « سأوى الى جبل يعصمنى من الماء » وهو يرى امام عينيه آيات الهلاك وامارات الدمار والفناء .. فيرد عليه أبوه مشفقا عليه : يابنى « لا عاصم اليوم من امر الله الا من رحم » ٤٣/ هود .

ولكن موجة طاغية عاتية .. لم يعجبها رد كنعان على ابيه .. فلطمته لطمة جعلته يهـوى الى أعماق الأعماق أمام أبيه « وحال بينهما الموج فكان من المغرقين » وهنا تغلب عليه عاطفة الأبوة فيقول متأثرا غاية التأثر :

« رب إن ابنى من أهلى ، وان وعدك الحق وانت أحكم الحاكمين » (١) .

ويقول الله له « يا نوح انه ليس من أهلك ، انه عمل غير صالح » ٤٥ـ٤٦/هود .

ونرى أننا مضطرون للوقوف وقفة قصيرة امام تلك الآية : « انه ليس من أهلك » .

فقد زعم بعض المفسرين .. انه ابن زنا .. مستشهدين بقوله تعالى « ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح .. وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما » التحريم وهذا الزعم مردود قطعا .. وخطير أيضا ..

فنحن اذا شطح بنا سوء الظن .. واتهمنا ام سام بالزنا .. فقد طعنا فى صحة نسب كل الأنبياء والمرسلين .. بما فيهم محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأنهم جميعا من نسلها .. ولا يوجد على سطح الارض من بعد نوح .. الا من هو من نسلها لقوله تعالى « وجعلنا ذريته هم الباقين » وقوله « ذرية من حملنا مع نوح » وقوله أيضا « وحملناكم فى الجارية » .

والخطاب فى الآيه الاخيره .. موجه الى كل من تبلغه دعوة محمد ـ عليـه الصـلاة والسلام ـ وهو مرسل الى الناس كافة .. وان كان بعض هؤلاء المفسرين .. قالوا أ انه ابنها من زوج غير نوح ـ عليه السلام ـ مستشهدين بأن عليا ـ رضى الله عنه قرأها « ونادى نوح ابنها » على ان الضمير هنا يعود على امراته (٢) والتكلف ظاهر فى هذا التاويل والأولى فهم اللفظ بحسب نصه القرآنى ، فالقرآن الكريم جعله ابنه .. فهو ابنه .. ومن صلبه ..

ولهذا اجمع الجمهور .. على ان معنى هذه الآية « يانوح انه ليس من اهلك » انه ليس من أهل دينك ولا ولايتك وقد قيل لسعيد بن جبير « أن أبنى من أهلى » .. أكان من أهله ؟ أكان ابنه ؟ ..

قال : لا اله الا الله .. ، يحدث الله محمدا ـ صلى الله عليه وسلم ـ انه ابنه .. وتقول : انه ليس ابنه ، نعم كان ابنه ولكنه كان مخالفا له فى النية والعمل والدين .. ولهذا قال الله تعالى عنه « انه ليس من أهلك » ..

ثم قال القرطبى .. فى تفسيره .. وهذا هو الصحيح ان شاء الله .. لجلالة من قال به يقصد العالم الجليل . « سعيد بن جبير » ..

* * *

والولد يسمى عملا .. كما يسمى كسبا .. كما جاء فى الخبر : « اولادكم كسبكم » (٣) .. فاذا قال ـ سبحانه ـ لنوح ـ عليه السلام ـ « انه ليس من أهلك انه عمل غير صالح » ..

---

(١) لنا رأى فى هذا الموضوع سيأتى فى نهاية القصة
(٣) القرطبى ٤٦/هود
(٢) من تفسير الكشاف وغيره ـ ٤٢/هود

فانها قد تؤدى ايضا معنى انه ولد غير صالح .. فالولد عمل أبيه ..

وما هذا الا لنفهم قوله تعالى « يوم يجزى والد عن ولده » وان كان هذا الوالد .. هو نوح ـ عليه السلام ـ وفى قراءة « انه عمل غير صالح » .. بكسر الميم وفتح اللام .

***

اما قول نوح « ان ابنى من اهلى وان وعدك الحق » .

فالوعد بالنجاة « احمل فيها من كل زوجين اثنين واهلك الا من سبق عليه القول » ..

وقد فات نوح ـ عليه السلام ـ ان ابنه كنعان .. ممن سبق عليه القول .. هو وامه .. لانهما خاناه من الناحية الدينية ..

وبعض المفسرين من اولى العلم .. قال : ان نوحا لم يكن يعلم بكفر ابنه .. وعلى اية حال ... فهذا دليل على أن قرابة الدين .. غامرة لقرابة النسب .. وان نسيبك فى دينك .. وان كان حبشيا وكنت قرشيا .. فهو لصيقك .. ومن لم يكن على دينك وان كان امس اقاربك رحما ... فهو ابعد بعيد عنك ... وجعلت ذاته عملا غير صالح .. مبالغة فى ذمة ...

قال الشيخ ابو منصور رحمة الله :

كان عند نوح ـ عليه السلام ـ أن ابنه كان على دينه .. لأنه كان ينافق .. والا فلا يحتمل ان يقول نوح « ان ابنى من أهلى » .. ويسأل الله نجاته ... وقد سبق منه النهى عن سؤال مثله .. بقوله تعالى : « ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا انهم مغرقون » فكان بسأله على الظاهر الذى عنده ... كما كان اهل النفاق .. يظهرون الموافقة لنبينا ـ عليه السلام ـ ويضمرون الخلاف له ... ولم يعلم بذلك .. حتى أطلعه الله عليه ...

وقوله تعالى : « ليس من اهلك » اى من الذين وعدت النجاة لهم .. وهم المؤمنون حقا .. فى السر والظاهر ـ (١) ـ ا هـ ..

***

وسارت السفينة .. بين جبال الأمواج ..

وكما قلنا اختلف المفسرون .. فى عدد ركابها ...

فقال بعضهم سبعة ... نوح وابناؤه وزوجاتهم ... وقال البعض عشرة خمسة رجال ... وخمس نساء ... وقال البعض ثمانين .. ونحن نميل الى الرأى الأخير لسببين ...

السبب الأول : أن هناك مؤمنين من قومه غير اهله ... جادله قومه لطردهم .. فأبى ... اقرأ قول الملأ له :

« ما نراك الا بشرا مثلنا ... وما نراك اتبعك الا الذين هم أراذلنا بادى الرأى » ٢٧ / هود .

وقول نوح ايضا لقومه « وما انا بطارد الذين آمنوا » ٢٩ / هود .

والسبب الثانى : قول الله تعالى لنوح : « احمل فيها من كل زوجين اثنين واهلك الا من سبق عليه القول » ثم أضاف « ومن آمن » أى : من آمن من غير أهلك ...

وهذا دليل .. على انه كان من بين ركاب السفينة من هو من غير نسله ... ولكن لم ينجب بعد الطوفان الا أبناء نوح فقط .. لتكون ذريته هم الباقين .

***

ويقول الأستاذ عبد الوهاب النجار .. فى كتابه « قصص الأنبياء » : انه يؤيد الرأى القائل بأن الطوفان ... لم يعم الأرض كلها .. وانما شمل المنطقة التى فيها قوم نوح فقط (٢) .

ونحن لا ندرى لماذا يؤيد فضيلته هذا الرأى

(١) مدارك التنزيل للنسفى ٤٦/هود

(٢) قصص الانبياء للنجار ص ٣٦ الطبعة الثالثة

.. مع انه قرر فى كتـــابه ... ان علمـــاء الجيولوجيا ... يقولون : اننا كلما بحثنـا فى اعالى الجبال ... وجدنا بقايا حيوانية .. من الاحياء التى لا تعيش الا فى البحـــار .. وهذا يستدعى .. وجود طوفان على هذه الجبال ..

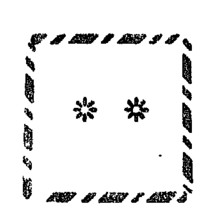
ولا شك ان الطوفان قد عم الأرض كلها .. لسببين : الاول : قول الله ـ تبـارك وتعالى : « وجعلنا ذريتـــه هم الباقين » وقول نوح : « رب لاتذر على الأرض من الكافرين ديارا » .. مما يدل على ان كل من على سطح الأرض بعـد الطوفان .. من نسل ركاب السفينة .. سواء كان من الانس او الوحش .. او الأنعام ... أو الطير ... وبالتالى يكون الطوفان عاما ..

والسبب الثانى : اذا كان الطوفان لم يعـم الأرض كلها .. فبماذا نعلل قوله تعالى لنوح : « واحمل فيها من كل زوجين اثنين » ... لا .. طبعا لحفظ الجنس فى جميــع المخلوقات ... وهذا وحده دليل قاطع على عموم الطوفان ... والالســاق الله الوحوش والحيوانات من جميع الاجناس .. الى الجهات التى لا يعمهـا الطوفان .. بدلا من حملها فى السفينة .

* * *

نقول : سارت السفينة .. تتقاذفها جبال الامواج ... بين عيون الارض المتفجـره ... وابواب السماء المتفتحة وارتفع الماء فوق أعلى قمة جبلية بمقدار خمسة عشر ذراعا ...

ولم يبق من نبضات الحياة .. فوق سطح كوكب الارض غير سفينة تمخر عباب الماء .. فى محيـط .. متلاطم الامـواج ... صــاحب الاعاصــير ..



٧ النجـــاة

جرت السفينـــة بمن فيهـــا .. باسم الله مجريها ومرساها .. وكانها لفتـــة من الله ـ سبحانه ـ لعبـاده المؤمنين ... ليقول المؤمن عند ركوبه سيارة او طيارة او قطارا او سفينة او دابة ـ بسم الله مجريها ومرساها .. بعـد قوله « سبحان الذى سخر لنا هذا ... وما كنا له مقرنين » .. فاذا قالهـا .. نزلت عليـــه السكينة وكانت ركوبته جارية بعين الله ورعايته .. وكان هو مطمئنا آمنا .. الى نهاية رحلتـه تســـلام ...

* * *

مشت السفينة بركابها .. فى اليوم العاشر من رجب .. وظلت فى الماء مائة وخمسين يوما .. واستقرت على جبل الجودى شـــهرا ... وهبط بها يوم عاشوراء ..

وروى ان السفينـــة مرت بالبيت وقد دار الماء حوله ـ على هيئـــة دوامة ... فطافت بها سبعا حول البيت .. وقد انجى الله البيت من الغرق وكان ذلك فىاليوم العاشرمن ذىالحجة .. وصام نوح يوم الهبوط .. وامـــر من معه .. فصاموا شكرا لله تعالى (١) .

« وقيل يا ارض ابلعى ماءك ويا سماء اقلعى وغيض الماء وقضى الأمر واستوت على الجودى ، وقيل بعدا للقوم الظالمين » ٤٤ هود ..

* * *

رست السفينة على جبل ارارات .. وهو يتصل بجبال ارمينيا .. بين بحر قزوين والبحر الأسود شرق تركيا وشمال جزيرة العرب ... كما قيل : رست على جبل بارض الموصل ... والمكان متقارب فى الحالتين الى حد ما ...

ويقول القرطبى فى تفسير هذه الآية :

قيل · ان الجودى اسم لكل جبل .. ومنه قول زيد ابن عمرو بن نفيل :

(سبحانه .. ثم سبحانا يعـــود له
وقبلنـــا سبح الجودى والجمد) (٢)

كمـــا يذكر ايضـــا انه بقيت على الجبل اعواد السفينة ... واورد حديثـــا .. عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « لقد بقى منها ـ اى من السفينـــة ـ شىء ادركه اوائل هـــذه الأمـــة » ...

ويقال : اكرم الله ثلاثة جـــبال .. بثلاثة نفـــر ...

---

(١) الكشاف والبيضاوى والقرطبى ٤٤/هود

(٢) الجمد كمنق : جبل لبنى نصر بنجد

اكرم الجودى بنوح ... وطور سيناء بموسى ... وحراء بمحمد ـ صلى الله عليهم جميعا ..

***

وبعد ان رست السفينة على جبل الجودى .. ارسل نوح الحمامة (١) ... لتكتشف له مكانا فى الأرض جف عنه الماء ... فعادت بعد وقت .. تحمل فى فمها غصن الزيتون فصار رمزا للسلام ..

وبمناسبة غصن الزيتون .. وعلاقته بنوح عليه السلام ـ اذكر اننى قرات رواية فى تفسير الكشاف والنسفى تقول ...

روى ان التين اهدى منه طبق .. لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم .. فقال لأصحابه : « لو قلت ان فاكهة نزلت من الجنة .. لقلت هذه .. لأن فاكهة الجنة بلا عجم (٢) وتلك الرواية .. توحى الينا بمعنى جديد جميل .. للقسم فى سورة التين « والتين والزيتون وطور سينين وهذا البلد الأمين » فيكون التين رمزا لعصر آدم ... والزيتون رمزا لعصر نوح وطور سينين رمزا لعصر موسى ... وهذا البلد الأمين رمزا لعصر محمد ... عليهم جميعا السلام ... ويكون القسم هنا بأربعة عصور .. هى قمم عصور الجنس البشرى ... فى الحياة الدنيا ...

***

وقبل أن نبعد عن رسو السفينة .. على جبل الجودى ... استأذن القارىء الكريم ... فى الوقوف برهة ... امام مشهد مناداة نوح ربه ... سائلا عن سبب هلاك ابنه كنعان ...

فقد ورد هذا المشهد .. فى سياق القصة ... بسورة هود بعد ان قال الله تعالى : (وقيل يا أرض ابلعى ماءك ويا سماء اقلعى وغيض الماء وقضى الأمر واستوت على الجودى وقيل بعدا للقوم الظالمين) ٤٤/هود ..

وبعدها مباشرة « ونادى نوح ربه فقال رب ان ابنى من أهلى » ... الخ ٤٥/هود .

فلماذا تاخر هذا المشهد .. الى ما بعد رسو السفينه ... مع أنه كان فى أول لحظات الطوفان ؟

والمتبادر الى الذهن .. ان نداء نوح بسؤاله هذا عند غرق ابنه كان نداء انفعاليا « فقال رب ان ابنى من أهلى » ...

والقول تقرير فى اعماق النفس .. بلفظه اللفظ الى الخارج ، وتعبر به العبارة .. من نفس القائل .. الى اذن السامع .. فقد يكون القول سرا فى اعماق النفس ... او جهرا باللفظ مثل « واسروا قولكم أو اجهروا به » ..

ولكن لم ياته رد السميع العليم .. اللطيف الخبير .. وهو فى تلك الظلمات الداكنة .. والأهوال المتراكبة .. لأن فى الرد شيئا غير قليل من اللوم والتانيب .. والله ـ سبحانه ـ ارحم بعبده نوح .. من ان يزيد آلامه . وما ان رست السفينة على الجودى .. حتى اتاه الرد على سؤاله المكبوت السابق :

« قال يا نوح انه ليس من اهلك ، انه عمل غير صالح » ويأتى التانيب صريحا ..

« فلا تسألن ما ليس لك به علم انى اعظك أن تكون من الجاهلين » ٤٦/هود .

وكانها صدمة كهربيه ... مست شغاف قلب نوح .. أكون من الجاهلين ؟ قال :

« رب انى اعوذ بك ان اسألك ما ليس لى به علم والا تغفر لى وترحمنى أكن من الخاسرين» ٤٧ / هود .

« قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك ، وعلى امم ممن معك وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم » ٤٨ / هود ..

اهبط بتحية منا ... وبسلامة من الغرق .. وبركات عليك .. والبركات .. هى الخيرات

---

(١) القرطبى ٤٤/هود

(٢) اى بغير نوى .. والحديث فى الكشاف والنسفى .. فى سورة التين ..

.. وهى فى حق نوح .. بكثرة ذريته واتباعه .. ويكفى ان قادة الامم .. وائمة الدين ... فى القرون الباقية كلهم من نسله ..

وقد دخل فى ذلك السلام .. كل مؤمن ومؤمنة .. الى يوم القيامة . كما دخل كل كافر وكافرة ... فى المتاع والعذاب ...

نقصد « وامم سنمتعهم .. ثم يمسهم منا عذاب اليم » ..

وفسر البيضاوى البركة هنا .. بانها زيادات فى نسلك ... لتصير آدما ثانيا (١) ..

وجاء فى القرطبى : فى كثير من كتب الحديث .. الترمذى .. وغيره ـ ان جميع الخلق الآن من ذرية نوح .. ثم ذكر عن الزهرى : ان العرب وفارس والروم واهل الشام واليمن من نسل سام .. وكل جلد اسود من حام ... والباقين من يافث (٢) ...

وقال الثعلبى .. قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « ولد نوح ثلاثة : سام وحام ويافث .. فسام ابو العرب وفارس والروم .. وحام أبو السود .. ويافث ابو الترك ...

***

صام نوح ومن معه .. يوم خروجهم من السفينة وشكر لله نصره وتأييده ... وقال :

« رب أغفر لى ولوالدى ولمن دخل بيتى مؤمنا وللمؤمنين والمؤمنات ، ولا تزد الظالمين الاتبارا » ٢٨ نوح .

دعا لأبويه .. لأمك بن متوشالح .. وشمخا بنت أنوش وكانا مؤمنين (٣) .. ثم دعا للمؤمنين والمؤمنات .. وعن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ انه قال :

« من قرا سورة نوح .. كان من المؤمنين الذين تدركهم دعوة نوح » ولمن دخل بيتى مؤمنا للمؤمنين والمؤمنات (٤) .

ولما حضر نوح الموت .. دعا ابنه ساما ـ وهو بكره ـ فقال :

يابنى انهاك عن اثنتين .. واوصيك باثنتين ...

فاما اللتان انهاك عنهما ... فالاشراك بالله والكبر / فانه لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال حبة من الشرك او الكبر .

واما اللتان اوصيك بهما .. فانى رايتهما يكثران الولوج الى الله تعالى : قول لا اله الا الله ... لو جمعت السماوات والأرضون لخرقتها .. حتى تبلغ الى ربها .. ولو جعلت لا اله الا الله فى كفة ميزان لرجحت بالسماوات وما فيها واوصيك بسبحان الله .. فانها صلاة الخلق وبها يرزقون ...

***

والى مدينة « ارم ذات العماد » التى لم يخلق مثلها فى البلاد المدينة التى استغرق بناؤها ثلاثمائة سنة ... لتكون جنة الأرض ... لنصحب فيها هودا مع قوم عاد ... عمالقة التاريخ البشرى كله ... ولنتابع خطى التاريخ مع المجموعة الثانية من الرسل الكرام ـ حيث نلتقى بعد هود ـ بصالح .. ثم نشرف بلقاء خليل الرحمن ... أول المسلمين .. ابراهيم ـ عليهم جميعا السلام ..

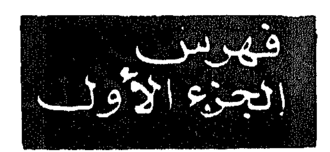
---

(١) البيضاوى ٤٨/هود

(٢) القرطبى ٥٩/الاعراف

(٣) البيضاوى والكشاف ٢٨ نوح

(٤) البيضاوى والكشاف ٢٨ نوح



صفحة

بسم الله الرحمن الرحيم

(وكلا نقص عليك من
أنباء الرسل ما نثبت به
فؤادك وجاءك فى هذه الحق
وموعظة وذكرى
للمؤمنين ..)

صدق الله العظيم

« ١٢٠ هود »

بسم الله الرحمن الرحيم

«الم تر كيف فعل ربك بعاد ارم ذات العماد التى لم يخلق مثلها فى البلاد»

صدق الله العظيم

○ من نبأ هود مع قوم عاد

مقدمة

ورث الأرض . بعد طوفان نوح ـ عليه السلام ـ أبناؤه الثلاثة : سام وحام ويافت فنزل سام فى الشرق الاوسط ونزل حام فى القارة السوداء .. فهو أبو السود .. أما يافت فقد ورث شمال الأرض وغربها .

واذا كان حديث رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الذى ذكره أبو اسحاق الثعلبى وابن كثير والذى قال فيه « ولد نوح ثلاثة : سام وحام ويافت .. فسام أبو العرب وفارس والروم ، وحام أبو السود ، ويافت أبو الترك » (١) .. فلعل قوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ ابو الترك يقصد به المنطقة الشمالية بعد الطوفان .

***

وبين المثقفين خطأ شائع .. كثيرا ما نقرؤه فى الصحف .. حيث يطلقون على سكان امريكا .. ابناء العم سام وهذا قول واضح البطلان .. لان الامريكيين .. هم ابناء العم يافت .. ولهذا ينتشر بينهم اسم .. جنرال يافت .. واما ابناء سام فهم سكان منطقة الشرق الاوسط .

***

وقصتنا هذه التى نحن بصدد عرضها .. تدور احداثها فى جنوب الجزيرة العربية .. حيث يقيم نسل عاد ابن عوص بن ارم بن سام بن نوح (٢) : .. وهو عاد الأولى .. ومساكنهم فى أرض الاحقاف (٣) .. فى شمال حضرموت وعمان .. كان ملكهم من رمل عالج .. الى شحر عمان (٤) .. وعالج هى مناطق العوالق العليا والسفلى بجمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية .. وشحر عمان .. لعلها « صحار » الآن على خليج عمان .. وقال ابن عباس .. هو واد بين عمان ومهره (٥) .. والمهرة منطقة فى اليمن الجنوبية الآن. والأحقاف الآن .. رمال هشة .. شديدة النعومة .. يقال انها تبتلع كل ما يقع فوقها .. ويسمونها منطقة الرمال المتحركة .. بالربع الخالى من المملكة العربية السعودية .

وقد ذكر لى بعض من اشترك فى حرب اليمن عام ١٩٦٣ أنه شاهد بنفسه بعض المظليين المصريين .. يهبط فى هذا الربع الخالى .. فابتلعته امواج الرمال .. كما تبتلع الغريق مياه المحيط .

(١) تفسير ابن كثير ٩٢ الكهف .. نقلا من مسند الامام احمد .

(٢) النسفى والبيضاوى ٦٥ / الاعراف .

(٣) الاحقاف : جمع حقف ـ وهو رمل مستطيل مرتفع فيه انحناء .. من احقوقف الشىء اذا اعوج .

(٤) من البيضاوى والكشاف والنسفى ٦٩ / الاعراف .

(٥) النسفى ٢١ / الاحقاف .

ولعل تحت هذه الرمال الآن .. ثروات علمية .. لو كشفت لكانت عظيمة القيمة .. تبين عن مدينة عظيمة مطمورة تحت تلك الكثبان .. فقد اخبرنا الله تعالى عن تمكين هؤلاء القوم ـ قوم عاد ـ في العلوم والمكتشفات وقدرتهم على انشاء المصانع .. وبناء الآيات .. وتشييد المدن .. ذات العمد .. مما لا يوجد مثله فى البلاد .. اقرا قوله تعالى عنهم :

« ولقد مكناهم فيما ان مكناكم فيه ، وجعلنا لهم سمعا وابصارا وافئدة » ٢٦/ الاحقاف . واقرا ايضا قول هود ـ عليه السلام ـ لهم :

« اتبنون بكل ريع آية تعبثون ، وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون » ١٢٨ ـ ١٢٩/الشعراء . وتامل كذلك .. قوله تعالى :

« الم تر كيف فعل ربك بعاد ، ارم ذات العماد ، التى لم يخلق مثلها فى البلاد » ٦ ـ ٨/الفجر .

***

وقد ذكر الاستاذ عبد الوهاب النجار .. فى كتابه « قصص الأنبياء » ان السيد عبد الله بن احمد بن عمر ابن يحيى العلوى .. من اهل حضرموت .. اخبره شخصيا .. انه قام فى جماعة الى احدى المدن البائدة فى شمال حضرموت ونقب فيها .. وعثر على بعض الآنية الجميلة .. المصنوعة من المرمر الجيد .. عليها كتابة بالخط المسمارى .. ثم ترك التنقيب .. لمضايقة البدو له..وعدم قدرته المالية .

***

اما ما ورد فى كتاب القسطلانى فى صفحة « ٣٣٣ » الجزء الخامس .. من ان قوم عاد كانوا يسكنون بين رمال مشرفة على البحر باليمن .. فهذا غير صحيح .. لأن الاحقاف تقع فى شمال حضرموت .. اما القسطلانى .. فيجعلها فى جنوبها .. على المحيط الهندى .. وهذا مخالف للواقع المعروف .

□ □ □

١ من أشد مناقوة

كان قوم عاد من المترفين فى الحياة الدنيا .. « واترفناهم فى الحياة الدنيـا » ٣٣/المؤمنون .. بواهم الله ارضـا .. تدر عليهم الخيرات .. وتنبت لهم الكلأ والعشب الكثير .. ومكن لهم فى ديارهم .. يبنون الآيات المعجزات .. والقصور الشـامخات .. وابراج الحمام .. وانشأوا المصانع الضـخمة .. مما يدل على انهم كانوا اهل علم دنيوى .. وهذا واضح .. فى قول رسولهم لهم : « اتبنون بكل ريع آية تعبثـون وتتخذون مصـانع لعلكم تخلدون » ١٢٨ - ١٢٩/الشعراء .

***

ويدل على كثرة عددهم .. ما ذكره جميع المفسرين من أن عدد الناجين منهم من الهلاك كان اربعـة آلاف نفس . لقـد أعطـاهم الله سـبحانه فـوق عطائه المادى .. من القـوة وضخامة الأجسام .. مالم يعط غيرهم ..

يقول الله تبارك وتعالى - عنهم « واذكروا اذ جعلكم خلفـاء من بعد قوم نوح وزادكم فى الخلق بسطة » ٦٩/الاعراف أى زادكم عظما وطولا .. وقوة وشدة .

وقد اجمع المفسرون - حول تلك الآية - على أنهم كانوا طوال الأجسام بدرجة تخرج عن نطاق العقل .. فقالوا أن اقصرهم كان طوله سـتين ذراعا وأطولهم مائة ذراع .. بل وقال الامام النسـفى .. كان طول الرجل أربعمائة ذراع (١) « وقال هذا أيضـا صـاحب تفسير الكشاف فى سـورة الفجر . ومن حقنا .. ان نتخيل قوتهم .. عندما نرى الرجل منهم يقتلع الصـخرة الضـخمة من الجبل بيده (٢) وزاد الكشاف .. أنه كان يلقيها على الحى فيهلكهم .. بل وذكر صاحب نفسير القرطبى .. حول معنى الآية « وزادكم فى الخلق بسطة » ٦٩/ الاعراف .. ذكر رواية عن وهب .. تقول :

كان راس احدهم مثل قبة عظيمة .. وكان عين الرجـل يفرخ فيها السـباع .. وكذلك مناخرهم .. كما ذكر رواية عن أبى هريرة .. قال « كان الرجـل من قـوم عاد .. يتخـذ المصراعين من حجارة .. لو أجتمـع علبهـا خمسمائة رجل من هذه الأمة .. لم يطيقوه .. وكان احدهم يغمر الأرض برجله .. فتدخل فيها (٣) .

***

أقـول لولا أن الله - عز وجـل - قال فى وصفهم « وزادكم فى الخلق بسطة » .. لقلنا ان فى تلك الأقوال مبالغـة لا يقبلها العقل .. ولكن كيف يقف العقل .. أمام قدرة القادر ، وقوة القوى ؟ ..

لقد وفر الله لهم .. كل أسباب السعادة فى الدنيا من رزق وفير .. وخير كثير .. فقد كانوا .. أهل بساتين وزرع وعمارة .. وكانت

---

(١) النسفى ٨ / الفجر .

(٢) من الكشاف والبيضاوى والنسفى ١٥ / فصلت .

(٣) القرطبى ٦٩ / الاعراف .

بلادهم أخصب البلاد .. ووهبهم تلك الأجسام القوية .. والعقول المفكـرة المدبرة .. وفجر لهم من وسائل العلم .. ما يمكنهم من الرفاهـة .. وبلهنية العيش ..

وارى كل هذا واضحا فى قوله تعالى عنهم : « وجعلنا لهم سمعا وابصـارا وافئـدة » ٢٦/الأحقاف وتلك هى مقومات الفكر والعلم .

ولكنهم بدلا من شـكر الله على نعمه التى لا تحصى .. وآلائه التى لا تستقصى .. وحمده على هذا الفضل الواسع العريض .. صـدق عليهم قول اللطيف الخبير « ان الانسان ليطغى .. أن رآه استغنى » .

فطغوا وبغوا .. وافسدوا فى الارض .. بطشا وظلما .. وكفرانا .. وعتوا .. يقول لهم رسولهم :

« واذا بطشتم بطشـتم جبارين » ١٣٠/ الشعراء .

والشر كالبئر .. ان زلت القدم فى حافته .. لابد ان يهوى صاحبها الى القاع .. فزين لهم الشيطان سوء أعمالهم .. فنسـوا ربهم وخالقهم ورازقهم .. واتخذوا اصناما يعبدونها .. وقد ورد عن ابن عباس ان آلهتهم كانت ثلاثة : صداء ـ وصمود ـ والهباء (١) .

□ □ □

(١) الكشاف ٧١ / الاعراف .

٢ رسول

ارسل الله سبحانه ـ اليهم هودا ـ عليه السلام ـ وكان هود .. من احدى قبائلهم يقال لها قبيلة ـ خلود ـ نسبة الى خلود ابن عاد بن عوص بن أرم بن سام بن نوح ..

وكان من أوسطهم نسبا .. وأصبحهم وجها .. وكان فى مثل أجسامهم .. أبيض .. طويل اللحية .. وهو .. هود بن عبد الله بن رياح بن الخلود بن عاد بن عوص بن ارم بن سام بن نوح فكان بين هود ونوح سبعة آباء ..

دعاهم الى عبادة الله .. وأمرهم بتوحيده ونهاهم عن الظلم والطغيان .. والبطش والكفران .. فأبوا .. وقالوا « من أشد منا قوة » ؟

ويرد عليهم القرآن الكريم .. ردا عقليا منطقيا .. بقوله « أولم يروا ان الله الذى خلقهم هو اشد منهم قوة » . هاجموا هودا بالسب والشتم .. فكان يلقاهم بالعفو والصفح .. قالوا له :

« انا لنراك فى سفاهة ، وانا لنظنك من الكاذبين ، قال يا قوم ليس بى سفاهة ولكنى رسول من رب العالمين ، ابلغكم رسالات ربى وأنا لكم ناصح أمين » ٦٦ ـ ٦٨/الأعراف .

وهكذا يعلم الله ـ سبحانه وتعالى ـ الدعاة .. كيف يخاطبون السفهاء .. وكيف يغضون عن اذاهم .. ويتجاوزون عن سيئاتهم .. ويسبلون أذيالهم على ما يكون منهم .. من سب وأذى .

وظل هود يذكرهم بآلاء الله ونعمه .. وأفضاله عليهم وكرمه .. ويخوفهم بطشه وعذابه .. ويضرب لهم المثل .. بمن سبقهم .. من قوم نوح « واذكروا اذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح ، وزادكم فى الخلق بسطة ، فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون » ٦٩/الاعراف.

قالوا : ياهود .. كيف تنهانا أن نعبد ما وجدنا عليه آباءنا ؟ .. لقد أصابتك آلهتنا .. بالخبل والجنون لما عبتها .. وحاولت صرفنا عن عبادتها .. فأنت مجنون « ان نقول الا اعتراك بعض آلهتنا بسوء » ٥٤/هود .. اى مستك الآلهة بخبل وجنون .. ظنا منهم .. ان هذا الاتهام .. يصرف الناس عن اتباعه .. والاستماع الى دعوته ..

□ □ □

وليس بعجب .. من أولئك .. ان يسموا التوبة والاستغفار .. خبلا وجنونا .. وهم عاد .. أعلام الكفر .. وأوتاد الشرك .. قوم جفاة غلاظ الأكباد.. لا يبالون بالبهت ..ولا يلتفتون الى النصح .. ولا تلين شكيمتهم للرشد .. فأعلن لهم براءته .. من تلك الآلهة .. التى لا تضر ولا تنفع .. ولا قدرة لها على أن تمسه بسوء « قال انى اشهد الله واشهدوا أنى برىء مما تشركون من دونه ، فكيدونى جميعا ، ثم لا تنظرون » ٥٤ ـ ٥٥/هود .. أى لا تؤجلون تدبيركم ضدى . تحداهم هود بمفرده .. رجل واحد .. يواجه بهذا التحدى أمة عطاشا .. الى اراقة دمه .. يرمونه عن قوس واحد .. وما ذلك .. الا لثقته بربه .. وانه يعصمه منهم فلا تنشب فيه مخالبهم .. فناصية كل دابة على الأرض .. بيده وحده فقال « انى توكلت على الله ربى وربكم ، ما من دابة الا هو آخذ بناصيتها »ان ربى على صراط مستقيم » ٥٦/هود ..

وقد خص الناصية .. لان الحيوان .. ينقاد لك اذا امسكت بشعرنا صيته .. وكانت العرب .. تجز ناصية الأسير .. اذلالا له .. وقال الترمذى الحكيم .. فى « نوادر الأصول » حول قوله تعالى « ما من دابة الا هو آخذ بناصيتها » ..

وجهه عندنا .. أن الله تعالى .. قدر مقادير أعمال العباد .. ثم نظر اليها .. ثم خلق خلقه .. وقد نفذ بصره فى جميع ما هم فيه عاملون .. من قبل ان يخلقهم .. فلما خلقهم .. وضع نور تلك النظرة .. فى نواصيهم .. فذلك النور آخذ بنواصيهم .. تجريهم الى أعمالهم المقدرة عليهم يوم المقادير ..

وخلق الله المقادير .. قبل ان يخلق السماوات والأرض بخمسين الف سنة .. رواه عبد الله بن عمرو بن العاص .. قال .. سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول :

« قدر الله المقادير قبل ان يخلق السماوات والأرض بخمسين الف سنة » .. ولذلك قويت الرسل .. وصاروا من أولى العزم .. لأنهم لاحظوا نور النواصى .. وايقنوا ان جميع الخلق منقادون .. بتلك الأنوار الى ما نفذ بصره ـ سبحانه ـ فيهم من الأعمال .. فأوفرهم حظا من الملاحظة .. أقواهم عزما .. ولهذا قال هود : « فكيدونى جميعا ثم لا تنظرون ، انى توكلت على الله ربى وربكم ، ما من دابة الا هو آخذ بناصيتها » « ا هـ ويعلق القرطبى على هذا فيقول (١) .

سميت ناصية .. لان الاعمال .. قد نصت وبرزت من غيب الغيب .. فصارت منصوصة فى المقادير قد نفذ بصر الخالق فى جميع حركات الخلق بقدرته .. ثم وضعت حركات كل من دب على الأرض حيا فى جبهته .. بين عينيه .. فسمى ذلك الموضع منه ناصية .. لأنها تنص حركات العباد بما قدر .. فالناصية مأخوذة بمنصوص الحركات .. التى نظر الله ـ تعالى ـ اليها .. قبل أن يخلقها .. ووصف الله ناصية ابى جهل .. فقال « ناصية كاذبة خاطئة » يخبر سبحانه ـ أن النواصى .. فيها كاذبة خاطئة ..

تحداهم هو بمفرده .. لم تفزعه قوتهم .. او يرهبه بطشهم وجبروتهم ..

وهكذا يفعل الايمان بنفس المؤمن .. يمنحه قوة .. تصغر امامها كل قوة .. فالانفعال بالايمان اشبه بانفعال الدجاجة الضعيفة .. اذا اقترب ثعبان .. مثلا .. من فراريجها الصغار .. تنقلب الى نسر كاسر .. فتهاجم العدو .. وتدميه نقرا وضربا ـ على الرغم من قوته وضعفها ـ حتى تقتله .. أو يفر منها نجاه بنفسه من الهلاك ..

وقد تحدى نوح قومه .. بمثل هذا التحدى .. من قبل هود .. حيث قال لهم « ثم اقضوا الى ولا تنظرون » ٧١ يونس ..

نفس القوة .. ونفس اليقين .. ونفس الايمان .. وبنفس التحدى ..

لم تفدهم هذه المواعظ .. وتلك الزواجر وكأن قلوبهم وعقولهم فى اكنة مما يدعوهم اليه .. ولم يزدادوا الا اصرارا على كفرهم .. وتمسكا بأصنامهم .. وغلوا فى عنادهم وطغيانهم .. بل ترقوا فى تحديه .. قائلين « فأتنا بما تعدنا ان كنت من الصادقين » ٧٠ الأعراف يقصدون قوله لهم « انى اخاف عليكم عذاب يوم عظيم » ١٣٥/الشعراء . وحينئذ قال لهم هود غاضبا « قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب » والرجس .. هو العذاب . وقد قال : وقع .. بلفظ الماضى .. يقينا منه .. بأن العذاب واقع .. والبلاء ما له من دافع ..

واشتد فى لومهم .. وتأنيبهم .. وتسفيه احلامهم .. وبيان ما هم فيه .. من ضلال .. بترك التوجه الى الله .. الخالق الرازق .. القائم على كل نفس بما كسبت .. والركون الى أولياء وشفعاء ووسطاء ... رمزوا لهم بتماثيل وصور لا تملك لنفسها نفعا ولا ضرا .. **« أتجادلوننى فى أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم .. ما أنزل الله بها من سلطان ، فانتظروا ، انى معكم من المنتظرين »** ٧١/ الاعراف .

هذه الأسماء ... مثل العزى .. من العزة .. واللات .. من الالهية .. وليس لها من العزة والالهية شىء ..

---

(١) ٥٦ / هود .

٣ وفد عاد إلى البيت الحرام

عتا قوم عاد .. وعصوا رسولهم .. وكذبوا وجحدوا بآيات ربهم واتبعوا أمر كل جبار عنيد من ملأ قومهم ... وكانوا أصحاب زرع وبساتين .. وأنعام وبنين .. كما قدمنا ..« واتقوا الذى أمدكم بما تعلمون أمدكم بأنعام وبنين وجنات وعيون » ١٣٢ ـ ١٣٤/ الشعراء/ فكانت أول حاجتهم الى الماء .. يروون به مزارعهم وحدائقهم .. ويشربون منه .. ويسقون أنعامهم ...

فأمسك الله عنهم المطر .. مدة من الزمن .. مروا فيها بمراحل .. من الجهد المضنى .. والهلاك المحقق .. وكانوا كلما اشتد بهم الجهد .. ذكرهم هود .. بأنه لا نجاة لهم الا بالعودة الى الله .. والاستغفار مما ارتكبوا من الآثام .. مبينا لهم .. انه ناصح امين .. لا يبغى لهم الا سعادة الدنيا .. ونعيم الآخرة « وياقوم استغفروا ربكم ، ثم توبوا اليه يرسل السماء عليكم مدرارا ، ويزدكم قوة الى قوتكم ولا تتولوا مجرمين » ٥٢/ هود .

وجاء فى جميع التفاسير .. حول هذه الآية « ويزدكم قوة الى قوتكم » أن الله منع عنهم المطر .. ثلاث سنين .. واعقم ارحام نسائهم .. ثلاثين سنة .. وقالوا ان المقصود بزيادة القوة .. اى يمنع العقم عن نسائكم فتنجبون البنين الذين يقوى بهم جانبكم .. وتزدادون بهم قوة ..

والملاحظ فى قصة نوح وهود .. هو طلب الاستغفار من قومهما .. وبيان أن الاستغفار .. له اثر كبير .. فى زيادة الغيث والبنين .

وقد ورد عن الحسن بن على .. رضى الله عنهما .. أنه وفد على معاوية .. فلما خرج من عنده .. قال له بعض حجاب معاوية .. يا بن بنت رسول الله .. انى رجل ذو مال .. ولا يولد لى ... فعلمنى شيئا .. لعل الله يرزقنى ولدا .. فقال له الحسن .. عليك بالاستغفار .. فكان يكثر الاستغفار .. حتى كان يستغفر فى اليوم سبعمائة مرة .. فولد له عشرة بنين .. فبلغ ذلك معاوية فقال للحاجب ، هلا سألته مم قال ذلك ؟ .. فوفد الحسن .. وفدة اخرى .. فسأله الرجل ... فقال : الم تسمع قول هود « ويزدكم قوة الى قوتكم » وقول نوح « ويمددكم بأموال وبنين » ؟ ..

أمسك الله عن قوم عاد المطر ثلاث سنين ..حتى جهدوا واشرفوا على الهلاك .. وفى مثل تلك الحال .. كانوا يلجأون الى طلب الفرج من الله .. عند بيته المحرم .. مسلمهم وكافرهم .. وكانوا جميعا .. يعظمون بيت الله ويقدسون سكانه « العماليق » .. فى هذا الحين .. وقد سمى اهل مكة العماليق .. لانهم كانوا من نسل عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح .. وسيدهم اذ ذاك .. رجل يقال له معاوية بن بكر ..

ذكر المفسرون .. **أن قوم عاد .. جهزوا وفدا .. يتوجه الى البيت الحرام .. لطلب الفرج من رب البيت (١)** .. وكان على رأس الوفد .. **قيل بن عنزة .. والقيم بن هزال بن هزيل .. وغبيل ابن ضد بن عاد الأكبر .. ولقمان بن عاد بن ضد بن عاد الأكبر .. ومعهم**

(١) جاء ذكر هذا الوفد فى جميع كتب التفسير تقريبا ٧١/٧٢/ الاعراف .

مرثد بن سعد .. وكان مرثد هذا مسلما يكتم اسلامه (١) ..

وخرج معهم الكثير من قومهم .. وبلغ عدد الوفد .. سبعين رجلا ..

وتحرك ركب الوفد .. حتى وفدوا على مكة بعد مسيرة شهر .. ونزلوا عند سيدها .. معاوية بن بكر — وكان بظاهر مكه .. خارج الحرم .. فأكرم وفادتهم .. وكانوا اخواله وأصهاره .. فقدم لهم الطعام والخمر .. وطاب لهم المقام فى مكانهم هذا شهرا .. يأكلون .. ويعقرون الخمر .. وتغنيهم « الجرادتان » وهما جاريتان لمعاوية بن بكر .. سيد مكه .. فلما رأى معاوية طول مقامهم ، ولهوهم ونسيانهم المهمة التى وفدوا من اجلها .. وقد بعثهم قومهم .. يستغيثون من البلاء الذى أصابهم .. شق ذلك عليه .. وقال فى نفسه : لقد هلك اخوالى واصهارى .. وهؤلاء مقيمون عندى .. وهم ضيفى .. والله ما أدرى كيف أصنع ؟ .. انى لأستحى ان آمرهم بالخروج الى ما بعثوا اليه .. فيظنوا انى ضقت بهم وبضيافتهم .. وقد هلك قومهم جهدا وعطشا ..

وهداه تفكيره .. فألف شعرا غنته لهم الجرادتان وهم سكارى :

الا ياقيل ويلك قم فهينم (٢)
لعل الله يمنحنا الغماما

فيسقى أرض عاد ان عادا
قد امسوا لا يبينون الكلاما

من العطش الشديد فليس نرجو
به الشيخ الكبير او الغلاما

وقد كانت نساؤهمو بخير
فقد أمست نساؤهمو عيامى

وان الوحش يأتيهم جهارا
ولا يخشى لعادى سهاما

وأنتم ها هنا فيم اشتهيتم
نهاركمو وليلكمو تماما

فقبح وفدكم من وفد قوم
ولا لقوا التحية والسلاما

وهنا تنبهوا .. وقال بعضهم لبعض .. ياقوم .. لقد بعثنا قومنا .. يستغيثون بنا .. من البلاء والهلاك .. فهيا ندخل الحرم .. لنستسقى لهم .. وقد ابطأنا عليهم .. فقال **مرثد بن سعد ..** الذى آمن بهود سرا : انكم والله .. لا تسقون بدعائكم .. ولكن ان اطعتم نبيكم .. وانبتم الى ربكم .. واستغفرتموه .. سقيتم فاظهر اسلامه لهم .. فطلبوا من معاوية .. أن يحبس عنهم مرثد بن سعد .. حتى لا يدخل معهم الحرم .. لأنه تبع دين هود .. وترك دين آبائهم .. وقال عنه جهامة « بن الخبيرى » خال معاوية :

أبا سعد « فانك من قبيل
ذوى كرم وأمك من ثمود (٣)

فانا لا نطيعك ما بقينا
ولسنا فاعلين لما تريد

اتامرنا لنترك دين رفد
ورمل وآل ضد والعبود

ونترك دين آباء كرام
ذوى راى ونتبع دين هود

***

وذهب الوفد الى البيت الحرام .. وقام رئيسهم .. قيل ابن عنزة يدعو .. فقال : اللهم لم اجىء لمريض فأداويه .. ولا لأسير فافديه .. اللهم اسق عادا ما كنت تسقيهم .. فانشأ الله سبحانه — سحائب ثلاث : واحدة بيضاء .. وواحدة حمراء .. وواحدة سوداء .. وسمع مناد يناديه من السحاب .. **ان ياقيل .. اختر لنفسك ولقومك واحدة** من تلك السحائب .. فقال : لقد اخترت السوداء .. فانها أكثر السحب ماء .. (٤) .

وقال ابو اسحاق الثعلبى : ان قيل بن عنزة .. لما اختار السحابة السوداء .. ناداه المنادى من السحاب :

لقد اخترت رمادا رمددا .. فلم تبق من آل عاد احدا .. لا والدا تتركه ولا ولدا .. الا جعلتهم رميما همدا ..

---

(١) الكشاف والبيضاوى والنسفى ٦٦ / هود .

(٢) الهينمة : الصوت الخفى .

(٣) ثمود : بلد شمال حضرموت الآن .

(٤) بهذا المعنى فى الكشاف والبيضاوى والنسفى ٧١/٧٢/ الاعراف .

٤ ريح صرصر عاتية

اصبح قوم عاد .. فى ديارهم .. وقد ساق الله عليهم السحابة السوداء .. التى اختارها .. فيل بن عنزه .. دخلت عليهم .. من واد .. يقال له .. المغيث ..

فلما راوها .. فرحوا .. واستبشروا .. وظنوها سحابة ممطرة .. تروى زرعهم .. وتسقى انعامهم .. وتنقذهم من الهلاك الذى هم فيه ..

« فلما راوه عارضا مستقبل اوديتهم ، قالوا هذا عارض ممطرنا ، بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم ، تدمر كل شيء بأمر ربها » ٢٤ ـ ٢٥/الأحقاف .

وكان اول من عرف مافيها .. من العذاب والدمار .. امراة من قوم عاد .. لما رات السحابة .. صرخت .. ثم صرعت .. فلما افاقت .. سألوها عن سبب صراخها .. قالت : رأيت ريحا .. فيها كشهب النار .. امامها رجال غلاظ يقودونها ..

وقد سمى الله سبحانه ـ هذه الريح .. التى اهلكت عادا .. بأسماء مختلفة ، منها :

١ ـ الصيحة « **فاخذتهم الصيحة بالحق** » ٤١ المؤمنون .

٢ ـ العذاب الأليم « **بل هو ماستعجلتم به** ريح فيها عذاب اليم » ٢٤ الاحقاف .

٣ ـ الريح العقيم « **وفى عاد اذ أرسلنا عليهم الريح العقيم** » ٤١/الذاريات .

٤ ـ وسماها الصرصر .. كما فى الآيات :

« فأرسلنا عليهم ريحا صرصرا فى أيام نحسات » ١٦/فصلت .

و « **وأما عاد فاهلكوا بريح صرصر عاتيه ، سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما** » ٦/الحاقة .

و « **انا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا فى يوم نحس مستمر** » ١٩/القمر .

ونلاحظ ان اسم « صرصر » ورد فى ثلاثة مواضع .. بخلاف الأسماء الأخرى .

والريح الصرصر .. هى الريح الحلزونية العاصفة .. المهلكة لكل شيء ..

وقد ورد فى القرآن الكريم .. ريح اخرى .. نصف صرصر .. « **كمثل ريح فيها صر ، أصابت حرث قوم ظلموا انفسهم فأهلكته** » ١١٧/آل عمران .

وكما لاحظنا أن الريح الصرصر .. تهلك كل شيء .. نلاحظ ايضا أن الريح « الصر » تهلك الزرع فقط .

تتابعت عليهم تلك الريح .. سبع ليال .. وثمانية أيام حسوما .. أى متتابعة .. حتى أهلكتهم جميعا .. واجمع المفسرون .. على أنها كانت فى آخر شوال من صبيحة يوم الأربعاء .. الى مساء الأربعاء التالى .. وقال ابن عباس : ما عذب قوم الا فى يوم الأربعاء (١) أمسك الله تعالى عنهم المطر .. وسلط عليهم كثرة الرياح من غير مطر .

---

(١) فى جميع كتب التفسير تقريبا ١٦ / فصلت ـ والنص من القرطبى .

واذا اراد الله بقوم شرا .. حبس عنهم المطر .. وسلط عليهم كثرة الرياح .. واذا اراد بقوم خيرا .. ارسل عليهم المطر .. وحبس عنهم كثرة الرياح (١) .

وقال أمية بن الصلت :

فاهلكوا بعذاب حص دابرهم
فما استطاعوا له صرفا ولا انتصروا

وقال عبد العزيز بن زراره الكلابى :

ففرق بين بينهمو زمان
تتابع فيه أيام حسوم

ارسل الله سبحانه ـ عليهم تلك الريح **الحلزونية العاصفة** .. التى نرى بعضها الآن .. مخففة جدا .. فى الأيام التى مازالت تحمل اسم « حسومات » فى آخر فصل الشتاء .. ويقولون ايام العجوز .. وذلك ان عجوزا من عاد .. توارت فى سرب .. فانتزعتها الريح .. فى اليوم الثامن فأهلكتها .. وقيل أيضا .. هى أيام العجز .. لأنها عجز الشتاء .. أى آخره .

وذكر الكشاف اسماءها .. وهى :

الصن ، والصنبر ، والوبر ، والآمر ، والمؤتمر ، والمعلل ، ومطفىء الجمر ، وقيل : مكفىء الظعن (٢) .

ارسل الله عليهم تلك الريح .. جبارة عاتية .. فكانت تنزع الناس من داخل منازلهم الى الخارج فتلف الرجل .. صاعدة به .. فى طبقات الجو العليا .. حتى يكون للرائى فى حجم العصفور .. ثم تأتيه ريح عكسية .. من أعلاه .. فتدكه فى الأرض .. مرتطما .. من أسفل عجزه .. فيندك رأسه .. كاسرا عظمتى الترقوة .. ويستقر الرأس من داخل الجسم على استه .. فتراه كالقدح المجوف .. من الداخل ..

هذا التشبيه الرائع .. واضح فى قوله تعالى :

« واما عاد فاهلكوا بريح صرصر عاتية ، سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما ، فترى القوم فيها صرعى ، كانهم أعجاز نخل خاوية » ٦/٧الحاقه .. فهم لطول اجسامهم كانهم جذوع نخل . وتخيل أيضا .. نفس التشبيه .. فى قوله سبحانه :

« كذبت عاد فكيف كان عذابى ونذر ، انا ارسلنا عليهم ريحا صرصرا فى يوم نحس مستمر ، تنزع الناس كانهم أعجاز نخل منقعر » ١٨ ـ ٢٠/القمر .

وقال اولو العلم : بعث الله على عاد الريح العقيم ، فلما دنت منهم .. نظروا الى الابل والرجال تطير بهم الريح بين السماء والأرض .. فتداروا فى البيوت ، فلما دخلوها .. دخلت عليهم الريح .. فأخرجتهم منها ، فهلكوا .. فلما أهلكهم الله تعالى ـ أرسل عليهم طيورا سودا فألقتهم فى البحر .

لم تدع الريح احدا من عاد .. الا اهلكته .. وكان هود ومن معه قد اعتزلوا .. فى حظيرة (٣) ما يصيبهم من الريح الا ما يلين جلودهم ، وتلذبه الأنفس ، وانها من عاد لطعن .. فتحملهم ما بين السماء والأرض .. وتدفعهم بالحجارة .. حتى هلكوا .

خرجت الريح على عاد من الوادى .. فقال تسعة رهط منهم ، أحدهم الخلجان .. وكان زعيمهم تعالوا .. حتى نقوم على رأس الوادى فنردها .. فجعلت الريح تدخل الى تحت الواحد منهم ، فتحمله .. ثم ترمى به فيندق عنقه .. حتى لم يبق الا الخلجان .. فوقف وقال :

لم يبق الا الخلجان نفسه
يا لك من يوم دهانى أمسه

فقال له هود ـ عليه السلام ـ ويحك يا خلجان .. أسلم تسلم .. فقال مالى عند ربك .. اذا اسلمت ؟ .. قال : الجنة .. قال : مالى بها .. فأتت الريح فألحقته بأصحابه .. وأهلكته ..

□ □ □

وتذكرنا صاعقة عاد بموقف بين قريش .. ورسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ..

فقد بعثت قريش عتبة بن ربيعة ـ وكان احسنهم حديثا ـ ليكلم رسول الله ـ صلى الله وعليه وسلم وينظر ما يريد .. فأتاه .. وهو ـ عليه السلام ـ فى الحطيم .. فلم يسأل شيئا الا أجابه .. ثم قرأ ـ عليه السلام من فصلت الى قوله تعالى :

---

(١) القرطبى ١٦ / فصلت .
(٢) الكشاف ٦ / الحاقه .. والظعن : هو الجمل الذى عليه هودج .
(٣) النسفى والبيضاوى ٢٥ / الاحقاف عن ابن عباس .

« فان اعرضوا فقل انذرتكم صاعقة مثل صـاعقة عاد وثمود » ١٣/فصلت . فناشـده عتبة بالرحم وامسك على فيه .. ووثب مخافة أن يصب عليه العذاب .. فأخبر قريشا بذلك .. وقال : لقد عرفت السـحر والشـعر .. فوالله ما هو ساحر .. ولا بشاعر .. فقالوا : لقد صبات .. اما فهمت منه كلمة ؟ فقال : لا .. ولم اهتد الى حـوابه .. فقال عثمان بن مظعون ـ وكان واقفا ـ ذلك والله .. لتعلموا انه من رب العالمين .. ثم بين لهم ما ذكـر من صاعقة عاد وثمود (١) وذكر القرطبى : ان سبعة من قـوم عـاد .. عنـدما هاجمتهم الريح .. حفـروا حفـرا .. وقاموا فيهـا .. ليردوا الريح .. وسمى منهم ستة من أشـد عاد .. واجسمها .. منهم : عمرو بن الحلى ، والحرث ابن شداد ، والهلقام ، وخلجان بن سعد .. فأولجـوا عيالهم فى شـعب بين جبلين .. ثم اصطفوا على باب الشعب ليردوا الريح عمن فى الشعب من العيال .. فجعلت الريح تجعفهم ـ اى تصرعهم رجلا .. رجلا فقالت امرأة عاد :

ذهب الدهر بعمرو بن حلى والهنيات
ثم بالحرث والهلقام طـلاع الثنيات
والـــذى ســـد مهـــب
الـــريح أيـــام البليـــات (٢)

كما ذكر القرطبى : عن محمد بن كعب .. عن ابيه .. قال :

قال النبى ـ صـلى الله عليه وسـلم ـ انتزعت الريح الناس من قبورهم . وقد سميت تلك الريح بالدبور .. لأنها قطعت دابرهم كما فى الصحيح .. عن النبى ـ صـلى الله وعليه وسـلم : « نصرت بالصـبا .. واهلكت عاد بالدبور » (٣) .

وروى عن رسـول الله ـ صـلى الله عليه وسلم ـ « ما ارسل الله سفينة من ريح .. الا بمكيال ، ولا قطرة من مطر .. الا بمكيال ، الا يوم عاد ونوح .. فان الماء يوم نوح .. طغى على الخزان .. فلم يكن لهم عليه سبيل .. ثم قرأ .. « انا لما طغى الماء حملناكم فى الجارية » .. وان الريح يوم عاد .. عتت على الخزان .. فلم يكن لهم عليها سبيل .. ثم قرأ « بريح صرصر عاتية » (٤) .

وافنى الله قوم عاد .. سوى من بقى منهم بمكة ونواحيها .. وقد أصاب قيل بن عنزة ـ رئيس وفدهم الى البيت الحرام ما أصـابهم ويصـل بنا البحث الى مدينـة ارم .. التى صدرنا بها نبأ هود ـ عليه السلام .

« الم تر كيف فعـل ربك بعاد ، ارم ذات العمـاد ، التى لم يخلق مثلهـا فى البـلاد » ٦/٨/الفجـر بعض المفسرين تقـول : ان ذات العماد .. صفة لقوم عاد بمعنى أن أجسامهم طويلة فارهة .. ولكن أغلب المفسرين .. على أن المقصـــود مدينتهم .. مدينـــة ارم .. واستدلوا بقراءة ابن الزبير ـ بعاد ارم ـ على الاضـافة .. اى عاد الأولى أصـحاب مدينة ارم ..

ولهذه المدينـة وصف غريب .. قرائه فى النسفى .. والبيضـاوى .. والكشـاف .. وقالوا : ان الله لم يخلق مثلها على سطح الأرض .. وموضـوعها : انه كان لعاد .. اثنان .. شداد وشديد .. فملكا وقهرا ثم مات شديد .. وخلص الأمر لشداد .. فملك الدنيا .. ودانت له ملوكها .. فسـمع بذكر الجنة .. فقال : ابنى مثلها .. فبنى مدينة ارم .. فى بعض صحارى عدن .. بناها فى ثلاثمائة سـنة وكان عمره تسـعمائة سـنة .. وهى مدينـة عظيمة .. قصورها من الذهب والفضـة .. وأسـاطينها من الزبرجد والياقوت .. وفيها أصناف الأشجار والأنهار .. ولما تم بناؤها .. سار اليها بأهله .. فلما كان منها على مسـيرة يوم وليلة .. بعث الله عليهم صيحة من السماء فهلكوا (٥) ..

وعن عبد الله بن قلابه .. أنه خرج فى طلب ابل له ، فوقع على تلك المدينة فحمل منهـا ما قدر عليه وبلغ خبره معاوية بن أبى سفيان .. فاستحضره .. وسأله عن ذلك .. فقص عليه ما رأى .. وما حصـل .. فبعث معاوية الى كعب .. فسأله .. فقال كعب : انها ارم ذات العماد .. وسيد خلها رجل من المسلمين

---

(١) النسفى والكشاف ١٣ / فصلت .
(٢) القرطبى ٢٠ / القمر .
(٣) القرطبى ٤١ ـ ٤٢ / الذاريات .
(٤) الكشاف ٦ / الحاقه .
(٥) النسفى والبيضاوى والكشاف ٧ / الفجر .

فى زمانك .. احمر .. اشقر .. قصير .. على حاجبه خال .. وعلى عقبه خال .. يخرج فى طلب ابل له .. ثم التفت .. فابصر ابن قلابة .. فقال : هذا هو والله ذلك الرجل (١) .

وقال مرثد بن سعد – حين بلغه خبر هلاك عاد – شعرا منه :

عصت عاد رسولهمو فامسوا
عطاشا ما تبلهم السماء

وسير وفدهم شهرا ليسقوا
فاردفهم من العطش العناء

الى ان قال :

وانى سوف الحق آل هود
واخوته اذا جاء المساء

ثم انه لحق بهود ومن معه .

« ولما جاء أمرنا نجينا هودا والذين آمنوا معه برحمة منا » ٥٨/هود .

واجمع المفسرون .. على ان الناجين معه ..كانوا اربعة آلاف .. نجاهم الله – سبحانه – برحمة منه .. ولن ينجو احد .. الا برحمة الله تعالى .

وفى صحيح مسلم والبخارى وغيرهما .. عن النبى – صلى الله وعليه وسلم .

« لن ينجى احدا منكم عمله » قالوا : ولا انت يا رسول الله ؟ قال :

« ولا انا .. الا أن يتغمدنى الله برحمته (٢)

● **وقال ابو الطفيل .. عامر بن واثلة :** سمعت عليا – رضى الله عنه – يقول لرجل من حضرموت : هل رأيت كثيبا احمر .. يخالطه مدرة حمراء .. واراك .. وسدر كثيرة .. بناحية كذا وكذا من حضرموت ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين .. وانك لتنعته لى نعت رجل قد رآه .. قال : لا .. ولكنى حدثت عنه . قال : الحضرمى : وما شأنه يا أمير المؤمنين ؟

فقال : فيه قبر نبى الله هود – عليه السلام (٣) .

□ □ □

---

(١) الكشاف والبيضاوى والنسفى ٧ / الفجر .
(٢) القرطبى ٥٨ / هود .
(٣) ابو اسحاق الثعلبى – والكثيب : الرمال . والسدر شجر النبق .

بسم الله الرحمن الرحيم

«وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى»

(صدق الله العظيم)

○ من نبأ صالح مع قوم ثمود

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الدنيا صراع دائم بين الحق والباطل .. كلما انتهت دولة الباطل وقامت كلمة الحق .. دار الزمن دورته .. وأعمل ابليس حيلته ، فما يلبث الباطل أن يزهو ويزدهر .. حتى يظن الناس أن الحق قد انتهى .. والخير قد مضى وانقضى .. ولكن دولة الباطل ساعة .. سرعان ان تتلاشى امام قوى الحق .. وأهل الخير دائما كشجرة طيبة .. تضرب جذورها في أعماق الأرض .. فاذا هبت عليها العاصفة عاتية جبارة .. مالت باغصانها الفارهة .. ذات اليمين .. أو ذات اليسار .. دون أن تقتلع جذورها .. أو تتخلخل اصولها .. حتى تمر العاصفة وتهدأ .. ثم تلوذ .. فتعود الشجرة قائمة على سوقها .. شامخة في أجواز الفضاء .. اشد اعتدالا .. وأقوم عظمة وشموخا .. وصدق رسول الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ عندما قال ((الله يخفض القسط ويرفعه)) فكان انخفاض القسط سابقا لارتفاعه .. لتكون النهاية دائما للحق .

ولعل هذا المعنى يتضح من قوله تعالى ((ونقذف بالحق على الباطل فيدمغه ، فاذا هو زاهق)) ..

وهكذا الدول .. كلما انتهت دولة الجور والظلم .. وحل مكانها حكم القسط والعدل .. عاد التاريخ الى سيرته الأولى والتاريخ قلب يعيد نفسه ..

فبعد هلاك دولة عاد .. قامت دولة ثمود .. وهى عاد الثانية .. من نسل ثمود بن عابر ابن ارم ابن سام بن نوح .. وقيل ثمود بن عاد ابن عوص بن ارم .

ارضهم بالحجر بين الحجاز والشام الى وادى القرى .. ومدائن صالح .. ظاهرة الى اليوم .. فى مكان يعرف هناك باسم « فج الناقة » ..

يقول المسعودي ـ رحمه الله : رممهم باقية الى اليوم .. وآثارهم بادية .. فى طريق من ورد من الشام وحجر ثمود .. فى الجنوب الشرقى من الأردن .. وهى مجاورة لخليج العقبة . ولفظ الحجر .. يحتمل بعض المعانى:

فالحجر : حجر الكعبة .. أو الحرام .. لقوله تعالى « وحجرا محجورا » .. اى حراما محرما .. والحجر أيضا : العقل » هل فى ذلك قسم لذى حجر » اى لذى عقل .

كما أن الحجر : حجر القميص .. وكذلك الحجر : انثى الفرس . والحجر : ديار ثمود .. وهى المدينة التى كانوا فيها .

وقال قتادة : هى ما بين مكة وتبوك .. وهو وادى ثمود (1) .. كما ذكرنا .. وكل تلك الأقوال كما نرى ـ متفقة على المكان .

ولكن اختلف المفسرون والمستشرقون فى اصلهم .. وانما الأغلب .. والأقرب الى المنطق .. انهم من نسل بعض من بقى من قوم عاد .. الذين كانوا ضمن الوفد الموفد الى بيت الله الحرام بمكة .. للاستسقاء لقومهم .. كما ذكرنا فى نبأ هود ..

هاجروا الى الشمال من مكة .. بعد هلاك قومهم بالأحقاف .. واستوطنوا الحجر فى

---

(1) القرطبى ٨٠ / الحجر .

الطريق الى الشـــام .. ويقول اهل حضرموت .. ان ديار ثمـــود كانت مستعمرات عاد .. وهذا غير بعيد .. ويؤيده قول صالح لقومه — قوم ثمود — « **واذكروا اذ جعلكم خلفاء من بعد عاد ، وبواكم فى الأرض ، تتخذون من سهولها قصورا ، وتنحتون الجبال بيوتا** » ٧٤/الاعراف.

وخاصة وقد علمنا فى نبأ هود .. أن شداد ابن عاد ، قد ملك المعمور من الأرض .. ودانت له ملوكها .

واما من قال من المستشرقين .. بانهـم من اليهود الذين خرجوا من مصر .. مع موسى .. واقاموا بالحجر .. ولم يدخلوا فلســـطين .. فهذا الرأى واضح البطلان ..

فالثابت انهـم كانوا قبل موسى — عليـــه الســلام — بزمن كبير .. ولعل هذا يتضح .. من قول — مؤمن فرعون — لقومـــه .. فى زمن موسى « **يا قوم انى أخـــاف عليـــكم مثل يوم الأحزاب ، مثل دأب قوم نوح وعـاد وثمـود والذين من بعدهم** » ٣٠ — ٣١/ غافر .

ولقـــد ظن المستشرقون هـــذا الظن .. لعثورهم فى مدائن صــــالح على بعض الكتابات الآرامية .. فوق بعض القبور .. وتأريخهـــا فى زمن قريب من زمن ميـــلاد المسيح — عليـــه السلام — ولا يعتبر هذا دليلا .. على أن هذه القبور من قبور ثمـــود .. فقد تكون بعـــدهم بآلاف السنين .

□ □ □

١ ناطحات السحاب

كان قوم ثمود .. أصحاب زرع وبساتين وجنات وعيون .. ونخيل جيدة الطلع .. وأنعام كثيرة .. وكانوا قوما عربا .. وجاء فى تفسير النسفى والقرطبى : روى أن عادا .. لما أهلكت .. عمرت ثمود بلادها .. وخلفوها فى الأرض .. وعمروا أعمارا طوالا .. وكانت أعمارهم بين الثلاثمائة سنة وألف سنة (١) .. حتى أن الواحد منهم .. كان يبنى بيته باحكام ومتانة .. ولكنه يهدم قبل موته .. فنحتوا البيوت من الجبال خشية هدمها قبل الممات .. وكانوا فى سعة رزق .. ورغد عيش ..

انظر الى قول نبيهم لهم « **أتتركون فى ما ههنا آمنين .. فى جنات وعيون ، وزروع ونخل طلعها هضيم ، وتنحتون من الجبال بيوتا فارهين** » ١٤٦ ــ ١٤٩ / الشعراء .

ولقد وقفت طويلا .. عند عبارة القرآن الكريم « وتنحتون من الجبال بيوتا فارهين » .. فعندما يقول تبارك وتعالى « فارهين » بعد قوله « وتنحتون من الجبال بيوتا » .. بل وفى موقع آخر يقول سبحانه ــ عنهم « تتخذون من سهولها قصورا ، وتنحتون الجبال بيوتا » ٧٤ / الاعراف ..

بدون ذكر « من » التبعيضية ، قبل كلمة الجبال ، .. فلابد أن تكون تلك البيوت .. بعيدة العلو .. شاهقة الارتفاع والضخامة .. ضاربة فى كبد السماء . فتخيل معى جبلا ــ مهما كان صغيرا وقد نحتت فيه الصالات والردهات .. وشقت فى جوفه الدهاليز والحجرات .. وتعددت الأدوار والطبقات لاشك أنها بيوت متناهية فى الضخامة .. مترامية فى السموق والعلو .. اين منها تلك العمارات التى نشيدها من مواد البناء ؟ .. وهل يناطح السحاب الا الجبال ؟ ..

وقد فتحت تلك القصور بابا من النقاش بين ائمتنا وعلمائنا .. حول جواز بناء القصور الشاهقة والعمارات الفارهة .. فبعضهم اجازها .. لقوله ــ صلى الله عليه وسلم ــ « اذا أنعم الله على عبد ــ أحب أن يرىأثر النعمة عليه » (٢) ــ ومن آثار النعمة .. البناء الحسن .. والثياب الحسن .

ولقوله تعالى « قل من حرم زينة الله التى اخرج لعباده والطيبات من الرزق » ١٣٢ / الأعراف وبعض العلماء كرهها .. ومنهم .. الحسن البصرى .. مستشهدين بقوله عليه الصلاة والسلام « اذا أراد الله بعبد شرا .. أهلك ماله من اللبن والطين » (٢) .

وأخذ القرطبى بالرأى الأخير .. واستشهد بقوله ــ عليه الصلاة والسلام « ليس لابن آدم حق .. فى سوى هذه الخصال الثلاث : ــ بيت يسكنه .. وثوب يوارى عورته .. وجلف الخبز والماء » أخرجه الترمذى .. ونحن نميل الى الرأى الأول .. مادامت العمائر تقام لأغراض الخير .. والايواء المباح .. والمتعة الحلال .. فتلك متطلبات العصر .. وديننا يتمشى مع كل

---

(١) النسفى والقرطبى ٦١ / هود .

(٢) الحديث من القرطبى ٧٤ / الاعراف .

(١) نفس المصدر . القرطبى ــ ٧٤ / الاعراف .

العصور والمدنيـات .. الى يوم أن يرث الله الأرض ومن عليها ..

اسبغ الله النعمـة كاملة .. على قوم ثمود .. وكعادة الجنس البشرى .. فى الغـالب .. اذا اسبغ الله على انسـان نعمه الوافـرة .. وشمله بفضله الوارف .. نسي المنعم وانشغل بالنعمـة ...

وتلك ثغرة ينفذ منها ابليس الى النفس .. فزين الشيطان لقوم ثمود سوء اعمالهم .. وان الاخسرين اعمالا هم : « الذين ضل سـعيهم فى الحيـاة الدنيـا وهم يحسبون انهم يحسنون صنعا » كما جاء فى اخر سورة الكهف . فوسوس لهم الشيطان .. باتخاذ اصنام يعبدونهـا .. وأوثان يقدسونها .. وهكذا يتوارث الأبنـاء الشرك عن الآباء ..

□ □ □

٢ العمى

اقتضت عدالة الله ــ سبحانه ــ الا يترك الضال فى ضـــلاله .. أو الظالم على ظلمه .. حتى يرسل اليه .. من ياخذ بيده فى الظلمات .. ليهديه الى طريق الهدى والنور .. ويفتح له أبواب الرشاد .. حتى لا تكون له الحجـــة عند ربه « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » . وأيضا « وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث فى أمهـــا رســـولا » .. فأرسل الى ثمود .. صالحا ــ عليه السلام .

وصالح هو ابن عبيد بن آسف بن ماشح ابن عبيد بن حاذر بن ثمود .. وكان صالح من أوسطهم نسبا .. وافضلهم حسبا .. بعثه الله اليهم رسولا .. فدعاهم الى عبادة الله وحده وشكره .. مذكرا لهم بنعمه عليهم .. ومبينا لهم آياته الدالة على توحيده .. وانه لا شريك له ..

أقام لهم الحجة تلو الحجة .. والدليل بعد الدليل .. على أن الله وحــده ، هو الذى يجب افراده بالعبادة دون ســـواه .. ويذكرهم بمن ســـبقهم من قوم عاد .. ويخوفهم بما أصابهـــم بسبب شركهم من الهلاك والدمار ..

فلم يتبعه الا القليل من المستضعفين .. أما عليـــة القـــوم فقالوا له .. مؤنبين موبخين : يا صالح .. لقد كنت فينا .. فى مركز السيادة .. تأمر فنطيع الأمر .. وتنادى فنلبى النداء .. وتشير فنبادر الى تنفيذ ما تريد .. ولكنك بهذا القول الذى تدعيه .. جعلتنـــا نخرج على طاعتك . اتريد منا .. أن نترك ما كان يعبـــد آباؤنا ؟ .. أنك لتهرف بما لا تعرف .. ولقـــد أصبحنـــا لا نصدق ما تقول .. ولا نؤمن بما تعتقد « قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجوا قبل هذا ، اتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا ، وأننا لفى شك مما تدعونا اليه مريب » ٦٢ / هود .

قال يا قوم .. اننى على بينة وثقة مما أقول لكم .. ولا أريد الا هدايتـــكم .. وهذا طريق النور .. واضح جلى امامكم .. فمالكم تحيدون عنه .. لتتخبطوا فى دياجير الظلمات .. وحالك المتاهات . انتم موقنون من صدقى .. واثقون من نصحى .. وما عهدتم فى غير ذلك ..

ونرى أن القرآن الكريم .. يقول فى تكذيبهم بصالح عليه الســـلام ــ **« كذب أصحاب الحجر المرسلين »** ٨٠ / الحجر .. المرســلين بالجمع .. مع أن الله لم يرسل لهم غير صالح .. ونفهم من هذا التعبير .. أن من كذب رسولا .. فقد كذب الرسل كلهم ..

كما يبدو من خلال تدبرنا .. لقصة صالح .. مع قومه ثمود .. أن أرضـــهم اجدبت فى الوقت الذى بعثه الله فيـــه اليهم .. لقولهم له « قالوا اطيرنا وبمن معك » ٤٧ / النمل .. أى تشاء منا .. ويلفت نظرنا أن نفس العبـــارة .. قالها أهل انطاكية ــ وهى قرية سورة « يس » **« واضرب لهم مثـــلا أصحاب القرية اذ جاءها المرسلون »** ١٣ / يس .. **فقال أصحاب القرية للرسل الذين أرسلهم عيسى ــ عليه الســـلام ــ « انا تطيرنا بكم لئن لم تنتهوا لنرجمنكم وليمسنكم منا عذاب أليم »** ١٨/يس ..

وهكذا قال قوم صـــالح له « اطيرنا بك وبمن معك » والتطير .. هو التشـــاؤم والشؤم نحس .. ولا شىء أضر بالرأى .. ولا أفنـــد للتدبير .. من اعتقـــاد الطيرة .. ومن ظن أن خوار بقرة .. أو نعيق غراب .. يرد قضـــاء محتوما .. ويدفع بلاء مقدورا فقد جهل أشـــد الجهـــل ..

وقال الشـــاعر :

طـيرة الدهـــر .. لا ترد قضـــاء .
فاعـــذر الدهـــر .. لا تشـــبه بلوم

اى يـــوم يخصـــــه بســــعود .
والمنــــــايا ينـــزلن فى كل يــــوم

ليس يـــوم الا وفيـــه ســـــعود
ونحـــوس تجـــرى لقـوم فقـــوم

وقد كانت العرب .. أكثر الناس طيره .. وكانت اذا ارادت سفرا .. نفرت طائرا .. فاذا طار يمنه .. ســـارت وتفاءلت .. وان طـار شمالا .. رجعت وتشاءمت .. فنهى النبى ــ صلى الله عليـــه وســـلم ــ عن ذلك .. وقال أقروا الطير على وكناتها « اى عشوشها » ..

ولهذا قال صـــالح لقومه **« قال طـــائركم معكم ، بل انتم قوم تفتنون »** ٤٧ / النمل / اى ان الله يختبركم ويمتحنـــكم « ونبلوكم بالشر والخير فتنـــة فالله ــ ســـبحانه ــ دائما يختبر النــــاس بالشر ليصبروا كما يختبرهم بالخـــير ليشكروا .. والانســــان « اما شـــاكرا واما كفورا » .

وعند الربط بين آيتين .. وردتا فى القرآن الكريم .. عن قوم ثمود .. الأولى : « واما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى » ١٧ / فصلت / والثانيـــة « وعادا وثمود ، وقد تبين لكم من مساكنهم ، وزين لهم الشيطان أعمالهم ، فصدهم عن السبيل وكانوا مستبصرين « ٣٨ / العنكبوت / .:. نجد أن الله سبحانه ــ فى الآيه الاولى : قرر هدايتهم .. ولكنهـــم احبوا العمى .. وفضلوه على الهدى ..

وفى الآية الثانية : يخبر الله ــ جل شأنه ــ انهم كانوا مستبصرين .. وهـــذا دليل .. على ان القوم كانوا متمكنين من النظر والاستبصـــار وأن الحجـــه قامت فى أذهانهم .. واستساغتها نفوسهم .. ولكنه الكبر والمكابرة .. والعنـــاد والاصرار على الغى والضـــــلال .. مثل قوم يوسف ــ عليه السلام ــ « ثم بدا لهم من بعـــد ما راوا الآيات ليسجننه حتى حين » أى بعد ان راوا آيات براءته ..

كان اهل ثمود .. عقـــلاء .. ذوى بصـــائر .. فلم تنفعهم بصـــائرهم .. وقد عرفوا الحق من الباطل .. بظهور البراهين .. « فاستحبوا العمى على الهدى » اختاروا الكفر على الايمـــان .. والعمى على البيـــان .. والمعصـــية على الطـــاعة ..

وهكذا جحـــدوا بآيات ربهم .. بعـــد ان استيقنتها انفسهم ظلما وعلوا .. دعاهم صالح حتى شـــمط (١) .. ولم يتبعـــــه الا قليل مستضعفون .. قالوا : يا صالح .. هيا بنـــا نخرج فى يوم العيد .. فندعو آلهتنا .. وتدعو الهك .. فان استجيب لنـــا تبعتنـــا .. وان استجيب لك تبعناك .. فرضى بهذا الأمر ..

وخرجوا جميعـــا .. ودعوا آلهتهم .. فلم تستجب لهم .. فقال له « جنـــدع بن عمرو » وهو يومئذ سيد ثمود .. مشـــيرا الى صخره ناتئة منفردة عن الجبل .. ناحيـــه الحجر .. يقال لها « الكاثبة » يا صالح .. ادع ربك .. يخرج لنا من هذه الصخرة .. ناقه مخترجة .. وبراء عشراء .. والمخترجـــة ما شـــاكلت البخت من الابل (٢) .. شرب الماء .. فتعطيه لنا لبنـــا .. ودعا صالح ربه .. بعد ان صلى ركعتين .. فتمخضت الصخرة تمخض النتـــوج بولدها .. ثم تحركت الهضبة .. فصدعت عن ناقة مخترجة .. وبراء .. عشراء .. كما سألوه لا يعلم ما بين جنبيها الا الله . تعالى . هذا والملأ ينظرون .. ثم نتجت فصيلا مثلها فى العظم (٣) .. فآمن به جندع . سيدهم . ورهط من قومه وكاد الأشراف جميعهم أن يؤمنـــوا بصالح .. لولا ذؤاب بن عمرو والخباب .. صاحبا أوثانهم .. ورباب بن صعر كاهنهم (٤) .

فلما خرجت النـــاقة .. قال صـــالح لهم « هذه ناقة ، لهـــا شرب ، ولـــكم شرب يوم معلوم ، ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب يوم عظـــيم » ١٥٥ ــ ١٥٦ / الشـــعراء . بمعنى ان الماء قسمة بينها وبينهم .. يوم للناقة وفصيلها ، ويوم لهم ولأنعامهم . وظلت الناقة وفصيلها .. فى أرض ثمود .. ترعى من مراعيها واشجارها

---

(١) شمط : شابت لحيته .

(٢) الكشاف ٧٣ / الاعراف .

(٣) فى جميـــع كتب التفســـير ٧٣ / الاعـــراف والقرطبى ٥٥ / الشعراء .

(٤) قصص الانبياء ــ للنجار ــ نقلا من تفسير الالوسى .

.. وترد المـاء يوماً .. ويوم لهم ولانعامهم .. فاذا كان يومها .. وضعت رأسـها فى البئر .. فبرتفع الماء اليها .. فما ترفع رأسها .. الا وقد شربت كل ما فيه فتتفجج .. ثم تمر على ابواب بيوتهم .» بيتا .. بيتا .. فيحلبون من لبنها ما شـاءوا .. فيشربون .. ويملأون أوانيهم . يقول القرطبى : كانت النـاقة تسقيهم .. مثل الماء الذى تشربه لبنـا .. لم يشرب قط ألذ واحلى منـه .. وكان يقـدر حاجتهـم على كثرتهـم ..

حتى اذا جاء الغـد عاد الماء الى البئر .. فشربوا وادخروا منه ليوم النـاقة .. وكانوا بهذا الحال .. فى سعة ودعة .. حينا من الدهر .. يحضرون المـاء يوم غبهـا فيشربون .. ويحضرون اللبن يوم وردها فيحتلبون ..

ويقول صاحبا الكشاف والنسفى أن صدر الناقة كان ستين ذراعا (١) .

وقد روى أبو اليزيد عن جابر .. قال :

لما نزلنا الحجر .. فى مغزى رسـول الله ـ صلى الله عليه وسلم . تبوك .. قال :

« يا أيها النـاس .. لا تسـألوا فى هذه الآيات .. هؤلاء قوم صالح .. سألوا نبيهم ان يبعث لهم ناقة .. فبعث الله عز وجل ـ اليهم الناقة .. فكانت ترد من ذلك الفج .. فتشرب ماءهم .. يوم وردها « ويحلبون منها .. مثل الذى كانوا يشربون يوم غبهـا .. وهو معنى « ونبئهم ان الماء قسمة بينهم » (٢) .

□ □ □

(١) ١٥٤ / الشعراء ـ فى الكشاف والنسفى .

(٢) القرطبى ٢٨ / القمر .

٣ أشقى الأولين

كانت ناقة صالح ـ عليه السلام ـ تصيف اذا جاء الحر بظهر الوادى .. فتهرب منهـا انعامهم ، وتهبط الى بطن الوادى فى حره وحدته وقسوته .. وتشتو فى بطن الوادى اذا جـاء الشتاء فتهرب الانعام الى ظهر الوادى فى برده وجدبه وشدته .. فاضر ذلك بانعامهم .. ضررا شديدا .. وهذا امر يريده الله ـ سبحـانه ـ للابتلاء والاختبار .. فشق ذلك عليهم .. وعتوا عن امر رسولهم .. واجمعوا على قتل الناقة ..

وكان من علية ثمود : امراتان غنيتـان .. ذواتا مال كثير من الابل والبقر والغنم ..

اولاهمـا عنيزة بنت غنم .. وتكنى ام غنم .. ولها بنات يضرب بهن المثل فى الجمال ..

والثانية صدقة بنت المختـار بن مهر .. وكانت ذات مال وجمال ..

والنساء حبـائل الشيطان .. اشعل فى قلبيهما بغض صالح وعداوته .. والكيد له .. بسبب الضرر الذى أصاب أنعامهما من الناقة ..

عرضت صدقة نفسها على شـاب اسمه « مصـدع ان هو قتل النـاقة » .. ووعدته بنفسها ومالها .. وفى نفس الوقت اغرت عنيزة شابا اسـمه ـ قدار بن سالف ـ بمالهـا .. وبأجمل بناتها .. وهو شاب عزيز فى قومه .. ذكره رسول الله ـ صلى الله عليـه وسلم ـ .. فى صحيح مسـلم .. من حـديث عبـد الله بن زمعـة .. قال :

خطب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فذكر النـاقة ، وذكر الذى عقرها فقال « اذ انبعث اشقاها » انبعث لهـا رجل عزيز عارم ـ اى خبيث شرير .. منيع فى رهطه .. مثل ابى زمعة ثم قال القرطبى بعد ذكر هذا الحـديث واسمه قدار بن سالف (١) .

وعن الضحـاك بن مزاحم .. قال .. قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسـلم . « يا على .. اتدرى من اشـقى الأولين ؟ « قال : الله ورسوله أعلم .. قال « عاقر الناقة » . يقصد قدار بن سـالف . ثم قال « يا على .. أتدرى من اشقى الآخرين ؟ « قال : الله ورسوله اعـلم .. قال « قاتلك » (٢) .

وذكرت كتب التفسير .. عن قدار بن سالف انه كان رجلا اشقر ازرق قصيرا ..

كما ذكروا عنه قصة .. لا مانع من ايجازها .. لما له من منزلة كبيرة فى اهل جهنم .. فهو اشـقى الأولين .. كما سماه رسولنـا ـ صلى الله عليه وسـلم .

قال أولو العـلم :

روى ان الله ـ تبارك وتعالى ـ اوحى الى صالح ـ عليه السـلام ـ ان قومه سيعقرون الناقة .. فاخبر قومه بذلك .. فقالوا : كيف نفعل ذلك .. هى تدر علينا الخير الكثير ؟ . فقال لهم : سيولد فى شهركم هذا غلام يعقرها .. وسـيكون هلاككم جميعـا على يديه .. فقالوا : كل غلام يولد فى هذا الشهر سنقتله ..

---

(١) القرطبى ٧٦ / الاعراف .

(٢) من الكشـاف والنسـفى والثعلبى وغيرهم ـ ٧٧ / الاعراف .

فولد فيه عشرة بنين .. قتل منهم تسعة ..ولم ينج منهم غير قدار بن سالف.. أبى ابوه ان يذبحه (١) .

ونما قدار نموا سريعا .. وكلما مر على اباء التسعة الذين قتلوا .. حزنوا على أولادهم .. واوغر ذلك صدورهم على صالح .

□ □ □

وجاء فى سورة النمل .. حول قصة صالح، عليه السلام ـ ومدينته : قوله تعالى « وكان فى المدينة تسعة رهط يفسدون فى الأرض ولا يصلحون ، قالوا تقاسموا بالله لنبيته واهله ثم لنقولن لوليه ما شهدنا مهلك اهله وانا لصادقون ، ومكروا مكرا ومكرنا مكرا وهم لا يشعرون ، فانظر كيف كان عاقبة مكرهم انا دمرناهم وقومهم اجمعين » (٢) .

والتبييت هو تنفيذ المؤامرات ليلا .. وليس هذا من صفات النبل والشجاعة ..

وعن ذى القرنين .. انه اشير عليه بالبيات ـ اى مباغتة العدو ليلا ـ فأبى .. وقال : ليس من فخر الملوك استراق الظفر ..

وقد تحدث المفسرون عن هؤلاء التسعة الرهط المفسدين .. وهل هم هؤلاء التسعة الذين قتلوا ابناء هم أطفالا .. أم تسعة سواهم؟ .. حتى أن بعض السادة المفسرين ذكر اسماءهم .. غير أننى قرأت هذه الاسماء .. بعدة روايات .. ولى عليها ملاحظتان :

الأولى : ان اسماءهم مختلفة تماما فى جميع الروايات التى أوردتها .. وهى فى القرطبى وحده أكثر من خمس روايات كلها بأسماء تختلف عن سواها ؟ ..

ونحن لا يهمنا اسماءهم فى كثير ولا قليل .. بقدر ما تهمنا الملاحظة الثانية .. وهى أن قدار بن سالف ورد اسمه فى جميع الروايات .. مما يدل على أن الرواية **التى أوردها البعض** عن التسعة الرهط .. أنهم الآباء الحزانى على ابنائهم الذين قتلوهم .. ليست صحيحة مادام قدار أحد التسعة .. وانما هم ثمانية عتاة كفرة .. ـ بأى اسماء ـ تاسعهم وقائدهم ـ قدار بن سالف ـ الذى سماه عليه الصلاة والسلام ـ أشقى الأولين ـ فى الحديث الذى ذكرناه .. واجمعت كتب التفسير على اسمه .. ووصفته .. بانه احمر أزرق قصير .. ووصفه ابن عباس بانه احمر ازرق .. أكشف أقفى (٣) .

وقال عنه الأفوه الأودى :

او قبله كقدار حين تابعه
على الغواية أقوام فقد بادوا

والعرب تسمى الجزار قدارا (٤) .. تشبيها بقدار بن سالف .. مشئوم آل ثمود ..

وذكره زهير .. فقال :

فتنتج لكم غلمان اشأم كلهم
كأحمر عاد ثم ترضع فتفطم

يريد الحرب .. ويكنى عن ثمود بعاد .. لأنهم عاد الثانية ..

جلس قدار بن سالف يوما .. مع بعض ذويه .. يشربون الخمر .. وفى نفسه من الوجد والهيام بالفانية الفاتنة ـ بنت عنيزة مافيها .. وأرادوا ماء يمزجون به شرابهم .. وكان هذا فى يوم ورد الناقة فلم يجدوا ماء .. فاشتد ذلك عليهم .. وحانت الفرصة لابليس .. ليضرب ضربته القاضية .. فحرك فى نفس قدار لواعج الشوق والهيام .. وذكره بمهر معبودته وهو قتل ناقة صالح ..

فقال قدار لرفاقه : هل لكم أن اعقرها ؟ .. قالوا : نعم (٥) والتقى قدار ومصدع على هدف واحد .. هو التخلص من الناقة .. وتبعهم سبعة من فتيان ثمود .. وأعتاهم .. فكانوا تسعة رصدوا للناقة .. حتى صدرت عن الماء .. وكمن قدار ومصدع .. كل منهما .. فى اصل شجرة فى طريقها .. ومرت الناقة بمصدع أولا .. فرماها بسهم .. انتظم به عضلة ساقها .. وخرجت عنيزة أم غنم ـ ومعها ابنتها التى فتن بها قدار .. وأسفرت له .. عن وجهها الفتان .. وحرضته على قتل الناقة .. فشد عليها بالسيف .. فكشف عرقوبها .. **فأرداها** .. فخرت .. ورغت رغاءة واحدة .. ثم

---

(١) القرطبى ١٥٠ / الشعراء ـ وذكره الثعلبى .
(٢) ٤٨ ـ ٥١ / النمل .
(٣) القرطبى ٢٩ / القمر .
(٤) القرطبى نفس المصدر السابق .
(٥) القرطبى ٧٦ / الاعراف .

طعنها فى لبتها .. ونحـرها .. وخرج أهـل المدينة واقتســموها .. واكلوا لحمها .. وفر فصيلها عقب عقرها الى جبل يقال له « قارة » (١) « فعقروا الناقة وعتــوا عن امر ربهم » ٧٦/ الاعراف .

ولما علم صالح .. بما عملوا .. اقبل عليهم .. آســفا .. فقابلــوه معتذرين .. وقالوا : يا نبى الله : انما عقرها فلان ..

فقال لهم انظروا .. هل تدركون فصــيلها .. فان ادركتموه عسى الله ان يرفع عنكم العذاب .. فلم يتمكنوا (٢)

وقيل فى رواية اخـرى : ذهب صالح الى الفصيل بعد قتل الناقة .. وفراره الى الجبل .. فلمـا رآه بكى .. ودعا الله ثلاثا .. فرغا الفصــيل ثلاثا .. وانفجــرت الصــخرة .. ودخلها .. واطبقت عليه ..

فقال لهم صالح : لقد انتهكتم حرمة الله .. فابشروا بعذاب الله ..« فعقروها فقال تمتعوا فى داركـم ثلاثة ايام ، ذلك وعد غير مـكذوب » ٦٥/هود .

والعقر : هو الجرح .. ومنه قول امرىء القيس :

(تقــول وقــد مال الغبيط بنــا معـا
عقــرت بعيرى يا امــرأ القيس فانزل)

وقد حدد لهم صالح الأيام الثلاثة .. بعدد المرات التى رغا فيها الفصيل .. قبل ان يختفى فى داخل الصخرة :

---

(١) النجار ، والبيضــاوى ، والقرطبى ، والكشــاف ٧٦٪ الاعراف .

(٢) النجار والكشاف والبيضاوى ٧٦ / الاعراف .

٤ وعد غير مكذوب

بعد قتل الناقة .. وفرار فصيلها .. يقول بعض المفسرين .. اتبع الفصيل أربعة من التسعة .. فيهم مصدع وأخوه ذؤاب .. فرماه مصدع بسهم انتظم قلبه .. ثم جره برجله .. فأنزله وألقاه مع لحم أمه (١) .. وأعترض القرطبى على هذا الرأى مستشهدا برغاء الفصيل ثلاث مرات .. قبل انفراج الصخرة ودخوله فيها .. وقال انه الدابة .. التى تخرج على الناس فى آخر الزمان (٢) .. يقصد قوله تعالى فى آخر سورة النمل « واذا وقع القول عليهم اخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم » ..

□ □ □

وعندما قال لهم صالح : انتهكتم حرمة الله .. فأبشروا بالعذاب العاجل القريب .. قالوا له مستهزئين : ومتى يا صالح هذا العذاب ؟ .. قال : تصفر وجوهكم يوم مؤنس « الخميس » .. وتحمر يوم العروبة « الجمعة » .. وتسود يوم شبار « السبت » ثم تأتيكم الصاعقة يوم الأول « الأحد » .. وكان عقر الناقة يوم الاربعاء (٣) .

وكانت أسماء الأيام عندهم .. كالآتى :

الأحد « الأول » .. الاثنين « هون » ـ الثلاثاء « جبار » . الاربعاء « دبار » ـ « الخميس » مؤنس ـ الجمعة « العروبة » السبت « شبار » .. وقد جمعها شاعرهم فى هذين البيتين :

أؤمل أن أعيش وأن يومى
بأول أو باهون أو جبار
أو المردى ـ دبار ـ فان أفته
فمؤنس أو عروبة أو شبار

ونلاحظ هنا .. ان اسماء الأيام قد تغيرت عنها فى أيام قوم عاد .. التى ذكرناها .. فى نبأ هود ـ عليه السلام ـ ولكنها بهذه الصورة أقرب نطقا الى اسمائها الآن من سابقتها ..

فأصبحوا يوم الخميس .. وجوههم مصفرة .. كأنما صبغت بالخلوق .. صغيرهم وكبيرهم. ذكرانهم وأناثهم .. وقاموا يوم الجمعة .. وقد أحمرت وجوههم .. وكأنها خضبت بالدماء .. وفى يوم السبت أسودت وجوههم .. وكأنما طليت بالقار .. ولما وجدوا صدق صالح . عليه السلام ـ فى نزول العذاب بهم من يوم الخميس .. طلبوا صالحا ليقتلوه .. وقالوا : زعم صالح أنه يفرغ منا بعد ثلاثة أيام .. فنحن نفرغ منه وأهله قبل الثلاث .. فخرجوا بقيادة قدار .. واختبأوا فى الشعب .. وقالوا : اذ جاء يصلى قتلناه .. ثم رجعنا الى أهله فقتلناهم .. فبعث الله صخرة من الهضبة حيالهم .. فبادوا .. كما قيل : دمغتهم الملائكة بالحجارة وهذا معنى آية النمل « قالوا تقاسموا بالله لنبيتنه وأهله ثم لنقولن لوليه ما شهدنا مهلك أهله وانا لصادقون » ..

---

(١) الثعلبى والقرطبى ٧٦ / الاعراف .

(٢) القرطبى ٧٦ / الاعراف .

(٣) جميع كتب التفسير فى الاعراف وهود .

وجاء يوم السبت .. وقد اسودت وجوههم .. فأيقنوا بنزول الصاعقة بهم صبيحة الاحد ..

وخرج صالح ـ عليه السلام ـ ومن معه من المؤمنين ـ ليلة الاحد ـ حتى جاءوا الشام .. فنزلوا رملة فلسطين .. ليتركونا نستعرض معا طريقة هلاك قومهم .. من خلال .. آيات الله وتفاسيرها .. بعد أن قال صالح ساعة رحيله عنهم « يا قوم لقد ابلغتكم رسالة ربى ، ونصحت لكم ، ولكن لا تحبون الناصحين » ٦٩/الاعراف فنجد ان الله تعالى يقول فى آية الاعراف « فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين » ٧٨ . والرجفة هى الزلزلة الشديدة .. ومنه قول الشاعر :

ولما رأيت الحج قد آن وقته
وظلت مطايا القوم بالقوم ترجف

وتعبير القرآن الكريم .. فى وصفهم بالجثوم .. يوحى بمنظر رهيب .. ومشهد يبعث الخشية فى القلب ، ويحرك الرهبة فى الوجدان .. ومكان الجثوم يسمى مجثما ، ويذكرنى بقول زهير :

بها العين والآرام يمشين خلفة
واطلاؤها ينهضن من كل مجثم

والعين بكسر العين : هى البقر .. والآرام : الظباء .. وخلفة : فوج بعد فوج .. والاطلاء : الأولاد .

□ □ □

وفى آية هود « واخذ الذين ظلموا الصيحة .. فأصبحوا فى ديارهم جاثمين » ٦٧ ـ وحول هذه الآية .. ذكر القرطبى وصفا لعذابهم .. اذكره بالنص :

قال : لما ايقنوا العذاب .. قال بعضهم لبعض .. مامقامكم .. ان يأتيكم العذاب بغتة ؟ ..

قالوا : فما تصنع ؟ .. فأخذوا سيوفهم ورماحهم وعددهم .. فوقفوا على الطرق والفجاج ..

زعموا انهم يلاقون العذاب .. فأوحى الله تعالى الى الشمس فعذبتهم بحرها .. فدنت من رؤوسهم .. فاشتوت أيديهم وتدلت السنتهم على صدورهم من العطش .. ومات كل ما معهم من البهائم .. وجعل الماء يفور من العيون .. من غليانه .. حتى يبلغ السماء .. لا يسقط على شيء الا اهلكه من شدة حرارته .. فمازالوا كذلك .. واوحى الله الى ملك الموت .. الا يقبض ارواحهم .. تعذيبا لهم .. الى أن غربت الشمس .. فصيح بهم .. فاهلكوا « فاصبحوا فى ديارهم جاثمين » ـ هـ ـ

أتتهم الصيحة من السماء .. فيها صوت كل صاعقة .. وصوت كل شيء فى الأرض .. فقطعت قلوبهم فى صدورهم .. فلم يبق منهم صغير ولا كبير .. الا هلك ..

□ □ □

ويقول القرطبى .. هلكوا بالصاعقة .. فاصبحوا ميتين الا رجلا واحدا .. كان فى حرم الله .. فلما خرج من الحرم .. أصابه ما أصاب قومه (١) .. فعن جابر بن عبد الله .. قال : لما مر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالحجر .. قال لأصحابه : لا تسألوا رسولكم الآيات .. فقد سألها قوم صالح .. فأخذتهم الصيحة ، فلم يبق منهم الا رجل واحد .. كان فى حرم الله « قالوا : من هو ؟ .. قال : ذاك أبو رغال ، فلما خرج من الحرم ، أصابه ما أصاب قومه » .

وروى ان صالحا كان قد بعثه الى قوم .. فخالف أمره .. كما روى انه عليه الصلاة والسلام ـ مر بقبر أبى رغال .. فقال : « أتدرون من هذا ؟ .. قالوا : الله ورسوله أعلم .. فذكر قصة أبى رغال .. وانه دفن ها هنا ، ودفن معه غصن من ذهب ، فابتدروه ، وبحثوا عنه باسيافهم .. فاستخرجوا الغصن (٢) .

□ □ □

وحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ يجرنا الى احاديثه حول حجر ثمود .. وقد ذكر القرطبى منها عددا .. فقال : روى البخارى عن ابن عمر .. ان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لما نزل الحجر .. فى غزوة تبوك .. أمرهم الا يشربوا من بئرها .. ولا يستقوا منها .. فقالوا : قد عجنا واستقينا .. فأمرهم ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يهريقوا الماء .. وأن يطرحوا ذلك العجين .. وذكر هذا الحديث عن ابن عمر ايضا ولكن على أن الرسول

---

(١) القرطبى ٧٨ / الاعراف .

(٢) الكشاف ٧٨ / الاعراف .

طلب منهم أن يعلفوا الابل العجين .. وروى ايضا عن ابن عمر .. قال : مررنا مع رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ على الحجر .. فقال لنا « لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا انفسهم .. الا أن تكونوا باكين حذرا أن يصيبكم ما اصابهم » ثم زجر فأسرع . اى زجر ناقته (١) .

□ □ □

وحديث القرطبى .. يجرنا الى تفريعات وتخريجات .. هى من غير شك .. من الضروريات الفقهية .. التى يجب أن يلم بهما كل مثقف .. يحرص على الالمام بما يلزمه فى دينه .. ومن يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين .. وان الله سبحانه ــ يعطى الدنيا من يحب ومن لم يحب .. ولا يعطى الدين الا من أحبه .. فقد أستنتج القرطبى من الأحاديث السابقة .. أن مالايجوز استعماله من الطعام والشراب .. يجوز أن نعلفه البهائم .. اذ لا تكليف عليها .. ولهذا .. قال عن العسل النجس نعلفه النحل ..

□ □ □

كما استنتج كراهة دخول تلك المواقع .. واضاف اليها بعض العلماء .. دخول مقابر الكفار .. الا للاعتبار .. مع الخوف والاسراع حيث قال ــ عليه الصلاة والسلام ــ لا تدخلوا أرض بابل فأنها ملعونة » . وقد منع بعض العلماء الصلاة بمثل هذه المواضع .. وقال : ابن العربى .. فأصبحت مستثناه .. من قوله ــ عليه السلام ــ « جعلت لى الأرض مسجدا وطهورا » فلا يصح التيمم من ترابها .. ولا الوضوء من مائها .. ولا الصلاة فيها ..

واورد عن ابن عمر : ان رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ نهى عن الصلاة فى سبع مواطن : المزبلة ، والمجزرة ، والمقبرة ، وقارعة الطريق ، وفى الحمام ، ومعاطن الابل وفوق بيت الله .. وزاد عليها العلماء : الدار المغصوبة ، والكنيسة ، والبيعة ، والبيت الذى فيه تماثيل واماكن كثيرة غير ما ذكرنا .. مما جعل الامام حافظ أبو عمر ينفعل ويقدم لنا موضوعا جميلا حول هذا المقام فقال : ان تلك البقاع من الارض جائز ان يصلى فيها ما لم تكن نجاسة متيقنة تمنع من ذلك .. وكل ما قيل منسوخ وموضوع .. لعموم قوله ــ عليه السلام ــ « وجعلت لى الأرض مسجدا وطهورا » .. فقد قالها عليه السلام ــ على أنها من دلائل فصله .. وما خص به .. وتلك عند أهل العلم .. لا يجوز عليها النسخ أو الاستثناء أو النقص .. فقال صلى الله عليه وسلم « أوتيت خمسا » وهى تنتهى الى أكثر من تسعة « لم يؤتهن احد قبلى : بعثت الى الاحمر والاسود ، ونصرت بالرعب ، وجعلت امتى خير الأمم ، وأحلت لى الغنائم ، وجعلت لى الأرض مسجدا وطهورا واوتيت الشفاعة ، وبعثت بجوامع الكلم ، وبينا انا نائم أوتيت بمفاتح الارض .. فوضعت بين يدى ، وأعطيت الكوثر وختم بى النبيون » وقد رواه جماعة من الصحابة .. بعضهم يذكر بعضها .. ويذكر بعضهم ما لم يذكره غيره .. وهى صحاح كلها .. وجائز على فضائله الزيادة .. وغير جائز النقصان . وقد ورد عنه « ما ادرى ما يفعل بى ولا بكم » ثم نزلت : « ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر » ..

وسمع رجلا يقول له : يا خير البرية .. فقال « ذاك ابراهيم » وقال « لا يقولن أحدكم أناخير من يونس بن متى » وقال « السيد .. يوسف بن يعقوب بن اسحاق بن ابراهيم » ثم قال بعد ذلك كله « أنا سيد ولد آدم ولا فخر » . بفضائله . صلى الله عليه وسلم ــ لم تزل تزداد .. الى أن قبضه الله اليه .. ولهذا قلنا أنه لا يجوز عليها النسخ .. ولا الاستثناء .. ولا النقصان .. وجائز فيها الزيادة .. وقد قال : « وجعلت لى الأرض مسجدا وطهورا » وقال عليه الصلاة والسلام لأبى ذر « حيثما ادركت الصلاة فصل .. فان الارض كلها مسجد » ذكره البخارى .. ولم يخص موضعا من المواضع ..

وضعف الاحاديث .. التى وردت بغير هذا (٢) .

وبقى صالح ومن معه من المؤمنين فى رملة فلسطين الى أن مات بها .. هو والناجون معه .. وعددهم مائة وعشرون .. أما الهالكون .. فكانوا اهل خمسة آلاف بيت (٣) .

وكما يوجد بمنطقة سانت كاترين .. بسيناء .. موقع يسمى مقام النبى صالح .

ان لنا الآن أن ننتقل الى أبى الفتيان ابراهيم .. خليل الله .

---

(١) القرطبى ٨٠ / الحجر .

(٢) من القرطبى ٨٠ / الحجر .

(٣) ذكر هذا العدد جميع المفسرين .. الا القرطبى فقد ذكر عددا مبالغا فيه .

بسم الله الرحمن الرحيم

« ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك »

(صدق الله العظيم)

○ من نبأ إبراهيم أول المسلمين

١ الوليد البصير

بعد طوفان نوح ـ عليه السلام ـ بألف ومائتين وثلاثة وسبعين عاما .. وذلك بعد خلق آدم بثلاثة آلاف وثلاثمائة وثلاثين سنة(١).

وفى مدينة أسمها « فدام آرام » ببابل .. يحكمها ملك .. هو نمروذ بن كنعان بن سنحاريب بن كوش ابن سام بن نوح .. استكبر وطغى .. وعتا وبغى .. دانت له الرقاب .. وخضعت لسطوته الجباه .. ورث قومه عن آبائهم عبادة الأصنام والكواكب .. وجعل له جنة ونارا .. من أطاعه وتقرب اليه أدخله جنته .. يتمتع فيها .. بين البساتين الزاهرة .. والحدائق الغناء .. والشجر المثمر .. يشرب الخمر .. ويستمتع بالغوانى .. أما من عصاه .. وتمرد على أمره .. أحرقه فى النار ..

□ □ □

وقد روى أنه ملك الأرض أربعة : مؤمنان وكافران .. أما المؤمنان .. فسليمان ابن داود وذو القرنين .. وأما الكافران .. فنمروذ ، وبختنصر (٢) .

ونمروذ .. أول من وضع التاج على رأسه. وتجبر فى الارض .. ودعا الناس الى عبادته هو .. وجعل للاصنام هيكلا خاصا فى قصره .. تقدم لها القرابين .. وجعل لها سدنة وكهنة متفرعين لها .. عاكفين عليها ..

وكانت الاصنام متعددة بتعدد التخصصات .. فهذا اله النور .. وهذا اله الظلام .. وذاك اله الخير .. وذا كاله الشر .. وغيره للهواء أو الماء الى غير ذلك من مسميات عوامل الحياة..

وقد جاء فى تفسير الكشاف .. لصاحبه الزمخشرى .. أنها كانت سبعين صنما مصطفة وثم صنم عظيم ... مستقبل الباب وكان من الذهب .. وفى عينيه جوهرتان تضيئان بالليل.

□ □ □

رأى نمروذ .. فى منامه .. كأن كوكبا طلع فى السماء .. فذهب بضوء الشمس .. حتى لم يبق لها ضوء .. ففزع من ذلك فزعا شديدا .. ودعا الكهنة والمنجمين لتأويل رؤياه .. فقالوا له : سيولد فى ناحيتك هذا العام غلام .. يكون هلاكك على يديه .. فأمر بذبح كل غلام يولد فى تلك الناحية هذه السنة (٣) .

يقول الرواة : لما حملت أم ابراهيم .. قال الكهان لنمروذ : ان الغلام الذى أخبرناك به .. قد حملت به امه هذه الليلة ..

فلما دنت ولادة ابراهيم ـ عليه السلام ـ وأخذها المخاض .. خرجت هاربة .. مخافة أن يطلع عليها أحد .. فيقتل ولدها .. ان كان ذكرا .. فوضعته فى نهر جاف .. ثم لفته فى

---

(١) القرطبى ٧٥ / الانعام .

(٢) النسفى ٨٣ / الكهف .

(٣) القرطبى ٧٥ / الانعام .

خرقة .. ووضعته في حلفاء .. ورجعت فأخبرت زوجها - تارح - بمكان وليدها .. فذهب اليه .. ووضعه في سرداب .. وسد عليه .. خشية الذئاب والسباع .

وكانت امه تتعهده - خلسة - بين الحين والحين .. حتى كبر ونما .. وكان على سنة كأنه ابن ثلاث سنين .. فلما خرج من السرب .. توهمه الناس .. وكأنه ولد منذ سنين ..

وجاء في تفسير القرطبي : جعل حين ولد في سرداب .. وجعل رزقه في أطراف أصابعه .. فكان يمصها .. قال لأمه : من ربي ؟ .. فقالت : انا .. قال : ومن ربك ؟ قالت : أبوك .. قال : ومن رب أبي ؟ .. قالت : نمروذ .. قال : ومن رب نمروذ ؟ .. فلطمته .. وعلمت انه الذى يذهب ملكهم على يديه (١) .

ونسبه : هو ابراهيم بن تارح بن ناحور بن سروج بن رعو بن فالج بن عابر بن شالح بن قينان بن ارفكشاذ بن سام بن نوح . ويقول الأستاذ العقاد .. في كتابه عن ابراهيم - عليه السلام : واسم ابرام من الاسماء التى تنبىء عن نشأة دينية .. لأنه على ارجح معانيه .. يفيد معنى حبيب الله .. وقد كان قدماء السريان .. يطلقون اسم راس الأسرة - مجازا - على الاله المعبود .. فيسمونه - تارة - الأب .. وتارة أخرى العم .. وربما كان العم اغلب .. على هذا المعنى .. لأن الرجل ينادى كل شيخ مبجل « باعم وباعماه » .. ومن هنا .. اسم عمرام وابرام .. ركب كلاهما .. من العم والأب مع كلمة « رام » التى تعنى المحبة ..

ثم يقول الأستاذ العقاد : ولعل التغيير الذى طرا على اسم ابرام بجعله ابراهيم .. انما استحدث .. لكي يفيد معنى حبيب الله .. بدلا من حبيب الاله الذى كان يعبده أبوه في معابد الوثنية - أ هـ - .

ولنا اعتراض على قول الأستاذ العقاد - في عبارته الأخيرة - التى هى : « الذى كان يعبده أبوه في معابد الوثنية » .. فمن هو أبو أبراهيم ؟ ..

اختلف المؤرخون والعلماء .. في اسم ابى ابراهيم .. هل هو تارح أوآزر ؟ .. فجاء في دائرة المعارف الاسلامية .. ما نصه آزر : اسم أبي أبراهيم في القرآن .. سورة الانعام .. آية ٧٤ ..

ويظهر ان في هذا بعض الخلط .. لأن اسم ازر لم يرد مطلقا على انه ابو ابراهيم في غير هذا الموضع .. كما ان تارح أو تارخ .. قد ورد في روايات اغلب المؤرخين والمفسرين على أنه ابو ابراهيم ايضا .. ولذلك لجأوا الى التحايل للتوفيق بين هاتين الروايتين .. ولكن هذا التحايل لا قيمة له (٢) .

وجاء في كتب التاريخ : اسم ابيه - تارح - وقيل : آزر وبارح هما علمان له .. كاسرائيل ويعقوب .. وقيل : العلم تارح .. وآزر وصف .. معناه الشيخ الفاني أو المعوج .. وقيل : ازر اسم صنم يعبده .. فلقب به للزوم عبادته ..

كما قال ابو بكر الشافعي الأشعري .. في تفسيره : وليس بين الناس اختلاف في اسم والد ابراهيم تارح (٣) .

وليغفر لي القارىء الكريم .. اضاعة تلك الدقائق من وقته في قراءة هذه الروايات .. فنحن لا يهمنا كل هذا الخلاف .. بقدر ما يهمنا ان نثبت أن آزر .. المذكور في القرآن الكريم .. ليس أبا لابراهيم .. وانما هو عمه .. للأسباب الآتية :

أولا - اذا كانت آية الأنعام تقول « واذ قال ابراهيم لأبيه آزر » .

فليس معنى هذا أن آزر أبوه .. بل قد يكون هذا التعبير .. دليلا على انه ليس أباه .. فمثلا أبى اسمه محمد .. وعمى اسمه حامد .. فاذا أنت قابلت عمي في مكان ما .. فانك تقول لي : لقد قابلت أباك حامد في مكان كذا .. أما اذا قابلت ابى الحقيقى « محمد » فلا تقول لي قابلت أباك محمد .. وانما تقول قابلت أباك فقط .. فذكر اسم آزر بعد كلمة « أبيه » لا تدل على انه أبوه حقيقة .. ولكنها تحتمل معنى العم ..

ثانيا - لو تدبرنا قول الله تعالى « أم كنتم شهداء اذ حضر يعقوب الموت اذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدى ، قالوا نعبد الهك واله آبائك ابراهيم واسماعيل واسحاق » فجعلوا اسماعيل من آباء يعقوب ، مع ان اسماعيل عمه .

ثالثا - من المعروف أن ازر عدو لله .. فكيف يكون أبا لابراهيم ؟ .. وكيف نفسر قول

(١) القرطبي ٧٥ / الانعام .
(٢) من قصص الانبياء للنجار .
(٣) القرطبي ٧٤ / الانعام .

رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم « خرجت من نكاح ، ولم اخرج من سفاح .. لم يصبنى من سفاح الجاهلية شيء ، فانا خيار من خيار من خيار ، من لدن آدم الى أن ولدنى أبى وامى » .

اليس وجود عدو لله فى سلسلة الخيار يفسدها ؟ ..

رابعاً ــ يقول الله لحبيبه محمد ــ عليه الصلاة والسلام ــ « وتوكل على العزيز الرحيم الذى يراك حين تقوم ، وتقلبك فى الساجدين » اى تقلبك وانتقالك من ظهر ساجد الى ظهر ساجد .. فكيف يكون ظهر آزر من ظهور الساجدين ؟ ..

خامساً ــ استغفر ابراهيم لأبيه آزر .. فى اول الأمر . وذلك وفاء منه لوعده اياه .. عندما قال له آزر : « لأرجمنك واهجرنى مليا ، قال : سلام عليك ، سأستغفر لك ربى انه كان بى حفيا » ٤٧/مريم والسين للتنفيس .. وليست للتسويف .. وقد نفذ وعده بعد مناقشة قومه فى سورة الشعراء :

« قال أفرأيتم ما كنتم تعبدون أنتم واباؤكم الأقدمون فانهم عدولى الا رب العالمين » الى ان قال « رب هب لى حكما والحقنى بالصالحين .. واجعل لى لسان صدق فى الآخرين .. واجعلنى من ورثة جنة النعيم واغفر لأبى انه كان من الضالين » من آية ٧٥ـ٨٦/الشعراء .. فالدعاء هنا بالمغفرة لأبيه آزر .

ولكن ابراهيم ــ عليه السلام ــ بعد ذلك وبعد ان تبين له بالوحى..أو بالتجربة..انه لن يؤمن مطلقا..تبرأ منه..اقرأ « وماكان استغفار ابراهيم لأبيه « آزر » الا عن موعدة وعدها أياه ، فلما تبين له أنه عدو لله ، تبرأ منه ، أن ابراهيم لأواه حليم » ١١٤ / التوبة ..

واما فى نهاية أيام ابراهيم ــ عليه السلام ــ وعندما قرب الأجل .. نرى الحقيقة واضحة .. فى قوله من سورة ابراهيم « الحمد لله الذى وهب لى على الكبر اسماعيل واسحاق » .. الى ان قال « ربنا اغفر لى ولوالدى وللمؤمنين يوم يقوم الحساب » ٣٩ـ٤١/ابراهيم .

هنا فى النهاية .. يطلب المغفرة لأبيه الحقيقى ــ تارح ــ بعد أن تبرأ من أبيه آزر .

أعتقد .. أنه لم يعد هناك شك فى ان آزر ــ عدو الله ــ ليس أبا لابراهيم .. وقد يكون تارح .. مات وزوجه حامل فى ابراهيم .. أو مات .. وابراهيم صغير .. وتزوج آزر ارملة اخيه .. فنشأ فى كفالة ابيه آزر .. والله تعالى أعلم ..

□ □ □

٢ أبوالفتيان

شب ابراهيم .. فى رعاية عمه آزر وكفالته .. وكان آزر نجارا .. يصنع الآلهة ويتجر فيها .. كما نصت على ذلك الأناجيل .. ومن بينها انجيل برنابا .. وهو أوثق الأناجيل .. التى يطمئن اليها المؤرخون وكان ابراهيم يساعده فى صنعهـا ..

ولعل هذا الجو .. الذى نشأ فيه ابراهيم ـ عليه السلام ـ من العوامل التى دفعته الى الشك .. فى تلك العبادة ـ عبادة الأصنام ـ التى كان يصنعها بيديه .. ودفعه الشك الى النظر والبحث .. فحقق ودقق .. وفكر ونظر .. وانطلق على وجهه .. هائما فى أحضان الطبيعة .. مع شروق الشمس يناجى كل ما يقع عليه بصره .. على سطح الأرض .. من حيوان وطير ونبات .. من الذى أعطى كل شىء خلقه ؟ .. من ركبه وقومه فأحسن تركيبه .. وأبدع تقويمه ؟ .. وهذا الشراب الحلو اللذيذ .. فى البرتقالة .. من أين أتى ؟ .. اذا كان من الأرض .. فلابد أن يكون قد مر من الجذر الى الساق الى الغصن الى العنق الذى يصب فى تلك الثمرة .. فيقطع العنق .. قبل البرتقالة بقليل .. ثم يذوق العصارة التى تجرى فيه .. فيجدها شديدة المرارة .. لاذعة المذاق .. فيستنتج أن هذه الشجرة ما هى الا سبب .. يتفاعل مع الجو والكواكب .. فتمتص هذا الشراب الحلو اللذيذ .. ويحكم بمقتضى العقل .. بأن كل عود من أعواد النباتات المختلفة .. ما هو الا سبب أيضا .. لامتصاص الشحنات الغذائية اللازمة لحياة الانسان والحيوان .. فهذا عود .. يمتص المواد السكرية .. وهذا يمتص المواد النشوية .. وذاك يمتص المواد الحريفة .. وهكذا .. بينما التربة واحدة .. والماء واحد .. وكأن الله الهمه بالفطرة « وفى الأرض قطع متجاورات ، وجنات من اعناب وزرع ونخيل ، صنوان وغير صنوان ، يسقى بماء واحد ، ونفضل بعضها على بعض فى الأكل » ٤ / الرعد .

وامتد به الفكر .. الى ما وراء هذه الظواهر .. الى أساس هذا الامداد المادى .. الذى يخترق الأثير .. ليصل الى عود أخضر .. على سطح الأرض فيمده بالشحنات الغذائية .. اللازمة لحياة الانسان والحيوان والطير وكل ذى كبد رطب .. واصله من السماء .. من الكواكب .. من المقسمات أمرا ..

والأمر .. هو الأساس الروحى .. للأثر المادى .. فالله سبحانه يقول : « وأوحى فى كل سماء أمرها » ١٢ / فصلت ..

ويقول أيضا « وفى السماء رزقكم وما توعدون » ٢٢ / الذاريات .

ولعل هذا هو المقصود فى قوله تعالى فى أول سورة الذاريات : « والذاريات ذروا ، فالحاملات وقرا ، فالجاريات يسرا ، فالمقسمات أمرا » والأمر هنا .. هو أمر الرزق .. والفلاحون يلمسون هذا .. فمثلا تفتح لوز القطن .. لا يكثر الا فى الليالى المقمرة .. حتى أنهم لا يجنونه الا بعد مرور تلك الليالى .. ليكمل تفتحه .. كما أن الثمار القثائية (١) .. لا يزداد نموها .. الا فى نفس تلك الليالى المقمرة أيضا

---

(١) كالخيار والقثاء والشمام والبطيخ .

.. مما يدل على وجود علاقة بين تلك النباتات وهذا الكوكب ..

خطر كل هذا .. ببال ابراهيم .. وهو لم يزدد الا حيرة .. وشكا .. من الذى يدبر كل هذه الأمور الدقيقة .. البديعة .. الرائعة ؟ .. ومن الذى يشرف على هذا الكون الواسع الشاسع .. البعيد ؟ ..

ومر به الوقت .. وهو على هذا الحال .. حتى مالت الشمس الى الأفق .. رويدا .. رويدا .. ثم ابتلعها الفضاء اللانهائى الرهيب .. وحتى شهد النهار يجرى حثيثا .. أمام جحافل الليل الزاحفة من الشرق .. ثم لفته الظلمة بردائها الأسود القاتم ..

وامتد بصره الى السماء .. فراى كوكبا يتلألأ فى المشرق .. فقال : هذا الكائن المرتفع البعيد المنال .. المشرف على الكون من أعلاه .. انه هو الذى يستحق أن يكون ربا .. فارتبط به بصره .. من درجة .. الى درجة .. ومن منزلة .. الى منزلة .. حتى قطع الكوكب قوسا فى الأفق الجنوبى الشرقى .. ثم ابتلعه الأفق الجنوبى الغربى : « فلما جن عليه الليل رأى كوكبا ، قال هذا ربى ، فلما افل قال لا احب الآفلين » ٧٦ / الأنعام . قال : لا .. ليس هذا ربى .. ولو كان ربا .. فلماذا غاب واختفى ؟ ومن الذى يرعى الكون فى غيابه ؟ .. ثم رأى القمر .. فقال : هذا ربى .. « فلما راى القمر بازغا ، قال هذا ربى » ٧٧ / الأنعام ..

فلما وجده يميل الى الغروب فى الصباح .. بلغت به الحيرة منتهاها .. وصعد الشك الى ذروته .. فلجأ الى الحقيقة المجهولة .. التى تحرك لها وجدانه .. وتفاعلت بها خلجاته .. ولامست شغاف قلبه .. فقال « لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين » ٧٧ / الأنعام ..

وأطلت الشمس من خدرها .. ترسل اشعتها .. فى الكون الرحيب .. كما ترسل الحسناء شعرها الذهبى المنساب على جيد الزمن .. فانطلقت العصافير تشقشق أنشودة الصباح .. واتجهت أوراق النباتات الى الشرق .. وكأنها تحتضن تلك الأشعة .. وتتعلق بها .. كما يتعلق الطفل الملتاع بتلابيب أمه .. وقد وجدها بعد طول حنين .. ودبت الحياة فى الكون الهامد بعد ليل من السكون طويل .. فقال هذا ربى .. هذا أكبر .. فلما رأى الشمس بازغة ، قال هذا ربى ، هذا أكبر ٧٨ / الأنعام . أكبر حجما ، وقوة وأثرا ..

ومر به النهار الثانى فى الكون وهو على هذا الحال .. الشارد الذاهل الملتاع .. وغربت الشمس .. وهنا فقط .. وبعد تلك الجولة الشاقة المضنية .. بعد ست وثلاثين ساعة من الفكر والنظر والتعمق .. فى ملكوت السماوات .. بعد ملكوت الأرض .. بلغ درجة اليقين .. فقال « يا قوم انى برىء مما تشركون .. انى وجهت وجهى للذى فطر السماوات والأرض حنيفا ، وما أنا من المشركين » ٧٨ ـ ٧٩ / الأنعام « وكذلك نرى ابراهيم ملكوت السماوات والأرض ، وليكون من الموقنين » ٧٥ / الأنعام .

والطبيعة أيها الأخ المؤمن .. هى المدرسة الوحيدة .. الموصلة الى الايمان .. وكم حرضنا الله ـ سبحانه ـ على النظر فيها .. ولكننا عنها غافلون .. او متغافلون .. فاقرأ قوله تعالى « قل انظروا ماذا فى السماوات والأرض » وللدليل على أهمية هذا الأمر .. قوله بعد ذلك استعجالا للنظر والتأمل « أو لم ينظروا فى ملكوت السماوات والأرض » و « كأين من آية فى السماوات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون » . وأمامنا عشرات الآيات التى تحرضنا على النظر .. والتفكر فى كل ما أخرجت لنا يد الله القادر البديع المصور اللطيف .. من سماء مرفوعة .. الى أرض موضوعة .. ومن ابل فى السماء سابحات (١) .. الى جبال فى الأرض ناطحات .. ومن أفلاك سارية .. الى أنهار جارية ..

ولكنه ابراهيم .. الذى يقول الله عنه « ولقد آتينا ابراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين » يقول صاحب تفسير الكشاف : ان الله علم منه أحوالا بديعة .. وأسرارا عجيبة .. وصفات قد رضيها وحمدها .. حتى أهله لخلته ومخالصته ـ ١ هـ ـ .

وكان ابراهيم فى هذا الحين .. ابن ستة عشر عاما .. حيث يقول الله تبارك وتعالى .. حكاية عن قوم ابراهيم « قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له ابراهيم » ٦٠/الأنبياء . وسن الفتوة كما نعلم بين الثانية عشر ، والسادسة عشر .. وقد زل بعض المفسرين .. فى معنى تلك الآية التى نستعرضها « فلما جن عليه الليل رأى كوكبا ... الخ » ..

فقال بعضهم : رأى كوكبا .. فعبده حتى غاب عنه .. وكذلك الشمس والقمر ..

(١) الجمال ابل الصحراء .. والسحب ابل السماء .

وقال آخرون : ظل يعبدها .. في مهلة النظر .. وحال الطفولية .. وقبل قيام الحجة (١) .

وكيف يصح أن نتخيل هـــذا .. على من عصمه الله .. وآتاه رشده من قبل .. واراه ملكوته ليكون من الموقنين ؟ ..

لقد عرف ربه .. من أول النظر ..

وقال الزجاج عن هذا الراى :

انه خطأ وغلط ممن قاله .. فقد اخبر الله عنه « وان من شـــيعته لابراهيم ، اذ جاء ربه بقلب سليم » ٨٤ / الصافات / والقلب السليم هو الذى لم يشرك قط ..

ومن احسن ما قيل فى هذا .. ما صح عن ابن عباس .. انه قال فى قوله تعالى : « نور على نور » ٣٥ / النـــور / كذلك قلب المؤمن .. يعرف الله — عز وجل — ويستدل عليه بقلبه .. فاذا عرفه ازداد نورا على نور .. وكذا ابراهيم .. عرف الله — عز وجل — بقلبه .. واستدل عليه بدلائله فعلم ان له ربا وخالقا .. فلما عرفه الله بنفسه .. ازداد معرفة .. فقال :

« اتحاجونى فى الله وقد هدان ، ولا اخاف ما تشركون به ، الا ان يشاء ربى شيئا ، وسع ربى كل شىء علمـــا ، افلا تتـــذكرون » ، ٨٠ / الانعام .

وعاد ابراهيم الى عمه آزر وقومه .. بعد ان حل اليقين فى قلبـــه محل الشك .. الذى كانت تضطرم به نفسه .. ويحترق منه فؤاده .. فلقيه آزر غاضبا ساخطـــا — امام ملأ من قومه — اين كنت يا ابراهيم ؟ ولماذا تركت العمل دون أن تتم صناعة الآلهة .. وهى مطلوبة منا ؟

وهنا يجد الفرصة سانحة للتهكم والسخرية بهم وبأصنامهم .. فيقول « ما هـــذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون » ؟ ٥٢ / الأنبياء / فقالوا ببســـاطة : « وجـــدنا آباءنـــا لها عابدين » ٥٣ / الأنبيـــاء .

وما اقبح التقليـــد ، والقول المتقبل بغير برهان .. وما اعظم كيد الشيطان للمقلدين .. حين استدرجهم .. الى ان قلدوا آباءهم فى عبادة التماثيل .. وعفروا لهـــا جباههـــم .. وهم معتقدون أنهم على شىء .. ومجادلون أهل الحق عن باطلهـــم .

وكفى أهل التقليد سـبة .. ان عبـــدة الأصنام منهم .. فقال لهم ابراهيم « لقد كنتم أنتم وآباؤكم فى ضلال مبين » ٥٤/ الأنبياء .

وأنتم هنـــا .. من التأكيد الذى لا يصح الكلام مع الاخلال به.. اراد ان المقلدين والمقلدين بكسر اللام وفتحها .. هم جميعا منخرطون فى سلك ضلال .. لا يخفى على من به مسكة من عقل لاستناد الفريقين الى غير دليل .. بل الى هوى متبع .. وشيطان مطاع ..

ظلوا متعجبين من تضليـــله اياهـــم .. وحسبوا ان ما قاله .. انما قاله .. على وجـــه المزاح والمداعبة .. لا عن طريق الجد .. فقالوا له : — أهذا الذى تقوله يا ابراهيم .. جد وحق .. أم لعب وهزل ؟ « قالوا أجئتنا بالحق .. أم انت من اللاعبين » ؟ ٥٥ / الأنبيـــاء .. فانتقل بهم الى الدليل والبرهان .. « قال بل ربكم رب السموات والأرض الذى فطرهن ، وأنا على ذلكم من الشاهدين » ٥٦ / الأنبياء / يشير بذلك .. الى ما شاهده فى رحلتـــه الطويلة .. فى ملكوت السماوات والأرض ..

□ □ □

(١) القرطبى ٧٦ / الانعام .

٣ ذبح الطيور

ذكرنا فى تقديم هذا المسلسل الكريم .. أن اليقين على ثلاث درجات :

علم ، وعين ، وحق .. وضربنا لذلك مثلا بالتفاحه .. فانا أعلم يقينا بوجود فاكهه اسمها تفاحه .. ولكننى لم ارها .. فهذا « علم اليقين » .. فاذا رايتها بعينى .. ترقى اليقين فى نفسى من درجة علم اليقين .. الى درجه « عين اليقين » .. حتى اذا اكلتها .. صار اليقين فى درجة « حق اليقين » بالنسبة لهذا النوع من الفاكهة .

وبعد ان احتدم الجدال بين ابراهيم ـ عليه السلام ـ وقومه .. اتجه الى ابيه آزر .. قائلا : يا ابت .. كيف تعبد مالا يسمع ولا يبصر ؟ .. ولا ينفع ولا يضر ؟ .. يا أبت لقد فتح الله لى من آفاق العلم والمعرفة .. ما لم تصل اليه .. فاتبعنى ولا تتبع الشيطان .. يا أبت انى أخاف أن يمسك عذاب من الذى فطر السماوات والأرض .. فهو وحده الذى تجب عبادته وتقديسه .. وهو القائم على كل نفس .. والمدبر لكل أمر ..

« واذكر فى الكتاب ابراهيم انه كان صديقا نبيا ، اذ قال لأبيه يا أبت لم تعبد مالا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئا ، يا أبت انى قد جاءنى من العلم ما لم يأتك فاتبعنى اهدك صراطا سويا ، يا أبت لا تعبد الشيطان أن الشيطان كان للرحمن عصيا ، يا أبت انى أخاف .. أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليا » ٤١ ـ ٤٥ مريم .

وينفجر آزر غضبا وسخطا .. قائلا : انت كافر بآلهتى يا ابراهيم .. اخرج من بيتى لا تعاشرنى ولا اعاشرك ، ولا تخابزنى فى زاد .. ولا اخابزك « قال اراغب، أنت عن آلهتى يا ابراهيم لئن لم تنته لارجمنك واهجرنى مليا » (٤٦/مريم) .

وهنا يبرز القلب الرحيم الحليم الاواه المنيب .. قلب ابراهيم .. ارحم قلب فى الوجود وليس ادل على ذلك .. من طلبه من الله ـ سبحانه ـ الغاء جهنم .. بقوله ـ عليه السلام لربه « فمن تبعنى فانه منى ، ومن عصانى فانك غفور رحيم » (٣٦/ابراهيم) أليس هذا .. طلبا صريحا منه .. لالغاء جهنم ؟ ..

غلبت عليه صفة الرحمة .. لابيه آزر .. بعد ان هدده بالرجم والطرد : « قال .. سلام عليك سأستغفر لك ربى انه كان بى حفيا » (٤٧/مريم) أى مكرما .. يجيب طلبى ويحقق اربى ويأخذ بيدى .. ويهدينى سواء السبيل .

□ □ □

وخرج ابراهيم ـ عليه السلام ـ وهو لا يدرى الى أين يذهب .. وقد هده التعب .. وانهكه الجوع .. يومان متتاليان .. لم يهدأ فيهما .. ولم يذق طعاما ... فآوى الى خارج اسوار المدينة .. مدينة « فدام آدم » حيث جلس فى ركن هادىء بجانب الأسوار .. ولم يلبث ان اخذته سنة من النوم .. فراى فى منامه .. وجها ابيض كاللبن مستديرا كالقمر .. مشرقا كالصبح .. ينظر اليه فى بسمة عريضة .. تملأ أجواز الفضاء .. وقام من نومه فزعا .. فيرى صاحب هذا الوجه الجميل .. واقفا أمام حديقة فى الجانب المقابل بعد باب السور .. يدعوه .. مشيرا اليه بيده .. فينظر اليه ابراهيم فى ذهول .. ودهشة .. واذا بصاحب

الوجه يناديه: تعال يا ابراهيم .. فيزداد دهشة وذهولا .. قائلا : — أتعرف اسمى ؟ هل انت ربى ؟ فيقول له يا ابراهيم .. انا عبد مثلك .. انا جبريل .. قال ومن جبريل ؟ قال : ملك ارسلنى الله اليك .. قال : لماذا ؟ ... قال : لتذهب الى نمروذ .. وتخبره انك رسول الله اليه .. وتأمره بالمعروف وتنهاه عن المنكر .. تأمره بعبادة الله وحده .. وتنهاه عن طغيانه وجبروته .. وتضليل قومه بادعاء الالوهية ..

□□□

.. وقد روى أبو ادريس الخولانى .. عن ابى ذر الغفارى .. من حديث طويل قال : .. « قلت يا رسول الله .. فما كانت صحف ابراهيم ؟ قال : « كانت كلها امثالا : — أيها الملك المغرور المسلط المبتلى .. انى لم أبعثك لتجمع الدنيا .. بعضها على بعض .. ولكنى بعثتك لترد عنى دعوة المظلوم .. فانى لا أردها ولو كانت من كافر » .

وسنذكر الحديث كاملا — ان شاء الله — فى حينه .. فى نهاية هذا الفصل .

فقال ابراهيم لجبريل — عليهما السلام — وكيف أواجه نمروذ بهذا .. وهو ملك جبار ظالم انه يقتلنى ، فيقول له جبريل فى بسمته العريضة : « اذا قتلك نمروذ .. فان الله يحييك بعد موتك .. فقال : كيف احيا بعد موتى ؟ أريد أن ارى كيف يحيى الله الموتى ، قال : .. أو لم تؤمن ؟ .. قال : نعم آمنت وايقنت أن للكون الها قادرا عليما حكيما .. ولكن .. ليطمئن قلبى ..

ولعل ابراهيم — عليه السلام — محق فى هذا الطلب .. فهو شاب حديث السن .. سيواجه بمفرده قوما عتاة جبابرة .. وسيلاقونه بكل انواع البطش والعذاب « واذ قال ابراهيم رب ارنى كيف تحيى الموتى ، قال أو لم تؤمن ، قال بلى ولكن ليطمئن قلبى » (الآية ٢٦٠/ البقرة) .

قال له جبريل : خذ هذه الطيور الأربعة .. واذبحها .. وقطعها قطعا صغيرة .. ثم اخلط لحمها .. وضع فوق كل تل من تلك التلال الأربعة جزءا .. من هذا اللحم المختلط ثم ادعهن باسم الله لترى أنها عادت حية .. كما كانت قبل ذبحها ، « قال فخذ أربعة من الطير فصرهن اليك ، ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا ، ثم ادعهن يأتينك سعيا ، واعلم أن الله عزيز حكيم » (٢٦٠/البقرة) .

وجاء فى كتب التفسير ان الطيور كانت : — طاووسا ، وديكا ، وغرابا ، وحمامة ..

قطعها ابراهيم بعد ذبحها .. ووضع اللحم المختلط فوق قمم التلال الأربعة .. ودعاها باسم الله — واذا به يرى تلاحم القطع لتعود الى أصولها .. ومن غير زمن . فالزمن فى تنفيذ شىء .. تعلقت به قدرة القادر العزيز الحكيم .. أمر لا محل له ..

فاذا كان أمره — سبحانه — للشىء اذا أراده .. ان يقول له كن فيكون .. فذلك الأمر غير مقيد بلفظ « كن » فالكاف فى النطق لها زمن .. والنون لها زمن ثان فهل أدركه العجز فى الزمن الأول .. فاتبعه بالزمن الثانى ؟ .. وهذا محال على الله — جل شأنه وتعالى عن ذلك علوا كبيرا — ولهذا نقول : « وامره بين الكاف والنون » .

ويظهر ذلك جليا .. فى قول الذى عنده علم من الكتاب .. الكتاب الذى حمله الهدهد — سفير سليمان — قوله لسليمان بخصوص احضار عرش بلقيس (من اليمن بجنوب الجزيرة العربية الى أورشليم بفلسطين) « أنا آتيك به قبل أن يرتد اليك طرفك اى قبل أن ينزل الجفن العلوى .. ليتلاقى مع الجفن السفلى .. فهذا النزول يحتاج الى زمن .. ولهذا .. قال « قبل ان يرتد اليك طرفك » .. وفى نجم آخر يقول — سبحانه — وما أمرنا الا واحدة » . ويقول ايضا « كلمح البصر أو هو أقرب » .. يريد الله أن يلفت نظرنا الى أن تنفيذ أمره منزه عن القيد الزمنى ..

وهكذا .. رأى ابراهيم « بعينى رأسه » .. كيف عادت الطيور بعد ذبحها وتقطيعها وهنا .. بلغ مرتبة حق اليقين .. وحمل الرسالة ..

واستسمح القارىء الكريم .. لحظة .. قبل أن يبعدنا العرض عن مشهد ذبح الطيور فنحن نذبح الطير لنأكله .. فتلك هى الغاية من وجوده .. أما طيور ابراهيم عليه السلام فقد ذبحت .. ثم عادت اليها الحياة .. ولزم أن تموت بعد ذلك .. مرة ثانية .. فصار هذا الأمر عذابا لها .. تسبب فيه ابراهيم عليه السلام — ليرى كيف يحيى الله الموتى — وكان .. عذاب تلك الطيور .. ظل ذنبا عالقا فى عنقه .. من أيام شبابه الأولى الى أن صار شيخا فانيا .. رزقه الله تعالى على كبره غلام .. شب ونما .. حتى بلغ معه السعى .

« ويريد الله تعالى أن يطهر خليله من حق الطير عنده قبل أن ينتقل الى الرفيق الأعلى

فيامره بذبح وحيده .. ليذيقه هو الم الذبح .. ابتلاء له وتكفيرا عن هذا الذى حدث بسببه من تعذيب الطير .

والله سبحانه وتعالى يقول فى هذا المقام :

« ما اصابك من حسنة فمن الله وما اصـــابك من سيئة فمن نفسك » . ونعود الى حديث صحف ابراهيم الذى بداناه من قريب :

* * *

فقد روى ادريس الخولانى ،عن ابى ذر الغفارى، قال : قلت يارسول الله .. كم كتابا انزل الله تعالى ؟ قال : « أنزل الله تعالى ــ مائة صحيفة .. وأربعة كتب .. ازل الله على آدم عشر صحائف .. وعلى شيث خمسين صحيفة ، وعلى ادريس ثلاثين صحيفة ، وعلى ابراهيم عشر صحائف .. وانزل التوراة ، والزبور ، والفرقان « قلت : يارسول الله .. فما كانت صحف ابراهيم ؟ قال « كانت امثالا كلها .. منها « ايها الملك المبتلى المسلط المغرور .. انى لم ابعثك لتجمع الدنيا بعضها على بعض .. ولكننى بعثتك لترد عنى دعوة المظلوم .. فانى لا اردها ولو كانت من كافر .. فيها أمثال : على العاقل ما لم يكن مغلوبا على عقله .. ان يكون له أربع ساعات .. ساعة يناجى فيها ربه .. وساعة يتفكر فيها .. فى صنع الله تعالى .. وساعة يحاسب فيها نفسه على ما قدم واخر .. وساعة يخلو فيها لحاجته من الحلال فى المطعم والمشرب وغيرهما .

وعلى العاقل الا يكون طاعنا الا فى ثلاث :

تزود لمعاده .. ومؤنه لمعاشه .. ولذة فى غير محرم .. وعلى العاقل أن يكون بصيرا بزمانه .. مقبلا على شانه .. حافظا للسانه .. ومن علم أن كلامه شر من عمله .. قل كلامه فيما لا يعنيه .. والله عن محذور يغنيه ..

□□□

٤ محكمة

عاد ابراهيم الى قومه .. وقد ملأ الايمان قلبه .. واحتوى اليقين نواحيه .. يجادلهم ويجادلونه .. هو يدعوهم الى التوحيد .. وهم يدافعون عن أوثانهم وأصنامهم ..

ولقد كان ابراهيم وحده أمة « ان ابراهيم كان امة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشتركين » .. لأنه فرد .. حارب اطغى امة .. على رأسها اعظم جبار .. وهو فى سن الفتوة « وحاجه قومه ، قال اتحاجونى فى الله وقد هـدان ، ولا اخاف ما تشركون به ، الا أن يشاء ربى شيئا ، وسع ربى كل شىء علما ، أفلا تتذكرون » (٨٠/الانعام) .

□□□

ويتضح من النص .. أنهم خوفوه آلهتهم .. وتوعدوه بغضبها وعذابها .. ولكنه يقيم عليهم الحجة .. بأنها لا تسمع ولا تبصر .. ولا تغنى عنهم شـيئا .. قائلا لهم : انهـا لا تستطيع ضرى .. الا اذا اراد ربى أن يصلنى الضرر عن طريقها .. ولن يكون ذلك الا بسبب ذنوبى .. فالله ليس بظلام للعبيد ..

وعلى هذا الأساس .. كان ابراهيم يريد اقنـاعهم .. فقـال : ياقوم أفلا تميزون بين الصحيح والفاسد ؟ والقادر والعاجز ؟ كيف اخاف مأمون الخوف .. الذى لا يتعلق به ضرر بوجه .. وأنتم لا تخافون من يتعلق به كـل مخوف « وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطانا ، فأى الفريقين أحق بالأمن ان كنتم تعلمون » (٨١/الانعام ..)

ويظهر اسلوب ابراهيم .. وأدبه .. وعدم غروره .. فى قوله لهم : فأى الفريقين أحق بالامن ولم يقل فأينا أحق بالامن .. أنا أم أنتم .. احترازا منه فى تزكيته نفسه .. فقال : فأى الفريقين .. يقصد فريق الموحدين ، أم فريق المشركين ؟.. ثم يجيب هو على سؤاله .. بقوله « الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون » (٨٢/الانعام) .

وفى الصحيح عن ابن مسعود .. لما نزلت « الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم .. الخ » شق ذلك على الصحابة .. رضوان الله عليهم ــ وقالوا : اينا لم يظلم نفسه يارسول الله ؟ .. فقال عليه الصلاة والسلام ليس هو كما تظنون .. انما هو ما قال لقمان لابنه : يا بنى لا تشرك بالله ان الشرك لظلم عظيم » (١) .

□□□

لم تفد معهم البراهين .. فقرر فى نفســه تحديهم .. بما هو أقوى من البرهان الكلامى .. وأراد استفزازهم .. بتحطيم آلهتهم التى يقدسونها .. ويعبدونها .. ويخشون بأسها .. فقال فى نفسه « وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين » (٥٧/الأنبياء) .

وقال « بعد أن تولوا مدبرين » لصعوبة هذا الأمر .. وخاصة فى زمن نمروذ مع عتوه ، واستكباره وقوة سلطانه ، وتهالكه على نصرة دينــه ..

خرجوا يوم عيدهم .. بعد أن تركوا الطعام عند الآلهة .. ولم يخرج معهم ابراهيم بحجة المرض .. حيث قال : انى سقيم ..

---

(١) القرطبى ٨٢ / الانعام .

ولست أدرى .. هل كانوا يعتقدون أن الأصنام .. تأكل الطعام .. بينما يستولى عليه الكهنة ؟ .. ؟ أم انهم كانوا يضعون الطعام أمام الآلهة .. بقصد البركة ؟..

المهم .. إن ابراهيم عليه السلام ـ دخل حجرة الهيكل .. ومعه فأس .. ثم نظر الى الأصنام السبعين المصطفة .. وقال لها .. ساخرا .. شاهرا فأسه فى وجوهها .. مشيرا الى الطعام الملقى أمامها .. لماذا لا تأكلون هذا الطعام الفاخر ؟ .. مالكم لا تنطقون أيتها الآلهة الصماء البكماء ؟ ..

« فراغ الى آلهتهم ، فقال الا تأكلون ، مالكم لا تنطقون » (٩١ ـ ٩٢ الصافات) ثم انهال عليها ضربا بالفأس .. حتى جعلها .. على الجانبين .. قطعا صغيرة .. ووصل الى زعيمها .. المصنوع من الذهب صاحب الجوهرتين فى عينيه .. وقد وقف فى صدر الهيكل .. فتركه .. وعلق الفأس فى عنقه ثم انصرف الى مأواه « فجعلهم جذاذا الا كبيرا لهم .. لعلهم اليه يرجعون » (٥٨/الأنبياء ..)

□ □ □

وعاد القوم من عيدهم .. بعد يوم ممتع .. مليء بالمرح والصخب .. واللهو واللعب .. أطفالا وشيوخا .. وذكرانا واناثا .. بين رنين الكاس .. ورقصات الحسان .. وأصوات الغوانى .. ومزامير الشيطان .. وهرول الكهنة .. آخر اليوم .. الى حجرة الآلهة .. ليقدموا لها القرابين .. ويحرقوا أمامها البخور .. فوجدوها أحجارا مهشمة .. وقطعا محطمة .. فقالوا : عجبا « من فعل هذا بآلهتنا .. انه لمن الظالمين » (٥٩/الانبياء) .. فقال الجميع ان حديث الناس الآن .. عن فتى كافر بآلهتنا ظهر فى المدينة .. دائم السب فيها .. والتعريض بها .. والتحقير من شأنها .. فلا بد أنه هو الذى فعل تلك الفعلة الشنيعة « قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له ابراهيم » (٦٠/الانبياء .. وجن جنون نمروذ .. أحضروا هذا الكافر .. المارق عن ديننا .. ودين آبائنا .. لنحاكمه أمام القوم .. « قالوا فأتوا به على أعين الناس ، لعلهم يشهدون » (٦١/الانبياء) . وتقوم قيامة رجال الأمن .. وتتحرك قوات المخابرات .. للقبض على هذا الجانى الأثيم .. الذى سفه أحلامهم .. وأهان آلهتهم .. ودمرها تدميرا .. فوجدوا ابراهيم .. فى انتظارهم .. لم يعبأ بقوتهم .. ولم يخف بأسهم « فأقبلوا اليه يزفون .. قال : اتعبدون ما تنحتون .. والله خلقكم وما تعملون » (٩٤ ـ ٩٦/الصافات) .

فقبضوا عليه.. وكبلوه بالأغلال .. وساقوه الى مجلس القضاء ..

جلس نمروذ فى عظمته .. وابهة ملكه .. وحوله كبار الكهنة .. ورجال الدولة .. فى أول محكمة شعبية فى تاريخ البشرية .. وادخلوا ابراهيم ـ عليه السلام مقبوضا عليه ـ لم تهتز فى جسمه شعرة .. لأنه أيقن أن الله أكبر .. وبعد ان نظر اليه نمروذ مليا .. بدا محضر التحقيق .. بالسؤال الاول .

« أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا ابراهيم » ؟ (٦٢/الانبياء) ..

وكانت اجابته : ـ « بل فعله كبيرهم هذا ، فاسألوهم ان كانوا ينطقون » (٦٣/الانبياء) . رد .. أشبه ما يكون بصدمة كهربية .. جعلت كل واحد من المستشارين يعود الى نفسه ..

حقا لماذا لا تقول الآلهة عمن فعل بها هذا الأمر ؟ .. فرجعوا الى أنفسهم فقالوا . انكم أنتم الظالمون » (٦٤/الانبياء) .. واحس نمروذ .. ان الزمام .. على وشك الافلات من يده .. ولكن بشيء من نظراته الوعيد والتهديد .. عاد المجلس الى هدوئه .. ورد نمروذ على ابراهيم » لقد علمت ما هؤلاء ينطقون » ٦٥/ الانبياء .. وذلك بعد أن وصف القرآن الكريم .. نكوصهم .. بعد وعيهم بقوله « ثم نكسوا على رؤسهم » ..

□ □ □

ووجد ابراهيم عليه السلام ـ فرصة يواجه بها نمروذ .. وهو فى أوج مجده وعظمته : ـ « قال أفتعبدون من دون الله مالا ينفعكم شيئا .. ولا يضركم ، أف لكم ولما تعبدون من دون الله ، أفلا تعقلون » (٦٦ـ٦٧/الانبياء) ويبتلع نمروذ .. هذا التحدى .. ليوجه اليه السؤال الثانى : ـ

الك اله غيرى يا ابراهيم ؟ ..

وكان طبيعيا .. أن أول الصفات التى تتبادر الى ذهن ابراهيم .. هى صفة .. احياء الموتى .. التى رآها من قريب .. فكان جوابه : نعم « ربى الذى يحيى ويميت » (٢٥٨/البقرة) .. فقال نمروذ « أنا أحيى وأميت » .. وورط نفسه .. وكان عليه .. أن يتخلص من المأزق

الذى وضع نفسه فيه .. فعفا عن احد المحكوم عليهم بالاعدام .. وقتل آخر .. وذلك ليثبت للملأ أنه يحيى ويميت .. وواضح ان الحجة واهية .. والدليل ضعيف .. فألقمه ابراهيم الحجر .. وقال « فان الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب » .. حجة دامغة .. لم يستطع نمروذ منها فكاكا .. هل يستطيع ان يقول : نعم .. فيكون قد حدد لنفسه النهاية .. أليس الصبح بقريب ؟ .. افحمته الحجة .. واعجزه المنطق .. فلم يحر جوابا « وتلك حجتنا آيتناها ابراهيم على قومه ». (٨٣/ الانعام) .. « فبهت الذى كفر ، والله لا يهدى القوم الظالمين» (٢٥٨/البقرة) ..

ودائما .. اذا عجز الحاكم الظالم .. عن مبادرة الحجة بالحجة .. ومقارعة الدليل بالدليل .. استغل جبروته .. واستعمل سلطانه .. انقاذا لموقفه .. أمام شعبه المضلل .. فقال : « حرقوه وانصروا آلهتكم ، ان كنتم فاعلين » (٦٨/الأنبياء) .

يعنى انه حكم عليه بالأعدام حرقا ..

وزج بابراهيم — عليه السلام — فى زنزانة ضيقة .. حتى تجهز له نار ضخمة .. تليق بقاتل الآلهة ..

□ □ □

٥ تبادل بين الجنة والنـار

كان هاران الأكبر بن ناحور – عم ابراهيم – هو سيد الكهنة فى قصر نمروذ .. وكانت له فتاة وحيدة .. اسمها « سارای » .. رباها افضل تربية .. وعلمها فى ارقى معاهد « فدام آرام » .. وكان فى نفسها .. شيء كثير .. من جهة الأصنام لا تستسيغ عبادتهـا .. ودعاءها .. وتعجب .. كيف تكون تلك الأحجار العميـاء البكماء الصماء آلهة تعبـد .. وهى لا تملك لنفسـها ضرا ولا نفعا ؟ . ولكن سارای تكتم كل هذا فى نفسها ..

وما ان انتشر خبر الفتى – ابن عمهـا – الذى حطم الآلهة .. حتى كانت أول الحاضرين الى مجلس المحاكمة الشعبية التى حوكم فيهـا ، ابراهيم .. وسـمعت كل ما دار بين ابراهـيم والاله الأعظم .. نمروذ – ورات كيف أن نمروذ .. لم يرد على ابراهيم الحجة بالحجـة .. بل استعمل سـطوته وجبروته .. فى هذا الحكم الظالم عليه .. وعادت الى بيت أبيهـا .. وفى نفسها اثقال من الأسى .. واحمال من الألم من اجل الفتى المظلوم ..

وما أن عاد ابوها الى المنزل .. حتى لاقته بعاصفة من الثـورة المشتعلة فى صـدرها .. يا أبت : لماذا لم يرد الاله الأعظـم على ابراهيم الحجة بالحجـة .. حينما قال له : « فان الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب » ؟ .. ان ابراهيم مظلوم .. وان هذا الحكم بعيد كل البعد عن الحقيقة .. واذا نفـذ فيه حكم الاعدام فسأقتل نفسى .. ولا حياة لى بعده .. وانهمرت فى البـكاء ..

وكان الرجل .. يحب وحيدته حبـا يبلغ درجة العبادة .. فقال لها : ما هذا يا سـارای .. اتكفرين ؟ كيف تقولين* هذا الكلام على الاله الأعظم .. ؟ على كل حال .. سأتصرف فى هذا الأمـر .. وعليك ان تستغفرى مما الم بك من تمرد وعصيان ..

وذهب هاران ابوها – الى السجن .. حيث دخل على ابن أخيه فى زنزانتـه .. وقال له : يابنى .. انك مازلت شابا حدثا – وقد أخطأت خطـأ شنيعا .. وارتكبت جرما فظيعـا .. فاستغفر الاله الأعظم .. نمروذ – وأنا اشـفع لك عنده .. ليغفر لك ..

فما كان جـواب ابراهـيم الا ان قال : ان نمروذ عبـد مثلى ومثلك .. وانا لا أسـتغفر العبيـد .. وبئس الرجل منـه .. فانصرف دون جدوى ..

وما أن خرج هاران من زنزانة ابراهيم عليه السلام – حتى دخل عليه جبريل .. هاشا .. باشا .. قائلا : ألك حاجة يا ابراهيم ؟ .. فيقـول له : اما اليك فلا .. ألست يا جبريل عبـدا مثلى ؟ .. ولعلك سمعتنى الآن .. أقول لمن سبقك .. أنا لا أسـتغفر العبيد .. وأما اليه .. فعلمه بحالى .. يغنى عن سـؤالى .. وقد ورد أن جبريل .. قال : يارب عبـدك ابراهيم .. قال كذا .. فقال الله سبحـانه .. الم تعلم أنه الخليـل يا جبريل .. وقد حمـل ابراهيم لقب الخليل من هذا اليوم ...

يقول ابن اسحـاق : كانوا يجمعون الحطب شهرا .. حتى انه كانت المراة المريضة تقول : لئن شـفيت .. لاجمعن الحطب للنـار التى سـتحرق ابراهيم .. ولمـا كثر الحطب .. وجمعوا منه ما ارادوا .. واشعلوا النار فى كل ناحية .. لم يتمكنوا من القائه من شدة اللهب .. وعدم استطاعتهم القرب منهـا .. فأوحى

الشيطـان اليهم .. صناعة المنجنيق .. فالقوه به في النـار ..

وتجمع الناس .. من كل انحاء البـلاد .. ليروا حرق ابراهيم .. قاتل الآلهة ومحطمهـا .. وتحصل المعجـزة .. الأشجار الضخمـة المشتعلة .. تفقد خاصيتها النارية .. وتعود في التو الى الخاصية النباتية .. فتدب الخضرة في اصولها .. وتترقرق النضرة في اغصانهـا .. وتورق .. وتزهر .. وتثمر .. كل هذا بدون زمن مطلقا .. فقدرة الله - فوق الزمان « وما امرنا الا واحـدة » فيسقط ابراهيم - عليـه السلام من منجنيقه في جنة زاهرة .. وبساتين ناضرة .. بينما يشم الجمـع لحم آدمى يشوى .. واذا بهم يجدون جنة نمروذ .. تتبـادل الطبيعة مع ناره .. فتأخذ كل خاصية الأخرى .. فانقلبت الجنة الى نار تلتهم كل ما فيهـا ومن فيها من الكفرة والعتاة الذين كرمهم نمروذ .. ومعهم كل وسائل ترفهم .. من الراقصات والغانيات .. وآلات اللهـو .. وقوارير الخمر والعسـل ..

وقد روى المفسرون .. أن ابراهيم - عليه السلام - قال حين أوثقوه ليلقوه في النار « لا اله الا انت سبحانك .. رب العالمين .. لك الحمد ولـك الملـك .. لا شريك لك » ثم القى به في المنجنيق الى النار وفي الخبر .. أن ابراهيم - عليه السـلام - انما نجى بقوله « حسبى الله ونعم الوكيل » .. فقال الله تعالى « يا نار كونى بردا وسلاما على ابراهيم » ..

وقالوا : القى ابراهيم في النار .. وهو ابن ست عشرة سنة .. وهذا متفق عليه .. رواية ونصا .. ومنطقا .

ويخرج ابراهيم من النار .. امام المـلأ .. محمولا على الأعنـاق .. مرفوع الراس .. شامخ الهـامة .. في رعاية مولاه . فامن به ملأ من قومه .. على خوف من نمروذ وملئـه .. وممن آمن به .. لوط ابن أخيه هاران الأصغر .. وساراى بنت عمـه هاران الأكبر .. حيث تزوجها .. وهي السيدة سارة التي انجبت له ابنـه اسحاق بأرض فلسطين .. في نهـاية عمرهـا ..

وقال أهل العلم بسير الماضين : لما نجى الله خليله ابراهيم - عليه السلام - آمن به من آمن .. وتابعوه على فراق قومهم .. واظهار البرأءة منهم .. فقالوا « انا برآء منكم ، ومما تعبدون من دون الله ، كفرنا بكم » ايها المعبودون « وبدأ بيننا وبينكم العداوة والبغضاء » ايها العـابدون .. « حتى تؤمنوا بالله وحده » ٤ / المتحنه : وذلك في تفسير قوله تعالى « قد كانت لكم أسوة حسـنة في ابراهيم والذين أمنوا معـه » .. الخ الآية ..

وتبرأ ابراهيم من ابيه - آزر - بعد الذى حدث .. ولم يطب له المقام .. بين اهله وقومه .. فذهب الى أورالكلدانيين .. وهي مدينـة كانت قرب الشـاطىء الغربى لنهر الفرات .. ومكث بها مدة .. ثم رحل الى حران .. فمكث بها ما شاء الله أن يمكث ..

□□□

٦ الهجرة إلى الله

لما عزم ابراهيم ـ عليه السلام ـ على الهجرة .. من حران الى الشام .. هاجرت معه زوجته ساره .. ولوط ابن أخيه .. ومع لوط زوجته : « فآمن له لوط .. وقال انى مهاجر الى ربى ، انه هو العزيز الحكيم » ٢٦/ العنكبوت / وقد ورد أن عثمان ـ رضى الله عنه ـ لما هاجر بزوجته رقية .. بنت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الى الحبشة .. قال النبى : ان عثمان أول من هاجر بأهله بعد لوط / . ونزلوا الشام .. وأقاموا فى تلك الانحاء .. وكانت أرض الكنعانيين .. أقام فى شكيم وهى مدينة ـ نابلس ـ « ونجيناه ولوطا الى الأرض التى باركنا فيها للعالمين » ٧١/ الأنبياء أى نجيناهما من العراق الى الشام .. وقد بارك الله فيها .. بكثرة الماء والشجر والثمر والخصب وطيب العيش للغنى والفقير .. وعن سفيان : انه خرج الى الشام .. فقيل له : الى أين ؟ فقال : الى بلد يملأ فيها الجراب بدرهم (١) .

وقال الأستاذ عبد الوهاب النجار .. فى كتابه « قصص الأنبياء » وكان لوط مع ابراهيم .. وكان الرجلان لهما أموال كثيرة .. وكان الرعاة يزدحمون .. على الاسامة والورد .. فاتفق رأيهما .. على أن يفترقا فى الاقامة .. حفظا لعلاقة المودة .. والرحم .. فذهب لوط .. الى المؤتفكة ـ سدوم وعمورة ـ فى الأردن .. وأقام ابراهيم .. حيث كان .. وبينهما مسيرة يوم وليلة ..

وبعد حين حدثت مجاعة بأرض الشام .. اضطرت ابراهيم ـ عليه السلام ـ الى الهجرة .. الى مصر .. حيث المراعى الشاسعة .. والنماء والخصب .. ودخلها مع زوجته سارة ..

ويقول الحافظ بن حجر : أعطى يوسف وامه شطر الحسن ـ يقصد سارة ـ وكان سنها .. فى هذا الحين .. سبعا وخمسين سنة .. وكانت مصر .. تحت حكم ملوك الرعاة .. ويسميهم الرومان « الهكسوس » وكان ملكها جبارا .. مولعا بالنساء .. وقد قرات احاديث كثيرة .. حول هذا الموضوع .. لشدة حساسيته .. وخطورة موضوعه .. منها حديث أبى هريرة .. عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم : أخرجه البخارى فى أحاديث الأنبياء .. مرفوعا .. وموقوفا .. واخرجه مسلم فى الفضائل مرفوعا .. واخرجه أحمد .. بسياق آخر .. ذكره الحافظ بن كثير .. عن أبى سعيد .. عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويؤيد تلك الروايات .. حديث الشفاعة .. فى فصل القضاء يوم القيامة .. من تخريج البخارى من عدة طرق ..

ومفهوم تلك الأحاديث ، على ما ورد فى جميع كتب التفسير .. أن ملك مصر الجبار .. أبلغه عيونه .. عن دخول رجل معه امرأة جميلة .. شديدة الجمال .. الى الديار المصرية .. فاستدعى ابراهيم ـ عليه السلام ـ وسأله عن

---

(١) تفسير الكشاف .

صلته بالسيدة التى معه .. ففطن ابراهيم الى غرضه .. فقال له : انها اختى ـ يقصد اخته فى الاسـلام ـ فالمسلمون اخـوة ـ فقال له : ارسلها لاتزوجها فأرسلها ابراهيم .. بعد ان اخبرها .. بما حصل .

والانسان فى طفولته .. ينـادى امه .. اذا أفزعه أمر .. ولكنه اذا شب .. يجـد ان نداء الأب أولى فى حالة الفزع .. فاذا بلغ الكمـال والرجولة .. لا ينادى عند الفزع الا الله ..

فعندما توجهت سارة الى لقاء الملك ـ بامر زوجها ـ قام ابراهيم .. يصلى .. فالأمر جد خطير .. ولما رآها الملك .. أهوى اليهـا بيده .. يريد تناولها .. فيبست يده الى صدره .. فعظم عليه الأمر .. وقال لهـا : سلى ربك ان يطلق يدى .. فوالله لا اذيتك .. فقالت سارة : اللهم ان كان صـادقا .. فاطلق يده .. فاطلق الله تعالى ـ يده .. وفى بعض الروايات .. انه فعل ذلك ثلاث مرات يريد ان يتناولهـا .. فتيبس يده .. فلمـا رأى ذلك .. ردها الى ابراهيم .. ووهب لهـا هاجر المصرية .. مع بعض الهدايا .. تكريما لهـا .. فأقبلت الى ابراهيم .. وهو مازال يصلى .. فلمـا احس بها .. انفتل من صلاته وسألها .. فقالت : كف الله يدَ الفاجر .. واخدمنى هاجر ـ اى اعطانى هاجر خادمة ـ .. يقول الرواة : كان ابو هريرة رضى الله عنه .. اذا حـدث بهـذا الحـديث .. عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسـلم ـ قال : فتلك امكم يا بنى ماء السماء .

وفى بعض الأخبار .. أن الله تعالى... رفع الحجاب بين ابراهيم وسـاره .. فى صلاته .. حتى كان ينظر اليها .. من وقت خروجهـا من عنده .. الى وقت عودتها اليه .. وقال النبى ـ صلى الله عليه وسـلم ـ فى حديث الشفاعة .. الذى اخرجه البخارى .. من عدة طرق .. فى أبواب متعـددة .. فيما يتعلق بهذا الموقف : (انه حينما ياتى الناس ابراهيم ـ عليه السلام . يوم الحشر .. يطلبون منـه الشفاعة لفصل القضاء .. يقول لست هنـاكم .. انى كذبت ثلاث كذبات : قوله : « انى سقيم » .. وقوله « بل فعله كبيرهم هذا » وقوله لامراته اخبريه « انى أخوك ») ..

* * *

وعاد ابراهيم ـ عليه السلام ـ مع زوجـه .. ووصيفتها هاجر .. الى الشـام .. وقد ورد أن رسـول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « اذا فتحتم مصر .. فاستوصوا باهلهـا خيرا .. فان لهم ذمة ورحمـا » يقـول ابن اسحـاق : فسألت الزهـرى ..مالرحم التى ذكرها رسـول الله ـ صلى الله عليه وسـلم ـ فقال : كانت هاجر أم اسماعيل منهم .

واستقر المقام بهم فى بلاد بيت المقدس .. وكانت السيدة سارة عاقرا .. لم تلد .. وتالمت اذ لم تجد لابراهيم نسلا .. وهى قد امتد بها العمر .. ولا يرجى لها أن تكون أما .. فاتفقت مع ابراهيم .. ووهبته وصيفتها هاجر .. فدخل بها .. وانجب منها .. اسماعيل ـ عليه السلام وذكر ابن كثير .. فى تاريخـه .. نقلا عن اهل الكتاب : انه لما كان لابراهيم ببلاد بيت المقدس عشرون سنة .. وهبت السيدة ساره له هاجر .. ودخل بها .. وجاءت باسماعيل ـ عليـه السلام وذكر ايضا أن ولادة اسماعيل .. كانت قبل ولادة اسحاق .. بثلاث عشرة سنة .

ونظرا لتداخل قصص ابراهيم واسماعيل واسحاق ولوط ـ عليهم السلام ـ فى بعضها .. لوجودهم جميعا .. فى عصر واحد ..

سأعرض الأحداث بحسب ترتيبهـا الزمنى .. وذلك لأننى لحظت أن كل من كتب عن ذلك العصر لم يلاحظ هذا .. مما يوجد الشك عند القارىء .. فى أى الأحداث كان قبل الآخر ..

□ □ □

٧ إلى مكة مع إسماعيل عليه السلام

لم يفصل القرآن الكريم .. مسألة ذهاب اسماعيل .. مع أمه الى مكة .. الا فى عبارة ابراهيم ـ عليه السلام ـ « ربنا انى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم » .. وانما فصلتها التوراة ..

وبينت ذهاب اسماعيل عن بلاد أبيه الى ـ فاران ـ اى مكة فى سفر التكوين الاصحاح الحادى والعشرين فى الآيات من ٩ الى ١٠ ...

ويظهر فى رواية سفر التكوين .. تحريف كثير .. والتحريف عند اليهود معروف .. والخبث فى تفكيرهم مألوف .. مما جعل المفسرين يختلفون فى هذا الموضوع اختلافا بينا .. ولذلك رأيت أن نترك هذه القصة لابن عباس ـ رضى الله عنه ـ يرويها لنا : ـ ففى البخارى .. عن ابن عباس .. أن النبى صلى الله عليه وسلم : قال : (أول ما اتخذ النساء المنطق .. من قبل ام اسماعيل .. اتخذت منطقا لتعفى اثرها على سارة .. ثم جاء بها ابراهيم وبابنها اسماعيل .. وهى ترضعه .. حتى وضعهما عند البيت .. عند دوحة فوق زمزم .. فى أعلى المسجد .. وليس بمكة يومئذ احد ... وليس بها ماء .. فوضعها هنالك .. ووضع عندها جرابا فيه تمر .. وسقاء فيه ماء .. **ثم قفل ابراهيم منطلقا .. فتبعته أم اسماعيل .. فقالت :** يا ابراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادى .. الذى ليس فيه أنس ولا شىء ؟ .. **فقالت له ذلك مرارا .. وجعل لا يلتفت اليها .. فقالت له : الله أمرك بهذا ؟ .. قال : نعم .. قالت :** اذا لن يضيعنا .. ثم رجعت .. فانطلق ابراهيم .. حتى اذا كان عند الثنية .. حيث لا يرونه .. استقبل بوجهه البيت .. ثم دعا بهؤلاء الكلمات .. ورفع يديه .. وقال : « ربنا انى اسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ، ربنا ليقيموا الصلاة ، **فاجعل أفئدة** من الناس تهوى اليهم ، وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون » ٣٧/ابراهيم .

ولا يجوز لأحد أن يتعلق بهذا فى ترك ولده وعياله بأرض مهجورة .. بغير زاد .. اتكالا على العزيز الرحيم .. واقتداء بفعل ابراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ كما تقوله غلاة الصوفية فى حقيقة التوكل .. فان ابراهيم .. فعل ذلك بأمر الله تعالى .. لقوله فى الحديث : الله أمرك بهذا ؟ قال : نعم . وقد تضمنت هذه الآية .. أن الصلاة بمكة .. **أفضل من الصلاة بغيرها** .. وهذا حديث عبد الله بن الزبير .. قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « صلاة فى مسجدى هذا .. **أفضل من ألف صلاة فيما** سواه من المساجد .. **الا المسجد الحرام** .. وصلاة فى المسجد الحرام .. **أفضل من** صلاة فى مسجدى هذا بمائة صلاة » (١) وقد قال ابراهيم « **واجعل أفئدة من الناس** ، ولم يقل واجعل أفئدة الناس .. يقول ابن عباس : **لو قال أفئدة الناس .. لازدحمت عليه فارس والروم والترك، والهند ، واليهود ، والنصارى ، والمجوس ..** ولكن قال « من الناس » .. وهم المسلمون .

ونعود الى ابن عباس لنسمع منه حديث اسماعيل ـ عليه السلام ـ **فيقول لنا عن رسول**

---

(١) القرطبى ٣٧ / ابراهيم .

الله ــ صلى الله عليه وسلم : ــ (وجعلت أم اسماعيل ترضع اسماعيل .. وتشرب من الماء .. حتى اذا نفد ما فى السقاء .. عطشت ــ .. وعطش ابنها .. وجعلت تنظر اليه يتلوى ، أو قال يتلبط .. فانطلقت .. كراهية أن تنظر اليه .. فوجدت الصفا أقرب جبل فى الأرض يليها .. فقامت عليه .. ثم استقبلت الوادى تنظر .. هل ترى أحدا ، .. فلم تر احدا .. فهبطت من الصفا .. حتى اذا بلغت الوادى .. رفعت طرف درعها .. ثم سعت سعى الانسان المجهود .. حتى جاوزت الوادى .. ثم أتت المروة .. فقامت عليها .. ونظرت .. هل ترى احدا ، فلم تر احدا .. ففعلت ذلك سبع مرات) .. وكأن هاجر ــ عليها السلام ــ فى حالتها تلك كانت كالفأر الذى وقع فى المصيدة .. يظل طول الليل .. يجرب الأسلاك .. سلكا .. سلكا .. عله يجد نقطة ضعف تكون سبيله الى النجاة .. وكلما انتهى من دورة .. عاد كما بدأ .. عسى أن يكون قد فاته سلك ضعيف فى المرة الأولى .. يعثر عليه .. فى المرة الثانية وهكذا كانت هاجر تجرى مهرولة .. حتى اذا نأى بها المكان .. عادت سيرتها الأولى .. عسى أن تجد فرجا فى الجولة التالية .. وهكذا سبع مرات من الصفا الى المروة ومن المروة الى الصفا ..

قال ابن عباس : قال النبى ــ صلى الله عليه وسلم : (فذلك سعى الناس بينهما .. فلما اشرفت على المروة .. سمعت صوتا فقالت « صه » .. تريد نفسها .. ثم تسمعت فسمعت أيضا .. فقالت : قد أسمعت ان كان عندك غوث .. فاذا هى بالملك عند موضع زمزم .. فبحث بعقبه .. أو قال : بجناحه .. حتى ظهر الماء .. فجعلت تخوضه .. وتقول بيدها .. هكذا .. وجعلت تغرف من الماء فى سقائها .. وهو يفور بعد ما تغرف) ..

قال ابن عباس : قال النبى صلى الله عليه وسلم : (يرحم الله أم اسماعيل لو تركت زمزم .. أو قال : لو لم تكن تغرف من الماء .. لكانت زمزم عينا معينا .. وأرضعت ولدها .. فقال لها الملك : لا تخافوا الضيعة .. فان ها هنا بيت الله يبنى هذا الغلام وأبوه ، وان الله لا يضيع أهله) ..

وقد يسأل سائل هنا : وهل يغنى الماء عن الغذاء .. فى هذا المكان القفر ؟ .. ونحن نحيل الجواب .. على أبى ذر ــ رضى الله عنه .. ففى الصحيح .. أن أبا ذر .. اجتزأ به ثلاثين من يوم وليلة .. قال أبو ذر : ما كان لى من طعام الا ماء زمزم .. فسمنت حتى تكسرت عكنى .. وما أجد على كبدى سخفة جوع .. (١)

وعن ابن عباس قال : قال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم : ــ « ماء زمزم لما شرب له .. ان شربته تشتفى به .. شفاك الله . وان شربته لشبعك .. أشبعك الله به .. وان شربته لقطع ظمئك .. قطعه .. وهى هزمة جبريل .. وسقيا الله اسماعيل ..

وكان ابن عباس .. اذا شرب من زمزم قال : اللهم انى أسألك علما نافعا .. ورزقا واسعا .. وشفاء من كل داء . وقال ابن العربى : وهذا موجود فيه الى يوم القيامة .. لمن صحت نيته .. وسلمت طويته .. ولم يكن به مكذبا .. ولا بشربه مجربا .. فان الله مع المتوكلين .. وهو يفضح المجربين .. ويقول أبو عبد الله .. محمد بن على الترمذى .. حدثنى أبى رحمه الله . قال : دخلت للطواف فى ليلة ظلماء .. فأخذنى من البول ما شغلنى .. فجعلت أعتصر .. حتى آذانى .. وخفت أن أخرج من المسجد .. أن أطأ بعض تلك الأقدام .. وذلك أيام الحج .. فذكرت هذا الحديث .. فدخلت زمزم .. فتضلعت منه (٢) .. وذهب عنى الى الصباح (٣) ..

ويكمل لنا ابن عباس حديث اسماعيل ..
فيقول .. عن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم . (وكان البيت مرتفعا من الأرض كالرابية .. تأتيه السيول .. فتأخذ عن يمينه وشماله .. فكانت كذلك .. حتى مرت بهم رفقة من جرهم أو أهل بيت من جرهم .. مقبلين عن طريق كداء .. فنزلوا فى أسفل مكة .. فرأوا طائرا ، عائفا .. فقالوا : ان هذا الطائر .. ليدور على ماء .. لعهدنا بهذا الوادى وما فيه ماء .. فأرسلوا جريا .. أو جريين (٤) ..

---

(١) العكنة : الطى الذى فى البطن من السمنة ــ وسخفة الجوع : رقته وهزاله .

(٢) تضلع : أكثر من الشرب حتى تمدد جنبه وأضلاعه .

(٣) من القرطبى ٤ ٣٧ / ابراهيم .

(٤) الجرة كالكرة : الشجاعة ..

فاذا هم بالمـــاء .. فرجعوا .. فاخبروهم بالماء .. فاقبلوا .. قال : وام اسماعيل عنـد الماء .. فقالوا : اتأذنين لنا .. ان ننزل عندك ؟ .. فقالت : نعم .. ولكن لا حق لكم فى الماء .. قالوا : نعم) قال ابن عبـاس .. قال النبى ـ صلى الله عليه وسلم . (فألفى ذلك ام اسماعيل .. وهى تحب الانس .. فنزلوا .. وارسـلوا الى اهليهـم .. فنزلوا معهم .. حتى اذا كان بها اهل أبيات منهم .. وثب الغلام .. وتعـلم العربيـة منهم) (١) .

واراني مضطرا للوقوف من حـــديث ابن عباس .. عند هذا الحد .. لأننا مازلنا مرتبطين .. بقصة ابراهيم ـ عليه السلام ـ حيث يعود بعد حين من فلسطين .. لزيارة زوجتـــه هاجر .. وابنهـا اسماعيل .. بعد ان يبلغ اسماعيل ثلاثة عشر عاما .. لينفذ أمرا صدر اليـــه من الله عز وجل ..

□ □ □

(١) للحديث بقية احتجزها .. حتى لا نسبق الزمن .. وسنذكره فى حينه ان شاء الله تعالى .

٨ أول الذبيحين

قال ابراهيم .. لابنه اسماعيل « يا بنى انى أرى فى المنام أنى أذبحك .. فانظر ماذا ترى » ١٠٢ / الصفات / قيل : انه رأى .. ليلة التروية .. ان قائلا .. يقول له : ان الله يأمرك بذبح ابنك .. فلما أصبح .. شك أنه من الله .. أو من الشيطان .. فلما أمسى .. رأى مثل ذلك .. فعرف انه من الله .. ثم رأى مثله فى الليلة الثالثة .. فهم بنحره .. وقال له ذلك .. ولهذا سميت الأيام الثلاثة : بالترويه ، وعرفه ، والنحر . وهى الثامن والتاسع والعاشر من ذى الحجة ..

واختلف المفسرون .. فى ايهما الذبيح : اسماعيل ام اسحاق ؟ .. ولكن الصحيح .. بل اليقين .. انه اسماعيل عليه السلام لكثير من الأسباب .. منها :

أولا : لأن البشارة باسحاق .. كانت بعد البشارة باسماعيل .. وبعد قصة الذبح .. اقرأ .. ان شئت .. من قوله تعالى « فبشرناه بغلام حليم .. فلما بلغ معه السعى قال يا بنى انى أرى فى المنام أنى أذبحك » .. الى قوله تعالى « وبشرناه باسحاق نبيا من الصالحين » ١٠١ ـ ١١٢ الصفات . ومنه ترى تسلسل النص .. وتتابع الأحداث .. مما يثبت أن التبشير باسحاق كان بعد حادث الذبح ..

ثانيا : ولقوله عليه الصلاة والسلام « أنا ابن الذبيحين » فأولهما : جده اسماعيل .. وثانيهما : ابوه عبد الله .. فان جده عبد المطلب .. نذر ان يذبح ولدا .. أن رزقه الله عشرة بنين . فلما رزقه الله العشرة .. أقرع بينهم فخرج السهم على عبد الله ـ ففداه بمائة من الأبل ـ ولذلك سنت الدية .. مائة من الابل .

ثالثا : ولأن الذبح .. كان بمكة .. وقد ثبت من عدة روايات أن قرنى الكبش .. كانا معلقين بالكعبة .. حتى احترقا معا .. فى ايام الزبير (١) ..

رابعا : ولأن البشارة باسحاق .. كانت مقرونة بولادة يعقوب .. اقرأ « فبشرناه باسحاق ، ومن وراء اسحاق يعقوب » ٧١/ هود . فلا يناسبها .. الأمر بذبح إسحاق مراهقا . فابراهيم يعلم مسبقا أن يعقوب من نسل اسحاق :

خامسا : جاء فى انجيل برنابا : ان الذبيح .. هو اسماعيل .. فذكر على لسان السيد المسيح : « الحق أقول لكم .. اذا أمعنتم النظر .. فى كلام الملاك جبريل .. تعلمون خبث كتبنا وفقهائنا .. لأن الملاك .. قال : يا ابراهيم .. سيعلم العالم كله .. كيف يحبك الله .. أجاب ابراهيم .. ها هوذا عبد الله .. مستعد أن يفعل .. كل ما يريد الله .. فكلم الله .. حينئذ ابراهيم .. قائلا : خذ ابنك البكر .. واصعد الجبل .. لتقدمه ذبيحة » فكيف يكون اسحاق هو البكر .. وقد ثبت ميلاد اسماعيل قبله .. بزمن ؟ .

---

(١) قال ابن عباس : « فوالذى نفسى بيده لقد كان اول الاسلام .. وان راس الكبش لمعلق بقرنيه من ميزاب الكعبة وقد يبس » من القرطبى ١٠٢ الصافات . ورد مثله فى البيضاوى والكشاف .

فاذا قال الاخــوة المسيحيــون .. نحن لا نعترف بانجيل برنابا .. قلنــا لهم .. هيا نناقش اسـفار التوراة .. المعترف بهــا من الكنيسـة .. فى الكتاب المقدس .

فان التوراة .. التى قالت : ان الذبيح هو اسحاق .. قالت بصراحة : ان الذبيح هو ابنه وحيده . ص ٢٢ من سفر التكوين :

٢ ـ فقال خذ ابنك وحيـدك الذى تحبه ـ اسحاق ـ واذهب الى ارض الموريا واصعده هناك محرقه على احد الجبــال الذى أقول لك .. ويظهر هنــا التناقض فى قول التوراة .. فكيف يكون اسحاق وحيده ؟ مع ان التوراة ـ بصريح العبارة قالت: ان اسحاق ولد .. ولاسماعيل اربع عشرة سنة ، وسأعرض عليك فقرة صغيرة من التــوراة .. لترى التناقض : ص ١٦ من ســفر التكوين :

١٥ ـ فولدت هاجر لابرام ابنــا .. ودعا ابرام اسم ابنه الذى ولدته هاجر .. اسماعيل .

١٦ ـ كان ابرام ابن ست وثمانين سنة .. لما ولدت هاجر اسماعيل لابرام ..

لاحظ هنا .. ان ابراهيم كان سنه ســتا وثمانين سنة عنــد ولادة اسماعيل .. ثم اقرأ معى فى سفر التكوين أيضا :
ص ٢١ ـ من أول السفر :

١ ـ وافتقد الرب ســاره كما قال . وفعل الرب لسارة كما تكلم .

٢ ـ فحبلت ساره وولدت لابراهيم ابنا فى شيخوخته . فى الوقت الذى تكلم الله عنه .

٣ ـ ودعا ابراهيم اسم ابنه المولود له الذى ولدته ساره اسحاق .

٤ ـ وختن ابراهيم اسحاق ابنه وهو ابن ثمانية أيام « كما أمره الله » .

٥ ـ وكان ابراهيم ابن مائةسنة حين ولد له اسحاق ابنه ..

وحصيلة ما ذكرناه مـن التــوراة .. ان اســماعيل ولد وابراهيم فى سن السادســة والثمــانين واسحاق ولد وهو فى سن المائة .. فيكون اسماعيل اكبر من اسحاق بأربعــة عشر عاما . ومعنى هذا أنه ليس لابراهيم ابن وحيد غير اسماعيل .. فيكون هو الذبيــح حتى من نصوص التوراة نفسها ..

وأما ما روى من أنه عليه الصلاة والســلام سئل : أى النسب أشرف ؟ فقال :

يوسـف صــديق الله ، بن يعقوب اسرائيل الله ، بن اسحاق ذبيح الله ، ابن ابراهيم خليــل الله ... فالصحيح أنه قال : يوسف بن يعقوب ابن اسحــاق بن ابراهــيم .. والزيادات من الراوى ..

وقد سئل معاوية بن أبى ســفيان : الذبيح اسماعيل أو اسحاق ؟ ..

فقال : على الخبير سقطتم ، كنت عنــد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فجاء رجل فقال يا رسول الله .. اعد على مما أفاء الله عليك يا ابن الذبيحين .. فضحك رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقيل يا أمير المؤمنين .. ومن الذبيحين ؟ فذكر اسماعيل .. وعبد الله (١) ..

كما سئل أبو سعيد الضرير عن الذبيح .. فأنشــد :

ان الذبيــح هديت اســماعيل
نطـق الكتــاب بذاك والتـنزيل
شرف به خص الالــه نبينــا
وأتى به التفســير والتــاويل

ان كنت أمنــه فلا تنــكر له
شرفا به قد خصــه التفضــيل

وعن الأصمعى قال : ســألت ابا عمرو بن العلاء .. عن الذبيح .. فقال :

يا اصمعى ـــ أبن عزب عنــك عقلك .. ومتى كان اسحاق بمكة ؟ ..

وانما كان اسماعيل بمكة .. وهو الذى بنى البيت مع أبيه .. والمنحر بمكة .

وروى عن النبى .. صلى الله عليــه وسلم « أن الذبيح اسماعيل » (١) .

وليغفر لى القـارىء .. اذا كنت قد اطلت قليلا فى هذا الموضوع .. وما ذلك الا لاننى رايت الكثير قد اخـذ برأى التــوراة فى ان الذبيح هو اسحاق .. واظن ان الموضوع الآن لا يحتاج الى

---

(١) القرطبى ١١٣ / الصافات .

(١) القرطبى ١٠٢ الصافات .

نقاش .. بعد ان أثبتنـــا ان كلمة (اسحاق اضيفت عمدا في الفقرة الثانية من الاصحاح ٢٢ سفر التكوين .. لينال اليهود شرف الانتساب الى الذبيح ..

□ □ □

راى ابراهيم عليه السلام ـ في منامه .. ان يذبح ابنه اسماعيل .. فقال له يا بني خذ هذا الحبل .. والمدية .. ثم انطلق الى هذا الشعب .. فلمـا خـلا به .. اخبـره بمـا أمـر به .. وقال « يا بني اني ارى في المنام اني اذبحك .. فانظر ماذا ترى » ١٠٢/الصافات .

فقال له اســـماعيل : يا ابت .. اشـــدد رباطي .. حتى لا اضـــطرب .. واكفف عني ثيابك .. حتى لا ينضح عليها دمي .. فينقص اجرى ، وتراه امي فتحزن .. واشحذ شفرتك .. واسرع بجر المدية على حلقي .. ليكون أهون للموت علي ، فان الموت شـــديد .. فاذا اتيت امي .. فأقرئها مني السلام .. وان رايت أن ترد قميصي اليهـا .. فافعل .. فانه عسى أن يكون اسـلى لهـا عني .. « قال يا ابت افعل ما تؤمر ستجدني ان شاء الله من الصابرين ١٠٢/الصافات .

فقال ابراهـيم : نعم العون يا بني انت على ما امر الله به .. ففعل ابراهيم ما أمره ابنه .. ثم اقبل عليـــه يبكي .. والابن يبكي .. حتى استتبع الدموع تحت خـده .. ثم وضع المدية على حلقه .. وجرها .. فانقلب سنها الى اعلى .. فقال اسـماعيل : يا ابت أعصب عيني .. فنظرك اليهـا يمنعك من الذبح .. فعصب عينيه .. وجر السكين .. فانقلبت ثانيـة .. فقال اسماعيل : كبني على وجهي .. فانك ان تنظر الى وجهي رحمتني .. وأدركتك على رقة تحول بينك وبين أمر الله .. ففعل ابراهيم ذلك .. ثم أنه وضع المدية على قفاه .. فانقلبت .. فنودى : ـ « يا ابراهيم قد صـدقت الرؤيا » هذه ذبيحتك فداء لابنك .. فاذبحها دونه .. واذا هو بجبريل ـ عليه السـلام ـ ومعه كبش أعين (١) ، أملح ، اقـرن .. فكبر ابراهيـم واسـماعيل ..

وروى أنه لما ذبحه .. قال جبريل : الله اكبر .. الله اكبر . فقال الذبيح : لا اله الا الله والله اكبر فقال ابراهيم : الله أكبر ولله الحمـــد .. فبقي سنة ..

وروى انه : **لما راى ابراهيم في المنـام : ان يذبح ابنه** .. قال الشيطان : والله لئن لم أفتن انا آل ابراهيم .. والا لم افتن احدا منهم ابدا .. فمثل لهم الشيطان رجلا .. فأتى ام الغلام .. فقال لها : اتدرين أين ذهب ابراهيم بابنك ؟ فقالت : ذهب به ليحتطب من هذا الشعب .. فقال لها : لا والله ما ذهب به الا ليذبحـــه .. قالت كلا .. هو ارحم به مني .. واشد حبـاء من ذلك ..

فقال لهـا : انه يزعم .. ان الله امره بذلك .. فقالت له : ان كان الله امره بذلك .. فقـد احسن .. في امتثـــال طاعـة الله .. وفي استسلامه لأمر ربه .. فخرج الشيطان من عندها هاربـا .. حتى أدرك الابن .. وهو يمشي على اثر ابيه .. فقال له : يا غلام .. هل تدرى اين يذهب بك ابوك ؟ .. قال : يحتطب لأهلنـا من هـذا الشعب .. قال : لا والله .. ما يريد الا ذبحك .. قال : ولم ؟ قال : يزعم أن الله امره بذلك .. قال : فليفعـل ما أمـــره الله به .. فسمعا وطاعة لأمر الله تعالى .. فلما امتنع منه الغلام .. أقبل على ابراهيم .. فقال : اين تريد ايها الشيخ ؟ .. قال : أريد هذا الشعب لحاجة لي .. فقال : والله اني أرى الشيطان قد جاءك في منامك .. يأمرك بذبح ابنك هـذا .. فعرفه ابراهيم .. فقـال له : اليك عني يا ملعون .. فوالله لأمضين لأمر ربي .. فرجع ابليس بغيظ .. لم يصب من ابراهيم وأهله شيئا (٢) ..

كما روى :

عرض ابليس .. لابراهيم .. عنـد المشعر الحرام .. فأسبقه ابراهيم عليه السـلام ـ ثم ذهب الى جمرة العقبة .. فعرض له الشيطان .. فرماه بسـبع حصيات .. ثم ذهب .. ثم عرض له عند الجمرة الوسطى .. فرماه بسـبع حصيات .. ثم ذهب .. ثم أدركه عند الجمرة الكبري .. فرماه بسـبع حصيات .. ثم ذهب .. ثم مضى ابراهيم ـ عليـه السـلام ـ لأمر الله تعـالى (٣) ..

---

(١) واسع العينين .

(٢) من الثعلبي والقرطبي وغيرهما .

(٣) البيضاوي والكشاف والقرطبي آية الصافات ..

٩ البشرى بين إبراهيم ولوط

كان من عادة ابراهيم ـ عليه السلام .. الا يأكل .. الا مع ضيف .. ولهذا اطلق عليه .. « أبو الضيفان » . فعرض ابليس .. لكل قادم .. الى القرية .. يخوفه منها .. قبل لمدة أربعة ايام .. حتى اجهد ابراهيم الجوع .. وآلمه الضوى .. وأشرف على الهلاك .. وهو مصر على عهده الذى التزم به ..

وفجأة طرق الباب ثلاثة ضيوف .. فرح بلقائهم .. فرحة الصائم عند فطره .. أو اشد فرحا .. والجائع .. يخيل اليه أن الطعام .. مهما كثر لا يكفيه .. كما نفعل نحن فى فطور رمضان .. بعد صوم ساعات فقط .. فما أن راى ابراهيم الضيوف حتى طلب من اهله .. احضار عجل سمين حنيذ والحنيذ هو اللحم المشوى على الجمر ـ « ولقد جاءت رسلنا ابراهيم بالبشرى ، قالوا : سلاما .. قال : سلام ، فما لبث أن جاء بعجل حنيذ » ٦٩ / هود .

ومد ابراهيم يده ليأكل باسم الله .. داعيا ضيوفه الى الطعام .. فقربه اليهم .. ولكنه رآهم ينظرون الى بعضهم البعض .. ولم تمتد أيديهم الى شىء منه .. فشك فيهم وخاف منهم .. لأن الكريم يشك فيمن لا يأكل زاده .. ولا يشاركه طعامه .. قالوا : لا تخف .. فنحن ملائكة لا نأكل ولا نشرب .. بل نحن فى طريقنا الى قرية « سدوم وعمورة » قرية لوط ابن اخيك .. « فلما راى أيديهم لا تصل اليه » أى الى الطعام « نكرهم واوجس منهم خيفة ، قالوا لا تخف انا أرسلنا الى قوم لوط » ٧٠/ هود ..

وكانت امراته سارة .. فى ستر منهم ـ لتقوم على خدمتهم .. وتقديم ما يحتاج اليه الضيوف عادة .. **فرات هذا المنظر .. منظر** زوجها .. وهو فى لهفة الى الطعام .. ومنظر الضيوف .. وهم يتبادلون النظرات .. ورات علامات الخوف التى ظهرت على وجه ابراهيم ـ عليه السلام ـ واتضاح أن هؤلاء الضيوف ملائكة .. فأخذها العجب .. وضحكت .. وهنا التفت الملائكة اليها .. وبشروها باسحاق .. وينجب اسحاق يعقوب « وامراته قائمة فضحكت ، فبشرناها باسحاق ومن وراء اسحاق يعقوب » ٧١ / هود . وفسر بعض العلماء « ضحكت » أى حاضت فى التو .. لقول العرب ضحكت الأرنب اذا حاضت .. ومنه قول الشاعر :

وانى لآتى العرس عند طهورها
واهجرها يوما اذا تك ضاحكا

امر عجيب .. ان تنجب امراة عاقر .. فى التسعين من عمرها .. وزوجها يناهز المائة .. فيزداد بها العجب .. وتضرب خدها بأصبعيها .. كتعبير عن غرابة الأمر « فأقبلت امراته فى صرة فصكت وجهها وقالت عجوز عقيم » ٢٩/ الذاريات وفى سورة هود قالت « ياويلتا االد وأنا عجوز وهذا بعلى شيخا ، أن هذا لشىء عجيب» ٧٢/هود .

« قالوا اتعجبين من أمر الله ، رحمة الله وبركاته عليكم اهل البيت أنه حميد مجيد » ٧٣/هود .

واطمأنت نفس ابراهيم .. وذهب روعه وخوفه .. وعاد اليه هدوءه .. فقال للملائكة .. **ولماذا انتم ذاهبون الى قرية لوط ؟ .. قالوا لهلاك أهلها .. فحركوا بقولهم هذا أوتار الرحمة** فى قلب ابراهيم ـ صاحب القلب الرحيم ـ فقال : ولماذا ؟ .. **قالوا : لقد عصوا أمر ربهم .. وخالفوا رسولهم ولم تفد معهم النذر ..**

قال : اليس في القريه مائة بيت من المسلمين .. تتركونها من اجلهم لا .. قالوا : ليس فيها .. قال : اليس فيها خمسون بيتا .. او ثلاثون .. او عشرة ؟ .. قالوا : « فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين » ٣٦/الذاريات ..

اقرأ معى تسلسل الحوار « فلما ذهب عن ابراهيم الروع ، وجاءته البشرى ، يجادلنا في قوم لوط . ان ابراهيم لحليم اواه منيب ، يا ابراهيم اعرض عن هذا » اى عن هذا الجدال « انه قد جاء امر ربك ، وانهم آتيهم عذاب غير مردود » ٧٤-٧٦/هود .

« قال ان فيها لوطا » اشفاقا منه عليه « قالوا نحن اعلم بمن فيها .. لننجينه واهله الا امراته كانت من الغابرين » ٣٢/العنكبوت .

□ □ □

١٠ إلى سدوم وعمورة

ذكرنا أن لوطا ـ عليه السلام ـ كان ابن هاران الاصغر ـ أخ ابراهيم ـ عليه السلام ـ وانه هاجر معه .. من بابل الى الشام .. حيث استقر فى .. المؤتفكة ـ وهى سدوم وعمورة ـ من بلاد الاردن .. وكان سكانها .. أهل كفر بالله .. فأرسله الله تعالى اليهم .. يأمرهم بالمعروف .. وينهاهم عن المنكر .. ويحل لهم الطيبات .. ويحرم عليهم الخبائث .. والله عادل رحيم .. لا يعذب قوما .. الا اذا ذكرهم بالنذر .. وارسل اليهم الرسل « وماكنا معذبين حتى نبعث رسولا » ..

وفى القرآن الكريم آية واحدة .. جمعت آثام قوم لوط : « أئنكم لتأتون الرجال، وتقطعون السبيل ، وتأتون فى ناديكم المنكر » ٢٩/العنكبوت

فكانوا يأتون الرجال شهوة من دون النساء .. ويقطعون السبيل على كل قادم الى بلدهم فى تجارة أو نحوها .. فيخطفون ما معه .. سخرية .. وغصبا .. وكانوا يجلسون فى ناديهم على الطريق .. يقذفون من يمر بهم بالحصى .. قال مجاهد : كانوا يجامعون الرجال فى مجالسهم على قارعة الطريق .. دون حياء .. ولا خجل .. وقال القرطبى .. عن الثعلبى .. عن معاوية .. قال « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم » .. ان قوم لوط .. كانوا يجلسون فى مجالسهم .. وعند كل رجل قصعة .. فيها حصى للخذف .. فاذا مر بهم عابر .. قذفوه .. فأيهم أصابه فهو أولى به » يعنى يذهب به للفاحشة .. فذلك قوله « وتأتون فى ناديكم المنكر » .. كما قال ابن عباس : ان قوم لوط كانت فيهم ذنوب غير الفاحشة .. منها : أنهم يتظالمون فيما بينهم .. ويشتم بعضهم بعضا .. ويتضارطون فى المجالس .. ويخذفون .. ويلعبون بالنرد والشطرنج .. ويلبسون المصبغات.. ويتنافرون بالديكة .. ويتناطحون بالكباش .. ويطرفون أصابعهم بالحناء .. وتتشبه الرجال بلباس النساء .. والنساء بلباس الرجال .. ويضربون المكوس على كل عابر .. ومع هذا .. كله كانوا شركون بالله .. وهم أول من ظهر على أيديهم اللوطية والسحاق (١) .. يقصد قوله : ماسبقكم بها من أحد من العالمين » ..

وقال بعض العلماء : وقد توجد هذه الأمور فى بعض عصاة أمة محمد .. ولهذا وجب التناهى عنها .. فقد قال مكحول : فى هذه الأمة .. عشرة من اخلاق قوم لوط .. مضغ العلك .. وتطريف الأصابع بالحناء .. وحل الازار .. وتنقيض الأصابع .. (٢) والعمامة التى تلف حول الرأس .. والتشابك .. ورمى الجلاهق(٣) والصفير والخذف .. واللوطية (٤) .

---

(١) القرطبى ٢٩ / العنكبوت .

(٢) فرقعتها .

(٣) الحصى الذى يرمى به .

(٤) القرطبى ٢٩ / العنكبوت .

واخطر الجرائم هى اللوطية .. لقد روى ابن ماجه .. عن جابر بن عبد الله .. قال .. قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم « ان اخوف ما اخاف على أمتى عمل قوم لوط (١) ». ولهذا كان حد اللواط قاسيا .. فقد ذكر القرطبى .. رواية عن أبى بكر الصديق ـ رضى الله عنه ـ انه حرق رجلا .. يسمى الفجاءة .. حين عمل عمل قوم لوط .. بالنار .. وهو راى على بن ابى طالب .. فانه لما كتب خالد ابن الوليد .. الى ابى بكر فى ذلك .. جمع ابو بكر ـ اصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ واستشارهم فيه .. فقال على : ان هذا الذنب .. لم تعص به امة من الأمم .. الا امة واحدة .. صنع الله بها ما علمتهم .. ارى أن يحرق بالنار .. فاجتمع راى اصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ على أن يحرق بالنار .. فكتب ابو بكر الى خالد بن الوليد .. أن يحرقه بالنار فحرقه (٢) .

□ □ □

ولعل أبلغ تعبير .. عبر الله به عنهم .. فى موقف جهاد لوط معهم .. حين امرهم بترك الآثام المخزية .. والجرائم المضنية .. التى يندى لها جبين الانسانية .. وردهم عليه فى وقاحة لا مثيل لها .. « فما كان جواب قومه ، الاأن قالوا أخرجوا آل لوط من قريتكم انهم أناس يتطهرون » ٥٦/النمل .

ارايت هذا العيب فى لوط وآله ؟ عيبهم انهم يتطهرون . يذكرنى هذا الموقف منهم .. بموقف فرعون موسى ـ عليه السلام ـ عندما قال عن موسى : « ذرونى أقتل موسى وليدع ربه انى اخاف أن يبدل دينكم ، أو أن يظهر فى الأرض الفساد » ٢٦/غافر . يخشى فرعون أن يفسد موسى فى الأرض ، .. هكذا منطق اهل الباطل..

□ □ □

ذكر الاستاذ عبد الوهاب النجار .. فى كتابه « قصص الأنبياء » انه قرأ فى كتاب من كتب الادب العبرى .. وصفا عن اهل سدوم وعمورة .. وهو انهم كانوا يتربصون لكل داخل مدينتهم من التجار .. فيجتمعون عليه من كل اوب .. ويمدون أيديهم الى بضاعته .. يأخذ كل واحد منهم شيئا قليلا من بضاعته .. حتى لا يبقى منها شيء فاذا جلس يجأر بالشكوى .. يأتى الواحد منهم .. ويقول له : كل هذا لانى اخذت هذا الشيء اليسير ؟ .. خذه .. فيقول : ما عسى أن ينفعنى ما جئت به .. بعد ان ذهبت بضاعتى ؟ .. اذهب عنى بهذا الذى جئت به .. فاذا انصرف جاءه آخر بشيء تافه .. يريد رده عليه .. فيتركه ايضا .. وهكذا يخسر الرجل بضاعته .. بتفرقها فى الايدى الكثيرة ..

وقيل ان سارة ـ زوجة ابراهيم ـ عليه السلام ـ أرسلت لعاذر .. كبير عبيد ابراهيم .. ليأتيها بأخبار لوط .. فلما دخل مدينة سدوم .. لقيه رجل من اهلها .. فعمد الى لعاذر بحجر .. فضربه فى راسه .. فأسال منه دما كثيرا .. ثم تعلق به قائلا : ان هذا الدم .. لو بقى فى راسك .. لسبب لك ضررا كبيرا فاعطنى اجرى .. ثم آل الأمر الى قاضى سدوم .. فلما سمع الخصمين .. حكم على لعاذر بأن يعطى السدومى .. اجر ما ضربه بالحجر .. واسال دمه .. فلما راى لعاذر الجور من القاضى والخصم فى امره .. عمد الى حجر .. ضرب به راس القاضى .. فأسال دمه .. ثم قال له : الأجر الذى وجب عليك باسالة دمك .. عليك ان تعطيه لضاربى .. جزاء ضربه اياى ، واسالة دمى .. ولعل هذا ما يقصده المعرى بقوله :

وأى امرىء فى الناس ألفى قاضيا
لم يمض احكاما كحكم سدوم

وهذه الحكاية ـ مع احتمال وضعها ـ تفيدنا معرفة الفكر العام فى أحوال هؤلاء الناس .. وأنهم كانوا من الشر .. بحيث يصلحون أن تسند اليهم امثالها .

□ □ □

كانوا يقطعون الطريق على السابلة .. وقد ذهب الحياء من وجوههم .. فلا يستقبحون قبيحا .. ولا يرغبون فى حق .. ابتدعوا من المنكر .. ما لم يسبقهم اليه بشر .. فكانوا يأتون الذكران من العالمين .. شهوة من دون النساء .. يستعلنون بذلك .. ولا يرون فيه قبحا أو سوءا .. وعظهم لوط ونصحهم .. ونهاهم وخوفهم غضب الله تعالى .. فلم يأبهوا به .. ولم يرتدعوا .. فلما الح عليهم .. بالعظات والزواجر .. هددوه بالرجم والطرد من ديارهم .. ثم تحدوه بقولهم « ائتنا بعذاب الله ان كنت من الصادقين » ٢٩/العنكبوت ..

(١) القرطبى ٨٠ / الاعراف .

(٢) القرطبى ٨٠ / الاعراف .

ويتطلع لوط - عليه السلام - الى السماء .. بعد ان يئس من هداهم : « قال رب انصرنى على القوم المفسدين » ٣٠/العنكبوت .. وتستجيب السماء ...

□ □ □

ويصل ركب العذاب . ترك الملائكة ابراهيم عليه السلام ووفدوا على قرية سدوم .. ودخلوها .. على هيئة غلمان .. مرد .. حسان الوجوه .. وقصدوا بيت لوط - عليه السلام - يطرقون بابه .. ويفتح لوط لهم الباب .. والمعروض ان يلقى المؤمن ضيفه بالبشاشة والترحاب .. ولكن لوطا ما ان رآهم .. على تلك الصورة من الحسن والبهاء .. حتى قال لهم .. بصريح النص : تلك ليلة سوداء غبراء « ولما جاءت رسلنا لوطا ، سيء بهم وضاق بهم ذرعا ، وقال هذا يوم عصيب » ٧٧/هود .. واليوم العصيب هو اليوم الأسود الأغبر الشديد ..

وله عذره .. فهو يعلم قومه .. وما هم عليه من فسق وفجور .. وضيوفه غلمان على درجة كبيرة من الجمال والفتنة .. والفرج دائما .. لا يكون الا عند اشتداد اليأس .. ولا يظهر النور .. الا بعد شدة ظلمة الليل .. واذا كانت تلك الليلة .. بدات بالنسبة الى لوط .. كأسود ليلة .. فلأنها ستكون فى نهايتها له اسعد ليلة .. انها ليلة النجاة ..

□ □ □

ودخل الضيوف بيت لوط . وفى قلبه من الأسى والهم .. ما فيه .. ولا أعلم سببا .. دفع زوجته الى الاسراع .. للقاء القوم .. فى ناديهم .. لتخبرهم أن صيدا ثمينا الليلة .. فى بيت زوجها .. وظلت تحرضهم .. وتغريهم .. وتصف لهم جمال ضيوفهم وفتنتهم .. حتى تسابق القوم .. رجالا ونساء .. شيبا .. وشبابا .. الى بيت لوط .. يطرقون الباب .. فى جفوة واصرار .. يالوط .. سلمنا ضيوفك .. للزومهم لنا فى النادى . .. « وجاءه قومه يهرعون اليه ، ومن قبل كانوا يعملون السيئات، قال يا قوم هؤلاء بناتى هن أطهر لكم ، فاتقوا الله ولا تخزون فى ضيفى أليس منكم رجل رشيد» ٧٨/هود / ومن الغريب أن يقول بعض المفسرين: أن لوطا .. قدم بنتيه لقومه . والمفروض .. أن يدافع المؤمن عن عرضه الى آخر قطرة فى دمه .. واين الطهارة .. فى تقديم بنتين .. لقوم فسقه فجرة ؟ .. وان كان بعضهم يقول : انه قدم بنتيه لهم .. بقصد الزواج .. وهذا راى ظاهر التكلف فليس من المعقول أن يتزوج قوم بنتين اثنتين . والاغرب أن الاستاذ عبد الوهاب النجار .. يستمسك .. بأن لوطا عرض على القوم بنتيه .. ولكنه يقول : عرضهما عرضا سابريا .. اى بدون جدية .. ونحن لا نقره على هذا الراى مطلقا .. وانما كان لوطا .. يوجه القوم .. ويحيلهم الى نسائهم المتجمهرات معهم أمام بيته .. فالرجل الكبير فى القرية .. عندما يخاطب قومه .. يقول : ابنائى وبناتى .. فهو يقول لهم : هؤلاء نساؤكم اطهر وأزكى وأولى بهذا الأمر .. من الذكران من العالمين ..

□ □ □

وقد قال بعض أولى العلم .. منهم مجاهد .. وسعيد بن جبير : أشار بقوله « بناتى » الى النساء جملة .. اذ نبى القوم .. أب لهم .. ويقوى هذا قراءة ابن مسعود « النبى أولى بالمؤمنين من انفسهم ، وازواجه امهاتهم وهو اب لهم » (١) .

فلما قال لهم لوط « هن اطهر لكم » قالوا : لقد أخبرتنا يا لوط بأن هجر الزوجة بدون عذر لمدة شهرين متتابعين .. يجعل الزوجة فى حكم البينونة .. فأصبح نساؤنا .. حرام علينا لهجرنا لهن من زمن بعيد .. « قالوا لقد علمت مالنا فى بناتك من حق ، وانك لتعلم ما نريد » ٧٩/هود .

وبلغ اليأس من نفس لوط .. منتهاه .. فتطلع الى ضيوفه .. والحسرة تملأ نفسه .. والهم يغشى نواحيه .. قائلا « لو أن لى بكم قوة ، أو اوى الى ركن شديد » ٨٠/هود .

اى لو انكم اقوياء الأجسام .. ومن الكثرة بحيث تقفون معى فى الدفاع عنكم .. أو لو اننى انتسب الى اسرة كبيرة .. تحمينى وتسندظهرى .. لقاتلتهم دفاعا عنكم .. ولا اسلمكم لهم ابدا .. عبارة نطقها لوط ، وهو لا يدرى أبعادها .. ولا يسبر أغوارها .. بسبب ما هو فيه من الاضطراب والحيرة وقد ورد عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قوله « رحم الله اخى لوطا .. لقد كان يأوى - فعلا - الى ركن شديد » .. وهل هناك ركن .. أشد وأقوى من ركن الله ؟ ..

---

(١) من القرطبى ٧٨ / هود .

واحس الملائكة .. ان لوطا بدا يتخبط ويرتبك .. فقالوا له : لا تخف « قالوا يالوط ، انا رسل ربك ، لن يصلوا اليك ، فاسر باهلك بقطع من الليل ، ولا يلتفت منكم احد الا امراتك، انه مصيبها ما اصابهم ، ان موعدهم الصبح ، اليس الصبح بقريب » ٨١/هود .

□ □ □

ويروى ان لوطا عليه السلام — لما اشتد به الأمر .. وقال ما قال .. وقد غلبه قومه .. وهموا بكسر الباب .. وهو يمسكه .. قالت له الرسل : تنح عن الباب . فتنحى عنه .. وانفتح الباب .. فضربهم جبريل بجناحه — كما قال بعض المفسرين .. او قبض قبضة من التراب .. واذراها فى وجوههم .. فأوصل الله الى عين من بعد .. ومن قرب .. من ذلك التراب .. فطمس اعينهم .. فلم يعرفوا طريقا .. ولا اهتدوا الى بيوتهم .. وجعلوا يصرخون قائلين : النجاء .. النجاء .. فان فى بيت لوط قوما .. هم اسحر من على ظهر الأرض .. وقد سحرونا .. فأعموا ابصارنا .. وجعلوا يقولون يا لوط .. كما انت حتى نصبح .. فسترى .. يتوعدونه بقولهم هذا .. « ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا اعينهم » ٣٧/القمر .

□ □ □

وبعد انتصاف الليل .. خرج لوط وبنتاه .. تحرسهم عناية الله .. ولم تخرج معهم زوجته .. فقد طمس الله عنها .. مثل قومها .. ويقول بعض المفسرين .. ان زوجة لوط .. خرجت مع زوجها وبنتيها .. ولكنها لم تنفذ أمر السماء .. بعدم الالتفات خلفها .. فتلفتت لترى العذاب الواقع بالقوم .. فأخذها العذاب معهم .. وهذا راى لا نطمئن اليه .. لأن خروجهم .. كان بقطع من الليل .. اى فى منتصفه أو بعد منتصفه .. بينما العذاب .. نزل بالقوم فى الصباح .. لقول الملائكة له « ان موعدهم الصبح » .. وفى نجم آخر « فأخذتهم الصيحة مشرقين » ٧٣/الحجر وقوله أيضا « وقضينا اليه ذلك الأمر ان دابر هؤلاء مقطوع مصبحين » ٦٦/الحجر .

وقبيل الشروق .. نزل الملك الموكل بهذا الأمر .. وكأن فى يده مقصا قص به القشرة الارضية .. من حول القرية .. حتى اذا تمت الدائرة .. رفع هذا القرص بما عليه .. ومن عليه .. الى السماء .. ثم نكس ليستقر منكفئا .. فى اعماق الاعماق .. ثم أمطرتهم السماء بحجارة من سجيل .. « فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها ، وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود » وهذه الحجارة .. موجودة الآن .. فوق راس كل ظالم .. تلازمه اينما سار .. وتتبعه حيثما اتجه .. حتى اذا جاء وقت هبوطها عليه .. سحقته ومحقته « مسومة عند ربك وما هى من الظالمين ببعيد » ٨٣/هود .

يقول القرطبى : سرى لوط باهله .. كما وصف الله تعالى « بقطع من الليل » ثم أمر جبريل عليه السلام . فأدخل جناحه تحت مدائنهم .. فاقتلعها .. ورفعها .. حتى سمع اهل السماء .. صياح الديكة .. ونباح الكلاب .. لم تنكفىء لهم جرة ، ولم ينكسر لهم اناء .. ثم جعل عاليها سافلها .. وأمطرت عليهم حجارة من سجيل .. وكانت خمس قرى .. عاصمتها — سدوم — وكان عدد اهلها .. اربعمائة الف (١) .

وقيل ان لوطا هاجر مع بنتيه الى قرية تسمى « صوعر » اى الصغيرة .. ونجوا من القرية الظالمة .. ويعتقد البعض أن البحر الميت .. لم يكن موجودا .. قبل هذا الحادث الذى جعل اعالى البلاد سافلها .. وصارت اعمق من سطح البحر .. بنحو اربعمائة متر ..

« وانكم لتمرون عليهم مصبحين وبالليل افلا تعقلون » ١٣٧/الصافات .

وسئل بعض أولى العلم : —

اعذب الله النساء من قوم لوط .. بفعل رجالهم ؟

فقال : الله تعالى .. أعدل من ذلك .. بل استغنى الرجال بالرجال .. والنساء بالنساء .. فوجب عليهم العذاب جميعا .. كما روى عن النبى — صلى الله عليه وسلم — أنه قال :

« سيكون فى آخر أمتى قوم يكتفى رجالهم بالرجال .. ونساؤهم بالنساء فاذا كان ذلك .. فارتقبوا عذاب قوم لوط .. ان يرسل الله عليهم حجارة من سجيل » ثم تلا « وما هى من الظالمين ببعيد (٢) » ..

---

(١) القرطبى ٨٣ / الإعراف .

(٢) القرطبى ٨٣ / هود .

١١ عودٌ إلى إسماعيل

عهد الله الى ابراهيم ـ عليه السلام ـ بالختان .. وكانت سنه مائة عام .. وقد بلغ اسماعيل .. اربعة عشر عاما .. فاختتن ابراهيم واسماعيل .. ومن كان معهما من العبيد .. وذلك بعد أن ختن اسحاق فى الشام فى اليوم الثامن من ولادته .. كما قدمنا .

وقد جاء فى انجيل برنابا .. عن سبب الختان ان آدم لما عصى ربه .. نذر أن يقطع جزءا من جسمه .. اذا تاب الله عليه .. وبعد التوبة احتار ماذا يقطع .. فدله جبريل على هذا الموضع فقطعه .. ولعل أبناءه .. تركوا هذه السنة حتى امر الله تعالى .. ابراهيم باحيائها ..

ويقول الأستاذ عباس محمود العقاد ـ عن الختان .. فى كتابه .. عن خليل الرحمن : ـ روى هيرودوت ـ أبو التاريخ ـ انه سأل الفينقيين .. والسوريين .. عن عادة الختان .. فقالوا : انهم اخذوه عن المصريين .. وان المصريين كانوا يتحرون به النظافة والطهارة .. وحقيقته التى تدل عليها المقارنة بين العادات .. انه اختصار لعادة الضحية البشرية .. نشأ مع تقدم الانسان فى الحضارة والمدنية .. ففى أقدم العصور .. كان الفاتح المنتصر .. يقتل الأسرى .. قربانا على محراب الهه .. ثم تدرجوا من قتلهم .. الى قطع غلفتهم .. وجعلوا ذلك علامة على تسليم الأعداء بالهزيمة . ومن بقايا عاداته الأولى .. أن شاول ـ نبى الله طالوت ـ اشترط على داود .. ان يقدم له مائة غلفة من الفلسطينيين . مهرا لبنته « ميكال » فقدم له مائتين .. كما جاء فى الاصحاح الثامن عشر .. من سفر صمويل الأول .. وليس بالصحيح أن الاسرائيليين .. اعتبروه علامة لقبيلتهم .. تميز الاسرائيلى على غيره .. وانما الصحيح .. انهم اعتبروه علامة تسليم لربهم ..

وجاء فى الاصحاح الرابع والثلاثين من سفر التكوين .. ان ابناء يعقوب .. أوجبوا على الرجل .. الذى اغتصب اختهم دينا ـ **أن يختتن هو وقومه الكنعانيين .**

ونعود الى اسماعيل ـ عليه السلام ـ فنستمع الى ابن عباس ـ رضى الله عنه ـ يكمل لنا قصته .. حيث تركناه .. وقد تعلم العربية .. من الجرهميين .. الذين نزلوا بجواره هو وامه .. يقول ابن عباس : ان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : (فلما ادرك ـ يقصد اسماعيل ـ زوجوه امراه منهم .. وماتت أم اسماعيل .. فجاء ابراهيم .. بعد ما تزوج اسماعيل .. يطالع تركته .. فلم يجد اسماعيل .. فسأل امرأته عنه .. فقالت: خرج يبتغى لنا .. ثم سألها عن عيشهم وهيئتهم .. فقالت نحن بشر .. نحن فى ضيق وشدة .. فشكت اليه قال : اذا جاء زوجك .. فاقرئى عليه السلام .. وقولى له : يغير عتبة بابه .. فلما جاء اسماعيل .. كأنه آنس شيئا .. قال : هل جاءكم أحد ؟ .. قالت : نعم .. جاءنا شيخ كذا وكذا .. فسألنى عنك .. فأخبرته .. وسألنى كيف عيشنا ؟ فأخبرته أنا فى جهد وشدة .. قال : فهل أوصاك بشيء ؟ قالت : نعم امرنى أن اقرأ عليك السلام .. ويقول غير عتبة بابك .. قال : ذاك أبى .. وقد أمرنى أن أفارقك .. الحقى بأهلك .. فطلقها .. وتزوج أخرى .. فلبث عنهم ابراهيم .. ما شاء الله .. ثم أتاهم بعد .. فلم يجده .. فدخل على امرأته .. فسألها عنه .. فقالت : خرج يبتغى لنا .. قال كيف أنتم ؟ وسألها عن عيشتهم .. فقالت : نحن بخير وسعة .. وأثنت على

الله .. فقال : ما طعامكم ؟ .. قالت اللحم .. قال فما شرابكم ؟ .. قالت ؟ : الماء .. قال : اللهم بارك لهم فى اللحم والماء ..

قال النبى ـ صلى الله عليه وسلم : (ولم يكن لهم يومئذ حب .. ولو كان لهم .. دعا لهم فيه .. قال : فاذا جاء زوجك .. فاقرئى عليه السلام .. ومريه يثبت عتبة بابه .. فلما جاء اسماعيل قال : هل أتاكم أحد ؟ .. قالت نعم .. اتانا شيخ حسن الهيئة واثنت عليه .. فسألنى عنك .. فأخبرته ـ فسألنى كيف عيشنا .. فأخبرته انا بخير .. قال فأوصاك بشىء ؟ .. قالت نعم .. هو يقرأ عليك السلام .. ويأمرك أن تثبت عتبة بابك .. قال : ذاك ابى .. وانت العتبة .. امرنى ان امسكك .. ثم لبث عنهم ما شاء الله .. ثم جاء بعد ذلك .. واسماعيل يبرى نبلا له .. قريبا من زمزم .. فلما رآه .. قام اليه .. فصنع كما يصنع الوالد بالولد .. والولد بالوالد .. ثم قال : يا اسماعيل ان الله امرنى بأمر .. قال : فاصنع ما امرك ربك .. قال : وتعيننى ؟ .. قال : واعينك .. قال : فان الله امرنى .. ان ابنى بيتا هنا .. واشار الى اكمة مرتفعة على ما حولها) أ.هـ .

□ □ □

١٢ بيت الله

غاب عن بعض المفسرين .. ان الكعبة موجوده من آدم ـ عليه السلام ـ وانها اول بيت عبد الله فيه .. من آدم « ان اول بيت وضع للناس للذى ببكه مباركا » .. ويبادر الى كثير من الاذهان ـ خطأ ـ ان ابراهيم ـ عليه السلام ـ هو اول من بنى البيت .. ولعل هذا اللبس .. هو الذى جعل الاستاذ عبد الوهاب النجار .. فى كتابه « قصص الأنبياء » يقول تعليقا على قوله تعالى .. على لسان ابراهيم « ربنا انى اسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم » يقول فضيلته بالنص : ـ

« ويظهر لى ان ابراهيم دعا بهذا الدعاء . بعد بناء البيت » (١) بينما الحقيقه .. ان ابراهيم .. قال هذه العباره .. بعد ان ترك زوجه هاجر ووليدها .. فى هذا المكان القفر .. كما هو واضح فى حديث ابن عباس .. الذى اخرجه البخارى .. وكان لديه علم من الله .. بأن هنا مكان البيت .. المغمور تحت الرمال .. وقد قدمنا ان سفينة نوح طافت بركابها .. حول البيت سبع مرات .. وقد ذكر البخارى فى صحيحه قال : حدثنى عمر بن حفص .. حدثنا ابى .. حدثنا الأعمش حدثنا ابراهيم التيمى عن ابيه .. عن ابى ذر ـ رضى الله عنه ـ قال :

قلت يا رسول الله اى مسجد وضع اول ؟ قال « المسجد الحرام » .. قلت ثم اى ؟ قال « ثم المسجد الأقصى » .. قلت كم بينهما ؟ قال « اربعون » ..

« واذ بوأنا لابراهيم مكان البيت ، الا تشرك بى شيئا ، وطهر بيتى للطائفين والقائمين والركع السجود » ٢٦/الحج / والآية واضحة .. فى ان الله تعالى .. هيأ لضيفه ابراهيم ـ عليه السلام ـ مكان اول بيت وضعه للناس .. دفعا للتمويه والالتباس .. ليعبد الله وحده فيه .. مطهرا من ادناس الشرك .. بعيدا عن مقام الشك .. ولعل الضيف الكريم ـ ابراهيم ـ كان يقول فى نفسه : امن بساتين بابل .. وسلطان الحكم فيها .. وحدائقها الغناء .. وانهارها الجارية .. الى مكان .. تحيط به الجبال .. وصحراوات مترامية الرمال .. حيث تنقطع الاسباب المادية .. للحياة الجسمية ؟ .. قال ابراهيم : انا ضيف متجرد يارب .. بذاتى لتوحيدك .. وزودتنى بتفريدك .. لانقذ أمما من الضلالة .. ولاعلمهم بعد جهالة .. واحركهم بعد كسل وخمالة .. فأين مكان بيت ابى آدم ؟ .. ها هو البيت يا ابراهيم .. دفين صحراء .. لا نبات فيها ولا مـاء .. الك اعتراض على مشيئتى ؟ .. كيف أعترض يا رب على مشيئتك؟ .. وأنت الحنان المنان .. الرؤوف الرحيم ؟.. ما تزال جنات بابل .. وارفة الظلال .. فيها فاكهة وازاهير .. وغير ذلك من مشاهد الجمال .. ولـكن حكمتك .. التى حركت ارادتك بالتخصيص .. شاءت لى ان اتجرد من جميع الاسباب .. الا من ناحية رب الارباب .. فهو وحده .. مسبب الأسباب .. ومالك الرقاب .. فأنا عبدك وابن عبدك .. لا ازال اذكر فنائى جانب حمدك ..

ها هو ذا مكان أبيك آدم .. وستقيم قواعده يا ابراهيم .. وقد أمرنا الرياح السافيات .. أن تنتزع الرمال التى قرت على مكان البيت الأول .. الذى عبد الله فيه .. لأول مرة .. واحدا احدا .. فردا صمدا .. لا شريك له .. فطهره بعد اقامته الطائفين الذين يطوفون حوله سبعة أشواط .. مقرونة بدعوات .. دعوات العبد الضعيف الضئيل التافه .. بمنح الكرامة

---

(١) قصص الانبياء « للنجار ص ١٠٣ طبعة ثالثة » .

من الله الأعلى .. وتلك الكرامة تسمح له بان يدعو ربه .. ويوثق عرا حبه .. وان يطهر قلبه .. فأنا هنا قلب .. والعمل مزدوج : المادة تحدد المكان .. والفلك يحدد الزمان .. بينما القلب يحرر البيان .. أنت يا ابراهيم .. قد رزقت اسماعيل .. وقد بلغ معك السعى .. فهو يد عاملة مع يديك .. وقلب مخلص منيب مخبت الى واليك ..

ويلمع نجم آخر .. بعد « واذ بوانا لابراهيم مكان البيت » .. حيث يتضح بجلاء .. الصلة بين المبانى والمعانى .. البيت من حجر .. او صخر ، أو ما شئت .. ولكن نفى الشرك .. مقترن فى النية بالقيام بالعمل المادى لرفع القواعد « واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل ، ربنا تقبل منا انك انت السميع العليم » ووجه العلاقة واضح كل الوضوح .. فى الربط بين المبانى والمعانى : « ربنا تقبل منا » هل يتقبل الحجارة أو الصخر؟ .. لا .. بل يتقبل النية ، والروح ، والاخبات، وحسن الانابة ، وتمام الطاعة ، والاستجابة ..

قم يا ابراهيم من بابل .. ومن قصور الشام حيث كنت منعما فى بلهنة من ابهة الملك .. الى هذا المكان الموحش القفر ، لا عود من النبات الأخضر حولك .. ولا نهر يجرى ولا قناة ..

هناك أسباب .. وهنا تجرد تام عن الأسباب « ربنا تقبل منا انك انت السميع العليم » .

هل يتقبل القوة والعمل ؟ .. لا .. ان القوة لله جميعا .. فهو الذى بوأ المكان .. وأمر برفع القواعد .. وبقوته تحركت السواعد .. طاعة لامره .. وتنفيذا لمشيئته .. ولتكون هذه الدعوات .. آيات بينات .. للعلاقة بين المعانى .. باعتبارها الناحية العليا .. وبين المبانى .. باعتبارها الناحية الدنيا .. فالمعانى دائما اعلى من المبانى ..

والملحوظ .. الذى يجب ان يذكره الحجيج .. هو اقتران المبنى بالمعنى .. فهنا ننادى .. وهنا نلبى .. نعم .. اننا نعلم ان الله مطلق حتى عن قيد الاطلاق فهو ـ سبحانه ـ ليس هنا فقط .. وانما هو فى كل مكان .. ونحن نتوجه اليه مشفقين مما لا نستطيع بلوغه من تمثيل عظمته .. فهو العلى الأعلى .. وعلمناهذا .. ليس صادرا عنا .. فما علينا الا ان نساله .. ان يتقبل ما فى قلوبنا .. مما تمثله أيدينا وتشكله .. بقوته هو .. لا بقوة سواه اذ لا قوة الا بالله .. هذا هو **المطلب الأول** .. من القواعد الستة .. وليكون البيت على أساس سداسى الاضلاع .. وهو اكمل بناء هندسى .. حتى ان النحلة تصنع بيوتها على هذه القاعدة .. حتى لا يكون بينها فراغ ما ..

والمطلب الثانى : ـ « ربنا واجعلنا مسلمين لك » .. وهنا وقفة .. امام الاسلام .. الاسلام لله .. والاذعان لقضائه وقدره ومشيئته « فقل اسلمت وجهى لله ومن اتبعنى » .. وليس الوجه هنا من الناحية المادية أو الشكلية أو الصورية .. ونتجه بانفسنا واذهاننا وادراكنا .. الى الناحية المعنوية الروحية .. فهذا دعاء يدعو به العبد ربه .. ويؤكد حبه « ربنا واجعلنا مسلمين لك » حل بيننا وبين ما يزيغ قلوبنا عن الثقة بك .. والاستمساك بعروة الأدب بين يديك .. فاجعلنا بالهامك الذى أوحيت به الى النحل .. وما تأتى به من رحيق .. امنحنا منحة من فضلك .. تجعلنا مسلمين لك .. وعلامة التثنية هنا : ابراهيم واسماعيل ..

ثم يأتى المطلب الثالث « ومن ذريتنا امة مسلمة لك » اى واجعل من ذريتنا امة مسلمة لك .. لم يكتف ابراهيم واسماعيل ـ عليهما الصلاة والسلام بحصر الدعاءفى نفسيهما .. بل تجاوزا بمظهر البصيرة .. الذى تغلغل الى نهاية احقاب الانسانية .. وطلبا من ربهما .. ان يجعلهما اصلا لأمة مسلمة لله « ثم أوحينا اليك أن اتبع ملة ابراهيم حنيفا » والآية تقول بصراحة : «ملة ابيكم ابراهيم هو سماكم المسلمين من قبل .. وفى هذا » اى فى هذا القرآن .. فى هذا الموحى به .. كآخر رسالة .. تفضل بها عظمة العرش الأعلى .. على البشرية والجنية معا .. وعلى الملائكة قبل ذلك ، وبين ذلك ، وبعد ذلك ..

ويكون المطلب الرابع « وارنا مناسكنا » .. نحن حبك يا ربنا .. ولكن لا ندرى كيف نعبدك .. نظهر لك خضوعنا وطاعتنا .. ونسكب بين يديك دموعنا .. لنجعلها غسولا طيبا لذنوبنا .. ونطفىء بها حرائق الآثام التى تشعلها فى أنفسنا .. فأرنا مناسكنا .. والمنسك هو منهج العبادة .. ومحل التقدير « ولكل أمة جعلنا منسكا ليذكروا اسم الله على ما رزقهم » وهذا كله مرتبط بالقسم الأعلى .. وهو المعنويات الروحانية .. وليس الحجر والرمل .. حتى الهدى الذى نقدمه عند البيت .. ما هو الا رمز معنوى « لن ينال الله لحومها ولا دماؤها » هذا هو القسم المادى الأدنى « ولكن يناله التقوى منكم » وهذا هو القسم المعنوى الأعلى .

ويتضح فى المطلب الخامس « وتب علينا انك انت التواب الرحيم » ..

وان التوبة .. اذا لم تأت من الله .. فلا توبة .. والهدى أن لم يكن منه .. فلا هدى « من يهد الله فهو المهتدى » فالتوبة ذخيرة ..

تدل على ان العبد .. يعلم انه مجبول على الخطأ .. وانه اذا كان يخشى الله فى العجز والخطأ .. فان عروة صلته بمولاه لا تنفصم ابدا .. لأن الله سميع عليم .. تب علينا .. من ان نظن .. ان الأعمال التى نأتيها .. هى صادرة منا .. فالموحد يعلم .. ان الحركة التى يتحركها .. انما هى باستخدام القوة التى هى من الله .. فان احسن استعمال الحركة فله .. وان اساء استخدامها فعليه .. « كل نفس بما كسبت رهينة الا اصحاب اليمين » .. فقد ترفعوا عن النظر الى النفس .. وأحس كل منهم .. بأنه مخلوق ضئيل جدا .. بدأ خطوات الوجود .. من النطفة .. الى العلقة .. الى المضغة المخلقة وغير المخلقة .. وجعل يتقلب بتقدير مولاه .. فى ظلمات ثلاث .. حتى انشاه خلقا آخر .. فاثر فى اعماقه « فتبارك الله أحسن الخالقين » ..

هذه مشاعر المؤمن .. وهى فى الواقع .. شعائر الهية .. وهى المقصودة فى قوله تعالى « ذلك ومن يعظم شعائر الله فانها من تقوى القلوب » فيشعر العبد بفضل من جعل له عينين .. ولسانا وشفتين .. وهداه بالوحى النجدين .. فقال له : هذا طريق الخير فاسلكه .. وذلك طريق الشر فاتركه .. وهل تظن انك لو كان أمرك بيدك .. اكنت تصنع شيئا ؟ . لا .

« وأرنا مناسكنا ، وتب علينا ، انك انت التواب الرحيم » .. انت وحدك بيدك ملكوت كل شىء .. مومنها حسن الالهام .. وكمال التوفيق .. وتعليم خالص التوكل .. فقد انكرنا ذواتنا فى نور ذاتك ..

والمطلب السادس .. والاخير « ربنا وابعث فيهم رسولا منهم » .. فى تلك الأمة المسلمة من ذريتنا .. لا تدعهم ربنا .. بعد تولى آلاف السنين .. من غير قيادة حكيمة عليا .. مرسلة من عندك .. فأنت وحدك المنزه عن الهوى ، وعن الخطأ والضلال والتورط والارتجال .. فأنت القائل « انا كل شىء خلقناه بقدر » .. ابعث فى هذه الأمة .. التى تمنيناها فى المطلب الثالث .. « رسولا منهم » من انفسهم ومن انفسهم – بضم الفاء وفتحها – .. قلبا كاملا .. تاما .. نزيها .. كصفحة بيضاء .. جرى فيها قلم القدرة الالهية .. فكتب فى هذا القلب اللائق المستعد .. المتقبل المستقبل المستمد .. ما شاء سبحانه مفتتحا بسم الله الرحمن الرحيم .. ليكون هذا الوحى اليه .. رحمة للعالمين « يتلو عليهم آياتك » .. وأثر التلاوة .. على نفس المؤمن .. يبكيه حتى النصارى .. الذين وفدوا من الحبشة على رسول الله – صلى الله عليه وسلم . بعد ان طلبوا ان يسمعوا بعض ما انزل عليه .. فكان عليه الصلاة والسلام يتلوه وهم يبكون .. وعندما انتهى .. خروا ساجدين وقالوا « آمنا فاكتبنا مع الشاهدين » .. هذا هو موقف النصارى عند سماع الآيات تتلى .. فما بالك والقرآن يتلى علينا .. كأننا لم نسمع .. أو كأن فى آذاننا وقرا .. الا نسمع كلام من خلقنا ورزقنا وامرنا بيده ، وقلوبنا تنبض بمعرفته وفيضه .. ولو شاء لسكن القلب .. وهمد الجسد .. ووقفت امام الواحد الاحد .. لا تملك لنفسك نفعا ولا ضرا ، ولا موتا ولا حياة ولا نشورا .. « يتلو عليهم آياتك ، ويعلمهم الكتاب والحكمة » وكتاب من غير حكمة .. لا يكون الا دردشة .. سمتها ام المؤمنين السيدة عائشة .. هذرمة / جاءها رجل يقول : يا ام المؤمنين .. قرات القرآن فى .. ثلاثة ايام .. فقالت لا باس .. فقال : فاذا قراته فى يومين ؟ .. قالت : تكون هذرمة – وذلك لعدم القدرة على التدبر فى المعانى .. والقرآن ذاته – يقول « ليدبروا آياته » .. والجن ايضا .. تقول هذا « فلما حضروه قالوا انصتوا » والأمر صريح « واذا قرىء القرآن فاستمعوا له وانصتوا » اى استمعوا .. وتدبروا ما تستمعون له .. ليتنبه القلب .. الى ما فى المعانى من بشرى أو زجر .. أو نهى أو أمر .. أو ارشاد أو تحذير .. انما يبشر الذين آمنوا .. وعملوا بالانذار .. وتجنبوا النواهى .. هو مبشر للذين قاموا بتنفيذ الأوامر العليا .. التى خططها وحددها وقدرها من خلق السموات والارض ، وجعل الظلمات والنور . وكذلك « ويزكيهم » والتزكية بمعنى الزيادة .. وزكت النفس اى طهرت .. وطهرهم من الادران والأوساخ .. من النفاق والرياء .. من التملق والمداهنة .. والكذب .. والخداع « ولولا فضل الله عليكم ورحمته، ما زكى منكم من احد ابدا » .

هنا ملة ابراهيم .. ست قواعد للبيت ..

المادى متعلق بالبناء .. لكن رفع القواعد .. المقترن بهذا الدعاء .. معنوى بحت فيكون هنا « آياته بينات» ويكون هنا معنى « مقام ابراهيم» و « من دخله » دخل على اساس هذه القواعد « كان آمنا » يحق له أن يفيض من عرفات .. بعد تلبية صادقة « لبيك » اى يارب .. لقد استجبت لما أمرت به .. واجتنبت ما نهيت عنه .. تجردت من ثيابى وذنوبى .. وها أنذا يارب فى ثوب أشبه بالكفن .. لا يعلو واحد على واحد .. لا بالصورة .. ولا بالثياب .. نحن مجردون امامك .. يارب عرفاتك .. نلبيك .. ونرفض كل من سواك ..

١٣ وبعـــد :

راى ابراهيم عليه السلام ــ ذرية اسماعيل .. وقد أنجب أثنى عشر ولدا .. اولهـم نابت ابن اسماعيل .. كما تقول العربية :

وقائلة والد مــع سـكب مبادر
وقد شرقت بالدمع منها المحاجر

الى أن قالت :

وكنــا ولاة البيت من عهـــد نابت
نطوف بهـذا البيت .. والفضل ظاهر

فدارت أفاعيـــل الزمـــان ولم نزل
بما عنـــدنا يسعى الينـــا المـكاثر

كأن لم يكن بين الحجون الى الصفـــا
انيس ولم يســـمر بمـكة ســـامر

بلى نحن كنــا أهلهـــا .. فازالنـــا
صروف الليـــالى والجنـــود العواقر

فهـذا اذا مكان .. والذين كانوا متمـكنين فيــه .. كانوا يعلمون الله .. ويعبـدون الله ويقدمون الفدية رمزا الى أننا لا نبخل بأجسادنا على الله .. عند الطلب .. هو اشترى .. ونحن بعنا .. واستبشرنا بما بعنا ..

النار يا ابراهيم .. أم التوحيد ؟ .. النـار ولا اترك التوحيـــد .. نفسك .. ولدك ؟ .. ولا ولدى .. مالك .. حدائقـك ؟ .. ولا شىء الا الله ..

كلمة واحدة .. ليقول رب العرش العظيم : أشهدكم يا ملائكتى .. أنه خليلى .. رجل .. لم يستعن .. حتى ولا بجبريل .. هل بعـد هذه حنيفية ؟ .. هل بعدها حرية ؟ .. هل بعدها انطلاق نفسى ؟ .. هل بعدها ثبات قدم ؟ .. هل بعدها رفعة وعظمة ومجد ؟ ..

فى بعض كتب التفسـير :

استقبل ابراهيم ــ عليه السـلام ــ اليمن والمشرق والمغرب والشـــام فدعا الى الحج .. فقيل : لبيك اللهــم لبيك .. وذلك قـــوله عز وجل : « وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق » .

وروى أنه .. لمـــا قال الله له : « وأذن فى النـــاس بالحج » قال يارب وما مدى صوتى ؟ فقال الله تعالى له : يا أبراهيم عليك الأذان .. وعلينـــا البـلاغ ..

ولم يزل البيت .. على ما بنـــاه ابراهيم واسماعيل ــ عليهما السلام ــ الى سنة خمسة وثلاثين .. من مولد نبينـــا محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ وذلك قبل مبعثه بخمس سنين .. فهدمت قريش الكعبة ثم بنتها .. (١) ..

وقد عاش ابراهيم مائة وخمســـا وسبعين سنة .. فيكون اسماعيل .. قد عاصر أباه .. تسعا وثمانين ســـنة .. أما أسحاق .. فولد لابراهيم .. وسنه مائة ســـنة .. فيكون قد عاصر أباه خمسا وسبعين سنة (٢) ..

فقد ورد فى الاصحاح الخامس والعشرين .. من سفر التكوين .. من ٧ : ١٠ ما ملخصه : ان ابراهيم عاش مائة وخمسا وسبعين عاما ..

---

(١) من كتاب الانوار المحمدية للنبهانى .. وغيره .

(٢) من سفر التكوين .

ولما مات دفنه اسماعيل واسحاق فى مغارة ـ المكفيلة ـ فى حقل عفرون بن صرصر الحثى .. وفيها دفنت سارة .. من قبل .. وهو الموضع الذى عليه مقام الخليل فى حبرون .. وتسمى مدينة الخليل .. وكان اسمها اصلا .. « قرية اربع » .

كما ذكر ابناء اسماعيل فى الاصحاح الخامس والعشرين .. من سفر التكوين .. وهم اثنا عشر ولدا .. وكلهم رؤساء قبائل .. وهم على الترتيب :

١ ـ نبايوت ـ نابت ـ
٢ ـ قيدار
٣ ـ ادئيل
٤ ـ مبسام
٥ ـ مشماع
٦ ـ دومه
٧ ـ مسا
٨ ـ حدار
٩ ـ تيما
١٠ ـ يطور
١١ ـ ناقيش
١٢ ـ قدمه .

وعاش اسماعيل مائة وسبعة وثلاثين عاما .

وتقول التوراة انه مات ودفن بفلسطين .. ولكن اجمع مؤرخو العرب .. على أنه مات بمكة .. ودفن بالحجر الذى بجوار البيت .. مع امه هاجر .. وهذا هو الصحيح بعيدا عن تحريف التوراة .. التى يحاول اليهود دائما .. ان يحرفوا فيها الكلم عن مواضعه .

□□□

○ طواف الختام

بين أنوار هذه الآيات البينات .. وعلى مقام ابراهيم .. بقواعده الروحية الست .. طافت الرسل حول البيت .

وقد سبق أن بينا .. فى نبا نوح .. أن السفينة بركابها .. مرت بالبيت .. فطافت به سبعا .. وقد نجاه الله من الغرق .. فلم تغمره المياه ..

فماذا كانت الانبياء والرسل .. تصنع بالطواف ؟ .

« ان الصفا والمروة من شعائر الله ، فمن حج البيت او اعتمر ، فلا جناح عليه أن يطوف بهما ، ومن تطوع خيرا ، فان الله شاكر عليم » .

مناسك بينها .. وشعائر حددها .. ومن طريق الرضى .. عن يمين الحى .. تقدم من باب السلام .. ولا تنس وانت فى عرفات .. قبل الافاضة .. الى مزدلفة .. ان تحمل رجمات الشيطان .. ماديا ومعنويا ايضا ..

ولا تنس جبل الرحمة .. لتتعلم الرحمة .. ولتتمكن فى نفسك آثارها .. فلا تكون فظا ولا غليظا .. ولا نذلا ولا بخيلا .. ولا جبانا .. ولا كسولا ..

ان دين الاسلام .. وملة ابراهيم .. تدعو الى هذا .. وهذا هو الحياة .. ولا شىء من الحياة سواه .. وما الحياة مآكل ومشارب .

« ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين ، ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل ، فسوف يعلمون » .. أما اذا تهاونا .. فى رعاية ذلك .. واكتفينا بالمظاهر .. ودعا عنا المطوفون .. ووقفنا جامدين .. لا نقول الا الفاظا .. لا نفقه معانيها .. فان أيدينا .. تعود صفرا من فريضة الحج .. وقلوبنا لا تزال منطوية على ما فيها .. وجزاؤها عند الله رهيب .. لذلك يقول رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم :

« **يوشك أن تداعى عليكم الأمم** ، كما تتداعى الآكلة الى قصعتها ـ أو قال : الآكلة الى قصعتها» فارتجف الصحابة ، وقالوا : او من قلة نحن يا رسول الله ؟ .. قال : « بل انتم كثير ، ولكنكم كغثاء السيل » قش .. هش .. يسير مع الماء اينما سار .. لا ارادة له .. فهو من ناحية الفكر ـ امعة ـ لا رأى له .. واكد ـ عليه الصلاة والسلام ـ باللام ونون التوكيد الثقيلة « ولينزعن الله من قلوب أعدائكم المهابة منكم » يا للكارثة ، .. أحتقرنا اعداؤنا .. وهم أحط من الحقارة .. وادنى من الصغار .. لأننا تركنا القواعد .. قواعد الاسلام .. قواعد البيت .. فلم يبق لنا سند ولا نصير ..

□ □ □

وأذكر يوم ان رفعنا علم الاسلام خفاقا فوق رمال سيناء ونحن صائمون فى رمضان ١٣٩٣ هـ ـ فتحت كتاب الله على آية .. وجدت فيها وصفا دقيقا لتلك المعركة .. حيث تقول :

« هو الذى أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ، ما ظننتم ان يخرجوا ، وظنوا انهم مانعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا ، وقذف فى قلوبهم الرعب. يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدى المؤمنين ، فاعتبروا يا أولى الابصار » ٢/الحشر .

فاليهود اهل كتاب .. وماكنا نظن ـ بأقل نسبة من الظن انهم يخرجون من خط بارليف .. وظنوا هم ايضا أن هذا الخط يحميهم من غضب

الله .. وكانت النتيجة الملموسة .. المحسوسة .. وكان خليقا بنا .. ان نستمسك بالله .. بعد تلك المعركة .. التى راينا الله ظاهرا فيها ..

وحقا « القرآن بعموم اللفظ .. لا بخصوص السبب » وان سلفنا الصالح ـ رضوان الله عليهم ـ ما اكتسبوا المهابة فى جميع الميادين .. الا بالالهام من رب العالمين « اذ يوحى ربك الى الملائكة انى معكم فثبوا الذين آمنوا » ومن ناحية كثرة العتاد والسلاح « سالقى فى قلوب الذين كفروا الرعب ، فاضربوا فوق الأعناق ، واضربوا منهم كل بنان » ١٢/الأنفال .

□ □ □

يا للوضوح .. ويا للقوة .. يا اقوى الأقوياء .. ويا طبيب الأطباء .. ويا نور النور .. نعوذ بك من غفلاتنا وهفواتنا وذنوبنا ..

ونعود الى حديث رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الذى نحن بصدده .. وليقذفن فى قلوبكم الوهن » وبنفس التاكيد المزدوج باللام والنون الثقيلة .. بعد أن نزع المهابة من قلوب الأعداء قذف الوهن فى قلوبنا .. قالوا : وما الوهن يا رسول الله ؟ .. قال : حب الدنيا وكراهية الموت » .. نعم سبب البلاء حب الدنيا ..

□ □ □

فاللهم اعنا على نفوسنا .. حتى تجعلها تحت طاعتك .. وانصرنا على أهوائنا .. حتى تنصرنا على اعدائنا .. ويسر لنا طريق الحج .. الى بيتك الذى وضعته فى مكة مع آدم .. وبوات مكانه لابراهيم .. ليقيم قواعده مع اسماعيل .. وهيأت هدمه فى قريش .. ليضع حبيبك المصطفى ، وخليلك المجتبى ـ محمد ـ حجره الأسعد بيده فى البناء ..

ووفق اللهم .. ولاة امور المسلمين .. الى اللقاء حوله على الحق .. ليأتى وعدك الحق : « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ، ليستخلفنهم فى الأرض ، كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا » واشترط ـ سبحانه ـ شرطا جزائيا واحدا .. نظير الاستخلاف فى الأرض .. وتمكين الدين .. وابدال الخوف بالأمن .. هذا الشرط .. هو « يعبدوننى لا يشركون بى شيئا ، ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون » ٥٥/النور .

□ □ □

ولنتتبع خطوات ابراهيم .. على رمال التاريخ .. لنجد الاستقامة ، والقوة ، والفداء ، والحق ..

والى اللقاء ـ ان شاء الله ـ فى رحلة الزمن .. مع المجموعة الثالثة :

اسحاق ، ومن وراء اسحاق يعقوب ، ثم يوسف والاسباط . عليهم السلام .

□ □ □

فهرس الجزء الثانى

بسم الله الرحمن الرحيم

ووهبنا له اسحاق ويعقوب وكلا جعلنا نبيا

ايه ٤٩ من سوره مريم

صدق الله العظيم

من نبأ
إسحاق ويعقوب

١ وبشروه بغلام عليم

جاء فى تقديم قصة لوط ، أن ابراهيم ــ عليه **السلام ــ بعد ان عضه الجوع .. وآلمه الطوى .. بعد اربعة ايام لم يأته فيها ضيف .. وكان قــد نذر ألا يذوق طعاما الا مع ضــيف ــ فهو أبو الضــيفان** .. فرح الله عنه بثلاثة ضيوف يطرقون بابه .. فطلب عجلا سمينا حنيذا ــ والحنيذ هو اللحم المشوى ــ ولما رأى ضيوفه لا يمدون أيديهم الى الطعــام .. اوجس منهم خيفة .. وسألهم عن انفسهم .. فقالوا نحن ملائكة .. فى طريقنـــا الى قوم لوط لهلاكهم .. وكانت زوجتـــه ســـارة واقفة بالباب لخــدمة الضيوف .. فضحكت .. فبشروها « باسحاق ومن وراء اسحاق يعقوب » ولكنهـــا عجبت .. وقالت « أألد وأنا عجوز وهذا بعلى شيخا ان هذا لشىء عجيب » قالوا :

« اتعجبين من امر الله .. رحمة الله وبركاته عليكم اهل البيت انه حميد مجيد » ..

وحملت السيدة سارة باسحاق ... وهى فى التسعين من عمرها .. حيث كان أخوه اسماعيل ابن الســيدة هاجر .. فى عامه الرابع عشر من عمره كما ورد فى التوراة .. ولم يذكر القــرآن الكريم عن اسحاق ــ عليه السلام ــ سوى بعض صفات امتاز بها وهى :

انه غــلام عليم .. « وبشروه بغــلام عليم » ٢٨ ــ الذاريات ، والبشرى هنا لابراهيم عليه السلام من ضيفه المكرمين .

وانه نبى من الصــالحين « وبشرناه باسحاق نبيا من الصالحين » ١١٢ ــ الصافات وأيضـــا « ووهبنا له اسحاق ويعقوب وكلا جعلنا نبينا » ٤٩ ــ مريم وانه مبارك عليه « وباركنا عليه وعلى اسحاق » ١١٣ ــ الصافات .

ولكن جاء ذكره فى التـــوراة .. وان كان فيها تحريف واضح ، وتبديل بين فى مثل قولهم ان اسحاق هو الذبيح ــ وقد تعرضنا لتلك الفرية بأدلة لا تدع مجـــالا للنســـك فى أن الذبيح هـــو اسماعيل عليه السلام .

ومن بين هذه الأدلة وتلك البراهين ، ما هو من نص التــوراة نفسها فى الاصـــحاح الثانى والعشرين من ســـفر التكــوين ، حيث تقـــول التوراة :

« قال الرب خذ ابنك وحيدك الذى تحبه ــ اسحاق ــ واذهب به الى ارض الموريا ، واصعده المحرقة على احد الجبال الذى اقول لك » ــ أ هـ ــ ولم يكن لابراهيم ــ فى يوم ما ابنـــا وحيـــدا غير اسماعيل ، لأن اسحاق ولد ولاسماعيل اربـــع عشرة سنة ــ كما هو صريح التوراة نفسها (١) ــ وقد عاش اسماعيل حتى دفن اباه ، فكيف كان اسحاق ابنا وحيدا لابراهيم ؟ .

ومن شـــاء فليرجـــع الى الأدلة التى ذكرناها بالتفصيل فى قصتنا عن « نبأ اسماعيل » فى هذا المسلسل .. وفى فصل « أول الذبيحين » .

ولد اسحاق ولابيه ابراهيم ــ عليهما السلام ــ مائة عام .

---

(١) اقرأ فى سفر التكوين : الاصحاح السادس عشر فقرتى ١٥ ، ١٦ ، وفى الاصحاح الحادى والعشرين من ١ الى ٥ .

واسم اسحاق فى العبرية بمعنى الضاحك ، وكان فى وجهه صباحة ورثها عن امه السيدة سارة وليكون وسيلة من وسائل نقل تلك الصباحة الى وجه يوسف ـ فيما بعد ـ يقول الحافظ بن حجر : اعطى يوسف وامه شطر الحسن . يقصد سارة ولما شب اسحاق وبلغ مبلغ الفتيان، وكان ابوه ابراهيم ـ لما كبر واقعده الكبر ـ . قد أوصى كبير عبيده وامين ماله « لعازر » بالا يزوج ابنه اسحاق من بنات الكنعانيين الموجودين بفلسطين .. بل يزوجه من اهله وعشيرته وبنى ابيه ببابل ، على الا يقيم اسحاق بارضهم وهى ارض سبق أن هاجر هو منها فرارا بدينه .

❊ ❊ ❊

وجهز لعازر للرحلة من الشام الى قدام آرام (١) ليبحث هناك عن زوجة صالحة لابن سيده .. واخذ معه الكثير من الهدايا ، والتحف ، والجمال ، والاموال ، وكان سيده ابراهيم صاحب مال وانعام كثيرة .

❊ ❊ ❊

ونزل لعازر صباح يوم جميل خارج المدينة التى بها ناحور ـ أخو ابراهيم .. وفى عصر نفس اليوم .. رأى فتاة جميلة رشيقة .. داعبت نسمات الأصيل خصلة من شعرها الذهبى .. تبدو من تحت جرة فوق راسها كما يبدو الهلال من تحت سحابة رقيقة فى ليلة صيف .. فلفت نظره جمالها وحسنها ، وترك بصره يتابعها حتى وجدها ملأت جرتها وعادت فى أدب ووقار .. وعندما اقتربت منه طلب منها شربة ماء فسقته ، وطلبت منه ان يسقى جماله ايضا ، وظل يتأملها حتى انتهت من سقى الجمال .. فأعجب بها اشد العجب .. وسألها عن اهلها .. فاخبرته ان اسمها رفقة بنت بتوئيل بن ناحور .. ثم سألها عن دارهم .. هل فيها متسع لجماله ؟ .. فقالت فى دارنا متسع لكم ولأنعامكم .. وزادت ان لديهم علفا كثيرا لها .. فاهداها خزاما ذهبا لأنفها .. وسوارين ذهبيين ليدها .

واسرعت الفتاة فى خفة الطير .. الى البيت .. واخبرت اهلها بما رات .. فقام اخوها « لابان » فهرول الى « لعازر » ودعاه لاستضافته واكرم مثواه .. فاخبرهم بما جاء من اجله .. وطلب يد رفقة لابن سيده ـ ابراهيم ـ فوافقوا جميعا .. واهداهم الكثير من آنية الذهب والفضة .. ونادر التحف لاخيها وامها .

وعاد الى فلسطين ومعه « رفقة » .. لتصير زوجة لاسحاق .

❊ ❊ ❊

وكانت رفقة ـ فيما بعد ـ خير عزاء لاسحاق .. بعد موت أبيه

وولدت له فى البطن الأول بنتا .. وفى البطن الثانى توامين : احدهما « عيسو » أو اسمه « عيص » .. وتوامه « يعقوب » وكان أولهما فى الولادة **عيص** .

وشب التوامان فى رعاية ابوين كريمين .. يعيشان فى امن من سعة الحياة .. ورغد العيش .

❊ ❊ ❊

□ □ □

---

(١) بلد ابراهيم ـ عليه السلام ـ ببابل .

٢ هجرة إسحاق إلى جرار

ذكرت التوراة فى الاصحاح السادس والعشرين/سفر التكوين :

ان اسحاق ـ عليه السلام ـ خرج بزوجته رفقة من ارض الشام بسبب حصول مجاعة فيها .. ، وذهبوا بأنعامهم وأموالهم الى ارض جرار (١) .. عند ابى مالك .. وان رفقة قالت عن اسحاق انه اخوها .. وقال هو انها اختى .. ولكن ابا مالك راى اسحاق يداعبها .. فعرف انه زوجها .. فعاتب اسحاق فى ذلك .. وحصل كما حصل فى شأن ابراهيم وسارة من قبل .. كما ذكرنا فى « نبأ ابراهيم عليه السلام » . وقالت التوراة .. ان أبا مالك هذا هو الذى كان فى عهد ابراهيم .

وهذا رأى واضح البطلان لأن صاحب ابراهيم .. كان كبيرا عندما أهدى السيدة هاجر الى السيدة سارة وهى لم تهدها لابراهيم الا بعد مضى عشرين عاما ـ ولم تحمل سارة باسحاق الا بعد أن صار اسماعيل بن هاجر فى سن الرابعة عشر .. واسحاق الآن بعد موت ابيه يزيد عمره على خمسة وسبعين عاما .. فلو حسبنا فرق الزمن بين رحيل ابراهيم عن الشام .. بسبب الجدب .. ورحيل اسحاق عنها .. لنفس السبب .. لوجدناه لا يقل عن مائة سنة تزداد تسعا .. وهذا زمن يجعل الولدان شيبا .. فليس من المنطق ان يكون ابو مالك هذا .. هو نفس الرجل الذى تعامل مع ابراهيم ـ عليه السلام ـ

❊ ❊ ❊

وروى ان اسحاق كثرت أمواله وعبيده .. وانه حفر آبارا كثيرة فى أرض جرار .. وكلما حفر بئرا .. نازعه عليها أهلها .. فيتركها لهم .. ويحفر بئرا أخرى .. وان الملك ورؤساء جنده .. صالحوا اسحاق اخيرا .. وعقدوا معه صلحا .

□ □ □

---

(١) جرار مدينة على البحر الابيض قرب غزة .

٣ هجرة يعقوب إلى بابل

تزوج عيص بن اسحاق — نسيمة — بنت عمه اسماعيل بن ابراهيم . عليهم جميعا سلام الله ورحمته .. فولدت له الروم بن عيص .. فكل بنى الأصفر من ولده .. وبنو الأصفر . هم الروم .

وكان عيص مغرما بالصيد .. مولعا بالمغامرات .. بينما كان يعقوب وديعا .. رقيق الطبع .. وبالتالى كان اسحاق يحب عيص .. بينما كانت زوجته رفقة تحب يعقوب .

ويظهر ان هذه طبيعة بشرية .. فالاب غالبا .. يحب اخشن ابنائه .. واشدهم بأسا .. اما الأم فانها تحب أرقهم وأودعهم .

واوهن الزمن عظم اسحاق .. وولى ببصره .. واقعدته الشيخوخة .. فدعا ابنه عيص .. وقال له : ياعيص .. اذهب الى الصحراء .. وائتنى بصيد اذبحه وقدمه لى مشويا .. لادعو لك دعوة دعاها لى ابى ابراهيم .قبل موته .. لتكون لك وللذريتك من بعدك ، وسمعت زوجته رفقة كلام زوجها لأبنها عيص ، فتركته حتى خرج الى الصحراء .. لاحضار الصيد لأبيه .. ونادت ابنها يعقوب .. وأخبرته بما حصل من ابيه لأخيه .. وأشارت عليه .. ان يذهب الى حظيرة الغنم .. فيذبح حملا .. ويقدمه الى ابيه على اعتبار انه عيص .. وكان عيص اشعر — كث شعر الرأس — أما يعقوب فكان اجلحا .. فاضطر الى وضع قطعة من فراء الحمل فوق راسه .. وهو يقدم اللحم لأبيه ..

فقال له أبوه : من أنت ؟ قال : انا عيص .. فمد اسحاق يده على راس يعقوب .. وقال : المس مس عيص .. والريح ريح يعقوب .. وكانت أمه واقفة .. فقالت : يانبى الله .. انه عيص .. فادع له .. فقال وهو واضع يده على راس يعقوب : اللهم اجعل فى ذرته الأنبياء والملوك .

وجاء بعده عيص بالصيد .. وجهزه .. وقدمه الى أبيه .. فقال له : لقد سبقك بها يعقوب . فغضب عيص .. ووجد الشيطان ثغرة ينفذ منها الى قلبه ، فأوغر صدره على اخيه .. واشتد حقده عليه .. وتوعده بالقتل .. وخافت رفقة على ابنها يعقوب ، لما تعلم من شراسة اخيه .. فطلبت منه أن يهاجر عند خاله « لابان » فى فدام آرام بابل .. وخرج يعقوب من الشام ليلا .. مولیا وجهه شطر العراق .. وهو خائف يترقب .. يسرى ليلا فوق رمال الصحراء .. ويكمن نهارا فى كهوف التلال المحيطة به .. ولهذا سماه الله اسرائل .. فهو اول من سرى فى الليل ..

كما وجدت أن كلمة ((اسر)) معناها فى العبرية : عبد أو صفوة وكلمة ((ايل)) معناها : الله ، فاسرائيل : أى عبد الله أو صفوة الله .

* * *

وصل يعقوب .. الى خاله لابان .. فى أرض فدام آرام .. وبقى عنده يخدمه ويرعى له .. ثم طلب منه ان يزوجه من راحيل .. صغرى بنتيه .. وكانت الكبرى اسمها ليئة .

فقال له : وهل معك مال للزواج منها ؟ ..
قال : لا .. ولكنى اخدمك مده ترضاها .. واتفقا على سبع سنين .

ولما انقضى الأجل .. ودخل بعروسه ليلا .. اكتشف فى الصباح أن خاله زوجه من ليئة - البنت الكبرى - فغضب .. وعاتب خاله عتابا جارحا .. امام ملأ من قومه .. وقال له : لقد غررتنى .. وخدعتنى .. واستحللت عملى سبع سنين .. ودلست على غير امراتى .. التى خطبتها .. فرد عليه خاله .. يريد استرضاءه : يابن اختى .. أتريد ان يلحقنى العار والخزى والشنار وانا خالك .. وفى منزلة ابيك .. فأزوج الصغرى قبل زواج الكبرى ، وكيف اواجه الناس .. ولم يحصل هذا من قبل ؟ . ولكن اذا شئت .. فلا مانع عندى .. ان تخدمنى سبع سنين أخرى .. وتتزوج راحيل .. وكانت شريعتهم تجيز الجمع بين الاختين .. وقد فعل .

فرعى يعقوب سبع سنين اخرى .. فدفع اليه راحيل .. وتزوجها .. مع أختها ليئة . وكان لابان قد دفع الى ابنته .. حين جهزهما الى يعقوب أمتين .. اسم احداهما زلفى .. والثانية بلها . **وقد** انجب يعقوب من زوجتيه .. وجاريتيهما . اثنى عشر ولدا : (1) **فأنجبت له ليئة** ١ - راوبين وكان أكبرهم ٢ - يهوذا ٣ - شمعون ٤ لاوى ٥ - يشجر ٦ - روبالون .

وانجبت له راحيل : ١ - يوسف ٢ - بنيامين .
وانجبت له زلفا : ١ - دان ٢ - نفتال .
وانجبت له بلها : ١ - جاد ٢ - اشير .

اى ستة من ليئة .. واثنين من كل من راحيل وزلفا وبلها . ويقول النيسابورى الثعلبى صاحب كتاب قصص الأنبياء ان ليئة .. انجبت اربعة فقط .. فيقول ان روبالون من زلفا .. ويشجر من بلها .. ولكن لم اجد هذا الراى فى غير كتاب الثعلبى .

وقد ولد ابناؤه جميعا فى فدام آرام بالعراق .. الا بنيامين .. فانه ولد بعد عودة يعقوب الى كنعان بفلسطين .

وقد سماهم الله - سبحانه .. الأسباط لأن كل واحد منهم .. كان راسا لقبيلة .

والسبط فى كلام العرب .. اى الشجرة الملتفة .. الكثيرة الأغصان .. والاسباط فى بنى اسرائيل ... كالشعوب عند العجم .. والقبائل عند العرب .

وخرج يعقوب بأسرته تلك .. من فادام آرام عائدا الى فلسطين .. بعد أن أخذ من خاله نتاج عام .. من الأنعام ..

عاد بعد هذا الزمن .. ومازال فى نفسه شيء من الخوف .. من أخيه عيص .. يحمل الكثير من المال والنعم والهدايا .. ولكنه وجد ترحابا وحبا من أخيه .. فعاشره معاشرة كريمة .. حتى مات ابوهما اسحاق .. واشتركا فى دفنه .. عند قبر أبيه ابراهيم .

مات اسحاق .. وسنه مائة وسبعون [illegible] بعد ولادة يعقوب وعيص بمائة عام .

وترك عيص البلاد .. لأخيه يعقوب .. وتنقل بزوجته نسيمه بنت عمه اسماعيل .. وابنائهما فى أرجاء الشام .. ثم عبر الى الروم واستوطنها .. وصار ذلك اولده من بعده .. فهو أصل الروم .

□ □ □

---

(1) الثعلبى ، والقرطبى ٧/يوسف .

بســـم الله الرحمن الرحيم

نحن نقص عليك أحســن القصص

صدق الله العظيم

من نبـــأ
يوسف الصديق

١ أحسن القصص

قال الامام عبد الله بن احمد بن محمود النسفى ، صاحب التفسير المسمى باسمه : « مدارك التنزيل ، وحقائق التأويل » .. عن سبب نزول هذه القصة .. أن كفار مكة .. لقى بعضهم اليهود .. وتباحثوا فى ذكر محمد عليه الصلاة والسلام ـ فقال لهم اليهود : سلوه لم انتقل آل يعقوب من الشام الى مصر ؟ .. وعن قصة يوسف ؟ .. فنزلت .

وروى مقاتل .. عن سعيد بن جبير .. قال : اجتمع اصحاب رسول الله . صلى الله عليه وسلم ـ الى سلمان الفارسى .. قالوا : حدثنا عن التوراة بأحسن ما فيها .. فأنزل الله تعالى : « نحن نقص عليك احسن القصص »

فهى احسن القصص :

فيها ذكر الانبياء والصالحين .. والملائكة والشياطين .. وسير الملوك والمماليك..والعلماء والتجار .. والعقلاء والجهلاء .. وحال الرجال والنساء ومكرهن وحيلهن .. والعدل والظلم .. والعفو والحقد .

وفيها ذكر العفة والتوحيد .. وعلم السير .. وتعبير الرؤيا .. وآداب السياسة وحسن المعاشرة .. وتدبير المعاش .. فصارت بحق أحسن القصص ...

□ □ □

٢ رؤيا يوسف

عاش يعقوب فى فلسطين مع اسرته .. فى رغد من العيش .. وسعة من الحياة .. أتاه الله النبوة والمال والولد .. فجمع بين سعادة الدنيا ... ونعيم الآخرة .. علاقة طيبة بربه ومولاه .. وأموال وفيرة .. وانعام كثيرة ... وابناء اشداء ... يضرب المثل بقوة شمعون ويهوذا .. حتى ان أبا اسحاق النيسابورى .. فى كتابه « قصص الأنبياء » قد بالغ فى وصف قوتهما .. مبالغة .. قد لا يقبلها العقل فى سهولة .. حيث قال ان شمعون .. كان اذا غضب .. لا يسكن غضبه حتى يصبح .. فاذا صاح لا تسمعه حامل الا وضعت مافى بطنها .. وان يهوذا كان اذا غضب شق السمع لصفين .. وقال القرطبى : كان يهوذا اذا غضب وأخذ السيف .. فلا يرد وجهه مائة الف .. يقوم شعره فى صدره مثل المسال .. فتنفذ من ثيابه (١) .

وكان يعقوب عليه السلام ـ يحب يوسف واخاه الشقيق بنيامين .. بعد ان ماتت امهما راحيل احب نسائه اليه ـ ماتت .. وهى تضع بنيامين .

فكان يؤثرهما بحبه .. ويفيض على يوسف .. بكل عطفه ورعايته والاهتمام به .. لما توسم فيه .. من دلائل النبوة والشرف والعظمة .. فكان يوسف دائما ينام فى احضانه ولا يسكن فؤاد الشيخ .. الا اذا احتك بجلده .. فى هداة الليل .. وغفوة النوم .. وبلغ يوسف سبع عشرة سنة حسب اغلب الروايات وقد أعطاه الله من الحسن والجمال وصفاء اللون .. ونقاء البشرة .. ما لم يعط احدا غيره .

□ □ □

وفى ليلة من ليالى الجمعة .. قام يوسف من نومه .. فزعا مذعورا .. وكان ينام لصيق ابيه يعقوب ، فضمه الى صدره سائلا : ماذا أفزعك يا بنى ؟ قال : رأيت كأن ابواب السماء فتحت ، وقد اشرق منها النور .. فاستنارت النجوم .. واشرقت الجبال .. وزخرفت البحار .. وعلت الامواج .. وسبحت الحيتان .. ورأيت كأنى البست رداء .. اشرقت الأرض بنوره .. وكان مفاتيح خزائن الارض القيت بين يدى .. فبينما انا كذلك اذ رأيت احد عشر كوكبا .. انقضت من السماء .. ومعها الشمس والقمر .

فقال يعقوب : وكيف رأيتها ؟ .. قال : رأيتهم لى ساجدين « اذ قال يوسف لأبيه يا أبت انى رأيت احد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين » ٤/يوسف .

وقال رأيتهم بصيغة العاقل ، لانها فى موقف السجود .. وهو من سمة العقل .

وكانت زوجة ابيه ـ خالته ـ واقفة وسمعت الرؤيا .. فطلب منها يعقوب كتمان هذه الرؤيا عن أولاده .. ولكنها طبيعة المرأة .. فأخبرتهم بها .. ولهذا يقول الأثر الحكمى : لا تأمنن قارئا على صحيفة .. ولا شابا **على امرأة .. ولا امرأة على** سر .

---

(١) القرطبى ٨٠/يوسف .

وفرق بين الرؤيا والحلم .. فالحلم من الشيطان لقوله صلى الله عليه وسلم « الرؤيا والحلم من الشيطان (١) فهو هواجس يوحيها الى النفس لا ارتباط بينها .. ولا وضوح فى أحداثها .. وما هى الا اضغاث احلام .. اما الرؤيا ، فقالوا : انها جزء من ستة واربعين جزءا من الوحى (٢) بمعنى ان الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان يتلقى بالرؤيا ستة شهور .. فكانت رؤياه كفلق الصبح .. ومدة رسالته ثلاث وعشرون سنة بالوحى .. فكانت هذه هى النسبة بين الرؤيا والوحى وقد قسم رسول الله صلى الله وعليه وسلم ـ الرؤيا اقساما تغنى عن كل قول : فروى عوف بن مالك عنه .. قال « الرؤيا ثلاثة : منها اهاويل الشيطان ليحزن ابن آدم .. ومنها ما يهتم به فى يقظته .. فيراه فى منامه .. ومنها جزء من ستة واربعين جزءا من النبوة » قال : **قلت : أسمعت هذا من رسول الله ـ صلى الله وعليه وسلم ـ قال : نعم : سمعته من رسول الله صلى الله وعليه وسلم .**

وفى صحيح مسلم وغيره .. قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « رايت سوداء(٣) ثائرة الراس تخرج من المدينة الى مهيعة(٤) .. فأولتها الحمى » .

وقال « رايت فى يدى سوارين .. فاولتهما كذابين يخرجان بعدى » وقد تحقق وقال ايضا « رايت انى ادخلت يدى فى درع حصينة ، فأولتها المدينة (٥) وقد بين رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ طريقة التخلص من الرؤيا المكروهة فروى البخارى عن أبى سلمة .. قال لقد كنت ارى الرؤيا فتمرضنى .. حتى سمعت ابا قتادة .. يقول : وانا كنت ارى الرؤيا فتمرضنى .. حتى سمعت رسول الله ـ صلى الله وعليه وسلم ـ يقول « الرؤيا من الله .. فاذا راى احدكم ما يحب .. فلا يحدث به الا من يحب .. واذا رأى ما يكره .. فليتعوذ بالله من شرها .. وليتفل ثلاث مرات (٦) ولا يحدث بها احدا .. فانها لن تضره » .

والرؤيا الصادقة عبارة عن انطلاق الروح .. حال فراغها .. من مشاغل الجسم .. وهو نائم .. فترى فى الملكوت .. معانى تعكسها المتخيلة ـ وهى من حواس الروح ـ الى الحس المشترك بما يناسب تلك المعانى ، فتبلغ درجة المشاهدة بطريقة رمزية ، وقد يكون هذا مع روح انسان كافر .. كما حصل من رؤيا ملك مصر ـ سبع بقرات وسبع سنبلات ـ وكلما كانت الرموز شديدة المناسبة لهذه المعانى .. استغنت الرؤيا عن العبور .. والا احتاجت اليه .

وقال صلى الله عليه وسلم « لم يبق بعدى من المبشرات الا الرؤيا الصالحة الصادقة يراها الرجل الصالح أو ترى له (٧) وعبر يعقوب عليه السلام ـ رؤيا ابنه الحبيب يوسف .. وعرف مراميها .. وعلم ان الله سبحانه سيبلغه مبلغا من الحكمة .. ويصطفيه بالنبوة .. وينعم عليه بالشرف الكبير .. فى الدنيا والآخرة .. كما فعل بآبائه من قبل ، وطلب منه عدم ذكر هذه الرؤيا لأخوته .. لأنه يشعر بما تكنه قلوبهم .. ويحس بما تختلج به حناياهم .. من الحقد على يوسف .. والغيرة منه .. فخشى ان يستغل الشيطان حقدهم .. فيدبرون له أمرا .. ويكيدون له كيدا .. للتخلص منه « يابنى لا تقصص رؤياك على اخوتك فيكيدوا لك كيدا ، ان الشيطان للانسان عدو مبين » ٥/ يوسف .

والنص فى تلك الآية .. صريح فى الا تقص رؤياك الا على ناصح أمين .. يحسن التأويل .. وقد روى رزين العقيلى أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال « الرؤيا جزء من أربعين جزءا من النبوة والرؤيا معلقة برجل طائر ما لم يحدث بها .. صاحبها .. فاذا حدث بها وقعت .. فلا تحدث بها الا عاقلا او محبا أو ناصحا » اخرجه الترمذى .. وقال فيه : حديث حسن صحيح .

---

(١) القرطبى ٥/يوسف .

(٢) عن ابن عباس من القرطبى ٥/يوسف .

(٣) امراة سوداء .

(٤) ميقات اهل الشام .. وهى الجحفة .

(٥) القرطبى ٥/يوسف .

(٦) فى رواية جابر : فليبصق عن يساره ثلاثا ـ القرطبى .

(٧) القرطبى ٥/يوسف .

وقيل للامام مالك : ايعبر الرؤيا كل احد ؟ فقال : أيلعب بالنبوة ؟ .. وقال مالك : لا يعبر الرؤيا الا من يحسنها .. فان رأى خيرا .. .. أخبر به .. وان راى مكروها .. فليقل خيرا .. او ليصمت .

.. **فقيل :** فهل يعبر على الخير .. وهى عنده على المكروه لقول من قال : أنها على ما تأولت عليه ؟

.. **فقال : لا :** ثم قال الرؤيا جزء من النبوة .. فلا يتلاعب بالنبوة .. (١) .

ومن اجل هذا .. طلب يعقوب من يوسف ـ عليهما السلام ـ عدم ذكر رؤياه لاخوته .. فكتمان النعمة جائز عمن تخشى غائلته حسدا وكيدا .. ولهذا يقول .. عليه الصلاة والسلام « استعينوا على انجاح حوائجكم بالكتمان .. فان كل ذى نعمة محسود » (٢) .

ثم قال يعقوب لأبنه : ـ

وكذلك يا يوسف .. سينم الله عليك نعمه ويصطفيك .. ويعلمك تأويل الرؤيا .. وتفسير معانى صحف الله وسنن الأنبياء .. وما غمض واشتبه على الناس .. من اغراضها ومقاصدها ، وسميت أحاديث .. لأنه يحدث فيها عن الله ورسوله « فبأى حديث بعده يؤمنون » « والله نزل احسن الحديث كتابا متشابها مثانى » ٢٣ الزمر « وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الاحاديث ، ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب كما أتمها على أبويك من قبل ابراهيم واسحاق ان ربك عليم حكيم » ٦/يوسف .

وعن جابر ـ رضى الله عنه ـ أن يهوديا اسمه نستار .. سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ عن اسماء النجوم التى رآها يوسف .. فسكت .. فنزل جبريل عليه السلام ـ واخبره بذلك ، فقال اذا أخبرتك بها هل تسلم ؟ قال : نعم .. فقال عليه الصلاة والسلام : « جريان ، والطارق ، والذيال ، وقابس ، وعمودان ، والفيلق ، والمصبح والضروح ، والفرغ ، ووثاب ، وذو الكتفين .. رآها يوسف والشمس والقمر .. نزلن من السماء وسجدن له « فقال نستار اليهودى اى والله وانها لأسماؤها (٣) .

وزادت الرؤيا حب يوسف فى قلب يعقوب عليهما السلام .. واصبح ملازما له كظله .. وتحرك الحسد فى صدور الأخوة العشرة .. فبعد ان كان ما فى القلب فى القلب .. بدات التجمعات والمؤامرات .. ابنا أحق بحب هذا الرجل : يوسف واخوه .. وهما عالة لا حيلة لهما فى جلب نفع او دفع ضر .. ام نحن العصبة الأشداء .. الذين نكفيه ونكفيهما عناء الحياة وكفاحها ؟ ..

« اذ قالوا ليوسف واخوه احب الى ابينا منا ونحن عصبة ان ابانا لفى ضلال مبين ٨/يوسف . وقيل الحسد . أيحسد المؤمن ؟ .. قال : ما أنساك بنى يعقوب .. ولهذا قيل : الأب جلاب ، والأخ سلاب .

والعصبة والعصابة عشرة فاكثر الى اربعين .. قالوا : لن يلعب هذا الرجل الينا .. ويفيض علينا من حبه وحنانه .. الا اذا ذهب هذا الابن المدلل .

فقال شمعون « اقتلوا يوسف او اطرحوه أرضا » بمعنى القتل او النفى « يخل لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوما صالحين » ٩/يوسف .

قالوا : ألم يكفه سجودنا له حتى يسجد له أبوه أيضا ؟ . هيا تخلصوا منه .. وبعدها نتوب الى الله .. وينساه الرجل بعد حين .. ثم يستفهم حالنا .. ونعيش فى رحاب أبينا .. صالحين .

---

(١) القرطبى ٥/يوسف .
(٢) من نفس المصدر .
(٣) القرطبى والثعلبى ٤/يوسف .

فقال يهـــوذا ، وكان احســـنهم رأيا فى يوسف : مادام الهدف ابعاده عن ابيه ، فلاداعى لقتله ، ويهوذا هو الذى قال فيما بعد « فلن ابرح الأرض حتى يأذن لى ابى .. » وقال قائل منهم لا تقتلوا يوســف والقوه فى غيابة الجب يلتقطــه بعض الســـيارة ان كنتم فاعلين » ١٠/يوسف ، وغيابة الجب .. غوره .. وماغاب منه عن عين الناظر .

ويقـــول الشـــاعر : ــ

اذا أنـا يومـا غيبتنى غيبـــابتى
فسيروا بسيرى فى العشيرة والاهل

يقصد الحفرة التى يدفن فيها .

وبدأوا يدبرون أمرهم .. ويكيدون كيدهم .. يوما بعد يوم .. حتى هداهم شيطانهم .. الى اقامة مباريات بينهم على مرآى من يوسف .. تسابق فى الجرى .. ونضـــال بالنبال .. ويوســـف فيه جـراة الايمان .. وشـــجاعة النبـــوة .. فتاقت نفســه الى ما يفعلون .. **وسـالهم .. هــل تفعلــون هــذا كل يوم فى الصــحراء ؟ .. قالــوا : نعم .. فرجاهم أن يطلبوا من أبيه .. أن يسمح له بالخروج معهم .**

□ □ □

٣ رؤيا يعقوب

يقول ابن عباس وغيره : راى يعقوب عليه السلام فى منامه .. كان يوسف على راس جبل .. وكأن عشرة من الذئاب شدوا عليه ليأكلوه .. واذا بذئب يدافع عنه .. وكان الارض انشقت .. فدخل فيها يوسف .. ولم يخرج منها الا بعد ثلاث .. فشغلته تلك الرؤيا .. على يوسف (١) .

وفوجىء الرجل .. بأبنائه يقولون له : (يا أبانا مالك لا تأمنا على يوسف وانا له لناصحون ، ارسله معنا غدا يرتع ويلعب ، وانا له لحافظون) ١١ - ١٢ : يوسف .

والحوا عليه فى هذا الأمر .. وطلب يوسف من ابيه .. بعد الحاح اخوته .. أن يخرج معهم فى الغد .. ووافق الرجل مرغما تحت رغبة يوسف . ولكنه قال لهم (انى ليحزننى ان تذهبوا به ، واخاف ان يأكله الذئب ، وانتم عنه غافلون » قالوا لئن أكله الذئب ونحن عصبة انا اذا لخاسرون) ١٣ - ١٤/يوسف .

وفى خبر نبدأ روايته بالحسن بن محمد بن فتحويه ، وتنتهى بيافع عن عمر قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا تلقنوا الناس الكذب فيكذبوا .. فان بنى يعقوب .. لم يعلموا ان الذئب يأكل الانسان .. حتى لقنهم أبوهم .. فلما لقنهم .. وقال : انى اخاف أن يأكله الذئب .. قالوا أكلة الذئب »

وفى الصباح .. خرج يوسف مع اخوته .. وخرج معهم يعقوب - عليه السلام - مسافة من الطريق ، حتى قال له ابناؤه : ارجع يانبى الله .. ولا تخف على يوسف .. فنحن معه نحميه ونحفظه من كل شر .. فقال لهم ابوهم : يابنى اوصيكم بتقوى الله وبيوسف .. اسألكم بالله .. ان جاع فاطعموه .. وان ظمىء فاسقوه .. وقوموا عليه ولا تبيعوه ولا تخذلوه .. وكونوا متواصلين متراحمين .. ثم اقبل على يوسف .. وضمه الى صدره وقبله .. ثم قال : **استودعك الله رب العالمين .. وانصرف راجعا .**

ويقول كل كتب التفسير تقريبا ان اخوته اعتدوا عليه بالضرب .. وانه كلما استغاث بأحدهم ضربه .. حتى اوشكوا على قتله .. فجعل يصيح يا ابتاه .. لو تعلم ما يصنع بى ابناء الاماء .. أو قال بنو الآباء ؟ وقال يهوذا : ما على هذا اتفقنا .

فاخذوا قميصه .. ليكون وسيلتهم فى الاعتذار الى ابيهم .. والقوه عاريا فى الجب .. وهو يستغيث ويتعلق بملابسهم .. فشدوا وثاق يديه .. والقوه فيه مكتوفا .

وكان الجب فى بلاد الاردن بين مدين ومصر .. وقيل : على بعد ثلاثة فراسخ من منزل يعقوب واوحى الله الى يوسف فى الجب « واوحينا اليه لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون » ١٥/يوسف/ أوحى الى يوسف صغيرا ، كما أوحى الى يحيى وعيسى ، وكما اوحى الى ابراهيم من قبل .

ويروى أن ابراهيم - عليه السلام .. حين ألقى فى النار .. كان مجردا من ثيابه .. فأتاه جبريل - عليه السلام - بقميص من حرير الجنة .. والبسه اياه .. فدفعه ابراهيم الى اسحاق .. ومن اسحاق الى يعقوب ..

---

(١) القرطبى وغيره ١٣/يوسف .

فلفه يعقوب فى تميمة وعلقه فى عنق يوسف ، فاخرجه جبريل .. والبسه اياه فى الجب (١) .

وصار جبريل يؤنسه فى وحشته .. وكان ماء البئر ملحا .. فعذب بعد القاء يوسف فيه .. واصبح يغنيه عن الطعام .

وتختلف رواية التوراة عن القرآن الكريم فى هذا الحادث ، حيث قالت : ان يوسف ذكر الرؤيا لابيه .. فى وجود اخوته .. وان اباه انتهره على ذلك .

وتقول ان اباه هو الذى ارسله الى اخوته .. ليذهب اليهم فى المرعى .. ثم يعود .. ويخبره عن حالهم . فلما جاءهم .. وعليه قميص مخطط .. حباه ابوه به - قالوا : جاء صاحب الاحلام .. ولاس الجاد المخطط .. ثم ائتمروا به .. ولكن رواية القرآن الكريم اقوم قيلا ..

❊ ❊ ❊

اتى الأخوة المؤتمرون بسخلة من الغنم .. فذبحوها .. ولطخوا القميص بدمها واكلوا لحمها .. وعادوا عشاء . الى ابيهم يبكون ويصرخون .. وكان فى انتظارهم .. على احر من الجمر ولقد اختاروا وقت العشاء .. ليكونوا فى الظلمة اجرأ على الاعتذار .. وتزوير ما مكروا .. وقد قيل : لا تطلب الحاجة فى الليل .. فان الحياء فى العينين .. ولا تعتذر فى النهار .. فتتلجلج فى الاعتذار .. فلا تقدر على اتمامه .

ويقول ابو اسحاق الثعلبى - على لسان ابن عباس انما كان سبب ابتلاء يعقوب .. انه ذبح شاة .. فاستطعمه جار له فلم يطعمه .. فابتلاه الله - تعالى - بأمر يوسف .. وانا أن كان قلبى لم يطمئن الى حصول هذا من نبى الله يعقوب - عليه السلام - الا اننى لا اجزم بعدم حصوله .. فالله سبحانه - يقول « ما أصابك من حسنة فمن الله ، وما اصابك من سيئة فمن نفسك » .

« وجاؤا اباهم عشاء يبكون ، قالوا يا أبانا انا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب ، وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين » ١٦ - ١٧ يوسف / وروى أن يعقوب لما سمع بخبر يوسف والذئب ، صاح بأعلى صوته ، وقال أين قميصه ؟ .. فأخذه والقاه على وجهه ..

وبكى حتى خضب وجهه بدم القميص .. وقال : تالله ما رأيت كاليوم ذئبا أحلم من هذا الذى اكل ابنى .. ولم يمزق عليه قميصه .

« قال بل سولت لكم انفسكم امرا فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون » ١٨ يوسف .

والصبر الجميل هو الذى لا شكوى فيه .

❊ ❊ ❊

وروى أن امرأة تحاكمت الى شريح .. فبكت .. فقال الشعبى .. وكان حاضرا فى مجلس شريح : يا أبا أميه .. أما تراها تبكى ؟ فقال له : لقد جاء اخوة يوسف يبكون وهم ظلمة . لا ينبغى لأحد أن يقضى الا بما أمر أن يقضى به من السنة المرضية .

❊ ❊ ❊

والملاحظ ان قميص يوسف فيه ثلاث آيات ، على ما ذكر الماوردى (٢) :

اولا : كان دليلا ليعقوب على كذب أبنائه .. ثانيا : كان دليلا على براءته عندما وجدوه قد من دبر .. ثالثا : القوه على وجه يعقوب فارتد بصيرا .

ولكن هذا الراى مردود .. لأن القميص الذى جاؤا عليه بالدم .. غير القميص الذى قد من دبر .

❊ ❊ ❊

□ □ □

---

(١) من تفسير النسفى والكشاف والبيضاوى والثعلبى والقرطبى .

(٢) القرطبى ١٨/يوسف .

٤ الأسباط

والاسباط هم أخوة يوسف ـ عليهم السلام ـ ولعل المتبادر الى أذهان اغلب الناس .. كره أبناء يعقوب .. لما حصل منهم من ايذاء يوسف .. وتآمرهم عليه .. وضربه .. والتنكيل به فى قسوة ظاهرة .. وغلظة سافرة.

ويحضرنى فى هذا الموقف مما قرات : أن بعض العلماء كان يفسر حديث رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم فقال « اية المنافق ثلاث : اذا حدث كذب .. واذا وعد اخلف .. واذا أؤتمن خان » وزاد عليها من عنده « ومن كانت فيه واحدة منها فليتبوأ مقعده من النار » .

فبلغ هذا التفسير ، الامام وكيع .. وكان وكيع هذا استاذا للامام الشافعى رضى الله عنهما ــ **وهو الذى يقول عنه الشافعى :**

شكوت الى وكيع سوء حفظى
فأرشدنى الى ترك المعاصى
واخبرنى بأن العلم نور
ونور الله لا يهدى لعاصى

اقول عندما بلغ وكيع تفسير هذا الحديث قال :

لقد اجتمعت هذه الخصال الثلاث فى ابناء يعقوب : حدثوا اباهم فكذبوه .. ووعدوه فاخلفوه .. واتمنهم فخانوه .. ومع هذا جعلهم الله انبياء .. ثم تلا قوله تعالى « قولوا امنا بالله وما انزل الينا . وما انزل الي ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والاسباط ، وما اوتى موسى وعيسى » ١٣٦ ـ البقره .

* * *

فعندما بلغ رأى وكيع الى هذا العالم ـ مفسر الحديث ـ قال : حقا « وفوق كل ذى علم عليم » .

* * *

وانما المعروف أنهم صنعوا ما صنعوا بيوسف .. قبل أن يجعلهم الله ـ تعالى ـ أنبياء .

* * *

□ □ □

إلى مصر
مع الصديق

١ خروجه من الجب

روى ان يوسف ـ عليه السلام ـ .. نادى من البئر .. فقال : ياأخوتاه .. اذا اجتمعتم كلكم فانس بعضكم بعضا .. فاذكرو وحشتى واذا اكلتم فاذكروا جوعى.. واذا شربتم فاذكروا ظمئى .. واذا رايتم غريبا فاذكروا غربتى .. واذا رايتم شابا .. فاذكروا شبابى .. فقال له جبريل : يايوسف ، كف عن هذا واشتغل بالدعاء .. فان الدعاء عند الله بمكان .. ثم علمه فقال : قل اللهم يامؤنس كل غريب .. وياصاحب كل وحيد .. ويامطجا كل خائف .. وياكاشف كل كربه .. اسالك أن تقذف رجاءك فى قلبى .. حتى لا يكون لى هم ولا شغل غيرك .. وان تجعل لى من أمرى فرجا ومخرجا انك على كل شئ قدير .. فقالت الملائكة : الهنا ، نسمع صوتا ودعاء .. الصوت صوت صبى .. والدعاء دعاء نبى ..

وقيل : رددها يوسف فى ليلته مرارا .. فاخرجه الله فى صبيحة يومه ذلك من الجب .

جاءت قافلة فى طريقها الى مصر .. قادمة من مدين .. ونزلوا بقرب الجب ، بعد ثلاثة أيام من القاء يوسف فيه .. وأرسلوا واردهم وهو الساقى الذى يستقى لهم وكان اسمه ـ مالك بن ذعر الخزاعى « ١ » ـ قيل انه من مدين فادلى دلوه فى البئر ، وتعلق به يوسف ـ عليه السلام وظل مالك يرفع الدلو بمجهود كبير .. حتى تمكن من رؤيته .. فوجد غلاما جميل الصورة ، مشرق الوجه ، فنادى : يابشرى أى يابشراى ، وهكذا يقرؤها غير الكوفيين بمعنى أنه كان ينادى يبشر نفسه ببضاعة غالية .

وقيل انه كان ينادى صديقا له اسمه بشرى ليساعده فى اخراجه ، ولهذا أسروه ـ أى اخفوه ـ بضاعة لهم ، وقالوا للتجار الذين معهم فى القافلة ، لقد اشتريناه من أصحاب الماء لنبيعه فى مصر . « وجاءت سياره ، فأرسلوا واردهم ، فأدلى دلوه ، قال يابشرى هذا غلام ، وأسروه بضاعة ، والله عليم بما يعملون » ١٩ يوسف ـ والسيارة أى القافلة .

* * *

وقد ذكر كثير من العلماء والمفسرين .. ان اخوته هم الذين انتشلوه من الجب وباعوه للسيارة .

وهذا يخالف تسلسل القصة فى القرآن الكريم بصريح آياته . ولعل الدافع لهم الى هذا الظن قول الله . تبارك وتعالى ـ بعد الآية السابقة « وشروه بثمن بخس دارهم معدودة ، وكانوا فيه من الزاهدين » ٢٠ يوسف .

فلعل عبارة « وكانوا فيه من الزاهدين » هى التى دفعتهم الى أن يعتقدوا أن الزاهدين فيه هم اخوته .. وهم الذين شروه ـ وشرى بمعنى باع .. ولكن الزاهدين فيه .. هم رجال

(١) القرطبى والكشاف وغيرهما ١٩/يوسف .

القافلة .. لاسباب سنذكرها قريبا فى صحبتنا له فى الرحلة الى مصر .

وجاء فى التوراة .. ان اخوة يوسف .. جلسوا للطعام .. بعد القائه فى الجب .. ووجدوا قافلة من الاسماعيليين .. تقصد مصر ، ومعهم الكثيراء ، والبلسان ، والطيب .. وجاءت قافلة أخرى من المديانيين .. فسحبوا يوسف من الجب .. وباعوه للاسماعيليين ولم يعلم اخوة يوسف بما حصل ، وقالت ان يهوذا أشار على أخوته الا يتركوا يوسف فى الجب .. وأن يبيعوه .

ولما جاء راوبين الى الجب .. ولم يجد يوسف .. مزق ثيابه وبكى . وتقول التوراة ، ان راوبين هذا .. هو الذى اشار عليهم بالقائه فى الجب .. حتى يختلف اليه ويخرجه .. ويرده الى أبيه .

□ □ □

٢ الكريم ابن الأكرمين

ان يوسف عليه السلام ـ هو النبى الوحيد، الذى جمع من تسلسل نسبه مربعا كاملا متصلا .. من صفوة البشرية .. فهو الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن اسحاق بن ابراهيم .

اوحى اليه فى الجب .. وبدات رسالته .. ليبدا معها حياة كلها كفاح وصراع وبلاء .. وحملة الرسالات .. كالذهب بين معادن الناس .. والذهب لا يزيد جلاء ونقاء وصفاء .. الا اذا ادخل النار .. لتبخير ما علق به من ادران الحياة واقذارها وصدئها .. فيخرج بعد كل مرة .. اشد صفاء ونقاء وطهرا .

* * *

سار يوسف مع السيارة .. بعد ان اخرجه مالك بن ذعر الخزاعى .. مع قوم لا يعرفون الله ، ولا يؤمنون ببعث ولا حساب .. ولا ثواب ولا عقاب .. يقدسون آلهة .. صنعوها بايديهم .. لا تضر ولا تنفع .. ولا تبصر ولا تسمع .. فما هم الا اصنام قد هامت فى اصنام .. وكانوا اول محنة له فى حياته الرسالية .. بعد محنته مع اخوته .. قبل نزول الوحى اليه .. ولكن قيل « ربما كمنت المنن فى المحن » فلولا كيد اخوته له .. لما القى فى الجب .. ولو لم يلق فى الجب .. لما وصل الى ما وصل اليه من ملك مصر .

والانسان مجرد من معرفة نتائج الاحداث فى حياته ، وهل هى خير له ام شر له !

والله سبحانه وتعالى ـ يقول « عسى ان تكرهوا شيئا وهو خير لكم » .. والعكس .. بل ويقول جل شانه « فعسى ان تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا » .. ويقول ايضا ، « ويدعو الانسان بالشر دعاءه بالخير وكان الانسان عجولا » .

ولعل هذا الاحساس عند المؤمن فقط ، هو الذى يجعله سعيدا .. فى السراء والضراء بينه وبين ربه ـ فهو يعلم أن ربه به رءوف رحيم .. فاذا كان الشر فى ظاهر الحال .. الا انه يرى الخير كامنا فيه .

* * *

وهكذا بدا يوسف ـ عليه السلام ـ يبلغ القوم رسالة الاسلام لله خالق السماوات والأرض .. ومدبر ما بين السماوات والأرض .. والمحيط بما فوق أو تحت السماوات والارض .

وقد ضرب القرآن الكريم لنا مثلا من مواقف يوسف ـ عليه السلام ـ عندما دخل معه السجن فتيان .. وطلبا منه تفسيرا لرؤيا كل منهما .. وكان رده عليهما .. لا صلة له مطلقا بما سألاه عنه ،فبعد أن سرد كل منهما رؤياه « قال لا يأتيكما طعام ترزقانه الا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما ذلكما مما علمنى ربى انى تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون واتبعت ملة ابائى ابراهيم واسحاق ويعقوب ما كان لنا ان نشرك بالله من شىء ، ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون .. يا صاحبى السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار .. ما تعبدون من دونه الا اسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما انزل الله بها من سلطان ان الحكم الا لله أمر الا تعبدوا الا اياه ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون » وبعد كل هذا قال « يا صاحبى السجن أما احدكما فيسقى ربه .. الخ الآيات ردا على سؤالهما فى تفسير رؤياهما » ..

وبتلك الطريقة هاجم يوسف ـ عليه السلام ـ اصحاب القافلة ـ بعد اخراجه من الجب مباشرة ـ مهاجمة لا هوادة فيها ولا لين .. وأصحاب العقائد الفاسدة .. ليس من السهل جلاء الصدأ العالق بأفكارهم .. والران المخيم على افئدتهم .. والاكنة المحيطة بقلوبهم .. فاعتبروه بلاء لم ينز لعليهم من السماء .. وانما انشقت لهم عنه الارض .. فزهدوا فيه .. وكرهوا بقاءه معهم .. فباعوه بدراهم قليلة . قال ابن عباس بعشرين درهما .

وتعددت الروايات عن الثمن الذى بيع به .. فبعضهم قال عشرين دينارا وزوجا من النعال وثوبين أبيضين .. وقال آخرون : ادخلوه السوق .. فترافعوا فى ثمنه .. حتى بلغ وزنه مسكا وحريرا .. حيث اشتراه قطفير (١) أو إطفير .. وهو العزيز الذى كان على خزائن مصر .. جاءت هذه الآراء فى جميع كتب التفسير ، فكيف نلائم بين الرأيين الآخرين .. وبين أخبار الله بأنهم باعوه بثمن بخس ؟ « وشروه بثمن بخس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين » .

اللهم الا اذا فهمنا .. ان مالك الخزاعى .. تخلص منه بعشرين درهما كما قرر ابن عباس والسدى ـ بمجرد دخوله مصر .. وان الذى اشتراه عرضه بسوق الرقيق .. فاشتراه العزيز بهذا الثمن الغالى من المسك والفضة والحرير .

وجاء فى قصص الأنبياء ، للأستاذ عبد الوهاب النجار ، أن الذى اشتراه فى مصر هو رئيس شرطة المدينة ، وهو الذى قال لامرأته اكرمى مثواه .. واسمه « فوطيفــار » واسم منصبه فى العبرية « سرهاطباحيم » أى رئيس الشرطة .

والواضح ان فوطيفار هذا هو نفسه قطفير .. وهو صاحب لقب العزيز .

وقال قطفير لامراته « اكرمى مثواه عسى ان ينفعنا او نتخذه ولدا » ٢١ يوسف .

وعن عبد الله ابن مسعود :

افرس الناس ثلاثة : العـزيز حين تفـرس فى يوسف وقال لامراته اكرمى مثواه .. والمراة التى انت موسى ، فقالت لابيها يا ابت استاجره .. وابو بكر حين استخلف عمر (٢) .

وكان قطفير هادئا وديعا .. لم يرزق ولدا ولا بنتا .. فاتخذه ولدا (٣) .. وكان يوسف اثيرا عنده .. فجعله صاحب امره ونهيه .. والرئيس على خدمه .. والمتصرف فى بيته .

وفى نفس الوقت ، رعاه الله برعايته .. وافاض عليه من علمه وحكمته .. واسبغ عليه من نوره وبركته .. « وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض ، ولنعلمــه من تأويل الأحاديث ، والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون » ٢١ يوسف .

وقال الحكماء حول تلك الآية :

حقا الله « غالب على امره » حيث امره ابوه الا يقص رؤياه على أخوته .. فغلب أمر الله حتى قص .. واراد اخوته قتله .. فغلب امر الله حتى صار ملكا وسجدوا بين يديه .. واراد اخوته ان يخلوا لهم وجه ابيهم فغلب امر الله حتى ضاق عليهم قلب ابيهم .. وذكره بعد عشرات السنين فقال « يااسفا على يوسف » .. وظنت امراة العزيز أنها غلبتــه عندما سـبقته بالاتهام أمام زوجهــا .. فغلب امر الله وقال لها زوجهــا « وأستغفرى لذنبك انك كنت من الخاطئين ».. **ثم دبر يوسف لنفسه للتخلص من السجن بذكر الساقى .. فغلب أمر الله .. ونسى الساقى .. ولبث يوسف فى السجن بضع سنين ..**

□ □ □

---

(١) القرطبى ٢١/يوسف .

(٢) القرطبى ٢١/يوسف .

(٣) ذكر هذا ابن عباس وابن اسحاق ـ القرطبى ٢١/

٣ قصة الحب المجنون

وبلغ يوسف أشده ، ونما عوده فى بيت قطفير .. وكان رائع الحسن .. ساطع الجمال وقالوا : أن نسبة الجمال بينه وبين الناس .. كالنسبة بين القمر ليلة البدر وبين الكواكب .

وقيل : كان يوسف اذا سار فى ازقة مصر .. يرى تلألؤ وجهه على الجدران .. كما يرى تلالؤ نور الشمس من الماء عليها . كان حسن الوجه .. جعد الشعر .. ضخم العينين .. مستوى الخلق أبيض اللون .. غليظ الساعدين والعضدين خميص البطن .. اذا ابتسم رايت النور من ضواحكه .. واذا تكلم رايت فى كلامه شعاع الشمس من ثناياه .. لا يستطيع احد وصفه .. وكان حسنه كضوء النهار عند الليل .. وكان يشبه آدم عليه السلام يوم خلقه الله ونفخ فيه من روحه قبل أن يصيب المعصية .. وقيل انه ورث ذلك الجمال من جدته ساره .. وكانت قد أعطيت سدس الحسن وقال — صلى الله عليه وسلم : فى حديث الاسراء من صحيح مسلم « فاذا أنا بيوسف .. اذا هو قد اعطى شطر الحسن » (١) .

وعلقت بذرة حب صغيرة .. بقلب راعيل زوجة العزيز قطفير .. من يوم أن وقع بصرها على يوسف ويسميها بعض المفسرين — زليخا .

دخل منزلها فى مقتبل شبابه .. وهو على تلك الصورة من الحسن الفاتن .. والجمال الباهر .. وكلما شب .. شبت معه تلك البذرة حتى نبتت وأورقت وامتدت جذورها الى أعماق اعماق قلبها .. واستطالت اغصانها الى شاهق خيالها وأفكارها .

ثلاثة عشر عاما ، لاهم لها .. الا النظر الى اجمل جسم واكمل قوام أبصرته عيناها ، والا انفناء فى أشف روح تغلغلت فى شغاف قلبها .

كل هذا وهو سابح فى بحار من العلم والحكمة « ولما بلغ أشده آتيناه حكما وعلما » ٢٢ يوسف .

وعن الحسن : من احسن عباده ربه فى شبيبته .. آتاه الله الحكمة فى اكتهاله .

* * *

وكلما ارادت راعيل أن تفتح له بابا من أبواب الغزل والغرام .. طمعا منها فى أن يبادلها حبا بحب .. وهياما بهيام .. لم تجد منه غير النصح والاعراض .. والتذكير بالمثل والقيم والعفة والوفاء .

وقد روى السدى وبن اسحاق : لما ارادت امراة العزيز مراودة يوسف عن نفسه .. وتشويقه الى نفسها قالت له : يايوسف ، ما احسن شعرك : قال : هو أول شيء ينتثر من جسدى ، قالت : ما اجمل عينيك : قال : هما أول ما يسيل على الارض من جسمى ، قالت :

---

(١) القرطبى ١٩/يوسف .

(٢) من الثعلبى والقرطبى وغيرهما ٢٣/يوسف .

ما أبهى وجهك : قال : أنه طعام الدود . فلم تزل تأمره مرة على استحياء .. ومرة فى جلاء .. وتدعوه الى اللذة .. وهو شاب شبق الشباب وهي جميلة رائعة الحسن ..

ظلت بطول هذه السنين تعرض عليه مفاتن جسمها بين الحين والحين ..وتلاحقه فى الليل والنهار .. عله يتأثر أو يلين .. ولكنه فى حصن حصين .. وركن ركين .. يدعوها دائما الى العفة والوقار .. والبعد عن الدنس والصغار .. بل ويطمع فى قرارة نفسه .. ان ينتشلها من سوق الفسوق .. ويذكرها بالوفاء لسيدها الذى أكرم مثواه .. ورعاه واجتباه .. وينبهها الى عالم السر والنجوى، والمحب لا يفيده النصح ولا يزيده أعراض الحبيب الا اشعالا لنار حبه .. واذكاء للوجد فى قلبه .. وخاصة النساء .. وهن حبائل الشيطان ..

ادركت انه لافائدة تجدى مع هذا الانسان وذهبت كل حيلها .. ووسائل اغرائها سدى .. وتحطمت أمواج عواطفها الجياشة .. أمام هذا الجبل الراسخ .. والطود الشامخ .. فقررت فى نفسها أمرا ..

***

هيأت نفسها ، معلنة الحرب عليه .. فى غير هوادة ولا لين .. وغلقت الأبواب بالاقفال .. وكانت سبعة متتابعة . على الطريقة الفرعونية.. وبدأت المعركة شرسة قاسية..فى وحشية شهوانية وسجال مجنون .. ولكنه استعان بايمانه .. وتحصن بيقينه .. واستعاذ بربه .. ومن أستعاذ بالله فقد أستعاذ بمعاذ .. ونظر اليها فى انفة واشمئزاز .. قائلا : كيف يكون هذا ، وزوجك ربى أكرم مثواى ؟ اذا أكون خائنا له .. ظالما لنفسى « وغلقت الأبواب وقالت هيت لك ، قال معاذ الله انه ربى احسن مثواى ، انه لا يفلح الظالمون » ٢٣ / يوسف .

وذكر الثعلبى والقرطبى رواية عن على بن أبى طالب : قال : قامت امرأة العزيز الى الصنم فظللت دونه بثوب .. فسألها يوسف عن ذلك .. قالت : استحى أن يرانا .. فقال لها : أتستحين مما لايسمع ولايبصر ولايفقه .. ولا استحى من السميع البصير .. العليم بذوات الصدور ؟ .. ولكنها أصرت على تنفيذ غرضها مهما كان الثمن وعلى أية نتيجة تكون . وهمت به لتحتويه فى احضانها ، ولتأخذه بين شعبها .. ولكنه يوسف المعصوم الذى قال الله عنه « أنه من عباده المخلصين » بفتح اللام ، أى ن الله هو الذى استخلصه لنفسه .. فكيف يستخلص الله من البشر من فى قلبه ذرة من غفلة .. او لمحة من تردد ؟ .. فلم يجد يوسف مناصا من البطش بها .. ليمنعها عن نفسه .. ويمنع نفسه منها وهم يرفع يده فعلا ليضربها ولكن الله الذى استعاذ به .. اراد ان يصرف عنه السوء .. دون أن يرتكب شيئا قد يكون سببا فى اتهامه.. او الايحاء بشبهة فى هدفه من ضربها . فسمع فى التو حركة بالخارج .. توحى بمقدم ربه - العزيز - فجرى الى الباب مسرعا للقائه .. وجرت هى خلفه لتحول بينه وبين الفرار منها.. ولحقته من قميصه من الخلف .. فقطع القميص فى يدها .. ووصل الى الباب ليجد ربه وابن عمها هناك « ولقد همت به ، وهم بها لولا ان راى برهان ربه ، كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء انه من عبادنا المخلصين » ٢٤ يوسف.

***

وقد ورد لفظ « رب » فى هذه القصة بمعنى العزيز أو الملك ، فى عدة مواقع .. فمثلا « انه ربى أحسن مثواى » يقصد العزيز لأنه قال لامراته أكرمى مثواه .

وايضا عند تفسيره رؤيتى صاحبى السجن ، قال « اما احدكما فيسقى ربه خمرا » يقصد الملك .. وكذلك « قال للذى ظن أنه ناج منهما اذكرنى عند ربك » ومثلها عندما جاءه أمر العفو الملكى لخروجه من السجن .. قال لصاحبه : « ارجع الى ربك فاسأله ما بال النسوة » .

اليس معنى الرب فى كل هذه الآيات هو الملك ؟

فكان المقصود بالبرهان .. فى قوله تعالى : « وهم بها لولا أن راى برهان ربه » هو الدليل الحركى والصوتى .. الذى يحدث عادة عند وصول العزيز الى القصر - كما بينا سابقا .. وان كان هذا المعنى لم يرد صراحة فى اى من التفاسير .. ولكن يؤيده كل من المنطق ، والواقع ومكانة الصديق ، وصريح النص .

وقد قرأت تعليقا على هذا الموقف ، للامام حافظ الدين عبد الله بن أحمد النسفى فى كتابه « مدارك التنزيل وحقائق التأويل » يقول فيه : ومن حق القارىء - يقصد قارىء القرآن - ان يقف على : « وهمت به » ثم يبدأ قراءته ب « وهم بها لولا أن راى برهان ربه » وفيه أشعار بالفرق بين الهمين .. اهـ .

وقد ورد لفظ « الهم » في كثير من آيات الله بمعنى الاعتداء والضرب مثل « اذ هم قوم يبسطوا اليكم ايديهم فكف ايديهم عنكم » و « وهمت كل امة برسولهم » و « وهموا باخراج الرسول » . فكان هم يوسف – عليه السلام – اى همه بضربها دفاعا عن نفسه .

وقد سماه الله مخلصا .. فعلم بالقطع .. انه ثبت في ذلك المقام .. وجاهد نفسه مجاهدة ولى العزم .. ناظرا في دلائل التحريم .. حتى استحق من الله الثناء .. وخاصة أن ثناء الله عليه في نفس هذا الموقف « لولا أن رأى برهان ربه ، كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء انه من عبادنا المخلصين »

فكيف يتبادر الى اذهاننا غير هذا ؟ .. كيف نسمح للشيطان ان يزغ في قلوبنا عن يوسف – عليه السلام – اقل هفوة .. او ادنى خطره .

وقد قال الشاعر : –

همت ولم أفعل ، وكدت وليتنى
تركت على عثمان تبكى حلائله

وقال جميل بثينه :

هممت بهم من بثينه لوبدا
شفيت غليلات الهوى من فؤاديا

* * *

وهذه أم موسى يقول الله عنها « ان كادت لتبدى به لولا أن ربطنا على قلبها » والمعروف أنها لم تبد به ، وهذا يؤدى بنا الى معنى جديد هو انه لم يهم بها مطلقا ، حتى ولا بالضرب بسبب ظهور امارات وصول العزيز ..

□ □ □

٤ أباطيل وحقائق

جاء فى اغلب كتب التفسير عن ((وهمت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه)) تأولات يستحى قلم الأديب أن يخطها .. وإن كان البعض قد أورد « هم يوسف » بطريقة يكون فيها شيء من التأدب فى حقه عليه السلام مثل :ـ

قول النسفى : هم بها هم الطباع مع الامتناع وقال : قاله الحسن . وقال الشيخ ابو منصور وهم بها هم خطرة .. ولا صنع للعبد فيما يخطر بالقلب .. ولا مؤاخذة عليه .. ولو كان همه كهمها .. لما مدحه الله ـ تعالى ـ بأنه من عباده المخلصين .

وقول القاضى ناصر الشيرازى صاحب تفسير البيضاوى : المراد بهمه عليه السلام .. ميل الطبع .. ومنازعة الشهوة .. لا القصد الاختيارى .. وذلك مما لا يدخل تحت التكليف بل الحقيق بالمدح .. والاجر الجزيل من الله .. من يكف نفسه عن الفعل عند قيام هذا الهم .. او مشارفة الهم .

غير ان هؤلاء المفسرين ، ومعهم غيرهم كثير، مثل الأمام الزمخشرى صاحب تفسير الكشاف، والالوسى صاحب « روح المعانى » والقرطبى .. كتبوا أيضا آراء مدسوسة على يوسف عليه السلام ـ وهى بالتأكيد مدسوسة عليهم فى كتبهم ومازال قلمى الى هذه اللحظة يستحى من ذكرها، ولكننى سأجبره على كتابة بعضها موجزا ـ فى استحياء ـ حتى نتحرز فى أفهامنا ، اذا عرضت لنا .. فمنها مثلا : بعد استغفار الله تعالى . أن يوسف حل تكة سراويله .. وقعد بين شعبها الأربع .. وفسروا البرهان .. بأنه سمع صوتا اياك واياها .. فلم يكترث له .. فسمعه ثانيا فلم يعمل به .. فسمع ثالثا : أعرض عنها ، فلم ينجع فيه .. حتى مثل له يعقوب عاضا على انملته .. وقيل : ضرب بيده فى ظهره ، فخرجت الشهوة من انامله .

وقالوا كل ولد يعقوب له اثنا عشر ولدا ، الا يوسف .. فأنه ولد له أحد عشر ولدا من أجل ما نقص من شهوته .. حين هم بها . وقيل : صيح به يايوسف .. لا تكن كالطائر .. كان له ريش .. فلما زنا قعد لا ريش له :

أى والله وردت كل هذه الآراء فى اغلب كتب التفسير ، وابى القلم أن يكتب آراء اشد فسقا.. واكبر فجورا . وان كان الأمام الزمخشرى ـ صاحب الكشاف ـ بعد أن ذكر هذه الآراء .. عاد وكذبها .. بعبارات قوية .. يشكرها له العلم والدين .

ولكن من المؤلم اكثر وأكثر .. ويؤلم كل مؤمن غيور على رسل .. وعلى كرامتهم .. وعلى تفكير المسلمين ومنطقهم .. رواية وردت فى كثير من كتب التفسير أيضا .. ولكن كتاب النسابورى أوردها منسوبة الى ابن عباس .. وهو منها براء ، وهذه الرواية تقول : عندما همت به وهم بها .. فاذا بكف قد بدت فيما بينهما .. ليس لها عضد ولا معصم .. مكتوب فيها « وان عليكم لحافظين كراما كاتبين يعلمون ما تفعلون .. فقام هاربا فارا .. فلما ذهب عنهما الروع والرعب .. عادت وعاد .. واذا بالكف قد بدت بينهما .. ليس لها عضد ولا معصم .. مكتوب فيها ! « واتقوا يوما ترجعون فيه الى الله » .. فقام هاربا وقامت .. فلما ذهب عنهما الرعب .. عادت وعاد .. واذا الكف بدت بينهما ليس لها عضد ولا معصم .. مكتوب

فيها « ولا تقربوا الزنا انه كان فاحشة ومقتا وساء سبيلا » ثم قال الله تعالى « كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء ، انه من عبادنا المخلصين » اهـ .

الى ان يذهب بعقولنا وافكارنا .. ويجعلنا نتبنى هذا الهراء والسخف .. في كتب يدرس ويذكر فيها بيننا .. بل ويتحدث بها الكبير ممن يدعون العلم .. ويباشرون الوعظ والارشاد .

وقد قال صاحب الكشاف

فهل هذا الكلام يقال من اهل العلم والتوحيد.

.. ولو وجدت من يوسف عليه السلام ـ ادنى زله لنعيت عليه .. وذكرت توبته واستغفاره .. كما نعيت على غيره من الأنبياء .. كيف وقد اثنى الله عليه .. وسمى مخلصا .. واستيقن من انه الثناء فيما انزل من كتب الأولين .. ثم في القرآن وهو حجته على سائر الكتب .. ومصداق لها .. وقد نزل فيه سورة كامله عن قصته ـ عليه السلام ـ ليجعل له لسان صدق في الآخرين .. كما جعله لجده ابراهيم ـ عليه السلام ـ وليقتدى به الصالحون الى آخر الدهر .. في العفه وطيب الازار .. والتثبت في مواقف العثار .. فأخزى الله اولئك في ايرادهم ما يؤدي الى ان يكون انزال الله السورة .. التي هي احسن القصص .. في القرآن العربي المبين .. ليقتدى بنبى من انبياء الله في القعود بين شعب الزانية ، وفي حل تكة سراويله للوقوع عليها .. وفي ان ينهاه الله ثلاث كرات .. ويصاح به من عنده ثلاث صيحات .. بقوارع القرآن .. وبالتوبيخ العظيم .. وبالوعيد الشديد .. ولو ان اوقح الزناة .. واحدهم حدقة .. واجلحهم وجها .. لقى بادنى ما لقى به نبى الله .. مما ذكروا .. لما بقى له عرق ينبض ، ولا عضو يتحرك .

فياله من مذهب ما افحشه .. ومن ضلال ما ابينه ..

واعجبتني لطيفة ذكرها الأستاذ عبد الوهاب النجار في كتابه « قصص الأنبياء » عن الامام الفخر الرازي خلاصتها : ان يوسف شهد الله تعالى ببراءته بقوله تعالى : « انه من عبادنا المخلصين » .

وشهد الشيطان ببراءته بقوله : « فبعزتك لاغوينهم أجمعين ، الا عبادك منهم المخلصين » .
وشهد ببراءته الشاهد من أهل العزيز اذ قال : « فلما راى قميصه قد من دبر قال انه من كيدكن ان كيدكن عظيم » ..
وشهد ببراءته النسوة اللاتى قطعن ايديهن بقولهن « ما علمنا عليه من سوء » .
وشهد ببراءته زوجة العزيز بقولها « الآن حصحص الحق انا راودته عن نفسه وانه لمن الصادقين » .

ونحن نضيف الى كل تلك الشهادات .. اعتراف زوجة العزيز امام النسوة في الوليمة .. التي دعتهن اليها .. بعد انتشار الشائعات .. « قالت فذلكن الذي لمتنني فيه ، ولقد راودته عن نفسه فاستعصم »

فالذي يريد ان يتهم يوسف بالهم .. عليه ان يختار أن يكون من حزب الله .. أو من حزب الشيطان .. وكلاهما شهد ببراءة يوسف ..

روى ثعلب انه لما هرب يوسف .. جعل فراش القفل يتناثر ويتساقط .. حتى خرج من الابواب السبعة . ووصل الى باب المدخل .. وهي تجري خلفه لاهثة .. تحاول منعه من الخروج .. هو يسعى الى الهرب .. وهي تجد في الطلب .. ووجدا قطفير ـ زوجها ـ قد وصل الى الباب ومعه ابن عمها . فرآهما على هذا الحال . فارتبكت برهة .. ثم انفجرت بالبكاء والنحيب ـ والدمعة أكبر اسلحة المرأة ـ فقال لها زوجها .. ماذا جرى يا راعيل ؟ .. قالت « ما جزاء من اراد بأهلك سوءا ، الا ان يسجن او عذاب اليم » ٢٥ / يوسف .

فهي تطلب له السجن او الضرب بالسياط .. لتشفى منه غليلها .. وتهدهد من لواعج فؤادها **.. وفي نفس الوقت تبرر موقفها .. امام زوجها وابن عمها .**

وقد قال بعض العلماء : أنا أخاف من النساء .. أكثر مما أخاف من الشيطان .. لأن الله تعالى قال : « ان كيد الشيطان كان ضعيفا » وقال للنساء : « ان كيدكن عظيم » .

وجهت راعيل اليه الاتهام .. بأنه كان يريد منها الفحشاء .. وانها ابت وامتنعت وتعففت .. وتطلب له عقابا صارما .. فاتهمته بخيانة سيده وولي نعمته .. فلم يجد مناصا من الدفاع عن نفسه . ولو لم تقل هي هذا لعصم يوسف نفسه عن اظهار جرمها .. فقال « هي راودتني عن نفسي » ونازعتني قميصي فقطعته » . فألهم الله ابن عمها الفصل في الأمر ، لمعرفة أيهما

الصادق فى دعواه . وقد ألقى الله الشهادة .. على لسان ابن عم لها .. من أهلهـا .. لتكون اوجب للحجـة عليها .. واوثق فى براءة يوسف فقال ابن عمهـا « ان كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين ، وان كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين » ٢٦ ـ ٢٧ يوسف / بمعنى ان كان قميصه مقطوعا من امام .. دل ذلك على انه هو الذى كان يواجههـا لارتكاب الفحشـاء .. أما ان كان قطع القميص من الخلف .. دل على انه كان يهرب منهـا .. وهى تلاحقـه .. فوجدوا القميص مقطوعا من خلف .. ودل هذا على براءته .. فقال لها ابن عمها ! انه من كيدكن « ان كيدكن عظيم » ٢٨ / يوسف / وسمى كيد النسـاء عظيما .. لأن كيدهن الطف واعلق بالقلب .. واشد تأثيرا على النفس .. ولأنهن يواجهـن به الرجـال .. والشيطان ساعدهن فى التخطيط ...

ثم اتجه الى يوسف قائلا : اكتم هـذا الأمر فى نفسك .. ولا داعى للتحدث به .. حفاظا على سمعة رجل اكرم مثواك .. اما انت يا راعيل ، فاستغفرى لذنبك ، وعودى الى ربك ، عسى ان يغفر لك هذا الخطأ .. « يوسف اعرض عن هذا واستغفرى لذنبك انك كنت من الخاطئـين » ٢٩ / يوسف .

وقيل ان العزيز كان رجلا حليما ؛ وروى انه كان قليل الغـيرة ، وتلك صفة لا تجوز فى حق المؤمن .. فالمعصوم عليه الصلاة والسلام يقول : « المؤمن يغار .. وانا أغار .. والله اشد غيرة » .. ولكن العزيز لم يكن مسلما .. وقال صاحب تفسير النسفى : كان العزيز مطواعا لزوجته .. وجملا ذلولا .. زمامه فى يدها .

اما ما قيل من ان الشاهد كان طفلا رضيعا انطقه الله .. فهذا رأى لا يقبل شكلا ولا موضوعا .. ولا يستحق شرف النقاش .. لظهور التكلف فيه .. بلا سبب .. ولا دليل .. تطمئن اليـه النفس .. ويستسيغه العقل ..

□ □ □

٥ شائعات ووليمة

بدأ الحديث همسا بين خمس نسوة ، هن : زوجات الحاجب والساقى والخباز والسجان وصاحب الدواب .. ولهن اتصال بالقصر .. فعلمن الخبر .. ثم انتقل الحديث رويدا رويدا .. حتى صار حديث النساء فى المدينة .. فى منازل اكابر القوم .. وفى احفالهن .

قالوا : امراة العزيز .. احبت عبدها الكنعانى .. واصبحت والهة به .. مفتونة بجماله .. وكيف يبلغ الأمر بها الى هذا التردى .. وهى زوجة عزيز مصر .. فحب عبدا حقيرا ؟ والعزيز هو الملك بلسان العرب .. انها لفى غى وضلال .. ما كان لها أن تتردى فيه .

« وقال نسوة فى المدينة امراة العزيز تراود فتاها عن نفسه .. قد شغفها حبا .. انا لنراها فى ضلال مبين ٣٠ / يوسف .

« وشغفها » اى خرق حبه شغاف قلبها ، حتى وصل الى الفؤاد ، والشغاف حجاب القلب .. وقيل جلدة رقيقة .. يقال لها لسان القلب .. **وقال النابغة :**

وقد حال هم دون ذلك والج

مكان الشغاف تبتغيه الأصابع

وبلغ راعيل نبأ الأحاديث التى تعصر شرفها عصرا .. وتمزق كرامتها تمزيقا .. فدعتهن الى وليمة بقصرها وقيل دعت أربعين .. منهن الخمس المذكورات .. وجهزت لهن مكانا .. يتكئن فيه للطعام .. وكانت تلك عادة المترفين .. ولهذا نهى ان يأكل الرجل متكئا .

وقال جميل :

فظللنا بنعمة واتكأنا

وشربنا الحلال من قلله

وقال مجاهد : المتكأ هو الطعام الذى لا يؤكل الا بالسكين .. اعدت راعيل متكأ للنساء من النمارق الفاخرة وقصدت بتلك الهيئة .. وهى جلوسهن متكئات .. والسكاكين فى أيديهن .. أن يدهشن عند رؤية يوسف .. ويشغلن عن نفوسهن .. فنقع الأيدى على الأيدى فيجرحنها .. لأن المتكىء اذا بهت لشىء .. وقعت يده على يده .

❋ ❋ ❋

واتكأ النسوة فى مجلسهن .. ومع كل واحدة سكينا وفاكهة .. يقطعنها .. وأدخلت عليهن يوسف .. وهن على هذا الحال فكان دخوله كصدمة كهربية .. أصابت قلوبهن .. فأكبرنه واعظمنه .. وهبن ذلك الحسن الرائع .. والجمال الساطع .. وصارت السكاكين تجرح فى أيديهن .. دون احساس منهن أو شعور .

« فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن وقلن حاش لله ما هذا بشرا ان هذا الا ملك كريم » ٣١/ يوسف / وقيل « أكبرن » بمعنى حضن ، والهاء للسكت .. يقال أكبرت المرأة اى حاضت .. وحقيقته .. دخلت فى الكبر .. فهى بالحيض تخرج من حد الصغر الى حد الكبر ، **وأخذ أبو الطيب هذا المعنى فى قوله :**

خف الله واستر ذا الجمال ببرقع

فان لحت حاضت فى الخدور العوائق

وقال شاعر آخر :

نأتى النساء على أطهارهن ولا

نأتى النساء اذا أكبرن اكبارا

نفين عنه البشرية .. لغرابة جماله .. وفتنة حسنه .

وهنا قالت راعيل « فذ لكن الذى لمتننى فيه» ولم تقل فهذا الذى .. مع انه حاضر بينهن .. رفعا لمنزلته فى الحسن .. واستحقاق أن يحب ويفتن به .. وقد كن يقلن عنها : انها عشقت عبدا كنعانيا حقيرا .

ثم اعترفت وباحت بذات نفسها .. امنه النميمة عليها بعد أن قطعن ايديهن .. كما قال الشاعر :

لا تخف ما فعلت بك الاشواق
واشرح هواك فكلنا عشـــاق

واسترسلت قائلة « ولقد راودته عن نفسه فاستعصم » والاستعصام بناء المبالغة دليل على الامتناع البليغ .. والتحفظ الشديد .. كأنه فى عصمة .. وهو يجتهد فى الاستزادة منها .. وهذا بيان جلى واضح على أن يوسف برىء مما فسر به أولئك الفريق من الهم والبرهان .

وتبرع النســـاء فقـــالوا : اطع مولاتك .. فقالت « ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين » ٣٢ / يوسف .

عاودته المراودة امامهن .. وهتكت جلباب الحياء .. وأوعدته بالسجن ان لم يفعل .. لم تخش لوما ولا مقالا ..

أى ليكون مع اللصوص والآبقين والقتلة .. كما سرق قلبى .. وابق منى .. وسفك دمى بعدم استجابته لى .. كما منعنى من كل ذلك .. ولم يرض بمتلى فى الحرير على السرير .. يكون جزاؤه فى السجن على الحصير .. فلما ســـمع تهـديدها ووعيـدها .. قال « رب السجن أحب الى مما يدعوننى اليه » وان كان الأولى به أن يسأل الله العافية .

وقد حكى أن يوسف ــ عليه السلام ــ لما قال « السجن أحب الى » أوحى الله اليه « يا يوسف أنت حبست نفسك حيث قلت ، السجن أحب الى ولو قلت العافية أحب الى لعوفيت » (١) .

واذكر فيما قرأت ان رسول الله صلى الله عليه وسلم زار مريضا صار مثل الفرخ من شدة المرض فحزن من أجله الرسول ، وقال له : (يا فلان أما كنت تدعو الله بشىء) ؟ قال : يا رسول الله كنت اقول : اللهم ان كنت كتبت على عذابا فى الآخرة .. فعجله لى فى الدنيا .. فغضب ــ عليه الصلاة والســـلام ــ وقال « يا سبحان الله لا تطيق » وكررها ثلاثا ثم قال « أما كنت تقول ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسـنة وقنا عذاب النار » !!

فرع يوسف الى الله فى طلب العصمة قال « والا تصرف عنى كيدهن أصب اليهن وأكن من الجاهلين ، فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن انه هو السميع العليم » ٣٣ ــ ٣٤/ يوسف .

« وصـــبا » اى مال واشتاق .. قال زيد ابن ضبة :

الى هنــد صـــبا قلبى
وهنـــد مثلهـــا يصـــبى

اى ان لم تلطف بى فى اجتناب المعصية .. وقعت فيها .. وهذا منتهى انكار الذات .. فان احدا .. لا يمسع عن معصـــيه الله .. الا بعون الله .

ثم بدا لهم من بعد تاكدهم من آيات براءته وهى القميص .. وقطع الأيدى .. والاعتراف الصريح منها أمام ضيفانها .. بدا لهم بعد كل هذه الدلالات .. التى تشير الى براءته .. ان يدخلنه السجن لابداء عذر الحال .. وارخاء الستر على القيل والقال .. وقطعا لدابر الشائعات التى سرت فى الشعب مسرى الريح .

وما كان ذلك الا بالحاح المرأة على زوجها .. وكان مطواعا لها .. وقد طمعت فى أن يذلله السجن ويسخره لها .. أو خافت عليه العيون .. وظنت فيه الظنون .. فألجأها الخجل من الناس .. والوجل من البأس .. ان رضيت بالحجاب مكـــان خـــوف الذهاب .. لتشـــتفى بخبرة .. اذا منعت من نظره .

« ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين » ٣٥ / يوسف .

***

وقال الأستاذ عبد الوهاب النجار : استعانوا بالقوة القضائية .. لزجه فى الســـجن .. لأن رؤية الآيات على برائته .. تكون أمام القضاء.. وهذا اما رسمى أو عرفى .. ولعلهم استعملوا النوع الاخير .. وهو قضاء خير منه الاستبداد لأن الاستبداد يجور فاعله .. على أن عمله جور سافر غير مقنع .. **ولكن القضاء الذى يجور .. ولبس ثوب العدل .. هو شر انواع القضـــاء .**

***

---

(١) القرطبى ٣٣/يوسف .

○ يوسف
خلف الأسوار

1 بلاء الحب

ودخل يوسف السجن مظلوما .. ولكنه مرتاح النفس .. منشرح الفؤاد .. مطمئن .. القلب .. حيث وفقه الله مع اول خطوة خطاها داخل الأسوار فيقول :

« رب ادخلني مدخل صدق واخرجني مخرج صدق ، واجعل لي من لدنك سلطانا نصيرا » .

فأحس في قرارة نفسه أن عين الله ترعاه .. وأن السماء تحنو عليه .. ووجدها فرصة لاتمام رسالته .. وبدأ بالتطبيق العملي مع البيئة التي ضم اليها .. بيئة المسجونين .

وروى انه كان اذا مرض رجل منهم قام عليه واذا ضاق اوسع له .. واذا احتاج جمع له .. وقال قتاده « كان في السجن ناس قد انقطع رجاؤهم ، وطال حزنهم .. واشتد بلاؤهم » **فجعل يقول** : « ابشروا واصبروا تؤجروا .. ان لهذا لأجرا » ..

فقالوا : بارك الله عليك .. ما احسن وجهك وما أعظم خلقك لقد بورك لنا في جوارك ... فمن انت ؟

قال : انا يوسف بن يعقوب بن اسحاق ابن ابراهيم . . فقال له عامل السجن : « لو استطعت خليت سبيلك .. ولكن احسن جوارك فكن في اى بيوت السجن شئت ..

وحاول جماعة من أعداء الملك أن يسموه.. فاتفقوا مع خبازه واسمه « مجلب » وساقيه واسمه « بيوص » أن يدسا السم للملك في الطعام والشراب .. واغروهما بأموال كثيرة .. فوافق الخباز ووضع السم .. ولكن الساقي نكل وراجع فلم يفعل .

ولما حضر الطعام امام الملك .. قال له الساقي : لا تأكل فالطعام مسموم ، وهنا قال الخباز لا تشرب .. فالشراب مسموم .. فطلب الملك من الساقي أن يشرب فشرب .. ولم يصبه شيء .. كما طلب من الخباز أن يأكل فامتنع وأبى .. ولكن الملك جرب الطعام في بعض الدواب فماتت . فأمر بهما أن يدخلا السجن تحت التحقيق .

* * *

فلما وجدا يوسف في السجن التفا حوله ، وقالا له نحن نحبك من أول لحظة رأيناك فيها .. وذكر صاحب تفسير الكشاف ، أنه قال لهما : « أناشدكما الله الا تحباني .. فوالله ما أحبني أحد قط الا دخل على من حبه بلاء .. احبتني عمتي فدخل على من حبها بلاء الرق(1) ثم أحبني أبي فدخل على من حبه بلاء الجب .. ثم أحبتني زوجة صاحبي فدخل على من حبها .. بلاء السجن فلا تحباني » .. فقالا : انا لنرى فيك خلقا وخلقا .. ما رأيناهما من قبل ..

وقال الساقي : لقد رأيت بالأمس انني في بستان .. فاذا بأصل كرمة عليها ثلاثة عناقيد من عنب فقطفتها وعصرتها في كأس الملك .. وكان الكأس معي في الرؤيا .. وقال الخباز : أراني فوق رأس ثلاث سلال . فيها أنواع الأطعمة .. واذا سباع الطير تنهش منها .. **فما تأويل رؤيانا أيها المحسن الكريم ؟ .**

---

(1) احبته عمته صغيرا .. فدست عليه شيئا في ملابسه .. وادعت انه سرقه .. ليكون لها حق استرقاقه سنة .. كما كانت شريعتهم في هذا الحين .. وهذا سبب قول اخوته فيها بعد « قالوا ان يسرق فقد سرق اخ له من قبل » القرطبي ٧٧/يوسف .

« ودخل معه السجن فتيان قال احدهما : انى أرانى أعصر خمرا .. وقال الآخر : انى ارانى احمل فوق رأسى خبـزا تأكل الطير منه نبئنا بتأويله انا نراك من المحسنين » ٣٦ / يوسف .

* * *

وقبـل أن يجيبهمـا عن تأويل رؤياهم .. اراد أن يدعوهما ومن معهما فى السـجن الى التوحيد .. ويرشدهما الى الطريق المستقيم .. ودين الله القويم .. وتلك طريقة حملة الرسالات واصحاب المبادىء والدعوات .. يستغلون كل فرصة تسنح لهم لنشر كلمة الله .. طمعا منهم فى أن تخفق أعلام لا أله الا الله .. على جميع بقاع الدنيـا .. حتى فى اعماق السجون .. واتبع يوسف فى تحقيق هدفه عدة خطوات :

بدأ باخبارهم بالطعام الذى سيأتيهم ... وصدق فى خبره « قال لا يأتيكما طعام ترزقانه الا نباتكما بتأويله قبل أن يأتيكما » ...

فقالا : هذا فعل السحرة والكهنة قال : ما انا بساحر ولا بكاهن ، وانما ذلك مما علمنى ربى « انى تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون » ٣٧ / يوسف .

وانتقل بهم الى الخطوة التـالية .. وهى خطوة التوحيد .. التى تظهر واضحة فى قوله « واتبعت ملة آبائى ابراهيم واسحاق ويعقوب ما كان لنا أن نشرك بالله من شىء : ذلك من فضل الله علينـا وعلى النـاس ولكن أكثر النـاس لا يشكرون » ٣٨ / يوسف .

أظهر لهم أن هذا ابوحى يوحى اليه .. لأنه حفيد الأنبياء وسليل المرسلين .. وانتهى الموقف الخطابى ليقيم الحجة عليهم بالدليل المنطقى .. والبرهان العقلى .. فقال : ياصاحبى السجن أرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار » ٣٩/ يوسف .

وبرهن لهم أن ما يسمونه آلهة يعبدونها .. لا تستحق الألوهية .. ثم دعاهم الى الدين القيم دين ابراهيم (ما تعبدون من دونه الا أسـماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما انزل الله بها من سلطان ، **ان الحكم الا لله أمر ألا تعبدوا الا اياه** ذلك الدين القيـم ولكن أكثر الناس لا يعلمون **(٤٠ / يوسف) ..**

* * *

ثم قال للساقى ستخرج من سجنك هذا بعد ثلاثة أيام ، وتعود الى عملك فى قصر ربك - الملك وجعل عدد العناقيد الثلاثة .. هى عدد الايام التى يقضيها فى السـجن .. وقال للخباز ان السلال هى مدة بقائه أيضا فى السجن ، ولكنه سيصلب .. وتأكل كواسر الطير من راسه .. فقال الخباز : والله ما رأيت شيئا قال : رأيت او لم تر «قضى الأمر الذى فيه تستفتيان» (١).

وقـال بعض المفسرون : انهما رأيا هاتين الرؤيتين حقا .. وقال البعض الآخر انهما لم يريا شيئا .. ولكنهما كانا يريدان اختباره فقط .. فعندما فسرهما لهما قالا : اننا لم نر من ذلك شيئا .. ولكننا كنا نجرب علمك .. فقال لهما « قضى الأمر الذى فيـه تسـتفتيان » ٤١ / يوسف .

ولكن المتبادر الى الذهن .. ان السـاقى صادق فى رؤياه .. واما الخباز .. فانه اختلق رؤياه أسوة بصاحبه .. متوهما انها اكثر فائدة واحسن تأويلا .. وذكر النيسابورى فى كتابه والقرطبى فى تفسيره رواية يبدأ روايتها بعبدالله ابن حامد بن محمد الوزان .. وتنتهى بأبى رزين العقيلى .. انه سمع رسول الله صلى الله عليه وسـلم يقول « ان الرؤيا على رجل طائر مالم تعبر .. فاذا عبرت وقعت .. ان الرؤيا جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة » واحسـبه قال « لا نقصها الا على ذى رأى وعقل » وقال ايضا « الرؤيا لأول عابر » .

ثم أتجه يوسف - عليه السلام - الى الساقى وقال له « اذكرنى عند ربك » بمعنى تذكير الملك بانه سجن ظلما « فأنساه الشيطان ذكر ربه فلبث فى السجن بضع سنين » ٤٢/ يوسف ..

وصدق التأويل حيث خرج الساقى والخباز بعد ثلاثة ايام ليحكم على الخباز بالاعدام - صلبا - ويعود الساقى الى خدمة الملك ..

فمن الذى أنساه الشيطان ذكر ربه ؟ هل هو الساقى ؟ ام يوسف ؟

يقول البعض أن يوسف رفع شكواه الى الملك وبذلك نسى الله .. ويكون المعنى هنا أ انسى الشيطان يوسف ذكر الله ، وهذا المعنى لا نطمئن اليه النفس .. ولا يرتاح اليه الضمير .. فالتكلف ظاهر فيه .. وانما سـياق الآية يدل على ان

---

(١) القرطبى ٤١/يوسف .

الشيطان انسى الساقى ذكر يوسف عند الملك . فالضمير فى انساه يعود الى أقرب مذكور .

حتى لو فرضنا جدلا ان يوسف اخطأ ..

عندما طلب من الساقى بذكره الملك به .. يكون هذا هو السبب الذى مكن الشيطان من ان ينسى الساقى ذكر يوسف عند ربه بضع سنين .. والبضع بين الثلاث والتسع .. والمتفق عليه انه لبث فى السجن سبع سنين من تاريخ دخول رؤيى الساقى والخباز ..

وقد روى عن يونس عن الحسن قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « رحم الله اخى يوسف لولا كلمته مالبث (1) فى السجن مالبث » يقصد اذكرنى عند ربك .. وقد جاء هذا الحديث فى تفسير البيضاوى « رحم الله اخى يوسف لو لم يقل اذكرنى عند ربك لما لبث فى السجن سبعا » كما قال وهب بن منبه : اصاب ايوب البلاء سبع سنين .. وعذب بختنصر بالمسخ سبع سنين .. وترك يوسف فى السجن سبع سنين » (2) .

وذكرت التوراة ان يوسف ارتفع شأنه فى السجن .. وصار كشخص رئيسه .. وله الأمر والنهى فى كل النازلين فى بيت السجن .

* * *

□ □ □

(1) القرطبى والبيضاوى ٤٢/يوسف .

(2) الثعلبى والقرطبى ٤٢/يوسف .

٢ رؤيا الفرج

ورأى الملك رؤيا أفزعته .. ودعا الكهنة وأهل العلم فى بلده وقال لهم : رأيت سبع بقرات سمان .. خرجن من النهر .. وخرج بعدهن .. بقرات هزال ضعاف .. فأكل الضعاف السمان .. ورأيت أيضا سبع سنبلات خضراء مثمرة .. تخرج بجانبها سبع سنبلات جافة .. تلتف حول الخضراء المثمرة فتهلكها (وقال الملك انى أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف ، وسبع سنبلات خضر وآخر يابسات يا أيها الملأ أفتونى فى رؤياى ان كنتم للرؤيا تعبرون) ٤٣ / يوسف .

***

والملاحظ هنا أن الملك قال لهم : ان كنتم للرؤيا تعبرون .. قالها الملك بضم الباء ولم يقلها بتشديد الباء وكسرها .

ونفهم من هذا ان تأويل الرؤيا وليس تعبيرا .. بمعنى أن العالم الذى يتصدى لتأويل الرؤيا .. يجب ان تكون لديه القدرة على العبور والسباحة والغوص فى أعماقها .. ليصل الى رمزياتها ومراميها .. وليعبر بها من الصور الخيالية .. الى المعانى النفسانية وليست هذه القدرة موجودة عند الكهنة والعلماء .. الذين دعاهم الملك لعبور رؤياه ..

فقالوا ما هى الا أضعاف أحلام .. والأحلام غير الرؤيا .. فما هى الا أخلاط من الأفكار والأوهام والهواجس .. ونحن لا نعلم للأحلام تأويلا (**قالوا أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين) ٤٤ / يوسف .**

والضغث لغة .. هو ما جمع من أخلاط النبات .. ومنه « وخذ بيدك ضغثا فاضرب به ولا تحنث » أى خذ حزمة من خليط القش .

***

وكان فى مجلس الملك .. ذلك الساقى « بيوص » صاحب السجن « فتذكر يوسف بعد هذا الزمن الطويل .. وقال للملك : فى السجن يامولاى .. من يستطيع ان يخبرك بالتأويل الحق .. والرمز الصدق فى رؤياك .. وقد جربته بنفسى .. وصدق ما قاله لى وكأنه كان يرى الغيب ، ويقرأ صفحة المستقبل « وقال الذى نجا منهما وادكر بعد امة أنا أنبؤكم بتأويله فأرسلون » ٤٥ / يوسف / فأرسله الملك الى يوسف فى سجنه .. ليأتيه بتأويل رؤياه .

وذهب الساقى ــ بيوص ــ الى السجن ، ودخل على يوسف معتذرا اليه عن نسيانه وصيته ولكنه الشيطان .. ومشاغل الحياة ومشاكلها .. وأمالها وآلامها .. وأحوالها وأوحالها .. تنسى الانسان أحيانا كل أمر حتى أمر نفسه .. وقبل يوسف العذر .

فقص عليه رؤيا الملك قائلا « يوسف أيها الصديق أفتنا فى سبع بقرات » .. الخ ٤٦ / يوسف وغاص يوسف فى أعماقها .. بعين البصيرة التى وهبها أباه مولاه .. ثم قال : أن البقرات السبع السمان ، والسنبلات السبع الخضر .. ترمز الى سبع سنين من الرخاء الوفير .. والخير الكثير .. يأتى بعدها سبع سنين من الجدب والفقر والمجاعة .. ورمزيتها البقرات العجاف والسنبلات اليابسات .. وبانتهاء تلك السنوات المجدبة يكون عام كله زرع ونماء ورغد ورخاء .. فعليكم بالادخار من فترة الغنى لفترة الفقر ..

والاكتناز من منحة الرخاء .. لمحنة الجدب والبلاء « قال تزرعون سبع سنين دابا فما حصدتهم فذروه فى سنبله الا قليلا مما تأكلون . ثم يأتى من بعد ذلك سبع شداد يأكلن ما قدمتم لهن الا قليلا مما تحصنون . ثم يأتى من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون » ٤٧ ـ ٤٩ يوسف .

* * *

وعاد بيوص .. ليخبر الملك بما سمع من يوسف .. ووجد الملك تأويلا منطقيا .. مقبولا معقولا .. له اثر كبير فى اقتصاديات البلاد .. والحفاظ على استقرار العيش فيها .. فحمله أمر العفو الملكى عن يوسف .. ليخرج من السجن ، وليشرف بمقابلته شخصيا « وقال الملك ائتونى به » ٥٠ / يوسف .

* * *

واسرع الساقى حاملا البشرى الى يوسف عليه السلام .. ولم يكن يتوقع أن يمتنع عن قبول هذا العفو ويرفض نسمة الحرية .. امام كرامته التى انتهكت ظلما .. وشرفه الذى عصر عدوانا .. وحريته التى صودرت جورا وبهتانا وبكل اباء وشمم وعزة « فلما جاءه الرسول قال ارجع الى ربك فاسأله مابال النسوة اللاتى قطعن ايديهن ، ان ربى بكيدهن عليهم » ٥٠ / يوسف

ويقول عليه الصلاة والسلام (لقد عجبت من يوسف وكرمه وصبره .. والله يغفر له حين سئل عن البقرات السمان والعجاف .. ولوكنت مكانه ما اخبرتهم حتى اشترط أن يخرجونى .. ولقد عجبت منه حين أتاه الرسول .. فقال : ارجع الى ربك فاسأله .. ولو كنت مكانه .. ولبثت فى السجن ما لبث لأسرعت الاجابة .. وبادرتهم الباب ، ولما ابتغيت العذر .. ان كان لحليما ذا أناه) (١) .

* * *

□ □ □

---

(١) القرطبى وغيره ٥٠/يوسف .

٣ محكمــة

لقد كان يوسف نبيلا عندما قال « فاسأله ما بال النسوة اللاتى قطعن ايديهن » ولم يتعرض لسيدته .. مع ما صنعت به ـ كرما ومراعاة للادب . ولعل يوسف قد ذكر للساقى اسماء هؤلاء النسوة .. فاستدعاهن الملك .. ومعهن راعيل زوجة العزيز .. وبدأت المحاكمة بالسؤال الآتى : « قال ما خطبكن اذ راودتن يوسف عن نفسه » ؟ .

ونص السؤال .. صريح فى أنهن جميعا قد راودن يوسف .. وانه كان محل منازعتهن .. فى حفل امراة العزيز .. وكان ردهن صريحا أيضا .. لا يشمل لفا ولا مراوغة .. ولا مكرا ولا دهاء فقلن بلسان واحد قولة الحق .. وكلمة الصدق « قلن حاش لله ما علمنا عليه من سوء » وهنا وجدت أمراة العزيز .. الا مناص أمامها من الاعتراف .. فقالت : « قالت امراة العزيز الآن حصحص الحق انا راودته عن نفسه وانه لمن الصادقين » ٥١ / يوسف .

وحصحص الحق : اى ظهر وثبت .. وقال الشــاعر : ـ

الا من مبــلغ عنى خداشــا فانه
كذوب اذا ما حصحص الحق ظالم

لم أر[illegible] [illegible]الك ليعلم انى لم اخنه بالغيب) وهو غائب عنا [illegible]ن .. وليس موجودا معنا «وان الله لا يهدى كيد الخائنين » ٥٢ / يوسف .

وعللت موقفها هــذا بانها بشر .. والبشر معرضون للخطأ فقالت : « وما ابرىء نفس ان النفس لأمارة بالسوء الا ما رحم ربى ان ربى غفور رحيم » ٥٣ / يوسف .

* * *

واستسمح القارىء الكريم فى الوقوف برهة .. لأمر خطير فى هذا الموقف بالذات .. فقد جاء فى كثير من كتب التفسير .. فى هذا المقام .. منهاتفسيرالكشاف للزمخشرى..والبيضاوى للقاضى ناصر الشيرازى .. وروح المعانى للالوس .. اقوال بعيدة عن المنطق .. لا يقبلها العقل ، ولا تستسيغها الافهام .. ولا تساير تسلسل العبارات القرآنية : جيث زعم هواة الحشو فى تلك الكتب .. أن يوسف عليه السلام .. هو الذى قال « وما ابرىء نفسى ان النفس لأمارة بالسوء » (١) .

ولست ادرى .. هل هم يجهلون قواعد التحقيق الجنائى ؟ أو يتجاهلون عدم وجود يوسف فى مجلس التحقيق عندما قالت امراة العزيز ا الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه ؟ أم انهم ـ عفا الله عنهم ـ لم يقرأوا بعد هذا النص « قال الملك ائتونى به استخلصه لنفسى » بضمير الغائب ، بعد عبارة وما أبرىء نفسي مما يدل دلالة قطعيــة على عدم وجــود يوسف بمجلس التحقيق الاخير .. وعلى انه كان فى السجن .. عندما كان هذا القول يقال .. لانه عندما جاءه الرسول .. من الملك . للذهاب اليه بسبب تأويل الرؤيا .. قال يوسف لرسول الملك بعد ان رفض الخروج « أرجع الى ربك فاسأله مابال النسوة » .. الخ فعاد رسول

---

(١) الالوس والكشاف ، والبيضاوى ٥٣/يوسف .

الملك وحده ليبلغ ما سمع ، وعلى هذا قام التحقيق فى غيبه يوسف .. الذى ارادت امراه العزيز ان تعلن حقه فى البراءة .. والا تخونه بالغيب فى تأكيد الاتهام .

واذا كانت هذه المسالة البسيطة قد عميت على الالوس صاحب روح المعانى - واستغفر الله - فما بالنا اذا باشرنا امرا دقيقا من نواحى روح معانى القرآن الكريم ؟. لا اعتقد مطلقا ان شيوخنا الأفاضل يقولون مثل هذا الهراء .. وانما هو مدسوس عليهم فى كتبهم .

وكيف يكون يوسف من اصحاب النفوس الامارة بالسوء ؟ وقد علمنا من روح القرآن الكريم .. ان النفوس على ثلاثة انواع : نفس امارة بالسوء .. ونفس لوامه .. ونفس مطمئنة فأصحاب النفوس الأمارة بالسوء .. هم المغضوب عليهم .. كلهم ذنوب وعيوب .. ولكنهم يعتقدون انهم يحسنون صنعا .. فهم الأخسرون أعمالا « الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا ، وهم يحسبون انهم يحسنون صنعا » .

واصحاب النفوس اللوامة .. هم الذين يخطئون .. ولكنهم يحسون بأخطائهم فيتوبون من قريب .. فأولئك يتوب الله عليهم « خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا عسى الله ان يتوب عليهم » .

واما اصحاب النفوس المطمئنة .. فهؤلاء هم الذين يعطى الله كل واحد منهم من الثواب والأجر والنعيم يوم القيامة .. حتى يقول له : هل رضيت عنى ياعبدى ؟ .. وحتى يقول العبد رضيت عنك يارب .. « رضى الله عنهم ، ورضوا عنه » .

أمن الجائز ان نقول عن يوسف - عليه السلام - أنه من النوع الأول .. من أصحاب النفوس الأمارة بالسوء . لا شك ان تلك أقوال مدسوسة على ائمتنا الكرام فى كتبهم .

* * *

ويقول الملك « وقال الملك ائتونى به استخلصه لنفسى » ٥٤ / يوسف .

ولعلنا نلاحظ .. ان الملك فى المرة الأولى.. قال «ائتونى به» فقط .. أما فى تلك المرة.. فقال « ائتونى به استخلصه لنفسى » ويعود الساقى الى السجن حاملا حكم براءة يوسف .. طالبا منه مقابلة الملك ويخرج من السجن واضح الجبهة مستقيم المحجة .

□ □ □

(١) من حصير السجن إلى سرير الملك

قال صاحب تفسير الكشاف : روى أن الرسول جاءه .. فقال : أجب الملك .. فخرج من السجن .. ودعا لأهله : فقال اللهم اعطف عليهم قلوب الأخيار .. ولا تعم عليهم الأخبار - فهم أعلم الناس بالأخبار فى الواقعات - وكتب على باب السجن : هذه منازل البلوى .. وقبور الأحياء .. وشماتة الاعداء .. وتجربة الأصدقاء (١) اهـ .

وقيل أنه دعا الله لأهل السجن فقال : اللهم أحل طعامه .. وقصر ايامه .. وأكثر أحلامه .. ثم اغتسل وتنظف من ادران السجن ولبس ثيابا جددا .. وذهب مع صاحبه الى الملك .. فوقف بالباب .. ثم قال « حسبى ربى من خلقه .. عز جاره .. وجل ثناءوه .. ولا اله غيره » .. وقال وهو داخل عليه : اللهم انى أسألك بخيرك من خيره .. وأعوذ بعزتك وقدرتك من شره .. ثم سلم عليه .

وقال النسفى : سلم على الملك .. ودعا له بالعبرانية .. فقال الملك : ما هذا اللسان ؟ قال : لسان آبائى .. وكان الملك يتكلم بعدة السن .. فكلمه بها .. فأجابه بجميعها .. **فأعجب به وبذكائه وعلمه (٢) ..** وقال له : أيها الصديق .. انى أحب ان اسمع رؤياى منك .. فوصف له الرؤيا . وكأنه كان معه فيها .

ولا مانع ان أورد هنا وصف يوسف - عليه السلام - لرؤيا الملك كما أورده القرطبى فى تفسيره وأبو اسحاق النيسابورى فى كتابه العرائس (٣) **قال :** رأيت أيها الملك سبع بقرات سمان .. شهب حسان .. غير عجاف .. كشف عنهن نهر النيل .. فطلعن عليك من شاطئه .. تشخب اخلاقهن لبنا .. فبينما انت كذلك .. **تنظر اليهن .. وقد اعجبك حسنهن .. اذا غضب النيل .. ففار ماؤه .. وبدا قعره .. فخرج من حمئه ووحله سبع بقرات عجاف شعث غبر ملصقات البطون .. ليس لهن ضروع ولا اخلاف .. ولهن أنياب واضراس .. وأكف كأكف** الكلاب .. وخراطيم كخراطيم السباع .. فاختلطن بالسمان .. وافترسنهن أفتراس السباع .. وأكلن لحمهن .. وفرقن جلودهن .. وحطمن عظامهن .. ومششن مخهن ..

فبينما أنت تنظر وتتعجب .. كيف غلبتهن وهن مهازيل .. لم يظهر فيهن سمن ولا زيادة بعد أكلهن .. اذا بسبع سنبلات خضر .. وسبع أخر سود يابسات فى منبع واحد .. عروقهن فى الثرى والماء .. فبينما أنت تقول فى نفسك ما هذا ؟ .. هؤلاء خضر مثمرات .. وهؤلاء سود يابسات .. والمنبت واحد .. وأصلولهما فى الماء .. اذ هبت ريح فردت أوراق السود اليابسات .. على الخضر المثمرات .. فأشعلت فيهن نارا .. فأحرقتهن .. وصرن سودا متغيرات ثم أنك انتبهت مذعورا :

فقال الملك : والله ما شان هذه الرؤيا وان كان عجبا - بأعجب مما سمعت منك : -

فما ترى فى رؤياى أيها الصديق ؟ فقال له: من حقك أن تحتفظ بخمس ما تنتجه الأرض ..

---

(١) الكشاف ٥٤/يوسف .

(٢) النسفى ٥٤/يوسف .

(٣) القرطبى ٥٤/يوسف .

فى المخازن والاهراء اغلقته .. حتى لا يتسرب اليه التلف .

وترى ان تزرع زرعا كثيرا فى هذه السنين المخصبة .. ذلك لو زرعت الى حجر او مدر لنبت .. واظهر الله فيه الثمار والبركة .. ثم ترفع الزرع فى قصبه وسنبله .. تبنى له المخازن العظام .. وتكون القصب والسنبل – فيما بعد – علفا للدواب .. والحب للناس فاذا اتت سنوات الجدب .. يأتيك الخلق من جميع النواحى .. ويمتارون منك .. ويجتمع لك من الكنوز .. مالم يجمع لأحد قبلك .

قال الملك : ومن لى بهذا ؟ ومن يجمعه . قال يوسف : « اجعلنى على خزائن الأرض » اى ارض مصر « انى حفيظ عليم » ٥٥/ يوسف .

ويقول مالك بن انس : مصر خزانة الارض اما سمعت الى قول يوسف « اجعلنى على خزائن الأرض » ؟ ..

ووصف نفسه بالحفظ والعلم .. وهما صفتان تشترطان فيمن يلى امور المال .

وانما قال ذلك كما قال الامام النسفى – ليتوصل الى امضاء احكام الله .. واقامة الحق .. وبسط العدل .. والتمكن مما لاجله بعث الأنبياء الى العباد .. ولعلمه ان احدا غيره لايقوم مقامه فى ذلك .. فطلبه ابتغاء وجه الله .. لا حب الملك والدنيا ..

وفى الحديث « رحم الله اخى يوسف لو لم يقل : اجعلنى على خزائن الأرض ، لا ستعمله من ساعته ، ولكنه اخر ذلك عنه سنة » (١) .

قالوا : وفى هذا دلالة على انه يجوز ان يتولى الانسان عماله من يد سلطان جائر .. وكان السلف يتولون القضاء من جهة الظلمة ، ولكن بشرط ان يعلم انه يفوض اليه فى عمل لا يعارضه فيه .. فيصلح منه ما شاء .. واما اذا كان عمله بحسب اختيار الظالم وشهواته وفجوره .. فلا يجوز ذلك .

قال بن عباس : ولما انصرفت السنة .. من يوم سأل الامارة .. دعاه الملك .. وراه بسيفه (٢) .. ووضع له سريرا من ذهب .. مكللا بالدر والياقوت .. وضرب عليه حلة من استبرق .. وكان طول السرير ثلاثين ذراعا .. وعرضه عشرة اذرع .. عليه ثلاثون فراشا .. وستون مرفقة (٣) .. ثم امره ان يخرج .. فخرج متوجا .. لونه كالثلج .. ووجهه كالقمر .. يرى الناظر وجهه من صفاء وجهه (٤) .

واستكمالا لهذا المقام نورد ما ذكرته التوراة فى الاصحاح الحادى والاربعين من سفر التكوين مختصرا وهو أن رئيس السقاة .. اخبر فرعون مصر .. بأن يوسف قادر على تعبير الرؤيا .. وسبق تجربته فى ذلك .. وانه عبر له رؤيا الملك .. وقال لهم : ادخروا خمس غلة الأرض .. فى السنوات الخصبة .. ليستغل هذا فى سنوات القحط .. وان تقوم على ذلك نظار فى ارجاء البلاد ..

فقال فرعون لجنوده : هل نجد مثل هذا رجلا فيه روح الله ؟ .. ثم التفت الى يوسف وقال له : بعد ما اعلمك الله كل هذا .. ليس بصير وحكيم مثلك .. انت تكون على بيتى .. وعلى فمك يقبل جميع شعبى .. الا أن الكرسى اكون فيه أعظم منك .. وقال له ايضا : قد جعلتك على كل ارض مصر .. وخلع خاتمه من يده .. وجعله فى يد يوسف .. وألبسه ثياب بوص .. ووضع طوق ذهب فى عنقه .. واركبه مركبته الثانية .. ونادوا على الناس امامه بالركوع .. وجعله صاحب الأمر والنهى المطاع .. والكلمة النافذة .. وسمى يوسف « صفنات فعنيح » واعطاه زوجة « أسنات بنت فوطى فارع » كاهن أون .

❋ ❋ ❋

هذا ما ذكرته التوراة .. وقد ورد فى كتب التفسير .. ما يؤدى هذا المعنى .. الا فى مسألة زواجه .

فقد عزل الملك وزيره قطفير .. وشغل يوسف منصبه .. ثم مات قطفير .. وتزوج يوسف امراته – راعيل – فولدت له ولدين هما افرائيم ، ومنشا ..

وقد ذكر القرطبى وغيره من ائمتنا .. موقفا بين يوسف – عليه السلام وزوجته – صاحبة الحب المجنون .. يبين لنا .. أن الله سبحانه يحقق للانسان بوجه الحلال .. ما كان يمد بصره اليه بوجه الحرام .. اذا ما اناب الى الله .. وعادت اليه روحه الشاردة .. بعد عصيان وكفران .. فقالوا : لما دخل عليها .. قال :

---

(١) القرطبى والنسفى ٥٥/يوسف .

(٢) قلده به .

(٣) المرفقة « بالكسر » المتكأ والوسادة .

(٤) القرطبى ٥٥/يوسف .

اليس هذا خيرا مما كنت تريدين ؟ .. فقالت : ايها الصـــديق .. لا تلمنى ، فانى كنت امراة حسناء ناعمة .. كما ترى .. وكان صاحبى لا ياتى النســـاء .. وكنت كما جعلك الله من الحسن .. فغلبتنى نفسى .. فوجدها يوسف عذراء .. فاصابها .. فولدت له رجلين : افرائيم بن يوسف .. ومنشا بن يوسف (١) .

واسلم معه الملك .. وكثير من الناس .. فاقام العــدل .. واجتهــد فى تكثير الزراعات وضبط الغلات .. وجلس على سرير الملك .. ودانت له الملوك .. ودخل الملك بيتــه .. مع نسائه وفوض اليه امر مصر .. حتى دخلت السنون المجدبة .. وعم القحط مصر والشام ونواحيهما .. وتوجه اليه الناس .. فباعهم اولا بالنقود .. حتى لم يبق منها شىء .. فباعهم بالحلى والجواهر .. ثم بالدواب .. ثم بالضياع والعقار .. ثم برقابهم .. حتى استرقهم جميعا .. ثم عرض الأمر على الملك .. فقال له : لك الرأى .. فاعتقهم .. ورد عليهم أموالهم .

وكان لا يزيد على بيع حمل بعير .. تقسيطا بين الناس ..

وروى أن يوسف كان لا يشبع من الطعام.. فى تلك السنين العجاف .. فقيل له : اتجوع وبيدك خزائن الأرض ؟ .. فقال انى أخاف ان شبعت .. أن انسى الجياع .

وقال سفيان بن عيينة :

المؤمن يثاب على حسناته فى الدنيا والآخرة .. والفاجر .. يعجل له الجزاء فى الدنيا .. وماله فى الآخــرة من خــلاق .. ثم روى الآية « وكذلك مكنا ليوســف فى الأرض يتبوأ منهــا حيث يشاء ، نصيب برحمتنا من نشاء ، ولانضيع اجر المحسنين ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون » ٥٦ ـ ٥٧ يوسف .

وصدق الشاعر الذى يقول : ـ

أما فى رســول الله يوسف اسوة
لمثلك محبوسا على الظلم والافك
اقام جميل الصبر فى السجن برهة
فآل به الصبر الجميل الى الملك

* * *

نعم اقام يوسف جميل الصبر .. فى الجب .. وفى الرق .. وفى السجن .. وفى صبره عن محارم الله .. لما دعته المراة الى نفسها .

* * *

وكتب بعضهم الى صديق له :

وراء مضيق الخوف متسع الامن
واول مفروح به آخــر الحــزن
فلا تيأسن فالله ملك يوســـفا
خزائنه بعد الخلاص من السجن

* * *

□ □ □

---

(١) القرطبى وغيره ـ ٥٥/يوسف .

[٢] القحط يسوق إخوته

**عم القحط جميع منطقة الشرق الأوسط — مصر وما حولها — وأجهد الناس البلاء .. وهددهم الجوع بالفناء .. وتحدث الركبان عن وزير تموين مصر .. يبيع الناس الحب .. لكل فرد حمل بعير وذاع أمر يوسف — عليه السلام في الآفاق .. للينه ولطفه .. ورأفته .. وعدله .. وسيرته .. وكان يجلس عند البيع بنفسه .. فيعطيهم من الطعام .. على عدد رؤسهم .. لكل رأس وسقا (١) .

وبلغ هذا الحديث يعقوب في كنعان بأرض الشام .. وقد آلمهم الضوى .. وعضهم الجوع .. وحطمهم الجدب .. فأرسل بنيه العشرة الى مصر .. ومعهم جمالهم .. وثمن احمالهم .. ولم يرسل معهم بنيامين .. ليانس به ويسليه عن اخيه المفقود .. الذى مازالت ذاكره تراوده بين الحين والحين .. وتئن ضلوعه بين حناياه من شدة الشوق والحنين اليه ..

وخرج ركب الاسباط العشرة من الشام .. حتى دخلوا مصر .. واتجهوا الى العزيز .

وكان بين القائه في الجب .. ودخولهم عليه ارض مصر .. ثلاثون سنة .. فارقهم امرد غض الاهاب .. وهو الآن في كمال رجولته .. واوج ابهته وعظمته .. رأوه على زى فرعون .. عليه ثياب الحرير .. جالسا على سرير الملك .. في عنقه طوق من الذهب .. وهم بعيدون عنه .. في موقف أصحاب الحاجات .. فلم يعرفوه .. ولكنه عرفهم .. « وجاء اخوة يوسف — فدخلوا عليه ، فعرفهم وهم له منكرون » ٥٨ / يوسف.

فقال لهم : من أنتم وما شأنكم ؟ قالوا : نحن قوم من أهل الشام .. رعاة أصابنا الجهد .. فجئنا نمتار لنا ولأهلنا .. والميرة هى الطعام الذى تشتريه من غير بلدك — فقال لهم : لغتكم مخالفة للغتنا .. وزيكم مخالف لزينا .. فلعلكم جئتم عيونا تتجسسون علينا .. وتنظرون عورة بلادى ؟ .. قالوا : معاذ الله : نحن بنو نبى حزين لفقد ابن كان احبنا اليه .. وقد امسك اخا له من أمه .. يستأنس به .. فقد كنا أثنى عشر اخا فقال: من يشهد على صدقكم ؟ .. قالوا: نحن الآن في بلد لا يعرفنا فيها احد.. قال :عليكم ان تأتونى بأخيكم الذى تركتموه مع أبيه .. لأتأكد من صدق كلامكم هذا .. وان لم تأتوا به في المرة القادمة .. فلا داعى لحضوركم .. لأننى لن اعطيكم حبا ولا طعاما .. قالوا رضينا .. وسنفعل أن شاء الله ..

فأكرم وفادتهم .. وعاملهم معاملة خاصة .. كلها حب وود وتكريم .. وأمر غلمانه .. فزادوا لهم الكيل .. من أجود أنواع الحبوب وازكاها .

« ولما جهزهم بجهازهم ، قال ائتونى بأخ لكم من ابيكم ، الا ترون انى أوفى الكيل وانا خير المنزلين ، فان لم تأتونى به فلا كيل لكم عندى ولا تقربون ، قالوا سنراود عنه اباه وانا لفاعلون » ٥٩ — ٦١ / يوسف .

. . . .

---

(١) الوسق — بفتح الواو وسكون السين : حمل البعير .

وقد جاء فى بعض كتب التفسير منها : البيضاوى والكشاف وقصص الانبياء للاستاذ عبد الوهاب النجار والقرطبى ان يوسف احتجز عنده اخاهم شمعون .. ليكون رهينة عنده.. حتى يأتوه ببنيامين .. وانهم اقترعوا على ذلك .. واصابت القرعة شمعون .

وقد حاولت أن اعرف المصدر الذى اتوامنه بهذا النبا .. فلم اجده الا فى الاصحاح الثانى والاربعين من سفر التكوين ..

وسياق القصة فى القرآن الكريم لا يفيد هذا .. ولا يشير اليه من قريب او بعيد .. وانما يفيد أن يوسف ـ عليه السلام ـ أسر الى غلمانه أن يدسوا الثمن الذى دفعوه فى رحالهم داخل الحب .. ليضمن بذلك عودتهم ثانية « وقال لفتيانه أجعلوا بضاعتهم فى رحالهم لعلهم يعرفونها اذا انقلبوا الى اهلهم لعلهم يرجعون » ٦٢ / يوسف .

. . . .

وقيل ان فكرة يوسف فى رد الثمن اليهم .. بدون علمهم .. خشية الا يكون عند أبيه مال يردهم به للشراء فى المرة الثانية .. او أنه كبر عليه أن يأخذ ثمن الطعام من أبيه واخوته ..

ولكننا نرتاح الى الراى الذى يقول : بان يوسف يعلم من دينهم ما لا يجيز لهم استحلال هذا الثمن .. ويوقن أن ايمانهم سيدفعهم الى العودة لرده اليه .. وسيعتبرونه مالا حراما ، ولهذا قال : « لعلهم يعرفونها اذا انقلبوا الى اهلهم لعلهم يرجعون » .

ويقول كثير من المفسرين .. ان الثمن الذى كان معهم نعالا وأدما .. وقال بعضهم أنه كان فضة .. وهذا اقرب الى المنطق .. فالفضة هى التى يمكن أن تدس فى الرحال .

. . . .

وعادوا باحمالهم الى أبيهم فى كنعان .. وابلغوه طلب العزيز أحضار بنيامين أخيهم معهم فى المرة القادمة .. بعد أن قصوا عليه .. انه اكرم وفادتهم .. وأنه عاملهم معاملة طيبة .. فيها الكثير من الحب والود والتكريم .. فقال لهم يعقوب ـ عليه السلام ـ لن امنكم عليه ابدا .. ولن أرسله معكم .. فقد قلتم عن يوسف « وأنا له لحافظون » كما تقولون الآن عن بنيامين « فلما رجعوا الى أبيهم قالوا يا أبانا منع منا الكيل فأرسل معنا أخانا نكتل وأنا له لحافظون، قال هل آمنكم عليه الا كما أمنتكم على أخيه من قبل فالله خير حافظا وهو ارحم الراحمين » ٦٣ ـ ٦٤ / يوسف ..

فلم يجادلوه فى هذا الأمر .. رحمة بالشيخ الفانى .. ومنعا لاثارة اشجانه .. وقاموا الى رحالهم .. وفكوا اربطتها .. وافرغوا ما فيها من الزاد والحب .. وكانت مفاجأة لهم .. أن وجدوا فضتهم ردت اليهم .. وأنها مدسوسة داخل اوعيتهم .. فرجعوا الى ابيهم قائلين : يا أبانا اننا لم نكذب عليك عندما أخبرناك بما فعل عزيز مصر معنا .. من ووسائل التكريم وخالص الحب والود .. وهذه بضاعتنا ردت الينا ، فارسل معنا بنيامين ليزيدنا اكراما .. ونحمل معنا حملا آخر له . « ولما فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم ردت اليهم ، قالوا يا أبانا مانبغى هذه بضاعتنا ردت الينا ، ونمير اهلنا ، ونحفظ اخانا ، ونزداد كيل بعير ذلك كيل يسير » ٦٥ / يوسف .

وأن لم يذهب معنا فلن نستطيع العودة اليه، وسنموت جوعا ..

***

ويظهر ان القحط كان شديدا ..اجبر يعقوب .. على الاستجابة لأبنائه .. بارسال بنيامين معهم .. فطلب منهم القسم بالله .. ليكون عهدا وميثاقا .. بأنهم لن يفرطوا فيه .. الا أن غلبوا على امرهم .. أو هلكوا جميعا ..

وهذا يدل على ثقة الرجل بأن أبناءه .. هم سلالة النبوة .. لا يحنثون بيمين الله مطلقا .. « قال لن ارسله معكم حتى تؤتون موثقا من الله لتأتننى به الا ان يحاط بكم ، فلما اتوه موثقهم قال الله على ما نقول وكيل » ٦٦ / يوسف .

***

وتقول التوراة فى الاصحاح الثانى والاربعين من سفر التكوين ما معناه : أن يعقوب لا ... على اخبار العزيز بوجود اخ لهم تخلف .. وقالوا عذرنا أن الرجل اتهمنا بالجاسوسية ، وسألنا هل ابوكم حى ؟ .. هل لكم أخ ؟ .. وما كنا نحسب أنه سيطلبه منا .

والح يهوذا على أبيه .. وضمنه له فسمح بذلك .. وامرهم ان يأخذوا هدية لهذا الرجل الذى اكرمهم .. تكون من البلسان والعسل والكثيراء واللاذن واللوز والفستق .. ويردوا له الفضة .. ثمن الطعام الأول .. ويأخذوا فضة اخرى .. ثمنا للطعام الجديد . اهـ .

***

وجاء فى تفسير النسفى والنيسابورى ..
انه حلفهم بالله رب محمد عليه الصلاة والسلام .. واذا صح هذا فيكون قد حلفهم بالله رب أحمد - عليه السلام - لأن « احمد » اسم الحقيقه الروحية التى كان بها محمد فى ايام يعقوب .. اما اسم « محمد » فهو الاسم الآدمى للجسم الطينى ولهذا قيل اسمه فى السماء احمد وفى الأرض محمد .. وجاء على لسان عيسى - عليه السلام - « ومبشرا برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد » اى فى زمن عيسى كان مازال اسمه احمد بحقيقته الروحيه .. ولم يوجد الجسم بعد ..

« **وقال يابنى لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من ابواب متفرقة** ، وما اغنى عنكم من الله من شىء ان الحكم الا لله عليه توكلت وعليه فليتوكل المتوكلون » ٦٧ / يوسف .

فلماذا امرهم فى هذه المرة بالدخول متفرقين .. ولم يأمرهم بذلك فى المرة الأولى ؟ .. الجمهور على أن ذلك خوفا عليهم من الحسد .. وقد استبعد الأستاذ عبد الوهاب النجار وهذا الراى .. ونحن وان كنا نستبعده ايضا .. الا ان ديننا يؤمن بوجود الحسد ، فالعين عند النظر الى شىء .. والاعجاب به .. مع حقد القلب .. توجد فى هذا الشىء نقصانا وخللا .. ولهذا كان آخر سورة الفلق .. الاستعاذة من شر حاسد اذا حسد .. كما ثبت عن النبى - صلى الله عليه وسلم - انه كان يعوذ الحسن والحسين فيقول « اعيذكما بكلمات الله التامة .. من كل عين لامة .. ومن كل شيطان وهامة » .. ويقول عليه الصلاة والسلام « ان العين لتدخل الرجل القبر والجمل القدر » (١) .

ونحن نستبعد هذا الراى لان يعقوب لو كان يخاف عليهم من الحسد .. لأمرهم بالتفرقة فى المرة الاولى .. ولكنه اكتشف هذه المرة انهم يلفتون النظر بجمالهم .. وفراهة احسامهم .. بدليل اكرامهم عند الملك دون غيرهم .. وقد يؤدى دخولهم مجتمعين فى هذه المرة الى وجود الشك فيهم .. والحقد عليهم .. والكيد لهم .. اما فى المرة الأولى فقد كانوا مجهولين .

وقيل احب الا يفطن بهم أعداؤهم ... فيحتالون لهلاكهم .

وما كان يغنى عنهم رأى يعقوب بدخولهم متفرقين شيئا قط .. حيث اصابهم ما ساءهم مع تفرقهم .. من اضافة السرقة اليهم .. وافتضاحهم بذلك .. واخذ اخيهم بضبط الصواع فى رحله .. وتضاعف المصيبة على أبيهم ..

ويعقوب - عليه السلام - .. موقن .. ان امر الله لابد نافذ .. ولكنها شفقة الآباء .. وخوفهم على ابنائهم .. والحكمة تقول : « الأبناء يأكلون الحصرم .. والآباء يضرسون » والحصرم هو العنب فى أول ظهوره فى العنقود قبل نضجه .

والحذر كما قالوا - لا يغنى من قدر .. « ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم ، ما كان يغنى عنهم من الله من شىء الا حاجة فى نفس يعقوب قضاها « **وانه لذو علم لما علمناه ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون** » ٦٨ / يوسف ..

* * *

□ □ □

---

(١) القرطبى ٦٧/يوسف .

٢ لقاء الحبيبين

ودخلوا على يوسف قائلين : لقد جئنا باخينا بنيامين .. حسب ما طلبت منا فى المرة السابقة .. لتعلم صدقنا .. وتتأكد من قولنا .

ففرح يوسف ـ عليه السلام ـ وامر غلمانه باضافتهم .. واكرامهم غاية الاكرام .. وان يذبحوا لهم .. ويهيئوا طعاما لاكله معهم بعد الظهر . وبعد تجهيز الطعام .. دعاهم الداعى الى بيت العزيز .. فتناجوا خائفين .. وقالوا ان دخولنا بيت العزيز وراءه امر .. وقد يكون ذلك بسبب الفضة التى وجدناها فى رحالنا فى المرة الاولى .. وسيأخذنا العزيز عبيدا له بسببها .. وكان هذا جزاء السارق فى شريعتهم .. فكلم يهوذا بعض الخدم فى هذا الأمر .. قائلا له : اننا جئنا بالفضة معنا لنردها الى العزيز .. ولا ندرى كيف دست علينا فى رحالنا .. ولكن الخادم طمأنهم .. وهدأ من روعهم .. واخبرهم بانه أعد لهم حفل تكريم كبير .

ولما التقوا بيوسف فى منزله قبل الغداء .. قدموا اليه الهدايا فقبلها .. ونظر الى بنيامين وقال : أهذا أخوكم الذى كان عند ابيكم ؟ .. قالوا نعم .

وأجلسهم على المائدة اثنين اثنين .. ويقال انهم عجبوا لأنه أجلسهم بترتيب السن .. فبقى بنيامين وحده .. فبكى وقال : لو كان يوسف حيا لجلس معى ! فقال له يوسف : انا اجلس معك .. أما ترضى بى أخا بدل أخيك المفقود ؟ .. فقال : نعم الأخ أنت ياسيدى .. ولكن لم يلدك يعقوب وراحيل .. فطفرت دمعة من عين يوسف .. ولم يلحظها أخوته .

وفى الليل امر ان يناموا كل اثنين فى فراش واحد .. وبقى بنيامين وحيدا .. فأخذه الى فراشه لينام معه . ويقول صاحب الكشاف : انه بات يضمه اليه .. ويشم رائحته حتى اصبح (١) .

وقال النيسابورى : لما خلا بأخيه ليلا ، قال له : ما اسمك ؟ قال اسمى بنيامين . قال له : ومابنيامين ؟ قال ! معناها المشكل . ـ وذلك انه لما ولد ماتت امه ـ قال : وما اسم امك ؟ قال : راحيل بنت ليان بن ناحور .. قال : فهل لك من ولد ؟ قال : عشرة بنين ، قال : فما اسماؤهم ؟ قال لقد اشتقت أسماؤهم من اسم اخى المفقود ، فقال يوسف : لقد اضطرك ذلك الى حزن شديد .. وبكى وضمه اليه .. وقال له : انا اخوك يوسف .

ولا يستطيع القلم ان يصف فرحة بنيامين لهذا الأمر الذى لم يكن يتوقعه .. مع لواعج قلبه .. وحنين فؤاده الى أخيه الحبيب .. الذى لقيه فجأة بعد عشرات السنين .. « ولما دخلوا على يوسف أوى اليه أخاه قال انى أنا أخوك ، فلا تبتئس بما كانوا يعملون » ٦٩ / يوسف .

ومرت فترة تلاحقت فيها خفقات القلوب .. وتتابعت دقات الفرح فى حنايا الضلوع .. ثم قال بنيامين : انا لن أتركك ابدا .. ولن اعود مع اخوتى الى كنعان . فقال له يوسف : لقد علمت اغتمام والدى بى .. فاذا حبستك ازداد غمه .. ولا سبيل الى ذلك .. الا ان انسب اليك السرقة لأحتجزك عندى عاما .. قال :

---

(١) الكشاف ٦٩/يوسف .

افعل ما شئت .. فقد قررت الا اعود معهم واتركك هنا .

ودبر يوسف حيلته .. كما دبرتها له عمته وهو صغير .. لتحتجزه عندها عاما (١) ..

طلب من الكيالين ان يدسوا سقايته التى يشرب منهـا .. فى رحل بنيامين .. بعـد ان يوفوهم جميعا كيلهم .. ويغدقوا عليهم العطاء .. وكانت السقاية من الذهب المرصع بالجواهر .

وتحرك ركب ابناء يعقوب .. بما معهم من الاحمال الكثيرة .. والحب الوفير .. وسـارت قافلتهم .. حتى قطعت مسافة فى طريقهم الى سيناء .. واذا بمناد يناديهم من قبل العزيز .. ان انتظروا .. لقد فقد شيء يخص الملك .. ولم يسرقه غيركم .. فعادوا اليه قائلين : ماذا فقد ايها المنادى ؟ .. فقال : فقد صواع الملك .. وهذا امر خطير .. وانا كفيل ان نعطى من ياتى به حمل بعير من الحب .. قالوا : كيف تتهموننا بالسرقة .. ونحن من اطهر سـلالات البشرية نسبا .. واكرمهم حسبا .. وانبلهم اخلاقا ؟ .. نحن ابناء يعقوب بن اسحاق بن ابراهيم .. وما يجوز لنا أن نسرق شيئا .

فقال المنادى : عليكم ان تعودوا الى العزيز .. ليقوم بتفتيش رحالكم .. ليستوثق بنفسه من هذا الامر . « فلما جهزهم بجهازهم جعل السقاية فى رحل اخيه ثم اذن مؤذن ايتها العير انكم لسارقون ، قالوا واقبلوا عليهم ماذا تفقدون قالوا نفقد صواع الملك ولمن جاء به حمل بعير وانا به زعيم قالوا تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد فى الأرض وما كنا سارقين » ٧٠ ــ ٧٣ /يوسف .

وعادت القـافلة الى يوسف .. بأحمالهـا واوعيتها .. نسالهم عن جزاء من يوجد الصواع فى رحله .. فاخبروه أن شريعتهم تقضى باسترقاق السـارق سـنة لصـاحب الشيء المسروق .. « قالوا فمـا جزاءوه ان كنتم كاذبين ، قالوا جزاءوه من وجد فى رحله فهو جزاءوه وكذلك نجزى الظالمين » ٧٤ ــ ٧٥ / يوسف .

وبدا يفتش رحالهم واحدا واحدا .. وبدا باكبرهم .. ثم الذى يليه .. حتى لم يبق الا رحل بنيامين .. فاظهر انه لا يريد تفتيشه .. مبديا لهم أسفه على هذا الاتهام .. ولكن يهوذا اصر على تفتيش الرحل الباقى .. حتى يثبت انهم جميعا برآء .. من تلك الجريمة النكراء .. « فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء اخيه » ٧٦ /يوسف .

ولمـا استخرج يوسف الصواع من رحل بنيامين .. نكسوا رؤسـهم حياء وخجلا .. واقبلوا على اخيهم قائلين بالعبرانية .. ما الذى صنعت ؟ .. فضحتنا وسودت وجوهنا .. يا بنى راحيل .. مابزال لنا منكم بلاء .. متى اخذت هذا الصواع ؟ .. لقد سرق اخوك يوسف من قبل .. كل هذا وهم يعتقدون أن العزيز لا يفهم لغتهم هذه .. وكتم يوسف هذا الامر فى نفسه .. ولم يعرفهم انه يفهم كلامهم : « قالوا ان يسرق فقد سرق اخ له من قبل فاسرهايوسف فى نفسه ولم يبدها لهم » ٧٧ / يوسف .

وهم يقصدون بسرقة يوسف .. ان عمته احتضنته .. واحبته حبا شـديدا .. واراد يعقوب ان يأخذه منها .. فدست له شـيئا فى ملابسه (٢) ، وادعت انه سرق منها .. ليكون من حقها استرقاقه لمدة سنة (٣) .

وقال بعض المفسرين انه كان يسرق الطعام ليعطيه للفقراء والمسـاكين ولكننا لا نؤيد هذا الراى لظهور التكلف فيه .

***

وسقط فى أيديهم .. لا يدرون ماذا يعملون .. قالوا : يأيها العزيز .. انت لا تدرى ماذا سيحصل لأبيه .. لو عدنا اليه بدونه .. فخذ اى واحد تختاره منا .. ليكون عبدا وخادما لك بدلا منه .. فقال وكيف اخالف شريعتكم التى تحدثتم عنها .. ونأخذ غير السارق .. فنكون ظالمين فى حكمكم .. قاسطين فى نظركم ؟ . وبذلوا كل ما يستطيعون بذله فى استرضاء العزيز فلم يستجب لهم . فخرجوا من عنده يائسين ، يدبرون أمرهم ، ويفكرون فيما اصابهم ..

---

(١) سبقت فى فصل « بلاء الحب » بالهامش ، وسياتى فى الآية التالية ...

(٢) كان هذا الشيء هو منطقة ابراهيم ورثتها عن أبيها اسحاق .. واتهمت يوسف بسرقتها .. حبا فيه .

(٣) القرطبى ٧٧/يوسف .

« قالوا يا ايها العزيز ان له ابا شيخا كبيرا فخذ احدنا مكانه انا نراك من المحسنين ، قال معاذ الله ان ناخذ الا من وجدنا متاعنا عنده انا اذا لظالمون ، فلما استيأسوا منه خلصوا نجيا » ٧٨ - ٧٩ / يوسف .

ولعل قائلا يقول : كيف رضى بنيامين بالقعود طوعا - وفيه عقوق الاب بزيادة الحزن ؟؟ ووافقه على ذلك يوسف ؟ .. وكيف نسب يوسف السرقة الى اخوته وهم براء ؟ ..

والواضح أن الحزن .. قد غلب على يعقوب عليه السلام - بحيث لم يؤثر فيه فقد بنيامين كل التأثير .. اولا تراه لما فقده قال « ياأسفا على يوسف » ولم يذكر بنيامين .. ولعل يوسف انما وافقه على القعود بوحى ؛ فلا اعتراض .. واما نسبة يوسف - عليه السلام - السرقة الى اخوته .. فقد سرقوه من ابيه .. فالقوه فى الجب .. فاستحقوا هذا الاسم .. بذلك الفعل .. فصدق فى اطلاق ذلك عليهم ..

وكان كل ذلك بأمر من الله تعالى .. ويؤيده قوله تعالى « وكذلك كدنا ليوسف ما كان ليأخذ اخاه فى دين الملك الا ان يشاء الله » ٧٦/يوسف.

وكدنا .. معناه : صنعنا .. او دبرنا .. او اردنا ..

ومنه قول الشاعر : -

كادت وكدت وتلك خـــير ارادة
لو عاد من عهد الصبا ماقد مضى

وفيه جواز التوصل الى الأغراض بالحيله .. اذا لم تخالف شريعة .. ولم تهدم اصلا..

□ □ □

٤ قمة محنة يعقوب

اخذوا يتشاورون فيما بينهم .. فقال كبيرهم واختلف المفسرون فيمن هو - فقال البعض كبيرهم سنا « راوبين » .. وقال آخرون : كبيرهم عقلا « يهوذا » .. وقال غيرهم : هو رئيسهم « شمعون » .

ولكن جمهور المفسرين اجمع على ان يهوذا أكبرهم عقلا .. قال : لن اخرج من أرض مصر بدون أخى بنيامين .. فقد قدمت العهد لأبى الا اعود بدونه ابدا .. وعليكم ان تذهبوا باحمالكم .. الى أبيكم وأهليكم .. وقولوا له حقيقة الأمر .. واروا له ما حصل .. وليفعل الله بنـا ما يشاء .. فهو أحكم الحاكمين .. واثبتوا لابيكم صدقكم بشهادة أصحاب العير .. وكانوا قوما من كنعان من جيران يعقوب .

« ارجعوا الى ابيكم ، فقولوا يا أبانا ان ابنك سرق وما شهدنا الا بما علمنا وما كنا للغيب حافظين .. واسأل القرية التى كنا فيها والعير التى اقبلنا فيها وانا لصادقون » ٨١ - ٨٢ / يوسف .

***

وعادوا الى ابيهم .. وقد نقصوا اكبرهم واصغرهم .. وقصوا عليه قصصهم .. وكانت صدمة للشيخ .. ولكنه استمسك بالصبر الجميل « قال بل سولت لكم انفسكم أمرا فصبر جميل ، عسى الله أن يأتينى بهم جميعا انه هو العليم الحكيم وتولى عنهم وقال يا أسفى على يوسف وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم » ٨٣ - ٨٤ يوسف .

وعن النبى - صلى الله عليه وسلم : - « لم تعط أمة من الأمم انا لله وانا اليه راجعون عند المصيبة الا أمتى .. الا ترى الى يعقوب حين اصابه ما أصابه لم يسترجع .. وانما قال يا أسفى » ؟

وقيل ما جفت عينا يعقوب .. من وقت فراق يوسف . الى حين لقائه .. وما على وجه الأرض أكرم على الله من يعقوب .

وجاء فى تفسير الكشاف عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه سأل جبريل - عليه السلام - ما بلغ من وجد يعقوب على يوسف ؟ .. قال : وجد سبعين ثكلى .. قال : فما أجره ؟ .. قال : أجر مائة شهيد .. وما ساء ظنه بالله ساعة قط (١) .

ولم يذكر يعقوب فى أسفه غير يوسف .. وهذا دليل على شدة الرزء فيه مع تقادم عهده .. أو كأن احساسه بعودة يوسف اليه .. مازال غضا طريا .

***

وقالوا : كيف جاز لنبى الله ان يبلغ به الجزع ذلك المبلغ ؟ .. ولكن .. من الطبيعة البشرية .. عدم القدرة على امتلاك النفس عند الشدائد من الحزن .. ويكون محمود الصبر .. اذا لم يخرج منه ما لا يحسن ولا يليق بالمؤمن .. وقد بكى عليه الصلاة والسلام على ولده ابراهيم وقال : « القلب يجزع .. والعين تدمع .. ولا نقول ما يسخط الرب .. وانا عليك

---

(١) الكشاف ٨٤/يوسف .

يا ابراهيم لمحزونون » وانما الجزع المذموم ما يقع من الجهلة من الصياح والنياحة ولطم الوجوه والصدور وتمزيق الثياب .. وعن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ انه بكى على ولد بعض بناته وهو يجود بنفسه ..

فقيل يا رسول الله تبكى .. وقد نهيتنا عن البكاء ؟ فقال : « ما نهيتكم عن البكاء .. وانما نهيتكم عن صوتين احمقين : صوت عند الفرح .. وصوت عند الترح » .

وقيل دخل على يعقوب جار له .. فقال : يا يعقوب ، قد تهشمت وفنيت .. وما بلغت من السن ما بلغ ابوك .. فقال هشمنى وافنانى ما ابتلانى الله به من هم يوسف .. فاوحى الله اليه : يا يعقوب اتشكونى الى خلقى ؟ قال : يارب .. خطيئة اخطأتها .. فاغفر لى .. فغفر له فكان بعد ذلك اذا سئل قال « انما اشكو بثى وحزنى الى الله » ..

« قالوا تالله تفتأ تذكر يوسف حتى تكون حرضا او تكون من الهالكين . قال انما اشكو بثى وحزنى لله واعلم من الله ما لا تعلمون » ٨٥ ـ ٨٦ يوسف .

وجاء فى كثير من كتب التفسير .. ان يعقوب كان اشترى جارية وولدها .. فباع ولدها .. فبكت الام حتى عميت .. فكانت محنته فى يوسف .

ولكن يعقوب كان يعلم من لطف الله ورحمته .. ان الفرج سيأتيه من حيث لا يحتسب .. وقال بعضهم فى تفسير « واعلم من الله ما لا تعلمون » انه راى عزرائيل فى منامه فسأله : هل قبضت روح يوسف ؟ فقال لا والله هو حى فاطلبه .. ولهذا قال لهم : « يا بنى اذهبوا فتحسسوا من يوسف واخيه ولا تيأسوا من روح الله انه لا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون » ٨٧ يوسف .

كما يروى ان ملك الموت قال له : اطلبه من هاهنا .. واشار الى ناحية مصر .. فلذلك وجههم الى جهة مصر .. دون غيرها (١) ..

□□□

(١) القرطبى ٨٧/يوسف .

٥ كتاب من يعقوب

رد يعقوب ابناءه للمرة الثالثة لشراء التموين من مصر .. وأوصاهم بالتجسس على يوسف واخيه بنيامين .. وامرهم بعدم اليأس من رحمة الله وفرجه .. فلا يجوز اليـأس فى حق المؤمن لان المؤمن يرجو فرج الله .. اما الكافر فيقنط عند الشدة .. وأخذوا معهم ثمن ما يشترون.. وعندما وصلوا الى يوسف .. قالوا له « فلما دخلوا عليه قالوا يا أيها العزيز .. مسنا واهلنا الضر وجئنا ببضاعة مزجاة ، فأوف لنا الكيل وتصدق علينا ان الله يجزى المتصدقين » ٨٨ / يوسف .

ونفهم من هذا .. ان الشكوى جائزة عند الجوع .. بل واجبة اذا خاف المرء على نفسه الضر .. كما هو واجب عليه ان يشكو الم للطبيب ليعالجه .. ولا يكون ذلك قدحا فى التوكل .. ما لم تكن الشكوى تسخطا .. والصبر والتجلد احسن .. والتعفف افضل ..

والبضاعة المزجاة هى المدفوعة ثمنا لما يأخذونه من الحب والطعام .. فما معنى الصدقة هنا ؟ فى قولهم « وتصدق علينا » ..

والمتبادر الى الذهن أنهم يقصدون بالصدقة .. العفو عن بنيامين أخيهم واطلاق سراحه ليعود معهم الى أبيه الذى أصابه من الضر ما أصابه بسبب فقده .. وقد كان سلوته عن أخيه المفقود .

وقد ذكر صاحب تفسير البيضاوى : انهم كلموا العزيز فى رد أخيهم .. وأن احدهم يقصد شمعون قال : ايها الملك والله لتتركنا او لأصيحن صيحة تضع منها الحوامل .. ووقف شعر جسده فخرج من ثيابه .. فقال يوسف لابنه : قم الى جنبه فمسه .. وكان ابناء يعقوب اذا غضب احدهم ومس جلده واحد منهم ذهب الغضب ــ فقال الذى كان غاضبا : من هذا ؟ ان فى هذا البلد لبزرا من بزر يعقوب (١) . وسلموا يوسف كتابا من أبيهم هذا نصه :

من يعقوب بن اسحاق بن ابرهيم ــ خليل الله ــ الى عزيز مصر .. اما بعد : ــ

فأنا أهل بيت موكل بنا البلاء ، اما جدى فشدت يداه ورجلاه ورمى به فى النار ليحرق ، فنجاه الله وجعلت النار عليه بردا وسلاما ، واما ابى فوضعت المدية فى قفاه ليذبح ففداه الله (٢) واما انا فكان لى ابن .. وكان أحب أولادى الى .. فذهب به أخوته الى البرية .. ثم أتونى بقميصه ملطخا بالدم .. وقالوا أكله الذئب .. فذهبت عيناى من بكائى عليه .. ثم كان لى ابن وكان أخاه من أمه .. وكنت اتسلى به .. فذهبوا به ثم رجعوا .. وقالوا انه سرق .. وانك حبسته لذلك .. وانا أهل بيت لا نسرق .. ولا نلد سارقا .. فان رددته على .. والا دعوت عليك دعوة تدرك السابع من ولدك .. والسلام (٣) ثم قالوا ليوسف « مسنا واهلنا

---

(١) البيضاوى والقرطبى ٨٠/يوسف . وبزرا : يعنى نسلا وذرية .
(٢) يقصد اباه اسماعيل فقد أثبتنا ان العم يطلق عليه الاب .
(٣) عن ابن عباس . ذكره القرطبى والثعلبى ٩٠/يوسف .

الضر » وتضرعوا اليه .. فارفضت عينـاه .. وقال لهم بالعبرية « هل علمتم ما فعلتم بيوسف واخيه اذ أنتم جاهلون » ٨٩ / يوسف ..

فلمـا كلمهم بالعبرية عرفوه وقالوا « ائنك لانت يوسف قال انا يوسف » ٩٠ / يوسف .

وروى جويبر عن الضحاك عن ابن عباس قال لهـم يوسف « هل علمتم ما فعلتم بيوسف .. الآية » ثم تبسم .. وكان اذا تبسم .. كأن ثناياه اللؤلؤ المنظوم .. فلمـا أبصروا ثناياه شـبهوه بيوسف .. فقالوا له مستفهمين .. ائنك يوسف ؟ « قال أنا يوسف وهـذا اخى قد من الله علينا انه من يتق ويصبر فان الله لا يضيع اجر المحسنين » ٩١ / يوسف .

وهنا لفتة جميلة من يوسف حين قال لاخوته « هل علمتم ما فعلتم بيوسف واخيـه » حيث اتبعها بقوله « اذ انتم جاهلون » .. وكأنه يقول لهم اخطاتم ثم تبتم .. فكان كلامه شفقة عليهم .. وتنصحا لهم فى الدين .. لا معاتبة وتثريبا .. ايثارا لحق الله على حق نفسه فى ذلك المقام .. الذى يتنفس فيـه المكروب .. وينفث المصدور .. ويتشفى المغيظ المحنق .. ويدرك تارة الموتور فلله أخلاق الأنبياء .. فيقول لهم : اذ كنتم صبيانا فى حد السفه والطيش .. قبل ان تبلغوا أوان الحلم والرزانة .. « قالوا تالله لقد آثرك الله علينـا وان كنـا لخـاطئين » ٩١ / يوسف .

ولهذا قال لهم « لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمـين » ٩٢ / يوسف . ولا تثريب عليكم : أى لا لوم ولا توبيخ ولا تعيير لكم اليوم .. ولهـذا يقول ـ عليه الصـلاة والسلام و « اذا زنت أمة احدكم فليجلدها الحد .. ولا يثرب عليها » اى لا يعيرها .. **وقال بشر:**

فعفوت عنهـم عفو غير مثرب
وتركتهم لعقـاب يوم سرمد

وهكذا يضرب لنا رسـول الله وصفوته .. المثـل العليـا .. فى العفـو والتسـامح .. وعلى راسـهم السراج المنير .. خاتم النبيين وامام المرسـلين .. فقد روى انه عليه الصلاة والسلام ـ اخذ بعضادتى الكعبة يوم الفتح وقد لاذ النـاس بالبيت .. فقال « الحمد لله الذى صدق وعده .. ونصر عبده .. واعز جنده .. وهزم الأحزاب وحـده » ثم قال لقريش : ما ترونني فاعل بكم ؟ قالوا نظن خيرا ، اخ كريم وابن اخ كريم .. وقد قدرت .. فقال : « اقول ما قال اخي يوسف » لا تثريب عليـكم اليوم « اذهبوا فأنتم الطلقاء » .. فقال عمر ـ رضى الله عنه ـ ففضت عرقا .. من الحياء من قول رسول الله .. ذلك أنى قلت لهم ـ حين دخلت مكة ـ اليوم ننتقم منـكم ونفعل .. فلما قال رسـول الله صلى الله عليـه وسـلم ما قال .. استحيت من قولى .

كما روى ان ابا سفيان لما جاء ليسلم ، قال له العباس : اذا اتيت الرسول .. فاتل عليـه « قال لا تثريب عليـكم » ففعل .. فقال عليه الصلاة والسلام ـ « غفر الله لك ولمن علمك » ..

ولما عرفهم يوسف بنفسه .. سألهم عن ابيه .. فقال : ما فعل ابى من بعدى ؟ قالوا : ذهبت عيناه .. فاعطاهم قميصه .. وقال : « اذهبوا بقميصى هذا فالقوه على وجـه أبى يأت بصيرا ، وأتونى بأهلكم اجمعين » ٩٣ / يوسف ..
وكان القميص قميص الجنة لا يقع على سقيم او مبتلى الا عوفى

وكرمهم يوسف .. فأرسلوا اليـه وقالوا : انك تدعونا بالبكرة والعشى الى الطعام .. ونحن نستحى منك لما فرط منا فيك .. فقال لا .. : **ان أهـل مصر كانوا ينظـرون الى ويقولون : سبحان الله .. بلغ عبد ثمنـه عشرون درهما ما بلغ .. ولقد شرفت بكم .. وعظمت فى أعينهم .. فعلموا أنكم أخوتى وأننى من حفدة ابراهيم .**

□□□

٦ ريح الجنـــة

سبق ان ذكرنا ان قميص يوسف كان قميص ابراهيم ـ عليهما السلام ـ أحضره له جبريل ـ عليه السلام ـ عندما ألقي به عاريا في النار .. وكان من حرير الجنة .. وورثه عنه اسحاق .. ثم يعقوب .. ثم يوسف .

* * *

أمر يهوذا على الذهاب بالقميص الى أبيـه وقال انا أحزنتـه بحمل القميص اليه ملطخـا بالدم .. فأفرحـه كما احزنتـه . وقال ابن عباس : حمله يهوذا وخرج ماشيا حاسرا حافيا .. وجعل يعدو حتى أتى أباه .. وكان معـه سبعة ارغفة .. فلم يستوف أكلهـا حتى بلغ كنعان وكانت المسـافة ثمانين فرسخا (١) وقد وجـد يعقوب ريح يوسف من مسيرة ثمان ليال .. ويقول النسفي والقرطبي في هذا المقـام ـ قال مجـاهد : هبت ريح فصفقت القميص .. فاحتملت الصبا ريحه الى يعقوب .. حيث وجد ريح الجنة .. فعلم انه ليس في الأرض من رياح الجنة الا ما كان من ذلك القميص (٢) .

فقال لمن حوله من قومه .. ومن ولد ولده « ولما فصلت العير قال ابوهم اني لأجـد ريح يوسف ، لولا ان تفندون » ٩٤ / يوسف .. أي لولا ان تنسبوني الى الفنـد .. وهو الخبل ونقص العقل .

قال الشاعر :

يا صاحبي دعا لومي وتفنيـدي

فليس ما فات من آمري بمردود

وقال آخـر :

يا عـاذلي دعا المـلام واقصرا

طال الهوى واطلتمـا التفنيـدا

قالوا تالله انك لفي ضلالك القديم ٩٥/يوسف

ووصل يهوذا لاهثا .. والقى القميص على وجه ابيه .. فارتد بصيرا .. وقال الضحاك : رجع اليه بصره بعـد العمى .. وقوته بعـد الضعف .. وسروره بعد الحزن « فلما أن جاء البشير القاه على وجهـه فارتد بصيرا ، قال ألم اقل لكم اني أعلـم من الله ما لا تعلمون » ٩٦ / يوسف / وسأل يعقوب البشير « يهوذا » كيف يوسف ؟ **فقال :** هو ملك مصر : **قال :** ما أصنع بالملك .. على أي دين تركتـه ؟ **قال :** على دين الاسلام .. قال : تمت النعمة .. .

وقال الحسن ـ رضي الله عنـه ـ لمـا ورد البشير على يعقوب .. لم يجد عنده شـيئا .. يثيبه به .. فقال : والله ما أصبت عندنا شـيئا .. وما خبزنا شيئا منـذ سبع ليال .. ولكن هون الله عليك سكرات الموت .. **« قالوا يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا انا كنا خاطئين ، قال سوف اسـتغفر لكم ربي انه هو الغفـور الرحيـم »** ٩٧ ـ ٩٨ / يوسف .

والملاحظ هنا انه قال لهم « سوف أستغفر لكم ربي » ولم يقل ساستغفر بسين التنفيس .. وانما قالهـا بسوف .. وسوف للتسويف .. وقال أكثر المفسرين انه آخر الاستغفار لهم الى

---

(١) الفرسخ ٣٥٠٠ مترا .

(٢) النسفي والقرطبي ٩٤/يوسف .

السحر من ليلة الجمعة ووافق ذلك ليلة عشوراء .

وقال فى دعائه : اللهم اغفر لى جزعى على يوسف .. وقلة صبرى عنه .. واغفر لولدى ما جنوا على أخيهم .. فأوحى الله انى قد غفرت لك ولهم اجمعين .

وللدعاء فى ليلة الجمعة وفى وقت السحر فضل كبير .. فقد جاء فى دعاء الحفظ – من كتاب الترمذى – عن ابن عباس .. انه قال : بينما نحن عند رسول الله – صلى الله عليه وسلم – اذ جاءه على بن ابى طالب – رضى الله عنه – فقال : بأبى انت وامى – تفلت هذا القرآن .. من صدرى فما اجدنى اقدر عليه .. فقال له رسول الله – صلى الله عليه وسلم – « أولا اعلمك كلمات ينفعك الله بهن .. وينفع بهن من علمته .. ويثبت ما تعلمت فى صدرك » قال اجل يا رسول الله .. فعلمنى .. قال « اذا كان ليلة الجمعة .. فان استطعت ان تقوم فى ثلث الليل الآخر .. فانها ساعة مشهودة .. والدعاء فيها مستجاب .. وقد قال اخى يعقوب لبنيه (سوف استغفر لكم ربى) يقول حتى تأتى ليلة الجمعة » .. كما ورد عن محارب ابن دثار عن عمه .. قال : كنت آتى المسجد فى السحر .. فامر بدار ابن مسعود .. فأسمعه يقول : اللهم انك امرتنى فأطعت .. ودعوتنى فأجبت .. وهذا سحر فاغفر لى فلقيت ابن مسعود .. فقلت : كلمات اسمعك تقولهن فى السحر .. فقال : ان يعقوب اخر بنيه الى السحر بقوله « سوف استغفر لكم ربى » .

وقال وهب : كان يستغفر لهم كل ليلة جمعة فى نيف وعشرين سنة .

وعن عطاء الخرسانى .. قال : طلب الحوائج الى الشباب أيسر منها الى الشيوخ .. **الا ترى الى قول يوسف لاخوته « لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم » وقول يعقوب لهم « سوف استغفر لكم ربى » ؟ ..**

□ □ □

(١) القرطبى وغيره ٩٦/يوسف .

٧ رحلة يعقوب إلى مصر

ارسل يوسف الى ابيه جهـازا .. ومائتى راحلة .. ليتجهز اليه بمن معه .. طالبا منهم الحضور الى مصر .

وخرج ومعه الملك فى اربعة آلاف من الجنـد والعظماء وأهل مصر بأجمعهم للقاء ابيه واهله .

ووصل يعقوب يتوكا على يهوذا .. فنظـر الى الخيل والجمع الكبير من النـــاس .. فقال يا يهوذا .. اهذا فرعون مصر ؟ .. قال : لا .. هذا ولدك يوسف .. فلما لقيه ، قال يعقوب : الســـلام عليك يا مذهب الأحزان (١) .. وبكى .. وبكى معه يوسف .. بكى يعقوب فرحا .. وبكى يوسف لما راى من حزن أبيـه .. ثم قال يعقوب : الحمد لله الذى اقر عينى بعـد الهموم والأحـــزان .. وقيل ان يوسف قال لأبيه .. لما التقيا .. يا ابت بكيت على حتى ذهب بصرك .. الم تعلم أن القيامة تجمعنـا ؟ .. فقال لى .. ولكن خشيت ان تسلب دينك .. فيحـــال بينى وبينك ..

« فلما دخلوا على يوسف آوى اليه ابويه ؛ وقال ادخـــلوا مصر ان شـــاء الله امنـــين » ٩٩ / يوسف .

وقيل دخل يعقوب وولده مصر وعـددهم تسعون انسانا .. ما بين رجل وامراة وصغير .. ولم يخرجوا منها .. الا مع موسى .. وكان عددهم ستمائة الف وخمسمائة وبضعة وسبعون رجـلا سوى الذرية الذين كان عددهم الف الف او يزيدون (٢) .

« ورفع ابويه على العرش وخروا له سجدا ... الى آخـر الآية » ١٠٠ / يوسف / وابواه هنا هما ابوه وخالته ــ زوجة ابيه ــ لأن الراية تدعى اما لقيامها مقام الأم .. أو لأن الخـالة أم كما أن العم اب .. ومنـه قوله تعالى : « واله آبائك ابراهيم واسماعيل واسحاق » ..

ولعل ملاحظة لا تخفى على القارىء اللبيب .. وهى أن قوله « ادخلوا مصر ان شـاء الله » بعد ان قال « آوى اليــه أبويه » .. فما معنى دخولهم عليـه وايواء ابويه قبل دخولهم مصر ؟ .. والمعنى الذى يتبادر الى أذهاننـا .. أنهـم دخلوا عليه فى خيمة الملك .. عنـدما قابلهم على حدود الديار المصرية .. فآوى اليـه أبويه .. ضما وتعانقا وتقبيلا .. ثم قال : « ادخلوا مصر ان شاء الله آمنين » . وبعد وصول الركب الى عاصمة الديار .. رفع أبويه على سريره تكريما لهما وتبجيــلا .. وخر أخوته له سجـدا .. « ورفع أبويه على العرش وخروا له سجـدا » ١٠٠ / يوسف .

فكيف يجوز ان يكون السجود لغير الله ؟ .. قيل كانت السجدة جارية عندهم مجرى التحية والتكريم .. كالعنـاق والتقبيـل وغير ذلك .. مما جرى عليه عرف المجتمع ..

وقيل ما كانت السـجدة الا انحنـــاء .. دون تعفير الجباه .. ولكن هـذا المعنى لا يتفق مع قوله تعالى « وخروا له سجـدا » فالخرور لا يكون بالانحناء .

---

(١) القرطبى ١٠٠/يوسف .

(٢) القرطبى ١٠٠/ يوسف .

وهناك راى يقول وخروا لأجل يوسف سجدا لله .. شكرا له على تكريمه .. وجعله ملكا على مصر .. وهذا المعنى ايضـا لا يتفق مع رؤياه « رايتهم لى ساجدين » فكان السجود له هو شخصيا ..

فلم يبق أمامنا الا الراى الاول .. وهو ان يكون السجود فى ايامهم علامه على شدة التوقير والتبجيل والتكريم . وفى رايى ان ابويه لم يسجدا له .. وانما الذين سجدوا هم اخوانه الاحد عشر ، فالسجود حصل بعد ان « رفع ابويه على العرش » فان قال قائل ان الرؤيا تقول « انى رايت احد عشر كوكبا ، والشمس والقمر، رايتهم لى ساجدين » وقد يفهم من هذا ان السجود شمل الكواكب والشمس والقمر ؟ نقول . ان الضمير فى « رايتهم » يجوز ان يعود على الكواكب فقط دون الشمس والقمر .. والا فما هو المقصود من تكرار كلمة رايتهم « مع انه فى اول كلامه قال « انى رايت احد عشر كوكبا »؟

« وقال يا أبت هذا تاويل رؤياى من قبل قد جعلها ربى حقا وقد احسن بى اذ اخرجنى من السجن وجاء بكم من البدو من بعد أن نزغ الشيطان بينى وبين اخوتى ان ربى لطيف لما يشاء انه هو العليم الحكيم ١٠٠/ يوسف/.

ولا يفوتنا هذا الادب الرفيع .. والاحساس المرهف .. من يوسف ـ عليه السلام ـ لما قال « وقد احسن بى اذ اخرجنى من السجن » ولم يقل من الجب .. لئلا يذكر اخوته صنيعهم .. بعد عفوه وصفحه بقوله « لا تثريب عليكم » .. ولهذا قيل : ذكر الجفاء فى وقت الصفاء جفاء ..

اخذ يوسف بيد أبيه يعقوب .. وطاف به فى خزائنه .. فأدخله خزائن الذهب والفضة . وخزائن الحلى .. وخزائن الثياب .. وخزائن السلاح .. وغير ذلك .. فلما ادخله خزانة القراطيس .. قال : يا بنى ما اعقك .. عندك كل هذه القراطيس .. وما كتبت الى على ثمان مراحل .. قال : امرنى جبريل بهذا .. قال : أو ما سألته عن السبب .. قال : انت ابسط اليه منى فسله ..

قال جبريل ـ عليه السلام ـ الله تعالى أمرنى بذلك لقولك « وأخاف أن يأكله الذئب ». قال : فهلا خفتنى ؟

واقام يعقوب بمصر بعد موافاته باهله وولده اربعة وعشرين سنة باحسن حال .. واهنأ عيش .. واتم راحة .. وادوم سلامة .. ثم حضرته الوفاة .. فلما احتضر جمع بين بنيه .. وقال « أم كنتم شهداء اذ حضر يعقوب الموت اذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدى قالوا نعبد الهك واله آبائك ابراهيم واسماعيل واسحاق الها واحدا نحن لمسلمون « ١٣٣/ البقرة . قال « يابنى ان الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن الا وانتم مسلمون » ١٣٢/ البقرة .

واوصى الى يوسف .. ان يحمل جسده الى الارض المقدسة .. ويدفنه عند ابيه اسحاق وجده ابراهيم ..

ووضع يوسف جثمان ابيه فى صندوق من الساج .. وخرج به فى موكب كبير .. حتى دفنه بنفسه فى مغارة المكفيلة .. فى الخليل بفلسطين مع ابيه وجده .

وقال الثعلبى والقرطبى : مات فى نفس اليوم اخوه عيص .. وسنهما مائة وسبعا واربعين سنة ..

ولدا فى بطن واحد .. وماتا فى يوم واحد .. ودفنا فى قبر حدا .

وعاد يوسف بعد ان دفن اباه الى مصر (١)

ولد ليوسف افرائيم وميشا .. وولد لافرائيم نون .. وولد لنون يوشع ـ فتى موسى ـ ورحمة امراة أيوب (٢) وقال بعض ائمتنا .. لما جمع الله ليوسف شمله .. واقر له عينه .. وأتم له تفسير رؤياه .. وكان موسعا عليه فى ملك الدنيا ونعيمها .. وهو يعلم أن ذلك لا يدوم له .. وانه لابد له من فراقه .. فاراد نعيم الجنة .. اذ هو افضل منه واخلد .. فتاقت نفسه الى الجنة .. فتمنى الموت ودعا به .. ولم يتمن نبى قبله ولا بعده الموت .. فقال « رب قد آتيتنى من الملك وعلمتنى من تأويل الأحاديث فاطر السماوات والأرض انت وليى فى الدنيا والآخرة ، توفنى مسلما والحقنى بالصالحين » ١٠١/ يوسف ..

وروى عن عمر بن عبد العزيز : أن ميمون ابن مهران بات عنده ليلة .. فرآه كثير البكاء والمسألة للموت ..

---

(١) القرطبى ١٠٠/يوسف .

(٢) القرطبى ١٠١/يوسف .

فقال له : صنع الله على يديك خيرا كثيرا .. احييت سنما .. وامت بدعا .. وفى حياتك خير وراحة للمسلمين .. فلماذا تطلب الموت ؟ قال .. افلا اكون كالعبد الصالح ـ يوسف ـ لما اقر الله عينه .. وجمع له أمره .. قال « توفنى مسلما والحقنى بالصالحين » [3] .

ولكن رأى الجمهور على ان يوسف ـ عليه السلام ـ لم يتمن الموت .. وانما تمنى الوفاة على الاسلام .. اى اذا جاء اجلى توفنى مسلما .. قال سهل بن عبد الله التسترى : لا يتمنى الموت الا ثلاث : رجل جاهل بما بعد الموت .. او رجل يفر من اقدار الله تعالى عليه .. او مشتاق محب للقاء الله عز وجل .. وثبت فى الصحيح عن انس .. قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « لايتمنين احدكم الموت لضر نزل به .. فاذا كان لابد متمنيا فليقل : اللهم احينى ما كانت الحياة خيرا لى .. وتوفنى اذا كانت الوفاة خيرا لى » .. رواه مسلم .. وفيه عن ابى هريرة .. قال .. قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « لا يتمنى احدكم الموت ولا يدع به .. من قبل ان يأتيه .. انه اذا مات احدكم .. انقطع عمله .. وانه لا يزيد المؤمن الا خيرا [1] .

ولهذا نرجح ان يوسف عليه السلام .. تمنى الوفاة على الاسلام .. وهو ظاهر النص..

وروى ان يوسف عليه السلام لما حضرته الوفاة .. جمع اليه قومه من بنى اسرائيل وهم ثمانون رجلا ، واخبرهم بدنو اجله ، واوصى الى اخيه يهوذا .. واستخلفه على بنى اسرائيل .
عاش بعد موت ابيه ثلاثا وعشرين سنة .. وتوفاه الله طيبا طاهرا .. فتخاصم اهل مصر فى دفنه .. حتى هموا بالقتال .. فرأوا ان يجعلوه فى صندوق من المرمر .. ويدفنوه فى النيل .. بحيث يمر عليه الماء .. وكان سنه مائة وعشرين سنة .. وظل مدفونا فى مصر .. حتى نقله موسى ـ عليه السلام ـ الى مدافن آبائه بالشام .

وعن الحسن قال : القى يوسف فى الجب وهو ابن سبع عشرة سنة .. وكان فى العبودية والسجن والملك ثمانين سنة ، ثم جمع له شمله فعاش بعد ذلك ثلاثا وعشرين سنة [2] .

ولقد توارثت الفراعنة ـ العماليق ـ ملك مصر من بعد يوسف .. ولم يزل بنو اسرائيل تحت ايديهم .. على بقايا دين يوسف وآبائه .. الى ان بعث الله موسى ـ عليه السلام ـ

وروى يونس بن عمران عن ابى موسى قال : نزل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ باعرابى فاكرمه .. فقال رسول الله ! « اكرمتنا فاحسنت .. سل حاجتك » فقال : ناقة نرحلها .. وعنزة يحلبها أهلى .. فقال عليه الصلاة والسلام : « أعجز هذا أن يكون مثل عجوز بنى اسرائيل فقالوا : يا رسول الله : وما عجوز بنى اسرائيل ؟ فقال : « ان بنى اسرائيل لما خرجوا مع موسى من مصر ضلوا الطريق .. وأظلم عليهم الليل .. فقالوا : ما هذا ؟ فقال علماؤهم : أن يوسف لما حضرته الوفاة .. اخذ علينا موثقا من الله الا نخرج من مصر .. حتى ننقل عظامه معنا .. قال موسى : فمن يعلم موضع قبره ؟ .. قالوا عجوز بنى اسرائيل .. فبعث اليها موسى فأتت .. فقال دلينى على قبر يوسف .. فقالت له : تعطينى حكمى ! قال : وما حكمك ؟ قالت : أن أكون معك فى الجنة ، فكره أن يعطيها حكمها .. فأوحى الله اليه ان أعطها حكمها ، ففعل » [2] .

وروى ابو اسحاق الثعلبى رواية اخرى عن طريق آخر .. أن هذه العجوز كانت مقعدة عمياء .. فقالت لموسى : الا اخبرك بموضع قبر يوسف ؟ قال : نعم ، فقالت : لا أخبرك حتى تعطينى اربعا : تطلق رجلى .. وتعيد الى بصرى .. وشبابى .. وتجعلنى معك فى الجنة .. فكبر ذلك على موسى .. فأوحى الله اليه أن اعطها ما سألت .. فانك تعطى على .. ففعل .. فانطلقت بهم الى موضع عين فى ماء فاستخرجوه من شاطىء النيل .. فى صندوق من مرمر .. فلما حملوا تابوته طلع القمر .. وأضاء الطريق مثل النهار .. فاهتدوا به الى ساحل البحر .

---

(١) القرطبى ٦٨/الشعراء .
(٢) القرطبى ١٠١/يوسف .
(٣) القرطبى ١٠١/يوسف .

((إنا وجدناه صابرا نعم العبد أنه أواب))

((صدق الله العظيم))

○ من نبـأ
أيـــوب

((امام الصـــابرين))

١ أيوب الرومى ـ عليه السلام »

ذكرنا في نبأ اسحاق ويعقوب ـ عليهما السلام ـ أن عيص بن اسحاق .. ترك بلاد الشام لأخيه يعقوب .. وتنقل بزوجته نسيمة بنت عمه اسماعيل وابنائهما فى أرجائها .. ثم عبر الى الروم واستوطنها .. وصار ذلك لولده من بعده .. فكل بنى الأصفر ـ الروم ـ من ولده .. وكثرت ذرنته فى تلك البلاد ..

* * *

واستنبأ الله منهم .. ايوب بن اموص بن تارخ بن روم بن عيص بن اسحاق .. وكانت امه من ولد لوط بن هاران .. اخى ابراهيم ـ عليهما السلام ـ وقيل فى وصفه : أنه كان رجلا طويلا .. عظيم الرأس .. جعد الشعر .. حسن العينين والخلق .. قصير العنق .. غليظ الساقين والساعدين .

* * *

اصطفاه الله ونباه وبسط عليه الدنيا ...

قيل كان له التنية (١) من ارض الشام كلها .. سهلها وجبلها .. وما كان فيها .. وكان له من جميع أصناف المال .. من الابل والبقر والغنم والخيل والحمير .. ما لا يكون لرجل افضل منه .. فى العدة والكثرة .. وكان له بها خمسمائة فدان .. يتبعها خمسمائة عبد .. لكل عبد امراة وولد ومال ونخيل .. وتحمل آلة كل فدان أتان (٢) .. ولكل اتان ولد من الاثنين الى فوق الخمسة . وأعطاه الله اهلا وولدا .. من رجال ونساء .

وكان رجلا تقيا .. رحيما بالمساكين .. يكفل الارامل والايتام .. وقيل انه لم يأكل قط الا مع يتيم .. يكرم الضيف .. ويبلغ ابن السبيل .. وكان شاعرا بأنعم الله عليه .. مؤديا لحقه .. عبادة واحسانا وشكرا .

لم يستطع أبليس .. أن يصيب منه ما اصاب من أهل الغنى .. من الغفلة والاغترار .. والمشاغل والنسيان لأمر الله ـ تعالى .. بما هو فيه من متعة الدنيا وزخارفها وأموالها وواليها ..

وكان اولاده ـ كما قال الزمخشرى صاحب تفسير الكشاف ـ سبعة ذكور وسبع اناث : أو ثلاث اناث .

كما روى الشيرازى ـ صاحب تفسير البيضاوى ـ ان امرأته ما خير .. بنت منشا ابن يوسف .. لكن الجمهور على أنها رحمة .. بنت أفرائيم بن يوسف ـ عليه السلام .

وآمن معه ثلاثة .. وصدقوه .. وعرفوا فضله وقربه من الله .. وذكر النيسابورى الثعلبى ان احدهم رجل من اهل اليمن اسمه « اليفن » ورجلان من أهل بلاده يقال لاحدهما « مالك » وللثانى « ظافر » ، وكان الثلاثة كهولا .. ولنا لقاء مع هؤلاء الثلاثة فى فصل لاحق ان شاء الله تعالى ..

* * *

ذكر ايوب ـ عليه السلام ـ فى القرآن الكريم ، بانه من المحسنين : ((ونوحا هدينا من قبل ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجزى المحسنين)) ٨٤/ الانعام ..

- **والضمير فى ((ومن ذريته)) يعود الى نوح** .. وان كان بعض المفسرين يقولون : انه يعود الى ابراهيم .. كما ذكر أيوب ايضا فى القرآن الكريم بأنه من الموحى اليهم :

« وأوحينا الى ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب » ١٦٣/ النساء .

* * *

(١) الثنية : طريق العقبة .

(٢) الأتان : الحمار .

٢ إمام الصابرين

قال وهب : ان لجبريل ـ عليه السلام ـ بين يدى الله .. مقاما ليس لأحد من الملائكة مثله .. فى القربة والفضيلة .. وان جبريل هو الذى يتلقى الكلام من الله ـ سبحانه ـ فاذا ذكر الله عبدا بخير تلقاه جبريل .. ثم ميكائيل .. ثم من حوله من الملائكة المقربين .. والحافين من حول العرش .. فاذا شاع ذلك فى الملائكة المقربين .. صارت الصلاة على ذلك العبد .. من اهل السماوات :

« هو الذى يصلى عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات الى النور وكان بالمؤمنين رحيما » ٤٣ / الاحزاب .

واقرا « الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا .. الخ » ٧ / غافر .

فاذا صلت على العبد ملائكة السماوات .. واستغفروا له .. هبط عليه بالصلاة الى ملائكة الأرض ..

* * *

وكان ابليس .. يقف من السماوات حيث شاء (١) .. لا يحجب عنها .. ولا يعوقه شىء عن التجول فى ارجائها .. ومن هناك وصل الى آدم .. حين اخرجه من الجنة .. ولم يزل يصعد الى السماء حيثما اراد .. حتى رفع الله تعالى عيسى ـ عليه السلام ـ فحجب ابليس عن اربع سماوات .. فكان لا يقعد الا فى ثلاث .

فلما بعث الله محمدا ـ عليه الصلاة والسلام ـ حجب عن الثلاث الباقية .. فهو وقبيله محجوبون عن جميع السماوات .. الى يوم القيامة .

وقال الله تعالى على لسان الجن « وانا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرسا شديدا وشهبا وانا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا » ٨ ـ ٩ / الجن .. ويقول ايضا ـ جل شانه ـ « الا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين » ١٨/ الحجر .

* * *

كان ابليس يعقد مقعده فى السماء .. فسمع تجاوب الملائكة بالصلاة على ايوب .. حين ذكره الله بالخير واثنى عليه .. فاشتعلت فى قلبه نيران الحقد والبغى والحسد .. فلم يطق على ذلك صبرا .. ودبر فى نفسه امرا ...

فصعد سريعا فى السماء .. حتى بلغ موقفا منها .. كان يقفه من الله تعالى .. وقال :

يا الهى : نظرت فى امر عبدك ايوب .. فوجدته عبدا .. اتممت عليه نعمك فشكرك وعافيته فحمدك .. ثم لم تختبره لا بشدة ولا بلاء .. وانا لك يارب زعيم .. لئن ضربته ببلاء .. ليكفرن بك ولينسينك .. فقال الله تعالى : انطلق اليه فقد سلطتك على ماله . فانقض عدو الله حتى بلغ الارض .. ثم جمع قادة الشياطين وزعماءهم وعظماءهم .. فقال : ماذا عندكم من القوة والحيلة والمعرفة .. حيال هذا العبد أيوب ؟ فقد سلطنى الله على ماله .. وزوال المال هو المصيبة الفادحة .. والفتنه التى لا يصبر عليها الرجال .. هيا اعدوا عدتكم

---

(١) الثعلبى والقرطبى ٤١/ص .

.. واستجمعوا كل قوتكم .. وسخروا كيدكم .. لزوال مال هذا الرجل .

❊ ❊ ❊

فقال احدهم : لقد اعطيت من القوة .. ما لو شئت تحولت اعصارا من نار .. وحرقت كل شيء يمتلكه ..

فقال له ابليس : فان الابل فاحرقها ورعاتها .. فانطلق يوم الابل .. حتى وضعت رءوسها .. وثبتت فى مراعيها .. فما يشعر الناس .. الا وقد ثار من باطن الارض اعصار من نار .. تنفخ فيه رياح السموم .. لا يدنو منه احد الا احترق .. فلم يزل يحرقها .. حتى اتى على آخرها .. ومعها رعاتها .

❊ ❊ ❊

فلما فرغ منها . تمثل ابليس .. على قعود من الابل .. فى صفة راعيها .. ثم انطلق الى ايوب .. فوجده قائما يصلى .

فقال له : يا ايوب

قال : لبيك ..

قال : هل تدرى مالذى صنع ربك ــ الذى اخترته وعبدته ــ بابلك ورعاتها ؟

قال له ايوب : انها ماله اعارنى اياه .. وهو اولى بها .. ان شاء تركها .. وان شاء اخذها .. وقد طبت نفسى .. انى ومالى للفناء والزوال .. فقال له ابليس ان ربك أرسل اليها نارا من السماء .. فاحترقت كلها .. وبقى الناس مبهوتين ذاهلين .. من هذا الذى حدث .. فمنهم من يقول : ما كان ايوب يعبد شيئا .. وما كان الا فى غرور .. ومنهم من تقول : لو كان اله ايوب .. يقدر على أن يصنع شيئا .. لمنع وليه من احراق ماشيته .. ومنهم من يقول : بل هو الذى فعل ما فعل .. فشمت به عدوه .. وفجع به صديقه .. ولعلك تذكر يا ايوب قول الشاعر :

كل المصائب قد تمر على الفتى
فتهون غير شماتة الحساد
ان المصائب تنقضى ايامها
وشماتة الاعداء بالمرصاد

فقال ايوب : الحمد الله الذى أعطانى .. وحيث شاء نزع منى .. عريانا خرجت من بطن أمى .. وعريانا اعود الى قبرى .. وعريانا احشر الى ربى .

ليس ينبغى لك ان تفرح حين اعارك الله .. وتجزع حين قبض عاريته .. فهو اولى بك وبما اعطاك .. ولو علم الله فيك ايها العبد خيرا .. لنقل روحك مع تلك الارواح .. وصيرك شهيدا مع الشهداء .. ولكنه علم فيك شرا .. فأخرجك وخلصك من البلاء .. كما يخلص الزوان (١) من القمح الخالص .

فعاد ابليس الى اصحابه .. مذءوما مدحورا .. خائبا ذليلا ..

وكلما انتهى خبر الى ايوب .. بهلاك مال من ماله .. حمد الله وأحسن الثناء عليه .. ورضى بالقضاء .. ووطن نفسه بالصبر على البلاء .. حتى لم يبق له مال .

❊ ❊ ❊

فلما رأى ابليس .. انه قد أفنى ماله .. ولم ينل منه شيئا .. ولا نفع فى أمر من أفعاله معه .. شق ذلك عليه .. وصعد ثانية .. الى الموقف الذى كان يقفه من الله فى السماء .. وقال يا الهى : ان أيوب يرى انك طالما تمتعه بنفسه وولده .. فأنت معطيه المال ..

فهل تسلطنى على والده .. فانها الفتنه المضلة .. والمصيبة التى لا تقوم لها قلوب الرجال .. ولا يقوى عليها صبرهم ؟ ..

❊ ❊ ❊

فقال الله تعالى : انطلق فقد سلطتك على ولده .. فانقض عدو الله .. حتى جاء ابناء أيوب ــ عليه السلام ــ وهم فى قصرهم .. فلم يزل يزلزل القصر .. حتى تداعى من قواعده .. وجعل يناطح بجدرانه بعضها بعضا .. ثم رفع بهم القصر وقلبه .

ثم انطلق الى أيوب .. متمثلا بالمعلم .. الذى كان يعلمهم الحكمة .. وهو جريح مشدوخ الراس والوجه .. يسيل دمه من رأسه .. فأخبره بذلك .. وقال له : يا أيوب .. لورايت بنيك كيف عذبوا .. وكيف قلب بهم القصر .. وكيف نكسوا على رءوسهم .. تسيل دماؤهم من انوفهم وشفاههم .. ولو رايت كيف شقت بطونهم .. فتناثرت أمعاؤهم .. لتقطع قلبك .. وتمزق وجدانك .. ولم يزل يقول هذا .. ويردده .. حتى رق أيوب .. وكاد أن يغلبه الوجد والأسى .. ولكنه احتسبهم عند الله واستغفر وشكر ..

---

(١) الزوان حب يخالط حب القمح .

ويقول بعض المفسرين : ان ايوب .. عندما تحركت اشجانه بما سمع من ابليس .. غلبته عاطفة الأبوة .. فبكى وقبض قبضة من التراب فوضعها على راسه .. فاغتنم ابليس الفرصة منه لذلك .. وصعد سريعا بالذى كان من جزع ايوب مسرورا .. ثم لم يلبث أيوب .. أن ابصر فاستغفر .. وشكر .. فصعد قرناؤه من الملائكة باستغفاره وتوبته .. فبدروا ابليس وسبقوه الى الله تعالى ..

ونحن لا نقر ان ايوب الذى قال الله عنه .. « انا وجدناه صابرا نعم العبد انه اواب » يضع التراب على راسه جزعا وهلعا .. وليست هذه من افعال الانبياء والمقربين .. ولا يجوز فى حقهم .. الا ما يكون من الحزن والبكاء فقط .. وانما هى من الدسس الاسرائيلى .. فما راينا نبيا من انبياء الله .. سلم من افكهم او نجا من طعنهم واتهامهم .

* * *

ويعود ابليس .. ليقف موقفه بين يدى الله .. خاسئا ذليلا .. مذءوما مدحورا .. فيقول الهى : انما هون على ايوب خطر المال والولد .. انه يرى انك طالما تمتعه بنفسه وصحته .. فستعيد اليه المال والولد .. فهل انت مسلط على نفسه وبدنه ؟ .. فانى لك زعيم .. لئن ابتليته فى جسده لينسينك .. وليكفرن بك .. وليجحدن نعمتك .

* * *

فقال الله تعالى : انطلق فقد سلطتك على جميع جسده .. ولكن ليس لك سلطان على لسانه وقلبه .. ولا على عقله .

* * *

وان الله ــ سبحانه ــ لم يسلط ابليس على مال ايوب واولاده وجسده .. الا ليزيد له الأجر .. ويجزل له العطاء .. ويجعله اماما للصابرين .. وذكرى للعابدين .. وليكون اسوة للمبتلين .. فى الصبر والرجاء ..

وانقض عدو الله الى أيوب .. فوجده ساجدا .. فأتاه من قبل الارض .. فى موضع وجهه .. ونفخ فى منخريه .. نفخة اشعل منها جسده .. وأحرق كبده فاصيب بالاستسقاء

وقيل كانت مدة مرضه .. سبع سنين وسبعة اشهر وسبع ساعات .

كما قيل عن سبب بلائه .. انه استغاث به مظلوم فلم يغثه .. وقيل انه اعجب بكثرة ماله .. كما قيل ان ماشيته كانت فى ناحية ملك كافر فداراه ولم يغزه [٢]

ولكن النفس ترتاح لراى يقول : انه سأل الله امتحانا لصبره .. عندما اتم الله عليه نعمته .. فتلك طبيعة المقربين . يتلذذون بالبلاء .. لانه يزيد قلوبهم نقاء .. وافئدتهم جلاء .. وبصرهم اشعاعا وصفاء .

ورسولنا ــ صلى الله عليه وسلم يقول : « اشدكم بلاء الانبياء ، ثم الشهداء : ثم الاولياء ثم الامثل فالامثل » ..

* * *

واشتد به المرض .. فهزل جسمه .. وضمر عوده .. ووهت قواه .. حتى صار هيكلا من العظم .. لا حول له ولا قوة .. تقوم زوجته رحمة بنت افرائيم بن يوسف ــ عليه السلام ــ بكل حوائجه .. تسعى لكسب قوته وقوتها .. وتقوم على خدمته ليلها ونهارها .. صابرة هى ايضا على قضاء الله وقدره .. راضية لمشيئته وارادته .. لتكون مثلا صالحا للزوجة الصالحة .. وهو لم يزدد الا قربا من الله .. وانجاها اليه بكل خلجاته وسكناته وحركاته .. اعجزه المرض .. عن الصلاة لله .. قائما او قاعدا .. فكان يصلى اتجاها الى مولاه براسه .. ثم بأجفان عينيه من شدة المرض ..

وجاء فى كثير من كتب التفسير كالبيضاوى والكشاف أن امرأته رحمة .. قالت له يوما : يا ايوب . لو دعوت الله .. ليرفع عنك البلاء ؟ فقال لها : كم مدة الرخاء ؟ قالت ستين عاما .. قال : استحى من الله ان ادعوه .. وما بلغت مدة بلائى مدة رخائى ..

كما روى ان اخوانه الثلاثة الذين آمنوا به وصدقوه .. انقطع عنه احدهم .. فسأل عنه .. فقيل : القى اليه الشيطان .. **أن الله لايبتلى الأنبياء .. فانقطع عنك .. فزاده ذلك الما .. ولكنه لم ينقص من ايمانه وصبره شيئا ..**

* * *

(١) القرطبى وغيره عن ابن عباس ٤١/ص .

(٢) القرطبى وغيره ٤١/ص .

٣ افتراءات

شطح خيال بعض المفسرين ـ سامحهم الله ـ فى وصف مرضه .. فقالوا عنه اشياء غير معقولة .. ومنفرات ليست مقبولة .. فالله ـ سبحانه ـ اجل من ان يبتلى احبابه واصفياءه .. بأمراض تشمئز منها النفوس .. وتزكم الانوف .. وانا انقل هنا بعض تلك الروايات ، ليكون القارىء حذرا فى قراءته ..

يقول ابو اسحاق النيسابورى الثعلبى صاحب كتاب ((العرائس)) :

نفخ ابليس فى منخريه نفخة اشعل منها جسده .. فذهل .. وخرج به من راسه الى قدمه .. ثآليل .. مثل اليات الغنى .. ووقعت فيه حكة لا يملكها .. ولا يتماسك عن حكها .. فحك باظفاره .. حتى سقطت كلها .. ثم حكها بالحجارة الخشنة .. فلم يزل يحكها .. حتى نزل لحمه .. وتقطع وتغير وانتن .. فأخرجه اهل القرية .. فجعلوه على كناسة وجعلوا له عريشا .. فرفضه خلق الله كلهم .. غير امراته .

وقالوا : وقعت دودة من فخذه على الارض .. فاخذها .. وردها الى موضعها .. وقال لها : كلى ، فقد جعلنى الله طعاما لك ..

وقالوا : كان لايوب اخوان .. فاتياه .. وقاما من بعيد .. لا يقدران على الدنو منه .. من نتن ريحه .. فقال احدهما لصاحبه : لو كان الله علم فى ايوب خيرا .. ما ابتلاه بماترى

ونسبوا اليه انه قال فى دعائه : الهى : تقطعت اصابعى .. فانى لا ارفع الاكلة من الطعام .. الا على الجهد منى .. الهى ، تساقطت لهواتى .. ولحم راسى .. فما بين اذنى من سداد .. بل احداهما يرى من الاخرى وان دماغى ليسيل من فمى .. الهى .. تساقط شعرى عينى .. كأنما احرق بالنار وجهى .. وحدقتاى مدليتان على خدى .. وورم لسانى حتى ملأ فمى .. فما ادخل فيه طعاما الا غصنى .. وورمت شفتاى حتى غطت العليا أنفى .. والسفلى ذقنى .. وتقطعت امعائى فى بطنى .. وانى لادخل الطعام .. فيخرج كما دخل .. ما احسه .. ولا ينفعنى .. وذهبت قوة رجلى .. فكأنهما قد يبستا ولا اطيق حملهما .. وذهب المال .. فصرت اسأل بكفى .. ويطعمنى من كنت اعوله اللقمة الواحدة .. فيمن على بها ويعيرنى .. الهى : هلك اولادى .. ولو بقى واحد منهم .. لاعاننى على بلائى ونفعنى .. **الى أن قال ـ كما زعموا ـ أن قضاءك هو الذى أذلنى .. وادنانى وأهاننى .. وان سلطانك هو الذى اسقمنى .. وانحل جسمى ..**

* * *

فهل يعقل أن يبتلى الله عبده أيوب ـ عليه السلام ـ بهذا المرض القذر .. المنتن المنفر .. الذى يؤذى الاعين .. ويزكم الانوف .. ويقزز النفوس .. وينفر الاصدقاء .. فيتناثر الدود من جسمه وينأى عنه الاخلاء لعدم قدرتهم على تحمل نتنه ؟

مع أن اول الصفات الواجبة للانبياء .. الطهارة .. والنظافة .. والذوق الجميل .. والصورة الحسنة .

وهل يجوز ان نتصور .. ان النبى النقى الصابر أيوب .. يناجى ربه بهذا الاسلوب

اليائس القانط .. وقد قال الله عنه « انا وجدناه صابرا نعم العبد انه اواب » ٤٤/ص ! وكيف يسيغ الفهم .. هذه الدعوات من أيوب .. وقد قال لزوجته عندما طلبت منه ان يدعو الله .. يكشف عنه البلاء : استحى من الله أن ادعوه وما بلغت مدة بلائى مدة رخائى ؟

هل يشطح بنا الخيال ... كل هذه الشطحات الكاذبة .. والتأولات المفتريات .. بسبب قوله « رب أنى مسنى الضر وانت ارحم الراحمين » ٨٣ / الأنبياء ؟ .

مع ان تلك العبارة من ايوب .. تبين شدة ادبه مع مولاه .. وتلطفه فى السؤال حيث ذكر نفسه بما يوجب الرحمة .. وذكر ربه بغاية الرحمة .. ولم يصرح بالمطلوب .. وهذا هو منتهى اللطف فى السؤال ..

ويحكى ان امراة عجوزا .. تعرضت لسليمان بن عبد الملك .. فقالت : يا أمير المؤمنين .. مشت جرذان بيتى على العصى (١) .. فقال لها ! لقد الطفت فى السؤال .. لاجرم لاردنها تثب وثب الفهود .. ثم ملأ بيتها حبا .

* * *

ارأيت تأدبه فى سؤال ربه .. ولطفه فى حسن رجائه ؟ ثم ارأيت قول الله على لسانه « واذكر عبدنا أيوب اذ نادى ربه انى مسنى الشيطان بنصب وعذاب » ٤١/ص .. **وانظر كيف راعى الادب فى نسبة ذلك الى الشيطان.. ولم ينسبه الى الله تأدبا منه ؟ ..**

* * *

□ □ □

(١) تقصد أن البيت ليس فيه طعام ابدا .. تاكله الفئران .

٤ مناجاة

هل للشيطان سلطان على المؤمن .. حتى يقول ايوب — عليه السلام — « انى مسنى الشيطان بنصب وعذاب » ؟

والنصب او النصب «بضم النون او فتحها»: هو التعب والشر والبلاء .. ولعله كان يقصد ما يوسوس به الشيطان اليه .. من تعظيم المرض .. وتضخيم ما نزل به من بلاء .. ويغريه على السخط والجزع .. فالتجا الى الله تعالى : .. ليكفيه ذلك بكشف البلاء .. وبالتوفيق فى دفعه ورده بالصبر الجميل .

وهناك راى يقول : انه يقصد بالنصب .. تعب البدن .. وبالعذاب .. زوال الاهل والمال

وجاء فى تفسير الكشاف : كيف يكون ايوب صابرا .. وقد شكا الى الله واسترحمه ؟ واجاب الشيخ على السؤال .. فقال : طلب الشفاء .. خيفة الفتنة على اهله وقومه .. حيث كان الشيطان يوسوس اليهم .. كما كان يوسوس اليه .. انه لو كان نبيا .. لما ابتلى بمثل ما ابتلى به .. وطلب منحه القدرة على الطاعة .. فقد بلغ امره الى ان لم يبق منه الا القلب واللسان .

وقد وجدنا ان النصب « بضم النون وتسكين الصاد » أو النصب «بفتح النون وتسكين الصاد» أو النصب (١) « بضم النون والصاد » تؤدى معنى التمثال الذى يصنع ويعبد .. وجمعها انصاب ومنه قوله تعالى « وما اكل السبع الا ما ذكيتم وما ذبح على النصب ٣/ المائدة/ وقوله ايضا « يوم يخرجون من الاجداث سراعا كانهم الى نصب يوفضون » ٤٣/المعارج/ وقوله « انما الخمر والميسر والانصاب والازلام رجس من عمل الشيطان » ٩٠/ المائدة / كذلك قول لبيد فى داليته المعلقة .

وما اربق على الانصاب من جسد

وأدى بنا هذا الى معنى جديد ..يقرب لنا معنى قول ايوب — عليه السلام — « مسنى الشيطان بنصب وعذاب » حيث لا سلطان للشيطان على المؤمن .. فبعد ان يئس ابليس .. من ان ينال منه فتيلا .. او يشفى غليلا .. اراد ان يشغله عن الصلاة .. فاذا اتجه ايوب بعينه الى الصلاة .. شكل امامه انصابا وتماثيل وصورا .. عسى ان تشغله عنها .. وهنا فقط .. لم يطق ايوب على ذلك صبرا .. فقال : الهى لقد صبرت على ذهاب مالى وولدى وجسمى فى سبيلك .. وتحملت كل ذلك فى صبر ورضى .. اما ان يحال بينى وبينك .. فهذا ما لا طاقة لى به « رب انى مسنى الشيطان بنصب وعذاب» اى بتماثيل تشغلنى وتحول بينى وبينك .. وهذا يعذبنى اشد العذاب .

وجاء فى دعائه ومناجاته : الهى لقد علمت انه لم يخالف لسانى قلبى .. ولم يتبع قلبى بصرى .. ولم يهبنى ما ملكت يمينى .. ولم آكل الا مع يتيم .. ولم ابت شبعانا ولا كاسيا .. ومعى جائع او عريان .

❋ ❋ ❋

وقد اورد ابو اسحاق الثعلبى مناقشة نذكرها .. فهى تخاطب النفوس فى صدق ..

(١) مختار الصحاح ولسان العرب .

وتدعو الى الوفاء والصبر .. ونوجزها بتعديل خفيف :

قال على لسان وهب : لما راى اصحابه الثلاثة الكهول .. ما ابتلاه الله به .. اتهموه ورفضوه .. من غير ان يتركوا دينه .. فلما طال به البلاء .. انطلقوا اليه .. وهو فى بلائه فبكتوه ولاموه .. وقالوا له : تب الى الله من الذنب ، الذى عوقبت به .

وكان معهم فتى حديث السن .. كان قد آمن بأيوب .. وصدقه .. فقال الفتى :

انكم تكلمتم ايها الكهول .. وكنتم احق بالكلام لأسنانكم .. ولكنكم تركتم من القول احسن من الذى قلتم .. ومن الراى أصوب من الذى رايتم .. ومن الأمر أجمل من الذى اتيتم .. وقد كان لأيوب عليكم من الحق والذمام .. أفضل من الذى وصفتم .. فهل تدرون حق من انقصتم .. وحرمة من انتهكتم .. ومن الرجل الذى عبتم واتهمتم ؟ الم تعلموا .. أن ايوب نبى الله وحبيبه .. وخيرته وصفوته من اهل الأرض .. فى يومكم هذا ! ثم انكم لم تعلموا .. ولا أطلعكم الله تعالى .. على أنه سخط شيئا من امره .. منذ آتاه ما آتاه .. الى يومكم هذا .. ولا علمتم انه نزع منه شيئا من الكرامة التى اكرمه الله لها .. فان كان البلاء هو الذى ازرى به عندكم .. ووضعه فى أنفسكم .. فقد علمتم ان الله تعالى يبلى النبيين والصديقين والشهداء والصالحين .. ثم أن بلاءهم .. ليس دليلا على سخطه عليهم .. ولا هوانهم عليه .. ولكنه خيرة وكرامة لهم ..

ولو كان أيوب .. ليس هو من الله بهذه المنزلة .. الا أنكم آخيتموه على وجه الصحبة .. لكان لا يجمل بالحكيم .. ان يعذل أخاه عند البلاء .. ولا يعيره بالمصيبة .. ولا يعاتبه وهو مكروب حزين .. ولكن يرحمه ويبكى معه ويستغفر الله له .. ويحزن لحزنه .. ويدله على ارشد امره .. وليس بحكيم ولا رشيد .. من جهل هذا .. فالله : الله : أيها الكهول .. فقد كان لكم فى عظم الله وجلاله .. وذكر الموت .. ما يقطع ألسنتكم .. ويكسر قلوبكم ..

الم تعلموا .. ان لله عبادا .. اسكنتهم خشيته من غير عى ولا بكم .. وانهم لهم الفصحاء النبلاء .. البلغاء الأولياء .. العالمون بالله وآياته؟ ولكنهم اذا ذكروا عظمة الله .. انقطعت ألسنتهم .. واقشعرت جلودهم .. وانكسرت قلوبهم .. وطاشت عقولهم .. اعظاما لله تعالى .. واعزازا واجلالا .. فاذا استفاقوا .. استبقوا الى الله تعالى بالاعمال الزاكية الصالحة .. يعدون انفسهم مع الخاطئين العاصين .. وانهم براء . ويحسبون انفسهم مع المفرطين المقصرين .. وانهم لأكياس اقوياء ..

وانهم لا يستكثرون لله الكثير .. ولا يرضون له بالقليل .. **ولا يدلون عليه بالاعمال .. فهم مروعون مفزعون .. خاشعون مستكينون ؟ .**

***

فقال ايوب : ان الله تعالى .. يزرع الحكمة بالرحمة .. فى قلب المؤمن الكبير والصغير .. فمتى نبتت فى القلب .. اظهرها الله تعالى على اللسان .. وليست الحكمة من قبل السن والشيب وطول التجربة .. فاذا جعل الله العبد حكيما فى الصبا .. لم تسقط منزلته عند الحكماء .. وهم يرون من الله تعالى عليه نور الكرامة .

ثم ان أيوب اقبل على الثلاثة وقال : اتيتمونى غضابا .. رهبتم قبل أن تسترهبوا .. ورعبتم قبل ان تسترعبوا .. وبكيتم قبل ان تضربوا .

كيف بكم لو قلت لكم .. تصدقوا عنى بأموالكم .. لعل الله يخلصنى .. وقربوا عنى قربانا .. لعل الله يتقبلها .. ويرضى عنى ؟ .

انكم قد اعجبتكم انفسكم وظننتم انكم قد عوفيتم باحسانكم .. فبهنالكم بغيتم وتعززتم .. ولو نظرتم فيما بينكم وبين ربكم .. ثم صدقتم لوجدتم لكم عيوبا سترها الله عليكم بالعافية التى البسكم اياها .. وقد كنت فيما خلا : الرجال توقرنى .. وأنا مسموع كلامى .. معروف حقى .. منتصف من خصمى .. فأصبحت اليوم .. وليس لى راى ولا كلام معكم .. فأنتم الآن اشد على من مصيبتى .

ثم انه اعرض عنهم ، واقبل على ربه مستغيثا متضرعا اليه .. فقال : رب : لأى شىء خلقتنى ؟ لتتنى اذ كرهتنى ما خلقتنى .. ياليتنى كنت حيضة القتنى أمى .. أو لتنى قد عرفت الذنب الذى اذنبت .. والعمل الذى عملت .. فصرفت وجهك الكريم عنى .. لو كنت امتنى .. والحقتنى آبائى .. فالموت كان اجمل لى .

يالهى : ألم أكن للغريب دارا ؟ .. وللمسكين قرارا ؟ .. ولليتيم وليا ؟ .. وللارملة قيما ؟ الهى : أنا عبد ذليل .. ان احسنت فالمنة لك .. وان أسأت فبيدك عقوبتى .. جعلتنى للبلاء غرضا .. وللفتنة نصبا .. « رب انى مسنى الشيطان بنصب وعذاب » ..

٥ إجابة

اوحى الله ــ سبحانه ــ اليه : يا ايوب نفذ فيك حكمى .. وسبقت رحمتى غضبى .. اذا اخطات فقد غفرت لك .. ورحمتك .. ورددت عليك اهلك ومالك ومثلهم معهم .. لتكون لمن خلفك آية .. وتكون عبرة لأهل البــــلاء .. وعزاء للصابرين « فاركض برجلك هــذا مغتسل بارد وشراب » ٤٢ / ص .. فيه شفاء .. وقرب عن اصحابك قربانا واســتغفر لهم .. فقد عصونى فيك ..

فركض برجــله فى الأرض .. فانفجرت له عين .. فاغتسل منها وشرب فأذهب الله عنــه ما كان فيه من المرض .. وعادت صحته فى التو اقوى مما كانت .. فالله سبحانه ــ بقول الشيء كن فيكون .. بدون تعلق زمنى .

❊ ❊ ❊

وقيل أنه خرج من بيتــــه .. وجلس فى الشارع .. فاقبلت امراته رحمة .. والتمسته فى مضجعه فلم تجده .. فخرجت والهة تبحث عنه .. ومرت به .. فقالت له : يا عبد الله .. هل لك علم بالرجل المبتــلى الذى كان هنـــا ؟ فقال لها : وهل تعرفينه اذا رايتيـــه ؟ فقالت : نعم وكيف لا اعرفه ؟ .. فتبسم وقال : ها انا هو . فعرفته من ابتسامته واعتنقته .

❊ ❊ ❊

« ووهبنا له اهله ومثلهم معهم رحمة منـــا وذكرى لأولى الألباب » ٤٣/ص قال ابن مسعود وابن عباس وقتادة وكعب : ان الله أحيا له أبناءه باعيانهم وآتاه مثلهم .. وهــذا اشــبه بظــاهر الآية . ويقول البعض ان الله لم يحى أبناءه .. وانما ولدت له زوجه ضعفهم .

❊ ❊ ❊

وكان قد اقسم أن يضرب زوجته مائة جلده ان شفاه الله .. واختلف المفسرون فى سبب هذا اليمين .. فقال كثير منهم : انه أرسلها فى قضاء حاجة فابطأت عليه .. ولكننا نستبعد هذا الراى لصغر الذنب اذا قارناه بضخامة العقوبة .. فلا يعقل ان يكون ابطاؤها فى قضاء حاجة .. مبررا للضرب مائه جلدة .. اللهم الا اذا وضعنـــا فى تقديرنا حالته النفسية .. وشططه فى الحكم .. بسبب شدة مرضه .

وقال بعض المفسرين اقوالا اخــرى .. مثل قول كعب : لما غلب أيوب ابليس ــ لعنــــه الله ــ ولم يستطع له على شيء .. اعترض امرأته على هيئـــة ليست كهيئـــة بنى آدم .. فى العظم والجسم والجمـــال .. على مركب .. ليس من مراكب الناس .. له عظم وبهـــاء وجمال .. فقال لها : انت صاحبـــة أيوب المبتــلى ؟ .. قالت : نعم .. قال : فهل تعرفينني ؟ قالت : لا .. قال : انا اله الأرض .. وانا الذى صنعت بصاحبــك ما صنعت .. وذلك انه عبــــد اله السماء .. وتركنى واغضبنى .. ولو سجـــد سجدة واحدة لى .. رددت عليكما ما كان لكما من مال وولد (١) .

وقال وهب : وقد سمعت انه قال لها : ان شئت اسجدى لى سجدة واحـــدة .. حتى أرد عليك الأولاد والمــــال واعافى زوجك .. ويقول

(١) القرطبى ٤١/ص .

صاحب تفسير الكشاف .. فهمت بذلك لولا ان ادركتهـــا العصمة .. فذكرت ذلك لأيوب .. نحلف ليضربها مائة سوط اذا برأ ..

كما ذكر صاحب الكشاف أيضا ان الشيطان اوهمها ان أيوب اذا شرب الخمر برأ فعرضت له بذلك (١) .. غير اننا نميل الى الرأى الذى يقوله ابن عباس : وهو ان ابليس لقيها فى صورة طبيب فدعتــه لعــلاج أيوب .

فقــال : اداويه .. على انه اذا برا يقــول انت شفيتنى ، لا أريد جزاء سواه .

قالت : نعم .. فاشارت على ايوب بذلك .. فحلف ليضربنهـــا ...وقال : ويحك .. ذلك الشيطـــان ..

فحلل الله يمينه باهون شىء عليـــه وعليها .. لحسن خدمتهـــا اياه .. ورضاه عنها .. فقال له : أحضر حزمة من النبـــات .. بها مائة عود خفاف لطاف .. واضربها بتلك الحزمة .. ضربة واحدة .. تنفيذا ليمينك الذى حلفته .. « وخــذ بيدك ضغثا فاضرب به ولا تحنث ، انا وجدناه صابرا نعم العبد أنه أواب » ٤٤/ص .

ولعلنا ناخذ من تلك الآية .. استعمال الرافة .. فى ضرب النســاء لتأديبهم .. ولهذا يقول - صلى الله عليه وســـلم - « واضربوهن ضربــا غير مبرح » (٢) .

وقد اختلف العلماء .. فى اقامة الحد بهذه الصورة .. فأنكرها المالكيــة .. وقال بعضهم : هذا خاص بايوب وحــده .. وروى عن مالك : من حلف ليضربن عبده مائة .. فجمعها فضربه بها ضربة واحدة .. لم يبر . اما الامام الشافعى .. فقد قرر ان هذا الحكم باق .. مستشهدا بحديث .. خرجــه ابو داود فى ســننه عن ابى أمامة بن ســهل بن حنيف .. انه اخبره بعض اصحاب النبى - صلى الله عليه وســـلم - من الأنصـــار .. انه اشـــتكى رجل منهم .. حتى اضنى .. فعاد جلده .. على عظم .. فدخلت عليه جارية لبعضهم .. فهش لهـــا .. فوقع عليها .. فلما دخل عليـــه رجال قومه يعودونه .. اخبرهم بذلك .. وقال : استفتوا لى رسول الله - صلى الله عليه وســـلم - فانى قد وقعت على جارية دخلت على .. فذكروا ذلك لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - وقالوا : ما راينــا بأحد من النــاس من الضر .. مثل الذى هو به .. لو حملناه اليك لنفسخت عظامه .. ما هو الا جاد على عظــم .. فأمر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ان يأخذوا له مائة شمراخ .. فيضربوه بهــا ضربة واحدة (٣) .. وأخذ بهذا الراى كثير من العلماء ..

وعندما بلغ أيوب خمسا وتسعين سنة .. حضرته الوفاة بالشام .. حيث أمضى كل عمره بها .. وبعث الله بعده بشر بن أيوب نبيا .. وسماه الله ذا الكفل .

□ □ □

---

(١) الكشاف ٤٤/ص .
(٢) القرطبى ٤٤/ص .
(٣) القرطبى ./٠ص .

الفهرست

صفحة

« والى مدين اخاهم شعيبا قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره »

(آية ٨٤ هود)

صدق الله العظيم

○ من نبأ
شعيب خطيب الأنبياء

١ مدين بن إبراهيم

لم يرد فى القرآن الكريم من أولاد ابراهيم ـ عليه السلام ـ غير اسماعيل من السيدة هاجر.. واسحاق من السيدة سارة .

ولكن جاء فى التوراة .. فى الاصحاح الخامس والعشرين من سفر التكوين :

عاد ابراهيم .. فأخذ زوجة .. اسمها « قطورة » فولدت له : زمران ، ويقشان ، ومدان ، ومديان ، ويشباق ، وشوحا. واجمع المفسرون على ان مديان ـ الابن الرابع من قطورة ـ هو مدين .. الذى نسب اليه قوم شعيب ـ عليه السلام ـ لأنهم نسله .

مكانهم شمال الحجاز.. فيما يلى الشام .. كانوا فى سعة من العيش : رزق وفير .. وخير كثير .. زادهم الله عددا وعدة « واذكروا اذ كنتم قليلا فكثركم » هذا من قول شعيب لهم .

لقد تزوج مدين بن ابراهيم من ابنة لوط (١) .. فولدت له .. ورمى الله فى نسلها البركة والنماء.. فكثروا وفشوا.. كانوا مقلين فقراء .. نكثرهم وجعلهم مكثرين موسرين .. وكانوا اقلة اذلة .. فاعزهم بكثرة العدد والمال الوفير .

اشتغلوا بالتجارة .. فارضهم وسط بين الشمال والجنوب والشرق والغرب .. يأتيهم الناس من كل فج .. فيبيعون ويشترون .. حتى زادت أموالهم .. وكثرت خيراتهم .. ولكنها سنة الله «ان الانسان ليطغى ان رآه استغنى » فطغوا وبغوا .. وغشوا وسرقوا.. وسخروا من كل خير.. ينقصون الكيال والميزان عندما يبيعون .. ويزيدونها عندما يبتاعون .. وكانوا عشارين .. والعشار هو الذى يأخذ العشور فى المعاملات.. ويسمى الماكس .. فكانوا مكاسين .. لا يدعون شيئا الا مكسوه .. سواء كان جليلا او حقيرا .. قليلا او كثيرا .. وفى الحديث « لايدخل صاحب مكس الجنة » كما كانوا اهل كفر بالله .. وبخس لحقوق الناس .. يقطعون السبيل على الغرباء .. فهم اشبه بأهل سدوم ـ قوم لوط فى هذا ..

وقد قال الزمخشرى ـ صاحب تفسير الكشاف ـ انهم كانوا اذا دخل الغريب بلدهم .. اخذوا دراهمه .. وقالوا له انها مزيفة وقطعوها .. ثم اخذوها منه بنقصان ظاهر .. واعطوه بدلها زيوفا .

وقطع الطريق على الغرباء بالأذى جريمة لا برضاها دين .. ولا تقبلها انسانية او ضمير .

وقد روى ان النبى صلى الله عليه وسلم قال : « رأيت ليلة اسرى بى خشبة على الطريق .. لايمر بها ثوب احد الا شقته .. ولا شىء الا خرقته .. فقلت ما هذا يا جبريل ؟ قال : هذا أقوام من امتك .. يقعدون على الطريق فيقطعونه » ثم تلا : « ولا تقعدوا بكل صراط توعدون .. الخ الاية » (١) .

فارسل الله سبحانه ـ اليهم رجلا منهم ، هو شعيب بن ميكائيل ابن يشجر بن مدين ابن ابراهيم .

اطلق عليه جميع العلماء والمفسرين اسم **((خطيب الانبياء)) لحسن مراجعته قومه ..** وبراعته فى اقامة الحجة عليهم .. ودحض مفترياتهم .. وبلاغته فى تسلسل العظات وترتيبها .. وتبيان الآيات وحسن تبويبها .. فكان يبدأ بالأهم ثم المهم .. ويبادلهم منطقا بمنطق .. وحجة بحجة .. كما سنرى من دعوته قومه الى التوحيد .

---

(١) قصص الانبياء للثعلبى والقرطبى ٨٦/ الاعراف .

٢ الـــدعـــوة

دعاهم شعيب عليه السلام . اول ما دعاهم الى التوحيد .. فهــو ملاك الأمر .. وسبب الخلق .. وركيزة الحياة .. ثم طالبهم باعطاء كل ذى حق حقه .. قال « ياقوم اعبــدو الله مالكم من اله غيره ، ولا تنقصوا المكيال والميزان. انى اراكم بخير ، وانى اخاف عليكم عذاب يوم محيط » ـ (٨٤ هود) .. ولعل بلاغته ـ عليه الســلام ـ تظهر فى قوله « انى اراكم بخير » ويقصد بها .. انكم فى سعة من الرزق الحلال.. الذى وهبه لكم ربكم .. وكان يستحق بهذا منكم الشكر والبذل والانفاق .. فلماذا تلجاون الى الجحود والنكران.. والكسب الحرام .. الذى يلوث اموالكم .. ويعرضكم لعذاب الله وغضبه .. وسخطة ومقته .. بدلا من رحمته ورضاه .. اللتين تعيشون فيهما الآن ؟ ..

ثم كرر الامر بالوفاء فى الكيل والميزان .. فقال « ياقوم اوفوا المكيال والميزان بالقسط » اى بدون نقص عنــد البيع .. او زيادة عنــد الشراء .. « ولا تبخســوا الناس اشياءهم ولا تعثوا فى الأرض مفسدين » (٨٥ ـ هود) وقال اشياءهم تنبيها على أنهم يبخسون الجليل والحقير والقليل والكثير ..

وفى هذا المقام من سورة الأعراف يقول لهم : « وقد جاءتكم بينة من ربكم »

فما هى بينة نبى الله شعيب ؟ ..

يقول صاحب الكشاف :

وقع العلم بانه كانت لشعيب ـ عليه السلام معجزة لقوله « وقد جاءتكم بينة من ربكم » ولانه لابد لمدعى النبوة من معجزة تشهد له وتصدقه.. والا لم يصــح دعواه .. ولم نذكر معجزته فى القرآن الكريم .. كما لم تذكر اكثر معجزات نبينا ـ صلى الله عليه وسلم .١٠ هـ

وقد جاء فى كثير من كتب التفسير انه من معجزات شعيب .. محاربة عصا موسى التنين حين دفع اليه غنمه .. وولادة الغنم الدرع خاصة .. حين وعــده ان تكون له الدرع من اولادها عــاما (١) . وهذه كلها كانت قبل ان ستنبأ موسى .. فكانت من معجزات شعيب.. حسب قولهم . ولنا راى فى هذا الموضوع ..

وقبل ان نذكر هــذا الراى نذكر احاديث تتعلق بمسالة العصا وولادة الغنم .. اوردها الحافظ بن كثير .. حيث كتب رواية من حديث عتبة بن المنذر .. تبدأ روايتها بأبى بكر البزار وتنتهى بعلى بن رباح اللخمى : قال سمعت عتبة بن المنذر يقول ان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ســئل : اى الاجلين قضى موسى ؟ فقال « ابرهما واوفاهما » ثم قال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ « أن موسى ـ عليه السلام امر امرأته ان تسال اباها .. أن يعطيها من غنمه ما يعيشــون به ، . فاعطاها ماولدت غنمه فى ذلك العام من قالب لون « قال : » فما مرت شاة الاضرب جنبها بعصاه .. فولدت قوالب الوان كلها .. وولدت اثنتين وثلاثا كل شاة .. وليس فيها فشوش ، ولا ضبوب ، ولا كميشة تفوت الكف .. ولا ثفول « وقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم » اذا فتحتم الشــام .. فانكم ستجدون بقايا منها .. وهى السامرية ..هكذا اورده البزار .

---

(١) الدرع . القوالب الملونة من الغنم .. وســنذكر هذا الحادث فى سياق الحديث .

كما روى هذا الحديث .. ابن ابى حاتم.. برواية تبدأ بابى زرعه .. وتنتهى بعلى بن رباح اللخمى ايضا .. قال : سمعت عتبة بن المنذر السلمى صاحب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم قال « ان موسى ـ عليه السلام اجر نفسه بعفة فرجه .. وطعمة بطنه .. فلما اراد فراق شعيب .. امر امراته ان تسال اباها .. ان يعطيها من غنمه ما يعيشون به فاعطاها ماولدت غنمه من قالب لون .. من ولد ذلك العام .. وكانت غنمه سوداء حسناء فانطلق موسى ـ عليه السلام ـ الى عصاه فسماها من طرفها .. ثم وضعها فى أدنى الحوض ثم اورد الغنم فسقاها .. ووقف موسى بازاء الحوض .. فما تصدر منها شاة الا ضرب جنبها شاة شاة قال :

فاتامت (١) والبنت ، ووضعت كلها قوالب الوان ، الاشاة أو شاتين ليس فيها فشوش » قال يحيى « ولا ضبوب » وقال صفوان « ولا صبوب » وقال ابو زرعة الصواب « ظنوب » . ويحيى وصفوان وابو زرعه .. هؤلاء من رواة هذا الحديث .. وتكملته « ولا عزوز ، ولا ثغول، ولا كميشة تفوت الكف » قال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ « لو فتحتم الشام ، وجدتم بقايا تلك الغنم ، وهى السامرية » ا هـ

ولكن بعد ان ذكر الحافظ بن كثير هذين الحديثين ... شكك فى صحة رفعهما .. لان المدار فى روايتهما على عبد الله بن لهيعة المصرى .. وقد اتهمه بسوء الحفظ .

ولا يهمنا من هذين الحديثين فى هذا المقام الا معرفة السبب الذى جعل اغلب المفسرين يقولون : ان معجزة شعيب .. هى تلك العصا .. والتكلف ظاهر فى هذا التأويل .. لأن الذى حدث من العصا ـ ان صح هذا الحديث ـ كان بعد فناء قوم مدين بزمن .. وظاهر النص القرآنى ان شعيبا كان يقول لهم « وقد جاءتكم بينة من ربكم » ..

كما ان المعجزات التى حصلت من العصا .. حصلت وهى فى يد موسى وليست فى يد شعيب .. وكما ان هناك شك .. فى هل صهر موسى هو شعيب او هو رجل آخر ؟ وسنعرض لهذا الامر فى حينه .. ان شاء الله تعالى . اذا فما هى بينة شعيب ؟

الأقرب الى المنطق .. ان البينة التى يقصدها شعيب عليه السلام . هى الطريقة الواضحة .. المقبولة عقلا ومنطقا وبرهانا .. وهى الشريعة الغراء .. والمحجة البيضاء .. التى ارسله الله بها .. ولهذا كان يقول لهم « قال ياقوم أرأيتم ان كنت على بينة من ربى..»

(٨٨ ـ هود)

□ □ □

(١) اتامت المرأة اذا ولدت اثنين .

٣ المكابرة

البينة واضحة جلية .. وأدلة صدق شعيب – عليه السلام – لالبس فيها ولا غموض .. فهو يأمرهم بعبادة الله وحده .. وعدم بخس احد فى حقه .. والبعد عن الاذى فى الطرقات ..

منطق لا يحتاج الى برهان .. ولكنه عناد الكفر .. أو كفر العناد .. فكانوا تارة يتوعدونه .. هو والمؤمنين معه .. بالطرد من قريتهم .. او العودة الى ملتهم « لنخرجنك ياشعيب والذين امنوا معك من قريتنا أو لتعودن فى ملتنا (٨٨ – الاعراف) .

وتارة يتهددونه بالرجم « وانا لنراك فينا ضعيفا ولولا رهطك لرجمناك وما انت علينا بعزيز » (٩٠ هود) .

يقعدون فى الطريق المؤدى الى بيته .. يصدون اى قادم اليه .. كما كانت تفعل قريش – ويقولون لهم انه كذاب .. فلا يفتننكم عن دين آبائكم واجدادكم .. ولا تستمعوا الى كلامه .. فانه يأمر بعدم المماكسة وتلك خسارة عليكم .. ويطلب من أتباعه عدم التطفيف فى الكيل والميزان وفى هذا نقص لأموالكم .. وضياع لبضاعتكم « وقال الملأ الذين كفروا من قومه لئن اتبعتم شعيبا انكم اذا لخاسرون » (٩٠ – الأعراف) .

قال يا قوم .. ما هذا المنطق المعكوس .. والمكابرة بالباطل « ارايتم ان كنت على بينة من ربى ورزقنى منه رزقا حسنا ، وما اريد ان اخالفكم الى ما انهاكم عنه ، ان اريد الا الاصلاح ما استطعت » (٨٨ – هود) وظاهر فى مخاطبته هذه مع قومه ، عرض رائع لحقائق ثلاث :

الحقيقة الأولى : حديثه عن ربه .. فهو على بينة منه .. وثقة ويقين .. وانه رزقه رزقا حسنا .. لا مكس فيه .. ولا بخس ولا تطفيف .. ومع هذا فماله مبارك عن اموالهم وثروته تنمو اكثر من ثروتهم .. فلماذا العناد والمكابرة !!

« ارايتم ان كنت على بينة من ربى ورزقنى منه رزقا حسنا » .

والحقيقة الثانية : حديثه عن نفسه .. وانه ملتزم بما يقول لهم .. يطبقه على نفسه .. قبل أن يطالبهم بتطبيقه على نفوسهم .. فما سبب المخالفة والنكران؟« وما اريد ان اخالفكم الى ما انهاكم عنه »

والحقيقة الثالثة : انه يتحدث عن المجتمع الذى يعيش حوله .. لا يريد له الا الاصلاح .. ولا ينشد غير الهدى والرشاد .. فكيف يكون الرد بالجحود والكفران ؟ « ان اريد الا الاصلاح ما استطعت » .

تدرج معهم من حقيقة الله .. الى حقيقة النفس .. الى حقيقة المجتمع .. وتلك علاقات ثلاث .. ركزها من اوتى جوامع الكلم .. محمد عليه الصلاة والسلام .. فى حديث صغير المبنى .. شامل المعنى .. فيقول « اتق الله حيثما كنت .. واتبع السيئة الحسنة تمحها .. وخالق الناس بخلق حسن » فبين اولا :العلاقة بالله .. ووجوب ان تكون قائمة على التقوى .. فهو الرقيب الدائم .. والمفتش المقيم .. فى اعماق النفس .. فان لم تكن تراه فانه يراك . ثم بين ثانيا :العلاقة بالنفس.. وحددها بعمل الصالحات .. لتمحو السيئات فالنفس البشرية معرضة للخطأ .. ولا سبيل لمحو هذا الخطأ الا بعمل حسنة تمحوه .. فالحسنات يذهبن السيئات . وبين اخيرا : العلاقة بالناس .. على ان تكون مبنية على الخلق الحسن ..

في البيع والشراء والاخذ والعطاء .. والمعامله والمعاشرة .. والحب والايثار ..

كان شعيب – عليه السلام كثير الصلاة.. ليله ونهاره.. صبحه ومسائه.. ولهذا خاطبوه .. سخرية واستهزاء.. محددين الصلاة بالذات « اصلاتك تأمرك ان نترك ما يعبد آباؤنا او ان نفعل فى اموالنا ما نشـــاء انك لانت الحليم الرشيد » (٨٧ – هود) ..

فكانوا كلما راوه يصلى .. تغامزوا به .. وتضاحكوا عليه .. فجعلوا الصلاة آمرة على سبيل التهكم بها .. وقالوا : ان هـذا الذى تأمرنا به .. من ترك عبادة الاوثان .. وترك فوائد البخس والمكس والتطفيف.. باطل لاوجه لصحته .. وان مثل هذا الامر .. لايدعوك اليه داعى العقل .. ولا يأمرك به آمر فطنه .. فلم يبق الا ان يأمرك به امر هذيان .. او وسوسة شيطان .. وهو صلاتك التى تداوم عليها .. فى ليلك ونهارك .. وعندهم انها باب من الجنون كيف هذا وانت العاقل الفطن الحليم الرشيد.. المعروف بسعة عقلك .. واتساع افقك ؟ ..

ويقول اغلب المفسرين : انهم قالوا « انك لانت الحليم الرشيد » .. سـخرية منه .. بمعنى السفيه الضال .. وهو على الاضداد.. كما يقال للحبشى يا ابيض .. وكقوله تعالى عن اهل جهنم « ذق انك انت العزيز الكريم » .

واســتمروا على كبرهم وضـــلالهم .. وجلوســهم فى الطرقات .. وصد المؤمنين عنه .. وتطفيف الكيل والميزان .. والافســاد فى الارض ..وهو صابر على تذكيرهم..وتخويفهم من بطش الله وغضبه .. وجبروته ونقمته . ولما لم يفلح معهم النصــح .. ولم تجـد فيهم الموعظة .

قال « وان كان طائفة منكم آمنوا بالذى ارسلت به وطائفة لم يؤمنوا فاصبروا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين » (٨٧ – الأعراف) .. اى خير الحـاكمين بين الفريقين .. بان ينصر اهل الحق على اهل الباطل .. ويظهرهم عليهم .. وهذا وعيد للكافرين بانتقام الله .. وحث للمؤمنين على الصبر.. واحتمال ما يلحقهم من اذى المشركين .. الى ان يحكم الله بينهم .. وينتقم لهم منهم ..

□□□

٤ الفتـــــــح

اصر القوم على تهديد شعيب والذين آمنوا معه بالطرد والعذاب .. ان لم يعودوا الى ملتهم التى كانوا عليها .

فقال لهم شعيب : « قـد افترينا على الله كذبا ان عدنا فى ملتكم بعد اذ نجانا الله منها ».. فهل كان شعيب على ملتهم ـ ملة الكفر ـ قبل بعثه ؟ كلا .. فالأنبيـاء ـ عليهم السـلام ـ لا يجوز عليهم من الصـغائر الا ما ليس فيـه تنفير .. فضلا عن الكبائر .. فما بالك بالكفر ؟.

ولكن حديثهم وحديثه هنا عن المؤمنين معه وهو معهم على حكم التغليب .

* * *

كيف نعود يا قوم الى ظلمة الكفر .. بعـد ان عشنا فى نور الايمان ؟ « وما يكون لنـا ان نعود فيها الا أن يشاء الله ربنا » فالكائنات كلنا بمشيئته خيرها وشرها « وسع ربنا كل شىء علما » فهو عالم بكل شىء مما كان وما يكون .. يعلم احوال عباده كيف تتحول .. وقلوبهم كيف تتقلب .. وكيف تقسو بعد الرقة .. وتمرض بعد الصحة .. وترجع الى الكفر بعد الايمان.. ويوفقنا لازدياد اليقين .

ثم لجأ الى الله فى صلاته .. رافعا يديه الى مولاه « ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وانت خير الفاتحين » (٨٩ الاعراف) .

* * *

والفتح بمعنى القضاء بالحق .. فهو يفتح الأمر المغلق .. ولذلك سمى القضاء فتحا .. وسميت الحكومة فتاحة .. وسمى القـاضى فتاحا .. وما زال اهل عمان يسـمون القاضى فتاحا الى اليوم .

انذرهم شعيب ـ عليه السلام ـ وخوفهم .. وذكرهم بما أصاب قوم نوح .. وقوم هود .. وقوم صالح .. وقوم لوط .. « ويا قوم لا يجرمنكم شقاقى ان يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود او قوم صـالح وما قوم لوط منكم ببعيد (٨٩ هود) .. ولكن الوقر فى آذانهم .. والغشاوة على عيونهم .. والحجاب الحائل بينه وبين قلوبهم .. جعلهم يقولون : « يا شعيب ما نفقه كثيرا مما تقول » والا فكيف لا نفهم كلام خطيب الأنبيـاء ؟ « وانا لنراك فينا ضعيفا » (٩١ ـ هود) .

وقد ذكر بعض المفسرين : ان شـعيبا كان اعمى(١) .. بحجة أن لغة حمير تقول ان الضعيف هو الضرير .. ولكنـا لا نقر هـذا الراى .. فلا يجوز ان يكون الرسـول اعمى .. بحيث لا تتحقق له الشـهادة .. والرسـول شـهيد على قومه .

* * *

لجأ الضعيف الى القوى .. والمخلوق الى الخالق .. والعبد الى مولاه .. ليقضى بينـه وبينهم .. ويفتح مغاليق الباطل بمفاتيح الحق .. فكانت الصيحة .. كما جاء فى سورة هود ـ او الرجفة .. كما جاء فى سـورة الأعراف .. صيحة صاعقة من السماء .. وزلزلة راجفة من الأرض .. جعلتهم هالكين جاثمين على ركبهم جميعا .. ونجى الله شعيبا والذين آمنوا معه يقول تعالى « فاخذتهم الرجفة فاصبحوا فى دارهم جاثمين ، الذين كذبوا شعيبا كان لم يغنوا فيها ،

---

(١) من القرطبى وغيره ٩١/هود .

الذين كذبوا شعيبا كانوا هم الخاسرين »
(٩١ – ٩٢ الاعراف) لا من قالوا لهم من قبل
كم اذا لخاسرون » .. نعم .. كأن لم يغنوا
.. وغنى القوم فى دارهم .. اى طال مقامهم
بها .. وفى هذا المعنى .. يقول حاتم طى :

غنينا زمانا بالتصعلك والغنى
كما الدهر فى ايامه العسر واليسر

وهنا اسف شعيب من اجلهم .. وتملكه الحزن والاسى رحمة بهم .. فقال : « يا قوم لقد ابلغتكم رسالات ربى ونصحت لكم » وهذا يدل على طيب عنصره .. وكرم محتده .. ورقة قلبه .. ولكنه عاد فقال « فكيف اسى على قوم كافرين » (٩٣ الاعراف) .

وقبل أن نترك اهل مدين .. فى عذابهم وبلائهم وهلاكهم .. وقد صارت اجسامهم هياكل هامدة .. لا حراك فيها ولا حياة .. « كأن لم يغنوا فيها » يلفت نظرنا تعليق من الله سبحانه – حول قصتهم تلك :

« وما ارسلنا فى قرية من نبى الا اخذنا اهلها بالباساء والضراء لعلهم يضرعون ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة حتى عفوا وقالوا قد مس اباءنا الضراء والسراء فاخذناهم بغتة وهم لا يشعرون» (٩٤ – ٩٥ الاعراف) .

والباساء هى البؤس والفقر .. والضراء هى الضر والمرض . ويضرعون أى يتضرعون « بدلنا مكان السيئة الحسنة » بدل البلاء والمحنة .. الرخاء والصحة والسعة .. مثل « وبلوناهم بالحسنات والسيئات » « حتى عفوا » اى كثروا ونموا فى انفسهم واموالهم .. من قولهم : عفا النبات اذا زاد وكثر .. وقوله صلى الله عليه وسلم « واعفوا اللحى » .. وقول : الحطيئة

بمستأسد القربان عاف نباته

وكانت نهاية هذا التعليق القرآنى السامى « ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ، ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون » (٩٦ الاعراف) .

وهذا التعليق من الله – سبحانه وتعالى فى آخر تلك القصة .. يستلزم منا وقفة قصيرة .. لتتحقق العبرة .. وتتم الفائدة .. ولنرى ان الله جل شأنه – لا يهلك قوما عاصين .. الا اذا ذكرهم بالبلاء ..علهم يرجعون عن عصيانهم .. ويتضرعون اليه لزوال بلائهم ..

مرة ومرات .. فاذا نسوا ولم يتذكروا .. بعد تلك النذر .. وهذه البلايا .. ابتلاهم بالحسنات والخيرات .. فيكون ذلك استدراجا لهم .. ثم أخذهم اخذ عزيز مقتدر .. والامثلة على ذلك فى القرآن الكريم كثيرة والآيات واضحة وفيرة :

« ما اصابك من حسنة فمن الله .. وما أصابك من سيئة فمن نفسك » .. وايضا « ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة أو تحل قريبا من دارهم حتى يأتى وعد الله » .

وكذلك « أولا يرون انهم يفتنون فى كل عام مرة أو مرتين ، ثم لا يتوبون ولاهم يذكرون » .

واقرا ايضا « فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم ابواب كل شىء ، حتى اذا فرحوا بما أوتوا اخذناهم بغتة فاذا هم مبلسون » وغيرها كثير وكثير .. فعلينا أن نفتح عيوننا .. ونكون على بصيرة من امرنا .. ونتعظ بكل بلاء ينزل بنا ونعلم انها نذر .. فلنكن على حذر .. ولكن هل من مدكر .

□ □ □

(١) من القرطبى وغيره ٩١/هود .

٥ أصحاب الأيكة

ارسل الله ـ جل شانه ـ شعيبا بعد هلاك قوم مدين .. الى أصحاب الأيكة .. وهى غيضة تنبت ناعم الشجر ـ قيل هو شجر الدوم ـ كانت بقرب مدين .. يسكنها طائفة من الناس .. وقيل : انهم كانوا بادية مدين .

وقد قال بعض المفسرين ان اصحاب الأيكه .. هم اهل مدين .

ولكن لو امعنا النظر .. فيما عرضه الله علينا من امر اهل مدين .. واصحاب الأيكه .. لوجدنا ان الله ـ سبحانه ـ قد عرض قصه اهل مدين فى سورتى الاعراف وهود .. بينما عرض قصة اصحاب الأيكة فى سورة الشعراء .

* * *

ففى الاعراف وهود يقول « والى مدين اخاهم شعيبا » كما قال « والى عاد اخاهم هودا » « والى ثمود اخاهم صالحا » وهذا يدل على ان شعيبا كان من قوم مدين .

اما فى سورة الشعراء التى عرض فيها قصة اصحاب الأيكة .. فقد قال تعالى « كذب اصحاب الأيكة المرسلين ، اذا قال لهم شعيب الا تتقون » (١٧٦ ـ ١٧٧ الشعراء) ، ولم يقل اذ قال لهم اخوهم شعيب .. مع انه فى نفس سورة الشعراء .. وقبل ذكر أصحاب الأيكة .. قال عن نوح « اذ قال لهم اخوهم نوح » .. وعن هود « اذ قال لهم اخوهم هود » .. وعن صالح « اذ قال لهم اخوهم صالح » .. ولما جاء دور أصحاب الأيكة .

قال : « اذ قال لهم شعيب » بدون لفظ اخيهم .

ونفهم من هذا ان شعيبا .. كان غريبا عن اصحاب الأيكه .. وبالتالى نفهم ان أصحاب الأيكه غير اهل مدين .. وفى الحديث «ان شعيبا اخا مدين أرسل اليهم والى اصحاب الأيكه » .

كما ان العذاب فى اهل مدين كان بالرجفة وبالصيحة .. كما هو واضح فى سورتى الاعراف وهود .. اما عذاب أصحاب الأيكة .. فكان بالظلة (١) كما هو ظاهر أيضا فى سورة الشعراء .

* * *

كانوا على طريقة سابقيهم ـ اهل مدين ـ من تطفيف الكيل والميزان .. وبخس الناس أشياءهم .. والأفساد فى الأرض .

نهاهم شعيب عن كل هذا « اوفوا الكيل ولا تكونوا من المخسرين . وزنوا بالقسطاس المستقيم ، ولا تبخسوا الناس اشياءهم ، ولاتعثوا فى الأرض مفسدين » (١٨١ - ١٨٣ الشعراء) .

قال لهم : لا اريد منكم اجرا على هذا .. فأجرى عند رب العالمين .. وذكرهم بالله الذى خلقهم كما خلق من قبلهم « واتقوا الذى خلقكم والجبلة الاولين » (١٨٤ الشعراء) .

فكان ردهم ايضا .. عنادا وكفرا ومكابرة .. « قالوا انما انت من المسحرين وما انت الا بشر مثلنا وان نظنك لمن الكاذبين » (١٨٥ ـ ١٨٦ الشعراء) ولم يكتفوا بهذا بل تحدوه فقالوا « فاسقط علينا كسفا من السماء ان كنت من الصادقين » (١٨٧ الشعراء) .

---

(١) الظلة : غيم تحته سموم .

ونحن نرى الآن انهم كانو اشد عتوا وفجورا .. من اهل مدين .. فبدلا من ان يطلبوا الهداية من الله .. طلبوا العذاب .. فقال « ربى اعلم بما تعملون . فكذبوه فأخذهم عذاب يوم الظلة انه كان عـذاب يوم عظيـم » (١٨٨ – ١٨٩ الشعراء) .. ويلاحظ هنا أن العذاب اتاهم من السماء – حسب طلبهم – « وما ظلمناهم ولكن كانوا انفسهم يظلمون » .

قال ابن عباس وغيره . فتح الله عليهم بابا من ابواب جهنم .. فأرسل عليهم حرا شديدا .. فأخذ انفاسهم .. فدخلوا فى أجواف البيوت .. فلم ينفعهم ظل ولا ماء .. فأنضجهم الحر .. فخرجوا هربا الى البرية .. فبعث الله عليهم سحابة أظلتهم .. ووجدوا لها بردا .. وجاءت ريح طيبـة .. فنادى بعضهم بعضـا .. فلما اجتمعوا تحت السـحابة الهبها الله عليهم نارا .. فاحترقوا كما يحترق الجراد فى الفلاة .. فصاروا رمادا .. وقال « فأخذهم عذاب يوم الظلة ، انه كان عذاب يوم عظيم » .

وروى الثعلبى فى كتابه قصص الأنبياء عن ابن عباس ، قال : بلغنى ان رجلا من اهل مدين **فقال له : عمرو بن جلهم .. ولعله من الناجين مع شعيب .. لمـا رأى الظلة فيها العذاب .. اقشـعر جلده وقال :**

ياقوم ان شعيبا مرســـل فذروا

عنكم شميرا ، وعمران بن شداد

انى ارى غيمـة ياقوم قد طلعت

تدعو بصوت على حنانة الوادى

فانه لن يرى فيها ضـحاء غد

الا الرقيم سـيمشى بين انجـاد

وشمير وعمران كاهنان لهم .. والرقيم كلبهم .

* * *

والآن نسرع الخطى .. ونجد السـير .. لنلتقى مع كليم الله موسى بن عمران .. على رمال التاريخ .. فى ظـلال القرآن ..

□ □ □

والقيت عليك محبة منى ولتصنع على عينى
(الآية ٣٩ ـ طه)
صدق الله العظيم

من نبأ
موسى كليم الله

الفصل الأول

○ الـوليـد

١ بعد يوسف

لم ينزل فى الكتاب الكريم شىء عن بنى اسرائيل بمصر .. بعد الأحداث التى ذكرت عن يوسف ــ عليه السلام ــ الى عهد ولادة موسى ــ عليه السلام ــ ولكن التوراة .. ذكرت ان يعقوب وذريته .. نزلوا ــ بناء على تعليمات من يوسف ــ فى ارض جاسان .. وهى تقع شمال بلبيس. واجمع المفسرون على هذا الموقع .. وقالوا انها نواحى الصالحية ..

ولعل الغرض من اختيار هذا المكان .. انها ارض مراعى .. وهم رعاة .. غير اننا لا نستبعد ايضا .. ان يوسف يقصد باقامتهم فى هذا المكان .. ان يكونوا بعيدين عن المصريين ــ وهؤلاء على غير دينهم ــ وفى نفس الوقت .. يكونوا على قرب من سيناء .. فهم متعلقون بالشرق .. بدليل أن يوسف اوصى قبل موته .. بعدم خروج بنى اسرائيل من مصر الا ومعهم رفاته .

❊ ❊ ❊

وذكر الأستاذ النجار فى « قصص الانبياء » ان له صديقا عرض عليه اطلسا به ارض جاسان شمالى بلبيس .. وقد رايت انا ايضا ارض جاسان فى هذا الموقع فى مصور جغرافى فى نهاية كتاب العهد القديم من الكتاب المقدس .. ويقول الأستاذ النجار من بلادها « فكوسة » وقال معناها ــ سقط الحنة ــ وانا لا ادرى معنى لهذه الترجمه .. بل الأقرب الى « فكوسة » فى اللفظ هى « فاقوس » .. وهى فى نفس المنطقة تقريبا .

❊ ❊ ❊

مات ــ الفرعون الأول ليوسف ــ الذى آمن به .. وولاه خزائن مصر .. وملك بعده «قابوس»(١) .. وهو الفرعون الثانى ليوسف فدعاه يوسف الى الاسلام .. فأبى .. وقبض الله يوسف فى ملكه .. وطال ملكه ثم هلك .. وقام بالملك بعده اخوه .. وكان هذا الأخير فاجرا متكبرا .. امتد ملكه زمنا كبيرا .

واقام بنو اسرائيل بعد وفاة يوسف .. على بقايا من دينهم .. الذى تلقوه عن يوسف ويعقوب واسحاق وابراهيم .. والتزموا بالتشريع الذى شرعوه لهم من الاسلام .. فتمسكوا به .. حتى كان فرعون وموسى الذى بعثه الله اليه ..

ولم يكن فى الفراعنة .. من هو أعتى منه على الله .. ولا اعظم طغيانا .. ولا اشد قسوة .. ولا اطول عمرا فى ملكه .

ويقول الله عنه « ان فرعون علا فى الأرض وجعل اهلها شيعا »(٢) وفى هذا التعبير القرآنى ..

(١) القرطبى ٢١/يوسف .

(٢) ٤/القصص .

نكتة كلها جمال : فكلمة « علا » تشير الى العلو والارتفاع .. وبعدها مباشرة « فى الأرض » تشير الى السفول والوضاعة .. فكأنه ارتفاع الى اسفل .. وفى هذا المعنى ما فيه من سخرية مطوية .. واحتقار مكنون فى ظاهر التعبير ..

* * *

طغى فى الأرض .. وجاوز الحد فى الظلم والعسف .. فكان يعذب بنى اسرائيل .. ويسومهم سوء العذاب .. وجعلهم شيعا واصنافا .. فمنهم من خصصه للبناء .. ومنهم للحرث والزرع .. ومنهم للحفر وقطع الاحجار ونقلها .. ومن لم يستطع العمل منهم .. كان يأخذ منه جزية .. وجعل سكان مصر نوعين : القبط .. والاسرائيلين .. ثم استضعف الاسرائيليين واستذلهم .. ويخاطب الله ـ سبحانه ـ بنى اسرائيل بقوله : « واذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب، يذبحون ابناءكم ويستحيون نساءكم » (٤٩ البقرة).

وتزوج فرعون امراة من خيار النساء .. هى آسية .. وقال الثعلبى أنها بنت مزاحم ابن عبيد بن الريان بن الوليد ـ فرعون يوسف ـ الذى أسلم معه .. وآمن به .

وفى هذا الجو الخانق .. والظلام الحالك .. الذى تغيم سحبه على بنى اسرائيل فى مصر .. وبين تلك العواصف العاتية .. التى تطحنهم طحنا .. وتهدهم هدا .. من استعباد احسادهم .. واستحياء نسائهم .. وتذبيح ابنائهم .. فى هذا البلاء النازل .. والشقاء الماثل .. تزوج عمران بن قاهت بن لاوى بن يعقوب من عمته يوكابد بنت لاوى ..

وجاء هذا المعنى فى الفقرة ٢٠ من الاصحاح السادس من سفر الخروج : ونصها : واتخذ عمرام يوكابد عمته زوجة له فولدت له هارون وموسى . ولم يكن زواج العمات محرما فى شريعتهم الى هذا الحين .. ولكن التحريم جاء فى شريعة موسى .. بعد خروجهم من مصر .

□ □ □

٢ رؤيا وميلاد

قال السدى : أن فرعون راى فى منامه .. كأن نارا قد اقبلت من بيت المقدس .. حتى اشتملت على بيوت مصر .. فاحرقتها .. واحرقت القبط .. وتركت بنى اسرائيل .. فدعا فرعون الكهنة والمعبرين والمنجمين .. فقالوا يولد فى بنى اسرائيل غلام .. سلبك الملك .. ويغلبك على سلطانك .. ويخرجك وقومك من أرضك .. ويبدل دينك .. وقد اظلك زمانه الذى يولد فيه (١) .

فامر القوابل بمراقبة حبالى بنى اسرائيل .. والتبليغ عن كل ذكر يولد فيهم فيقتل .

وجاء فى تفسير الكشاف والقرطبى ان فرعون ذبح فى طلب موسى تسعين الف وليد .. وفى هذا دليل على حمق فرعون .. فانه ان صدق الكهنة فلن يجديه قتل المواليد شيئا .. وان كذبهم .. فما سبب القتل ؟

* * *

وحملت يوكابد زوجة عمران بموسى .. ومرت بالحمل .. فلما اثقلت لازمتها احدى قوابل فرعون .. وتمت بينهما صداقة .. ولما آلمها الطلق .. وكانت القابلة مصاحبة لها .. قالت لها لينفعنى حبك اليوم .. فعالجتها حتى وضعته .. فلما أشرق وجهه على سطح الارض .. هال القابلة نور بين عينيه .. وارتعش كل مفصل فى جسدها .. ودخل حبه قلبها .. فقالت ما جئت الا لاقبل مولودك .. واخبر به فرعون .. ولكنى وجدت لابنك حبا ما وجدت مثله .. فاحفظيه (٢)

* * *

ويقول تفسير الكشاف والقرطبى — فى هذا المقام : ان القابلة بعد خروجها من عند أم موسى .. دخل عيون فرعون .. فلفته فى خرقة .. ووضعته فى تنور مسجور .. لم تعلم ماتصنع .. لما طاش من عقلها .. فلم يلقوا شيئا .. فخرجوا وهى لا تدرى مكانه .. فسمعت بكاءه من التنور .. فانطلقت اليه .. وقد جعل الله النار عليه بردا وسلاما (٣) .

ونحن لا نجزم بانكار هذا الراى .. وانما نقبله بشىء من التحفظ .

« واوحينا الى ام موسى أن أرضعيه ، فاذا خفت عليه فالقيه فى اليم ولا تخافى ولا تحزنى ، انا رادوه اليك وجاعلوه من المرسلين » (٧ القصص) وهذه الآية الكريمة على قصرها . شملت أمرين .. ونهيين .. وبشارتين .. فالأمران الارضاع والالقاء فى اليم .. والنهيان عدم الخوف والحزن .. والبشارتان عودته اليها وجعله رسولا .

والوحى الى ام موسى كان مناما أو الهاما .. ومن الوحى الالهامى قوله تعالى :

«واوحى ربك الى النحل » فأرضعته ثلاثة شهور .. وهى تجتهد فى اخفائه عن العيون ولكن زاد خوفها .. لما زاد ضغط فرعون بعيونه وجواسيسه على بيوت بنى اسرائيل .. لحصر مواليدهم الذكور لذبحهم .. والح فرعون فى طلبهم .. واجتهد الجواسيس فى البحث عنهم .

فأحضرت له تابوتا من ورق البردى .. وضعت فيه كتانا محلوجا ، وطلته بالقار ..

---

(١) القرطبى ٤/ القصص .
(٢) القرطبى ٧/ القصص .
(٣) القرطبى ٧/ القصص .

وروى انه لما فرغ النجار من صنعة التابوت ـ ثم الى فرعون يخبره .. فبعث معه من يأخذه .. فطمس الله عينيه وقلبه فلم يعرف الطريق فأيقن انه المولود الذى يخاف منه فرعون .. فآمن من ذلك الوقت .. وهو مؤمن آل فرعون (١) .. ثم لفته .. ووضعته فيه .. وخرجت به مع اخته مريم .. فى سكون الليل .. وهجعة الكرى .. ثم القت الصندوق فى اليم – فى نهر النيل – وهى مطمئنة النفس .. واثقة القلب .. بأن الله راده عليها .. وجاعله رسـولا ثم نظرت الى التابوت .. نظرات كلها لهفة ورهبة .. وخوف وحزن .. والله يقول لها « ولا تخافى ولا تحزنى» ..والخوف هو الغم من توقع شيء سيحدث .. اما الحزن فهو الغم بسبب شيء حدث .

فاستغل الشـيطان ضعفها .. بعد ان غاب التابوت عن ناظريها .. حيث حمله التيار الى بعيد فوسـوس اليها الشيطان .. فقالت فى نفسها : ماذا صنعت بابنى ؟ لو ذبح عندى لرايته وكفنته .. وكان احب الى من ان القيه فى البحر .. وارميه الى الحيتان والأسماك .. ثم عصمها الله تعـالى « واصبح فؤاد أم موسى فارغا ان كادت لتبدى به لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين » (١٠ القصص) .

وانطلق المـاء بموسى .. يرفعه موجة .. وتخفضه أخرى .. حتى انتهى به بين الأشجار عند دار فرعون .. الى روضة تحت القصر .. هى مستقى الجوارى .. وكان بالقرب منها نهر يدخل بسـتان فرعون .

***

وقام الجـوارى مبكـرات .. مع اشراقة الشمس على سفح النيل .. ونزلن فى غمرة من نشـوة الصبح .. ونسمات البكور .. حيث رفرفت الحمـائم .. وغردت البـلابل .. وشقشقت العصافير فوق أشجار البستان .. حتى وصلن الى روضتهن ليغتسلن ويستقين .. فلمحن التابوت وقد احتضنته ابصال من ورق البردى .. كمـا تحتضـن الام الرءوم وليدها الحبيب .. فحملته مسرعات الى سيدتهن آسية امرأة فرعون .. وهن يعتقدن أن به مالا .

وروى أنهم حين التقطوا التابوت .. عالجوا فتحه .. فلم يقدروا عليه .. فعالجوا كسره فأعياهم .. ورأتهم السيدة آسية .. فدنت منهم .. فرأت فى جوف التابوت نورا .. فعالجته ففتحته .. فاذا بصبى نوره بين عينيه .. وهو يمص ابهامه لبنا .. فأحبوه جميعا .

وجاء فى البيضاوى والكشاف .. انه كانت لفرعون ابنة برصـاء .. قال الأطبـاء الذين يعالجونها .. ان علاجها لا يأتى .. الا من قبل البحر .. يوجد فيه شبه انسـان .. دواؤها ريقه .. فلطخت البرصاء برصها بريقه فبرأت .. وقيل لما نظرت فى وجهه برات .. فقالت ان هذه النسمة مباركة .. ولعل هذا من اسباب حبهم له .

فلما سمع الذباحون بأمره .. اقبلوا الى آسية بشفارهم .. ليذبحوا الطفل .. وقالوا : هـذا هو الصبى الذى نحذر منه .. فهـاتيه لنذبحه .. فقالت لهم : ان هذا الغلام لا يزيد العبرانين شيئا .. سآتى فرعون واستوهبه اياه .. ثم اتت فرعون .. وقالت « قرة عين لى ولك لا تقتلوه » فقال فرعون : قرة عين لك انت .. اما انا فلا حاجة لى فيه .

وقال عليه الصلاة والسلام « والذى يحلف به لو اقر فرعون ان يكون له قرة عين – كمـا اقرت – لهداه الله تعالى به .. كما هـدى به امرأته .. ولكن الله تعالى حرمه ذلك (١) ..

واراد فرعون أن يذبحه .. ولكن تحت الحاح السيدة آسية .. تركه ووهبه لها .. وسمته موسى .. وفى العبرية موشى .. لانه وجد بين الماء والشـجر و « مو » بلغة القبط أى المـاء و « شى » أى الشجر .

□□□

---

(١) القرطبى ٧/ القصص .

٣ ولى عهد مصر

« **فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا ان فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين** » (٨ ـ القصص) .

كانوا خاطئين اكبر الخطا .. فقد سحر منهم القدر .. حيث قتلوا الوفا من اجله .. ثم اخذوه ليربوه حتى يكبر .. ويفعل بهم ما كانوا يحذرون .. فكان عقابهم من الله .. تربية عدوهم على أيديهم .. ليكون لهم عدوا وحزنا .. وهما وغما .

اخذوه ليكون لهم قرة عين .. فكانت العاقبة ان كان لهم هما وحزنا .. كما قال الشاعر :

وللمنايا نربى كل مرضعة
ودورنا لخراب الدهر نبنيها
فذكر الحال بالمآل

❋ ❋ ❋

وعلمت امه يوكابد بوصوله الى قصر فرعون .. فجن جنونها .. وطاش عقلها .. وكادت ان تبدى بما فى نفسها .. فتظهر أمره .. وتفشى سره .. لولا أن ربط الله على قلبها .. لتزداد ايمانا به .. وثقة فيه .. حتى يتحقق وعده .. ولله دائما مع عباده المؤمنين شئون وشجون .. تتدخل ارادته معهم فى الشدائد « ويزداد الذين آمنوا ايمانا » .. « واصبح فؤاد ام موسى فارغا ان كادت لتبدى به لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين » (١٠ القصص) . ومعنى كلمة فارغا .. أى صفرا من العقل .. كقوله تعالى « وافئدتهم هواء » اى جوفاء لا عقول فيها .. ومنه بيت لحسان :

الا ابلغ ابا سفيان عنى
بانك أجوف نخب هواء

وكلفت ام موسى اخته مريم .. بان تتبع اثره .. وتعرف خبره .. دون ان يشعر بها احد من الناس .. وبدات مريم تباشر عملها .. وتقوم بما كلفت به .. فى تلصص وتجسس .. علها تعلم عنه شيئا « **وقالت لأخته قصيه فبصرت به عن جنب وهم لا يشعرون** » (١١ القصص) .

❋ ❋ ❋

وبعثت السيده آسيه فى طلب المراضع لموسى .. وكلما اتت مرضعة وحملته وكشفت عن صدرها امام الرجال .. واخرجت ثديها لتلقمه اياه باسم فرعون .. لوى وجهه عنها وبكى .. وامتنع كلية عن التقام اى ثدى يقدم اليه باسم فرعون .. وظلوا وقتا .. كلما خرجت مرضع .. دخلت أخرى .. لتخرج بعد قليل بدون جدوى .

ولاحظت مريم هذا الامر .. ووجدت فيه فرصة لتدخلها .. فدخلت القصر وقالت لهم : انا ادلكم على مرضع ترضعه .. وتكفله لكم .. وهم ناصحون له « وحرمنا عليه المراضع من قبل ، فقالت هل ادلكم على اهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون » (١٢ القصص) .

وكان هامان موجودا عندما قالت مريم اخت موسى « يكفلونه لكم وهم له ناصحون » فقال :

انها تعرفه وتعرف اهله .. فخذوها حتى تخبر عنهم .. فقالت : انما اردت من قولى هذا « انهم للملك ناصحون » وليس للطفل .. فأمرها فرعون أن تاتى بمن يرضعه ويكفله .

فاتت بأمها .. وموسى على يد فرعون يبكى .. وهو يعلله .

وكان على وجه موسى وهو طفل مسحة جمال .. وفى عينيه ملاحة .. لايكاد يصبر عنه

من رآه حتى يحبه .. ولعل سبب هذا .. قول الله تعالى عنه .. في هذا المقام « والقيت عليك محبة مني » اى انى احببتك .. ومن احبه الله .. احبه جميع القلوب .

وروى الثعلبي انه : سئل ابليس هل احببت احدا من العالمين ؟ .. قال لا .. الا موسى ابن عمران .. فقيل له وكيف ذلك ؟ . قال : لأن الله تعالى قال له « والقيت عليك محبة منى» .. فلم اتمالك أن أحببته .

غير انى لا ادرى من الذى سأل ابليس هذا السؤال ؟ .

وعلى اى حال يكفى ان الله القى عليه محبة منه .. ليحبه كل من يراه .

* * *

ودخلت ام موسى القصر الملكي مع ابنتها .. فوجدت ابنها يبكى .. على ذراع فرعون .. وهو يعلله .. فلما وجد ريحها .. استأنس .. والقى بنفسه بين ذراعيها فانتحت به جانبا .. فسترت صدرها .. واخرجت ثديها .. والقمته اياه باسم اله ابراهيم همسا — فالتقمه .. فقال لها فرعون : من انت منه ؟ .. فقد أبى كل ثدى الا ثديك ؟ .. فقالت : انى امرأة طيبة الريح .. طيبة اللبن .. لا أوتى بصبى الا قبلنى .. « ١ » فدفعه اليها .. وأجرى عليها راتبا .. فرجعت به الى بيتها من يومها « فرددناه الى امه كي تقر عينها ولا تحزن ولتعلم ان وعد الله حق ولكن اكثرهم لا يعلمون » (١٣ القصص).

وما كان هذا الا تدبير من الله لموسى وامه.. لتعود اليه ويعود اليها .. لترضعه وتكفله .

* * *

وبعد ان اتمت بوكابد رضاعته .. اتت به الى بيت فرعون .. وتولى البلاط الملكي تربيته وتنشئته .

وقد ورد في بعض كتب التفسير والقصص القرآني بعض أحداث حدثت بين موسى — عليه السلام — وهو صغير .. وبين فرعون منها ما ذكره الثعلبي انه كان يلعب بين يدى فرعون وبيده قضيب صغير .. فضرب به راس فرعون .. فغضب غضبا شديدا .. وتطير منه .. وقال هذا عدوى المطلوب .. فأرسل الى الذباحين ليذبحوه .. وبلغ ذلك امرأة فرعون .. فقالت له : ماذا بدا لك في هذا الصبى الذى وهبته لي ؟ .. فأخبرها بما فعل .. فقالت له انما هو صبى لا يعقل .. وانما صنع هذا من صباه .. وانا اجعل فيما بينى وبينك امرا تعرف به الحق .. واضع له حليا من الذهب والياقوت .. واضع له جمرا .. فان مد اليد الى الياقوت فهو يعقل فاذبحه .. وان اخذ الجمرة .. علمت انه صبى لا يعقل .. ولم ينتظر رأى فرعون .. واحضرت طستا من الذهب .. ووضعت فيه الياقوت .. ووضعت آخر فيه الجمر .. فمد موسى يده كي يأخذ الجوهر .. فحول جبريل يده الى الجمر .. فقبض على الجمرة .. ووضعها في فمه .. فجاءت على لسانه فاحرقته .

ثم يقول النيسابورى ان ذلك سبب قوله « واحلل عقدة من لسانى يفقهوا قولى » .

كما ذكر هذه الواقعة بعض المفسرين .. ولكن السبب يختلف .. فقالوا :

ان فرعون كان يداعبه وهو صغير .. فمد يده وجذبه جذبة شديدة من لحيته آلمته جدا فصمم على ذبحه لولا تدخل امرأته .. واجرت معه التجربة السابقة .. ولكن بالتمر والجمر ونحن نفوض امر هذه الواقعة الى الله .. وان كنا ننكر حصولها .. فحياة موسى عليه السلام كلها معجزات .. ولكن لأن لنا رأيا في عقدة لسانه .. التى طلب من الله سبحانه — حلها لما ارسله .. حيث قال له « واحلل عقدة من لسانى » بالتنكير .. ولو كان يقصد عقدة معروفة في لسانه .. لكان قوله بالمعرف لا بالتنكير .. فيقول : واحلل العقدة من لسانى .. وسنعرض لتلك العقدة في موضعها ان شاء الله تعالى .

وشب موسى — عليه السلام — في بيت فرعون وربى فيه كما يربى ابناء الملوك .. تحت رعاية السيدة آسية وعنايتها .. ورتبوا له المعلمين .. يلقنونه علوم الدنيا والدين .. ويؤهلونه لتولى امور الحكم .. عند عدم وجود احد من اصلاب الاسرة المالكة .. باعتباره ابن فرعون بالتبني .. فهو ولى عهد البلاد .

فتعلم القراءة والكتابة .. والفلسفة .. والصيدلة .. والطب .. وعلوم الفلك .. والحساب والهيئة .. وعلوم الكهنوت .

رضع موسى عقيدة الايمان مع لبن امه .. وعرف انه عبرانى من بنى اسرائيل .. وانه ليس من آل فرعون.. وامده الله بالعلم والحكمة « ولما بلغ اشده واستوى آتيناه حكما وعلما وكذلك نجزى المحسنين » (١٤ القصص) فجمع بين علمى الدين والدنيا .. وافاض الله عليه من لدنه .. مهابة ووقارا .

وكان رجلا قوى الجسم .. آدم اللون .. جعدا .. طويلا .. في لسانه ثقل وسرعة وعجلة.

---

(١) القرطبى ١٢/ القصص .

الفصل الثانى

○ التمحيص

(ثم جئت على قدر ياموسى واصطنعتك لنفسى)
(٤١ طه)
صدق الله العظيم

١ جريمة قتل

اعطى الله موسى ـ عليه السلام ـ حكما وعلما .. فآتاه سيرة الحكماء العلماء وسمتهم قبل البعث .. فكان لايفعل فعلا يستجهل فيه: حكم وعلم ودين .. بالاضافة الى قوة جسميه خارقة .. ومركز اجتماعى خطير .. يلى مركز فرعون مباشرة .

فكان يركب مراكب فرعون .. ويلبس ملابسه..وكان يدعى ـ موسى بن فرعون ـ«١»

فامتنع به عن العبرانيين الكثير من الظلم والاستعباد والسخرة .. وفى نظر الشعب أن هذا بسبب رابطة الرضاع فقط .

وكان طبيعيا ان يرى فيه بنو اسرائيل الظهير والنصير .. وان يلجأ اليه المظلومون منهم .

***

وذات يوم ركب فرعون مركبا .. ولم يكن موسى موجودا .. فلما جاء موسى .. وعلم بسير موكب الملك .. ركب فى اثره وادركته القيلوله بمنف من ارض مصر ـ وكان الحر قاسيا .. والقيظ شديدا حيث اغلق الناس متاجرهم .. واوى الجميع الى مضاجعهم .. وخلت الشوارع من الناس « ودخل المدينة على حين غفلة من اهلها » (١٥ القصص) .

وقال بعض المفسرين ان الوقت كان بين العشائين .. وقال بعض آخر انه كان يوم عيد لهم .. وكانوا منشغلين فى لهوهم .. وهناك راى آخر يقول ان موسى لما كبر وشب..وعرف انه عبرانى .. اخذ يهاجم الناس فى عقائدهم .. ويدعوهم الى دين ابراهيم .. فأخذوه وهددوه فلم يكن يدخل المدينة الا فى غفلة من اهلها .. وهذا تأول فيه تكلف ظاهر .. لانه :

اولا : لم يكن قد اوحى اليه بعد .

وثانيا : لأن هذا لايتفق مع ما هو فيه من ملازمة فرعون .. وتكريمه برفع الغبن والظلم عن بنى اسرائيل بسبب رضاعه منهم .

***

وبينما هو يسير فى شوارع منف .. فى تلك القيلوله القائظة .. وقد خلت من المارة .. وسكنت فيها الحياة الى حين ...اذ راى خباز الملك وكان اسمه « فاتون » يمسك بتلابيب اسرائيلى اسمه « السامرى » « ٢ » يريد

(١) القرطبى ١٥/ القصص .

(٢) القرطبى ١٨/ القصص .

تسخيره بالقوة .. ليحمل حطبا ثقله الى مخبز الملك .. والاسرائيلى يحاول التخلص منه ممتنعا عن تنفيذ هذا الامر .. وما ان راى موسى حتى استغاث به طالبا منه انقاذه من يدى المصرى .. ولكن فاتون الخباز لم يستجب لموسى فى اطلاق سراح الاسرائيلى ، قائلا انما اريد منه عملا لابيك .. واستمر فى اجباره على تنفيذ المطلوب بالقوة .. غير مكترث بطلب موسى .

واغتاظ موسى وغضب .. فوكزه بجمع كفه وكزة لم يتحملها الخباز .. فخر صريعا « فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته وهذا من عدوه فاستغاثه الذى من شيعته على الذى من عدوه فوكزه موسى فقضى عليه » (١٥ القصص) وهرب موسى وصاحبه الاسرائيلى .. تاركين القتيل ملقى فى الشارع .. فلم يعرف الناس القاتل .. حيث لم يرهما غير الله .

* * *

لم يكن موسى يتوقع ان تؤدى الضربة الى قتل المصرى .. ولهذا تملكه الأسى والألم .. واخذه الأسف والندم .. فقال « هذا من عمل الشيطان انه عدو مضل مبين » (١٥ القصص). ومادام الشيطان قد استطاع تنفيذ امر خطير كهذا القتل — على يد انسان .. كانت الجريمة لاصقة بهذا الانسان .. حتى يتوب الى الله .. ويرجع اليه آسفا نادما مستغفرا .. فقال موسى « رب انى ظلمت نفسى فاغفر لى ، فغفر له انه هو الغفور الرحيم » (١٦ القصص) .

وفى النيسابورى عن وهب .. انه قال : اوحى الله الى موسى بن عمران :

« وعزتى وجلالى .. لو كانت النفس التى قتلت اقرت لى طرفة عين انى اله خالق رازق .. لاذقتك طعم العذاب .. وانما عفوت عنك .. لأنها لم تقر لى ساعة واحدة انى اله خالق رازق » فان صحت هذه الرواية تكون المفهوم ان الايحاء بها من الله الى موسى بعد رسالته .. أو بطريق الالهام كما اوحى الى امه من قبل .

وعلى اى حال .. فقد اطمأن قلب موسى الى ان الله تعالى غفر له هذا الجرم .. ولذلك قال « رب بما انعمت على فلن اكون ظهيرا للمجرمين » (١٧ القصص) .

لعله يقصد انعام الله عليه بالمغفرة .. او بالقوى الجسمية الخارقة .. او بهما معا .

فلن اكون بعد اليوم عونا وظهيرا .. لا لأوليائك .. واهل طاعتك والايمان بك .. ولن استعمل قوتى فى نصرة المجرمين الظالمين .. والالحاق بى ما يحيق بهم من غضبك وسخطك .. وعذابك ونقمتك .

وفى الحديث « ينادى مناد يوم القيامة .. اين الظلمة .. واشباه الظلمة .. واعوان الظلمة حتى من لاق لهم دواة .. اوبرى لهم قلما .. فيجمعون فى تابوت من حديد .. فيرمى بهم فى جهنم » (١)

وفيه ايضا « من مشى مع ظالم فقد اجرم » .

* * *

وقد اخذ بن عباس — رضى الله عنه — على موسى — عليه السلام — انه لم يستثن فى قوله « فلن اكون ظهيرا للمجرمين » بمعنى انه لم يقل ان شاء الله .. ولهذا ابتلى بصاحبه الاسرائيلى — مرة ثانية (١) .. ونام موسى تلك الليلة .. تنتابه الظنون .. وتتبادله الشكوك .. وتتنازعه الهواجس .. هل يظهر امره ؟ .. وهل يعرف القوم انه القاتل ؟ وماذا يكون موقفه من فرعون .. والقتيل من موظفى القصر ؟ .. « فأصبح فى المدينة خائفا يترقب » يتلصص الاخبار .. ويسترق الانباء .. وبينما هو يسير خائفا وجلا مترقبا .. اذ به يجد صاحب الأمس السامرى — يستغيث به ضد مصرى آخر .. امسك بتلابيبه .. **وكان موسى مضطرب الفكر ..** ثائر الاعصاب .. فقال له غاضبا .. انك لغوى مبين « فاذا الذى استنصره بالأمس يستصرخه قال له انك لغوى مبين فتملكه الذعر والرعب ورفع يده ليبطش بالمصرى ولكن الاسرائيلى خاف .. وظن ان الضربة موجهة اليه هو .. لما قال له انك لغوى مبين فتملكه الذعر والرعب .. لعلمه ان ضربة موسى قاتلة .. فقال صارخا « ياموسى أتريد ان تقتلنى كما قتلت نفسا بالامس .. ان تريد الا ان تكون جبارا فى الارض .. وما تريد ان تكون من المصلحين » (١٩ القصص) .

* * *

وافتضح امر موسى .. وعرف المصرى .. انه هو الذى قتل الخباز بالامس .. وهكذا

(١) لاق الدواة . اى اصلح مدادها . الحديث من القرطبى وغيره ١٧/ القصص .

(١) القرطبى ١٧/ القصص .

يصدق المثل القائل « عدو عاقل ، خير من صديق جاهل » وقد عبر الشاعر عن هذا المعنى فقول

ان اللبيب اذا تـزايد بغضـه
احرى عليك من الصديق الأحمق

وذكر الطبرى بسنده عن ابن عباس .. ان المصريين .. لما عثروا على مقتل موسى .. ولم يعلموا له قاتلا .. سعوا الى فكرهم ان بنى اسرائيل هم قاتلوه .. فقالوا لفرعون ذلك وطلبوا منه الأخذ بحقهم .. والترخيص لهم بأخذه فقال : ابغونى قاتله .. ومن يشهد عليه .. لأنه لا يستقيم أن نقضى بغير بينه .. فطلبوا له ذلك .

* * *

ويستمر الطبرى فى رواية ابن عباس فيقول:

فبينما هم يطوفون ولا يجدون .. اذ مر موسى من الغد .. فوجد ذلك الاسرائيلى يقاتل فرعونيا .. فاستغاثه الاسرائيلى .. وهو الذى من شيعته .. على الفرعونى الذى هو من عدوه .. فصادف موسى .. وقد ندم على ماكان منه بالأمس .. وكره الذى راى .. وغضب موسى .. فمد يده وهو يريد ان يبطش بالفرعونى وفى الوقت ذاته .. قال للاسرائيلى « انك لغوى مبين ».. قال : فاذا هو غضبان كغضبه بالامس .. الذى قتل فيه الفرعونى .. فخاف الاسرائيلى ان يكون اياه اراد .. بعد ماقال له « انك لغوى مبين » فحاجز الاسرائيلى الفرعونى .. وقال لموسى « اتريد ان تقتلنى كما قتلت نفسا بالأمس » وانما قال ذلك مخافة ان يكون موسى اياه اراد قتله .١ هـ

وانطلق المصرى ليخبر قومه .. ان قاتل الأمس هو موسى .. ورفـع القوم الخبر الى فرعون الذى رخص لهم فى القصاص .. واخذوا يتآمرون لقتله والثار منه .

□ □ □

ـ ٢ ـ

((هجــــــرة))

روى عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ((سباقوا الامم ثلاثة .. لم يكفروا بالله طرفة عين : حزقيــل مؤمن آل فرعون .. وحبيب النجار صاحب يس .. وعلى بن أبى طالب .. وهو افضلهم)) .

فوجىء مــوسى بحزقيــل ـ مؤمن آل فرعون ـ يخرج عليــه مسرعا لاهثــا .. من طريق مختصر .. فأخبره بتآمر القوم عليه .. وانهم فى الطريق اليه الآن ليقتلوه .. ونصحه بالخروج من مصر فى الحال خشية على حياته منهم ـ واستمع موسى الى نصيحة حزقيل « وجاء رجل من اقصى المدينــة يسـعى قال ياموسى ان الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخـرج انى لك من الناصحين » (٢٠ القصص) .

ويروى ان جزفيل هذا هو الذى صـنع التابوت .. الذى وضـع فيه موسى ـ عليه السلام والقى فى النيل .

كما قال مقاتل : لم يسلم من اهل مصر الا ثلاثة : آسـية امراة فرعون وحزقيل مؤمن آل فرعون ، ومريم بنت تاموس التى دلت موسى ـ عليه السلام ـ على قبر يوسف .

ومن هنا تبدأ مرحلة التمحيص .. بالنسبة لموسى ـ عليه السلام ـ وقـد مضى من عمره ثلاثون عاما .. قضاها فى بلهنية من العيش .. ورغد الحياة .. ووليا للعهد .. فى اكبر دولة على سطح الارض .. فى هذا الحين .. فهو وان كان قوى الجسم .. الا انه مترف .. لم يتعود شظف الحياه والشقاء .. ولم يذق مر الكفاح والبلاء .. بض اليد ناعم القدم .. وجسم كهذا .. لا يصلح لتحمل الرسالات السـماوية .. وما يصيب صاحبها من صراع وجهاد وكفاح .. فكان لابد من التمحيص (١) « وليمحص الله الذين آمنوا » .. فهل يستطيع ان يسوس الامم .. الا من يرعى الغنم ؟

وخرج موسى من مصر مهاجرا الى مدين .. ولعله اختارها مراعيا صلة القرابة بين مدين ابن ابراهيم .. وجده اسحاق بن ابراهيم فهم ابناء عمومته .

وارض مدين .. بلاد واقعــة حول خليج العقبة .. من نهايته الشمالية .. شمال الحجاز وجنوب فلسطين .

خرج هاربا خـائفا .. قبـل ان يـدركه المؤتمرون .. ويلحقه الظالمون .. ولكن امله فى الله لم ينقطع .. « فخرج منها خائفا يترقب قال رب نجنى من القوم الظالمين » (٢١ القصص) ويقول ابن عباس : خرج وليس له علم بالطريق .. الا حسن ظنه بربه . « ولما توجه تلقاء مدين قال عسى ربى ان يهدينى سـواء السبيل » (٢٢ القصص) **فعن له ثلاثة طرق ... اخـذ** اوسطها .. وضل طالبوه .. فسلكوا طريقا غير طريقه وسار موسى فى صـحراء مترامية .. وسباسب غير متناهية .. يرتفع مع التلال كلما ارتفعت .. ويهبط الى الوديان اينما انخفضت

---

(١) التمحيص : الابتلاء والاختبار . ومحص الذهب بالنار : اخلصه من الشوائب .

.. لا زاد معه ولا ماء .. ولا مدرس ولا غطاء كل همه ان يسرع الخطى نحو الشرق فيه مدين التي يستقبها .. وجهة النجاة التي يرتجيها .. حتى حفيت قدماه .. وكلت ساقاه .. واصبحت ملابسه اسمالا بالية .. من قسوة الصحراء وشظفها .. ولهيب الرمال وقيظها .

وفي الطبري وغيره ، عن سعيد بن جبير خرج موسى الى مدين وبين مصر وبينها مسيرة ثمان ليال .. ولم يكن له طعام الا ورق الشجر .. وانه خرج حافيا .. فما وصل الى مدين .. حتى وقع خف قدمه .. اي سقطت الجلدة الملاصقة للارض من رجله .

* * *

وقد ذكر الكشاف والنيسابوري والقرطبي رواية تقول : ان موسى لما اخبره حزقيل بالمؤامرة التي دبروها لقتله.. تحير ماذا يفعل ؟ ولم يدر اين يذهب.. فجاء ملك على فرس بيده عنزة[1] .. فقال له : اتبعني فتبعه .. فهداه الطريق الى مدين .

□□□

(1) عنزه : بفتح العين والنون اطول من العصا واقصر من الرمح .. وفيها زج كزج الرمح .

٣ بـؤس وفقـر

بعد جهد جهيد .. وصل موسى الى بئر مدين .. ورآه على البعد .. وقد تزاحم على شفيرة جمع كبير من الناس .. يسقون انعامهم .. ويكاد يدب بينهم صراع .. أيهم يرد الماء قبل اخيه **ومن المعروف أن التقدم فى ورد الماء** لسقى الماشية .. فى مثل تلك البلاد .. انما يكون **لأولى العزم والقوة .. واما أهل الضعف .. فحظهم التأخر ..** حتى اذا لم يبق وارد ولا صادر سواهم .. أو ردوا ماشيتهم .. فهم لضعفهم وذلتهم يتاخرون عن الناس فى ورود الماء .. واهل القوة والعزة .. يطلبون السبق فى الورود .. لأن الماء فى هذه الحال يكون صافيا.. اما الذى يرد أخيرا .. انما يرد بعد نضوب الماء ويكون كدرا .. ويقول عمرو بن كلثوم التغلبى :

ونشرب ان وردنا الماء صفوا
ويشرب غيرنا كدرا وطينـا

***

ووجد موسى فى طريقه قبل بلوغ البئر .. فتاتين تردان أغنامهما عن الورد .. فسالهما عن سبب ذلك .. لماذا تذودان اغنامكما عن الماء؟. ؟. فقالتا فى حياء .. وهما تحاولان ستر نفسيهما عنه بقدر المستطاع .. اننا ننتظر ان يفرغ الرجال من سقى انعامهم ويصدروا ـ فنحن كما ترى لا قدرة لنا على مساجلة الرجال .. ومسابقتهم الى البئر ..

فلم تخطىء همته فى دين الله تلك الفرصة.. مع ما كان به من التعب والنصب وسقوط خف قدمه .. مع شدة الجوع .. ولكنه رحمهما واغاثهما .. وعزم على أن يكفيهما امر السقى فى مثل تلك الزحمة .. بعزم قلبه .. وقوة ساعده .. وما آتاه الله من الفضل فى متانة فطرته .. ورصانة جبلته .. فقال لهما : ولماذا تسقيان الاغنام .. اليس عندكم رجل يقوم بهذا العمل الذى تتزاحم فيه الأجسام .. وتتبارى السواعد ؟ .. فقالتا : ليس فى بيتنا من الرجال غير ابينا .. وهو شيخ فان كبير .. لا قدرة له على الخروج والسعى .. فتقدم فى عزم وبأس.. ومنع الرعاة .. حتى سقى لهما أغنامهما .. ولم يقدر احد منهم على منعه .. فالناس تحترم الأقوياء .. وقد رأوا من قوته واقدامه ما الزمهم حد الأدب معه .

« **ولما ورد ماء مدين وجد عليه امه من الناس يسقون** ، ووجد من دونهم امرأتين تذودان قال ما خطبكما قالتا لا نسقى حتى يصدر الرعاء وابونا شيخ كبير » (٢٣ القصص) .

والذود هو المنع والكف والطرد .. **ويقول جرير .. وهو يهجو الفرزدق :**

لقـد سلبت عصـاك بنو تميم
فما تدرى باى عصا تذود ..

وانما فعل ذلك رغبة فى المعروف .. واغاثة للملهوف .. وقد انتهز هذه الفرصة .. احتسابا عند الله .. وترغيبا فى الخير .. وبعثا على الاقتداء بالصالحين .. والاخذ بسيرهم ومروءتهم .

وقد أثار صاحب تفسير الكشاف سؤالا : كيف ساغ لنبى الله شعيب أن يرضى لابنتيه بسقى الماشية ؟ .. والأمر ليس بمحظور .. فالدين لا يأباه .. واما العرف فالناس مختلفون فى ذلك .. والعادات متباينة فيه .. فأحوال العرب فيه خلاف احوال العجم ، ومذهب اهل البدو غير مذهب اهل الحضر .. وخاصة ان هناك حالة الضرورة .

***

وقد اختلف المفسرون فى مسالة البئر .. وانه كانت فوقه صخرة رفعهما موسى وحده ليسقى للمراتين وقال بعضهم انه لا يستطيع رفعها اقل من عشرة رجال .. وقيل اربعين رجلا .. بل وقال الكشاف مائة .. ولست ادرى سببا لتلك التأولات والتكهنات والمبالغات .. مع ان البئر كانت مكشوفة .. بدليل وجود امة عليها من الناس يسقون انعامهم .. مع وجود المراتين قريبا منهم .. تذودان اغنامهما .. وتردانها عن الماء .. فليس من المنطق .. ان يغطى الرعاة البئر بتلك الصخرة الضخمة .. بينما المراتان لم تسقيا غنمهما بعد .

ولعل بعض هواة الحشو اراد ان يتخلص من هذا المازق .. مع الاحتفاظ بتلك المبالغات .. فادعى انها كانت بئرين .. وان البئر التى رفع موسى غطاءها كانت غير البئر التى يسقى منها الرعاة . فقد ذكر ابو اسحاق النيسابورى التعلبى .. ان ابا سعيد عبد الملك بن ابى عثمان الواعظ .. قال : ان تلك البئر غير التى تسقى منها الرعاة .. قال : وقد حضرتها .. ورايتها ونحن وان صدق هذا الواعظ فى رؤيا البئر الثانية بنفسه .. فليس هذا دليلا على وجودها فى ايام هذه الواقعة .. حيث لا يعقل ان يتجمع امة من الناس ـ وهذا اللفظ « امة » قد يدل على كثرة العدد .. يتزاحمون بالاكتاف والسواعد على بئر .. وبجوارها بئر اخرى مغطاة .

* * *

« فسقى لهما ثم تولى الى الظل .. فقال رب انى لما انزلت الى من خير فقير » (٢٤ القصص) وهكذا يربى الله ـ سبحانه ـ انبياءه واصفياءه .. فمن قصر الملك .. وابهة العز .. ورفاهة العيش .. الى ظل شجرة فوق بئر فى صحراء .. جسما مرهقا .. وقدما مشققا .. وبطنا خاويا .. يقول سعيد بن جبير .. عن ابن عباس .. تعليقا على قوله : « انى لما انزلت الى من خير فقير » لقد قال موسى ذلك .. ولو شاء انسان ان ينظر الى خضرة امعائه من شدة الجوع لنظرها .. وما سأل الله تعالى إلا أكلة .. وقال أبو جعفر الباقر .. لقد قالها .. وانه لمحتاج الى شق ثمرة .

واغلب المفسرين حمل هذا القول من موسى على الطعام فقالوا : لم يطلب من الله الا اكلة .

ولكن المتفحص فى التعبير يرى أنه يقول « انى لما انزلت الى من خير فقير » .

وكلمة « خير » شاملة .. فكانه يقول : انا جائع فقير الى الطعام .. عار فقير الى الكساء .. متعب فقير الى الراحة .. وحيد فقير الى زوجة تؤنس وحشتى .. وتقضى حاجتى .

وكانت ابواب السماء متفتحة للاجابة بعد هذا البلاء والشقاء .. وليستقر بعد قلق وخوف وعناء .

□ □ □

٤ راعى الغنم

عادت الفتاتان بالغنم الى ابيهما ــ الشيخ الكبير ــ على غير عادتهما .. مبكرتين عن ميعادهما فى العودة كل يوم .. مما دعا الشيخ الى سؤالهما عن سبب ذلك .. فاخبرتاه أن رجلا صالحا غريبا عن الديار .. رحم ضعفهما .. واشفق على حالهما .. وسقى لهما الغنم .. فطلب من صغراهما .. أن تذهب اليه .. وتدعوه لاستضافته عنده .

ويقول صاحب تفسير الكشاف : ان الكبرى اسمها صفراء .. والصغرى اسمها صفيراء .. وان صفراء هى التى دعته وهى التى قالت يا أبت استأجره .. وهى التى تزوجته .. ولكن الاجماع على أن اسمها « صفورة » وانها هى الصغرى .. وقد وجدت حديثا يتردد فى اغلب كتب التفسير عن النبى صلى الله عليه وسلم .. لما سئل : اى الأجلين قضى موسى ؟ قال « قضى اوفاهما وتزوج صغراهما » .

وجاءته الفتاة .. وهو جالس تحت الشجرة .. تمشى مستحيية متخفرة .. تتستر بكم درعها .. وليس هذا منها بعجيب .. فالخفر والحياء اول سمات الحرائر .. فما بالك بسليلة المصطفين من النبيين والمرسلين ؟ .. وكانى بصوت على ــ رضى الله عنه وكرم وجهه ــ بدوى فى احقاب التاريخ .. واعقاب الأجيال يقول : كل امراة خراجة ولاجة متبذلة سلفع ، فهى أمة » والخراجة الولاجة .. هى كثيرة الخروج من منزلها .. والولوج فى منازل الآخرين .. اما المبتذلة السلفع .. فهى التى تكشف عن أجزاء من جسمها بقصد الفتنة فهذه لايعتبرها الاسلام امراة حرة .. وانما اعتبرها أمة . « وجاءته احداهما تمشى على استحياء » ولعلنا نلحظ فى وجود السين والتاء فى كلمة « استحياء » معنى عميقا فى شدة الحياء .. ومحاولة الاستزادة منه .. والا لقال ــ سبحانه ــ تمشى على حياء « قالت ان ابى يدعوك ليجزيك اجر ما سقيت لنا » (٢٥ القصص) .

فلما سمع موسى قولها « ليجزيك اجر ما سقيت لنا » كره ذلك .. وتردد فى الاجابة .. فهو لا يقبل ان يأخذ اجرا على زكاة قوته .. وهو ما عمل الا ما توجبه المروءة .. وتقتضيه الشهامة والرجولة . وجاء فى الكشاف عن عطاء ابن السائب .. انه اسمع الفتاتين قوله : « انى لما انزلت الى من خير فقير » لما سقى لهما .. تعريضا منه .. حتى يكون له منهما ما يقوته .. وليس معه درهم ولا دينار .. ولا شىء يأكله .. ا هـ .

فان صح هذا من موسى عليه السلام ــ فيكون الله هو الذى ساق تلك العبارة على لسان الفتاة .. ليؤله نظير اتجاه فكره الى غيره .. وهكذا يريد الله ــ جل شأنه ان يطهر اصفياءه حتى من اقل الخطرات .. التى تخطر عفوا فى اذهانهم .. وحتى تظل صفحات قلوبهم .. بيضاء ناصعة البياض .. صافية نقية من ادنى شائبة .. أو اقل غبرة .

* * *

واجاب موسى الطلب مرغما من شدة الجوع .. وتقدمته صفورة وهو يليها .. فهبت ريح الصقت ثوبها بردفها .. فكره موسى ان يرى ذلك منها .. فقال لها : امشى خلفى .. ودلينى على الطريق .. ويقول البعض انه تحرز من سماع صوتها .. فقال لها : اذا اخطات الطريق فارمى قدامى بحصاة .. حتى أنهج نهجا .. فانا بنى يعقوب لاتنظر الى اعجاز النساء فنعتت له الطريق الى منزل ابيها .. ومشت خلفه حتى دخل على الشيخ .

وقال ابو حازم سلمه بن دينار بتفسير البغوى « معالم التنزيل » عند تفسير « ليجزيك اجر ما سقيت لنا » قال لما سمع ذلك موسى .. اراد الا يذهب .. ولكنه كان جائعا .. فلم يجد بدا من الذهاب .. فمشت المراة .. ومشى موسى خلفها .. فكانت الريح تضرب ثوبها فتصف ردفها .. فكره موسى أن يرى ذلك منها .. فقال لها : امشى خلفى ودلينى على الطريق ان اخطأت .. ففعلت ذلك .. فلما دخل على شعيب .. اذا هو بالعشاء مهيئا فقال له الشيخ اجلس ايها الشاب فتعش .. فقال موسى اعوذ بالله .. فقال شعيب : ولم ذاك .. الست بجائع ؟ .. قال : بلى .. ولكن اخاف ان يكون ذلك عوضا لما سقيت لهما .. وانا اهل بيت لانطلب على عمل من اعمال الاخره عوضا من الدنيا .. فقال شعيب لا والله ايها الشاب .. ولكنها عادتى وعادة آبائى نقرى الضيف .. ونطعم الطعام .. فجلس موسى واكل .

وقد نقد الاستاذ عبد الوهاب النجار فى كتابه ــ قصص الانبياء ــ هذه الرواية بقوله :

انها حكاية جميلة .. لولا ان موسى كان موقنا انه انما دعاه ليجزيه اجر ما سقى لابنته .. فما كان له ان يتجاهل ذلك .. وفى هذا النقد شيء من التزايد على موسى او على الرواية فلولا ان الشيخ قال له : انما هى عادتى وعادة آبائى .. نقرى الضيف .. ونطعم الطعام لما اكل موسى مهما عضه الجوع وآلمه الضوى .

فحقيقة الأمر .. انه لما قدم له الطعام .. امتنع عن تناوله .. وقال : انا اهل بيت لا نبيع ديننا وصنيعنا .. بطلاع الارض ذهبا .. ولا نأخذ على المعروف ثمنا .. يقصد بهذا القول العبارة التى سمعها من الفتاة « لنجزيك اجر ما سقيت لنا » فقال له الشيخ : تلك عادتنا .. نقرى الضيف .. ونطعم الطعام .. فاكل معه .

❊ ❊ ❊

ولما سكتت ثورة الجوع فى موسى .. واطمأنت نفسه .. سأله الشيخ عن حاله فقص عليه قصته كلها .. « فلما جاءه وقص عليه القصص قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين » (٢٥ القصص) .

ونفهم من قول الشيخ له نجوت من القوم الظالمين « ان موسى حدثه عن كفر فرعون وظلمه .. وتسخير بنى اسرائيل .. وقتل الذكور من اطفالهم .. لان طلبهم موسى قصاصا منه لقتله القبطى .. ليس فيه ما يسبب اسناد الظلم اليهم » .

❊ ❊ ❊

وتحركت فى قلب صفوره خفقة جارفة من خفقات الحب نحو موسى فهو شاب قوى الجسم .. آدم اللون .. فيه وقار ومهابة .. ومروءة وامانة فلم تتمالك نفسها .. عندما دخلت عليهما لترفع بقايا الطعام .. ان عرضت على ابيها اقتراحا .. فطن الرجل الى ما يخفيه هذا الاقتراح مما يعتمل فى فؤادها من لواعج الحب .. حيث قالت « يا ابت استأجره ان خير من استأجرت القوى الامين » (٢٦ القصص) .

وجاء فى كتاب قصص الانبياء لصاحبه ابى اسحاق النيسابورى الثعلبى قال النبى صلى الله عليه وسلم : « اصدق الناس فراسة .. امراتان .. كلتاهما تفرستا فى موسى .. فأصابتا : احداهما امراة فرعون .. حيث قالت :

« قرة عين لى ولك لا تقتلوه » والاخرى بنت شعيب .. حين قالت « ياأبت استأجره ان خير من استأجرت القوى الامين » .

وروى صاحب الكشاف حديثا آخر بسنده عن ابن مسعود « افرس الناس ثلاثة » .

بنت شعيب .. وصاحب يوسف فى قوله « عسى ان ينفعنا » .. وابو بكر فى عمر .

وواضح ان قولها « القوى الامين » كلام حكيم جامع لا يزاد عليه .. لانه اذا اجتمعت هاتان الخصلتان .. اعنى الكفاية والامانة فى القائم بامرك .. والمشرف على عملك .. فقد فرغ بالك .. واطمأن خاطرك .

❊ ❊ ❊

وقال ابو جعفر الطبرى : فاحفظته الغيرة .. فقال : وما يدريك ما قوته وما امانته ؟ .. فقالت : اما قوته .. فما رايت منه حين سقى لنا .. لم تر رجلا قط اقوى منه فى السقى .. واما امانته فانه نظر حين اقبلت اليه وشخصت له .. فلما علم انى امراه .. صوب راسه فلم يرفعه .. ولم ينظر الى حتى بلغته رسالتك .. ثم قال امشى خلفى .. وانعتى لى الطريق .. ولم يفعل ذلك الا وهو امين .. فسرى عن ابيها وصدقها .. وظن به الذى قالت .

ونشط الشيخ الى تنفيذ اقتراحها .. وتحقيق نبضات فؤادها .. فهم فى حاجة الى

من يرعى لهم الغنم .. بدلا من خروج الفتاتين فى هذا العمل الشاق ... الذى لا تصلح له غير الرجال .

فقال لموسى « انى اريد ان انكحك احدى ابنتى هاتين ، على ان تأجرنى ثمانى حجج فان اتممت عشرا فمن عندك وما اريد ان اشق عليك ، ستجدنى ان شاء الله من الصالحين » (٢٧ القصص) .

وفى هذا دليل على جواز عرض الولى ابنته على الرجل .. وهذه سنة قائمة .. عرض شعيب ابنته على موسى - وعرض عمر ابن الخطاب ابنته على ابى بكر وعثمان .. وعرضت الموهوبة نفسها على النبى - صلى الله عليه وسلم - فهى عادة حسنة ..

فحدد شعيب لموسى صداق ابنته .. ان يرعى لهم ثمان سنين .. وان شاء أن يتم عشرا .. فيكون ذلك منه فضل .

وكان القبول من موسى .. فقال « ذلك بينى وبينك ايما الاجلين قضيت فلا عدوان على والله على ما نقول وكيل » (٢٨ القصص) ..

تمت الصفقة بين الرجلين .

ويقول بعض المفسرين : انه اخرجها معه من حين العقد .

واستكمالا لهذا المقام .. وحتى لا نعود اليه نذكر التوراة ان الشيخ هو الذى طلب استئجار موسى ابتداء .. ولكن القرآن اصدق .. فهو المهيمن على التوراة والانجيل .. كما قالت التوارة : كانت البنات سبعا لا اثنتين .. وقد جمع الحافظ بن كثير بين القولين .. فقال ان المخاطبتين لموسى كانتا اثنتين .. وهما المباشرتان الرعى .. أما سواهما فلم يباشرن الرعى .

❋ ❋ ❋

□ □ □

٥ العصا والشيخ

ان الذى يقرأ فى كتب تفسير القرآن الكريم .. كمن يجول فى حدائق غناء .. ورياض فيحاء .. فيجد الكثير من الثمار الناضرة .. والورود الزاهرة .. ولكنه لايسلم من بعض أشواك تدميه .. وزوائد تؤذيه .. ان لم يكن حريصا فى سيره .. حذرا فى تجواله .

ومن تلك الاشواك والزوائد .. ما وجدته فى بعض الكتب عن عصا موسى ـ عليه السلام ـ من اشياء تفوق الخيال .. وتجاوز المحال .

وسأذكر بعضا مما دسه المغرضون فى كتاب ابى اسـحاق النيسابورى المسمى بالعرائس ولا استطيع ان اقول « ما ذكره النيسابورى » لأنه لا يمكن أن يكتب هذه الخرافات والخزعبلات التى لا يقبلها عقـل .. ولا يرضـاها منطق .. ولا تساير منطوق القرآن الكريم ومفهومه .

فهل يعقل ان يذكر النيسابورى عن عصـا موسى ـ عليه السلام ـ وقبل ان يبعث .. انها كانت تضيىء له ليلا فى المغارات ؟ .. واذا اعوزه المـاء دلاها فى البئر .. فتمتد الى قاعه ويصير فى رأسها ما يشبه الدلو فيستقى بها ؟ . واذا احتاج الطعام ضرب الأرض .. فتنبت فى التو الشجرة التى يشتهى ثمرها .. وقد امرت وطاب ثمرها ؟ وأنه كان يضرب بها الجبل فينشق له فيه طريق ؟ .. ويعبر عليها الأنهار وكأنهـا سفينة ؟ .. ويشرب من احدى شعبها عسلا .. ومن الثانية لبنا ؟ ويركبها فتوصله الى المكان الذى يبتغيه ؟ ـ وغير هذا كثير وكثير مما لايدخل فى نطاق العقل .. بل ولا الخـيـال ..

ويقول هؤلاء المخرفون أن هذا المفهوم من وصف العصا « فاذا هى ثعبان مبين » « وكأنها جان » « فاذا هى حية تسعى » .

وفاتهم أن موسى ـ بعد ذلك ـ عندما سأله الله .. عن عصاه فى الوادى المقدس وطلب منه القاءها .. وانقلبت حية «ولى مدبرا ولم يعقب» خوفا منها .. مما يدل على ان هذا الأمر جديد عليه وعليها .

❋ ❋ ❋

وانما أذكر هنا رواية عن العصا .. وردت فى اكثر من كتاب من كتب التفسير .. ومنهـا النيسـابورى التعلبى .. والكشـاف وابن كثير والقرطبى .. وهذه الرواية تبين لنا مسـألة تعرضنا لها فى بيان بينة شعيب ـ عليه السلام التى يعنيها عندما قال لقومه « قد جاءتكم بينة من ربكم » حيث قال المفسرون ان معجزة شعيب .. هى محاربة عصا موسى التنين (١) .. حيث دفع اليه غنمه .. وولادة الغنم الدرع خاصة.. حين وعده ان تكون له الدرع (٢) من أولادها عاما .. واليك هذه الرواية :

أمر شعيب ابنته ان تأتيه بعصا .. يعطيها لموسى .. فيستعين بها فى رعيـه .. فجاءته بعصا وديعة عنده .. دفعها اليه ملك على صورة رجل .. فردها عليها شعيب .. وامرها ان تأتيه بعصا اخرى فمازالت ترجع وتأتيه بها بعينها.. كلما ردتها الى مكانها وارادت ان تأخذ غيرها .. سقطت هى فى يدها .. فمازالت كذلك .. حتى اخذها شعيب .. واعطاها موسى .. ثم ندم على

---

(١) التنين : الثعبان .

(٢) الدرع من الغنم : القوالب الملونة .

ذلك .. لانها وديعة .. فطلب من موسى ردها .. فابى .. وتنازعا .. ثم رضيا حكم اول قادم عليهما .. فأتاهما ملك يمسى فتحاكما اليه .. فقال لموسى ضعها على الأرض فمن حملها فهى له .. فوضعها .. وعالجها الشيخ .. فلم تطق حملها .. فأخذها موسى .

كما ذكر الكشاف ايضا عن الحسن : ماكانت الا عصا من الشجر اعترضها اعتراضا .

غير اننا لا نستطيع ان ننكر ان تلك العصا معجزة .. فيها بعض الأسرار التى ذكرها الله تعالى ــ عنها .

❊ ❊ ❊

وجاء فى تفسير الكشاف والقرطبى وغيرهما .. ان موسى عليه السلام ــ اخذ العصا .. ولما اصبح .. دفع اليه شعيب غنمه .. وقال له : اذهب الى الوادى .. فاذا بلغت مفترق الطريق .. فلا تأخذ على يمينك .. فان الكلاوان كان بها اكثر .. الا أن فيها تنينا اخشاه عليك وعلى الغنم .. فأخذت الغنم ذات اليمين .. ولم يقدر على كفها .. فمشى على اثرها .. فاذا عشب وريف لم ير مثله .. فنام .. فاذا بالتنين قد اقبل .. فحاربته العصا حتى قتلته .. وعادت الى جنب موسى دامية .. فلما ابصرها دامية .. والتنين مقتولا .. ارتاح لذلك .. ولما رجع الى شعيب .. مس الغنم فوجدها ملاى البطون .. غزيرة اللبن فأخبره موسى .. ففرح .. وعلم ان لموسى والعصا شأنا ..

ولما قرب الأجل المتفق عليه بينهما .. قال الشيخ لموسى .. انى وهبت لك من نتاج غنمى هذا العام كل ادرع(1) ودرعاء .. فأوحى اليه فى المنام .. ان اضرب بعصاك مستقى الغنم ففعل .. ثم سقى .. فما أخطأت واحدة الا وضعت ادرع ودرعاء .. فوفى له بشرطه .

❊ ❊ ❊

هذا عن العصا .. واما عن الشيخ .. فقد اختلف فيه المفسرون ، هل هو شعيب النبى ام هو شخص آخر ؟ .

وقد اورد الطبرى عدة روايات منها رواية مسندة الى ابن عباس .. أن الذى استأجرموسى « يثرى » صاحب مدين .. وفى رواية أخرى مسندة الى قرة بن خالد قال : سمعت الحسن البصرى يقول يقولون شعيب صاحب موسى .. وهو سيد أهل الماء يومئذ » .

ويستشهد ابن كثير بهذه الرواية على ان البصرى من القائلين بأن صاحب موسى هو شعيب النبى .. ولكن الأستاذ عبد الوهاب النجار يعترض على تلك الرواية بقوله : لو كان سيد أهل الماء .. ما اخر الرعاة ابنتيه عن الورد .. ولكانتا تصدران قبل ورد الرعاة .. كما ان « يقولون » لا تفيد الجزم .. وقال آخرون ان صاحب موسى اسمه « يثرون » ابن اخى شعيب ــ عليه السلام ــ حيث قال ابو جعفر جرير الطبرى .. بسنده الى ابى عبيده .. قال : الذى استأجر موسى «يثرون» ابن اخى شعيب.

❊ ❊ ❊

وهذه كلها روايات تميل الى ان الشيخ ليس شعيبا ، وانما هو شخص آخر قد يكون اخاه او ابن اخيه .. أو شخص آخر .. كما ذكره ابن كثير فى تفسيره .. بنص عبارته « وقيل رجل مؤمن من قوم شعيب » ..

كما تحرز بعض المفسرين .. فوكل الأمر فى هذا الى الله ــ سبحانه ــ ومن هؤلاء الأستاذ عبد الوهاب النجار فى كتابه « قصص الأنبياء » كما يختتم الطبرى هذا الموضوع بقوله : «وهذا مما لا يدرك علمه الا بخبر .. ولا خبر بذلك توجب حجته .. فلا قول فى ذلك اولى بالصواب مما قاله الله جل ثناؤه « يقصد قول الله على لسان المراتين وأبونا شيخ كبير » ..

كما ذكر البعض انه شعيب النبى .. ومنهم الحافظ بن كثير فى رواية عن أبى حاتم .. بسنده الى مالك بن أنس .. قال : « بلغنى ان شعيبا هو الذى قص عليه موسى القصص » وان كان هناك اعتراض علىقوله بلغنى فهى لاتفيد الجزم.

❊ ❊ ❊

ولكننا راينا الكثير من الأحاديث الواردة عن الرسول عليه الصلاة والسلام .. تفيد ان شعيبا .. هو صاحب موسى .. وهى التى ذكرناها فى قصته نقلا من كتب التفسير .. وان كان بعضهم يشكك فى صحة رفعها ..

كما رأينا أن الذين يقولون أن صاحب موسى ليس شعيبا .. يحتجون بأن شعيبا كان قبل موسى بزمن كبير .. لقوله « وما قوم لوط منكم ببعيد » وكان هلاك قوم لوط فى زمن ابراهيم .. وبين ابراهيم وموسى اربعمائة سنة ، كما قال اكثر من واحد ..

---

(1) الدرع : هى الملونة .

فمسألة فرق الزمن هذه فيها نظر .. حيث ان مدين بن ابراهيم هو الجد الثانى لشعيب واسحاق بن ابراهيم هو الجد الرابع لموسى .. كما بينا ذلك سابقا .. فلو علمنا أن مدين ولد لابراهيم بعد اسحاق بزمن .. لأمكن ان يكون شعيب فى شيخوخته قد عاصر موسى وهو ابن الثلاثين .

وعلى اى حال .. فلا مانع من ان لكل هذا الأمر الى الله — سبحانه — كما وكله غيرنا من ائمتنا السابقين .. وليس فى ذلك اى ضير .

ولكن المشهور والمعروف.. انه شعيب النبى وقد انتشر ذلك : حتى أن ابى العلاء يقول فى مدح عظيم .. زفت اليه عروسه :

كنت موسى وافته بنت شعيب
غير ان ليس فيكما من فقير

وفى الكشاف :

سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم — اى الأجلين قضى موسى ؟

فقال « **ابعدهما وابطاهما** » .. وروى انه قال « **قضى اوفاهما .. وتزوج صغراهما** » .. وهذه الرواية غير الرواية السابقة .

* * *

□ □ □

الفصل الثالث

« اذهبا الى فرعون انه طغى »

٤٣/ طه
صدق الله العظيم

الرســـــالة

١ فى الوادى المقدس

كان طبيعيا ان يستأذن موسى حماه فى الرحيل بزوجته من مدين الى مصر .. فقد زاد حنينه الى أخيه هارون وأمه واهله .. وقد فارقهم عشر سنين .. ولا يدرى ماذا فعلت بهم الأيام .

وكان انقضـــاء اوفى الاجلين .. فى خدمة الشيخ .. قد حرك فى نفسه ذكريات ساكنة .. واشعل فى فؤاده حنينا كامنا .. فقد ترك أخاه وامه واهله تحت سلطان جائر وملك ظالم .. يذبح الأبناء ويستحى النســاء .. ويسومهم سوء العذاب .. وقد تكون جريمته التى ارتكبها وفراره من فرعون واهلــه .. قد زادت الأمــر سوءا .. وجعلت التنكيل بهم ادهى وأمر .

وعزم فى قرارة نفسه .. على اخراج اخيه من مصر .. وبأى ثمن يكون .

* * *

ووافق الشيخ بعد أن وفى له بوعده .. ومنحه كل ما أنتجت غنمه فى العام العاشر .. مبرة من الشيخ بموسى .. ووفاء له .. وصلة الى ابنته صفورا .. حسب وعده لها .

جاء موسى الى مدين .. فقيرا الى شــق تمرة .. وخرج منها يســوق قطيعا كبيرا من الغنم يملأ العين بهجة .. ويفعم القلب سرورا وانشراحا .. وقد سار بجوار الغنم كلب مدرب على رعيها .. والجرى خلف الشاردة منها .. ليضمها الى القطيع .. بينما ســار هو رائدا للقافلة بمن فيها وما فيها .. يســوق أمامه حمارا .. حمل عليه خيمته وجهازه ومتاعه .. ومخلاته ومقلاعه .. وكساءه وطعامه وشرابه..

اما زوجته صفورا .. فقد كانت فى أواخر أيام حملها .. لا تدرى هل تضع مولودها اليوم أو غدا .. صبحا أو مساء .. ليلا أو نهارا .. ومع هذا فهى تؤدى واجبها مع زوجها فى رحلتهم تلك .. فهى تسير تارة خلف القطيع .. وطورا عن يمين أو شـــمال .. حدبا منها على الغنم .. وخشية عليها من ســباع الصحراء .

* * *

ولقد كان موسى راهبا لتلك العودة .. خائفا من مصيرها .. وما زالت ذكرى جريمته فى مصر تراوده بين الحين والحين .. فذنب المؤمن كالجبل فوق ظهره .. بعكس الفاســق الذى يتخيل جريمته كذبابة هشـــها فطارت .

ولعل هذا الخاطر .. هو الذى دفع موسى الى السير بعيدا عن المدائن الواقعة فى الطريق بين مدين ومصر .. وفضــل ان يجتــاز بادية الشام من جنوبها . بعيدا عن المدن وســكانها وحكامها .

وكان ذلك الطريق غير مألوف له . فاستعان بالله ليهديه السبيل .. ويرشده الى الطريق .. لا يهتدى الا بالنجم ليلا .. ليحدد اتجاهه الى الغرب فى صبيحة اليوم التالى .. وكان كلما ادركه الليل .. أنزل خيمته من فوق حماره ..

وســـاعدته زوجته فى رفع قوائمها .. ودق اوتادها .. وقضــوا ليلتهم داخلها .. حيث ترقد الغنم حولها. .حتى اذا بدا الخيط الأبيض يلوح فى الأفق الشرقى .. اســـتأنفت القافلة رحلتها . . فى رعاية الله .. وتحت رحمتـه .

❊ ❊ ❊

والجاه الطريق الذى سلكه الى جانب الطور الأيمن .. وبدأ قرص الشـمس ينحدر مسرعا ليغوص فى افاق الصحراء المترامية .. وفى نفس الوقت هبت نسمة .. بدات خفيفة .. ثم اخذت تشتد شـيئا فشيئا .

فاختـــار مكانا قريبا تحتضـنه تبة لا تكاد ترتفع عن الأرض الا بضع امتار ! . واخذ يقيم خيمته فى هذا المكان .. الا انه لحظ بعض فتور فى نفسه شيئا غامضا .. لا يدرى ما هو .

جهدا لا يكاد يخفى ما تعانيه من الألم .. فأحس فى زوجته شيئا غامضا .. لا يدرى ما هو .

وجاء فى تفسير البيضاوى .. انها كانت ليلة **جمعة .**

❊ ❊ ❊

وانتشرت الاغنام حول الخيمة لتنام ..بعد ان عقل الحمار فى احد اوتادها .. وبدا فى تناول طعامه .. بعد ان غابت الشمس فى الأفق تحت سطح الرمال .. وظهرت جحافل الليل تطلب النهار حثيثا حثيثا .. وهو يفر منها مستقرا بالافق الغربى .. ومازالت الرياح تشتد قليلا قليلا .. فتجمعت بسببها بعض السحب الداكنة فى السماء .. واشتدت الظلمة فى الخيمة وما حولها .. واذا به يجد زوجته .. وقد تكومت تحت غطائها .. وارتعشت كل مفاصل جسدها .. وخرجت من صـــدرها اول انة من اناب الطلق ..

انها اذن وشــــيكة ان تضع مولودها ..

واخذه شىء من الاضطراب فى اول الأمر .. فكان اول همه ان يشعل نارا يستضىء بشعاعها .. وتستدفىء الولود بلهيبها .. **واخرج زنده من جرابه .. وقبل ان يقدح الزندين لاشعال الفتيل .. سقطت اول قطرة من السحاب فوق الجزء**

المفحم فى طرف الفتيل **فبللته بالماء .. ومتى** ابتل هذا الجزء .. **فلا حيلة مطلقا فيه لاستقبال** الشراره من الزندة السفلية .. **الا بعد جفافه .**

❊ ❊ ❊

وغلب موسى على امره .. وسقط فى يده.. فماذا بصنع ؟ الطلق يزداد بزوجته الحاحا .. والرجفة تهز كل مفاصلها .. فهى فى اشد الحاجة الى بصيص من النار .

واخذه الألم .. واحاط به **الهم من كل جانب .. وبينما هو فى اضطرابه وحيرته .. وذهوله وشرود فكره .. وكلما رآها فى ظلمة الخيمـة تتأوه وترتجف ازداد حيرة واضـطرابا .. اذ راى على البعـــد نارا مشـتعلة .. كانت له امل النجــاة فى تلك المتـــاهات المتراميــة .. وبصيص النور فى هــذه الظلمـات المتراكبة .. فقال لزوجته فرحا مسرورا .. لقد لاح الفرج ياصفورا .. هاهى نار لاحت لى على البعد فى جنب الوادى .. وســأسرع اليها لآتيك بقبس تصطلين به من شدة البرد وقشعريرة الوضع.. ونستعين به على انضاج الغذاء .. او تسخين المـاء .**

وهل يوجد فى الصحراء متاع الزم وافضل من النار .. حقا « نحن جعلناها تذكرة ومتاعا للمقوين » والمقوون هم القوم الذين صاروا بأرض قفر لا انيس فيها .

« وهل اتاك حديث موسى : اذ راى نارا فقال لأهله امكثوا انى آنست نارا لعلى آتيكم منهــا بقبس او اجد على النار هدى » (٩ - ١٠ طه) فوجود النار دليل على وجود قوم اشعلوها .. فأهتدى بنسائهم فى مساعدتك على الوضــع .. واسترشد برجالهم فى معرفة الطريق .. فقــد مرت بنا أيام لم نر فيها بشرا ..

❊ ❊ ❊

وانطلق موسى يجرى نحو الأمل الذى لاح له .. كما يلوح السراب الخادع امام نظر التائه الصادى .. الذى اشرف على الموت من شــدة الظمأ فى قيظ الصحراء .. ولهيب البيداء .

وكانت ليلة ليلاء لم ير موسى فى حياته ـ المليئة بالكفاح والصراع ـ ليلة أشد منها واقسى .. فقد تكتلت الطبيعة ضده بكل جنودها وعنادها .. ليل عابس .. وظلام دامس .. واشباح ماثلة .. وامطار هاطلة .. تزعجه اصوات مزمجرة : عواء الذئاب .. وزئير السباع .. وازيز الرعد .. وصفير الرياح .. ووقع الصواعق .

وكلما ازداد جريا .. ازدادت صفعات الرياح تلهب وجهه بقذائف من الماء البارد .. وتكاد تصم اذنيه بصفيرها الحاد المزعج الرهيب وقطع على هذا الحال مسافة ليست بقصيرة .. ولكنه لم يجد للنار قربا ولا بعدا .. فمازالت المسافة بينه وبينها ـ بمقياس نظر البدوى ـ على ما كانت عليه من وقت قيامه من خيمته .. وكانها تجرى امامه .. لتحتفظ بالمسافة فلا تنقص ولا تزيد .

فاخذه العجب الممزوج بشدة الخوف والرهبة .. وبدأ اليأس يدب الى قلبه .. ليرجع ولو بغير خفى حنين .. فقد صار بين همين .. هم الزوجة التى بعد عنها .. وامله الذى خاب .

* * *

والفرج يكون قريبا اذا بلغ الكرب منتهاه.. واليسر دائما ملازم للعسر .. وما دامت تلك الليلة فى حياة موسى ـ عليه السلام ـ هى اسعد لياليه فى نهايتها .. لزم ان تكون كذلك اسود واقسى لياليه فى بدايتها .

واقتربت منه النار رويدا رويدا .. حتى صار فى رحابها .. فعادت اشراقة الأمل الى نفسه .. فقرب منها .. ولكنها بعدت .. وهم بالعودة خوفا ورهبة .. فدنت .. حتى صارت على بعد أمتار قليلة منه .. فراى امرا عجبا .. وحالا مستغربا .. راى شجرة عوسج خضراء ، أشد ما تكون اخضرارا من اسفلها الى اعلاها .. تشع منها نار بيضاء .. تتقد بغير لهب ولا دخان .. فلم يجد فيها جذوة ولا قبسا .. ولا جمرة ولاشهابا .. فماذا يأخذ منها .. ليعود الى اهله .. فمد عصاه .. عسى ان يشتعل طرفها ليعود به مشتعلا .. ولكن النار تهجم عليه فيعود خائفا مذعورا .. فتحطمت اعصابه .. وانهارت قواه .

فاذا بصوت من الشجرة يناديه : ياموسى .. فانس به .

□□□

[٢] موسى الكليم

« **فلما أتاها نودى يا موسى . انى انا ربك فاخلع نعليك انك بالوادى المقدس طوى . وانا خترتك فاستمع لما يوحى** » (١١ - ١٣ طه) .

جاء فى الطبرى : لما دنا من النار .. استأخرت عنه .. فلما راى استئخارها .. رجع عنها .. واوجس فى نفسه خيفة .. فلما اراد الرجعة .. دنت منه .. ثم كلم من الشجرة .. فاستأنس .

وجاء فى الكشاف للزمخشرى : روى انه لما نودى ياموسى .. قال : من المتكلم ؟ .. فقال : الله - عز وجل - **انا ربك** .. وان ابليس وسوس اليه .. فقال له : لعلك تسمع كلام شيطان .. فقال : أنا عرفت انه كلام الله .. بأنى اسمعه من جميع جهاتى الست .. واسمعه بجميع اعضائى (١) .

***

وقد اصر بعض المفسرين .. على ان نعلى موسى .. كانتا من جلد حمار ميت .. ولست ادرى لهذا معنى .. فهو الان فى الوادى المقدس .. فاذا خلع نعله .. فأين يضعهما ؟ .. والمكان كله واد مقدس .. فهل يخرجهما من الوادى .. ثم يعود ؟ .. ولم يثبت هذا .

كما اتى بعضهم بتعليلات مختلفة .. منها : ليباشر الوادى المقدس بقدميه .. تبركا به .. وقيل لأن الحفوة تواضع لله وقيل ان السلف طافوا بالكعبة حافين .. ومنهم من استعظم دخول المسجد بنعليه .. وكان اذا ندر منه الدخول منتعلا .. تصدق عن ذلك .

ونحن لا ننكر على هؤلاء آراءهم عن نعلى موسى - عليه السلام - وقد تكون كلها صائبة .. فالقرآن الكريم حمال معان لا عد لها ولا حصر .. ولا يمكن حياله كمال التأويل .. او تمام التفسير .. ويتضح هذا من قوله تعالى « هل ينظرون الا تأويله .. يوم يأتى تأويله يقول الذين نسوه من قبل .. الخ » الآية وهذا اليوم طبعا هو يوم القيامة .. وانما هى تأولات .. كل على حسب اجتهاده .. وعلى مقدار قدرته على الغوص فى اعماق المعانى .. لمن شاء تدبرها .. كما قال تعالى « كتاب أنزلناه اليك مبارك ليدبروا آياته » (٢٩ ص) .

***

وفى الخبر عنه - عليه الصلاة والسلام - « ان للقرآن معنى ظاهرا .. ومعنى باطنا .. وحدا .. ومطلعا » فظاهره اسماء وكلمات وسور .. وباطنه معان واسرار .. وحده تفصيل واحكام .. ومطلعه شهود وكشف .

وقد قرات لبعض الادباء .. ولعله على ما اذكر .. الدكتور عبد الله دراز .. فى وصف الفاظ القرآن الكريم ... يقول : انها اشبه بفص من الماس .. يعطيك كل ضلع منه شعاعا .. فاذا نظرت الى اضلاعه كلها .. بهرتك بالوان الطيف كلها .. فلا تدرى ماذا تأخذ عينك .. وماذا تدع .

***

وقد روى ان رجلا من نجد .. سال رسول الله - صلى الله عليه وسلم : لماذا أمر الله تعالى موسى ان يخلع نعليه ؟ .. وكان فى المجلس على - رضى الله عنه - فقال عليه السلام : لانهما كانتا من جلد حمار ميت .. ومن المعلوم بداهة .. أنه لا يوجد نعلان من جلد حمار حى .

---

(١) القرطبى ٣٠/ القصص .. والكشاف ١٢/طه .

الامر الذى ابتسم من اجله وجه على – كرم الله وجهه –. وكانت نظراته الى الرسول – عليه الصلاة والسلام – تحمل معنى الاستفهام .. فرد عليه « ياعلى امرت أن اخاطب الناس على قدر عقولهم » .

وهذا ولا شك حديث عظيم .. يحمل الكثير من المعانى المطوية « وفوق كل ذى علم عليم » .

❊ ❊ ❊

ويذكرنى هذا المقام بموقف مشابه لرسول الله – محمد – صلى الله عليه وسلم – حيث يقول فى حديثه عن المعراج « لما دنوت من بساط ربى .. هممت أن أخلع نعلى .. فنوديت .. يامحمد : لم نعليك تخلع ؟ .. قلت يارب خشيت مرارة الطرد وألم الرد .. أن يقال لى كما قيل لأخى موسى من قبل .. فنوديت : يامحمد اذا كان موسى أحب .. فأنت المحبوب .. واذا كان كان الطالب .. فأنت المطلوب.. وهذا هو المعنى الظاهرى للنعلين .

اما المعنى الذى يشير اليه رسول الله – صلى الله عليه وسلم ، فى قوله لعلى ابن أبى طالب – رضى الله عنه – « ياعلى انما أمرت أن اخاطب الناس على قدر عقولهم » فهو معنى اشد عمقا .. واعلى مقاما .. من نعلى القدم .. فما هى الا متعلقات الأفكار والهموم فى الاهل والمال .. ليفرغ ذهنه .. ويحدد فكره .. لما سيتلقاه من عبء ثقيل تنوء بحمله الجبال .. وهو حمل الرسالة وتبليغها .

❊ ❊ ❊

بدأ الله تعالى كلامه مع موسى .. وهو منهار الاعصاب .. خائر القوى .. بسبب ما لاقى وما قاس من أهوال حتى بلغ الشجرة .. بقوله له « انى أنا ربك فاخلع نعليك انك بالوادى المقدس طوى . وانا اخترتك فاستمع لما يوحى . اننى أنا الله لا اله الا أنا فاعبدنى واقم الصلاة لذكرى . ان الساعة آتية أكاد اخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى . فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى » (١٢ – ١٦ طه) .

نزلت عليه هذه العبارات كالصواعق .. من حيث لا يدرى .. فلا جهة تصدر منها .. وانما هى تأتيه من جميع الجهات .. ولا يتلقاها عن طريق الاذن .. وانما يسمعها بكل جوارحه وأعضائه .. ويعيها بأحاسيسه ووجدانه .

بدأمعه بالتوحيد المجرد المطلق .. فلا معبود سواه .. ولا معبود غيره .. « اننى أنا الله لا اله الا أنا فاعبدنى » وثنى بالعبادة التى هى كمال العمل الدال على مظاهر التوحيد « واقم الصلاة لذكرى » ثم بين سبحانه – فناء تلك الحياة .. وقيام الساعة للجزاء ثوابا وعقابا .. « ان الساعة آتية أكاد اخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى » .. ثم حذره من اتباع الهوى المردى .. المضل عن سواء السبيل .. « فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى » .

❊ ❊ ❊

فجاءته تلك الصواعق قوية .. ذات أثر عميق فى نفسه .. يتغلغل الى سويداء فؤاده .. بينما هو من قبلها .. كان منهار الأعصاب .. خائر القوى .. فلم تزداد أعصابه الا انهيارا .. وقواه خوارا ..

فأراد – سبحانه – أن يخفف عليه هذا الامر .. بمبادلته التخاطب والكلام .. وفى هذا تطمين للنفس وتسكين للفؤاد .. فقال له « وما تلك بيمينك ياموسى » (١٧ طه) .

وكأنه عليه السلام – يحس انه خارج من قرار سحيق .. ليرد على ربه : « قال هى عصاى أتوكأ عليها واهش بها على غنمى ولى فيها مآرب أخرى » (١٨ طه) ولعله يقصد بالمآرب الاخرى .. غير التوكؤ عليها . والهش بها على الغنم .. انها كانت ذات شعبتين ومحجن .. فاذا طال الغصن جناه بالمحجن .. واذا طلب كسره لواه بالشعبتين .. واذا سار القاها على عاتقه .. فعلق بها أدواته من القوس والكنانة والحلاب وغيرها .. واذا كان فى البرية دافع بها الوحوش عن غنمه .

وقد ذكرت بعض كتب التفسير مبالغات كثيرة عن العصا ، تعرضنا لها فى فصل سابق(١)

❊ ❊ ❊

فقال له – تبارك وتعالى – « القها يا موسى » على الارض « فألقاها فاذا هى حية تسعى . قال خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى » (١٩ – ٢١ طه) .

---

(١) الموضوع الخامس فى الفصل الثانى « العصا والشيخ » .

ويظهر جليا ان موسى دب في قلبه الخوف والرعب .. عندما وجد عصاه قد انقلبت ثعبانا ضخما .. واتجه اليه فاغرا فاه يريد ابتلاعه .. حتى انت ياعصاى .. تحاربيننى فى تلك الليلة الليلاء ؟ .. اما يكفينى ما اصابنى من بلاء وعناء وشقاء ؟ .. فلم يجد غير الهروب سبيلا .. فاطلق لرجليه العنان فرارا .. لا يلوى على شيء .

يقول ابن عباس - رضى الله عنه - انقلبت ثعبانا ذكرا .. يبتلع الصخور والشجر .. فلما رآه يبتلع كل شيء ... خاف ونفر .

ويبدو هذا المنظر أشد وضوحا في آية القصص .. عن هذا الموقف : فى قوله تعالى « وان الق عصاك .. فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرا ولم يعقب ، ياموسى اقبل ولا تخف انك من الآمنين » (٣١ القصص) .

وبنفس الوضوح في آية النمل « والق عصاك ، فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرا ولم يعقب ، ياموسى لا تخف انى لا يخاف لدى المرسلون ، الا من ظلم ثم بدل حسنا بعد سوء فانى غفور رحيم » (١٠ - ١١ النمل) .

* * *

وكان الله - سبحانه - فى قوله له « الا من ظلم ثم بدل حسنا بعد سوء .. يذكره بجريمة اقترفها من عشر سنين مضت .. حيث قتل المصرى بوكزته وقال رب انى ظلمت نفسى فاغفر لى » .

ولقد تحقق موسى الآن فقط .. ان الله قد غفر له هذا الذنب .. لما قال - جل شأنه - « ثم بدل حسنا بعد سوء فانى غفور رحيم » وكان هذا كافيا لذهاب الخوف من قلبه .. فعاد حيث كان .

وروى انه كلما دنا او بعد .. لم يختلف ما كان يسمع من الصوت .

فقال : يارب كيف آخذ عصاى .. وقد صارت ثعبانا شرسا .. ووحشا كاسرا ؟ .. ولكن الله - عز ثناؤه - يريد أن يقوى فى قلبه اليقين .. فقال له خذها .. ولن تعود عصا كما كانت الا اذا وضعت يدك بين فكى الثعبان .

ويقول ابو جعفر الطبرى : لما القى العصا ، صارت شعبتاها فما .. وصار محجنها عرفا لها فى ظهرها .. تهتز ولها أنياب .. فهى كما شاء الله أن تكون .

وعندما قال الله له خذها ولا تخف .. وعلى موسى جبة من صوف فلف يده بكمه .. وهو لها هائب .. فنودى ان الق كمك عن يدك .. ارايت ان اراد الله ان يصيبك بما تحاذر اينفعك لفك يدك ؟ .. قال لا .. ولكنى ضعيف خلقت من ضعف .. (١) فالقاها عنها .

ثم ادخل يده بين لحييها .. فلما ادخلها قبض عليها .. فاذا هى عصاه فى يده .

* * *

ثم قال الله له « واضمم يدك الى جناحك » أى الى جنبك تحت العضد « تخرج بيضاء من غير سوء آية اخرى . لنريك من آياتنا الكبرى » (٢٢ - ٢٣ طه) .

ويروى انه كان آدم اللون .. فأخرج يده من مدرعته بيضاء .. لها اشعاع فسفورى .. اشد من ومضات البرق فى الظلمات .. يخطف البصر .. (من غير سوء) اى بغير برص .. ثم ردها فعادت الى طبيعتها الأولى . واعجبنى هنا تعليق لطيف .. للاستاذ محمود بن عمر الزمخشرى - صاحب تفسير الكشاف .. يقول : وتلك كنايات القرآن وآدابه .. لان العرب تنفر من اسم البرص لشدة بغضه .. فقال « من غير سوء » .

وفى هذا الموقف من سورة القصص « اسلك يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء واضمم اليك جناحك من الرهب » (٣٢ القصص) .

والرهب هو الخوف .. ويحكى عن عمر ابن عبد العزيز - رحمه الله - ان كاتبا كان يكتب بين يديه .. فانفلتت منه فلتة ريح .. فخجل وانكسر .. فقام وضرب بقلمه الارض .. فقال له عمر : خذ قلمك .. واضمم اليك جناحك .. وليفرخ روعك .. فاني ما سمعتها من احد اكثر مما سمعتها من نفسى .. ولهذا يقول ابن عباس : ليس من احد يدخله رعب بعد موسى - عليه السلام - ثم يدخل يده فيضعها على صدره الا ذهب عنه الرعب .

ثم كلفه الله - تعالى - بالامر « اذهب الى فرعون انه طغى » (٢٤ طه) .

كلف موسى - عليه السلام - بالذهاب الى الطاغى .. فعرف انه كلف امرا عظيما .. وخطبا جسيما .. يحتاج معه الى احتمال مالا يحتمله الا ذو جاش رابط .. وقلب كبير .

---

(١) القرطبى ٣١ القصص .

٣ طلبات وموافقة

قال موسى ـ عليه السلام ـ فى نفسه .. او هى كانت خواطر ومضت بذهنه كما يومض البرق الخاطف لحظة ثم يذوب :

ما هـذا الذى يجرى ؟ ـ . خـرجت من خيمتى تاركا زوجتى فى اشد حالات الكرب.. واقسى ظواهر الطبيعة .. لآتيها بقبس من نار تصطلى به .. ليبعث فيها الحياة وليكون عونا لها على ما هى فيه من آلام الطلق .. وآلام الوضـع .. فاجـد فى انتظارى هـذا الامر الخطير ؟ ..

فقال : يارب .. مـادام الامر كـذلك .. ومادمت قد اخترتنى لك كليما ورسولا .. فلى بعض طلبات .. ارجو ان تمن على بقبولها .. فقال له : سل ياموسى ، قال :

المطلب الاول : « رب اشرح لى صدرى » (٢٥ طه) .

فانشراح الصدر للمؤمن .. يجعل قلبه كشـافا .. ينير له سبيل الحياة .. يرى به اشياء لم يرها سواه .. ويقيس به قلوب الناس كما يقيس « الترمومتر » درجات الحرارة .. ويقرأ به صفحات الواقع .. فيعرف الغث من السمين .. ويميز الكذب من الصدق .. ويحس الباطل من الحق .. وفى الحديث « انقوافراسة المؤمن .. فـانه يرى بنور الله » .. والله ـ سبحانة يقول « ومن يرد الله ان يهديه يشرح صدره للاسلام » ..

* * *

والمطـلب الثـانى : « ويسر لى امرى » (٢٦ طه) .

ولعله يقصد طلب التيسير فى امور الدنيا مثل الامر الذى كنت قادما من اجله .. فتول انت يارب مثل هذه الأمور .. وتيسير وسائل الحياة ومشاكلها .. واما لها والامها..واحوالها واوحالها .. فانت بكل هذا كفيل .. وعلى كل شىء وكيل .

* * *

والمطلب الثالث : « واحلل عقدة من لسانى يفقهوا قولى » (٢٧ ـ ٢٨ طه) .

ولنا وقفة قصـيرة امام هـذا المطلب .. فبعض المفسرين اتجهوا الى عقدة كانت فى لسانه بسبب حادث ذكرناه من قبل..حين كان وليدا يربى فى منزل فرعـون .. نتجـت عن جمرة وضعها فى فمه .. فأحرقت طرف لسانه .. وقد وقفوا بهذا المعنى عند المعانى السطحية.. بدون تعمق او امعان نظر .. وقلنا انها لو كانت عقدة بالمعنى الذى يقصـدون .. وانها عقدة معروفة .. لكان التعبير بالتعريف .. وتكون العبارة . واحلل العقدة من لسانى .. وبما ان التعبير هنا بالتنكير .. بدون الالف واللام .. كان المقصود عقدة غير معروفة بالتعريف المادى .. فما المقصود اذا بتلك العقدة ؟ .

وخير ما اطمأن له القلب بعض الاطمئنان .. مما ذكره المفسرون حول هذه العقدة .. ما اورده الاستاذ عبد الوهاب النجار..صاحب « قصص الأنبياء » تعليقا على قول موسى ـ عليه السلام ـ« واخى هارون هو افصح منى لسانا» وقوله مرة اخرى « واحلل عقدة من لسـانى يفقهوا قولى » .

قال : لهذا سببان : الاول تاخر رضاعته بعد القائه فى اليم .. ومكثه مدة فى بيت فرعون بغير رضاع .. ومعروف ان تأخر الرضاعة .. تورث حبسة فى اللسان .. وقـد راينا ذلك فى حياتنا العامة . والسبب الثانى الذى اورده

الأستاذ النجار ، هو ان طول العهد به فى مدين .. وقد انساه الانطلاقة فى لغة القبط .. ونحن نرى ذلك فى ابنائنا الذين يسافرون الى أوربا خمس او سبع سنوات..ثم يعودون وقد ثقلت السنتهم فى اللغة العربية .١ هـ.ولدينا الدليل واضح فى كتاب الله تعالى .. فلماذا نبحث عن ادلة من سواه ؟ ..فلو ان هذه العقدة فى لسانه بسبب الحرق .. كما يزعمون .. وقد طلب من الله فى تلك الليلة حلها .. والقرآن الكريم يقول ان الله استجاب له فى طلباته .. بقوله تعالى « قال قد أوتيت سؤلك ياموسى » عقب تقديم الطلبات مباشرة .. ومعنى هذا ان العقدة تكون قد حلت .. فما قولهم فى تعبير فرعون له بعد ذلك .. بعدم فصاحته بقوله لقومه « ام انا خير من هذا الذى هو مهين ، ولا يكاد يبين » اى انه ليس عنده بيان ولا فصاحة ؟ .

والآن يتضح ان العقدة..هى حبسة لسانه عن الانطلاقية فى لغة القبط .. بسبب بعده عن التحدث بها عشر سنين .. ويتضح هذا المعنى اكثر فى قوله لمولاه « واخى هارون هو افصح منى لسانا » اى فى لغة القبط .. فهو مازال مقيما معهم .. كما انه ليس بمعقول أن يمسك موسى ـ عليه السلام ـ وهو طفل ـ بقطعة من الجمر .. وتظل فى يده حتى يضعها فى فمه .

* * *

ومن اجل هذا .. كان المطلب الرابع « واجعل لى وزيرا من اهلى . هارون اخى . اشدد به ازرى . واشركه فى امرى » (٢٩ ـ ٣٢ طه) .

ثم اراد موسى ان يختتم طلباته تلك بخاتمة فيها شيء من التقرب والرجاء .. كما نختتم نحن طلباتنا التى نقدمها الى المسئولين بوافر احترامنا .. وخالص تقديرنا .. فقال لربه « كى نسبحك كثيرا . ونذكرك كثيرا انك كنت بنا بصيرا » (٣٣ ـ ٣٥ طه) .

ويحصل موسى ـ عليه السلام ـ على موافقة صريحة من الله على كل طلباته . « قال قد اوتيت سؤلك ياموسى » (٣٦ طه) ..

□□□

٤ ذكريات

آتاه الله كل ما سأل .. واستجاب له فى مطالبه الأربعة ..

سنشرح لك صدرك فنرى بنورنا .. ونيسر لك امورك الدنيوية بتدبيرنا وتقديرنا .. وسنطلق لك لسانك .. لتستطيع ان تبلغ رسالتنا الى فرعون مصر .. وتضرب على يد الطاغى .. وتقيم عليه الحجه .. حتى لايكون له عذر عند لقائنا .. وسنجعل اخاك هارون عونا لك وعضدا .. يساعدك فى حمل الامانة .. وتبليغ الرسالة .

* * *

وليست هذه أولى المرات التى مننا عليك فيها .. فلنا عندك اياد كثيرة .. وافضال جمه « لقد مننا عليك مرة اخرى » (٣٧ طه) .

فلوعدت ياموسى بذاكرتك قليلا .. لوجدت ان عيننا ترعاك .. وعنايتنا تحرسك وتصونك . هل نسيت « اذ اوحينا الى امك ما يوحى ان اقذفيه فى التابوت فاقذفيه فى اليم فليلقه اليم بالساحل يأخذه عدوا لى وعدو له والقيت عليك محبة منى ولتصنع على عينى ، »؟ (٣٨-٣٩طه) فخر موسى ساجدا شكرا لله .

والوحى الى امه عليه السلام - اما ان يكون على لسان نبى فى حينها مثل :

« واذ اوحيت الى الحواريين » واذا صح ذلك .. واغلب الظن انه الحق .. فلن يكون هذا النبى غير حزقيل - مؤمن آل فرعون - وقد روى انه هو الذى صنع التابوت الذى القى بموسى فى النيل .. وهو الذى اخبر موسى بتآمر القوم لقتله .. بعد ان قتل المصرى .. كما ان سورة فى القرآن الكريم باسمه .. وهى سورة غافر « ويسمونها ايضا سورة المؤمن » لحزقيل فيها صولات وجولات .. ونقاش واقناع .. مع فرعون وقومه .. لا يقل عن نقاش موسى معهم .. واذا شئت يااخى .. فاقرأ .. ربما كاملا او يزيد فى هذه السورة - يجرى كله على لسان حزقيل .. مؤمن آل فرعون .. من قوله تعالى (وقال رجل مؤمن من آل فرعون) الى « وحاق بآل فرعون سوء العذاب » (٢٨ - ٤٦ غافر) .

كما قد يكون الوحى اليها بالمنام .. او بالالهام مثل « وأوحى ربك الى النحل » .

* * *

وهل نسيت ايضا يا موسى « اذ تمشى اختك فتقول هل ادلكم على من يكفله فرجعناك الى امك كى تقر عينها ولا تحزن » (٤٠ طه) .

فخر موسى ساجدا شكرا لله .

وهل نسيت ايضا ياموسى « وقتلت نفسا فنجيناك من الغم وفتناك فتونا » (٤٠ طه) . فخر موسى ساجدا شكرا لله .

وقد سأل سعيد بن جبير .. ابن عباس - رضى الله عنهما - عن معنى « وفتناك فتونا » فقال له خلصناك من محنة الى محنة .. ولد فى عام كان يقتل فيه الولدان .. فهذه فتنة يا ابن جبير .. والقته امه فى البحر .. وهم فرعون بقتله .. وقتل قبطيا .. واجر نفسه عشر سنين وضل الطريق .. وتفرقت غنمه فى ليلة - مظلمة .. وكان ابن عباس يقول عند كل واحدة .. فهذه فتنة يا ابن جبير .

والفتنة هى المحنة والابتلاء « ونبلوكم بالشر والخير فتنة » .

* * *

وهل نسيت ياموسى « ولبثت سنين فى اهل مدين ثم جئت على قدر ياموسى . واصطنعتك لنفسى » (٤٠ - ٤١ طه) .

فخر موسى ساجدا باكيا من خشية الله .. الى ان قال له ربه - تبارك وتعالى . « اذهب انت واخوك بآياتى ولا تنيا فى ذكرى .. اذهبا الى فرعون انه طغى .. فقولا له قولا لينا لعله يتذكر او يخشى » (٤٢ - ٤٤ طه) .

وروى ان الله اوحى بذلك الى هارون وهو بمصر .

ونلاحظ هنا ان الله سبحانه - يطلب من موسى وهارون .. ان يذهبا الى الطاغى منفتاح بن رعميس الثانى فرعون مصر .. وطلب منهما ان يقولا له قولا لينا .. والمح تحت لفظ «لينا» كثيرا من المعانى السامية .. والأهداف النبيلة والمثالية التى لا حد لها فى الوفاء .. طلب منهما اللطف معه فى القول .. لما له من حق تربية موسى .. ولما ثبت له من حق الابوة . وقيل فى رواية اتى بها الزمخشرى صاحب تفسير الكشاف .. والشيرازى صاحب تفسير البيضاوى .. ان الله - تعالى - طلب منهما ان يكنياه .. وهو من ذوى الكنى الثلاث ابو العباس ، وابو الوليد ، وابو مرة .

***

كما اجد امامى فى هذا المقام .. لفتة فى قوله تعالى « لعله يتذكر او يخشى » وان الله يعلم مسبقا انه لا يؤمن .. ولكنه - سبحانه - طلب منهما القيام بتبليغ الرسالة على رجائهما وطمعهما فى هداه .. وحدد لهما سبيل الاجتهاد معه بكافة السبل ليلزمه حجته .. ويقطع معذرته .. والتذكير يكون للموقن المتحقق .. والخشية للمتخيل المتوهم .

ويقول البيضاوى : ان لم يتحقق تصديقكما ولم يتذكر .. فلا اقل من ان يتوهمه فيخشى.

وتقشعت السحب فصفت السماء .. وسكنت الرياح فخشع الكون .. وامتصت الرمال مياه الأمطار فاستوت الصحراء .. واشرق القمر فاكسب الجو بهاء وجمالا وروعة وجلالا .. وسار موسى عائدا الى خيمته .. وقد عاد انسانا آخر .. جسمه على الأرض .. وقلبه يرفرف تحت ساق العرش .

والصحراء فى وقت السحر .. وفى هذا الجو الخلاب..لها حسنها وبهاؤها .. وعظمتها وشموخها..فهو هائم بين جمال الملك ..وجلال الملكوت .. الى ان وجد نفسه قريبا من الخيمة .. فيصل الى انفه رائحة شواء .. ويلمس على البعد حركة غير عادية .

وما ان دخل حتى راى منظرا غريبا .. وامرا عجيبا .. فهذه زوجته وقد لبست وازينت .. تبدو على وجهها البهجة والفرحة .. وقد حملت وليدها على يديها .. وقد لف بلفائف من الحرير .. ووجد عندها لحما حنيذا .. وشرابا لذيذا ..

***

وتفجاه زوجه قائله .. هل حضرت ياموسى؟ .. اين ذهبت السيدات اللاتى كن هنا حالا ؟.. ففهم ان الله تعالى .. قد يسر هذا الامر .. فقال لها : لقد ارسلتهن اليك .. فلما راينني ذهبن .. هل ساعدنك ياصفورا ؟ .. قالت : ماكنت اظن ياموسى .. ان فى البادية كل هذا الجمال والرقة .. والكرم والنجدة .. ما احسست بأى الم من لحظة دخولهن خيمتى .. لقد قمن بكل شىء فى خفة الطير .. ورقة النسيم .

وسمى ابنه « جرشوما » وهو اسم يؤدى معنى الغربة .. فى اللغة العبرية .

الفصـــل الـــرابـع

○ العـــــودة

(قال لا تخافا اننى معكما أسمع وارى)
(٤٦ طه)
صدق الله العظيم

١ فـرحـة اللقـــاء

تحرك الركب من طور سـيناء متجها الى مصر .. وقد زادت القافلة فردا هو ــ جرشوم ابن موسى عليه الســـلام ــ وكان سلوة امه .. بعد ان شرد عنها فكر زوجها .. هائما فى ملكوت السماوات والأرض مع رب السماوات والأرض .. رب العالمين : ....

* * *

فقد اصبح بعد ان صار كليم الله ورسوله الى فرعون وقومه .. دائم التفكير فى هذا الأمر العظيم .. وذلك الخطب الجليل .. فهو فى طريقه الى لقاء ملك ظالم طاغ .. يقول لقومه « انا ربكم الاعلى ».. لا اله غيرى ولا رب سواى غلف الشيطان قلبه بغلاف سميك .. لا ينفذ فيه اى بصيص من نور الايمان .. ولا يخترقه شعاع من اشعة العقل والبصيرة .

وهذا حديث موسى مع ربه .. يوحى بما يعتمل فى نفسه من خواطر .. وما يضطرم فى وجدانه من توجسات .. « قال رب انى اخاف ان يكذبون . ويضيق صدرى ولا ينطلق لسانى ، فأرسل الى هارون . ولهم على ذنب فأخاف أن يقتلـون . قال كـلا فاذهبـا بآياتنا انا معكم مستمعون » (١٢ــ١٥ الشعراء) .

كما ان الله سبحانه ــ يخـاطبه ويخـاطب فيه هارون معا .. لان هارون .. مكمل لموسى ــ عليهما السلام ــ فهو وزيره وساعده ، ومقوى ازره « اذهبا الى فرعون انه طغى . فقولا له قولا لينا لعله يتذكر او يخشى . قالا ربنا اننا نخاف ان يفرط علينا او ان يطغى . قال لاتخافا اننى معكما اسمع وارى » (٤٣ ــ ٤٦ طه) .

* * *

كانت كل هـذه العوامل .. تتجاوب فى جـوانح موسى طـول الطـريق .. من الوادى المقدس الى ان دخل مصر .

* * *

وتوجه مباشرة الى منزل اهله .. حيث وصـله ليلا .. ونزل بجوارهم ضيفا .. ولم تعرفه امه .. حتى قدم اخوه هارون فعرفه . وتعانقا .

ونقل الطبرى عن السدى : واقبل موسى الى اهله .. فسـاربهم نحو مصر .. حتى اتاها ليلا فتضـيف على امه .. وهى لاتعرفه .. فأتاهم فى ليلة كانوا يأكلون فيها الطفيل ــ اى المرق ــ فنزل فى جانب الدار .. وجاء هارون .. فلما ابصر ضـيفه .. سـأل عنه امه .. فأخبرته انه ضيف .. فدعاه .. فلما ان قعدا تحدثا .. فسأله هارون : من انت ؟ .. فقال انا موسى .. فقـام كل منهمـا الى صـاحبه فاعتنقه .

* * *

واخبر موسى اخـاه هارون ان الله جعله وزيرا له .. ليذهبا الى فرعون .. فيطلبا منه اطـلاق سراح بنى اسرائيل .. ليعـودوا الى بلادهم فلسطين .. فيعبدوا الله رب العالمين .

وقيل ان الله اوحى الى هارون بهذا .. فى نفس الوقت الذى بعث فيه موسى .

وبدأ الرسولان فى القيام بما كلفا به .. وتنفيذ امر الله .. بالذهاب الى فرعون .. تبليغا للرسالة .. واداء للامانة .

ويقول بعض المفسرين ان امهما حاولت منعهما .. خوفا عليهما من بطش فرعون .. ولا يبعد ان يكون هذا صحيحا .. فهى وان كانت قد اوحى اليها من قبل .. ان موسى سيكون من المرسلين.. عندما اخبرها الله تعالى « انا رادوه اليك وجاعلوه من المرسلين » .. الا انها عاطفة الامومة الجارفة.. وحنانها الذى ينسى الانسان كل شيء .

* * *

ووصل موسى وهارون الى منزل فرعون .. وكانت ليلة الاثنين .. ووقفا بالباب .. وكلمهما احد الحراس قائلا : اتدريان لمن هذا الباب ؟ .. فقال موسى ـ عليه السلام ـ هذا الباب .. وصاحب الباب .. والارض كلها .. لله رب العالمين .. فعجب الحارس من هذا الكلام .. الذى لم يسمعه من قبل .. فقال : ماذا تريدان ؟ .. قال موسى أخبر فرعون اننا رسولا رب العالمين .. ونريد لقاءه لابلاغه الرسالة التى نحملها له .

فلم يجرؤ الحارس على تبليغ هذا الطلب .

وقال ابن اسحاق : ظل موسى واخوه يطلبان مقابلة فرعون .. وهما يقولان نحن رسولا رب العالمين .. ومكثا سنتين على هذا الحال .. وفرعون لا يعلم بهما .. حتى أخبره مضحكه بهما .. فقال له : أيها الملك .. ان على بابك رجلين يقولان امرا عجبا .. يزعمان أن لهما الها غيرك .. وأنه ارسلهما اليك . فاذن فرعون لهما

□□□

٢ هذا خلق الله

روى عمرو بن عبيد عن الحسن البصرى.. قال : فلما أذن فرعون لموسى وهارون دخلا عليه .. فلما وقفا عنده .. دعا موسى بدعاء هو:

لا اله الا الله الحليم الكبير .. لا اله الا الله العلى العظيم .. سبحان رب السماوات ورب الارضين وما فيهن وما بينهن ورب العرش العظيم .. وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين .. اللهم انى أدرابك فى نحره .. واعوذ بك من شره .. وأستعين بك عليه .. فاكفنيه بما شئت .

قال فتحول ما فى قلب موسى من الخوف امنا .. وكذلك كل من دعا بهذا الدعاء وهو خائف امن الله خوفه .. ونفس به كربته .

***

قال فرعون لموسى : من انت ؟ .. قال : انا رسول رب العالمين .. أرسلنا اليك خالق السماوات والارض .. لترسل معنا بنى اسرائيل .. ليعبدوه فى البرية .. كما كان يعبد آباؤهم من قبل .. فنحن لا نعبد الا الله .. ولا نتخذ الها سواه .. « فقولا انا رسول رب العالمين . أن أرسل معنا بنى اسرائيل » (١٦ - ١٧ الشعراء) .

وتأمله فرعون فعرفه .. فقال : الست انت موسى ؟ .. قال انا موسى وهذا اخى هارون .. قال اسبت باموسى فضلنا عليك .. وقد ربيناك فينا وليدا .. فكنت عندنا مكرما معززا .. حتى قتلت خبازنا .. وفررت بجريمتك النكراء .. وفعلتك الشنعاء .. ثم جئتنا بهذا القول الذى تدعيه ؟

« قال الم نربك فينا وليدا ولبثت فينا من عمرك سنين .. وفعلت فعلتك التى فعلت وانت من الكافرين » (١٨ - ١٩ الشعراء) . اى من الكافرين بآلائنا .. الجاحدين لأفضالنا . **فرد** عليه موسى « فعلتها اذا وانا من الضالين » اى قبل رسالتى « ففررت منكم لما خفتكم ، فوهب لى ربى حكما وجعلنى من المرسلين » (٢٠ - ٢١ الشعراء) .

***

ويبدا حوار حاد بين موسى - عليه السلام - وفرعون .. صورته لنا سورة طه .. عندما عرضت علينا قول فرعون لهما « **قال فمن ربكما** ياموسى » (٤٩ وطه) « **قال ربنا الذى أعطى** كل شيء خلقه ثم هدى » (٥٠ طه) .

***

وفى هذا التعبير .. ادق تصوير واحكمه واشمله .. لاستواء الكمال المطلق لله فى كل شيء .. لنفهم معنى « الرحمن على العرش استوى » فقد أعطى كل شيء خلقه وتكوينه وابداعه .. سواء كان انسانا أو حيوانا .. أو نباتا او مائعا .. او جامدا .. ولم يتركه سدى .. وانما جعل هذا الاعطاء مقترنا بالهداية المتصلة الدائمة .. ومعنى هذا كمال تجلى صفاته الذاتية - سبحانه - على جميع المخلوقات .. وهذا هو استواء الرحمن على عرش الممكنات .

قال موسى هذا القول .. عسى ان يتذكر فرعون .. فيعلم انه خلق من خلق الله .. تجلى عليه بصفة البصر فأبصر .. وبصفة السمع فسمع .. وبصفة الكلام فتكلم .. وبصفة الارادة فأراد .

ولكنها مكابرة الكفر .. وعناد الكبر .. ووساوس الشك .. فقال لموسى « فما بال القرون الأولى » ؟ (٥١ طه) .. وكان فرعون

يريد ان يثبت امام الملأ المجتمع عنده .. وهم أشراف القوم .. وكانوا خمسمائة رجل .. عليهم الاساور .. وكانت للملوك خاصة .. اراد فرعون أن يختبر موسى امامهم عن مدى علمه بالأجيال السابقة .. ولكن موسى احال الرد على الله ـ سبحانه ـ فقال : « علمها عند ربى فى كتاب لا يضل ربى ولا ينسى » (٥٢ طه) .. الذى خلق لنا الأرض .. وجعلها لنا مهداوفراشا .. وشق فيها الطرق « الذى جعل لكم الأرض مهدا وسلك لكم فيها سبلا وأنزل من السماء ماء فاخرجنا به ازواجا من نبات شتى . كلوا وارعوا انعامكم ان فى ذلك لآيات لأولى النهى » (٥٣ ـ ٥٤ طه) . ويقول عليه الصلاة والسلام « تمسحوا بالأرض فانها بكم برة » .

* * *

والمح لفتة جميلة فى قول موسى ـ عليه السلام ـ « فاخرجنا به أزواجا من نبات شتى» وأزواج النبات .. عبارة شاملة لكل شىء حى « وجعلنا من الماء كل شىء حى » والانسان نفسه نبات « والله انبتكم من الأرض نباتا » .

وقد خلق الله كل شىء ازواجا من ذكر وانثى .. حتى الكليات .. فالأرض انثى والماء ذكرها .. صور الله لنا هذا المعنى فى قوله تعالى : « وترى الأرض هامدة » وهى الانثى فاذا أنزلنا عليها الماء .. « وهو الذكر » اهتزت وربت «أى حملت » «وأنبتت من كل زوج بهيج» . وينطبق هذا المعنى ايضا على الليل والنهار .. فالليل انثى والنهار ذكره .. والله ـ سبحانه ـ هو الذى « يغشى الليل النهار يطلبه حثيثا » كما يغشى الذكر أنثاه .. وفى هذا المعنى يقول الشاعر :

والليالى من الزمان حبالى
مثقلات تلدن كل عجيبة

فسبحانه لا فرد سواه ولا واحد الاه

ولعل هذا هو الذى جعل موسى يذكر فرعون وملأه .. بأنهم ازواج من نبات الأرض .. فقال « منها خلقناكم ، وفيها نعيدكم ، ومنها نخرجكم تارة أخرى » (٥٥ طه) .

ولنا وقفة قصيرة . حول تلك الآية ، فقد نرى فيها معنى جديدا .. غير المعنى المعروف عنها .

* * *

فلقد فهم الكثير من الناس «منها خلقناكم» اى من هذه الأرض .. للاجر والثواب .. وهذا صحيح .

« وفيها نعيدكم » .. اى الى الأرض .. للدود والتراب .. وهذا غير صحيح .

فكيف تكون الاعادة بمعنى الموت والفناء ؟ مع ان الله ـ سبحانه ـ لم يقل واليها نعيدكم .. بل قال « وفيها نعيدكم » بالظرفية ! ..

وهذا يدعونا الى معرفة معنى الاعادة فى آيات اخرى من كتاب الله الكريم .. فلا شك أن خير تفسير لألفاظه .. هو ما فسر به بعضه بعضا .

فخذ مثلا « كما بدأنا أول خلق نعيده وعدا علينا انا كنا فاعلين » (١٠٤ الأنبياء) أى كما بدأنا أول خلق من لا شىء .. نعيده يوم البعث من لا شىء .

وهو نفس المعنى فى قوله تعالى « وادعوه مخلصين له الدين كما بدأكم تعودون » (٢٩ الأعراف) .

ويتضح هذا المعنى أكثر فى قوله ـ سبحانه « وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه » (٢٧ الروم) .

ويتضح اكثر واكثر .. فى قوله « فسيقولون من يعيدنا قل الذى فطركم أول مرة » (٥١ الاسراء) اى من الذى يستطيع اعادة خلقنا للبعث الذى تتحدث عنه ؟.. قل الذى خلقكم أول مرة .

أليس المعنى واضحا فى أن الاعادة خلق وليست فناء ؟

وان الله جل شأنه ـ يقول على لسان المشركين الذين لا يؤمنون بالبعث .. « يقولون أئنا لمردودون فى الحافرة ، أئذا كنا عظاما نخرة، قالوا تلك اذا كرة خاسرة » (١٠ النازعات) ارأيت معنى الرد فى الحافرة .. اى القبر الأرضى .. أليست هى الاعادة للروح بالجسم الجديد ؟ .. فاذا ثبت فى أذهاننا أن معنى الاعادة هو البعث بالأجسام الجديدة .. فما معنى « ومنها نخرجكم تارة أخرى » اذا ؟ .

فنقول ان البعث الجديد بأجسام جديدة .. لا نعلم عناصرها أو تكوينها الآن ، لأن الله يقول « ولقد علمتم النشأة الأولى » فقط (٦٢ الواقعة) .. فلا علم لكم بالنشأة الأخرى .. ويلمع نجم قرآنى آخر لينير لنا الطريق « وننشئكم فيما لا تعلمون » (٦١ الواقعة) فهى أجسام من عناصر أخرى غير عناصر الطين

ينوء بثقلها كوكب الطين .. فتضطرب الأرض.. ويختل توازنها .. وتلقى من عليها الى الأرض الجديدة .. « يوم ترجف الراجفة . تتبعها الرادفة » (٦ النازعات) .

والرادفة : امر عظيم يعقب الراجفة .. حيث تدفع الأرض الناس الى الساهرة .. وسماها القرآن الكريم زجرة يخرج بها الناس اخراجا « فإنما هي زجرة واحدة فاذا هم بالساهرة » (١٣ النازعات) والساهرة اسم الأرض الجديدة التى لم يعص الله عليها قط .

ويكون المعنى الجديد الذى وصلنا اليه لتلك الآية الكريمة :

« منها خلقناكم » من الأرض «وفيها نعيدكم» بالبعث « ومنها نخرجكم تارة اخرى » بالزجرة الواحدة او بالرادفة الى الأرض الجديدة .. للنعيم أو العذاب .

* * *

واذا نظرنا الى خلق الانسان .. من خلال كلام الله — سبحانه — فى سورة يس « سبحان الذى خلق الازواج كلها مما تنبت الأرض » هذه واحدة « ومن انفسهم » وهذه الثانية .. « ومما لا يعلمون » وهذه الثالثة .. فهذا الذى لا يعلمه احد .. هو السر العلوى الخالد .. الذى تتبدل الأجسام .. ثابت ثبوتا ذاتيا .. وثباتا جذريا .

وقد زعم الضالون .. بان الله تعالى .. اذا شاء اعادة الناس .. اعادهم من اعجاب أذنابهم .. وهو راى مافون آفك .. لوضوح غنى الله تعالى .. ولقوله « كما بدأنا أول خلق نعيده » فهل بدأ الناس من اعجاب أذناب ؟ .

وقد دفعهم افكهم وضلالهم الى افتراء حديث عن رسول الله — صلى الله عليه وسلم وهو منه براء .. نصه « كل ابن ادم يفنى الا عجب الذنب » وقد نسوا قوله تعالى « كل شىء هالك الا وجهه » ..

* * *

ومن أجل هذا .. كان رد موسى — عليه السلام — على فرعون .. عندما قال له : «وما رب العالمين » ؟ فقال موسى « رب السماوات والأرض وما بينهما ان كنتم موقنين » (٢٤ الشعراء) .

ويتجه فرعون بنظره الى أشراف قومه .. وقد دعاهم لحضور مقابلته لموسى .. فقال لهم « قال لمن حوله الا تسمعون » (٢٥ الشعراء) واستمر هجوم موسى « قال ربكم ورب ابائكم الأولين » (٢٦ الشعراء) . فانتقل بهم موسى من العمم فى عرض السماوات والأرض .. الى التخصص فى انفسهم .. وفى آبائهم من قبل .. اى من قبل ان يوجد فرعون هذا .. مما جعل فرعون يفقد اعصابه .. فيقول « ان رسولكم الذى ارسل اليكم لمجنون » (٢٧ الشعراء).

ويظل موسى مهاجما .. فينتقل بهم الى اثبات قدرة القادر .. وعلم العليم .. وحكمة الحكيم .. فى استقامة الحياة وسيرها على طريقة دقيقة محكمة .. فى تعاقب الليل والنهار .. فقال « رب المشرق والمغرب ان كنتم تعقلون» (٢٨ الشعراء) فهل عندكم انتم عقول تعقلون بها .. حتى تتهموننى بالجنون ؟ .

وتلك الحجة هي التى استعملها ابراهيم — عليه السلام — فى القام النمروذ الحجر الذى الجمه .. بقوله للنمروذ « قال ابراهيم فان الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب » وجعل القرآن الكريم يعبر عنه بقوله « فبهت الذى كفر » وكذلك بهت فرعون .. وفرغت الذى كفر » وكذلك بهت فرعون . وفرغت

واذا عجز الطاغى عن مبادلة الحجة بالحجة .. والمنطق بالمنطق .. استعمل جبروته .. واستغل طاغوته .. فاتخذ التهديد سبيلا .. وقال « لئن اتخذت آلها غيرى لأجعلنك من المسجونين » (٢٩ الشعراء) .

* * *

وكان موسى يعلم ان السجين عند فرعون .. يلقى فى جب شديد العمق فى باطن الأرض .. وحيدا .. لا يسمع فيه ولا يبصر .. وهذا امر اشد على النفس من القتل .. فقال له « أولو جئتك بشىء مبين » (٣٠ الشعراء) .اى بمعجزة تثبت صدقى .. وتتأكد بها اننى رسول من الله اليك .. فقال « فأت به ان كنت من الصادقين » (٣١ الشعراء) .

* * *

« فالقى موسى عصاه فاذا هى ثعبان مبين » (٣٢ الشعراء) .

ولعل كلمه مبين تبين انها كانت ثعبانا حقيقيا .. لا توهما ولا خيالا .. كما يفعل السحرة والمشعوذون .

وقد روى الزمخشرى صاحب تفسير الكشاف انها انقلبت حية .. ارتفعت فى السماء قدر ميل .. ثم انحطت مقبلة الى فرعون .. فصرخ وقال لموسى اسالك بمن ارسلك الا اخذتها .. فاخذها فعادت .

وقال الكشاف ايضا ، وقاله مثله عبد الله ابن احمد النسفى ـ صاحب تفسير « مدارك **التنزيل » والقاضى ناصر الشيرازى ـ صاحب تفسير البيضاوى ، فقالوا :**

انقلبت العصا ثعبانا .. اشعر فاغرا فاه .. بين لحييه ثمانون ذراعا .. وضع لحيه الأسفل فى الأرض ولحيه الأعلى على سور القصر .. ثم توجه الى فرعون لياخذه .. فوثب فرعون من سريره .. وهرب واحدث .. ولم يكن احدث من قبل ذلك .. وهرب الناس وصاحوا .. وحمل على الناس فانهزموا .. ومات منهم خمسة وعشرون الفا .. قتل بعضهم بعضا .. ودخل فرعون البيت .. وصاح ياموسى خذه وانا آومن بك .. وارسل معك بنى اسرائيل .. فاخذه موسى فعاد عصا .. كما قال القرطبى مثل ذلك فى آية الأعراف .

ونحن نقبل تلك الرواية بكثير من التحفظ .. فلا شك ان بها بعض المبالغات فى عدد القتلى .. لانه لم يكن موقف مبارزة .. حتى يتجمع عدد من الناس يقتل منه خمس وعشرون الفا .. كما ان سعة فمه فوق التصور الممكن ..

❋ ❋ ❋

ولما هدأ فرعون من هول الثعبان وضخامته .. قال لموسى ـ عليه السلام ـ فهل معك غيرها؟ .. فمد له يده .. فقال : ماذا فيها ؟ فادخل يده تحت ابطه .. ثم نزعها .. ولها شعاع فسفورى يكاد يغشى الأبصار .. ويسد الافق .. وكانت اشد وقعا على عين فرعون من وقع العصى .. ينفذ شعاعها الى اعماق عينيه وهى مغمضة .. فصرخ خشية العمى .. فرد موسى يده .. فعادت كما كانت .

« فالقى عصاه فاذا هى ثعبان مبين . ونزع يده فاذا هى بيضاء للناظرين » (٣٢ ـ ٣٣ الشعراء) .

□□□

٣ وأهتز الصنم

وينفــرّد فرعون باشراف قومه .. وزعماء ملئه .. يشاورهم فى الأمر ـ ويظهر انه قد نزلت عنه دعوى الألوهية .. وحط عن منكبيه كبرياء الربوبية .. وارتعدت فرائصه خوفا وفرقا . وبلغت به الذلة والاستكانة أن يطلب من عباده ان يأمروه .. ماذا يصنع ؟ فجعل العبيد آمرين ربهم مأمور .

« **قال للملا حوله** : ان هذا لساحر عليم ، يريد ان يخرجكم من ارضكم بســــحره فماذا تأمرون » ؟ (٢٥ الشعراء) .

ويأتى هذا المشهد فى سورة المؤمن (١) :

« وقال فرعون ذرونى اقتل موسى .. وليدع ربه انى اخــاف ان يبدل دينكم أو ان يظهر فى الأرض الفساد » (٢٦ المؤمن) .

ولعل مغالطه فرعون مكشــوفة فى قوله : انه يخاف ان يفسد موسى فى الأرض .. فتلك حجج المكابرين .. يجعلون الباطل حقا .. والحق باطلا .

ويذكرنى هذا بقوم لوط « فما كان جواب قومه الا أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريتكم انهم اناس يتطهرون » (٥٦ النمل) .

ارايت كيف تكون الطهاره والنظافة عيبــا يستوجب الطرد والنفى ، ولكنه منطق المكابرة والعناد والكفر .

« **وقال موسى انى** عذت بربى وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب » (٢٧ المؤمن) .

وكان من بين ملا فرعون .. خازنه ـ حزقيل ـ وهو مؤمن من آل فرعون يكتم ايمــانه . فقال « اتقتلون رجلا ان يقول ربى الله ، وقد جاءكم بالبينات من ربكم ، وان يك كاذبا فعليه كذبه، وان يك صادقا يصبكم بعض الذى يعــدكم ان الله لا يهدى من هو مسرف كذاب » (٢٨ المؤمن)

وقيل ان فرعون اصر على قتل موسى ، فما كان من موسى الا أن أخرج يده من تحت ابطه فاغشى ابصارهم ، وابصار الحراس فى طريقه حتى لاذ كل منهم فرارا من شدة برقها ، وهو يكاد يخطف الأبصار حتى خرج هو وأخوه من القصر ، فى رعاية من قال لهما « انى معكما أسمع وأرى » .

ويعود موسى وهارون الى فرعون ثانية ، يدعوانه الى الله ، ويطلبان منه اطلاق سراح بنى **اسرائيل** .. ولكنه لم يزدد الا عتوا واستكبارا .. وعنادا واصرارا .. ويقول الله عنه فى سياق هذه القصــة .. وفى هذا المقام من ســورة طه « ولقد أريناه آياتنا كلها فكذب وأبى » (٥٦ طه) .

وقد حصر الله تلك الآيات التى أراها فرعون فى سورة الاسراء « ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات » (١٠١ الاسراء) .

اراها الله ـ جل شأنه ـ فرعون قبل هلاكه .. فكذب بها واستكبر وأبى وطغى وتجبر .

---

(١) لهذه السورة اسمان . المؤمن وغافر .

ويمكن حصرها حسب ترتيبها الزمنى فيما يأتى :

١ ــ أن تكون عصـاه حية تسعى .

٢ ــ أن تكون يده اذا أخرجها من جيبـه مشعة بسناء قهار للابصار الا لبصر موسى ولا الذين آمنوا .

٣ ــ الطوفان .

٤ ــ الجراد .

٥ ــ القمـل .

٦ ــ الضـفادع .

٧ ــ الدم .

٨ ــ أن يضرب بعصاه البحر فينفلق فيكون كل فرق كالطود العظيم مجمدا ماؤه .

٩ ــ ان يضرب بعصاه الحجر فينفجر منه اثنتا عشرة عينا .

وقد رأى فرعون الثمـان آيات الأولى وسنتعرض لها فى حينها ان شاء الله تعالى .

تلك الآيات سماها الله ــ سبحانه ــ بصائر .. فى الآية التالية من سورة الاسراء بعد ان قال « ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات » ــ .. الخ الآيات .

قال على لسان موسى « لقد علمت ما أنزل هؤلاء الا رب السماوات والأرض بصائر . وانى لأظنك يافرعون مثبورا » (١٠٢ الاسراء) .

وهذه الآيات البينات .. هى البصائر التى لو امعن فرعون فيها النظر .. لدفع عن نفسـه شرا وخيما .. وعذابا اليما .. ولكن غاشـية الكبر طمست على بصيرته .. **ففاته الادراك ..** وضـاعت منه فرصـة **الحكمة فهوى .. وكان** مستبصرا عالما .. ولكنه غير حكيم .

❊ ❊ ❊

قال فرعون : « اجئتنا لتخرجنا من ارضنا بسحرك ياموسى » (٥٧ طه) **والله ما اراد موسى** اخراج فرعون ولا ملئه من مصر .. **كما يقول** فرعون لهم « ان هذا لسـاحر عليم **يريد ان** يخرجكم من ارضكم بسحره » **وانما يطلب ان** يخرج هو وبنو اسرائيل .. **فهذا قلب للحقائق** كما ذكرنا .

ثم أردف فرعون « فلنأتينك بسـحر مثله ، فاجعل بيننا وبينك موعدا **لا نخلفه نحن ولا انت** مكانا سـوى » (٥٨ طه) .

وانتهزها موسى فرصة .. **فحدد لهم ضحى** يوم الزينة .. حيث يتجمع الناس **من جهات** مصر .. ومن جميع انحائها .

وقيل يوم عاشوراء .. **او يوم النيروز ..** يجتمعون فيـه كل عـام .. **ويتزينون فى ابهى** حللهم وافخر زينتهم « **قال موعدكم يوم الزينة،** وان يحشر الناس ضحى » (٥٩ طه) .

وقد حدد لهم موسى هذا اليوم **بالذات ..** ليظهر الحق .. ويزهق البـاطل .. **على رءوس** الأشهاد .. ويشيع ذلك **فى جميع الأقطار .**

بدأ فرعون يجمع كبار السحرة **من جميع** الانحاء .. ويعدهم بأسـمى الأجور **ويمنيهم** الآمانى العظام .. ان هم استطاعوا هزيمة **موسى** .. وابطال عمله على مشهد من الناس .

❊ ❊ ❊

٤ هامان بنى الصرح

وهامان هذا كان من وزراء الملك .. ويقول الاستاذ عبد الوهاب النجار ـ صاحب « قصص الأنبياء » ..

كان وزير العمارات .. وهى طبعا وزارة تعادل وزارة الاسكان عندنا الآن .. ويقول انه هامان بن همداثا الأجاجى ..

وعلى اى حال ، فقد كان هامان اقرب المقربين الى فرعون .. فهو محط سره .. وعلى درجته فى الكفر .. وهذا يتضح من مثل قوله تعالى : « ان فرعون وهامان وجنودهما ، كانوا خاطئين » فجعلهما ـ سبحانه ـ متساويين فى الخطأ .

وقد ذكر هامان كعدو لله مع فرعون فى ستة مواقع .. منها موقعان بسورة القصص .. احدهما فى الآية السابقة .. والثانى فى قوله جل شانه يتوعدهما معا « ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ماكانوا يحذرون » . والموقع الثالث فى سورة العنكبوت .. ومعهما قارون فى هذه المرة :

« وقارون وفرعون وهامان ، ولقد جاءهم موسى بالبينات ، فاستكبروا فى الأرض وماكانوا سابقين » .

وفى سورة المؤمن .. عندما يقول ـ سبحانه « ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين الى فرعون وهامان » . وهذا هو الموقع الرابع ، اما الموقع الخامس .. وفيه « وقال فرعون ياهامان ابن لى صرحا لعلى ابلغ الاسباب . اسباب السماوات فاطلع الى اله موسى وانى لأظنه كاذبا » . (٣٦ ـ ٣٧ المؤمن) .

ونفس المعنى فى الموقع السادس بسورة القصص « وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من اله غيرى ، فأوقد لى ياهامان على الطين فاجعل لى صرحا ، لعلى اطلع الى اله موسى ، وانى لأظنه من الكاذبين » (٣٨ القصص) .

فهل هناك سفه اكبر من هذا السفه .. وهل يوجد خبل اشد من ذلك الخبل ؟ .. لقد كشف فرعون نفسه .. انه يطلب من هامان أن يبنى له صرحا عاليا .. يصعد فوقه .. ليرى اله موسى فى السماء .. والاغرب من هذا واعجب .. ان هامان .. وافق فرعون على هذا الرأى .. وبدا فعلا فى بناء هذا الصرح ..

فقد قيل انه جمع من العمال خمسين ألفا .. سوى الاتباع والاجراء .. وامر بطبخ الآجر والجص ونجر الخشب وضرب المسامير .. فشيدوه حتى بلغ مالا يبلغه بنيان احد من الناس .

وروى صاحب تفسير الكشاف وغيره : ان فرعون ارتقى فوق هذا الصرح ورمى بسهم الى السماء .. واراد الله ان يفتنهم .. فرد النصل اليه مخضبا بالدم .. فقال : لقد قتلت اله موسى .. وعندها بعث الله جبريل عليه السلام .. عند غروب الشمس فضرب الصرح بجناحه فقطعه ثلاث قطع .. وقعت قطعة على عسكر فرعون .. فلم يبق احد من العمال الا وقد هلك.

وقيل ان بناءه استغرق سبع سنين عملا متواصلا . وعن عمر رضى الله عنه .. أنه حين سافر الى الشام .. ورأى القصور المشيدة بالآجر .. فقال : ما علمت ان احدا بنى بالآجر غير فرعون .

* * *

لقد صور الخبل والجهل لفرعون انه من الممكن ان يصعد الى السماء .. على بناء يبنيه .. او صرح يشيده .. ليرى اله موسى وينازله .. ويرميه بسهم ليقتله ..

واذا كان هذا الخبل قد صور لفرعون هذا التصور .. فما موقف هامان من هذا الأمر ؟ .. وهل كان القوم فى درجة من الغباء والبله .. حتى تستسيغ عقولهم هذا الهراء الواضح .. وتقبل ذلك الجنون الصارخ ؟ ام ان فرعون تشبثا منه بالربوبية .. اراد ان يثبت لهم ان لديه من القدرة .. ما يجعله يحارب كل من يزاحمه فى التاله والربوبية حتى ولو كان فى السماء ؟ .

لقد صدق الله عندما قال « فاستخف قومه فأطاعوه » استخف* عقولهم وامتهن احلامهم .. ولم يجرؤ احد ان يقول له كما قال موسى — عليه السلام — له ..

* * *

وان بناء الصرح ليرى هل هناك اله ام لا .. يناقض ما يدعيه من العلم واليقين .. وتلك بينة واضحة .. على افراط جهله وغبائه .. وجهل قومه وغبائهم .. ولاشك أنه كان يسخر من عقولهم .. وقد وجدهم لا يكادون يفقهون قولا .. أو يدركون عملا .. ولا سبب لذلك غير خوفهم من سوطه وسيفه .. فجعلهم هذا الخوف اشبه بالانعام المذللة .. والبهائم المسخرة .. تؤمر فتطيع .. وتستعبد فتعبد .

وقد ذكر القاضى الشيرازى — صاحب تفسير البيضاوى .. رأيا فى تفسير قوله تعالى « فاجعل لى صرحا » قال : اراد ان يبنى له رصدا يترصد منه اوضاع الكواكب .. فيرى : هل فيها ما يدل على بعثة رسول .. وتبدل دولة ؟ ..

ولعل هذا اقرب الأفكار التى كانت تجول بذهن فرعون عند طلبه من هامان بناء الصرح . وخاصة ان آثار الفراعنة تثبت قدرتهم فى رصد الكواكب .. ومعرفة اسرارها .. وقد كان فرعون رجل علم ولكن بغير حكمة .. ولو كان حكيما لما رمى السماء بسهم .. عندما وجد نفسه فوق مرصده .. ولكنه تخبط الشيطان .. فمثله كمثل الذى يتخبطه الشيطان من المس .. فهو يتشبث بأى خيط يزينه له شيطانه .. عله يكون وسيلته الى الاحتفاظ بالوهيته .. والتمسك بربوبيته .. ولكنه كان خيطا او هى من خيط العنكبوت « وان أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون » .

* * *

ولقد بعد بنا حديث الصرح على مدى سبع سنين .. وقد كنا فى أول بنائه .. حين ارسل فرعون الرسل لجمع زعماء السحرة .. وأقواهم قدرة على السحر من جميع اقاصى مصر .. واقام لهم المعسكرات يتجمعون فيها .. ويتداولون فنونهم ومكرهم . وافكارهم وكيدهم .. ووعدهم الوعود ومناهم الامانى .. حتى جعل لهم امتيازات خاصة .. فى **المثول** بين يديه .. فجعلهم أول الداخلين .. وآخر الخارجين .

حتى اقبل يوم الزينة .

□□□

٥ سحر ومعجزة

ذات ليلة .. كان القمر فيها بدرا .. ووقف رسولنا ـ صلى الله عليه وسلم ـ ينطلع الى السماء .. والقمر فى كبدها .. يملأ الدنيا جمالا .. ويكسوها بهجة وجلالا .. ولقد كان ـ عليه الصلاة والسلام ـ دائم النظر فى الملكوت .. يعشق الطبيعة حبا فى طابعها .. ويغنى فى الكون ولها فى صانعه وخالقه ومبدعه .. وكان بالقرب منه مجموعة من زعماء المشركين .. وعتاة الكافرين ، منهم : الوليد بن المغيرة .. وابو جهل بن هشام .. والعاص بن وائل .. والاسود بن المطلب .. والنضر بن الحارث ، ونظراؤهم .. فانتهزوها فرصة للهزء به .. والسخرية منه .. فقال له الوليد : يامحمد .. فقال له ـ عليه الصلاة والسلام : نعم ياابن المغيرة .. قال : هل يستطيع ربك ان تشق هذا القمر نصفين ؟ ...

وجالت خطرات وآمال فى نفسه ـ عليه السلام ـ فقال : وهل تؤمن لو شق ربى القمر نصفين ؟ .. فقالوا جميعا : نعم : فى نفس واحد .. استعظاما منهم لهذا الأمر .. ولتيقنهم بأنه لن يكون .... وتفاعلت الخطرات والامال فى القلب الكبير .. واتجه ببصره وفؤاده الى خالق القمر مشيرا الى القمر .. فانفلق فلقتين .. فلقة اتجهت الى الشرق .. واتجهت الثانية الى الغرب فقال : اشهدوا .. فقالوا : جميعا بعد زوال دهشتهم : هذا سحر .. ولما كانوا يعلمون ان مفعول السحر لا ينصب على الشىء المسحور .. وانما ينصب على اعين الناظرين .. فقال احدهم .. ولعله الوليد : اذا كان هذا سحرا فنكون نحن فقط الذين راينا تلك الظاهرة فى القمر .. ولم يرها غيرنا فلننتظر .. حتى يصل اول قادم من البيداء .. فنسأله .. فوقفوا ساعتين حتى وصل بعض السفار فسألوهم : اين كنتم من ساعتين ؟ .. قالوا : كنا بمكان كذا .. قالوا الم تروا ظاهرة غريبة فى السماء هناك ؟ قالوا نعم ـ واللات ـ لقد راينا امرا عجبا .. راينا القمر وقد شق نصفين .. نصف ذهب الى الشرق .. ونصف ذهب الى الغرب .. فقالوا : سحر مستمر .

ولهذا نزل قوله تعالى « اقتربت الساعة وانشق القمر .. وان يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر » ..

* * *

وقد ورد فى تلك المعجزة احاديث كثيرة .. منها فى الصحيحيين .. من حديث انس رضى الله عنه ـ ان اهل مكة سألوا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ان يريهم آية .. فاراهم انشقاق القمر شقتين .. حتى راوا حراء بينهما .

وفى حديث ابن مسعود : لما انشق القمر .. قالوا : هذا سحر ابن ابى كبشة قال : فقالوا انظروا ماياتيكم به السفار .. فان محمدا لا يستطيع ان يسحر الناس كلهم .. قال : فجاء السفار .. فأخبروهم بذلك .

رواه ابو داوود وغيره .

* * *

وقد بدات موضوع السحر فى قصة موسى .. بتلك المعجزة لرسولنا ـ صلى الله عليه وسلم ـ لنعلم ان السحر لايكون مفعوله الا فى الاعين .. ولا اثر له فى نفس الشىء المسحور .. اما المعجزة .. فيكون اثرها فى الشىء نفسه .. كما حصل فى انشقاق القمر .. رآه من فى الكعبة .. كما راه من فى البيداء .

وكما سنرى فى حفل المناظرة بين موسى - عليه السلام - وبين سحرة فرعون .

* * *

كان منظرا فريدا حقا .. ان يجتمع من السحرة بضع وثلاثون الفا .. حسب تقدير اغلب المفسرين .. ومنهم : تفسير النسفى .. والكشاف .. والبيضاوى .. والنيسابورى .. وان كان القاضى ناصر الشيرازى صاحب البيضاوى زاد على ذلك فقال إنهم كانوا سبعين الفا .

فلا بد ان يكون التجمع ضخما ضخامة تفوق حد التصور .

وقال الله تعالى « موعدكم يوم الزينة وان يحشر الناس ضحى » فتلمح فى هذا التعبير منظر الحشر .

وقف هذا العدد الضخم ضحى يوم الزينة - عيد النيروز - وهو عندهم عيد وفاء النيل .. وقد تجمع الناس من كل فج .. من انحاء البلاد .. قاصيها ودانيها .. يوم يعدون له من شهور مضت .. ويستعدون من زمن بعيد .. لحضور مباراة عجيبة .. بين سحرة مصر كلها .. وبين رجل عبرانى .. يدعى انه مرسل من عند اله آخر .. غير الههم المقدس .. الذى يعبدونه ابناء عن اباء .. ويعدون لهذا اليوم بالليالى والساعات .

ويظهر هذا منْ قوله تبارك وتعالى « فجمع السحرة لميقات يوم معلوم . وقيل للناس هل انتم مجتمعون . لعلنا نتبع السحرة ان كانوا هم الغالبين . (٣٨ - ٤٠ الشعراء) .

فعبارة « هل انتم مجتمعون » ؟ .. فيها استعجال لبدء تلك المباراة العجيبة .

* * *

ويدخل موسى عليه السلام - الى الميدان متكئا على عصاه .. ومعه اخوه هارون .. وقد جلس فرعون مع اشراف قومه .. فى مكان الصدارة .. واصطف السحرة صفوفا متلاصقة .. وكتلا متلاحمة .. جعلت المكان اشبه بساحة من ساحات الحرب .. فى اكبر معارك التاريخ .

ويستمر موسى سائرا .. وهو يتكىء على عصاه .. حتى توسط السحرة .. وصار أقرب مايكون من فرعون .. وقد اتجهت اليه جميع الانظار .. انظار السحرة .. وانظار الجمهور .. ثم اتجه الى السحرة قائلا لهم ..

فى قوة هزت اعصابهم .. وأرعشت مفاصلهم .. « قال لهم موسى ويلكم لا تفتروا على الله كذبا فيسحتكم بعذاب وقد خاب من افترى » (٦١ طـه) .

اى لا تقولوا على الآيات والمعجزات سحرا .. والا سحقكم الله واهلككم .. وكان لهذا القول تاثير عميق فى نفوسهم .. « فتنازعوا امرهم بينهم ، واسروا النجوى » (٦٢ طـه) .

تجمع زعماؤهم فى الحال .. وتشاوروا سرا وتجاذبوا اطراف القول .. **فقالوا : ماهذا** بساحر .. ولكن علينا ان نثبت .. ونقول للناس قولا يرفع من روح السحرة ويثبط الناس عن اتباعه اذا انتصر علينا .. وقالوا « ان هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ، ويذهبا بطريقتكم المثلى . فاجمعوا كيدكم ثم ائتوا صفا وقد أفلح اليوم من استعلى » (٦٣ - ٦٤ طـه) .

قالوا هذا مخاطبين الالاف المؤلفة من الجماهير المجتمعة .. أو لعلهم يتوجهون بكلامهم هذا الى اخوانهم السحرة .. ليقووا من ارادتهم .. ويشدوا فى عزمهم .. حيث يقولون لهم « ويذهبا بطريقتكم المثلى » فى السحر .

* * *

ثم توجهوا بحديثهم الى موسى - عليه السلام - فخاطبوه خطابا فيه الكثير من حسن الادب معه .. والتواضع له .. وخفض الجناح .. وفيه تنبيه على اعطائهم النصفة من انفسهم .. فقالوا : « ياموسى اما ان تلقى واما ان تكون أول من القى » (٦٥ طـه) .

وكانت مقابلة موسى لهم ادبا بأدب .. ومجاملة بمجاملة .. فقال لهم : « بل القوا » اولا .. حتى يبرزوا ما معهم من مكائد السحر .. ويستنفدوا اقصى طاقتهم ومجهودهم .. وحتى يكون الباطل سابقا للحق .. فيكون قذف الحق ازهاقا للباطل .

وكان اتفاقهم فى تآمرهم .. عندما اسروا النجوى .. ان يلقوا جميعا حبالهم وعصيهم فى لحظة واحدة .. ارهابا له وارعادا .. حيث قالوا « فاجمعوا كيدكم ثم ائتوا صفا .. وقد افلح اليوم من استعلى » واستعلى لا تفيد العلو .. وانما تفيد محاولة العلو .

* * *

« **فالقوا حبالهم وعصيهم وقالوا بعزة فرعون انا لنحن الغالبون** » (٤٤ الشعراء) .

وقد القوا حبالا غليظة .. وعصيا ضخمة .. وامتلا الميدان على ضخامته وسعته بالاف الحيات والثعابين .. يركب بعضها بعضا .. « فسحروا اعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر مبين » .

وقيل ان العصى والحبال كانت حمولة ستين بعيرا ..

ويظهر هنا جليا ان تفاعل السحر يكون فى العين .. لا فى الشيء المسحور - كما قدمنا « فسحروا اعين الناس » وكان موسى - عليه السلام - ايضا من بين الناس .. فسحرت عينيه هو أيضا . « فاذا حبالهم وعصيهم يخيل اليه من سحرهم انها تسعى » (٦٦ طـه) .

وتملكه الخوف ورهبة الموقف .. ولكن الله معه .. ومن كان الله معه .. فكيف يهزم ؟ .

ان الله سبحانه وجل شأنه - يقول « وكان حقا علينا نصر المؤمنين » فهل بعد أن يلزم الله نفسه حقا .. وهو نصر المؤمن .. يجوز ان يتسرب الى خواطرنا اى شك فى ان المهزوم فى اى شيء غير مؤمن .. وان المنتصر هو المؤمن ؟. وانا ان هزمت فى اى امر من أمور الدنيا .. فهل لهذا معنى غير أن أعيد النظر فى ايمانى ؟ .. لان الله هو الحق .. وقوله الصدق ؟ .

* * *

وكان الله مع موسى « فاوجس فى نفسه خيفة موسى . قلنا لا تخف انك أنت الأعلى . والق ما فى يمينك تلقف ما صنعوا انما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث اتى » (٦٧ - ٦٩ طـه) .

ولا يخفى على اللبيب .. لماذا قال الله له « والقِ ما فى يمينك » ولم يقل له هنا والق عصاك .. كما قالها فى هذا المقام .. من سورتى الاعراف والشعراء ؟ .

وذلك لأن الله - سبحانه - ذكر هنا فى سورة طه - خوف موسى - فكان الامر يستدعى تصغير العصا والتقليل من شأنها .. اى لاتهتم ياموسى .. ولا تبال بكثرة حبالهم وغلظها .. وآلاف عصيهم وضخامتها .. والق تلك العصا الصغيرة التى بيمينك وستراها تبتلع كل ما يصنعون .. وتظهر ما يأفكون .. **والقى موسى عصاه ..**

وقد اوردت كتب التفسير الكثير عن وصف العصا بعد ان القاها .

ولكنى انقل هنا وصفها من كتاب ابى اسحاق النيسابورى الثعلبى وذكر مثله القرطبى وغيره .. قال : صارت العصا ثعبانا مبينا اسود مدلهم .. يدب على اربع قوائم قصار غلاظ شداد .. أعظم وأطول من بختى(١) عظيم .. وله ذنب يقوم عليه .. ليشرف على حيطان المدينة براسه وعنقه وكاهله .. لايضرب بذنبه شيئا الا حطمه وقصمه .. ويكسر بقوائمه الصخر الصم الصلاب .. ويطحن كل شيء .. له عينان تلتهبان نارا .. ومنخراه ينفثان السموم .. وعلى معرفته شعر كامثال الرياح .. وصارت الشعبتان له فما واسعا سعته اثنى عشر ذراعا .. فيه انياب واضراس .. له فحيح وصريف وصرير .. فاستعرضت ماالقت السحرة من حبالهم وعصيهم ..

وهى تخيل فى اعين الناس وعين فرعون انها تسعى .. فجعلت تلقفها وتبتلعها واحدا واحدا .. حتى لم ير فى الوادى منها شيء . ا هـ .

* * *

وانهزم قوم فرعون هاربين منقلبين .. فتزاحموا وتضاغطوا .. ووطىء بعضهم بعضا .. حتى مات منهم عدد كبير .. وانهزم معهم فرعون خائفا مرتعبا .. ذاهلا عقله .. وعن سعيد بن جبير .. قال : كان فرعون قد ملىء من موسى رعبا . فكان اذا رآه بال كما يبول الحمار (٢) ولهذا قال لقومه « قال سنقتل ابناءهم ونستحى نساءهم » (١٢٧ الاعراف) . ولم يقل ساقتل موسى ..

* * *

ونظر السحرة الى بعضهم البعض .. وقالوا : اذا كان هذا سحرا .. فاين حبالنا وعصينا ؟ .. « فالقى السحرة سجدا .. قالوا امنا برب هارون وموسى » (٧٠ طـه) ولعلهم بداوا برب هارون ثم موسى .. اعتبارا لكبر السن .. او تحرزا منهم لان فرعون قد ربى موسى من قبل .. فلم يقولوا امنا برب موسى

---

(١) البختى : الجمل .

(٢) القرطبى ١٢٨/الاعراف .

وهارون .. حتى لا يلتبس الامر .

وظلوا فى سجودهم .. فلم يرفعوا رءوسهم .. الا على صوت فرعون يقول لهم .. بعد ان استرد انفاسه .. « قال آمنتم له قبل ان اذن لكم ، انه لكبيركم الذى علمكم السحر » اى معلمكم .. وهـذه لغة مكة .. يقولون : طلب منى كبيرى كذا وكذا .. اى معلمى فى القرآن وفى كل مايقرأ .. يقصد فرعون رئيس السحرة ومعلمهم الاكبر .

وقد روى صاحب تفسير الكشاف ان موسى قال للساحر الاكبر .. قبل المبارزة : **اتؤمن بى ان غلبتك ؟ .. قال : لآتين بسحر لا يقلبه سحر .. وان غلبتنى لأومنن بك .. وكان فرعون يسمع هذا الحوار .. ولذلك اتهمه بانه آمن قبلهم .. فآمنوا معه بموسى وهارون.**

وكان فرعون يوحى اليهم بقوله « امنتم له قبل ان اذن لكم » انه يعلم سرائرهم .. وخطرات نفوسهم .. وأنه كان بسبيل الاذن لهم بالايمان بموسى .. وما هى الا تعلل المغلوب .. ولا بد للمغلوب من بادر العذر .. ولهذا توعدهم — نظير تسرعهم بالايمان — بالعذاب والقتل بقوله لهم : « فلأقطعن ايديكم وارجلكم من خلاف ، ولأصلبنكم فى جذوع النخل ولتعلمن اينا اشد عذابا وابقى » (٧١ طـه) .

والصورة واضحة .. فى قطع اليد اليمنى .. مع الرجل اليسرى .. او العكس فيكون الجسم فى استقامة تيسر الوثاق والصلب فى جذوع النخل .. وقال ابن عباس : كان فرعون اول من صلب .. واول من قطع الايدى والأرجل من خلاف (١) .

* * *

فسبحان الله — مقلب القلوب — وصدق رسول الله عندما يقول : ((القلب بين أصبعى الرحمن يقلبه كيف شاء)) .

ما اعجب امر هؤلاء السحرة .. فقد القوا حبالهم وعصيهم للكفر والجحود .. وبعد ساعة القوا رءوسهم للشكر والسجود .

ويكون ردهم اعظم .. لما هددهم فرعون بقطع طرفين من اطرافهم عكسا .. وقتلهم صلبا فيقولون « لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذى فطرنا .. فاقض ما انت قاض .. انما تقضى هذه الحياة الدنيا » (٧٢ طـه) .

فانتقلوا من احط درجـات الكفر .. الى اسمى درجات الايمان فى لحظة .. كشف الله عن بصيرتهم .. فراوا أن الاجسام ماهى الا الحياة الدنيا .. والحياة الدنيا بائدة فانية .. ولاقدرة لفرعون الا عليها .. اما الحقيقة الروحية .. فهى الحياة العليا والحياة العليا هى الباقية الخالدة .. ولا سلطان له عليها .. ولهذا قالوا « انما تقضى هذه الحياة الدنيا » .. ويعلق الحسن رضى الله عنه — على هذا الموقف فيقول تراه قد ولد فى الاسلام .. ونشأ بين المسلمين .. يبيع دنياه بكذا وكذا .. وهؤلاء كفار نشأوا فى الكفر .. يذلوا انفسهم لله .

وروى انهم لم يرفعوا رءوسهم من السجود حتى راوا الجنة والنار .. وراوا اثواب اهلها. وعن عكرمة : لما خروا سجدا .. اراهم الله فى سجودهم منازلهم التى يصيرون اليها فى الجنة.

* * *

وروى ان زعماء السحرة ليلة الزينة .. .. قالوا لفرعون : آرنا موسى نائما .. فوجدوا عصاه حية تحرسه وهو نائم .. **فقالوا لفرعون:** ما هذا بسحر .. فان الساحر اذا نام بطل سحره .. فأبى الا ان يعارضوه .. ولعل هذا هو سبب قولهم له بعد ذلك :

« انا امنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وماأكرهتنا عليه من السحر والله خير وابقى » (٧٣ طه)

(١) القرطبى ١٢٥/الاعراف .

وفى هذا الموقف من سورة الاعراف « قالوا انا الى ربنا منقلبون . وما تنقم منا الا ان آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا ربنا افرغ علينا صبرا وتوفنا مسلمين » (١٢٥ - ١٢٦ الاعراف) .

اى وما تعيب منا الا الايمان .. يقصدون قوله لهم « آمنتم له قبل أن اذن لكم » .. والايمان اصل المناقب والمفاخر كلها .. وهذا الموقف من فرعون كقول الشاعر :

ولاعيب فيهم غير ان سيوفهم
بهن فلول من قراع الكتائب

ونفذ فرعون وعيده فى زعماء السحره .. اخذهم فقطعهم على شاطىء النهر .. وقتل آمن بموسى عند ايمان السحرة ستمائة الف (١) .. واصر فرعون على كفره وعناده بعد هذا الذى حدث .. ولكنه عناد الكفر أو كفر العناد.. فازداد فى الانتقام من الاسرائيليين .. تسخيرا للآباء .. وتقتيلا للأبناء .. واستحياء للنساء.. فجأروا بالشكوى الى موسى - عليه السلام - « فقال لهم استعينوا بالله واصبروا ، ان الأرض لله يورثها من يشاء من عباده ؛ والعاقبة للمتقين» (١٢٨ الاعراف) .

وهنا تظهر الروح الخبيثة فى الاسرائيليين .. فيظهرون الضجر .. ويبدون اليأس « قالوا أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا » .. منتهى اليأس وغاية الضجر « قال عسى ربكم أن يهلك عدوكم ، ويستخلفكم فى الأرض فينظر كيف تعملون » (١٢٩ الاعراف) ..

وقد استخلفوا فى الأرض .. فى زمن داود وسليمان - عليهما السلام - أى فينظر مدى شكركم نعمته .. لأن الله سبحانه - لا يجزى على ما يعلمه من العبد .. وانما يجازى على ما يقع منه .. وعن عمرو بن عبيد : انه دخل على المنصور قبل الخلافة .. وعلى مائدته رغيف أو رغيفان .. وطلب المنصور زيادة لعمرو .. فلم يجد .. فقرأ عمرو هذه الآية « عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم فى الأرض » ثم دخل عليه بعد ما استخلف .. فذكر له ذلك .. وقال قد بقى « فينظر كيف تعملون » .

* * *

□ □ □

---

(١) القرطبى ١٢٦/ الاعراف .

٦ هـــذه نــــذر

اخذهم الله ـ سبحانه ـ بعد تكذيبهم بالعصا واليد .. بالجدب ونقص الثمرات : « ولقد اخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون » (١٣٠ الاعراف) .

وصدق الله العظيم عندما يقول « ما اصابك من حسنة فمن الله ، وما اصابك من سيئة فمن نفسك» فلا يزال الله يذكر العبد بأخطائه بين الحين والحين .. بأى ألم فى نفسه أو ماله .. أو زرعه أو ضرعه .. كلما حصلت منه زلة .. او كبا به شيطانه كبوة .. عسى أن تصحو فيه النفس اللوامة .. فيبحث عن سبب هذا البلاء .. وهنا يهديه الله الى السبب « والذين اهتدوا زادهم هدى » ويكون الالم فى تلك الحالة خيرا .. مابعده خير .. ويصير نورا .. يهدى فى ظلمات هـذه الحياة .. فهو تذكير وتكفير .. اما اذا كان العبد من الذين نسوا ما ذكروا به .. وغفلت بصيرتهم .. فتح الله عليه كل ابواب الخير «حتى اذا فرحوا بمـا اوتوا اخذناهم بغتـة فاذا هم مبلسون » .

وعن ابن عباس : اما السنون فكانت لباديتهم واهل مواشيهم .. واما نقص الثمرات فكانت لامصارهم وبساتينهم .

وعن كعب كانت النخلة لا تحمـل الا ثمرة واحدة .. وكانوا يتطيرون بموسى وقومه .. فيقولون هذا كله من شؤمهم وشرهم .. فازدادوا بهم تعذيبا وتنكيلا وسـخرة .. وكان القبطى يسخر الاسرائيلى فى العمل .. ولا يعطيه اجرا .. ويقول له : ليس عندنا شىء بسبب وجوهكم وشؤمكم الذى حاق بنا ..

« فاذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه ، وان تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه ، الا انما طائرهم عنـد الله ، ولكن اكثرهم لا يعلمون » (١٣١ الاعراف) .

وهذا اغراق منهم فى الغباء والقسوة .. فان السـدائد تصـقل الروح وتشف زجاجة القلب .. وتذلل النفس .. وخاصـة بعد ان شاهدوا تلك البينات التى لم تؤثر فيهم .. بل زادوا عندها عتوا واستكبارا .. وغيا وضلالا .. وقالوا لموسى : الآن عرفنا انك سـاحر .. ولكن : « مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها ، فما نحن لك بمؤمنين » (١٣٢ الاعراف) .

ولجأ موسى الى ربه فقال : يارب ان عبدك هذا قد علا فى الأرض .. فخذه بعقوبة تجعلها له ولقومه نقمة .. ولقومى عظة .. ولمن بعدى آية .

فحينئذ بعث عليهم الطوفان .. ثم الآيات الأخرى :

« فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم ، آيات مفصلات ، فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين » (١٣٣ الاعراف) .

فأما الطوفان .. فقال بعض المفسرين : انه الجدرى أو الطاعون بلغة اهل اليمن .. ولكن هذا تحميل للفظ فوق ما يحتمل .

والأغلب على انه المـاء .. فأمطرهم الله ثمانية ايام متتابعة .. فى ظلمة شديدة .. لايرون فيها شمسا ولا قمرا .. ولا يقدر احد ان يخرج من داره .. فوقفوا فى منـازلهم فى المـاء الى تراقيهم .. من جلس منهم يغـرق .. واتلف الطوفان حرثهم .. حتى جهدوا .. وازداد بهم البلاء .. وارسل فرعون الى موسى « يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك ، لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلن معك بنى اسرائيل » (١٣٤ الاعراف) .

فدعا موسى ربه .. ليرفع عنهم الطوفان .. ولم يؤمنوا وعادوا الى ما كانوا عليه .. فأنبت

الله لهم فى تلك السنة من الزرع والكلا والثمر ما لم يحصـــل من قبل .. فأعشبت الأرض واخصبت .. ففرحوا لذلك .. وقالوا : لقــد كان المطر نعمــة لا نقمــة .. وازدادوا طغيــانا وكفرا .

***

فارسل الله عليهم الجراد .. فأكل زرعهم وثمارهم .. واوراق أشجارهم وزهرها .. حتى انها كانت تأكل الأبواب والثياب والأمتعة وسقوف المنازل والأخشاب .. وابتلى الله الجراد بالجوع الدائم .. فهو لا يشــبع .

وكان لا يدخــــل بيوت الاسرائيليين .. ولا يصيبهم من ذلك شيء .. فضجوا الى موسى .. وقالوا « ياموسى ادع لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز .. الخ » وبرز موسى الى الفضاء .. فأشار بعصاه الى المشرق والمغرب .. فذهب الجراد من حيث اتى .. كأنه لم يكن .

وقد أورد بعض المفسرين عدة اخبار غريبة عن الجراد .. منها ما ذكره الثعلبى والقرطبى وغيرهما : اخبرنى الحسن بن محمد باسـناد جابر .. عن أنس بن مالك .. عن النبى صلى الله عليه وسـلم .. انه كان يدعو على الجراد ويقول « اللهم اقطع الجراد .. اللهم اقطع دابره .. اللهم اقتل كباره .. واهلك صــغاره .. وافسد بيضه .. وخذ بافواهه عن معايشــنا وارزاقنا .. انك انت سميع الدعاء » . فقال رجل من القوم .. كيف ذلك يارسول الله .. تدعو على جند من جنود الله بهلاكه وقطع دابره؟ .. فقــال « انمــا الجراد نثرة (١) الحوت فى البحر (٢) » وباسناد عن ابى أمامة الباهلى .. يحدث عن النبى - صلى الله عليه وسلم - انه قال : « أن مريم ابنــة عمران ســألت ربها ان يطعمها لحما لا دم له .. فأطعمها الجراد .. فقالت : اللهم اعشه بغير رضاع .. وتابع بينه بغير شياع فقلت : ياأبا المضيء ما الشــياع ؟ قال : الصــوت (٣) .

وبعد ذهاب الجراد عنهم .. نسوا عهدهم .. وعادوا الى سوء أفعالهم .. فأرســل الله عليهم القمــل .

وروى أن موسى - عليه السلام - أمر أن يمشى الى كثيب أعفر .. بقرية من قرى مصر .. وكان كثيبا مهيلا عظيما .. فضربه بعصاه .. فخرج عليهم القمل من كل جانب .. وهو صغار الجراد قبل ان تنبت أجنحتها .. فأكل ما بقى من زروعهم وأشجارهم ونباتهم .. حتى لم يبق فى الأرض عود أخضر ولا جاف .. وكان يدخل بين ثوب الرجل وجلده فيمص دمه .

وقال سعيد بن جبير : أن موسى لمـا ضرب الكثيب الاعفر بعصاه صار قملا .. فاخذت فى ابشارهم واشعارهم واشفار عيونهم وحواجبهم .. ولزم جلودهم كأنه الجدرى ..

وكعادتهم لجأوا الى موسى - عليه السلام - « ادع لنــا ربك بما عهد عندك .. الخ » ودعا موسى ربه .. فانتشر هذا الوباء فى اقطار الأرض وأطراف البلاد ثم نكثوا بعهدهم .. ولم يؤمنوا .

قالوا : لقد تحقق لنا الآن بغير شــك أن موسى ساحر خطير .. عنده من القدره مايجعله يســحر حبات الرمال .. فيحيلها الى دواب تسعى وتنتشر .. فعــلى أى شيء نؤمن به .. ونرسل معه بنى اسرائيل .. وقد أهلك حرثنا وزرعنا .. وأذهب مالنا وضرعنا .. فما عسى ان يفعــل أكثر من ذلك .. وعزة فرعون لن نؤمن به ولن نتبعه .. وقالوا ثانية « مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها ، فما نحن لك بمؤمنين » .

***

فدعا موسى عليهم .. يأسا من هدايتهم .. فأمره الله - ســبحانه - أن يذهب الى النيــل فيغرز عصاه فيه ثم يشير بها نحو أدناه وأقصاه وأعلاه وأسفله ففعل ذلك واذا بالضفادع تتابع من كل جانب .. وقد خرجت من النيل مثل الليل الدامس .. سراعا تؤم المدينة من جميــع جهاتها .. ففاجأتهم فى منازلهم بغتة .. فملأت أفنيتهم وآنيتهم .. وكان أحدهم لا يكشف ثوبا ولا اناء ولا طعــاما ولا شرابا .. الا وجد فيــه الضفادع

وحقا « وما يعلم جنود ربك الا هو ، وماهى الا ذكرى للبشر » . وقيل كانت الضفادع تتقيء صديدا فى أطباق الأطعمة أمامهم .. وروى عكرمة عن ابن عباس : ان الضفادع كانت تقذف نفسها فى القــدور وهى تغــور .. وفى التنــانير وهى مســجورة .

فضجوا الى فرعون من ذلك .. وضــاق عليهم أمرهم .. حتى كادوا يهلكون .. وصارت المدينة وطرقها مملوءة جيفا .. من كثرة مايطأونها

(١) النثرة : شبه العطسة .
(٢) الثعلبى فى العرائس .
(٣) من القرطبى ١٣٣/الاعراف .

باقدامهم .. واروحت البقاع كلها منها .. فبكوا وشدوا الى موسى .. وقالوا اكشف عنا هـذا البلاء .. فانا نتوب هذه المرة ولا نعود .. فأخذ على هذا عهودهم ومواثيقهم .. ثم دعا موسى ربه .. وباشارة من عصاه .. انقشع ما كان منها حيا فلحق بالنيل من حيث اتى .

ثم نقضـوا العهد .. ولم يؤمنوا .. ولم يرسلوا معه بنى اسرائيل .

* * *

وكانت الآية الأخيرة لتذكيرهم هى آية الدم .

وهى اقسى الآيات واشدها « وما نريهم من آية الا هى اكبر من اختها ، واخذناهم بالعذاب لعلهم يرجعون . وقالوا يايها الساحر ادع لنا ربك بما عهد عندك اننا لمهتدون . فلما كشفنا عنهم العـــذاب اذا هم ينكثون » (٤٨ – ٥٠ الزخرف) .. فكانوا – كما رأينا – فى كل آية من آيات العذاب يهرعون الى موسى ليدعو ربه .. على انهم سيهتدون بعد هذه المرة .. وكلما كشف الله عنهم العذاب .. اذا هم ينكثون بعدهم .. ويعودون الى غيهم .. فكانت اقسى آيات التذكير والتحميص والابتلاء .. هى آية الدم .

صارت مياههم كلها دما .. لا يستقون من الأنهار والآبار .. الا وجدوه دما أحمر قانيا نتنا فشكوا الى فرعون .. فقال لهم : كل هذا من افانين السحر عند موسى . يجلس القبطى مع الاسرائيلى على اناء واحـــد .. فيكون مايلى الاسرائيلى ماء صـــاف .. ومايلى القبطى دم قان .. يقومان الى جـرة المـــاء .. فيخـــرج للاسرائيلى ماء .. وللمصرى دم .. تلجأ المصرية الى الاسرائيلية حين يجهدها العطش .. فتقول لها ضعى الماء فى فمك ومجيه فى فمى .. فتمجه فى فمها دما نتنا .

وهذا النيل يســـقى الزرع والشـــجر ماء فاذا ذهبوا ليطفئـوا لهيب ظمئهم .. من بين سيقان النبات .. يصل الى شفاهم دما .

واجهد فرعون العطش .. فكان يرى الكوب فى يد زوجته – السيدة آسية – فيه الماء عذبا صافيا .. فيمد فمه ليشرب من الكوب .. وهو فى يدها .. فيجد عروق الدم .. وهى تنبع من بين صفاء الماء .. فلا يصل الا الدم .. فاضطر الى مضغ الاشجار الرطبة .. فاذا مضغها احس بعصارتها فى فمه دما ..

أرأيت اشد من هذا العذاب – سبعة ايام – لا يأكلون ولا يشربون غير الدم ؟ .

« وما ظلمناهم ولكن كانوا انفسهم يظلمون » .

* * *

يقول زيد بن أسلم : كما ورد فى كثير من كتب التفسير – كان الدم الذى سلط عليهم – الرعاف – ولكن هذا لا يتناسب مع قوله تعالى « وما نريهم من آية الا هى اكبر من اختها » لاننا نفهم من هـــذا .. أن آية الدم – وهى آخـر الآيات – أشد واكبر من الآيات السابقة .. ولن يكون الرعاف اشـــد من الضفادع فى طعامهم وشرابهم وفراشهم وعلى أجسادهم .. « فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصـــلات فاســـتكبروا وكانوا قوما مجرمين » (١٣٣ الاعراف) .

* * *

٧ مؤمن آل فرعون

انها حقا — كما راينا — آيات معجزات — ونذر مفصلات بينات .. لا يخفى على ذى عقل انها ايات من الله .. ولكنها لم تزد فرعون وهامان وجنودهما الا عنادا واصرارا على الكفر .. ولعلنا نذكر حزقيل — مؤمن آل فرعون — الذى يكتم ايمانه .. وكان خازنا لفرعون مائة عام .. عندما عارض فرعون .. لما تآمر على قتل موسى قبل يوم الزينة .. حيث قال له « أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله » ؟ ..

فلما لم يؤمن فرعون وعلية القوم بموسى .. بعد تلك الآيات الناطقة .. ووجد حزقيل أن الغشاوة الكاسية على أعينهم .. والوقر الرابض فى اذانهم .. والكن المغلف لقلوبهم .. كل هذا جعل تفكيرهم منصبا على فعل ما يرضى فرعون الطاغى .. ونسوا كل ما ذكرتهم به السماء .. من عذاب وشقاء .. وبلاء ما بعده بلاء .. كشف حزقيل عن ايمانه .. وهاجم القوم فى ناديهم ومجالسهم واحفالهم .. بمناقشة قوية مخلصة .. منطقية مقنعة .. عرضتها علينا سورة المؤمن فى عرض طويل .. استغرق صفحتين كاملتين متتاليتين من كتاب الله العزيز .. نذكر منها مشهدا .. عندما قال لقومه على مسمع من فرعون .

« يا قوم لكم الملك اليوم ظاهرين فى الارض .. فمن ينصرنا من باس الله ان جاءنا » (٢٩ المؤمن) .

ويرد عليه فرعون يذكره بانه الاله الاعظم .. والآمر الذى لا امر لغيره .. وصاحب الرأى فلا رأى لسواه .. « قال فرعون ما أريكم الا ما ارى وما اهديكم الا سبيل الرشاد » (٢٩ المؤمن) .

ومع هذا يستمر صاحبنا — المؤمن — فى انذارهم ووعيدهم « وقال الذى امن يا قوم انى اخاف عليكم مثل يوم الاحزاب . مثل داب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم وما الله يريد ظلما للعباد . وياقوم انى اخاف عليكم يوم التناد . يوم تولون مدبرين ما لكم من الله من عاصم ، ومن يضلل الله فما له من هاد » (٣٠ — ٣٣ المؤمن) .

. وبعد جولة طويلة بين المؤمن وبين فرعون وقومه .. ختم نقاشه معهم بقوله (لا جرم انما تدعوننى اليه ليس له دعوة فى الدنيا ولا فى الاخرة) يقصد بهذا فرعون « وان مردنا الى الله وان المسرفين هم اصحاب النار . فستذكرون ما اقول لكم وافوض امرى الى الله ان الله بصير بالعباد » (٤٣ — ٤٤ المؤمن) .

* * *

ويقول بعض المفسرين ان فرعون قتله .. كما قتل السيدة آسية .. لما ظهر له انهما مؤمنان برب هارون وموسى .

ولكن هذا الراى يناقض ما جاء فى الاية التالية .. بعد قوله « **وافوض امرى الى الله ان** الله بصير بالعباد . **فوقاه الله سيئات ما مكروا** وحاق بآل فرعون سوء العذاب) (**٤٥ المؤمن**).

وانما من الجائز ان يكون فرعون قد قتل زوجة حزقيل .. وقالوا انها كانت ماشطة بنت فرعون .. وكانت مؤمنة من اماء الله الصالحات.

وقد اورد النيسابورى حديثا بالاسانيد عن سعيد بن جبير عن ابن عباس .. أن رسول الله صلى الله عليه وسلم — قال :

« لما اسرى بى مررت برائحة طيبة .. فقلت لجبريل — عليه السلام — ما هذه الرائحة ؟ .. قال هذه ماشطة آل فرعون وأولادها .. كانت تمشط ذات يوم شعر بنت

فرعون .. فوقع المشط من يدها .. فقالت : باسم الله .. فقالت بنت فرعون : ابى ؟ قالت : لا .. بل ربى ورب ابيك .. فقالت : لاخبرن بذلك ابى .. فلما اخبرته .. دعابها وبولدها .. وقال لها .. من ربك ؟ فقالت : ان ربى وربك الله .. فأمر بتنور من نحاس فاحمر بالنار .. وامر بها وبولدها أن يلقوا فيه .. فقالت له : ان لى اليك حاجة .. فقال : وما هى ؟ .. قالت تجمع عظامى وعظام ولدى فتدفنها .. قال : ذلك ذلك .. لما لك علينا من الحق .. ثم امر بأولادها .. فألقوا واحد واحدا فى التنور .. والقوا بها مع صغيرها .

* * *

وكانت السيدة آسية تتعلل فى قضاء حاجتها .. فتبرز فتصلى يومها فى مئزرها خوفا من فرعون .. فعندما رأت ما فعل بامراة حزقيل .. قالت له : الويل لك يا فرعون .. ما أجراك على الله تعالى .. فقال لها : لعلك قد اعتراك من الجنون ما اعترى صاحبتك ؟ .. فقالت : ما اعترانى جنون .. ولكنى آمنت بالله ربى وربك ورب العالمين .. فأقسم ليذيقنها الموت ان لم تكفر باله موسى واحال عليها أمها .. فأبت فعذبها .

ويقول بعض المفسرين انه عذبها حتى استشهدت .. وانها قالت وهى فى العذاب « رب ابن لى عندك بيتا فى الجنة ، ونجنى من فرعون وعمله ، ونجنى من القوم الظالمين » (١١ التحريم) .

فأوحى الله اليها .. ان ارفعى راسك .. ففعلت فرأت البيت فى الجنة من الدر .. فضحكت .. فقال فرعون : انظروا الى الجنون الذى بها .. تضحك وهى فى العذاب .

وهذا الرأى لا يطابق مفهوم الاية السابقة « ونجنى من فرعون وعمله ، ونجنى من القوم الظالمين » فقد نجاها الله من فرعون . حيث القى الله فى قلبه الرهبة منها .. برغم علمه بايمانها من أيام آيات العذاب .. فلم يكن يصيبها منه شىء مثل الاسرائيليين .. وهى التى ستعمل على اخراج بدنه من البحر غريقا .. وهى التى ستأمر بتحنيطه .. كما سيأتى فى حينه ان شاء الله تعالى .

ونحن اذا نظرنا بعين البصيرة .. الى الاية الكريمة .. التى يدور حولها علم النفس القرآنى :

(اعلموا انما الحياه الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الاموال والاولاد) .

نجد أن تلك خمس مراحل .. تتمشى مع طبيعة الانسان وحالته النفسية .. من يوم نشأته الاولى .. فيمر بها مرحلة بعد مرحلة .. قبل أن يبلغ اشده .. ويصل الى درجة الكمال المقدورة له فى حياته الدنيا ..

وكل مرحلة منها تستغرق ثمان سنوات :

فالمرحلة الاولى : وهى مرحلة اللعب الى الثامنة من عمر الانسان .. ثم تليها مرحلة اللهو الى السادسة عشر .. وهناك فرق بين اللعب واللهو .. فاللعب طبيعى فى نفس الطفل .. فينزل من بطن أمه يحرك يديه ورجليه .. فهو الطبيعة الأولى من طبائع الطفولة .. أما اللهو .. فقد دخلت فيه الصناعة والتكلف .. فلو ترك الطفل بعد الثامنة من عمره .. دون أن تستغل فيه طبيعة اللهو بتوجيهها الى العلم والمعرفة والسلوك الحميد .. انحرف هو بنفسه الى لعب القمار .. وركوب القطارات .. ودخول أماكن اللهو .. واستعمال مواهبة فى السلوك السىء الضار .

ثم ينتقل الى المرحلة الثالثة : وهى مرحلة الزينة .. فهو يحب بفطرته فى هذه السن ان يكون انيقا فى ملبسه ومظهره على قدر استطاعته .. حتى يبلغ الرابعة والعشرين .

ثم تليها المرحلة الرابعة : مرحلة التفاخر والتباهى .. ببطولة أو ذكاء أو غنى أو حسب أو نسب .. وقد يتفاخر بالشر .. فاذا بلغ الثانية والثلاثين ، انتقل بفطرته الى حب التكاثر فى الاموال والاولاد ... وهنا فقط نستطيع ان نقول عن هذا الانسان انه قد بلغ أشده .. حيث لعب ولها وتزين وتفاخر وتكاثر « بلغ اشده وبلغ اربعين سنة » .

والانسان حال مروره بتلك المراحل الخمس .. يكون قابلا لتغيير الصفات والعادات والعقائد .. حيث مازال الغصن غضا طريا .. قابلا للانثناء .. اما بعدها .. فتكون الشجرة قد يبس عودها .. وجفت اغصانها .. ولا امكان لثنيها أو تغيير اتجاهها .

ان الغصون اذا قومتها اعتدلت

ولا يلين اذا قومته الخشب

* * *

ولهذا كان النص صريحا فى قوله تعالى « فما امن لموسى الا ذرية من قومه على خوف من فرعون وملئهم ان يفتنهم ، وان فرعون لعال فى الأرض وانه لمن المسرفين » (٨٣ يونس) .

ويقول بعض المفسرين ان المقصود : ذرية من قوم فرعون .. وهذا مخالف لمنطوق النص ومفهومه فالضمير يعود الى اقرب مذكور .

فلم يؤمن بموسى من قومه بنى اسرائيل ـ لا بعض الشباب .. وهم خائفون من فتنة فرعون وظلمه .. أما الشيوخ فقد ضربت عليهم الذلة والمسكنة .. تحجرت قلوبهم .. وذلت نفوسهم .. وقلت همتهم .. فلا امل فيهم .

وهذا يدل على ان الشباب دائما اقرب الى الايمان .. واحق بالاهتمام .. وذلك واضح فى الأغلب الأعم عند قيام الدعوات .

وقد ورد فى الخبر عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قوله « أتيت بدعوتى فحالفنى الشباب .. وخالفنى الشيوخ » ..

***

وهكذا راى موسى انه لا سبيل الى هداية فرعون وملئه .. وقد شتت الله شمله .. ولم يجد الى موسى سبيلا . واعتزل موسى المدينة ، ولحق بقومه فى عسكرهم . وأوحى الله ـ سبحانه ـ الى موسى واخيه .. ان يتخذا لقومهما اماكن خاصة لاستماع العظات .. واقام الصلوات .. ومباشرة العبادات .. يلتقى معهم بها كل ليلة .. فيحدثهم عن دين آبائهم : ابراهيم واسحاق ويعقوب .. « وأوحينا الى موسى واخيه ، ان تبوآ لقومكما بمصر بيوتا ، واجعلوا بيوتكم قبلة ، واقيموا الصلاة وبشر المؤمنين » (٨٧ يونس) .

وكانت قبلتهم الكعبة .. التى بناها جدهم ابراهيم ـ عليه السلام ـ واذن فى الناس .. بانها بيت الله وحرمه .. وكانت صلاة موسى ـ عليه السلام ـ الى الكعبة (١) ..

***

« ربنا انك اتيت فرعون وملاه زينة واموالا فى الحياة الدنيا ، ربنا ليضلوا عن سبيلك ، ربنا اطمس على اموالهم ، واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الاليم » (٨٨ يونس) .

هكذا كان موسى يدعو .. وهارون يؤمن على دعائه .. واستجاب الله لهما .. « قال قد اجيبت دعوتكما فاستقيما ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون » (٨٩ يونس) .

والتأمين بعد الدعاء مما خص به نبينا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وموسى وهارون ـ عليهما السلام ـ فقد روى انس ابن مالك .. قال .. قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « ان الله قد اعطى امتى ثلاثا لم تعط احدا قبلهم : السلام .. وهى تحية أهل الجنة .. وصفوف الملائكة .. وآمين الا ما كان من موسى وهارون » ذكره الترمذى الحكيم فى « نوادر الأصول » (٢) .

***

وكان تحت يد فرعون من زخارف الدنيا وزينتها وزهرتها من الذهب والفضة واليواقيت وانواع الحلي والجواهر .. ما لا يحصيه الا الله تعالى .. وكان أصله مما جمعه يوسف ـ عليه السلام ـ فى ايام القحط .. حسب ما ذكرنا فى نبأ يوسف ـ أحسن القصص .

وعن ابن عباس : كانت لهم من فسطاط مصر الى ارض الحبشة .. جبال فيها معادن من ذهب وفضة .. وزبرجد وياقوت .

وقالوا : بلغنا ان الدنانير والدراهم صارت حجارة منقوشة كهيئتها .. صحاحا وانصافا وارباعا .. وقد يكون الطمس على الاموال معنويا .. بعدم نفعها .. وقلة بركتها ..

بقى موسى فى مصر ثلاثين عاما بعد يوم الزينة .. كانت كلها آيات .

***

(١) القرطبى وغيره ـ ٨٧ يونس .

(٢) القرطبى وغيره ـ ٨٧ يونس .

الفصل الخامس

○ الخروج

(وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التى باركنا فيها)

صدق الله العظيم

(١٣٧ – الأعراف)

ا العبور

كانوا ستمائة الف او يزيدون .. خرجوا مع سى أول الليل .. بعد أن أوحى الله اليه لك .. واعدوا لهذا الخروج فى كتمان سديد ..

« فاسر بعبادى ليلا انكم متبعون » (٢٣ الدخان) – وفى سورة الشعراء « وأوحينا الى موسى أن أسرِ بعبادى انكم متبعون » (٥٢ الشعراء) ..

وروى الكشاف أن الله – سبحانه وتعالى – قال له إخبزوا خبزا فطيرا .. فانه اسرع لكم .. ثم أسرِ بعبادى حتى تنتهى الى البحر فيأتيك أمرى .

وشاء الله ان يكون فى كل اسرة من اسر المصريين فى تلك الليله مأتما .. فانشغلوا بموتاهم .. حتى خرج موسى بقومه متجهين الى خليج السويس .. تنفيذا لتوجيهات الله التى اوحاها الى موسى – عليه السلام ..

وكانت نساء بنى اسرائيل قد جمعن الحلى والجواهر من المصريات .. بطريق الاستعاره والحيلة والخديعة .. قبل يوم الرحيل بقليل.. تدبير محكم وتكتم شديد . وجاء فى التوراة

٢ – تكلم فى مسامع الشعب ان يطلب كل رجل من صاحبه وكل امراه من صاحبتها امتعه فضة وامتعة ذهب (١) .

* * *

ويصل الخبر الى فرعون .. فيطلبهم فى جحافل من الجيوش المصرية .. تحت قيادته

---

(١) سفر الخروج – ١ صحاح (١١) .

شخصيا .. وقد جن جنونه .. وثارت ثائرته.. وحان حينه .

وفى سرعة عجيبة .. تجمع له الف الف وخمسمائة الف من الجيوش المجهزة المعدة فى مدائن مصر كلها « فأرسل فرعون فى المدائن حاشرين ، ان هؤلاء لشرذمة قليلون ، وانهم لنا لغائظون .. وانا لجميع حاذرون » (٥٣ - ٥٦ الشعراء) .

ولعل كلمة حاذرون « توحى بالتأهب والاستعداد السابقين » .

وكان مع فرعون أكثر من مائة الف جواد .. ولهذا قال عن بنى اسرائيل .. انهم « شرذمة قليلون مع انهم كانوا أكثر من ستمائة الف » .

وقد وجد علماء الآثار هذا مكتوبا على حجر من الجرانيت القاتم .. كتب عنه الأستاذ عبد الوهاب النجار :

وعثر عليه العلامة « فلندرس بترى » مكتوب فى وجه منه عن منفتاح بن رعمسيس الثانى - وهو فرعون موسى - من الأسرة التاسعة عشر .. وجاء من ضمنها عبارة تشير الى بنى اسرائيل . ونصها الحرفى « لقد سحق بنى اسرائيل ولم يبق لهم بذر » .

* * *

ومن الواضح ان منفتاح - فرعون موسى - لم يعلم بهذا التاريخ على هذا الحجر الذى وجدوه بطيبة الاقصر .. وانما الذى كتبه هم الكهنة الذين بقوا بمصر بعد هلاك فرعون وجيوشه .. لايهام المصريين بأن فرعون انتصر على اله موسى .. واباد الاسرائيليين .. وانه فى رحلة بجيشه فى نشوة الانتصار.. بقصد التمويه على الشعب المغلوب .. وليخفوا عنه خذلانهم وهلاك الههم .. وليبق الشعب على ولائه لهم ولكهانتهم .

* * *

وسار موسى - عليه السلام - بقومه من اول الليل .. تخفضهم الوهاد .. وترفعهم النجاد يجدون السير .. ويسرعون الخطى .. حتى بدأ النهار يطرد الليل .. وظهر الخيط الأبيض من الفجر .. **وقد لاح أمامهم ساحل البحر** .. ومع صخب الأمواج انتهى الى سمعهم اصوات سنابك الخيل تطلبهم .. يعلوها صرخات فرعون يحث الجيش على اللحاق ببنى اسرائيل .. وابادتهم عن اخرهم .. لترتاح مصر من شرهم الى الابد .

واصبح الجمعان - مع شروق الشمس - على مراى البصر ...

وبلغ موسى ساحل البحر .. وبين يديه حزقيل - مؤمن آل فرعون - ويوشع بن نون سبط يوسف عليه السلام - فالتفتا اليه .. وقالا : اين امرت يا كليم الله ؟ وهذا البحر امامك .. وقد غشيك فرعون وجنوده ؟ .. قال : أمرت بالبحر .. وهو لا يدرى ماذا يصنع .

* * *

وازداد الرعب ببنى اسرائيل.. وهم احرص الناس على الحياة .. فقالوا : لقد هلكنا ياموسى ها هو الطاغى بجنده خلفنا .. وهذا البحر امامنا .. فأين المفر ؟ « فلما تراءى الجمعان قال أصحاب موسى انا لمدركون » (٦١ الشعراء) .

ولكن موسى واثق من ربه .. مطمئن الى معيته .. فقال « كلا ان معى ربى سيهدين » (٦٢ الشعراء) .

وتكون العناية الالهية اقرب اليه من طلب الهداية من ربه « فأوحينا الى موسى ان اضرب بعصاك البحر » (٦٣ الشعراء) .

* * *

وضرب موسى البحر بعصاه .. فى المكان المواجه لعيون موسى .. فى الشاطىء الشرقى لخليج السويس .. وقد كان الخليج يمتد الى البحيرات المرة .. وقال وهو يضرب البحر .. داعيا ربه : يامن كنت قبل كل شىء .. والمكون لكل شىء .. والكائن بعد كل شىء .. اجعل لنا فرجا ومخرجا .

وراوا عجبا .. راوا فى البحر طريقا ممتدا .. اتساعه اربعون مترا .. وقد تجمد الماء على جانبيه .. بارتفاع يعادل سعة الطريق .. فكانا جبلين عظيمين من الثلج يحيطان به « فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم » (٦٣ الشعراء) اى كل جانب صار جبلا ضخما عظيما . وانساب موسى مع قومه على هذا الدرب العجيب .

ووصل فرعون ومعه مشيره هامان الى شاطىء البحر .. وخلفهما الوزراء والقواد والعساكر والدساكر ومازال فى نفس فرعون عزة التاله .. ورداء الكبر .. فقال لقد هابنى البحر فانشق لى .. لادرك هؤلاء المارقين عن طاعتى .. الخارجين على العبودية لى .. ثم ضرب حصانة الذى يجر عجلته الحربية .. لينزل فى البحر امام جنوده .. فينطلقوا خلفه لابادة الاسرائيليين .. ولكن الحصان جمح وتراجع .. وكانه يرى الموت رابضا له على راس هذا الطريق .. فحاول فرعون دفعه الى النزول .. فلم يزدد الا آباء وجموحا .. على غير عادته فى المعارك السابقة .. واصر الجواد على التقهقر .. ولكن «سنستدرجهم من حيث لا يعلمون » .

هبط جبريل ـ عليه السلام ـ راكبا فرسا انثى مشتهية لفحلها (١) .. وعليه عمامة سوداء .. فتقدمهم وخاض البحر .. وظنوه فارسا منهم .. فلما شم الحصان ريحها .. اقتحم بفرعون البحر فى أثرها .. ونزلت خلفه تلك الآلاف المؤلفة من جند مصر وقادتهم وامرائهم ويروى صاحب الكشاف ، عن عطاء بن السائب :

ان جبريل ـ عليه السلام كان بين بنى اسرائيل .. وبين فرعون .. فكان يقول لبنى اسرائيل ليلحق آخركم باولكم .. ويستقبل القبط فيقول رويدكم .. حتى يلحق بكم آخركم .

□ □ □

---

(١) القرطبى وغيره ٩٠/ يونس .

٢ الغـــــرق

فى الوقت الذى خرجت فيـه مؤخـرة بنى اسرائيل من البحر .. نزلت مقـدمة جيش فرعون اليه .. يقودهم جبريل بفرسـه .. وخلفه عجلة فرعون الحربيـة .. وأراد موسى أن يضرب بعصـاه ثانيـة ليغلق الطـريق .. ولكن جبريل - عليه السـلام - طلب منه أن يتركه مفتوحا ليقتحمه أعداء الله فقد كتب عليهم الغرق والهلاك جميعا . « واترك البحر رهوا أنهم جند مغرقون » (٢٤ الدخان) .

والرهـو معناها : الساكن الهادىء .. وفى هذا يقـول الأعشى :

يمشـين رهوا فلا الأعجاز خاذلة
ولا الصـدور على الأعجاز تتكل

اى اترك البحر ساكنا هادئا على حاله .. حتى يضم جيش الشيطان بمن فيه وما فيه .. ويكون الهلاك عاما شاملا .. لايذر فيهم طاغية .. ولا يبقى منهم باقية .

ووقف موسى وقومه ينظرون .. واذا بجبال الثلج تنهار .. فتنحط تلك الكتـل الضـخمة من عل لتدفن هؤلاء تحتها فى قاع البحر بخيولهم ومركباتهم .. وعـددهم وآلاتهم الحربيـة « واغرقنا آل فرعـون وأنتم تنتظـرون » (٥٠ البقـرة) .

* * *

وانفرد جبريل - عليه السلام بفرعون بين تلك الجبال المتلاطمة .. وهذه الصخور المتصارعة وعرض عليه ورقة كتبها بخطه .. ووقـع عليها بيده .. وقد ورد ذكر هذه الورقة فى كثير من كتب التفسير .. وانقل لك نصها من تفسـير مدارك التنزيل وحقائق التأويل للامام عبد الله النسفى :

روى أن جبريل أتاه بفتيا - يقصد فرعون - : ما قول الأمير فى عبد رجل نشأ فى ماله ونعمته فكفر نعمته وجحد حقـه .. وادعى السـيادة دونه ؟ (١) ..

فكتب فيه يقـول :

يقول أبو العباس الوليـد بن مصعب (٢) :

جـزاء العبد الخارج على سـيده .. الكافر نعمائه .. أن يغرق فى البحر .. فلما ألجمـه الغرق .. ناوله جبريل - عليه السلام - خطه فعرفه .. « حتى اذا أدركه الغرق قال آمنت أنه لا اله الا الذى آمنت به بنو اسرائيـل وأنا من المسلمين » (٩٠ يونس) .

لقد خيل له أنه يستطيع أن يخدع موسى وربه .. كما كان يخدعهم من قبـل .. عنـد نزول آيات العذاب السابقـة .. فجعل جبريل يدس فى فمه من حمأ البحر .. مخافة أن ينطق كلمة التوحيد .. وقال له « الآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين » (٩١ يونس) .

وفى الحديث أن جبريل - عليه السـلام - قال لرسـول الله - صلى الله عليه وسـلم -

« ما أبغضت أحـدا من الخلق .. ما أبغضت رجلين : اما أحدهما فمن الجن .. وهو ابليس

---

(١) القرطبى وغيره ٩٠/يونس .

(٢) ذكرنا أن هذا اسم فرعون وكنيته .

لعنه الله ـ حين ابى ان يسجد لآدم وقال: « انا خير منه »والآخر من الانس .. وهو فرعون ، حين قال « انا ربكم الاعلى» .. ولو رأيتني يامحمد .. وأنا آخذ من حمأ البحر .. وأدسه فى فيه مخافة ان يقول كلمة التوحيد .. فيرحمه الله بها (١) ..

والملاحظ أن فرعون لم يقل ـ فى ايمانه عند الغرق ـ كلمة التوحيد « وهى لا اله الا الله » وانما قال « لا اله الا الذى آمنت به بنو اسرائيل» ولو قالها .. لرحمه الله بها .

وقد قرأت رأيا لجلال الدوانى .. يقول : ان فرعون ناج لأنه آمن قبل موته .. وهذا الرأى يناقض قول الله تبارك وتعالى « وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى اذا حضر أحدهم الموت قال انى تبت الآن » .

وقوله ايضا « يوم يأتى بعض آيات ربك .. لا ينفع نفسا ايمانها لم تكن آمنت من قبل او كسبت فى ايمانها خيرا » وفرعون لم يكسب فى ايمانه خيرا .. بفرض أنه آمن قبل موته .

ثم قال جبريل لفرعون « فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية » (٩٢ يونس) .

فلم يخرج من جثثهم غير جثته .. أما باقى الجثث فقد دفنتها الثلوج . فى أعماق البحر .

* * *

ورات السيدة آسية ـ امراة فرعون ـ فى منامهـا .. المكان الذى لفظ فيه البحر جثة منفتاح زوجها .. فأرسلت من ينتشلها .. ثم استدعت الحانوطية ـ وهم الذين يقومون بتحنيط أجساد الموتى .. ولعل اسم «الحانوتى» الذى مازال ساريا فى مصر الى الآن .. اسم موروث من أيام الفراعنة . فأمرتهم بتحنيط جثة منفتاح ـ وقامت بدفنه .. ومازال هـذا البدن آية لنا فى دار الآثار المصرية .. « وان كثيرا من الناس عن آياتنا لغافلون » تكملة آية (٩٢ يونس) .

وقد جمع علماء الآثار جثة منفتاح مع غيرها فى قبر امنحتب الثانى بالأقصر .. وظهر من آثار قبر منفتاح .. انه لم يكن مهيئا كما يجب لدفن ملك مثله فى عظمته ومجده .. لأن موته لم يكن منتظرا .. فلم يهيأ له قبر خاص وجاء فى موسوعة تاريخ العالم « التى أصدرها وليم لانجر .. نشر مؤسسة فرانكلين .. فى الأسرة التاسعة عشرة .. أن رمسيس الثانى حكم من عام ١٩٥٢ ق . م ـ وان منفتـاح حكـم من ١٢٢٥ ـ ١٢١٥ ق.م (٢) .. فيكون مدة حكم منفتاح عشر سنين فقط .. ومعنى هذا أن رمسيس الثانى هو الذى ربى موسى .. وان منفتاح وهو صغير قد عاصر موسى وهو يربى فى بيت أبيه .. ويكون ايضا منفتاح هو الذى أراه الله ـ سبحانه ـ الآيات ليهتدى فلم يهتد .. فأدركه الغرق .

* * *

ويقول سعيد بن جبير : أرسل معاوية الى ابن عباس .. يسأله عن مكان لم تطلع فيـه الشمس الا مرة واحدة .. فأرسل اليه : انه المكان الذى انفلق عنه البحر لبنى اسرائيل .

* * *

وجاء فى الاصحاح الخامس عشر من سفر الخروج :

فرح بنو اسرائيل .. وأعلنوا فرحهم .. مترنمين بتسبيح الله ـ تعالى وأخذت مريم أخت هارون الدف .. وخرج جميع النساء وراءها يدففن ويرقصن لنجاتهم .. وهلاك عدوهم .

* * *

ولقد كان العبور يوم عاشوراء .. فصاموه شكرا لله .

□ □ □

---

(١) نلاحظ ان كلا من ابليس وفرعون قال « انا » فابليس قال انا خير منه وفرعون قال « انا ربكم الاعلى » ولا يجوز لمخلوق ان يقول انا فى موقف التفضيل وقد ورد هذا الحديث فى القرطبى وغيره ٩٠/يونس .

(٢) موسوعة تاريخ العالم ـ الجزء الاول ص ٥٠ .

٣ الوريثة المستضعفون

سبحانك ربنا .. تؤتى الملك من تشاء .. وتنزعه ممن تشاء .. تعز وتذل وتغنى وتفقر .. وترفع وتخفض .. لا معقب لحكمك .. ولا راد لأمرك .. ولا سلطان لمخلوق فى ملكك وملكوتك ولا قوة لطاغ أو ظالم امام عظمتك وجبروتك .. شاءت ارادتك وعدلك .. أن تسبق رحمتك غضبك .. وحلمك سخطك .. فكم أرسلت الى فرعون وآله آيات مفصلات .. ونذرا بينات .. علهم يتفكرون أو يعقلون .. ويتذكرون ولاينسون فلما انتهت الوســـائل وذابت جميع العوامل اخذتهم أخذ عزيز مقتدر .. جبار منتقم .. وحقا : « ان الله ليملى للظالم .. حتى اذا اخذه لم يفلته » ..

فاخرجتهم من قصور عالية .. وعمـارات فارهة .. وحدائق وجنات .. وبساتين زاهرات وانهار جارية .. وأموال زاخرة ..

« كم تركوا من جنـات وعيون .. وزروع ومقام كريم .. ونعمة كانوا فيها فاكهين» (٢٥ ـ ٢٧ الدخان) .

❊ ❊ ❊

وكلمة نعمة بفتح النون .. تلفت نظر القارىء الحصيف .. حيث لم يسمها الله ــ سبحانه وتعالى ــ نعمة بكسر النون .. حسب المنطق المألوف .. وقد اتى هذا اللفظ بفتح النون ايضا فى قوله تعالى : « ذرنى والكذبين أولى النعمة ومهلهم قليلا » (١١ المزمل) .

ولعلنا نلمس المقصود فى المقامين .. فكل متاع الدنيا المادى .. لا يسميه الله نعمة .. وانمـا النعمــة بفتح النون لا بكسرها .. فهو مشتق من الأنعام والنعم .. وأما النعيم غير المــادى .. فيقول الله ــ سبحانه ــ عنه « وأن تعدوا نعمة الله لا تحصوها » .

❊ ❊ ❊

« وأورثنا القوم الذين كانوا يســتضعفون مشارق الأرض ومغاربها التى باركنا فيها .. وتمت كلمة ربك الحسنى على بنى اسرائيل بما صبروا ودمرنا ما كان يصــنع فرعون وقومه ، وما كانوا يعرشون » (١٣٧ الاعراف) .

قيل ان موسى بعد غرق فرعون وقومه .. ونجاته بمن معه أرسل جيشين كبيرين .. بكل منهما اثنا عشر الفا .. بقيادة يوشع بن نون ــ وهو فتى موسى ــ فدخل مدائن فرعون .. وغنم منها الكثير من الخيرات التى لا تحصى .. والأموال التى لا تستقصى .. ثم استخلف على مصر رجلا منها .. وعاد بجيوشه ثانية الى موسى ــ عليه السلام ــ فى سيناء .. غانمين شـاكرين .

لقد حقق الله وعده الذى قرر فيه « ونريد ان نمن على الذين استضعفوا فى الأرض » فورث هؤلاء المستضعفون الأرض التى بارك الله فيها بالخصب والنماء .. وكثرة الأشجار والانهار .. والحب والثمار .. فدانت لهم مصر والشـام بعد العمالقة والفراعنـة .. جزاء صبرهم على البلاء .. ورضائهم بالقضاء .. ومن قابل البلاء بالجزع .. وكله الله اليه .. ومن قابله بالصبر .. أثبت له سـبحانه ــ ان الفرج حق مكفول عليـــه .

ودكت العمارات الفارهة .. والمصـــانع الشامخة .. والعرائش المتراصة من الجنـات والبسـاتين ذات الازهار والرياحين .. « كذلك وأورثناها قوما آخرين » (٢٨ الدخان) .

ليسوا منهم فى شىء من قرابة ولا دين ولا ولاء .. كانوا مسخرين مستعبدين فى أيديهم.. فكان هلاكهم ايضا على ايديهم .. وورثوا ملكهم وديارهم .. « فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين » (٢٩ الدخان) .

ولعل المقصـــود ببكاء الســـماء والأرض .. ماروى فى الحديث :

« ما من مؤمن مات فى غربة .. غابت فيهـا بواكيه .. الا بكت عليه السماء والأرض » وقد ورد هذا فى قول جرير ايضا :

تبكي عليك نجوم الليل والقمر .. مبالغة فى وجوب البكاء على العزيز المفقود .

فنفى البكاء عليهم تهكما بهم .. وســخرية منهم .

وقد روى ابن عباس ـ رضى الله عنه ـ ان المؤمن عند موته .. تبكي عليه مصلاه .. وآثاره فى الأرض .. ومصاعد عمله . ومهابط رزقه .
لم يحزن على فقــدهم أهل الســماوات .. وهم الملائكة .. ولا أهل الأرض وهم المؤمنون .. فمن يبكيهم ؟ .

لقد كان هلاكهم عيدا .. فرح فيه المؤمنون بنصر الله .. وفرح فيه الملائكة بالقضـــاء على أعداء الله .. وفرح فيه الشيطان باكتساب ائمة يدعون الى النار..« وجعلناهم أئمة يدعون الى النار ، ويوم القيامة لا ينصرون » (٤١ القصص).

وطويت صفحة من صفحات الظلم فى تاريخ البشرية .. وللظلم فى سفر الحياة صفحات وصفحات . فكم روى التاريخ عن رجال من الانس .. نفخ الشـيطان فى رءوسـهم نفثات الكبر والطاغوت .. فخيل اليهم انهم خلقـوا ليامروا .. ويامرون ليسمعوا .. ويسمعون ليطاعوا .. حتى اذا دانت لهم الدنيـا .. وخضعت امامهم رقاب العبـاد .. يقطفون منها ما يشاءون .. سواء كان فجا او جنيا .. فلا هم لهم الا ازالة العقبات التى تحول بينهم وبين ما يشتهون ..

وزين لهم الشيطان سوء ما كانوا يعملون .. واذا بتلك الصفحة القائمة الســوداء .. تطوى بما فيها فجأة .. ثم تضمها أضابير السـنين بين دفتيهـــا « ان فى ذلك لآية وما كان اكثــرهم مؤمنين » (٦٧ الشـعراء) « **وأتبعناهم فى هذه الدنيا لعنة .. ويوم القيامة هم من المقبوحين » (٤٢ القصص) .**

□□□

٤ الإبتلاء بالنعم بعد النقم

جاء يهودى الى على بن أبى طالب ـ رضى الله عنه وكرم وجهه ـ فقال له : يا أبا الحسن ما صبرتم بعد نبيكم خمسا وعشرين سنة .. حتى قتل بعضكم بعضا ..

فقال : بلى قد كان صبر وخير ولكنكم ما جفت اقدامكم من حمأ البحر .. حتى قلتم ياموسى اجعل لنا الها كما لهم آلهة .

وذلك انهم بعد نجاتهم من فرعون وغرقه .. مروا فى طريقهم بقوم من العمالقة القطعوا وتفرغوا لعبادة تماثيل للبقر .. فطلبوا من موسى ان يصنع لهم الها يعبدونه .. كما يعبد هؤلاء..

وهذا كما قال بعض جهال الأعراب .. وقد راوا شجرة خضراء للكفار تسمى ذات انواط(١)، يعظمونها فى كل سنة يوما : يا رسول الله .. أجعل لنا ذات انواط .. كما لهم ذات انواط .. (١) فقال عليه الصلاة والسلام « الله اكبر قلتم ـ والذى نفسى بيده ـ كما قال قوم موسى .. اجعل لنا الها كما لهم آلهة .. قال انكم قوم تجهلون .. لتركبن سنن من قبلكم .. حذو القذة بالقذة (٢) حتى انهم لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه » .. وكان هذا فى مخرجه الى حنين (٣) ..

طلبوا من موسى أن يجعل لهم الها .. جحود فوق التصور .. وكفر لا يحده فكر .. ولا يحصره خيال .. فما زالت الأحداث قريبة .. والآيات واضحة .. والادلة بينة .. ولم تجف أقدامهم بعد من حمأ البحر .. كما قال على ـ رضى الله عنه ـ لليهودى .

ويظهر هذا فى التعبير القرآنى « وجاوزنا ببنى اسرائيل البحر .. فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم .. قالوا يا موسى اجعل لنا الها كما لهم آلهة ، قال انكم قوم تجهلون » (١٣٨ الأعراف) .

فالتعبير بالفاء قبل أتوا .. والفاء كما اعلم للترتيب مع التعقيب .. يدل على أنهم طلبوا هذا من موسى عقب خروجهم من البحر مباشرة.

قوم عميت قلوبهم .. وعميت أبصارهم .. وتحجرت قلوبهم ... وصدئت أرواحهم .. فلم تؤثر فيهم عظة .. ولم تنبه نفوسهم عبرة .

رأوا بأعينهم كيف نجوا بمعجزة لا تخطر ببال .. وشهدوا آية هى أشبه بالمحال .. فمشوا فى اليم فى طريق يبس لا يخافون فيه دركا .. ولا يخشون غرقا .. ثم بعد هذا يطلبون من موسى الها يعبدونه .. وصنما يقدسونه ؟ ان دل هذا على شىء فانما يدل على أنهم لم يكونوا قد آمنوا بدين موسى ـ عليه السلام ـ وانما رضوه زعيما لهم وقائدا لركبهم فقط .. فلم يخالط الايمان بشاشة قلوبهم .. ولم يسكن اليقين أعماق ضمائرهم .. ويظهر هنا بلادة طبعهم وسوء تفكيرهم .. والله أدرى بقسوة قلوبهم .. واعلم بجحود سليقتهم .. فما كان هلاك فرعون تكريما لهم .. بل كانوا خليقين بما أصابهم به فرعون .. من عذاب وتنكيل .. وتسخير وتقتيل .. فهم أهل فتنة فى اى مكان يحلون .. ورسل شر فى كل بلد ينزلون .. ولم يكن ما أصابهم على يد فرعون .. الا جزاء لهم على سوء فعالهم .

---

(١) ينوطون بها اسلحتهم .. اى يعلقونها .

(٢) القذة : ريش السهم .. قال ابن الاثير : يضرب مثلا للشيئين يستويان ولا يتفاوتان .

(٣) من القرطبى ١٣٨/الاعراف .

والتاريخ ملىء بمثل هــذا التنكيل بهم .. من ايام جالوت وبختنصر واباطرة الرومان فى العصر القــديم .. وما عانوه من المذابح التى اكلت رجالهم ونســاءهم فى روسيا واســبانيا والمانيا فى العصر الحديث .

فهم خلف كل فتنة .. ووراء كل محنــة انسانية فى كل عصر ودهر .. وانمــا كان هلاك فرعون .. بسبب ما آل اليه امره كفرا وعنادا بقوله : « يا أيها الملأ ما علمت لكم من اله غيرى ».

ولهذا كان رد موسى عليهم .. لما طلبوا منه الها يعبدونه .. وصنما يقدسونه :

« قال اغير الله ابغيكم الها وهو فضلكم على العالمين . واذ انجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يقتلون ابناءكم ويستحيون نساءكم ، وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيــم » (١٤٠ ــ ١٤١ الاعراف) يذكرهم موسى بأن الله فضــلهم على العالمين فى زمنهم .. ويذكرهم بأن الله اختارهم لاظهار آياته . وابراز معجزاته .. لينجيهم من سوم العــذاب .. وقتل الأبنــاء .. واستحياء النساء .. ويذكرهم بأن ابتــلاءهم بالنقم كان عظيما . ولكن انى لهم الذكرى ؟ .

فما كان صبرهم على هذا الأبتلاء عن رضا وتسليم لله .. وانما كان صبر الضعيف المستكين المغلوب على امره .. دون أن يتأثر بذلك وجدانه .. أو تنفعل خواطره .. أو يصحو ايمانه .

***

ويزدهر امامنــا نجم قرآنى .. تســطع اشعاعاته .. وتتلألأ انواره .. فيملأ الأفق سنا وبريقا .. ليزيد المؤمن ايمانا وتصديقا ..

« فلولا اذ جاءهم بأســـنا تضرعوا ، ولكن قست قلوبهم وزين لهم الشيطان ماكانوا يعملون. فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شىء ، حتى اذا فرحوا بما اوتوا أخذناهم بغتــه فاذا هم مبلسون » (٤٣ ــ ٤٤ الانعام) .

وكما يكون الابتــلاء بالنقم وكثرة الآلام .. يكون بالنعم وتحقيق الآمال .. ففتــح الله لهم أبواب كل شىء .. ليفرحــوا بمـــا أوتوا .. وليقولوا نحن شعب الله المختار .. حتى يأخذهم بغتة .. فاذا هم مبلسون » .. والابلاس هــو اليأس المطلق من رحمــة الله .. ومنــه سمى عزازيل أبليسا .

وبخهم موسى وانبهم قبل ان يذكرهم بآلاء الله التى كفروها .. ونعمه التى جحدوها ..

فقال لهم « انكم قوم تجهلون .. ان هؤلاء متبر ما هم فيه ، وباطل ما كانوا يعملون » (١٣٨ ــ ١٣٩ الاعراف) **.. ان تلك الآلهة التى تتمنونها** .. ما هى الا مادة زائلة .. وعقيدة باطلة .. وقد رأيتم بأعينكم كيف دمرنا هذا الملك العريض .. واهلكنا ذلك الطاغى العنيد .

وانطلقوا مع موسى ــ عليه السلام ــ فى ذلة ومسكنة « وضربت عليهم الذلة والمسكنة ، وباءوا بغضب من الله » (٦١ البقرة) .. قاصدين جهة الشرق .. حيث ادركتهم القيلولة فى صــحراء جرداء .. لاظل فيها ولا ماء .. وأدركهم العطش .. فاستغاثوا بموسى .. فضرب بعصاه الحجر الناتىء فى الجبل .. فتفجرت جوانبه بماء عذب زلال.. جرى من اثنتى عشرة عينا. ليكون لكل قبيلة عين منها .. لأنهم أحفــاد الأســباط ــ يوسف واخوته ــ وقد سماهم الله ــ سبحانه ــ الأســباط لأن كل واحد منهم رأس لقبيلة من قبائل بنى اسرائيل .

وشربوا واستمتعوا « وقطعناهم اثنتى عشرة اسباطا أمما ، وأوحينــا الى موسى اذ استسقاه قومه أن اضرب بعصاك الحجر فانبجست منــه اثنتا عشرة عينــا قد علم كل أناس مشربهم » (١٦٠ الاعراف) .

بنفس العصا التى ضرب بها البحر فجمد.. وصــار جبلين عظيمين .. ضرب بها الجبل فســال وصــار ماء ســلسبيلا ..

فسبحان الله القادر العليم .. البر الرحيم.

***

ثم شكوا اليه شمس البيداء ولهيبها .. وقيظ الصحراء وجحيمها .. فاشار بعصاه نحو السماء واذا بسحابة لينة رخية .. تحول بينهم وبين اشــعة الشمس اللاذعة .. فتهدهد من حدتها وترطب الرمال تحت اقدامهم فتخفف من حرارتها .. واحسوا بالجوع ، فسألوا موسى .. وســأل موسى ربه .. فأرسل اليهم افواجا أفواجا من طائر السلوى ــ وهو الســـمانى ــ فيمسك الواحد منهم ما يشاء ثم يذبحه طعاما طيبا .. وتخرج لهم الأشجار الجبلية المحيطــة بهم اقراصا من المن كأقراص العسل .

□□□

٥ الميقـــات

بعد ان استقر بهم المقام .. وهدأت الأمور .. طلب موسى من اخيه هارون .. ان يخلفه فى القوم ثلاثين ليلة .. وعده الله – سبحانه – بها ليتلقى فيهــا الواح التوراة .. التى تكون لهم عهدا وميثاقا .. يبين الله لهم فيها ما يأمرهم به من محــامد ومنــاقب .. وما ينهــاهم عنه من نقائص ومثالب .

« وواعدنا موسى ثلاثين ليلــة ، واتممناها بعشر فتم ميقات ربه اربعين ليلة : وقال موسى لأخيه هارون اخلفنى فى قومى وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين » (١٤٢ الأعراف) .

وفى صحيح مسلم عن سعد بن أبى وقاص.. قال سمعت رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يقول لعلى حين خلفه فى بعض مغازيه « اما ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى .. الا انه لا نبى بعدى » .

ويقول المفسرون عن ســبب زيادة الثلاثين ليلة – الى أربعين .. ان موسى صــام شــهر ذى القعدة وهو المدة التى واعده الله بها .. ولكنه انكر خلوف فمه بعدها بالسواك .. فأوحى الله اليه : ياموسى لا أكلمك حتى يعود فوك الى ما كان عليه قبل .. أما علمت أن خلوف فم الصائم اطيب عندى من ريح المسك (١) .. وأمره أن يزيد عليها .. صوم عشرة أيام من ذى الحجة .. كما يحتمل المعنى .. أن الله تعالى – كلفه اختيار سبعين رجلا من اخلص القوم..وأشدهم ايمانا وقدرة على مرافقته فوق الجبل .. لتلقى الالواح وحدد له من اجل ذلك مدة ثلاثين يوما.. ولكن المدة انقضت دون أن ينتقى منهم العــدد المطلوب فاتمها الله سبحانه – بعشر ليال اخرى.

***

وقد ذكر الكشاف انه اختار من اثنى عشر سبطا .. من كل سبط ســتة .. حتى تتاموا اثنين وسبعين فقال : ليتخلف منكم رجلان .. فتشاحوا .. فقال : لمن قعد اجر من خرج .. فقعد كالب ويوشع وكان جميعهم بين العشرين والأربعين .. فقد ذهب عنهم الجهل والصبا .. فأمرهم موسى أن يصوموا ويتطهروا .. ويطهروا ثيابهم .. ثم خرج بهم الى طور سيناء لميقات ربه .

وعند ما قرب من الجبل .. اسرع الخطى لهفة الى لقاء مولاه .. والطريق دائما عند سعى الحبيب الى الحبيب طويل .. والزمن فى مثل هذا الحال بطىء ثقيل .. فسبق القوم متعجلا لحظة اللقاء .. فقال الله تعالى له : –

« وما اعجلك عن قومك ياموسى .. قال هم اولاء على اثرى وعجلت اليك رب لترضى » (٨٣ ٨٤ طه) .

وروى انهم عندما صعدوا الجبل .. اهتز بهم .. ورجف من تحتهم .. فقــال موسى : يارب .. لم تلك الرجفة ؟ .. هؤلاء هم صفوة القوم .. أكثرهم ايمانا وأقواهم يقينا .. فقال الله له : « ياموسى ان بين قومك نماما » فأخذ موسى العجب والدهشـــة .. وقال : من هو يارب ؟ .. فقال الله له : هل أنهى عن النميمة وأنم يا موسى ؟

« واختار موسى قومه سبعين رجلا لميقاتنا .. فلما اخذتهم الرجفة .. قال رب لو شئت اهلكتهم من قبل واياى ، اتهلكنا بما فعل السفهاء منا ان هى الا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدى من تشاء ، انت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وانت خير الغافرين » (١٥٥ الأعراف) .

---

(١) القرطبى ١٤٢/الاعراف .

ثم وقع على الجبل عمود الغمام حتى تغشاه كله .. ودنا موسى منه ودخل فيه ، وقال للقوم ادنوا .. فدنوا حتى اذا دخلوا فى الغمام وقعوا سجدا ..

فلما كشف الغمام أقبلوا الى موسى .. فطلبوا منه رؤية الله — جل شأنه فقال « رب ارنى انظر اليك » .

وللمفسرين فى هذا المقام مناقشات واسعة .. وآراء مختلفة .. صال فيها وجال كل من اهل السنة والمعتزلة .. فى هل تجوز رؤية الله أم لا تجوز ؟ ولا يهمنا فى هذا الأمر الا ما اتفق عليه الجميع من انه لا تجوز رؤيته — سبحانه جل شأنه — بالعين المحسوسة .

واذا كان موسى — عليه السلام — قال «رب ارنى أنظر اليك» فالنظر غيرالبصر فمثلا «وتراهم ينظرون اليك وهم لايبصرون » فقرر لهم النظر ونفى عنهم البصر .. كما أن نفس المعنى فى قوله تعالى « فلولا اذا بلغت الحلقوم وانتم حينئذ تنظرون،ونحن اقرب اليه منكم ولكن لا تبصرون» .

ونلمح هذا ايضا فى قوله — سبحانه — « ومنهم من ينظر اليك افأنت تهدى العمى ولو كانوا لا يبصرون » .. ومن هذا نرى ان النظر متعلق بالناحية المادية . وفى الآية التى نحن بصددها .. نرى موسى — عليه السلام — يقول « رب ارنى انظر اليك » .. فهل يكون الله جل شأنه — محلا لوقوع النظر المادى .. بالعين المادية المحسوسة الملموسة ؟ .. هذا محال على الله — جل شأنه — ولهذا كان رد العلى العظيم عليه « لن ترانى ، ولكن انظر الى الجبل فان استقر مكانه فسوف ترانى ، فلما تجلى ربه الجبل جعله دكا وخر موسى صعقا ، فلما أفاق قال سبحانك تبت اليك وانا اول المؤمنين (١٤٣ الاعراف) ..

وقد روى ثابت عن أنس عن النبي — صلى الله عليه وسلم — أنه قرأ « فلما تجلى ربه للجبل » فقال « هكذا » ، ووضع الابهام على المفصل الأعلى من الخنصر .. وقال السدى : ما تجلى للجبل الا قدر جناح بعوضة ، فصار الجبل دكا ، وقال ابن عباس : صار ترابا .

فهل كان موسى — عليه السلام — وهو من اولى العزم من الرسل — يجهل الفرق بين النظر والبصر ؟ موسى الذى يقول عنه نبينا عليه الصلاة والسلام .. فى الحديث الصحيح .. من حديث أبى هريرة وغيره أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا تخيروا بين الأنبياء فان الناس يصعقون يوم القيامة فارفع رأسى .. فأذا انا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش .. فلا ادرى .. اصعق فيمن صعق فأفاق قبلى أو حوسب بصعقته الأولى » أو قال « كفته صعقته الأولى » (١) .

اعتقد ان هذا غير جائز فى حقه عليه السلام .. وانما قال هذا كما قال له النقباء أرنا الله جهرة فطلب من ربه الرؤية ليروا النتيجة بأنفسهم .. وكانت الصاعقة التى أخذتهم جميعا .

« واذ قلتم ياموسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة » ولفظ « جهرة » يحدد لنا المعنى المقصود من الرؤية بأنهم يطلبون النظر اليه — سبحانه — بأعينهم المادية « فأخذتكم الصاعقة وانتم تنظرون » (٥٥ البقرة)

ويقول بعض المفسرين أنهم ماتوا خمسة أيام .. ثم بعثهم الله بعد موتهم .. مستشهدين على ذلك بالآية الثانية:« ثم بعثناكم من بعدموتكم لعلكم تشكرون » وهذا المعنى جائز .. ولكن المعنى الذى ترتاح اليه النفس ، ان الكفر موت .. والحياة ايمان .. وهذا ظاهر فى قوله تعالى « استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم لما يحييكم »

فكان موقفهم فى طلب الرؤية كفر ما بعده كفر .. خاصة أنه طلب مصحوب بالتحدى بقولهم : « لن نؤمن لك حتى نرى الله » .

فأخذتهم الصاعقة التى خروا منها مغشيا عليهم .. ومعهم موسى كذلك .. « فلما افاق قال سبحانك تبت اليك » .. الخ الآية .

يقول الزمخشرى صاحب تفسير الكشاف : خر مغشيا عليه غشية الموت .. وقيل خر موسى صعقا يوم عرفة ، واعطى التوراة يوم النحر .

---

(١) القرطبى ١٤٣/الاعراف .

« وظللنا عليهم الغمام ، وانزلنا عليهم المن والسلوى ، كلوا من طيبات ما رزقناكم ، وما ظلمونا ولكن كانوا انفسهم يظلمون » تكملة آية (١٦٠ الاعراف) ..

وعاشوا فى هذا المكان من سيناء آمنين .. توافرت لهم فيه كل اسباب الحياة من ظل وماء .. وطعام وغذاء .. وأمن وراحة بعد طول خوف وشقاء .

ويبدو جليا بعد هذا .. ما اتسمت به طباعهم .. من جحود وطمع .. وجمود وجشع .. وما جبلت عليه فطرتهم .. من خبث وكفر .. وسخط وغدر .. فقد جعل الله سبحانه لهم تلك الصحراء الجرداء .. جنة فيحاء . ظل ظليل .. وماء عذب سلسبيل . غذاؤهم لحم طير مما يشتهون .. وحلواهم اقراص من العسل المصفى فى كل حين ..

ولكن لم يعجبهم هذا الحال .. فقالوا « يا موسى لن نصبر على طعام واحد ، فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها ، قال أتستبدلون الذى هو ادنى بالذى هو خير ، اهبطوا مصرا فان لكم ما سألتم » (٦١ البقرة) .

فلا تصلح الصحراء لانبات البقول والخضر التى تطلبونها .. مع انها ادنى مما حباكم الله به من خير ورزق طيب .. وانما هذه لاتوجد الا فى مصر من الأمصار .. **حيث تخصب الأرض .. وتجرى الأنهار .. فهيا اعدوا انفسكم لدخول الأرض المقدسة ولكم فيها ما تشتهون .**

□□□

٦ الألـــــواح

تلقى موسى الواح التوارة .. وقيل كانت عشرة الواح .. او سبعة .. وكانت من خشب. كما يقول الحسن ـ رضى الله عنه ـ نزلت من السماء .. وكان طولها عشرة اذرع .

واذكر هنا الوصـايا العشر التى وردت فى الواح موسى ، لنرى انها هى التى وردت فى انجيل عيسى .. ثم جاءت مفصلة فى القـرآن الكريم المهيمن على الكتب كلهـا ، ولنعلم ان المنبع واحد .. والمصـدر واحـد .. والدين واحد .. فقد جاء فيها :

١ ـ لا اله الا انا فاعبدنى .. ولا تشرك بى شيئا .

٢ ـ واشكر لى ولوالديك الى المصير .. احييك حياة طيبة .

٣ ـ ولا تقتل النفس التى حرمت عليك .. فاضيق عليك السـماء بأقطـارها .. والارض برحبها .

٤ ـ ولا تحلف باســمى كاذبا .. فانى لا اطهر ولا ازكى من لا يعظم اسمى .

٥ ـ ولا تشـهد بما لا يعى سـمعك .. ولا تنظر عينك .. ولا يقف عليك قلبك .. فانى اوقف اهل الشهادات على شهادتهم يوم القيامة .. واسألهم عنها .

٦ ـ ولا تحسد الناس على ما آتيتهم من فضلى ورزقى .. فان الحاسد عدو نعمتى .. ساخط لقسمتى .

٧ ـ ولا تزن .. ولا تفجرن بحليلة جارك .. فانه أكبر مقتا عندى .

٨ ـ ولا تسرق .. فأحجب عنك وجهى .. واغلق دون دعوتك أبواب السماوات .

٩ ـ ولا تذبح لغيرى .. فانه لا يصعد الى من قربان اهل الارض الا ما ذكر عليه اسمى .

١٠ ـ واحبب للناس ما تحب لنفسـك .. واكره لهم ما تكره لنفسك .

وقد وردت تلك الوصايا العشر فى القرآن الكريم .. فى قوله تعالى « وقضى ربك الا تعبدوا الا اياه » الى » ذلك مما اوحى اليـك ربك من الحكمة » (٢٣ ـ ٣٨ الاسراء) كما وردت ايضا فى قوله « قل تعالوا اتل ما حرم ربكم عليكم » الى قوله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون (١٥١ ـ ١٥٣ الأنعام) .

* * *

وقد قرات فيما قرات خبرا مؤداه .. ان كعب الأحبار .. راى حبرا من اليهود يبكى . فقال له كعب : انشدك الله .. لئن اخبرتك بما ابكاك .. تصدقنى ؟

قال : نعـــم .

ثم سأله عن اشياء فى التوراة منها :

انشدك الله .. هل تجد فى كتاب الله المنزل .. ان موسى نظر فى التوراة .. فقال : يارب .. انى اجد امة اذا أشرف احدهم على شرف كبر الله تعالى .. واذا هبط الى واد حمـد الله تعالى .. الصـعيد لهم طهور .. والأرض لهم مسجد حيثما كانوا .. يتطهرون من الجنابة .. طهورهم بالصـعيد كطهورهم بالمـاء ، حيث لا يجدون الماء .. غرا محجلين من آثار الوضوء .. فاجعلهم امتى .. قـال : هى امة احمـد يا موسى ؟ قال الحبر : نعم .

قال كعب : انشدك الله .. هل تجد فى التوراة ان موسى نظر فيها .. فقال : يارب انى اجد امة .. اذا هم احدهم بحسنة ولم يعملها .. كتبت له حسنه .. واذا عملها .. كتبت له عشرا الى سبعمائة ضعف .. واذا هم احدهم بسيئة ولم يعملها .. كتبت عليه سيئة مثلها فاجعلها يا رب أمتى .. قال : هم امة احمد يا موسى ؟

قال الحبر : نعم .

قال كعب : انشدك الله .. هل تجد فى كتاب الله المنزل أن موسى نظر فى التوراة .. فقال : يارب انى اجد امة مرحومة أصفياء .. يرثون الكتاب .. فمنهم ظالم لنفسه .. ومنهم مقتصد .. ومنهم سابق بالخيرات .. فلا اجد احدا منهم الا مرحوما .. فاجعلهم امتى . قال : هم امة احمد يا موسى .. فقال موسى : ياليتنى من امة احمد ! .

وقال الله له « يا موسى انى اصطفيتك على الناس برسالاتى وبكلامى فخذما آتيتك وكن من الشاكرين . وكتبنا له فى الألواح من كل شىء موعظة وتفصيلا لكل شىء فخذها بقوة وأمر قومك يأخذوا بأحسنها سأريكم دار الفاسقين » (١٤٤ - ١٤٥ الاعراف) .

ودار الفاسقين .. كما قال قتادة .. هى ارض الجبابرة والعمالقة بالشام .. رآها بنو اسرائيل ولم يدخلوها .. وانما دخلها ابناؤهم مع يوشع بن نون - فتى موسى - ويقول الكشاف فى قراءة « سأورثكم دار الفاسقين » وهى قراءة حسنة .. تتطابق مع قوله تعالى « واورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها » ..

وهكذا نرى كيف يطبع الله على قلوب المتكبرين .. وكيف يخذلهم .. فلا تبصر أعينهم .. ولا تسمع آذانهم .. ولا تفقه قلوبهم .. وتمر بهم الآيات تلو الآيات .. وتشملهم العبر بعد العبر ..

فلا تصل الى افئدتهم .. ولا تنفعل بها خواطرهم .. الا للحظات قصيرات .. ثم تذوب وتتلاشى كأن لم تكن ..

ولهذا يقول سبحانه لموسى « سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق ، وان يروا كل آية لا يؤمنوا بها وأن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا وان يروا سبيل الغى يتخذوه سبيلا ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين » (١٤٦ الأعراف) .

ولا سبب لهذا غير حب الدنيا .. والانشغال بمتاعها .. والانهماك فى زينتها وشهواتها .

وعن الفضيل بن عياض قال : ذكر لنا رسول الله . صلى الله عليه وسلم « اذا عظمت أمتى الدنيا نزع عنها هيبة الاسلام .. واذا تركوا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .. حرمت بركة الوحى » .

وقبل ان يعود موسى بالألواح ، قال الله له :

« فانا قد فتنا قومك من بعدك واضلهم السامرى . فرجع موسى الى قومه غضبان أسفا » (٨٥ - ٨٦ طه) .

□ □ □

((فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية))

(١٣ - المائدة)

○ النكسـة

الفصل السادس

١ موسى السامرى

نعود بذاكرتنا قليلا .. الى الليلة التي ولد فيها موسى بن عمران ـ عليه السلام ـ حيث كان حصار فرعون شديدا حول حبالى بنى اسرائيل **.. حتى لا يفلت غلام يولد فيهم من الذبح .. خشية على نفسه من نبؤءة الكهان والمنجمين له بان غلاما سيولد من نسلهم .. يكون هلاكه وهلاك قومه على يديه .**

وكان طبعيا أمام هذا البلاء .. أن تبذل عديد من المحاولات .. لاخفاء بعض المواليد الذكور .. عن عيون فرعون وجواسيسه .. مهما بلغت شدة الحصار واحكامه .

ومن بين من حاول هذا الأمر ونجح فيه اسرائيلى اسمه ظفر بن سامر .. ولد له غلام فى نفس الليلة التى ولد فيها موسى بن عمران .. ولم يستطع اخفاءه فى بيته .. كما فعلت يوكابد زوجة عمران فى ولدها ـ موسى ـ حيث أخفته فى بيتها ثلاثة شهور .. لما أوحى الله اليها « أن أرضعيه فاذا خفت عليه فالقيه فى اليم ولا تخافى ولا تحزنى » .

فقام ظفر باخفاء وليده فى كهف من كهوف الجبل القريب من ديارهم .. ويقول المفسرون ان جبريل عليه السلام ـ قد رعاه فى كهفه حتى بلغ مبلغ السعى (١) .. وقد جعل الله له فى أصابعه رزقا .. وكان هذا الوليد هو موسى السامرى .. الذى استغل غياب موسى فى ميقات ربه على الطور يتلقى الألواح .. فصنع لهم عجلا من حليهم .. وقال لهم « هذا الهكم واله موسى » .

ويصدق قول الشاعر :

فموسى الذى رباه فرعون مرسل
وموسى الذى رباه جبريل كافر

وفى هذا حكمة بالغة .. وآية بينة .. يراها المبصرون .. ويلمسها المتفكرون ..

يعلم جبريل .. وهو الأقرب الى الله ـ أن فى هذا اليوم سيولد فى بنى اسرائيل من يكون هلاك فرعون على يديه .. فيظنه هذا الوليد خبىء الكهف .. فيتولى تربيته .. والعناية به والحدب عليه .. بينما يساق الآخر الى بيت فرعون ليتولى له ذلك .. ولا يعلم الغيب الا الله حتى جبريل ـ وهو الى درجة القرب يصعد .. لا يعلم غيب الله فى هذا الأمر . كما قال بعضهم **والله ما موسى الكليم ولا المسيح ولا محمد عرفوا ولا النفس البسيطة لا ولا الروح المجرد كلا ولا جبريل وهو الى مقام القرب يصعد من كنه ذاتك غير انك اوحدى الذات سرمد.**

وقد أورد الأستاذ عبد الوهاب النجار فى كتابه « قصص الأنبياء » بحثا حول تسمية موسى هذا بالسامرى .. فذكر سؤالا لاكه البعض فى الصحف .. وهو :

كيف يكون السامرى هذا هو الذى اضل بنى اسرائيل بالعجل .. مع أن السامرى نسبة الى سامرة وهى بلد بفلسطين لم تكن موجودة أيام موسى .. وانما الذى اسسها « عمرى » وهو الملك الرابع من ملوك بنى اسرائيل .. بعد أن انشقت مملكة اليهود الى قسمين : أحدهما نسل يهوذا .. ومقره أورشليم .. وملوكه من ذرية داوود وسليمان .. وكان رابعهم عمرى اشترى جبل السامرة وبنى تلك المدينة .. وجعلها مقرا لملكته .. وذلك بعد موسى بنحو ثلاث وعشرين وخمسمائة سنة .

ويريد أهل الكتاب أن ينفوا عن السامرى صناعة العجل .. الذى ضل به بنو اسرائيل لأنهم يدعون أن الذى صنعه هو هارون ـ عليه السلام ـ وتلك طبيعتهم فى ذم أنبياء الله ورسله

---

(١) القرطبى وغيره ـ ١٤٨ ـ الاعراف .

.. واختلاق الأكاذيب .. وافتراء المفتريات ضدهم .

ولكن نسبة موسى السامرى ليست الى مدينة سامرة .. وانما الى جده سامر .. وهو فى العبرية شامر .. « والشين » فى العبرية « سين » فى العربية .. كما ينطقها ايضا نسل افرائيم بن يوسف « سينا » .

وقد كان رجال من نسل يهوذا فى بعض الحروب .. يمتحنون الرجل .. ليعرفوا هل هو من نسل يهوذا أو من نسل يوسف .. بأن يأمروه بنطق كلمة « شبولت » أى سنبلة .. فاذا قال « سبولت » بالسين .. عرفوا أنه من نسل افرائيم بن يوسف .

وكلمة شامر أو سامر بمعنى .. ونطقها فى العبرية « شومير » كما جاء فى الآية التاسعة من الاصحاح الرابع من سفر التكوين ونصها .

« فقال الرب لقايين أين هابيل أخوك ؟ فقال لا اعلم » هشومير أحى انو أخى وترجمتها احارس أنا لأخى » ؟ .

***

راى موسى السامرى يوم انفلاق البحر لعبور بنى اسرائيل .. بعد ان وقف على الساحل .. ليرى ما يصنع فرعون وجنوده .. رأى جبريل بعمامته السوداء يخوض البحر .. بفرسه حيزوم .. استدراجا لفرس فرعون .

قال المفسرون : جاء جبريل على فرس الحياة .. وهى بلقاء أنثى .. لا تصيب شيئا الا حيى ـ بمعنى اذا مست التراب بحافرها دبت الحياة فى التراب .. فلما رآه السامرى على تلك الفرسة عرفه .. وقال : أن لهذه الفرس لشأنا عظيما .. واخذ قبضة من التراب الحى

.. لاستغلاله فى اغراضه السحرية .. والاعيبه الخداعية .. ثم انطلق كالريح فلحق ببنى اسرائيل .

ولما صعد موسى بعد ذلك الى الجبل بنقبائه .. ولم يعد بعد انقضاء الاجل الذى واعدهم عليه .. وهو ثلاثون ليلة .. قال لهم السامرى: انما اخلف موسى ميعادكم .. لما معكم من الحلى المسروقة من المصريين .. فهى حرام عليكم .. لانكم حصلتم عليها بطرق غير مشروعة .. وطالبهم بالتخلص منها .. والقائها فى النار .. والقوها فعلا .. فصنع من تلك السبيكة عجلا جسدا (١) .. والجسد هو الاسم الفنى لخام الذهب وقد ورد هذا اللفظ فى ذكر كرسى سليمان ـ عليه السلام ـ بقوله تعالى :

« والقينا على كرسيه جسدا » اى ذهبا .

والقى السامرى قبضة التراب الحى .. فى فم العجل الذهبى .. الذى صنعه من حليهم .. فخار خوار البقر .. واستزلهم الشيطان .. وغلبتهم طبيعة الوثنية .. التى اشربوها فى قلوبهم .. فقالوا : هذا الهنا .. .. نسيه موسى هنا .. وخرج للقائه على الجبل .. فعبدوه ورقصوا حوله .. وكانت تلك امنيتهم التى ابدوها لموسى ـ عليه السلام يوم نجاتهم وهلاك فرعون .. عندما مروا بقوم يعكفون على اصنام لهم .. وقالوا له : ياموسى « اجعل لنا الها كما لهم آلهة » .

اقرأ « حملنا أوزارا ما زينة القوم فقذفناها .. فكذلك القى السامرى فاخرج لهم عجلا جسدا له خوار فقالوا هذا الهكم واله موسى فنسى (٨٧ ـ ٨٨ طه)

□□□

(١) القرطبى وغيره ـ ١٤٨ ـ الاعراف .

٢ الـوثــنيــة

وعاد موسى – عليه السلام – الى قومه غضبان اسفا . بعد ان تلقى الألواح .. وبعد ان قال الله له « فانا قد فتنا قومك من بعدك، واضلهم السامرى »

وكان – عليه السلام – رجلا حاد الطبع.. مجبولا على الخشونة .. والتصلب فى كل شىء .. شديد الغضب .. لله ولدينه .. قال ابن القاسم : سمعت مالكا يقول : كان موسى عليه السلام – اذا غضب طلع الدخان من قلنسوته .. ورفع شعر بدنه جبته .. وذلك ان الغضب جمرة تتقد فى القلب .. ومن اجل هذا .. امر النبى – صلى الله عليه وسلم – من غضب ان يضطجع .. فان لم يذهب غضبه اغتسل .. فيخمدها اضطجاعه – ويطفئها اغتساله .. ورآهم موسى على البعد يعكفون على العجل يعبدونه .. ويرقصون حوله مكاء وتصدية .. فاستولى عليه غضب شديد .. وثار ثورة عارمة .. والقى الالواح من يده على الأرض فى ثورته .. وقيل انها كسرت .

* * *

وعن الحسن البصرى: ان اسم العجل بهموت .. وقد عكفوا على عبادته .. واحبوه حبا ما احبوا شيئا مثله .. فقال لهم هارون « ياقوم انما فتنتم به وان ربكم الرحمن فاتبعونى واطيعوا أمرى . قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع الينا موسى » (٩٠ – ٩١ طـه) ولم يسلم من عبادة العجل غير اثنى عشر الفا من ستمائة الف .

وعن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ليس المعاين كالمخبر .. قال الله تعالى لموسى : ان القوم قد فتنوا .. فلم يلق الالواح .. فلما عاين القى الالواح » .

وعن نعيم الدارى قال : قلت يا رسول الله مررت بمدينة صفتها كيت وكيت .. قريبة من ساحل البحر .. فقال عليه الصلاة والسلام « تلك انطاكية » .. اما ان فى غار من غيرانها رضاضا من ألواح موسى .. وما من سحابة شرقية ولا غربية تمر بها الا القت عليها من بركتها .

* * *

واخذ موسى – وهو فى ثورته – براس اخيه هارون بيمينه ..ولحيته بشماله فى عنف وقسوة قائلا « ما منعك اذ رايتهم ضلوا الا تتبعن افعصيت أمرى » (٩٢ – ٩٣ طـه)

لماذا لم تقاتلهم بمن ظل على الايمان معك ؟ .. ولو كنت هنا لقاتلتهم على كفرهم .. قال خشيت ان يكون هذا تفريقا بينهم .. ومخالفة لما امرتنى به .. عندما قلت لى : « اخلفنى فى قومى واصلح ولا تتبع سبيل المفسدين » . « قال يابن أم لا تأخذ بلحيتى ولا برأسى انى خشيت ان تقول فرقت بين بنى اسرائيل ولم ترقب قولى » (٩٤ طـه) .

واتجه موسى – عليه السلام – الى السامرى « قال فما خطبك يا سامرى . قال بصرت بما لم يبصروا به » يقصد فرس جبريل « فقبضت قبضة من أثر الرسول » اى من اثر موطىء الفرس .. ويقول الكشاف : ان ابن مسعود قرأ « فقبضت قبضة من أثر فرس الرسول » .. « فنبذتها » اى القيتها فى فم العجل الذهبى . « وكذلك سولت لى نفسى » (٩٥ – ٩٦ طه)

وهى نفس خبيثة امارة بالسوء .. لا يقبل لصاحبها عذر .. ولا تصلح له توبة فقال له موسى « فاذهب فان لك فى الحيـاة ان تقـول لا مساس ، وان لك موعدا لن تخلفه » (٩٧ طه).

ما من احد مسه الا حم الماس والممسوس.. فتحاشاه الناس .. وتحاشى الناس .. وكان يصيح كالمجنون : لا مساس .. اى لايمسنى احد .. وصار اوحش من القاتل اللاجىء الى حمى ومن الوحش النـافر فى البرية . ويقال : ان نسله باق فيهم ذلك الى اليوم .

وكسر موسى — عليه السلام — الههم .. وذراه فى البحر .. فشرب بعضهم من مائه حبا فيه .. فظهرت على شفاههم صفرة الذهب .

« وانظر الى الهك الذى ظلت عليه عاكفا لنحرقه (١) ثم لننسفنه فى اليوم نسفا . انما الهكم الله الذى لا اله الا هو وسع كل شىء علما» (٩٧ — ٩٨ طـه) .

وعرف القوم انهم قد ضلوا .. وخسروا .. وانحرفوا بفعلتهم تلك عن دعوة التوحيد .. وزاغوا عن عقيدة التفريد.. فندموا واستغفروا .. وطلبوا من الله ان يتوب عليهم .

« ولما سقط فى ايديهم وراوا انهم قد ضلوا قالوا لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنـا لنكونن من الخاسرين » (١٤٩ الاعراف) .

وكان اختبار التوبة لهم قاسيا حيث طلب منهم موسى ان يقتلوا انفسهم ان كانوا صادقين فى توبتهم .. جادين فى اوبتهم .

« واذ قال موسى لقومه يا قوم انكم ظلمتم انفسكم باتخـاذكم العجل ، فتوبوا الى بارئكم فاقتلوا انفسكم ، ذلكم خير لكم عند بارئكم » (٥٤ البقرة) .

واستسلموا للأمر ، وقتل منهم عدد كبير ، ثم دعا موسى وهارون ربهما ان يرفع عنهم البلاء رحمة بالبقية الباقية من قومهمـا ، فاستجاب الله لهما وكشف عنهم هذا البلاء ، وعفـا عنهم « فتاب عليكم انه هـو التـواب الرحيم » (٥٤ البقرة) .

* * *

واستسمح القارىء فى وقفة قصيرة .. عند هذا المقام .. لنرى الفرق بين توبة بنى اسرائيل عندما اخطـأوا .. وتوبتنـا نحن المسلمين اذا اخطانا .. ولنعلم أن الله سبحانه ميز امة محمد — عليه الصلاة والسـلام .. بميزات لم تتمتع بها امة من الامم .

فهؤلاء قد اخطاوا .. واضلهم الشيطان .. وحاد بهم عن طـريق الحـق .. فكان على من يريد التوبة منهم أن يقتل نفسه .. او يقتل أهله واصـدقاءه وجيرانه .. كمـا يقول بعض المفسرين حتى قيل : انه قتل منهم بسبب هذا الجرم عشرات الالوف .. ولـولا تضرع موسى وهارون الى الله لطهرت الارض منهم جميعا .. وليذيق بعضهم بأس بعض .

توبة كلها قسوة .. وما بعـدها قسوة .. واوبة جلها شدة .. لا تعادلها شدة .. فهل بعد ازهاق الارواح قسوة وشدة ؟ ..

بينما توبة المؤمن من آل محمد .. الذى سلك سبيله واهتدى بأصـحابه .. واقتدى بأتباعه .. ان يقـول : استغفر الله العظيم واتوب اليه .. بقلب خاشع .. وجنان خاضع ونفس لوامة .. فيقبل الله توبته .

« قل يا عبادى الذين اسرفوا على انفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ، ان الله يغفر الذنوب جميعـا ، انه هو الغفور الرحيم ٥٣ — الزمر

وحق لموسى أن يقول : ياليتنى من امـة احمد ..

□□□

---

(١) لنبردنه . حرق الشىء : برده وحك بعضه ببعض .

٣ نتق الجبـــل

استقرت الامور .. وهدأت الاحـوال .. بعد تلك المذبحة الرهيبـة .. وجمعهم موسى عليه السلام ـ ليلقى عليهم الالواح بما فيهـا من أوامر ونواه .. وتعاليم ومبادىء .. وعبادات والتزامات .. وكانت غليظـة ثقيـلة بآصارها وإغلالها .. فأبوا احتمالها .. وامتنعوا عن الالتزام بما فيها ..

وحاول موسى أن يغريهم بما لهذا من جزاء كبير عند الله .. وثواب جزيل فى الدنيا والآخرة .. ولكنهم أصروا على رفضها .. وتمسكوا بنبذها .. وعدم التقيد بعهودها ومواثيقها .

واذا بهم فجأة .. عند قيامهم من النوم.. يجدون جبل الطور فوق رءوسهم .. مقـدار عسكرهم .. وكان فرسـخا فى فرسـخ .. وناداهم موسى .. وقد بلغ به الغيظ منتهاه : ليس لكم خيار فى هذا الأمر .. فاما ان تقبلوا **التوراة بما فيهـا .. وتلتزموا بما كلفكم به ربكم .. من** تكاليف وعبـادات ومشـقات .. والا ليسقطن عليكم الجبل فيسويكم بالأرض .

وازداد بهم الرعب .. واسـتولى عليهم الفزع .. فخر كل منهم سـاجدا على حاجبه الايسر .. وهـو يتطلع هلعا بعينه خشـية سقوطه .. ولذلك لا يسجد اليهودى الى اليوم الا على حـاجبه الايسر .. ويقـولون : هى السجدة التى رفعت عنا العقوبة .. وعاهـدوا موسى على قبول الالواح بما فيهـا ومن آصـار واغلال .. وعبادات وتكاليف .

« واذ نتقنا الجبـل فوقهم كأنه ظلة ، وظنوا انه واقع بهم ، خذوا ما آتينـاكم بقـوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون » (١٧١ الأعراف).

وقد آثار الاستاذ عبد الوهاب النجار .. حول هذا الموضوع .. نقاشا طويلا .. يريد ان يثبت فيه أن رفع الجبـل لم يكن بالمعنى المفهوم .. وانما بمعنى أنهم كانوا بمنعطف من الجبل .. وقد نتأت منه قطعة ضخمة فـوق رءوسـهم .. نتيجة زلزال مدمر وخـافوا ان تسقط عليهم .. وهو يؤيد بذلك قول السيد / رشـيد رضا ـ صاحب تفسير المنـار ـ **الذى** اعترض على مفهوم رفع الجبل **فوقهم .. لان** فى هذا اكراها على الايمان..**وذلك ينفى التكليف** ـ حسب قوله ـ **ونعتقد انه لا داعى لمثل هذه** التأولات والاستنتاجات .. **ولا يجـدر بنا أن** نحيد عن ظاهر النص .. **فهـو صريح فى قوله** « كأنه ظلة وظنـوا انه واقع بهم » .. **والظن** فى القرآن يحمل معنى اليقين .. وفى آية البقرة « ورفعنا فوقكم الطور » .

وقال الامام الشيخ محمد عبده : لا حاجة بنا فى فهم كتاب الله .. الى غير ما **يدل عليه** بأسلوبه الفصيح .. فهو لا يحتاج **فى فهمه الى اضافات او ملحقات .. وقد ذكر لنا مسألة رفع الطور فوق بنى** اسرائيـل .. **ولم يقل انه أراد بذلك الاكراه على الايمان .. وانما حكى عنهم انهم ظنوا انه واقع بهم .. فقد قال تعالى** فى سورة الاعراف : « واذ نتقنا **الجبل فوقهم** كأنه ظلة ... الخ » .

***

وروى الثعلبى عن عطاء عن ابن عباس :

رفع الله تعالى فوق رءوسهم الطـور .. وقيل لهم خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا **..فان** قبلتموه وفعلتم ما أمرتكم به .. **والا رضختكم** بهذا الجبل .. فلما رأوا أن لا مهرب **لهم منها .. قبلوا ذلك .. وسجدوا على شق وجوههم** يلاحظون الجبل وهم سجود .. فصارت سـنة اليهود .. لا يسـجدون الا على انصـاف وجوههم .

فلما زال الجبـل .. قالوا لموسى سمعنا وأطعنا .. ولولا الجبل ما اطعناك .

٤ التيـــــه

وجمع موسى قومه فى مؤتمر ضخم كبير.. ووقف فيهم متحدثا.. يذكرهم بأفضال الله ونعمه التى لا يحصيها عد.. ولا يستوعبها حد.. اذ جعل فى نسلهم الأنبياء والملوك.. وأتاهم من الفضل ما لم يؤت احدا غيرهم.. كانفلاق البحر وانبجاس الحجر بالماء.. وتظليل الغمام.. وأنزال المن والسلوى.

« واذ قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم، اذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكا، وأتاكم مالم يؤت أحدا من العالمين » (٢٠ المائدة).

وذكرهم موسى عليه السلام - بهدفهم الأساسى من خروجهم من مصر.. وهو دخولهم الأراض المقدسة.. التى كتبها الله لهم.

فقد وعد الله ابراهيم واسحاق ويعقوب.. بأن أرض الموعد فلسطين - ستكون ملكا لهم ولأودهم.. ووعدهم النصر على الأمم التى يسكنونها فى ذلك الوقت.

وكان سكانها من الكنعانين الجبارين.. وهم العمالقة.. من ولد عملاق ابن لاوذ بن سام ابن نوح.

يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التى كتب الله لكم، ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين » (٢١ المائدة).

* * *

واختار موسى منهم اثنى عشر رجلا.. من كل سبط نقيبا.. امره عليهم.. وسار هذا الجيش الضخم.. متجها الى أريحاء.. عاصمة الشام فى هذا الحين.. ولما اقتربوا منها.. أرسل موسى النقباء.. لاستطلاع الأرض.. ومعرفه أحوال اهلها.

وعاد النقباء.. لبجبروا موسى أنهم رأوا فيها قوما جبارين.. ضخام الأجسام.. أقوياء الابدان.. أقرب الى الوحوش منهم الى بنى الانسان.. فأخذ عليهم عهدا وميثاقا.. الا يحدثوا قومهم بما رأوا.. فيوهنوا من عزمهم.. ويضعفوا من قوتهم.. وبثوا فى قلوبهم الخوف والفزع.. ولكنهم نكثوا العهد.. ونقضوا الميثاق.. وتحدثوا مع قومهم عن تجبر القوم وبأسهم وقوتهم.

فقالوا « ياموسى ان فيها قوما جبارين، وانا لن ندخلها حتى يخرجوا منها، فان يخرجوا منها فانا داخلون » (٢٢ المائدة).

صفاقة وجبن. وضعف وذل.. وخور ووهن.. يقولون لموسى:

« لن ندخلها حتى يخرجوا منها ».. ثم يؤكدون هراءهم وصفاقتهم وجبنهم بقولهم « فان يخرجوا منها فإنا داخلون ».

فقال لهم موسى:

إن الله سيفتحها عليكم.. وان الذى انجاكم من آل فرعون.. وفلق لكم البحر.. هو الذى ينصركم.. ويظفركم عليهم.. فلم يقبلوا نصحه.. وهموا بالإعراض عنه..

* * *

ويقوم فيهم رجلان.. أنعم الله عليهما بنعمه الايمان.. لم يتحملا ما رأوا من سخف القوم وجبنهم.. وهما: يوشع بن نون من نسل يوسف بن يعقوب.. والثانى كالب بن يوقنا من نسل يهودا ابن يعقوب(١) وكانا من النقباء الاثنى

---

(١) القرطبى ٢٣ / المائدة

عشر .. فقالا لهم لا تخافوا من ضخامة اجسامهم .. ولا تفزعوا من قوة أبدانهم .. فهم ضخام الاجسام .. أقوياء الابدان .. ولكن قلوبهم واهية .. وارواحهم ضعيفة .. ويكفى فقط ان تدخلوا عليهم الباب .. واثقين من نصر الله مطمئنين الى معيته ..

« قال رجلان من الذين يخافون انعم الله عليهما ، ادخلوا عليهم الباب فاذا دخلتموه ، فانكم غالبون ، وعلى الله فتوكلوا ان كنتم مؤمنين » (٢٣ المائدة) .

فالايمان يقطع العلائق .. وينبذ التعلق بالخلائق ..

***

والمح فى ثنايا تلك الآية .. قوات حربية ضخمة .. لا يغلبها غالب .. ولا ينال منها طالب .. « ادخلوا عليهم الباب ، فاذا دخلتموه فانكم غالبون » ..

فان مجرد الدخول على العدو .. مقترنا بالمعية الآلهية .. كفيل بتحقيق النصر .. وبلوغ الظفر .. فليست المسألة عدة وفيرة .. وعددا كبيرا « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله » .. وان الله — سبحانه — عندما قال « واعدوا لهم ما استطعتم من قوة » لم يزد فى الاعداد عن حدود الاستطاعة فقط .. مع حقيقة الاسلام له .. والاعتماد عليه .. فقد الزم نفسه — جل شأنه — بالنصر .. حيث قال : « وكان حقا علينا نصر المؤمنين » .

واستولى الهلع على قلوبهم .. وتمكن الفزع من نفوسهم .. وهموا برجم يوشع وكالب بالحجارة .. لولا ما رأوا من الغضب فى وجه موسى عليه السلام .

فرفعوا أصواتهم بالبكاء .. وقالوا : ليتنا متنا بمصر .. ثم اتجهوا الى موسى ، معلنين التمرد عليه .. خارجين على طاعته .. فى دخولهم الأرض المقدسة .

قالوا « يا موسى انا لن ندخلها ابدا ماداموا فيها .. فاذهب أنت وربك فقاتلا انا ههنا قاعدون » (٢٤ المائدة) .

استهانة بالله واستهزاء .. لجهلهم وقسوة قلوبهم .

***

وغلب موسى على أمره .. وضاق لذلك صدره .. فاتجه ببصره الى السماء ودعا عليهم قائلا :

« رب انى لا املك الا نفسى وأخى .. فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين » (٢٥ المائدة) .

قالها بثا وحزنا .. وشكوى الى الله .. وحسرة ورقة قلب .. بمثلها تستجلب الرحمة .. وتستنزل النصرة .. كما يقول يعقوب — عليه السلام — « انما اشكو بثى وحزنى الى الله »

وروى عن على — رضى الله عنه وكرم وجهه انه كان يدعو الناس على منبر الكوفة .. الى قتال البغاة . فما اجابه الا رجلان .. فتنفس الصعداء .. ودعا لهما .. وقال أين تقعان مما اريد ؟ ..

ويذكرنى هذا الموقف من بنى اسرائيل .. بموقف مماثل .. حدث لرسول الله — صلى الله عليه وسلم — عندما قال لاصحابه — رضوان الله عليهم — يوم الحديبية — حين صد عن البيت . «انى ذاهب بالهدى فناحره عند البيت» يستشير اصحابه فى ذلك فقال المقداد بن الاسود :

انا والله لا نقول لك كما قال قوم موسى لموسى « اذهب أنت وربك فقاتلا ، انا ههنا قاعدون » ولكننا نقول : انا معك مقاتلون .. والله لنقاتلن عن يمينك وشمالك وبين يديك .. ولو خضت بنا بحرا لخضناه .. ولو تسنمت جبلا لعلوناه .. ولو ذهبت بنا الى برك الغماد — يعنى مدينة بالحبشة — لتبعناك .

فلما سمع أصحاب النبى .. تابعوه على ذلك .. فأشرق لذلك وجه النبى — صلى الله عليه وسلم — يقول ابن عباس : لأن أكون صاحب هذا المشهد .. أحب الى من الدنيا وما فيها .

ولكن هؤلاء امتنعوا وتمردوا .. فاستجاب الله دعوة موسى .. وحرم عليهم دخول الأرض المقدسة اربعين سنة .. يتيهون خلالها فى صحراء سيناء عقابا لهم .

« قال فانها محرمة عليهم اربعين سنة يتيهون فى الارض فلا تأس على القوم الفاسقين » (٢٦ المائدة) .

عوقبوا بالحبس .. لاختيارهم القعود .. فكانوا مع شدة سيرهم .. يصبحون حيث امسوا .. ويمسون حيث أصبحوا .. فى ستة فراسخ لم يبرحوها .. يظلهم الغمام .. وينزل عليهم المن والسلوى .. ويشربون من ماء الحجر .. ولم تبل ملابسهم طوال هذا الزمن .

ولم يدخل الأرض المقدسة احد ممن قال انا لن ندخلها .. بل هلكوا فى التيه .. ويقول ابن خلدون فى مقدمته : انهم تاهوا فى قفر من الأرض .. ما بين الشام ومصر اربعين سنة .. لم يأووا فيها الى العمران .. ولا نزلوا مصرا .. ولا خالطوا بشرا ..

وقال ان الحكمة فى ذلك هى افنــاء الجيل الذين خرجوا من قبضة الذل والقهر والقسوة .. وانشــاء جيل آخر عزيز .. لا يعرف الظلم والقهر .. ولا يسام الذل والهوان .

وقال مثل ذلك الاستاذ عبد الوهاب النجار فى « قصص الأنبياء » .

فذكر أن العلماء يقررون أن حضانة العلم خمس عشرة سنة .. وحضانه الأخلاق اربعين سنة فاذا ابتدأت أمة فى التعلم .. تجنى ثمره العلم بعد خمس عشرة سنة .. أما حضانة الأخلاق فانها لا تجنى الثمرة الا بعد اربعين سنة .. حتى يفنى الجيل الذى نشأ فى الذل والاستعباد .. وينشأ جيل الف الحرية .. ولم تذلهم العبودية .

* * *

واذا وقف القارىء من آية التيه .. عنــد قوله تعالى ((فانها محرمة عليهم)) .. ثم بدأ بقوله ((أربعين سنة يتيهون فى الأرض)) .. دل ذلك على تحريم دخولهم الأرض المقدسة .. تحريما مطلقا بالنسبة للقوم الذين تمردوا على موسى .. وخرجوا عن طاعته .. فلم يدخلها منهم احد .. وانما دخلها ابناؤهم .. بعد مضى اربعين سنة .. بقيادة يوشــع بن نون .. كما ســنذكر ذلك فى حينه ان شاء الله تعالى .

* * *

ولم يذكر فى التوراة عن هذا الموقف .. غير ما جاء فى سفر الخروج من وجود صراع شــديد بين موسى وقومه .. ووصفهم بصلابة الاعناق .. وغلظة القلب .. وأن الله عوفهم فى البرية مدة أربعين ســنة .

* * *

وقد اختلف المفسرون فى :

هل كان موسى وهارون معهم فى التيه :

فيقول بعضهم : انهما لم يكونا معهم .. لان موسى طلب من الله التفريق بينهما وبينهم .. بقوله « فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين »

ويقول البعض الآخر : انهما كانا معهم .. ولكنه كان لهما روحا وسلاما .. كما كانت نار ابراهيم – عليه السلام – وكموقف ملائكة العذاب فى جهنم .

ونحن نميل الى هذا الرأى الأخير لسببين :

الأول : أن قول موسى « فأفرق بيننا وبين القوم الفاسقين » أى احكم بيننا وبينهم .. وقد حكم سبحانه بحرمانهم من دخول الأرض المقدسة .. وليست بمعنى التفريق .

الثانى : أن احداثا حصــلت بعد ذلك بين موسى وبينهم فى فترة التيه .. ومنها : حادث ذبح البقرة .. وموقف .. قارون .. وذهاب يوشع بن نون مع موسى للقاء العبد الصالح .

□□□

٥ البقـــرة

كان فى بنى اسرائيل رجل موسر اســـمه عاميل .. قتله ابنا عمه ليرثاه (١) .. حيث لم يكن له ولد .. ولكى يخفـــوا جريمتهم .. حملوه قتيلا والقوه امام بيوت سبط آخــر غير ســبطهم .. ثم طالبوهم بدية ابن عمهم القتيل .. متهمين لهم بقتله .. فانكروا ذلك وتشاحنوا .. ثم لجأ الجميـع الى موسى ليفصل بينهم فى تلك القضية .. والتبس الامر على موسى ــ عليه السلام .. فالقاتل مجهـول .. هؤلاء ينكرون انهـم قتلوه .. وابنا عمه يطالبان بديته .. فماذا يفعل ليعرف الحقيقة ؟

لجا الى الله ليبين له ما خفى فى هــذه الجريمة .. فطلب الله منـــه أن يكلفهم بذبح بقرة .. ويضربوه ببعض اجزائها .. فيحيـا ويخبرهم عن قاتله .. فقال لهم موسى ان الله يطلب منكم أن تذبحوا بقرة .. أمــر عجيب بالنسبة لهم .. جاءوا يسألونه عن القـاتل .. فيامرهم بذبح بقرة ؟ .. ما علاقة هذا بذاك ؟ فقالوا أتهزأ بنا .. وتتخذنا سخرية ؟ . فقال : كيف أهــزأ بكم ؟ .. ان الذى يهزأ بعباد الله ويسخر منهم .. هو الانسان الجــاهل الذى لا يخشى الله .. ولا يخاف غضبه .. ولا يعلم انه قد يكون المستهزأ به ــ بفتح الزاى ــ أفضل عند الله من المستهزىء بكسرها ــ « واذ قال موسى لقومه ان الله يأمركم ان تذبحوا بقــرة ، قالوا اتتخذنا هزوا ؟ قال اعوذ بالله ان اكون من الجاهلين « ٦٧ ص البقرة » .

* * *

وتاكدوا ان الله هو الذى يامرهم بهذا .. ولكنهم عجبوا .. ما هذه البقرة الميتة .. التى يضرب بها الميت فيحيا ؟.. فلابد أن تكون من نوع خاص من البقر .. فقالوا : يا موسى اســأل ربك عن صفة تلك البقرة العجيبة .. « قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هى قال انه يقول انها بقرة لا فارض ولا بكر ، عوان بين ذلك ، فافعلوا ما تؤمرون» ٦٨ صالبقرة .. والفارض هىكبيرة السن .. سميت فارضا لانها فرضت سنها .. اى قطعتها وبلغت نهايتها .. وفى هــذا المعنى يقول احد الشعراء :

لعمرى لقد اعطيت ضيفك فارضا
تســاق اليه ما تقوم على رجـل

والبكر هى الصغيرة السن ..

اما العوان فهى الوسط بين الفارض والبكر .. كقول بعضهم يصف فتيات جميلات : ــ

« نواعم بين أبكار وعون » أى ليس فيهن عجــوز .

ثم عادوا لســؤاله فى اليــوم الثانى ، عن لونها ؟ ..

قال هى صفراء .. فاتحة الصــفرة .. تسر الناظر اليها .. واللون الاصفر .. يبعث فى النفس البهجة .. ويشرح الصدر .. ويزيل الهم ويقول على ــ كرم الله وجهه ــ من لبس نعلا صفراء .. قل همه .. لقوله تعالى « تسر الناظرين » .. « قالوا ادع لنا ربك يبين لنـا ما لونها ، قال انه يقول انها بقرة صفراء فاقـع لونها تسر الناظرين » (٦٩ ص البقرة) .

يقول وهب اذا نظرت اليها خيل اليك ان شعاع الشمس يخرج من جلدها .. ونقــل الكشاف عن الحسن البصرى .. تفسيرا لقوله

---

(١) النسفى والبيضاوى وغيرهما ــ ٦٧ ــ البقرة .

تعالى « صفراء فاقع لونها » اى سوداء شديدة السواد .. ولعله مستعار من صفة الابل لان سوادها تعلوه صفرة .. وبهذا الرأى فسر قوله تعالى فى وصف لهب جهنم فى سورة المرسلات « كأنه جمالة صفر » ..

ويقول الاعشى فى هذا المعنى ايضا :

تلك خيلى منه وتلك ركابى

هن صفر أولادها كالزبيب

غير ان هذا المعنى لا يتناسب مع قوله تعالى « تسر الناظرين » فليس من المنطق ان نقول اسود يسر الناظرين اليه ..

ثم عادوا ايضا لسؤاله فى اليوم الثالث ، عن صفتها مرة اخرى ؟ .. فقد اشتبه عليهم الأمر .. حيث يوجد تحت انظارهم الكثير من البقر العوان الصفر .. فأيها يذبحون ؟ .

ويقول - عليه الصلاة والسلام - « لو اعترضوا أدنى بقرة فذبحوها لكفتهم ولكنهم شددوا فشدد الله عليهم » ..

وكثرة السؤال والاستقصاء شؤم فى كل قضية من قضايا المجتمع ، وعن عمر بن عبد العزيز ، يقول : اذا أمرتك ان تعطى فلانا شاة .. سألتنى أضان ام ماعز ؟ .. فان بينت لك قلت : أذكر أم انثى ؟.. فان أخبرتك .. قلت: اسوداء ام بيضاء ؟ .. فاذا أمرتك بشىء فلا تراجعنى .. وفى الحديث « أعظم الناس جرما .. من يسأل عن شىء لم يحرم .. فحرم لأجل مسألته » .

« قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هى ان البقر تشابه علينا وانا ان شاء الله لمهتدون » (٧٠ البقرة) فى هذه المرة قالوا ان شاء الله .. وفى الحديث : « لولم يستثنوا لما بينت لهم آخر الابد »

وكلمة « لمهتدون » تحمل معنى الهداية الى البقرة او الى القاتل .. وقال لهم موسى « انه يقول انها بقرة لاذلول تثير الأرض ، ولا تسقى الحرث مسلمة لا شية فيها » (٧١ ص البقرة) .

لم تذلل ولم تعلم ولم تستعمل بعد فى حرث الارض او سقيها .. ولا شىء فيها من عيب .. أو علامة مميزة .. او لون يخالف الصفرة الفاقعة .. « قالوا الآن جئت بالحق » (٧١ البقرة) .

ولهذه البقرة قصة ، تقول :

ان شيخا صالحا من بنى اسرائيل .. كانت له عجلة صغيرة .. وأحس انه على وشك الانتقال الى جوار ربه .. وكان له طفل صغير .. فأخذ عجلته واطلقها فى غيضة نائية .. وقال منفعلا يخاطب ربه : اللهم استودعك هذه العجلة لابنى حتى يكبر .

وشب الطفل بارا بأمه .. صالحا كأبيه .. يقسم الليل ثلاثة اثلاث : الثلث الاول للصلاة والثانى للنوم .. والثالث لرعاية أمه ..

فاذا اصبح .. حمل فأسه وحبله .. وذهب يحتطب .. ثم يبيع ما جمعه من الحطب آخر النهار .. فيتصدق بالثلث .. ويشترى طعاما بالثلث الثانى .. ويعطى أمه الثالث الباقى .. ومر الزمن بالعجلة تأكل من اعشاب الغيضة وتشرب من مائها .. وقد اعمى الله عنها العيون : عيون الناس والوحوش ..

واخبرت الأم ولدها بما ترك له ابوه فى الغيضة .. فذهب اليها واحضرها .. وقد كبرت وسمنت .. وكانت هى صاحبة الصفات التى وصل اليها بنو اسرائيل عن البقرة المطلوب ذبحها .. فساوموا المرأة وولدها فى ثمنها حتى بلغ ملء مسكها ذهبا .. اى ملء جلدها .. « فذبحوها ، وما كادوا يفعلون » ٧١ البقرة

وما كادوا ينفذون الامر . « اما خشية الفضيحة بظهور القاتل وأما لغلو ثمنها .. وأما وردت هذه العبارة تبكيتا لهم لكثرة اسئلتهم واستقصائهم ..

* * *

وضرب القتيل بجزء منها .. فعادت اليه الحياة ..

وروى انهم لما ضربوه .. قام باذن الله .. واوداجه تشخب دما .. وقال قتلنى فلان وفلان .. ابنا عمه .. ثم سقط ميتا . فاخذا وقتلا .. وحرما من الميراث .. ولم يورث قاتل بعد ذلك .

وقد اختلف المفسرون فى الجزء الذى ضربوا به القتيل .. فقيل : فخذها اليمنى .. وقيل عظم الغضروف وهو اصل الاذن ..

وقيل عجب ذنبها .. وقيل لسانها .. ويقول الضحاك : ضرب القتيل بلسانها .. ويقول : ان هذا اصح الآراء ... ولعله يقصد أن المطلوب من الضرب هو أن نتكلم القتيل . واللسان وسيلة الكلام

ولكن على اية حال .. فآية الله بارزة جلية .. فحصول الحياة بمس الميت للميت .. يدل على ان المؤثر هو المسبب .. وليست الأسباب .. لان الموتين الحاصلين فى الجسمين .. لايعقل ان تتولد منهما حياة ..

« فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيى الله الموتى .. ويريكم آياته لعلكم تعقلون » (٧٣ البقرة) .

* * *

ولا يخفى ما فى تلك القصة من اهداف سامية..واغراض نبيلة .. وكان الله سبحانه – قادرا على احياء القتيل بدون بقرة أو غيرها .. ولكن فيها : تقرب .. ونفع لليتيم ..وتنبيه على بركة التوكل .. وشفقة على الابناء .. وبر بالوالدين .. وبيان ان الطالب عليه تقديم القربات .. وتحرى الأحسن من هذه القربات. وقد أورد الشيرازى فى تفسيره معنى روحيا جميلا حول هذا الحادث ، فقال :

من أراد أن يعرف أعدى أعدائه .. الساعى فى موته موتا حقيقيا .. فليذبح بقرة نفسه.. وهى الشهوات .. حين يزول عنها شره الصبا .. ولم يلحقها ضعف الكبر .. وكانت معجبة رائعة المنظر .. غير مذللة فى طلب الدنيا .. مسلمة من دنسها .. لاسمة فيها من مقابحها .. فيصل الاثر الى النفس .. فتحيا حياة طيبة .. وتعرب عما به ينكشف الحال .. ويرتفع مابين العقل والوهم من التدارؤ والنزاع.

* * *

ولقد قرات حول هذه البقرة .. الكثير من الخرافات التى لايصدقها عقل .. ولا يستسيغها منطق .. ولا شك انها مدسوسة على كتب الائمة الافاضل .. الذين اجتهدوا وفسروا لنا هذا القصص الكريم .. دسها عليهم قوم موسى من بعد موسى .. فتلك سجيتهم المألوفة .. وهذه طريقتهم المعروفة .. فليس من اللازم ان نقول : ان البقرة كلمت الغلام عدة مرات .. وان ابليس اختطفها منه .. الى آخر هذه الترهات الباطلة .. والأقوال التى تبرز فيها مبالغات لم ترد فى كتاب ولا سنة .. وليس لها هدف ظاهر .. ولاغرض مستتر .. والله سبحانه وجل شأنه – منزه عن ابراز شيء لا هدف له .. ولا غرض منه ..

كما قرات فى كثير من كتب التفسير .. انهم ظلوا يطلبون هذه البقرة اربعين سنة .. وهذا طبعا راى ظاهر البطلان .. فليس بمعقول ان يظل القتيل اربعين سنة فى انتظار الجزء الذى سيضرب به ليحيا .. ويخبر عن قاتله .

* * *

اما الاستاذ / عبد الوهاب النجار – فى قصص الأنبياء – فقد راى ان المضروب هو المتهم .. ضربوه بجزء من جسم القتيل .. بيده أو رجله مثلا .. فحصلت له انفعالات عرفوا منها انه القاتل .

وقد ادى به هذا الراى الى بحوث مستفيضة فى علم النفس .. وعلم التحقيق الجنائى .. لاشك انها بحوث قيمة يشكرها له العلم .. ويحمدها له الدين والله جازيه عنها بقدر ما بذل فيها من جهد وعناء .

ولكننا لا نميل الى رايه هذا .. ولا نحيد عن ظاهر النص .. فى احياء الميت .. وخاصة ان الآية صريحة فى قوله تعالى : –

« فقلنا اضربوه ببعضها .. كذلك يحيى الله الموتى ، ويريكم آياته ، لعلكم تعقلون » ..وليس هذا فقط .. وإنما قال على اثرها « ثم قست قلوبكم من بعد ذلك ، فهى كالحجارة او اشد قسوة » (٧٤ البقرة) **مما يدل على انها كانت معجزة** بينة وآية **واضحة** .

□ □ □

٦ موسى وقــارون

ذكرنا سابقا ان موسى عليه السلام ـ كان ابن عمران بن قاهت بن لاوى بن يعقوب .

وبما ان قارون بن يصهر بن قاهت (١) .. فهو ابن عم نبى الله موسى .. أظهر الايمـان به .. ولكنه كان منافقا .. كما نافق السامرى من قبل .. وكان بنو اسرائيل يسـمونه المنور لحسن صورته واناقته .. وقد اجمع المفسرون على انه اقرأ بنى اسرائيل للتوراة .

وما اقبح النفاق وما احطه .. فانه يهـوى بصاحبه من اعلى عليين الى اسفل سافلين .. وكان خليقا بالمنافقين ان يكونوا فى « بدرومات » جهنم « ان المنافقين فى الدرك الأسفل من النار» .. فهم ليسوا اهلا لان يكونوا فى ادوارها العليا .. مع ائمة الكفر .. الذين اظهروا كفرهم .. واعلنوا تمردهم على الله .. كالنمروذ وفرعون وهامان .. فهؤلاء أظهـروا موقفهم حيـــال الايمان .. وانبات السنتهم عما تكنه قلوبهم من عصيان .. اما المنافقون فهم اشد ضررا .. واقوى خطرا .. باطنهم غير ظـاهرهم .. والسنتهم تنطق بعكس ما فى قلوبهم .

وهكذا انحط النفاق بقـارون حتى أورده مصارع الهالكين .. كان فرعون قد ولاه على بنى اسرائيل فظلمهم متجبرا .. وبغى عليهم مستكبرا « ان قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم (٧٦ القصص) .

ولمـا جاوز موسى البحر ببنى اسرائيل .. كانت الرسالة لموسى .. والذبح والقربان لهارون .. فأوجد ذلك ضغينة فى هذا القلب المحترق بنار النفاق .. فلم يسـتطع كتمان ما بنفسه .. فصرح لموسى بذلك قائلا : النبوة لك .. والحبارة لهارون .. فماذا يبقى لى ؟ .. فقال له موسى ليس هذا من عندى .. وانما هو تقدير العزيز العليم .. (٢) وكان قارون كثير الاذى لموسى .. فيأخذ هذا نفسه بالصبر حياله .. تقديسا لحرمة القرابة .

اسبغ الله نعمته على قارون .. فآتاه أموالا لاحصر لها .. ويكفى ان نرى العرض القرآنى الكريم « وآتيناه من الكنوز ما ان مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة » (٧٦ القصص) .

يقول ابو رزين : يكفى الكوفة مفتاح ... وقـد بولغ فى ذكر ذلك بلفظ الكنوز والمفـــاتح والنوء والعصبة واولى القوة والعزم ...

حتى ان بعض المفسرين قال : ان هـــذه المفاتيح كانت حمولة ستين بغلا ... وقرا بديل ابن ميسرة « لينوء » بالياء .. ويقصد أن يفسر المفـاتح بالخزائن .. وعلى اى حال فالتعبير القرآنى يوحى بكثرة الأموال وضخامتها .

فملاه الغرور .. واطغـاه الكبر .. وشمله العجب والفخر .. فهؤلاء بنو اسرائيل وهم عبدة المال .. يقدمون له فروض الطاعة والولاء .. يتملقونه ويتقربون اليه يأمر فيطـــاع ..

---

(١) القرطبى وغيره ـ ٧٦/القصص .

(٢) نفس المصدر السابق .

ويشير باصبعه فيتسابقون الى تنفيذ مايريد .. فزاده ذلك غرورا واستكبارا .

وفى القوم مؤمنون لم يرهبهم قارون بماله .. ولم يمنعهم كثرة اعوانه وانصاره من توجيه النصح اليه .. عله يهتدى .. ويعرف ان هذا فضل من الله عليه يستحق التواضع والشكر .. بدل الكبر والكفر .. فقالوا له : « لاتفرح ان الله لايحب الفرحين » (٧٦ القصص) وقد نهى الله عن الفرح بالعرض الزائل .. فقال « ولا تفرحوا بما آتاكم » وانما الفرح يكون بالتوفيق الى العمل الذى يقرب العبد الى الله « قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا ، هو خير مما يجمعون » ٥٨ يونس كما قال بعض الشعراء :

« ولست بمفراح اذا الدهر سرنى
ولا جازع عن صرفه المتحول »

فلا يفرح بالدنيا الا من رضى بها ... واطمأن اليها .. وأما صاحب القلب المشغول بالآخرة . فانه يعلم ان كل هذا المتاع الدنيوى سيفارقه عن قريب .. فلا تحدثه نفسه بالفرج .. وقد أجاد الشاعر الذى يقول :

اشد الغم عندى فى سرور
تيقن عنه صاحبه انتقالا .

ثم قالوا :ياقارون « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة » بالبذل وصلة الرحم .. ولين الجانب .. وعمل الخير .. « ولا تنس نصيبك من الدنيا » فاطلب آخرتك بدنياك .. والمح نجما قرآنيا .. يتلألأ فى سماء الوجود مشرقا .. من منطوق أهل الجنة « وقالوا الحمد لله الذى صدقنا وعده واورثنا الارض نتبوأ من الجنة حيث نشاء ، فنعم أجر العاملين » الزمر فنحن نعلم يقينا ان الدنيا ليست بدار قرار ..وان الاخرة هى دار القرار .. وان الله سبحانه ـ قد أورثنا الأرض .. ليجهز كل منا مكانه فى الدار الباقية .. التى لا نهاية لها .. فمن جهز لاقامته الابدية وردا وريحانا .. وجد هناك وردا وريحانا .. ومن جهز شوكا وصابا ..وجد شوكا وصابا « انما هى اعمالكم احصيها لكم .. فمن وجد خيرا فليحمد الله .. ومن وجد شرا فلا يلومن الا نفسه » .. ولو كان النفاق ابقى فى قلب قارون بصيصا من النور لتنبهت مشاعره .. وتفتحت بصيرته لنصيحة المؤمنين من قومه .. ولكن غلاف النفاق حول قلبه جعله أشد من الحجارة قسوة .. فلم يصل اليه قولهم : « ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما احسن الله اليك ولا تبغ الفساد فى الارض ان الله لا يحب المفسدين » ٧٧ ـ القصص .

يقول الحكماء : ما نظر احد الى نفسه فافلح .. والسعيد من صرف بصره عن أفعاله واقواله .. وفتح له سبيل رؤية نعمة الله عليه فى جميع الافعال والاقوال .. والشقى من زين فى عينه افعاله واقواله واحواله .. ولم يفتح سبيل رؤية نعمة الله .. فافتخر بها .. وادعاها لنفسه .. فشؤمه يهلكه يوما .. كما خسف بقارون لما ادعى لنفسه فضلا .. حيث قال « انما أوتيته على علم عندى » ٧٨ ـ القصص .

وقيل ان موسى كان قد علم قارون علم الكيمياء .. فكان يحيل الرصاص والنحاس الى ذهب .

وقد اورد صاحب تفسير الكشاف عن **سعيد بن المسيب** :

كان موسى يعلم علم الكيمياء .. فأفاد يوشع بن نون ثلثه .. وكالب بن يوقنا ثلثه .. وقارون ثلثه .. فخدعهما قارون حتى أضاف علمهما الى علمه (١) .. فكان يحول الرصاص والنحاس ذهبا . وادى به علمه وماله أن يقول كلمة الكفر « انما أوتيته على علم عندى » .. وكثيرا ما نقول مثل هذه العبارة ببساطة .. ونحن لا ندرى أبعادها .. ولا نسبر أغوارها.. كأن يقول احدنا : لقد كونت ثروتى بذراعى .. ونميت مالى بشطارتى .. وهزمت اعدائى بشجاعتى .. فينسب التكوين والنماء والانتصار الى ذراعه وشطارته وشجاعته .. ناسيا ان الله هو المحرك والمدبر والمقدر .. وتلك طبيعة الانسان « ثم اذا خولناه نعمة منا قال انما اوتيته على علم ، بل هى فتنة ولكن اكثرهم لا يعلمون » ـ الزمر .

ولهذا كان تعليق القرآن على قول قارون « أولم يعلم ان الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد قوة واكثر جمعا ، ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون » (٧٨ القصص) ..

(١) الكشاف والقرطبى ٧٨/القصص .

وما فرعون وهامان منه ببعيد ..

***

وتحدى قارون ناصحيه .. وقد أعماه الشيطان .. فلم يعلم أنه بذلك انما يتحدى نفسه الأمارة بالسوء .. التى أعماها البطر .. واضلها الغى .. وأفسدتها النعمة .. ففى يوم السبت خرج عليهم فى موكب من الزينة لا حد له « **فخرج على قومه فى زينته** » (٧٩ ـ القصص) .. زينة الحياة الدنيا .. التى حددها الله لنا بسورة آل عمران فى ستة عناصر هى : النساء والبنين ، والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة ، والخيل المسومة ، والأنعام والحرث ، وسماها متاعا .. تحقيرا لقيمتها .. وتصغيرا لشأنها . قال الحسن : خرج فى الحمرة والصفرة .. وقيل : خرج على بغلة شهباء .. عليها الأرجوان .. وعليها سرج من الذهب .. ومعه أربعة آلاف على زيه .. وحوله الغلمان والجوارى الحسان ... ويسيل لعاب هؤلاء الذين يعشقون الحياة الدنيا .. وتبهر أعينهم بزينتها وترفها ومتاعها.. **فقالوا** « **ياليت لنا مثل ما أوتى قارون انه لذو حظ عظيم** » (٧٩ القصص) . حظ عظيم فى الغنى والبذخ والثراء .. تمنوا أن يكون لهم مثله .. على سبيل الرغبة فى اليسار ورغد العيش ، ... ولامؤاخذة عليهم فى هذا التمنى .. فتلك طبيعة البشرية .. وقد تمنوا مثل نعمته دون أن تزول عنه .. فتكون منهم غبطة لا حسدا .. لان الحاسد يتمنى نعمة صاحبه له دونه .

وقيل لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ هل يضر الغبط ؟ قال : « لا .. الا كما يضر العضاة الخبط » (١) .

ولكن فريق المؤمنين قالوا لهم : لو كان الايمان قد لامس شغاف قلوبكم .. لعلمتم أن هذا كله عرض زائل .. **ومتاع مؤقت .. لاقيمة له بجانب ما عند الله من ثواب دائم ونعيم مقيم: « وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا ، ولا يلقاها الا الصابرون » (٨٠ القصص)** .

□□□

---

(١) العضاه : الشجر الذى يعظم وله شوك .. واحدهاعضاهه .. والخبط : اى الضرب بالعصا .

٧ قارون يؤذي موسى

تحدث المفسرون وافاضوا فى اذى قوم موسى له تفسيرا لقوله تعالى : **« يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبراه الله مما قالوا ، وكان عند الله وجيها » (٦٩ الاحزاب) .**

ويمكن تلخيص هذه الآراء فى ثلاثة اقوال :

الأول : ان بنى اسرائيل اتهموا موسى بعيب فى جسمه .. كالادرة « الدوالى » أو البرص .. وجرى الحجر بملابسه وهو يستحم .. وجرى هو خلفه عاريا .. يقول ثوبى حجر .. ثوبى حجر .. حتى راوه بريئا من تلك العيوب المزعومة .

والثانى : — لما مات هارون اتهموا موسى بقتله .. فأمر الله سبحانه — الملائكة بحمل هارون على سرير والطواف به على مجالسهم .. حتى راوه لا اثر فيه للقتل .

والثالث : — ان قارون دس على موسى — عليه السلام — بغيا لتتهمه بالزنا معها فاعترفت بالحقيقة .. وبراه الله من هذا الاتهام .

ولكل راى من تلك الاراء احاديث تعززه .. وردت بعدة اسانيد ...

ولكن الراى الذى ارتاحت اليه نفسى .. عملا بما ورد فى الحديث « استفت قلبك وان افتوك وافتوك » هو الراى الاخير .. وقد رآه اغلب المفسرين .. ومنهم الألوسى والبيضاوى وابن الاثير والكشاف والقرطبى والنسفى .. واخذ به ودافع عنه بحرارة الأستاذ عبد الوهاب النجار فى كتابه قصص الانبياء .

وذلك انه لما نزلت فريضة الزكاة على بنى اسرائيل .. اتفق موسى مع قارون على كل ألف دينار دينارا .. وعلى كل ألف درهم درهما .. وحسبها قارون .. فوجدها تمثل اموالا كثيرة .. ومبالغ ضخمة .. فشحت بها نفسه ..

وأراد الكيد لموسى — عليه السلام — ليتخلص من دفعها ... جمع قومه .. وكانوا يخشونه لغناه وبذخه وسطوته .. وقال لهم : ان موسى يريد اخذ اموالكم اغتصابا وبهتانا .. وظلما وعدوانا .. فماذا ترون ؟ فقالوا الامر لك يا قارون .. فأدل برأيك .. ونحن موافقون جميعا على ما ترى . ورأى قارون أن يسلك فى هذا الامر طريقا خسيسا .. ويتبع سبيلا دنيئا .. أو هكذا أوحى اليه شيطانه .. وصور له حقده ونفاقه .. فأصر فى نفسه أمرا .. فاستدعى غانية بغيا .. وأغراها بالمال .. والغوانى يغرهن الذهب الرنان .. وروى انه جعل لها طستا من ذهب .. وقيل طستا من ذهب مملوءا ذهبا .. على ان تتهم موسى — عليه السلام — بالزنا معها على ملأ من بنى اسرائيل ..

وقف موسى يوم عيدهم خطيبا فيهم .. يعظهم ويرشدهم ويعلمهم ما أوحى الله اليهم فى التوراة .. من شريعة ابراهيم واسحاق ويعقوب .. يأمرهم بالخير والمعروف .. وينهاهم عن الشر والمنكر .. الى أن قال : يا بنى اسرائيل : من سرق قطعناه ومن افترى جلدناه .. ومن زنى وهو غير محصن جلدناه .. وان احصن رجمناه ....

ووجد قارون الفرصة سانحة لبث سمومه التى اعدها .. وتنفيذ حيلته التى كادها .. فقال : وان كنت انت يا موسى ؟ قال : وان كنت انا .. قال : فان بنى اسرائيل يزعمون انك فجرت بفلانة المومس ....

ووقف موسى والقـــوم مبهوتين من اثـر الصدمة .. ولكن موسى تدارك الموقف بطلبها للحضور أمام القوم .. وحضرت ...

فناشدها موسى بالذى فلق البحر .. وفجر الحجر .. وأنزل التوراة .. أن تصـــدق فى قولها .. « والقلب بين اصبعى الرحمن يقلبه كيف شاء » فتداركها الله بلطفه .. ووجه قلبها الى الحق .. وحرك لســانها بالصـــدق .. فقالت : كذب والله قارون .. لقد جعـل لى جعلا على أن أقذفك يا رسـول الله بنفسى .. فخر موسى ســاجدا يبكى .. ثم قال : يا رب ان كنت رسولك ـ وهذا حق فاغضب لى ...

وغاصت الأرض بقارون الى ركبتـــه .. فصرخ واستغاث بموسى .. فلم يلتفت اليه .. ثم ابتلعته الى وســـطه فصرخ واســـتغاث بموسى .. فلم يلتفت اليه .. ثم ابتلعته الى عنقه فصرخ واســتغاث بموسى .. فلم يلتفت اليه .. ثم أطبقت عليه الأرض ...

وروى ان الله أوحى الى موسى :
استغاث بك مرارا فلم ترحمه .. اما وعزتى لو اياى دعا مرة واحدة لوجدنى قريبا مجيبا (١).

وقيل : ان بنى اسرائيل .. لما خسف الله الأرض بقارون قالوا : لقد دعا موسى ربه ليهلك قارون .. حتى يرث ماله ودياره .. فدعا الله حتى خسف بداره وأمواله الأرض .

« فخسفنا به وبداره الأرض ، فما كـان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كـان من المنتصرين » (٨١ القصص) .

ويقول ابن جريج بلغنا انه يخسف بهم كل يوم قامة .. فلا يبلغون أسفل الأرض الى يوم القيامة وفى الخبر « اذا وصل قارون الى قرار الأرض .. نفخ اسرافيل فى الصور » ..

* * *

وتنبه هؤلاء الغافلون .. الذين كانوا يغبطون قارون على ترفه وزينته .. وأمواله وابهته .. وعرفوا أن ما عند الله ابقى واخلد ...

« واصبح الذين تمنوا مكانه بالامس يقولون ويكأن الله يبســط الرزق لمن يشــاء من عباده ويقدر ، لولا ان من الله علينا لخسف بنا ويكانه لا يفلح الكافرون » (٨٢ القصص) . ولعـل العبرة واضحة ايما وضوح .. والعظة جلية اقوى جلاء ...

« تلك الدار الاخرة تجعلها للذين لا يريدون علوا فى الأرض ولا فسادا ، والعاقبة للمتقين » (٨٣ القصص) .

* * *

ونجى الله موسى وهارون والمؤمنين معهما .. وأهلك أعداءهم .. فرعـون هامان وقارون ، كما قال تعالى :

« وقارون وفرعون وهامان ، ولقد جاءهم موسى بالبيـــانات ، فاســـتكبروا فى الأرض وما كانوا سابقين » (٣٩ العنكبوت) ..

□□□

(١) القرطبى ٧٦/القصص .

« قال له موسى هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشـــدا »

(٦٦ ـ الكهف)

○ موسى طالب علم

الفصل السابع

١ رحلة اللقاء

روى أن موسى سأل ربه : **أى عبادك أحب اليك ؟ .. قال الذى يذكرنى ولا ينسانى .. قال فأى عبادك أقضى ؟ .. قال الذى يقضى بالحق .. ولا يتبع الهوى ... قال : فأى عبادك أعلم ؟** .. قال الذى يبتغى علم الناس الى علمه .. عسى أن يصيب كلمة تدله على هدى .. أو ترده عن ردىء .

فقال موسى : يا رب ، ان كان فى عبادك من هو أعلم منى .. فدلنى عليه .. قال : أعلم منك الخضر .... قال : أين أطلبه ؟ .. قال : على الساحل .. عند الصخرة .. قال يا رب كيف لى به ؟ .. قال : تأخذ حوتا مملحا فى مكتل .. فحيث فقدته فهو هناك (١) .. وانشغل موسى بهذا الأمر .. واصر فى نفسه على لقاء هذا العبد .. ولم يعد يملأ عليه تفكيره .. غير رؤيته .. والتحدث اليه .. والاستماع منه ..

فما كان موسى يعلم أن على الأرض من هو أعلم منه .. فقد روى أن رجلا من بنى اسرائيل سأله : هل على وجه الأرض من هو أعلم منك يا نبى الله ؟ .. قال : لا .. فعتب الله عليه .. حيث لم يرد العلم اليه ـ سبحانه (٢) .

فبعث اليه جبريل ـ عليه السلام ـ فقال له : ما يدريك أين أضع علمى : ... بل أن لى عبدا عند مجمع البحرين .. أعلم منك .. فسأل موسى ربه أن يريه أياه ...

ولكن أين هو ؟ .. وكيف ألقاه ؟ .. فالمكان مجهول .. لا يعرف عنه الا أنه عند مجمع البحرين ... وهو لا يدرى .. أى بحرين سيلتقى عندهما بهذا العبد الصالح .. يطلب العلم على يديه .. لأنه أعلم منه ..

* * *

وانطلق موسى .. ليبدأ رحلة طلب العلم .. مسلما وجهه الله .. ليهديه سواء السبيل .. ويسلكه الطريق .. وذلك بعد أن استدعى فتاه يوشع .. هذا الفتى التقى الصالح المطيع .. فهو يوشع بن نون بن افرائيم بن يوسف ـ عليه السلام ـ الذى القطع لخدمة نبى الله موسى .. وملازمته ليله ونهاره .. يخدمه ويتعلم منه علم الله .. قال له : يا يوشع .. أحضر حوتا مملحا .. وضعه فى مكتل .. واتبعنى .. ولم يكن من عادة يوشع أن يسأل موسى عليه السلام ـ عن شىء حتى يحدثه هو به .. فلم يقل له الى أين نتجه ؟ .. أو ما هو الهدف من سيرنا ؟ ..

وكفاه موسى هذه الاسئلة .. فقال له : يا يوشع .. سأظل ضاربا فى الأرض حتى أبلغ مجمع البحرين ... ولو مضيت فى سيرى على هذا الحال أحقابا من الزمن .. أعواما وقرونا .. حتى أصل الى المكان الموعود للقاء عبد من عباد الله ...

« واذ قال موسى لفتاه ، لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضى حقبا » (٦٠ الكهف) .

ويكاد المفسرون يجمعون على أن البحرين هما بحر الفرس وبحر الروم .. وان كان محمد

---

(١) تفسير النسفى والبيضاوى وغيرهما ٦٠ الكهف .

(٢) البيضاوى وغيره ٦٠/الكهف .

ابن كعب قال : « طنجة » .. أى ملتقى البحر الابيض بالمحيط الاطلسى .. وهذا بعيد الاحتمال ... لبعد المسافة بين سيناء وطنجة ... ولمعقولية ملتقى بحرى الفرس والروم لقربهما من مكان الاحداث ... ولا يبعد حدوث تغيرات جغرافية فى هذا المكان .

وقال بعض آخر ان البحرين هما موسى والخضر .. فيقولون : موسى بحر علم الظاهر .. والخضر بحر علم الباطن .. وأرى فى هذا الراى شيئا من التكلف الظاهر والباطن ...

فاذا كان الحديث يقول « ان للقرآن معنى ظاهرا .. ومعنى باطنا .. وحدا .. ومطلعا » فالظاهر : اسماء وكلمات وسور ... والباطن : معان وأسرار .. والحد : تفصيل واحكام .. والمطلع : شهود وكشف .. فكيف تقول : أن موسى — عليه السلام — لم يخرج عن منطقة الظاهر ؟ .. اظن أن هذا غير جائز فى حقه مطلقا ...

* * *

سار موسى وفتاه لا يلويان على شىء .. وامتد بهما السفر .. وطال عليهما الطريق .. يجلسان للراحة ساعة أو ساعات .. ثم يستأنفان رحلتهما فى علم الواسع العليم ...

وذات ليلة مقمرة ... ادركهما المساء عند صخرة على ساحل البحر .. وغلب النوم موسى فنام .. وجلس يوشع بجانبه حارسا أمينا .. ووليا مخلصا .. فرأى أمرا عجبا ... رأى الحوت يضطرب فى المكتل .. وقد دبت فيه الحياة .. ثم انساب فى البحر متسربا .. لا تغطى المياه طريقه فيه .. فقد أمسك الله جرية الماء على الحوت .. فصار كالطلق عليه .. يقول وهب بن منبه : ظهر فى الماء من أثر جرى الحوت .. أخدود أشبه بنهر .. من حيث دخل الى حيث انتهى .. واخذ يوشع من هول المنظر .. واعجاز الاية .. فظل ساهما مشدوها .. متأملا قدرة الله فى أحياء هذا الحوت الميت .. حتى استيقظ موسى — عليه السلام من نومه .. واستأنفا رحلتهما من جديد ..

« فلما بلغا مجمع بينهما نسيا حوتهما فاتخذ سبيله فى البحر سربا » (٦١ الكهف) ...

نسى موسى أن يسأل يوشع عن الحوت .. ونسى يوشع ان يخبر موسى بما حصل ..

وفى المرحلة التالية : ألقى الله التعب والجوع على موسى .. فطلب من فتاه أن يأتى بالحوت ليأكلا ...

« فلما جاوزا قال لفتاه آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا . قال أرأيت اذ أوينا الى الصخرة فانى نسيت الحوت وما انسانيه الا الشيطان أن أذكره ، واتخذ سبيله فى البحر عجبا » (٦٢ — ٦٣ الكهف) .

فسبيل الحوت سرب بالنسبة اليه وعجب بالنسبة الى يوشع وموسى .. وقد اسند يوشع النسيان الى الشيطان .. تأدبا منه مع نفسه وهضما لها .. مع أن نسيانه كان من شدة انفعاله وتعجبه وانشغاله بمحدث الحادث عن الحادث نفسه .. كما أن فى هذا القول اعتذارا لطيفا منه لسيده ومعلمه .. فقال موسى « ذلك ما كنا نبغ » فهذا هو المكان الموعود الذى أبتغيه .. حيث أخبرنى ربى .. اننى سألقى العبد الصالح عند مكان سيحصل فيه امر خارق للعادة .. فعد بنا يايوشع الى هذا المكان .. وعادا يقصان أثرهما على الرمال خطوة خطوة .. « فارتدا على آثارهما قصصا » (٦٤ الكهف) .

ووصلا الى الموقع المنشود .. ووجد موسى طريق الحوت ظاهرا فى البحر .. وقد انكشف عنه الماء .. متجمدا على جانبيه .. ورأى نفسه يسير فيه على أثره .. ولكن الماء صار يلتئم خلفه مباشرة .. فسد الطريق امام يوشع الذى ظل واقفا بالشاطىء .. ومشى موسى فى طريق الحوت حتى انتهى به الطريق الى جزيرة صغيرة .. جلس بها رجل وقور .. عليه هيبة وجلال لم يرهما موسى فى انسان من قبل .. يرنو بناظريه الى السماء .. « فوجدا عبدا من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما » (٦٥ الكهف) .

وجد موسى العبد الصالح فى الجزيرة .. كما رآه يوشع على البعد .. وهو واقف بالشاطىء وروى أبى بن كعب عن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قال « انجاب الماء عن مسلك الحوت » .. فصار كوة لم يلتئم ..

فدخل موسى الكوة على اثر الحوت .. فاذا هو بالعبد الصالح .. فقال موسى : السلام عليك أيها العبد الصالح .. ويلتفت هذا الى موسى ، قائلا وأنى بأرضك السلام .. ياموسى ؟ ..

وعجب موسى لمناداته له باسمه .. فقال : من اعلمك باسمى ؟ قال : أعلمنى الذى أرسلك الى .. وفى البخارى : فوجدا خضرا على طنفسة خضراء .. على كبد البحر .. مسجى بثوبه .. (١) . قد جعل طرفه تحت رجليه — وطرفه تحت راسه .. فسلم عليه موسى .. فكشف عن وجهه . قال : هل بأرضك من سلام ؟ قال « قال له موسى هل أتبعك على أن تعلمنى مما علمت رشدا » (٦٦ الكهف) .

موسى — عليه السلام — يطلب العلم على يد هذا المعلم الغريب العجيب .. وقد امتلأ قلبه له اجلالا واعظاما .. ورهبة واحتراما .. وقد راعى فى طلبه غاية التواضع والأدب .. فاستجهل نفسه .. واستأذن ان يكون تابعا له .. وسأله ان يرشده .. وينعم عليه بتعليم بعض ما أنعم الله عليه .

موسى الذى قال الله له « ولتصنع على عينى » ويقول له أيضا « واصطنعتك لنفسى » يطلب العلم فى ادب وخشوع .. وذلة وخضوع .. مما يدل على أنه لا ينبغى لأحد ان يترك طلب العلم .. مهما بلغت درجته فيه لأن العلم صفة من صفات الله — سبحانه — وصفات الله لا نهاية لها .. وان يتواضع لمن هو أعلم منه .

فمن هو هذا العبد الصالح .. الذى تكون موسى الكليم منه فى منزلة الطالب من استاذه ؟ .. أرجو أن يوفقنا الله فى تسليط الأضواء عليه حتى نراه .. ونتعرف عليه قبل نهاية هذا الفصل ان شاء الله تعالى .

ويبدأ حوار بين الطالب والأستاذ .. فيقول الاستاذ ردا على سؤال موسى الذى قال فيه « هل اتبعك على ان تعلمنى » .. ؟ — « قال انك لن تستطيع معى صبرا » ٦٧/الكهف فنفى عنه استطاعة الصبر معه .. مع وجوه من التأكيد .. كأنها من غير الممكنات .. ثم علل السبب فى ذلك بقوله « وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا » (٦٨ الكهف) أى كيف تصبر وانت نبى — على ما اتولى من أمور .. ظواهرها منكرة .. وبواطنها لم يحط بها خبرك وعلمك ؟ ..

ويكون رد موسى اشد وقعا فى الطاعة والولاء .. فيقول « سنجدنى ان شاء الله صابرا ، ولا اعصى لك امرا » (٦٩ الكهف) .

وقبل العبد الصالح مرافقة موسى .. لما رآه قد قدم المشيئة .. بعد ان اشترط عليه عدم السؤال عن أى عمل يباشره .. حتى يحدثه هو عنه .. » قال فان اتبعتنى ، فلا تسألنى عن شىء حتى أحدث لك منه ذكرا » (٧٠ الكهف) .

وقبل موسى — عليه السلام — هذا الشرط .

وتبدأ رحلة العلم الجديد على موسى .. رحلة العلم اللدنى .. المجرد عن الأسباب والمسببات .. لأن مبرزه هو خالق الأسباب والمسببات .. فانطلقا يسيران على شاطىء الجزيرة .. فيلمح موسى عصفورا .. يسقط على سطح الماء فيأخذ بمنقاره قطرة ثم يطير .. ويبتسم العبد الصالح .. قائلا : ياموسى .. لقد خطر ببالك أنك أعلم أهل الأرض .. ما علمى وعلمك .. وعلم الاولين والآخرين فى جنب علم الله تعالى .. الا اقل من الماء الذى حملته الخطافة بمنقارها .. ثم رأيا سفينة مقبلة من بعيد .. فطلب من موسى أن يشير اليها ليركبا فيها وركبا فيها ..

* * *

وانطلقت السفينة الى عرض البحر .. وقد ازدحمت بركابها .. تتهادى بين الامواج فى هدوء ويسر .. حيث استقام معها الريح .. وهدأت حولها الأمواج .. واذا بموسى يجد صاحبه وقد امسك بقطعة من الحديد .. يعمل بها فى قاع السفينة .. حتى أوجد فيها خرقا .. بدأ الماء يتسرب منه الى داخلها .. فأسرع موسى بملابسه يسد بها الخرق .. ليمنع الماء خشية الغرق .. وقال له فزعا « أخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيئا امرا » (٧١ الكهف) .

والشىء الامر .. هو الذى يعود ضرره على مجتمع لا على فرد .. ومنه اخذت كلمة

(١) القرطبى ٦٤/الكهف .

المؤامرة .. ويفاجئه العبد الصالح بقوله .. « الم اقل انك لن تستطيع معى صبرا » (٧٢ الكهف) .

ويتذكر موسى انه خالف الشرط المتفق عليه .. فيقول فى لهفة وتذلل : « قال لا تؤاخذنى بما نسيت ولا ترهقنى من أمرى عسرا » (٣٧ الكهف) ومرة اخرى .. من هذا العبد الذى يتذلل له موسى - عليه السلام - ويطلب منه ألا يرهقه من امره عسرا ؟ .. من ذا الذى يستطيع أن يرهق موسى كليم الرحمن ؟ .. ويغفر العبد الصالح لموسى هذا الخطأ .. فيمسكه من يده .. واذا بهما واقفان على الشاطىء .. ورأى موسى السفينة فى البحر على البعد .. تضطرب بأشرعتها قليلا .. ثم تعود الى اعتدالها واستقامتها .. منطلقة الى غايتها .. فعلم أن القوم قد اصلحوا الخرق الذى حصل بها .

وانطلقا معا .. فوجد موسى غلاما جميل الصورة .. حسن القسمات .. ما زال فى عمر الزهور .. قتله العبد الصالح .. وكثرت الآراء فى الطريقة التى قتل بها العبد الصالح هذا الغلام .. فقال بعضهم : فتل عنقه بيده .. وقال آخرون : رضخ رأسه فى الحائط فتناثر مخه .. وقال البعض : أضجعه على الأرض وذبحه .. وكلها مناظر تقشعر منها الأنفس .. وتتنافى مع الرحمة التى اتصف بها هذا العبد الصالح .. حيث قال الله عنه « آتيناه رحمة من عندنا » فأين الرحمة الظاهرة فى أى من الحالات الثلاث؟ .. فتل العنق .. او رضخ الراس او الذبح ؟

كل ما فى الامر أنه اشار الى الغلام بيده .. على مرأى من موسى .. وكأنه قد سلط عليه اشعاعا ذريا .. فخر الغلام ميتا .. لأن علم الخضر لدنى .. « وعلمناه من لدنا علما »والعلم اللدنى لا تعلق له بالأسباب .

فآلم ذلك الأمر موسى .. فقال : ياسيدى لم قتلت هذه النفس الطاهرة الزكية .. التى لم ترتكب ذنبا .. ولم تفعل جرما .. تستحق عليه القصاص بالقتل .. « فانطلقا حتى اذا لقيا غلاما فقتله ، قال اقتلت نفسا زكية بغير نفس لقد جئت شيئا نكرا » (٧٤ الكهف) .

وفى تلك المرة .. قال « شيئا نكرا » ولم يقل امرا .. لأن الضرر هنا فردى بالنسبة للطفل واهله فقط .

ويبتسم العبد الصالح .. متطلعا الى موسى قائلا : ألم أقل لك انك لن تستطيع معى صبرا (٧٥ الكهف) .

ويضطرب امر موسى .. فقد نقض الاتفاق مرتين .. فأسف وقال « ان سالتك عن شىء بعدها فلا تصاحبنى قد بلغت من لدنى عذرا » (٧٦ الكهف) .

واسند الطبرى قال كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - اذا دعا لأحد بدأ بنفسه .

فقال يوما : « رحمة الله علينا وعلى موسى ..لو صبر على صاحبه لرأى العجب»..ولكنه قال « فلا تصاحبنى » والذى فى صحيح مسلم .. قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - « رحمة الله علينا وعلى موسى لولا أن عجل لرأى العجب ولكنه اخذته من صاحبه ذمامة .. ولو صبر لرأى العجب .

وفى البخارى عن النبى - صلى الله عليه وسلم - قال : « يرحم الله موسى .. لوددنا انه صبر حتى يقص علينا من أمرهما » (١) والذمامة: الرقة والعار .. وكأنه استحيا من تكرار مخالفته .

واستأنفا رحلتهما ، وادرك موسى الجوع.. فهو لم ياكل من قبل ان يلقى العبد الصالح .. ودخلا قرية .. وصفها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بقوله فى حديث أورده الامام النسفى فى تفسيره يقول « كانوا اهل قرية لئاما» وقيل شر القرى فى البخل بالقرى .. واسمها انطاكية .. او ايلة البصرة .. فهى لا تضيف الضيف ولا تعرف لابن السبيل حقه ..

---

(١) القرطبى ٧٦/الكهف .

قالوا : فلم يجدا تلك الليلة فى تلك القرية قرى ولا ماء ولا ماوى .. وكانت ليلة باردة .. فالتجآ الى حائط على الطريق .. يكاد ينهدم ويسقط .. يتحاشاه الناس خوفا من انهياره..

قال ابن عباس : هدمه وبناه .. وقال سعيد بن جبير : مسح الجدار وسواه بيده ومنكبيه فاستقام .. ورأى ابن عباس اقرب الى المنطق .. لقول موسى « لو شئت لاتخذت عليه اجرا » « فانطلقا حتى اذا اتيا اهل قرية استطعما اهلها ، فابوا ان يضيفوهما ، فوجدا فيها جدارا يريد ان ينقض فأقامه » (٧٧ الكهف) .

وتظهر بلاغة القرآن فى اسناد الارادة الى الجدار .. وقد استعارها بعض الشعراء فى قوله :

يريد الرمح صدر ابى براء
ويعدل عن دماء بنى عقيل

اقام العبد الصالح الجدار بمساعدة موسى

.. وقد آلم موسى الجوع .. فلم يطق صبرا .. فنسى .. وقال : « لو شئت لاتخذت عليه اجرا » (٧٧ الكهف) .. نستعين به فى شراء طعام على الاقل .. فقد عضنى الجوع ..

ويصدر الأمر بانتهاء الرحلة عند هذا الحد .. « قال هذا فراق بينى وبينك ، سانبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبرا » (٧٨ الكهف) .. فمن انت ايها العبد الصالح ؟ ..

□□□

(١) القرطبى ٧٦/الكهف

٢ قصور العلم البشرى

حقا « وما اوتيتم من العلم الا قليلا » فعلم الانسان كبشر .. مهما بلغ من ارتقاء .. فهو متعلق بالظاهر فقط .. « يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا » .. ولله ـ سبحانه ـ علينا نعم ظاهرة .. واخرى باطنة « واسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة » .. لا ندريها الا بما شاء .. « وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم .. وعسى ان تحبوا شيئا وهو شر لكم » .. فمن كان يظن ان خرق سفينة تشق عباب البحر .. وقد ازدحمت بركابها .. وأوشكت على الغرق بمن فيها وما فيها .. أقول من كان يظن ان فى باطن هذا الشر الكبير خيرا كثيرا لأصحابها ..

« اما السفينة فكانت لمساكين يعملون فى البحر فأردت ان اعيبها ، وكان وراءهم ملك ياخذ كل سفينة غصبا » (٧٩ الكهف) .

ستمر السفينة فى طريقها بملك ظالم .. يقول النسفى : ان اسمه جلندى .. اذا اعجبته سفينة اغتصبها من اصحابها بغير ثمن او تعويض .. ويقول العبد الصالح .. « فأردت ان اعيبها » .. بهذا الخرق .. حتى لا نغتصبها من اصحابها وهم مساكين .. والله ولى المساكين .. آتاهم الله باطن الخير فى ظاهر الشر .. وجاءت كلمة وراءهم « وكان وراءهم ملك » تفيد معنى امامهم .. مثل قوله تعالى : « من ورائهم برزخ » اى أمامهم .. وقول زكريا ـ عليه السلام : « وانى خفت الموالى من ورائى » .. وقوله : « من ورائهم جهنم » .. وكانت كلمة وراء محل نقد علمى لبيت من الشعر .. قاله أمير الشعراء احمد شوقى .. فى مدح الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ هو :

صلى وراءك منهم كل ذى خطر
ومن يغـز بحبيب الله يأتمم

فاذا كانت وراء .. تفيد معنى امام .. فقد هدم البيت .. فكيف نبنيه ؟ قالوا بناؤه .

وقام خلفك منهم كل ذى خطر

ولتؤدى ايضا معنى اقام الصلاة

فاذا اردنا ان نذكر كلمة (ورائى) بمعنى خلفى .. وجب ان نقول : وراء ظهرى .. اى امام ظهرى .

ثم ياتى المشهد الثانى : لنرى الحكمة فى قتل غلام صغير .. لا حول له ولا قوة .. فيقول العبد الصالح .. « واما الغلام فكان أبواه مؤمنين .. فخشينا ان يرهقهما طغيانا وكفرا فأردنا أن يبدلهما ربهما خيرا منه زكاة وأقرب رحما » (٨٠ ـ ٨١ الكهف) .

فالله سبحانه ـ يعلم أن هذا الغلام مطبوع على الكفر .. ولكن لايمان أبويه .. وخشية عليهما من طغيان هذا الغلام .. عندما يشب ويكبر .. هبت نسمة رحمة بهذين الأبوين المؤمنين .. لتطيح بهذا الغلام .. فيحتسبانه صابرين عند الله .. فيبدلهما خيرا منه صلاحا وتقوى .. وصلة رحم .. فيكرمهما عند شيخوختهما ..

الظاهر فى الحادث شر مستطير .. اب وأم يجدان وحيدهما الغلام الجميل ميتا .. بعد أن بلغ السعى .. لا شك أنها كانت بالنسبة لهما ليلة ليلاء .. احتملاها فى عزة الصبر .. ونور الايمان .. فهى منحة فى الباطن .. محنة فى الظاهر .

وعن ابن عباس أن نجدة الحرورى .. كتب اليه : كيف جاز لعالم موسى ان يقتل الغلام ..

وقد نهانا النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن قتل الولدان ؟ .

فكتب اليه يقول : ان كنت علمت من حال الولدان ما علمه عالم موسى .. فلك ان تقتل الولدان (١) .

وقال بعض المفسرين : ولدت لهما جارية فتزوجها نبى .. فولدت له نبيا هدى الله به أمة من الأمم ..

ولكن الأغلب على أن الله رزقهما ولدا صالحا تقيا .. أكرمهما الله به فى كبرهما ..

* * *

اما المشهد الأخير .. فنرى فيه قرية .. ضرب بها المثل فى البخل والشح .. لا يوجد فيها غير بيت واحد من بيوت الكرم .. مات عائله تاركا ولدين يتيمين .. لا حول لهما ولا قوة .. ومال جدار البيت نحو السقوط .. ولو سقط لظهر تحته كنز .. تركه لهما أبوهما الصالح .. ولا غتصبه منهما هؤلاء القوم اللئام .. كما وصفهم رسولنا ـ صلى الله عليه وسلم ـ « واما الجدار فكان لغلامين يتيمين فى المدينة .. وكان تحته كنز لهما .. وكان أبوهما صالحا فأراد ربك ان يبلغا اشدهما .. ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك » (٨٢ الكهف) .

وعن قتادة : أحل الكنز لمن قبلنا وحرم علينا .. وحرمت الغنيمة عليهم واحلت لنا .. ويقول المفسرون كان الكنز لوحا من ذهب .. مكتوب فيه :

عجبت لمن يؤمن بالقدر كيف يحزن .. ولمن يؤمن بالرزق كيف يتعب .. ولمن يؤمن بالحساب كيف يغفل .. ولمن يؤمن بالموت كيف يفرح .. ولمن يعرف الدنيا وتقلبها كيف يطمئن اليها .. لا اله الا الله .. محمد رسول الله (٢) .. رواه عثمان بن عفان عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم وهكذا ينفع الابناء صلاح الاباء .. بل قيل فى بعض روايات المفسرين : ان اباهما المقصود بالصلاح .. هو جدهما السابع .. أكرمهما الله سبحانه ـ من أجله .. وروى عن سعيد بن المسيب .. أنه كان اذا رأى ابنه .. قال : يابنى لأزيدن فى صلاتى من أجلك لعلى أحفظ فيك .. وتلا الآية « وكان أبوهما صالحا » ..

كما يحكى عن بعض العلوية .. انه دخل على هارون الرشيد .. وقد امر بقتله .. فلما دخل عليه اكرمه وخلى سبيله .. فقيل له : لم حصل معك هذا ؟ قال : لجأت الى الله وقلت : يامن حفظت الكنز على الصبيين لصلاح ابيهما احفظنى منه لصلاح آبائى ..

وعن الحسن بن على ـ رضى الله عنهما ـ انه قال لبعض الخوارج فى كلام جرى بينهما .. بم حفظ الله الغلامين ؟ قال الخارجى : بصلاح أبيهما .. قال الحسن فأبى وجدى خير منه.

واتجه العبد الصالح الى موسى قائلا .. بعد ان بين له خفى النعم فى ظاهر النقم .. « ومافعلته عن امرى . ذلك تأويل مالم تسطع عليه صبرا » (٨٢ الكهف) .

ولعل الملاحظ فى تعبير العبد انه قال فى خرق السفينة « فأردت » لانه هو المباشر لايجاد عيب فيها .. وهو افساد فى الظاهر ...

وفى قتل الغلام ، قال فأردنا « لانه افساد منه من حيث القتل .. وانعام من الله من حيث التبديل » ..

واما فى الجدار فقال « فاراد ربك » لأن الله وحده هو مبلغ الولدين اشدهما وهو انعام محض .. ثم يقول لموسى : اتلومنى على خرق السفينة .. مخافة غرق أهلها .. ونسيت نفسك حين القتك امك وانت صغير ضعيف فى اليم .. فحفظك الله ؟ .. وتلومنى على قتل الغلام الكافر بلا أمر .. ونسيت نفسك حين قتلت القبطى بغير أمر ؟ ..

وتلومنى على ترك اخذ الأجر فى اقامة الجدار .. ونسيت نفسك حين سقيت غنم شعيب محتسبا ؟ .. ياموسى عد الى قومك.. فلن تستطيع معى صبرا .. واعلم ان العلم صفة من صفات الله ـ تعالى ـ وصفات الله لا نهاية لها ..

وروى ان العبد الصالح .. لما ذهب يفارق موسى .. قال له موسى : اوصنى .. قال كن بساما ولا تكن ضحاكا .. ودع اللجاجة .. ولا تمش فى غير حاجة ولا تعب على الخطائين خطاياهم .. وابك على خطيئتك يا ابن عمران(٢)

---

(١) النسفى والبيضاوى وغيرهما ٧٤/الكهف .

(١) القرطبى ٨٢/الكهف .

(٢) القرطبى والبيضاوى والنسفى وغيرهما ٨٢/الكهف.

ويعود موسى الى قومه .. وقد احس ان صبر يوشع فى صحبته كان اكبر من صبره مع صاحبه .. **وقد قال الحكماء : لموسى خمسة اسفار (٢) :**

الاول : سفر الهرب « ففررت منكم لما خفتكم » ..

الثاني : سفر الطور « فلما اتاها نودى ان بورك من فى النار ومن حولها » ..

الثالث : سفر الطلب « واوحينا الى موسى ان اسر بعبادى » ....

الرابع : سفر الحرب « فاذهب انت وربك فقاتلا » ....

الخامس : سفر النصب « لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا » ....

وقد تركنا يوشع واقفا بالشاطىء عند الصخرة .. لما لم يعد اليه موسى .. واوشك النهار على الغروب.. عاد وحده .. وكان سيمر فى طريق العودة بواد مخيف اسمه وادى السباع .. فأمر الله الشمس أن تقف فوق الأفق الغربى .. حتى يعبر يوشع ذلك الوادى ..

ولعل هذا هو السبب الذى جعل احمد شوقى يسمى الشمس : اخت يوشع .. وهو يخاطبها فى قوله :

قفى يا اخت يوشع حدثينا
احاديث القرون الغابرينا

ونعود الى السؤال الحائر : من انت ايها العبد الصالح .. يامعلم موسى الكليم ؟ ..

□□□

(٢) الرحلات .

٤ المعلم الأول

كثرت الاقاويل عن اسم العبد الصالح — معلم موسى — وعن صفات خاصة به .. وعن رسالته .. او نبوته .. او ولايته ....

ففى حديث البخارى عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ان اسمه الخضر ، واوردت كتب التفسير : ان اسمه بليابن ملكان .. وان اسم الخضر لقب له .. وقالوا : هو اليسع أو الياس .. وقال بعضهم هو ملك من الملائكة ..

وذكر سفيان عن منصور عن مجاهد .. قال : انما سمى الخضر لأنه أينما صلى اخضر ماحوله .. وذكر الاستاذ عبد الوهاب النجار فى قصص الانبياء : قيل اسمه « عامر » وقيل « احمد » (١)

وتورط البعض ، فقال انه ولى شرب من عين الحياة .. فهو حى الى وقتنا هذا .. ونسوا قول الله تبارك وتعالى « وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد » .. وسئل شيخ الاسلام ابن تيمية عنه .. فقال : لو كان حيا لوجب عليه ان يأتى الى النبى — صلى الله عليه وسلم — ويجاهد بين يديه .. ويتعلم منه .... كما سئل ابراهيم الحربى عن بقائه حيا .. فقال : من حال على غائب لم ينتصف منه .. وما القى هذا بين الناس الا الشيطان ...

وقد اعترض الامام النسفى فى تفسيره .. على كونه وليا فقال :

وقد زلت أقدام قوم من الضلال فى تفضيل الولى على النبى .. وهو كفر جلى .. حيث قالوا : امر موسى بالتعلم من الخضر وهو ولى .. ومن المحال أن يكون الولى وليا .. الا بايمانه بالنبى .. ثم يكون النبى دون الولى — ١ هـ —

ويقول الاستاذ عبد الوهاب النجار فى كتابه « قصص الأنبياء » :

لم يرد فى القرآن الكريم اسم الخضر .. ولولا حديث البخارى .. ما صدقت بوجود صاحب هذا الاسم .

وقبل أن نجزم باسمه .. يجب علينا ان نبحث عن شخصه أولا .. من هو ؟ .. فالسنة ذكرت لنا عن طريق حديث البخارى ان اسمه الخضر .. وبين لنا الحديث دروسا تلقاها موسى — عليه السلام — على يديه ...

فبقى ان نتفحص القرآن الكريم .. فهو المصدر الاول من مصدرى التشريع والتأويل.. فنجد أن الصفات التى ذكرها عن العبد الصالح ثلاث صفات :

عبدا من عبادنا .. آتيناه رحمة من عندنا .. وعلمناه من لدنا علما .. فلم يرد عنه غير هذا

اولا : عبوديته لله ...

ثانيا : انه رحمة من عند الله .. بمعنى آتيناه لكم رحمة ...

ثالثا : ان معلمه هو الله — سبحانه — ...

فاذا بحثنا فى كتاب الله عن صاحب تلك الصفات الثلاث .. التى ذكرها عن العبد الصالح ، نجد :

اولا : ان العبودية وهى اشرف مقامات العبد .. وهذا الشرف هو الذى عينه تعالى بالتجلى الكامل على محمد — عليه الصلاة والسلام — فى مثل الآيات :

« سبحان الذى اسرى بعبده » و « الحمد لله الذى انزل على عبده » « وما انزلنا على عبدنا » و « وان كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا » تماما كما قال عن العبد الصالح « عبدا من عبادنا » ....

(١) قصص الانبياء للنجار ص ٢٩٦ الطبعة الثالثة .

ثانيا : ان العبد الصالح آتاه الله لنا رحمة ... وهي واضحة عن محمد : « وما ارسلناك الا رحمة للعالمين » تماما كما قال عن العبد الصالح : « أتيناه رحمة من عندنا » بمعنى اتيناكموه ...

ثالثا : ان معلمه هو الله – سبحانه – وتلك صريحة .. فى قوله له « وعلمك مالم تكن تعلم » .. تماما كما قال عن العبد الصالح ... وعلمناه من لدنا علما » .. وكلمة من لدنا تفيد ان علمه علم لدنى .. والعلم اللدنى هو العلم المجرد عن الأسباب .. وأول أسباب العلم القراءة والكتابة .. وقد جعل الله – تعالى – محمدا اميا لا يقرأ ولا يكتب فعامه علما لدنيا من غير شك .

فاذا كانت تلك الصفات الثلاث .. التى ذكرها الله تعالى عن العبد الصالح .. هى التى ذكرت عن محمد – عليه الصلاة والسلام – فهل معنى هذا .. ان محمدا هو العبد الصالح .. صاحب موسى ؟ ...

نكاد تجزم بانه هو .. فليس بعد كتاب الله من دليل ... ولكن علينا ان نزيد هذا الامر توضيحا .. لانه راى جديد .. او على الاقل لم نقرأه من قبل .. فقد ظن موسى انه لا يوجد من هو أعلم منه .. او سأل الله عن شخص أعلم منه .. حسب اختلاف الروايات – فأخبره الله ان عبدا اعلم منه عند مجمع البحرين ... فسعى اليه ... والتقى به .. وتعلم منه .. فكيف التقى موسى بمحمد ... مع أن محمدا لم يولد بعد ؟ ...

وللرد على هذا السؤال نقول :

ان اسم محمد – عليه السلام – هو اسم الجسد .. هو الاسم الآدمى .. اما اسم الروح .. اسم الحقيقة : فهو احمد .. كما قال عيسى – عليه السلام – عنه « ومبشرا برسول يأتى من بعدى اسمه احمد » فكان اسمه فى هذا الحين احمد بالحقيقة والروح .. لا بالجسد والصورة ... وذلك ايام وجود عيسى – عليه السلام .. فان الله تعالى أوجد الأرواح قبل خلق الأجساد .. وجاء فى الحديث (كنت نبيا وآدم بين الروح والجسد) وفى حديث آخر (كنت وآدم بين الماء والطين .. وكنت ولا آدم ولا ماء ولا طين) يشير الى الحقيقة التى أتاها الله وصف النبوة من قبل خلق آدم .. وأفاض عليها هذا الوصف من ذلك الوقت فصار نبيا .. وأخذ له العهد على الرسل جميعا فى آية الميثاق .. ولهذا جاء فى الخبر عنه أنه فى السماء أحمد وفى الأرض محمد .

تلك الحقيقة الاحمدية .. هى التى التقى بها موسى .. وتعلم منها .. ومنطقيا .. هل كان العبد الصالح ظاهرا للناس ... عند ارتكابه جريمتين ظاهرهما الافساد .. هما : خرق السفينة .. وقتل الغلام ؟ ...

فاذا قبل العقل مسالة قتل الغلام .. بفرض ان الطريق كان خاليا .. فلم يره احد من الناس وهو يقتله غير موسى .. فكيف يقبل العقل ان رجلا يحمل فأسا – كما يقول المفسرون – ويقتلع من قاع السفينة لوحا أو لوحين .. ليغرقها بمن فيها .. ويتركه الركاب سالما ؟..

وفى التفسير .. عن ابى العالية : لم ير الخضر حين خرق السفينة غير موسى .. وكان عبدا لا تراه الا عين من اراد الله له أن يريه .. ولو رآه القوم لمنعوه من خرق السفينة .

وقال ابن عباس : لما خرق الخضر السفينة .. قال موسى فى نفسه : ماكنت اصنع بمصاحبة هذا الرجل .. كنت فى بنى اسرائيل .. اتلو كتاب الله عليهم غدوة وعشية .. فيطيعونى : قال له الخضر ياموسى اتريد ان اخبرك بما حدثت به نفسك ؟ .. قال : كذا وكذا .. قال صدقت (1) ..

وقال ابو العالية .. فى قتل الغلام : لم يره الا موسى ولو راوه لحالوا بينه وبين الغلام (2) .. لاشك انه لم يكن ظاهرا الا لموسى فقط .. كشف الله عن بصيرته .. فراى حقيقته الاحمدية .. وتحدث اليه .. وسار معه .. وتعلم منه ولم يظهر مع موسى امام الناس الا فى استطعام اهل القرية .. وكان يطلب الطعام من اجل موسى .. لما اصابه من شدة الجوع .. بعد فقده الحوت الذى كان مع يوشع .. وهل نقول لموسى « انك لن تستطيع معى صبرا ».. غير أحمد ؟ .

وهل يتذلل موسى بقوله « لا تؤاخذنى بما نسيت ، ولا ترهقنى من امرى عسرا » الا لأحمد ؟ ..

---

(1) القرطبى ٧١/الكهف .

(2) القرطبى ٧٤/الكهف .

ومن الذى يكون له موسى تلميذا طيعا لايعصى له امرا .. غير البشير النذير .. والسراج المنير .. صاحب الحوض المورود .. وحامل اللواء المعقود .. قائد الغر المحجلين ، وامام النبيين والمرسلين ؟ ..

ولا مانع ان يكون اسم الخضر من اسماء حقيقته الروحية - عليه الصلاة والسلام - مادام هذا الاسم قد ورد فى حديث سعيد بن جبير .. فى البخارى ..

ولقد آمن الرسل جميعا بمحمد - عليه الصلاة والسلام - كما هو نص آية الميثاق : « واذ اخذ الله ميثاق النبيين ، لما آتيتكم من كتاب وحكمة ، ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه ، قال أأقررتم واخذتم على ذلك اصرى (١) ، **قالوا اقررنا ، قال فاشهدوا وانا معكم من الشاهدين » (٨١ آل عمران) وآمن موسى به بالتخصيص .. كما هو واضح فى قوله تعالى « الذين يتبعون الرسول النبى الامى ، الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والانجيل » (١٥٧ الاعراف) ..**

وقد سأل بعضهم ابا جعفر محمد بن على : كيف صار محمد - صلى الله عليه وسلم - يتقدم الأنبياء وهو آخر من بعث ؟

قال : ان الله تعالى لما أخذ من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم واشهدهم على انفسهم الست بربكم ؟ .. كان محمد - صلى الله عليه وسلم - أول من قال : بلى .. ولذلك صار يتقدم الأنبياء .. وهو آخر من بعث (٢) .

كما اتفقت ثلاثة أناجيل من الأناجيل الرسمية الاربعة هى : انجيل متى فى الاصحاح السابع عشر .. وانجيل مرقس فى الاصحاح التاسع .. وانجيل لوقا فى الاصحاح التاسع.. على ظهور موسى وايلياء مع عيسى - عليهم جميعا السلام - على جبل الزيتون ورآهم بطرس ويوحنا ويعقوب - وهم من الحواريين - وقال بطرس لعيسى : يا معلم .. جيد أن نكون ههنا .. فلنصنع ثلاث مظال .. لك واحدة .. وموسى واحدة .. ولايلياء واحدة (٣) .

وقد اثبتنا بالأدلة القاطعة أن ايلياء هو احمد - عليه الصلاة والسلام - ومن شاء فليرجع الى تلك البراهين فى كتابنا - مريم البتول (٤) .

هذا ما اطمأن اليه القلب عن احمد الخضر - كما جاء فى كتاب - النجار - والقارىء الكريم فى حل من ناحية قبول هذا الرأى أو رفضه . والله تعالى أعلم بحقيقته .

□ □ □

(١) عهدى . (٢) الانوار المحمدية للنبهانى . (٣) لوقا . اصحاح ٩ آية ٣٣ . (٤) بالفصلين ١٢ و ١٥ .

٣ النهـــــايـة

روى أن هارون مات فى مدة التيه .. ودفنه موسى فى جبل هور .. وهو من جبال سيناء فى البرية ..

وطلب الله من موسى أن يصعد جبل ((نبو)) وينظر الى الأرض الموعودة التى وعد الله بهـا أبناء اسحاق ويعقوب .. دون أن يدخلهـا .. ففعل ومات على الأكمة .. بعد هارون بسـنة ودفن بها ..

وان كان بعض الرواة يقولون أن موسى دخلها .. ولكن الأغلب على أنه لم يدخلها .. وانما دخلها يوشع بن نون بعد موت موسى عليه السـلام ..

وقد مات النقباء كلهم فى مدة التيه .. ولم يبق منهم غير يوشـــع وكالب بن يوقنـا .. وأخبر يوشع من بقى من بنى اسرائيل أنه نبى أرسـله الله اليهم .. وأن الله يأمره بقتـــال الجبابرة ساكنى الشام .. فلبوا نداءه وبايعوه .. وســار بهم الى أريحاء عاصـمة البلاد .. وقتل الجبارين .. وأخرجهم من الشـام .. وصار الشام كله لبنى اسرائيل ((وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التى باركنا فيها)) (١٣٧ ـ الأعراف) .

والى اللقــاء فى رحلـة التاريخ مع طالوت وجالوت وبنى اسرائيل ..

□□□

((وقال لهم نبيهم ان الله قد بعث لكم طالوت ملكا))
(٢٤٧ - البقرة)

○ من نبأ طالوت

١ تابوت النصر

بعد موت هارون وموسى - عليهما السلام - دخل بنو اسرائيل فلسطين بقيادة يوشع ابن نون - فتى موسى .. فساس أمرهم.. وأحسن قيادهم .. وعاشوا زمنا فى رغد من العيش .. ورفاهة فى الحياة .. ظل وماء .. وجو ورواء .. وزروع كثيرة .. وفاكهة وفيرة .. طابت لهم الدنيا .. واستقام أمامهم الأمر .. يعبدون الله .. ويؤدون مفاهيم التوراة .. ها بهم جيرانهم .. وخافهم أعداؤهم .. فمعهم تابوت النصر .. يقدمونه أمام الجيش فى الحروب . فيكون نصرهم محققا وفوزهم مضمونا (١) .

وقد قال المفسرون الكثير عن هذا التابوت .. وعما فيه من السكينة والبقية مما ترك آل موسى وآل هارون « ان آية ملكه ان يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون » (٢٤٨ البقرة) .. ولكن أصدق الآراء وأوثقها تخبرنا أنه مصنوع من خشب الشمشار .. وهو خشب تصنع منه الأمشاط .. وكان مموها بالذهب .. ابعاده : ثلاثة أذرع فى ذراعين .. وكان فيه سكينة لهم .. واطمئنان فى الحروب ما دام أمام الجيش .. كما كان الله - سبحانه - ينزل السكينة على رسوله وعلى المؤمنين فى غزواته - عليه الصلاة والسلام - « فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين » .. وكان فى التابوت « بقية مما ترك آل موسى وآل هارون » .. فقيل: كان فيه عصا موسى .. وعمامة هارون .. ورضاض من الألواح التى كسرها موسى .. عندما عاد بعد تلقى الألواح (٢) .. ووجد قومه يعبدون العجل « ولما رجع موسى الى قومه غضبان أسفا قال بئسما خلفتمونى من بعدى ، أعجلتم أمر ربكم والقى الألواح ، وأخذ براس أخيه يجره اليه » (١٥٠ - الأعراف) .

وقد روى فى جميع كتب التفسير تقريبا أن التابوت كان يسمع فيه أنين ثم يسير .. فاذا سمعوه ساروا لحربهم خلفه .. واذا لم يسمع هذا الأنين لم يسيروا ولم يسر التابوت .. ثم ينزل النصر .

قام يوشع بن نون بأمرهم حتى لحق بربه .. فأقاموا بعده على عبادة الله .. ملتزمين بأوامره .. مجتنبين نواهيه .. يسوس أمرهم قضاة منهم .. وليس لهم ملك.. ستا وخمسين وثلاثمائة سنة .. بعد موسى - عليه السلام - وكان أنبياؤهم فى تلك الفترة مرشدين فقط للقضاة ..

وحصلت حروب متعادلة بينهم وبين جيرانهم من العماليق .. الذين كانوا يسكنون على ساحل الروم .. بين مصر وفلسطين - كما يقول أغلب المفسرين .. وقد حدد كتاب قصص الأنبياء مكانهم .. مدينة أشدود بالقرب من غزة .. وقال أبو اسحاق الثعلبى فى كتابه انهم كانوا يسكنون غزة وعسقلان وساحل البحر بين فلسطين ومصر .. وكلها أقوال متفقة تقريبا ..

وكان النصر ملازما للاسرائيليين .. يغلبون بالتابوت من يقاتلهم .. حتى عصوا ربهم .. وحادوا عن سبيل توارثهم .. فغلبهم جالوت ملك العماليق .. وأخذ منهم التابوت .. وهذا دليل على أن العصيان دائما سبب الخذلان .. ويبدو هذا واضحا فى كتاب أبى بكر خليفة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الى خالد ابن الوليد .. قائد جيش المسلمين .. لما طلب هذا نجدة .. لكثرة العدو عددا وعدة .. قال فيه : يا خالد انكم لا تهزمون بكثرة عدوكم عددا وعدة..ولكن تهزمون بذنوبكم وآثامكم » وكانت هزيمة بني اسرائيل عظيمة .. وذلهم شديدا..

---

(١) القرطبى ٢٢/ص .

(٢) القرطبى والنسفى والكشاف وغيرهما ٢٤٨/البقرة .
ورضاض الشيء : فتاته .

بعد ان فقدوا التابوت .. حيث أسر منهم جالوت أربعمائة وأربعين من أبناء كرامهم .. واخذ منهم الجزية .. علامة الذل والهوان .. بعدان استولى على ديارهم وأموالهم .

وقد ذكر الأستاذ النجار فى قصص الانبياء : ان العمالقة دخلوا بالتابوت الى بيت داجون — الههم — وهو رأس انسان بجسم سمكة .. وقال ان قرية بيت دجن — قرب الرملة — هى بيت الاله داجون .. الذى احتفظوا فيه بالتابوت .. كما ذكر القرطبى انهم وضعوه فى بيت أصنامهم .. تحت الصنم الأكبر .. فأصبحوا وهو فوق الصنم .. فأخذوه وشدوه الى رجليه .. فأصبحوا وقد قطعت يدا الصنم ورجلاه وألقيت تحت التابوت .. فأخذوه وجعلوه فى قرية .. فأصاب أولئك القوم أوجاع فى أعناقهم .. وقيل اصابهم الباسور .. فلما عظم بلاؤهم كيفما كان .. قالوا : ما هذا الا بسبب وجود هذا التابوت بيننا .. فوضعوه على عجلة بين ثورين .. وأرسلوهما فى الأرض ..

أما سفر صمويل الأول وهو من أسفار التوراة . فقال : ان الفلسطينيين .. كانوا يجدون الههم داجون ملقى عن مكانه فى كل ليلة .. وسلط الله عليهم الفئران .. فأفسدت عليهم حاصلاتهم .. وخرجت لهم البواسير .. وعلموا أن ذلك من وجود التابوت بينهم .. فجاءوا بعجلة وعلقوا فيها بقرتين مرضعتين .. ووضعوا التابوت على العجلة .. واطلقوا البقرتين .. فجاءتا بالتابوت بدون سائق أو قائد الى قرية بيت شمس .. الى أهل قرية بعاريم .. حيث مكث فى يعاريم عشرين سنة(1).

□ □ □

(1) الاصحاح الخامس والسادس والسابع — صمويل الأول .

٢ السقاء يصير ملكاً

ضاق بنو اسرائيل بالذل الذى فرضه عليهم العمالقة .. ولم يطيقوا صبرا على وضعهم هذا .. وهم ورثة النبوة والملك .. فراوا أن يوفدوا وفدا من رءوسهم الى نبيهم .. ليجعل لهم ملكا يلم شتاتهم .. ويوحد صفوفهم .. ويقوى من عزيمتهم .. ويقودهم للجهاد فى سبيل استرداد ديارهم وابنائهم .. اقرأ « ألم تر الى الملأ من بنى اسرائيل من بعد موسى ، اذ قالوا لنبى لهم ابعث لنا ملكا نقاتل فى سبيل الله » (٢٤٦ البقرة).

ونبيهم هذا .. هو صمويل .. كان من قضاة بنى اسرائيل .. هجرهم لما عصوا ربهم .. واتخذ له صومعة .. انقطع لعبادة الله فيها .. ويقول الاستاذ النجار فى كتابه « قصص الأنبياء » : انه راى قبره على جبل بين بيت المقدس والرملة .. فى موضع يقال له «الرامة».

ويقول القرطبى : ان هذا النبى اسمه : شمويل بن بال بن علقمة .. ويعرف بابن العجوز .. لأن امه كانت عجوزا عقيما .. طلبته من الله فوهبه لها (١) .. كما قال السدى : اسمه شمعون أو سمعون لأن الله سمع دعاء امه واجاب سؤلها .. والسين شين فى العبرية .. وهو من نسل هارون .. وان كان القرطبى اورد قول قتادة : بأن نبى الله صمويل هو يوشع ابن نون .. الا أن هذا القول ضعيف .. لأن صمويل بعد موسى بقرون ، ويوشع كان فتى موسى .. وقد ذكرنا ان بنى اسرائيل لم ينحرفوا الا بعد موت يوشع بزمن كبير .. ولميلاد صمويل قصة اوردها ابو اسحاق الثعلبى وموجزها :

ان أبا صمويل كانت له زوجتان .. احداهما عاقر .. والثانية انجبت له عشرة بنين وفى يوم عيد لهم ، وعند توزيع الأنصبة من القرابين ، اخذت أم الاولاد عشرة انصبة غير نصيبها .. واخذت العاقر نصيبا واحدا .. فقالت أم الأولاد للعجوز العاقر : الحمد لله الذى كثرنى بولدى وقللك : — فوجمت العجوز .. وعند السحر .. عمدت الى مكان عبادتها فقالت : اللهم بعلمك وسمعك كانت مقالة صاحبتى .. واستطالتها على بنعمك التى انعمتها عليها .. فارحم ضعفى .. وارزقنى ولدا تقيا راضيا .. واجعله لك ذخرا فى مسجد من مساجدك .. يعبدك ولا يكفرك .. ويطيعك ولا يجحدك .. واجعل لى علامة اعرف بها قبول دعائى .. فلما اصبحت حاضت .. وألم بها زوجها فحملت .ووضعت صمويل .. وتنبأوا له بالنبوة لأن اليائسات لا يحملن الا الأنبياء .. كسارة امرأة ابراهيم حملت باسحاق .. وابشاع امرأة زكريا حملت بيحيى (٢) .

وذهب وفد بنى اسرائيل الى نبيهم صمويل .. فى بلدة الرامة ليختار لهم ملكا ... وقد خاطبهم نبيهم بما يعرف فيهم من الجبن والخنوع .. وما تغلغل فى نفوسهم بسبب عصيانهم من الذلة والمهانة .. والنكوص عن الصبر فى حومة الوغى .. فقال لهم « هل عسيتم ان كتب عليكم القتال الا تقاتلوا » (٢٤٦ البقرة) وكأنه بهذا القول قد حرك فيهم كوامن النخوة والشجاعة .. فقالوا وما لنا الا نقاتل فى سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وابنائنا ، ويأتى تعليق القرآن الكريم على هذا الموقف .. بقوله تعالى « **فلما كتب عليهم القتال تولوا الا قليلا منهم والله عليم بالظالمين** » (**٢٤٦ البقرة**) .. **تولوا عن القتال الا القليل .. كما سنشهد**

---

(١) القرطبى/٢٤٦ البقرة .

(٢) الثعلبى فى قصص الأنبياء .

من عرض القصة فى منظر قريب .. عند الزحف .. ان شاء الله تعالى .

وفى هذا اليوم الذى ذهب فيه وفدهم الى نبيهم صمويل خرج شاب اسمه « طالوت » يعمل بسقاء .. خرج من قريته يبحث عن حمارته التى فقدت منه .. وامتدت به خطاه الى مقربة من صومعة نبى الله « صمويل » .. فراى أن يزوره تبركا به .. عسى أن يهديه الله تعالى الى دابته التى يبحث عنها .. وطالوت هذا ورد اسمه فى سفر صمويل الأول(١) .. انه شاول بن قيس بن ابيئيل بن صرود بن بكورة ابن أفيح بن أنيس بن بنيامين بن يعقوب — عليه السلام — وصادف دخول « طالوت » الى صومعة « صمويل » .. وعنده وفد بنىاسرائيل .. يطلبون منه تنصيب ملك عليهم .

وقد ذكر القرطبى فى تفسيره « الجامع لأحكام القرآن » عن وهب بن منبه : لما طلبوا من شمويل بن بال ملكا .. سأل الله ذلك .. فقال الله له : انظر الى القرن — بفتح القاف والراء الذى فيه الدهن — وهو جعبة من الجلد — فاذا دخل عليك رجل فنش الدهن — بتشديد الشين وفتحها — اى « صوت » .. فهو الملك المطلوب .. فادهن راسه منه وملكه عليهم (٢) .

وعند دخول طالوت عليهم نش الدهن فى القرن .. فقام اليه صمويل ودهن رأسه بالدهن .. وقال له : أنت ملك بنى اسرائيل .. ثم قال لهم : « ان الله قد بعث لكم طالوت ملكا » (٢٤٧ البقرة) .. ولكنهم جروا على سنتهم فى تعنيتهم الأنبياء .. وحيدهم عن أمر الله تعالى .. فقالوا له « أنى يكون له الملك علينا .. ونحن احق بالملك منه .. ولم يؤت سعة من المال »؟.. كيف تجعل هذا الرجل ملكا علينا .. وانت تعلم أن النبوة فى سبط لاوى بن يعقوب .. والملك فى سبط يهوذا ؟ .. وهو ليس من أحد هذين السبطين .. وانما هو فقير من سبط بنيامين .. « نحن أحق بالملك منه » .. جئناك لتختار منا ملكا .. فتختار لنا هذا الرجل .. الذى لا تتوافر فيه مقومات الملك .. من نسب او مال ؟ ..

فذكر لهم « صمويل » صفتين أنفع واجدى مما ذكروا من النسب والمال .. وهما العلم والجسامة .. ولابد للملك أن يكون من أهل العلم .. فان الجاهل مزدرى غير منتفع به .. وأن يكون ذا جسم يملأ العين .. لأنه أعظم فى النفوس واهيب للقلوب .. وقد روى ان الرجل القائم كان يمد يده لينال رأس طالوت .. والله يؤتى ملكه من يشاء .. فهذا حكم الله وقضاؤه .. فهو ادرى بالأصلح والأفضل .. واسع الفضل والعطاء .. يوسع على من ليس له سعة من المال .. عليم بمن يصطفيه للملك .. « قال ان الله اصطفاه عليكم .. وزاده بسطة فى العلم والجسم .. والله يؤتى ملكه من يشاء .. والله واسع عليم » (٢٤٧ البقرة) . فتضمنت صفة الامام .. واحوال الامامة .. وانها مستحقة بالعلم والدين والقوة .. لا بالنسب والغنى ..

قال ابن عباس : كان طالوت يومئذ أعلم بنى اسرائيل وأجمعهم واتمهم .. وزيادة الجسم مما يهيب العدو .. وقيل سمى طالوت لطوله .. كما قيل : ان زيادة الجسم كانت بكثرة معانى الخير والشجاعة .. ولم يرد عظم الجسم .. كقول الشاعر : —

ترى الرجل النحيف فتزدريه
وفى أثوابه أسد هصور
ويعجبك الطرير فتبتليه
فيخلف ظنك الرجل الطرير (١)
وقد عظم البعير بغير لب
فلم يستغن بالعظم البعير

وفى هذا المعنى قوله — صلى الله عليه وسلم لأزواجه : — أسرعكن لحاقا بى اطولكن يدا » فكن يتطاولن .. فكانت زينب اولهن موتا لأنها كانت تعمل بيدها وتتصدق » .. خرجه مسلم كما قال بعض المتأولين : المراد بالعلم علم الحرب .. وفى هذا تخصيص للعموم من غير دليل ..

لم يقتنع القوم بكلام نبيهم .. وطلبوا منه دليلا .. على ان هذا الاختيار من الله .. فقال لهم : سيأتيكم تابوت النصر .. الذى فقدتموه .. وكان فقده سببا فى هزيمتكم وخذلانكم وذلكم .. « وقال لهم نبيهم ان اية ملكه ان يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم .. وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون تحمله الملائكة ، ان فى ذلك لآية لكم ان كنتم مؤمنين » (٢٤٨ البقرة) ..

وقال ابن عباس : جاءت الملائكة بالتابوت .. تحمله بين السماء والأرض .. وهم ينظرون اليه .. حتى وضعته امام طالوت .. فأقروا بملكه .. وقالوا رضينا بك باطالوت ملكا علينا .

وهكذا يخرج السقاء من بيته .. باحثا عن دابته .. فلا يعود الا وهو ملك على بنى اسرائيل . «قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء».

(١) الاصحاح التاسع — صمويل الاول .

(١) الطرير : ذو الرداء والمنظر الحسن .

(٢) القرطبى وغيره ٢٤٧/البقرة .

[٣] صرم النصر

اوحى الله ــ سبحانه ــ الى نبيه صمويل : ان يامر طالوت بالمسير الى الملك الكافر جالوت .. وبدأ الاعداد للزحف ..

قال طالوت لبنى اسرائيل : لا يخرج معى رجل بنى بناء لم يفرغ منه .. ولا تاجر مشغول بتجارته .. ولا رجل تزوج ولم يبن بزوجته .. ولا ابتغى الا شبابا نشيطا فارغا .. فلم يتخلف منهم الا ذو عذر من صغر أو كبر أو مرض .. حيث استبشروا بالنصر .. لما اتاهم التابوت .. فاجتمع له جيش عدته ثمانون الفا .

وتحرك هذا الجيش الضخم .. متجها الى فلسطين .. بقيادة طالوت .. الذى أنعم الله عليه بنعمتى العلم والقوة معا .. وابتلعتهم الصحراء .. شمال سيناء .. ليبدأ الله ــ سبحانه ــ معهم اختبار الصوم والصبر .. تمهيدا للمعركة الحاسمة .. بين قوى الحق وعناصر الباطل والبغى .. واعدادا للنصر الكبير .

الصحراء واسعة شاسعة .. والرمال ساخنة لاذعة .. والحر شديد قاتل .. وقد نفد ما معهم من الماء .. ومر يوم ويومان .. وهم على هذا الحال .. من قيظ محرق .. وظمأ مهلك .. حتى جفت الألسنة فى الحلوق .. ويبست الدماء فى العروق .. واذا بطالوت يخاطبهم قائلا : « ان الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس منى ، ومن لم يطعمه فانه منى الا من اغترف غرفة بيده » (٢٤٩ البقرة) .

وقد ذكر صاحب تفسير القرطبى ، عن قتادة : ان هذا النهر بين الأردن وفلسطين(١) ، كما ذكره ايضا الثعلبى فى كتابه ــ ومعنى الابتلاء الاختبار لهم .. فمن ظهرت طاعته بعدم شربه من الماء نعلم ــ انه مطيع فيما عدا ذلك .. ومن غلبته شهوته فى الماء .. وعصى الأمر .. فهو فى العصيان فى الشدائد أحرى وأولى .

وراوا النهر .. وقد نالهم العطش .. وهو فى غاية العذوبة والحسن .. فلذلك رخص للمطيعين فى غرفة واحدة .. ليرتفع عنهم أذى العطش بعض الارتفاع .. وليكسر نزاع النفس فى هذه الحال .. والغرفة ــ كافة ضرد العطش عند اولى العزم .. الصابرين على شظف العيش .. الذين همهم فى غير الرفاهية والترف .. ولهذا قال بعض الذين يتعاطون غوامض المعانى وبواطن المرامى : قالوا : هذه الآية مثل ضربة الله ــ سبحانه ــ للدنيا .. فشبهها بالنهر . والشارب منه بالمائل اليها .. والمستكثر منها . والتارك لشربه بالمنحرف عنها .. والزاهد فيها كلية . والمغترف بيده غرفة بالآخذ منها قدر حاجته . وأحوال الثلاثة عند الله مختلفة ..

ولعل طالوت يقصد بقوله « فليس منى » اى ليس من اصحابنا ولا على طريقتنا .. كما جاء فى الحديث .. « من غشنا فليس منا » .. وكما قال النابغة الذبيانى : ــ

اذا حاولت فى اسد فجورا
فانى لست منك ولست منى

وكما هو شائع فى كلام العرب .. حيث يقول الرجل لابنه .. اذا سلك غير اسلوبه : أنت لست منى .. وقد حبب الامام على فى الشرب بالأكف فقال : الاكف انظف الآنية .. ومنه قول الحسن :

---

(١) القرطبى والثعلبى ٢٤٩/البقرة .

لابد لفـون الى ماء باتيـــة
الا اغترافا من الغدران بالراح

وجاء فى القرطبى .. حـديث خـرجه ابن ماجه ، من حديث عمر .. قال .. قال رسول الله ـ صلى الله عليـه وسلم ـ « لا يلغ احدكم .. كما يلغ الكلب ولا يشرب باليد الواحدة .. كما يشرب القوم الذين سخط الله عليهم .. ومن شرب بيـده وهو يقـدر على اناء يريد به التواضع .. كتب الله له بعدد أصابعه حسنات .. وهو اناء عيسى بن مريم ـ عليهما السلام ـ اذ طرح القدح فقال : اف هذا مع الدنيا » (١).

وعلى البعد لاح لهم النهر .. بمائه العذب الرقراق .. وكأن تلك الغرفة المباحة .. هى شراك ابليس .. ليوقعهم بها فى العصيـان .. فأوحى اليهم اول الأمر .. أن يشرب كل منهم تلك الغرفة المباحة .. على الأقل يرد بها عن نفسه غائلة الظمأ .. وينقذ نفسه من الهلاك.. ولكن كيف يستطيع من هو فى مثل تلك الحـال ان يشرب غرفة ماء واحدة .. ثم يستطيع ان يمنع نفسه من اتمام الشرب ؟ .. فركضوا فى لهفة جارفة نحو النهر .. ولم يملكوا أنفسهم.. ان أكبوا على بطونهم يشربون ويشربون .. كما قال عروة : وأحسـوا قراح الماء والماء بارد .. فلم يقم واحد منهم من مكانه .. حيث تفجرت اكبادهم الملتهبة .. عند نزول الماء البارد عليها .. فأصيب ما شرب بالاستسقاء فى الحال .. ولم يعبر النهر مع طالوت .. غير ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلا .. رأوا أن يمسكوا عن الماء وينتصروا على نفوسهم .. ويمتنعوا حتى عن تلك الغرفة المسموح بهـا « فشربوا منه الا قليـلا منهم » (٢٤٩ البقرة) .

لم ينجح فى الاختبار الا ثلاثمائة وثلاثة عشر من ثمانين الفا ..

قال البراء بن عازب : كنا نتحدث أن عدة أهل بدر كعدة أصحاب طالوت .. الذين جازوا معه النهر ـ ثلاثمائة وبضعة عشر رجلا .. وفى رواية ـ وثلاثة عشر رجلا ـ وما جاز معه الا مؤمن .. حقيقة لم يعبر مع طالوت غير المؤمنين .. ولكن الايمـــان درجات .. فأراد الله ـ سبحانه ـ أن يستخلص من هذا العدد القليل من المؤمنين .. صفوة الامتياز .. « فلما جاوزه هو والذين آ منوا معه ، قالوا لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده » (٢٤٩ البقرة) .. ويبدو جليا من قولهم هـذا .. أنه مازال فى ايمانهم نقص .. وفى يقينهـم تردد .. وهنـــا تبرز الصفوة الممتازة .. **فيقولون فى ايمان راسخ** .. ويقين ثابت : « قال الذين يظنون انهم ملاقوا الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله ، والله مع الصابرين » (٢٤٩ البقرة) .

وفى هـذه الآية تحريض على القتـــال .. واستشعار للصبر .. واقتداء بمن صدق ربه .. وفى البخارى :

وقال أبو الدرداء : انما تقاتلون بأعمالكم ..

وفى مسند : ان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : «هل ترزقون وتنصرون الا بضعفائكم؟».

وما انهزمنا فى معاركنا قبل معركة العبور .. مع كثرتنا .. وقلة أعدائنا .. الا بأعمالنا الفاسدة .. واهمال ضعفائنا والتنكيل بهم .. وقلة صبرنا .. وضعف اعتمـادنا .. وزوال تقوانا .. وقد قال تعالى « أصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله (١) » وقال « ان الله مع الذين انقـوا والذين هم محسـنون (٢) » وقال « ولينصرن الله من ينصره (٢) » وقـال « واذا لقيتم فئـة فأثبتـوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون (٤) » .. فهذه أسباب النصر وشروطه .. وقد كانت معدومة عندنا .. غير موجودة فينا .. لظهور الفساد .. وكثرة الطغيان .. وقلة الرشاد .. فكم رأينا من ضمائر للايجار .. ونفـوس للبيـع .. وذمم للاسـتعارة .. **فكانت النتائج دائما شر الهزائم . وانطلق جيش طالوت .. الصغير عددا .. الكبير ايمانا ويقينا .. حتى أشرفوا على ديار العمـاليق .. فى فلسطين .. والتقى الجيشان .. جيش طالوت .. وجيش جالوت ..**

□ □ □

---

(١) ٢٠٠/آل عمران (٢) ١٢٨/النحل (٤) ٤٥/الانفال .

٤ والتقى الجيشان

كان جالوت أمير العمالقة وملكهم .. ويقال: ان البربر من ذريته .. والعمالقة هم نسل عمليق بن عاد .. واجمع المفسرون .. على أن جالوت كان جبارا .. وكانت بيضته تزن ثلاثمائة رطل من الحديد .. روى القرطبى أن جيشه كان ثلاثمائة الف فارس .. وقال عكرمة كان تسعين الفا (١) .. وعلى اية حال فالنسبة بين الجيشين رهيبة جيش طالوت وجيش جالوت .. مما دعا جيش طالوت الصغير .. الى اللجوء الى الله .. ولمن يلجأ المؤمن اذا اشتد الكرب .. وضاق الأمر .. الا الى الله ؟ .. وكان رسولنا ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول قبل الحرب « اللهم بك اصول واجول » .. ويقول اذا لقى العدو : « اللهم انى أعوذ بك من شرورهم .. واجعلك فى نحورهم » .. ودعا يوم بدر حتى سقط رداؤه عن منكبيه يستنجز الله وعده ..

ومن اجل هذا قال جند المؤمنين مع طالوت: « ولما برزوا لجالوت وجنوده قالوا ربنا افرغ علينا صبرا وثبت اقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين » (٢٥٠ البقرة) وبرز جالوت من بين جيشه الضخم .. يطلب من يبارزه .. وكان يهزم الجيوش وحده لشدته وقوته .. فقال طالوت : من يبرز اليه ويقتله .. فأنا ازوجه ابنتى .. وأشاطره ملكى .. واحكمه فى مالى .. ولكن الناس هابوا الخروج اليه .. فلم يبرز منهم أحد .. وكرر طالوت هذا الطلب ثلاث مرات .. دون أن يجيبه أحد من جنده .

وكان ممن جاوز النهر مع طالوت .. رجل من بنى اسرائيل .. اسمه ايشى بن عوفيد .. ينتهى نسبه الى يهوذا بن يعقوب بن اسحاق ابن ابراهيم .. وكان مع ايشى فى الجيش ستة من بنيه سابعهم غلام صغير السن .. كان يرعى الغنم .. يحتفظ معه بمقلاعه الذى يرد به الغنمة الشاردة الى القطيع .. ويدفع به عنها سباع الصحراء وذئابها .

اتى هذا الغلام اباه يوما .. فقال : يا ابتاه .. ما قذفت بمقلاعى هذه شيئا الا اصابته وصرعته .. فقال له : ابشر يا بنى .. فان الله قد جعل رزقك فى قذافتك .

فلما رأى هذا الغلام تحدى جالوت .. ونكوص قومه عن الخروج له مهابة منه ورهبة .. تقدم الى طالوت .. طالبا الاذن له بمبارزة عدو الله .. ولكن القائد اراد رده لصغره وقصره وصفرته .. غير انه أصر على مبارزة جالوت قائلا : انى قتلت اسدا اخذ شاة من غنم ابى .. وكان معه دب قتلته أيضا .. فألبسه طالوت درع حرب .. ولكنه تعثر فيها .. وعاقت جسمه عن الحركة .. فنضاها الغلام عن جسمه قائلا : ياسيدى خذ درعك فلا حاجة بى اليها .. وكفانى بالله درعا .. ثم انحنى الى الأرض ليلتقط حجرا من الجرانيت مدبب الجوانب .. وجده عند قدميه .. فتناوله ووضعه فى مقلاعه .

وقد روى المفسرون الكثير عن هذا الحجر .. فقال الأستاذ النجار فى كتابه « قصص الأنبياء » انه انتقى من الوادى خمسة احجار ماس .. أخذها ووضعها فى كنفه « اى مخلاته » .. وقال النسفى والبيضاوى والقرطبى والنيسابورى وغيرهم .. انه وجد فى طريقه

---

(١) القرطبى وغيره ٢٤٩/البقرة .

ثلاثة احجـــار .. دعاه كل منهـــا ان يحمله فى مخلاته .. وانهـــا التامت فى المقلاع فصـــارت حجرا واحدا .. ونحن لا نميل الى امثال تلك المبالغات .. وعلى اية حال .. فقد وقف الغلام بمقلاعه .. متجهـــا ناحيـــة جالوت .. وادار المقلاع فى الهـــواء ثلاث دورات .. ثم قـــذف الحجر باسم الله المنتقم الجبار .. فلا يجوز فى مثـــل تلك المواقف ان يذكر اسم الله الرحمن الرحيم .. لانه لا مجال للرحمة هنا .. وانما هو مجال الانتقام والجبروت .. كما لا يجوز ذكر اسم الله الرحيم عند الذبح .. والا فارفع يدك ولا تذبح ما دمت قد ذكرت الرحمة .. وانمـــا مجالها : بسم الله .. الله اكبر .

وخرجت القذيفة من المقلاع ..« وما رميت اذ رميت .. ولـــكن الله رمى » فيطير الحجـــر كالصاروخ الموجه .. ثم ينقض على راس جالوت .. فيشق خوذته .. ثم راسه .. ويخر صريعا .. فيدب الذعر فى قلوب قادته وجنده .. لمـــا راوا ما اصاب ملكهم فجاة .. فيولون الادبار وينتصر جند الله .

« **فهزموهم باذن الله** ، وقتل داود جالوت» (٢٥١ البقرة) . فقد كان هذا الغلام هو داود ـ عليه السلام .

وقيل : ان الحجر تفتت الى ذرات اصابت القوم كلهم .. فلم ينج منهم احد .. كما فعل النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يوم بدر .. حين حثا حثوة من التراب .. ورمى بها القوم فانهزموا .

وقالوا حز داود راس جالوت .. وقدمها الى طالوت .. « وكفى الله المؤمنين القتال » .. وعادوا الى ديارهم المغتصبة واموالهم المنهوبة .

□ □ □

« واذكر عبدنا داود ذا الايد انه أواب »
ص - ١٧

○ من نبــأ
״داوود״ عليه السـلام

١ حقد وطمع

كان داود بن ايشى — عليه السلام — أزرق العينين .. بوجهه صفرة تميل الى الحمرة .. دقيق الساقين .. ابيض الجسم .. قصيرا .. سبط الشعر .. طويل اللحية فيها جعودة .. حسن الصوت والخلق .. طاهر القلب نقيه .. وبعد ان قتل جالوت .. ذكره الناس .. وعظم فى نفوسهم .. وطلب من طالوت أن يزوجه ابنته « ميكال » .

ويبدو أن شيطان الحقد .. والخوف على الملك .. بعد أن ذاعت شجاعة داود .. وأحبه الشعب .. جعل طالوت يتردد فى الوفاء بوعده بتزويج ابنتــه لداود .. بل وفكر فى طريقــة للتخلص منه خشية أن يطمع داود فى الملك .. فطلب منه مهرا لابنته « ميكال » مائة غلفة من أعدائه العماليق الفلسطينيين .

وقد ذكر الأستاذ : عباس محمود العقاد — عن الختان — فى كتابه عن — خليل الرحمن — قال : ومن بقــايا عادة الختــان الأولى .. أن شاول — نبى الله طالوت — اشترط على داود أن يقدم له مائة غلفة من الفلسطينيين مهرا لابنته « ميكال « فقدم له مائتين . ا هـ .

وتزوج داود — عليه السلام — ميكال ابنة الملك .. وصار قائدا عاما للجيش .. وتوطدت أواصر الصداقة بينه وبين شقيقها يوناثان ابن طالوت .. ولكن دوافع الحقد والطمع .. ازدادت ونمت فى قلب صهره .. بعد أن تمكن داود من دفع المهر مضاعفا .. ولعل طالوت بطلب هذا المهر العجيب .. كان يريد التخلص من داود .. وكلما تعلق الشعب بداود .. ازداد طالوت خوفا منه .. وحقدا عليه .. وقد حاول يوناثان أن يعطف قلب ابيه على داود .. فلم يفلح .. وقد روى الأستاذ عبد الوهاب النجار فى « قصص الأنبياء » أن طالوت هم ان يطعن ابنه يوناثان بالرمح .. لأنه كان يحاجه فى داود .. فراغ منه ونجا .. وكم حاول طالوت دفع داود الى الحرب على امل أن يقتله الأعداء .. ولكنه كان دائما مظفرا .. فعقد النية على قتله غيلة .

وقد ذكر ابو اسحاق الثعلبى فى كتابه .. عن وهب ابن منبه .. أنه قال : كانت الانبياء والملوك يومئذ يتكئون على العصى ويغرزون فى اطراف العصى أزجة من الحديد .. وكان داود — عليه السلام — جالسا فى ناحية البيت .. فدخل طالوت .. فرماه بالعصى بغتة ليقتله .. فلما أحس داود بذلك .. حاد عن رميته .. وأمال نفسه من غير أن يبرح مكانه .. فارتكزت العكازة فى الجدار .. فقــال له داود : أردت قتــلى ؟ .. قال له طــالوت : لا بل اردت ان اقف على ثباتك عند الطعان .. وربط جأشــك للاقران .. فقال له داود أفلقيته على ما قدرته فى ؟ .. قال : نعم .. ولكن لعلك فزعت ؟ .. قال : معاذ الله أن أخاف سواه .. فلا يدفع الشر الا هو .. ثم ان داود انتزع العكازة من الجــدار .. وهزها هزة النكرة .. وقال له : اثبت كما ثبت لك .. فايقن طالوت بالهلاك .. فقال له : أنشدك بالله .. وبحرمة المصــاهرة التى بينى وبينك .. وما كان هذا القول من داود عن قصد قتل طالوت .. ولكن كان مقال تخويف وتحذير . فقال داود لطالوت : ان الله قد كتب فى التوراة : جزاء السيئة سيئة مثلها واحدة بواحدة .. والبادى أظلم .. قال طالوت أفلا تقول قول هابيل « لئن بســطت الى يدك لتقتلنى ، ما انا بباسط يدى اليك لأقتلك ، انى اخــاف الله رب العالمين (١) ؟ فقال داود : قــد عفوت عنك لوجه الله تعالى .

(١) ٢٨/ المائدة .

وهنا قد يسال سائل : كيف تحدث طالوت بآيات من القرآن الكريم قبل نزوله ؟ .. وللاجابة .. نقول :

ان القرآن الكريم قديم أزلى « وانه فى أم الكتاب لدينا لعلى حكيم » (٤ الزخرف) آمن به الانبياء والرسل جميعهم .. كما آمنوا بالرسول الخاتم المنزل عليه هذا القرآن فى آخر الدهر « .. واذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ، ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه ، قال اأقررتم واخذتم على ذلكم اصرى ، قالوا أقررنا، قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين » (٨١ آل عمران) .. فكان التخاطب قبل نزوله بمعانيه القديمة الأزلية .. ولا شك أن الألفاظ والعبارات التى أنزلها الله ــ سبحانه ــ على رسوله .. هى أفضل تعبير عن تلك المعانى .

ونعود الى داود ــ عليه السلام ــ فقد اشتد حرص طالوت على قتله .. وقد قرأت احداثا كثيرة جدا عن محاولات طالوت للتخلص منه .. وردت فى كثير من المراجع .. ولا مانع من ذكر بعضها .. لترى كيف كان داود ــ عليه السلام ــ يقابل اساءة طالوت بالعفو والتسامح والاحسان .. مرات ومرات .. وتلك من أمهات الصفات .. التى يجب أن يتحلى بها المؤمن .. وهى العفو عند المقدرة .

فقد روى فى كتاب ابى اسحاق الثعلبى : ان طالوت ظل زمنا يريد قتل داود .. فعزم على أن يأتيه ويقتله فى داره .. فأحست بذلك ميكال زوجته ــ وقد احبته وفنيت فيه. فقالت له : انك لمقتول الليلة .. قال : ومن يقتلنى ؟.. قالت : ابى .. قال : وهل اجرمت جرما ؟ .. قالت حدثنى بذلك من لا يكذب .. ولا عليك بأس أن تغيب الليلة .. حتى تنظر مصداق ذلك .. فقال : لئن كان اراد ذلك .. لا استطيع خروجا .. ولكن ائتنى بزق من خمر .. فأتته به .. فوضعه فى مضجعه على السرير .. وسجاه (١) . ودخل تحت السرير .. وعندما دخل طالوت فى جنح الليل بريد قتله .. سال ابنته عن بعلها فقالت : هو نائم على السرير .. فضربه بالسيف فسال الخمر .. فلما وجد ريح الخمر .. قال : رحم الله داود .. ما كان اكثر شربه للخمر .. فلما اصبح علم أنه لم يفعل شيئا .. ولكن خاف انتقام داود .. فاستتر بحجابه وحراسه .. واغلق دونه الابواب .. ولكن داود استطاع ان يصل الى فراش طالوت .. وهو نائم عليه .. فوضع سهما عند رأسه .. وسهما عند رجليه .. وسهما عن يمينه .. وسهما عن شماله .. ثم خرج .. ولما استيقظ طالوت .. وجد السهام فعرفها .. فقال : رحم الله داود هو خير منى.. ظفرت به فقصدت قتله .. وظفر بى فكف عنى .. لو شاء لوضع هذا السهم فى حلقى .. ولكن ما انا بالذى آمنه .

وقد ذكر الأستاذ النجار فى « قصص الأنبياء » هذا الحادث ولكنه ذكر ان الذى كان على السرير متاع مغطى .. ولم يكن خمرا . وروى أن داود خرج هاربا بعد نصيحة زوجته له خوفا عليه من حقد أبيها .. وانتهى فى هربه الى « أخيش » ملك « جت » وهم أعداء الداء لطالوت .. وكان لداود أسوأ النكايات بهم فى الحرب .. فلما ظفروا به جاءوا به الى الملك .. وحرضوه على قتله .. فتظاهر داود بالجنون.. واوقع الله فى قلب الملك طرد هذا المجنون من حضرته وأمر غلمانه بطرده .. ولامهم على ادخال مجنون الى بيته .

واقام داود فى البرية .. واجتمع له كل متضايق وكل مدين .. وطالوت يطلب الفرصة لاهلاكه .. فجمع ثلاثة آلاف للتفتيش عليه .. والايقاع به .. واختبأ داود مع بعض اتباعه فى كهف .. فجاء طالوت .. ونام فى ذلك الكهف.. دون أن يعلم أن داود هنا .. ولاحت الفرصة لداود فى قتله .. وأغراه رجاله بذلك .. فوبخهم ولم يفعل .. واقتصر على قطع طرف جبة طالوت وهو نائم .. فلما استيقظ .. وخرج من الكهف تبعه داود .. واخبره بأنه هو الذى قطع طرف جبته .. وكان فى استطاعته قتله فلم يفعل .. فندم طالوت .. وقال : أنت ابر منى .. ولكنه لم يلبث أن عاوده الحقد والخوف على الملك من داود .. فألح فى طلب اهلاكه ..

فخرج مع رؤساء جنده فى جيش للقضاء على داود .. ونزلوا مكانا ناموا فيه .. وقد ركز الملك رمحه عند راسه ونام .. وجاء داود وتخطى الجند .. وأخذ الرمح وكوز ماء كان عند رأس الملك .. ثم وقف على ربوة ونادى رؤساء الجند موبخا لهم على تقصيرهم فى حراسة الملك .. فاستيقظوا وطلب داود أحدهم يأتيه ليأخذ رمح الملك وكوز الماء .. فاظهر الملك الندم

---

(١) غطاه .

وعاد .. بينما اقام داود فى حصن اتخذه لنفسه ولرجاله ..

وينس داود من اصلاح ما بينه وبين الملك .. فذهب الى الفلسطينيين .. وطلب من ملكهم ان يسمح له فى الاقامة هو ورجاله فى احدى القرى .. ووافق ملك الفلسطينيين على ذلك .. واعتبرها هدنة مع داود .. اكتفاء لشره .. وراى ذلك خيرا من عدائه .. فأجاب طلبه .. وقد ندم طالوت .. وبكى كثيرا .. عسى أن يغفر الله له مقابلة احسان داود بالسيئات .. وفضله بالجحود والنكران .

ثم قامت حرب بين الفلسطينيين وبين طالوت .. قتل فيها طالوت وثلاث من بنيه .. وهزم رجاله .. وجلا الاسرائيليون عن المدن والقرى القريبة من الموقعة .. وسكنها الفلسطينيون .. ولم يكن داود يعلم بهزيمة طالوت وقتله .. ولم يخبره بذلك غير غلام من العمالقة .. اخبر داود بأن طالوت قتل .. وانه ـ اى طالوت ـ طلب من هذا الغلام العماليقى ان يجهز عليه ـ حيث كانت فيه بقية من الحياة ـ وقد اجهز عليه فعلا .. وقدم لداود اكليل طالوت وسواره .. فغضب داود .. وحزن من اجل صديقه يوناثان وابيه .. وقتل الغلام ..

واقام مأتما .. ورثاهما رثاء عظيما .. والظاهر أن طالوت كان حسن السياسة .. وان مدته كانت مدة رفاهة وهناءة لبنى اسرائيل .. **كما تدل عليه مرثية داود .. وفى أثناء تلك الأحداث .. مات نبى الله صمويل ـ عليه السلام ـ وكان قد غضب على طالوت واجتنبه .. واخبره داود أن الملك صائر اليه .. بعد موت طالوت .**

□ □ □

٢ داود الملك

استغرقت الأحداث السابقة .. بين طالوت وداود .. سبع سنوات بعد ان قتل داود جالوت .. وما ان مات طالوت حتى صعد داود الى حبرون .. وهى مدينة الخليل اليوم .. وأتاه رجال يهوذا .. ونصبوه ملكا عليهم .. اما من بقى من بنى اسرائيل .. فقد دانوا بالطاعة لابن طالوت واسمه « ايشبوشت » وحصلت حروب بين رجال داود ورجال ايشبوشت .. الى ان هلك هذا بعد سنتين .. فأقام داود فى حبرون .. حيث اتاه جميع بنى اسرائيل .. وبايعوه على الملك .

وظل فى حبرون سبع سنوات .. ثم انتقل الى صهيون — وهو حصن سماه مدينة داود وقام داود فى ايامه بحروب كثيرة .. كان النصر حليفه فيها .. فتم له فتح بلاد فلسطين كلها .. واستولى على دمشق عاصمة ملك الآراميين .. بعد ان امتلك جميع البلاد على الفرات وشرق الاردن . وبقى غلام من ابناء طالوت .. اكرمه داود — عليه السلام — ورد عليه ملك ابيه . « وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء » (٢٥١ البقرة) قال السدى : آتاه ملك طالوت .. ونبوة شمعون « صمويل » وعلمه صنعة الدروع .. ومنطق الطير .. وغير ذلك من انواع العلوم .. شد الله — سبحانه ملك داود — عليه السلام — وقواه وثبته « وشددنا ملكه » بالهيبة .. والقاء الرعب منه فى القلوب .. وكثرة الجند .. وشد كل هذا بالتأييد والنصر من لدنه .. وهذا اختيار « ابن عربى » فى معنى هذه الآية — حيث لا ينفع الجيش الكثير بغير ناصر او معين .. وكان داود شديد البطش .. روى انه ما فر ولا انحاز من عدوله قط ..

وقال ابن عباس — كما ذكر القرطبى — كان داود اشد ملوك الأرض سلطانا .. وكان يحرس محرابه كل ليلة نيف وثلاثون الف رجل .. فاذا أصبح قيل : ارجعوا فقد رضى عنكم نبى الله (١) .

ولا يهمنا شىء من عدد حراسه بقدر ما يهمنا وصف الله — سبحانه — له بانه : ذو ايد « واذكر عبدنا داود ذا الأيد (٢) » والأيد القوة .. ومنه قوله تعالى « والسماء بنيناها بايد (٣) » ..

فكان عليه السلام ذا قوة فى الدين .. مضطلعا بمشاقه وتكاليفه .. فكان على قيامه بأعباء النبوة والملك .. يصوم يوما ويفطر يوما وهو اشد الصوم .. ويقوم نصف الليل ويأكل من عمل يده .. فعلمه الله صنعة الدروع من الحديد .. اقرأ « وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم » ٨٠ الانبياء ..

قذف الله فى قلوب قومه المهابة منه .. وقد وردت قصة تعليلا لهذه الهيبة .. فى بعض كتب التفسير .. منها الكشاف والثعلبى .. تقول : اخبرنا عبد الله بن حامد .. عن عكرمة .. عن ابن عباس : أن رجلين من بنى اسرائيل احتكما الى داود — عليه السلام — فقال المدعى : ان هذا قد غصبنى بقرتى فسأل داود الرجل عن ذلك فأنكر .. وسأل المدعى البينة فلم تكن له بينة .. فقال لهما داود : انتظرا حتى انظر فى امركما .. فأوحى الله اليه فى منامه ان يقتل المدعى عليه .. فقال : هذه رؤيا .. ولست اعجل حتى اتبين .. فأوحى الله اليه فى اليقظة بهذا .. فاستدعى الرجل وأخبره بما أوحى الله اليه .. فقال له

---

(١) القرطبى والنسفى والكشاف ١٠/ص .

(٢) ١٧/ص .

(٣) ٤٧/الذاريات .

الرجل : اتقتلنى بغير ذنب ولا بينة ؟ .. فقال داود : نعم؟ والله لانفذن أمر الله فيك .. فلما عرف الرجل أنه قاتله .. قال : لا تعجل يانبى الله حتى اخبرك : انى والله ما أخذت بهذا الذنب ـ ذنب البقرة ـ ولكنى كنت اغتلت ابا هـذا فقتلته .. فأمر به داود فقتل .. فهاب الناس داود .. وقالوا ان اذنب احدنا اظهره الله عليه .. فقتله (١) .

وقد ذكر القرطبى عن ابن عباس : ان الله اعطاه سلسلة موصولة بالمجرة والفلك ، وراسها عند صومعة داود .. فكان لا يحدث فى الهواء حدث إلا صلصلت السلسلة فيعلم داود ما حدث .. ولا يمسها ذو عاهة الا برىء .. وكانت علامة دخول قومه فى الدين ان يمسوها بأيديهم .. ثم يمســحون اكفهم على صــدورهم .. وكانوا يتحاكمون اليها بعد داود ـ عليه السـلام ـ الى ان رفعت (٢) . اهـ .

وذكر ابو اسحاق الثعلبى ان رجلا اودع رجلا جوهرة ثمينة . فلما جاء يستردها انكرها فتحاكما الى السلسلة .. وقد لجأ المنكر الى حيلة .. فنقر عكازته ودس الجوهرة فى داخلها .. واتكأ عليها .. وعندما وقفا أمام السلسلة.. قال صاحب الجوهرة لصاحبه أن لى عنـدك وديعة .. فقال ما أعرف لك شيئا عندى .. فان كنت صادقا فتناول السلسلة .. فتناولها بيده .. ثم قال للمنكر : قم أنت ايضا فتناولها .. فقال لصاحب الجوهرة : الزم أنت عكازتى هذه فاحفظها معك .. حتى أتناول السلسلة.. فأخذها .. فقام الرجل .. وقال : اللهم ان كنت تعلم ان هذه الوديعة التى يدعيها قد وصلت اليه .. فقرب السلسـلة منى .. فمـد يده فتناولها .. فتعجب القوم .. ولكنهم أصبحوا وقد رفع الله تلك السلسلة ..

كما يقول الثعلبى : كان عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ اذا اشتبه عليه الأمر بين خصمين يتحاكمان اليـه .. يقـول : ما أحوجكما الى سلسلة بنى اسرائيل .. كانت تأخذ بعنق الظالم فتجره الى الحق جرا ..

ونحن لا نستبعد صحة هذا الراى عن تلك السلســلة مع غرابته .. **فليس هذا اغرب ولا اعجب من معرفة لغة الطير .. والاتيان من كل شيء .. اقرأ « وورث سليمان داود ، وقال يأيها الناس علمنا منطق الطير واوتينا من كل شيء » ١٦ النمل ..**

كما أن أمر السلسلة ليس اغرب ولا أعجب من تسبيح الجبال والطير معه .. أقرأ : **« انا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشى والاشراق والطير محشورة كل له اواب » ١٨ ص ..**

واقرا ايضا : « ولقد اتينا داود منا فضلا ياجبال اوبى معه والطير » (١٠ سبا) ثم اقرا: « وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير وكنا فاعلين » ٧٩ الانبياء .

□ □ □

---

(١) ابو اسحاق الثعلبى والكشاف ٢٠/ص .

(٢) القرطبى ٢٥١/البقرة .

٣ داود الموسيقار الكونى

لا شك ان تسبيح الجبال والطير مع داود امر عجيب غريب .. لنا فيه راى ..

فقد انزل الله الزبور على داود ـ عليه السلام ـ اقرا : « وآتينا داود زبورا » ١٦٣ النساء ..

واقرا ايضا : « ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض وآتينا داود زبورا » ٥٥ الاسراء .

والمعروف عن الزبور انه قصائد واناشيد .. تتضمن تسبيح الله وحمده .. والثناء عليه .. والتضرع له .. وان كان فى بعض سوره أشياء اخرى.. كما قال تعالى : « ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر ان الأرض يرثها عبادى الصالحون » (١) .. وفى هذا التعبير اخبار ضمنى عن نبينا محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ الذى يرث الأرض فى نهاية الزمن ..

وكان داود ـ عليه السلام ـ جميل الصوت .. حسن الانشاد .. طيب النغم ترجيعا وغناء .. يضرب به المثل الى يومنا هذا فى جمال الصوت ورخامته .. فنقول لمن أعطاه الله حسن الصوت .. انه اعطى مزمارا من مزامير داود .. وكما يقول شوقى « كما ترنم فى المزمار داود » .. ويقول :

حديثها السحر الا انه نغم
جرت على فم داود فغناها

وذكر ابو اسحاق الثعلبى وغيره : « ان داود كان يقرأ الزبور بسبعين لحنا تؤثر فى كل شىء .. فيعرق المجموم .. ويفيق المغمى عليه .. كما ذكر بالاسناد : اخبرنا ابو بكر الخوزقى عن ابى موسى الاشعرى .. قال : قال لى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم .. « لقد اعطيت مزمارا من مزامير داود » وذكر ايضا اخبرنا أبوبكر .. قال : اخبرنا ابو العباس بالاسناد عن البراء ابن عازب .. قال سمع النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ صوت أبى موسى فقال كأن صوت هذا من صوت آل داود .

والزبور عند اهل الكتاب « المزامير » .. وعددها مائة وخمسون مزمورا .. وليست كلها لدواد .. بل بعض المزامير منسوبة لقورح امام المغنين .. وليس فى الزبور احكام ولا أوامر ولا نواه .. وبعض المزمور الف بعد داود بمئات السنين .. كالمزمور الذى اوله « على انهار بابل » فانه ألف بعد سبى الاسرائيليين فى حادثة بختنصر

ولكن أبا اسحاق الثعلبى يقول : انزل الزبور على داود بالعبرانية .. مائة وخمسون سورة .. فى خمسين منها ذكر ما يكون من بختنصر واهل بابل .. وهذا يتنافى مع ما قرره بعضهم من ان مزامير « على أنهار بابل » ألفت بعد داود ـ عليه السلام ـ .

وقال ابن عباس : كان داود يفهم تسبيح الحجر والشجر والمدر (١) .

فاذا كان الزبور كله قصائد واناشيد وترانيم .. تتضمن التسبيح والحمد والثناء والتضرع.. بأطيب صوت .. وأحسن لحن .. واجمل نغم .. كما اجمعت على ذلك كل المراجع والتفاسير .. وعلى رأسها قول من لاينطق عن الهوى محمد عليه الصلاة والسلام ـ فما وجه الصلة بين هذا وبين الجبال والطير فى قوله تعالى « ياجبال أوبى معه والطير » (٢) وقوله « وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير » (٧٩ الانبياء) . أما تحس المشاعر الموسيقية تلك الصلة بين هذا وذاك ؟ .. أما ترى معى ايها القارئ الكريم بعين

(١) ١٠٥/الانبياء . (١) ابى اسحاق الثعلبى (٢) ١٠/سبا

البصيرة .. تلازم الترجيع والترديد بين داود ـ عليه السلام ـ وبين صوت الجبل والطير ؟ .. وكأنها « كورس » الزمن يترنم على مسرح الكون بقيادة داود ـ عليه السلام ـ .. ثم ألم تلمس بالذوق القرآني المرهف .. هذا السلم الموسيقى الرائع .. المحصور بين صـــوت الجبل بجلاله وضخامته .. أضخم الاوتار وأدناها .. وصوت البلبل بعذوبته ورقته .. أرفع الأوتار وأعلاها ؟ وكأن صوت الجبل يمثل القرار في الســـلم الموسيقى بينما يمثل صوت البلبل الجواب فيه .. أليس هذا هو السلم الموسيقى الكوني الرائع البديع ؟ .. موسيقى كونية تتردد في جنبات الكون عشية وضحى.. ذكر القرطبي عن مقاتل : كان داود اذا ذكر الله ـ عز وجل ـ ذكرت الجبال معه.. وكان يفقه تسبيح الجبال (١) « انا سخرنا الجبال معه يسـبحن بالعشي والاشراق والطير محشورة كل له أواب » ١٨ ص .

والاشراق هو وقت الضحى .. وقد روى عن ابن عباس انه قال : كنت أمر بهذه الاية ولا ادرى ما هى .. حتى حدثتني أم هانيء أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ دخل عليها .. فدعا بوضوء فتوضأ .. ثم صلى صلاة الضحى .. وقال : يا أم هانيء هذه صلاة الاشراق .. وروى أن كعب الأحبار ، قال لابن عباس : انى وجدت في كتب الله صلاة بعد طلوع الشمس ، هى صلاة الأوابين .. فقـال ابن عباس وأنا أوجدك في القرآن .. ذلك في قصة داود « يسبحن بالعشي والاشراق .. والطير محشورة كل له أواب »(٤).

وفي صحيح مسلم عن أبي ذر عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال « يصـبح على كل سلامى ـ بضم السين ـ من احدكم صدقة .. وكل تكبيرة صدقة .. وأمر بالمعروف صدقة.. ونهى عن منكر صدقة .. ويجزى عن ذلك ركعتان يركعهما في الضحى ..

وروى البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: أوصاني خليلي بثلاث لا ادعهن حتى أموت :

صوم ثلاثة أيام من كل شهر .. وصـــلاة الضحى .. ونوم على وتر « لفظ البخاري » . وقال مسلم « وركعتى الضحى » ...

واصل السلامى ـ بضم الســين : عظام الأصابع والاكف والارجل .. ثم أســتعمل في سائر عظام الجسد ومفاصله .. وروى من حديث عائشة ـ رضى الله عنها ـ أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال « خلق كل انسان من بني آدم على ستين وثلاثمائة مفصل فمن كبر الله.. أو حمد الله أو هلل الله .. أو سبح الله أو استغفر الله .. أو عزل حجرا أو شوكة أو عظما عن طريق الناس .. أو أمر بمعروف .. أو نهى عن منكر.. عدد تلك الستين والثلاثمائة سلامى .. فانه يمشي يومئذ .. وقد زحزح نفسه عن النار قال « أبو توبة : وربما قال (يمسى) ـ كذا أخرجه مسلم ، ويجزى من ذلك ركعتان » أى يكفى من هذه الصدقات .. وعن هذه الأعضاء ركعتان.. وذلك أن الصلاة عمل بجميع أعضاء الجســم.. فاذا صلى فقد قام كل عضو بوظيفته التى عليه في الأصـــل ..

لقد شد الله ـ سبحانه ـ ملك داود ـ عليه السلام ـ وآتاه الحكمة وفصل الخطاب .. اقرأ « وشددنا ملكه وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب» (٢٠ ص) .. وقالوا عن « الحكمة » : انها : النبوة والعدل والعلم بكتاب الله .. أما « فصل الخطاب » فهو الفصل في القضاء ..

وقال ابن عباس في فصــل الخطاب : هو بيان الكلام .. أما على بن أبي طالب ـ رضى الله عنه وكرم وجهه ـ فقال : انه هو البينة على من ادعى واليمين على من انكر .. فداود هو أول من قضى بهذا .. وان كان أبو موسى الاشـــعرى والشعبي قالا : انه عبارة « أما بعد » .. وذكر القرطبي حول معنى « فصل الخطاب » أنه البيان الفاصل بين الحق والباطل .. وقول على ـ رضى الله عنه ـ يجمع كل هذه المعانى .. لأن مدار الحكم عليه في القضاء ..

واما من قال من المفسرين : ان « فصـــل الخطـــاب » هو الايجاز .. فذلك للعرب دون العجم .. ولمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ دون العرب .. وقد بين هذا بقوله « وأوتيت جوامع الكلم » .. واما من قال انه عبارة « أما بعد » فكان النبي ـ صلى الله عليه وسـلم ـ يقولها ويروى أن أول من قالها في الجاهلية ـ سحبان ابن وائل ـ وهو أول من آمن بالبعث .. وأول من توكأ على عصـا .. وعمر مائة وثمانين عاما وأن صح ان داود عليه السلام قالها .. فلم يكن ذلك منــه بالعربيــة على هذا النظم وانما كان بلســانه (٢) .

(١) من تفسير القرطبي ٢٠/ص .

(٢) نفس المصدر السابق .

٤ فتنة داود

« وهل اتاك نبأ الخصم اذ تسوروا المحراب. اذ دخلوا على داود ففزع منهم قالوا لا تخف خصمان بغى بعضنا على بعض فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط واهدنا الى سواء الصراط . ان هذا اخى له تسع وتسعون نعجة ولى نعجة واحدة فقال اكفلنيها وعزنى فى الخطاب قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك الى نعاجه وان كثير من الخلطاء ليبغى بعضهم على بعض الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم وظن داود انما فتناه فاستغفر ربه وخر راكعا واناب . فغفرنا له ذلك وان له عندنا لزلفى وحسن مآب » ٢١ - ٢٥ص.

تلك هى القصة التى أوردها القرآن الكريم عن فتنة داود - عليه السلام -

كان له اربعة أيام : يوم للعبادة .. ويوم للقضاء بين الناس .. ويوم لخاصة أمره .. ويوم يجمع فيه بنى اسرائيل يعظهم ويبكيهم .. كما ذكر ذلك ابن عباس (١) - رضى الله عنه - وغيره من المفسرين ..

ففى يوم عبادته اخذ الزبور .. ودخل محرابه - كعادته - متفرغا لعبادة ربه .. وبينما هو كذلك اذ سقط عليه رجلان من أعلى السور .. ففزع وخاف .. فقالا له : لا تخف .. نحن خصمان بغى أحدنا على الآخر .. وقال المدعى هذا أخى عنده تسع وتسعون نعجة .. ولى نعجة واحدة فقط .. فطلب منى أن يضم نعجتى الى نعاجه .. لتصير مائة .. وغلبنى على هذا الأمر .. واخذها منى فعلا .. وسلم المدعى عليه بصحة الدعوى - كما اورد ذلك القرطبى - نقلا عن ابن عربى .. فقال داود : لقد ظلمك هذا بطلب ضم نعجتك الى نعاجه .. وارتفع الخصمان فى الهواء .. فعلم داود أنهما ملكان .. ارسلهما الله اليه .. ليخبره بأمر هو غافل عنه .. فخر داود راكعا .. واستغفر ربه فغفر الله له ..

والنعاج فى هذا المثل كناية عن النساء .. والعرب تكنى عن المراة بالنعجة والشاة .. وقد يكنى عنها بالبقر والنوق والظباء (٢) .. **وقد قال عنترة :**

ياشاة ما قنص لمن حلت له
حرمت على وليتها لم تحرم
فبعثت جاريتى فقلت لها اذهبى
فتجسسى أخبارها لى واعلمى
قالت رايت من الاعادى غرة
والشاة ممكنة لمن هو مرتم

وقال الأعشى :

فرميت غفلة عينه عن شاته
فأصبت حبة قلبها وطحالها

وقد ذهب المفسرون مذاهب شتى فى الذنب الذى ارتكبه داود - عليه السلام - واستوجب بسببه التنبيه .. ولفت النظر من الله - سبحانه والركوع والاستغفار .. فقال بعضهم ان داود حكم قبل سماع الطرف الثانى .. وهذا مما لا يجوز عند أحد .. ولم يتبع فى ملة من الملل .. فكيف يقع فيه داود ؟ .. وخاصة أن الله - سبحانه - يقول عنه « واتيناه الحكمة وفصل الخطاب » وليس من الحكمة .. ولا من فصل الخطاب .. أن يحكم فى قضية قبل سماع الطرف الآخر .. وانما التقدير كما قال ابن عربى : أن احد الخصمين ادعى .. والآخر سلم بصحة الدعوى .. فوقعت الفتوى .. وقيل أن داود

---

(١) القرطبى وغيره ٢١/ص

(٢) قاله النحاس .. من القرطبى ٢٣/ص .

لم يقض للآخر .. حتى اعترف صاحبه بذلك .. أو يكون التقدير : لقد ظلمك ان كان كذلك ..

وقال آخرون : ان اوريا بن حنان .. وهو قائد من قواد داود .. يقول الكلبى عنه : انه سيف الله فى ارضه فى زمان داود .. قال : كان سيوف الله ثلاثة : كالب بن يوقنا فى زمن موسى .. واوريا بن حنـان فى زمن داود .. وحمزة ابن عبد المطلب فى زمن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم (١) **قالوا : ان اوريا خطب امراة .. ووطن نفســه عليها .. فلمـا غاب فى غزاته خطبهـا داود .. ففضله اهلها على أوريا .. فتزوجت منه .. فاغتم لذلك اوريا غما شديدا .. فأنب الله ـ سبحانه ـ داود على ذلك .. وهذا الرأى .. لا يقره المنطق .. ولا يسيغه العقل .. داود له تسـع وتسعون زوجة ..** ولا يجوز ان يخطب امراة خطبها قائد من قواده لأنه راها جميلة فأحبها .. وهذا رسولنا ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول « **لا يبع احدكم على بيع اخيه .. ولا يخطب على خطبة اخيه »** واذا كان داود ـ عليه السلام ـ قد خطب على خطبة اخيه أوريا .. أفلا يكون هذا بغيا منه ؟ .. مع انه يقول فى الحكم « وان كثيرا من الخلطاء ليبغى بعضـهم على بعض الا الذين آمنـوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم » .. أفلا يكون داود عليه السلام ـ من هذا القليل ؟ ..

ويذكرنى هذا الموقف بموقف لعمر ـ رضى الله عنه ـ ســمع رجلا يقول فى دعائه : اللهم اجعلنى من عبادك القليل .. فقال عمر : ماهذا الدعاء ؟ قال الرجل أردت قول داود ـ عليـه السلام ـ « الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ماهم » .. فقال عمر : كل الناس افقه منك ياعمر ؟ ..

قال بعض آخر : ان داود راى تلك المراة .. وهى زوجة لأوريا فاعجبته .فطلب منه أن يطلقها ليتزوجها هو .. كما يسأل الرجل الرجل ان يبيعه جاريته .. وأجبر أوريا على ذلك .. حياء من داود .. ولعدم استطاعته مخالفته ..

ويستدل اصحاب هذا الرأى .. بما حصل من مجاملة الانصـار المهاجرين بمثل ذلك .. فقد روى أن سعد بن الربيع الانصارى .. عرض على عبد الرحمن بن عوف .. وهو مهاجر .. ان يطلق ســعد أحدى زوجتيـه ليتزوجها عبد الرحمن .. فأبى عبد الرحمن ذلك (١) .. وقـال له : بارك الله لك فى اهلك .. **واظن أن الفرق ظاهر بين الحالتين .. ولا حاجة بنا الى مناقشة هذا الرأى .. لاثبات بطلانه .. ونفيه عن نبى الله داود عليه السـلام .**

□ □ □

(١) من القرطبى وغيره ٢٢/ص .

(١) القرطبى .

⑤ إسرائيليات

وجد الإسرائيليون فى قصة داود مع أرملة أوريا مرتعا خصبا لدس سمومهم ونشر مفترياتهم على رسل الله الكرام.

فجاء فى كتاب «قصص الانبياء» للأستاذ عبد الوهاب النجار ص ٣١٣ من الطبعة الثالثة ما نصه: أما أهل الكتاب، فإنهم قالوا: إن داود نظر وهو يمشى على سطح داره إلى امرأة تستحم.. فأعجبته.. وأغرم بها.. وأتى بهاوضاجعها فحملت منه.. وأعلمته بحملها.. وكان زوجها «أوريا الحثى» فى الحرب فأتى به ليسأله عن أمر الحرب فى الظاهر، وليُحْدث الرجل بامرأته، حتى لا يرتاب بأمرها إذا علم فيماً بعد أنها حامل.. ولكن الرجل كان تقيا جدا.. فبات بباب داود، ولم يزر امرأته.. لأنه رأى من عدم التقوى أن يتمتع بزوجه.. وإخوانه فى الحرب.. بعيدون عن أزواجهم.. فلما علم داود بأمره.. لم ير وسيلة لعدم افتضاح أمره.. إلا بتعريض أوريا لجبهة القتال.. حاملا الراية.. وأن يتأخر عنه الجند.. وبهذه الوسيلة.. قُتل الرجل وأتت امرأته بولد من تلك الزنية.. وتزوجها داود.. ولم يترك الأستاذ عبد الوهاب النجار هذا الموضوع حتى أثبت كذبهم وافتراءاتهم.. واستشهد بما ورد فى سفر صمويل الثانى فى الإصحاح الثانى والعشرين.. وما ورد فى الإصحاح الثالث من الملوك الأول.. وما فى الإصحاح السادس من أخبار الأيام الثانى.. وكلها شهادات تحكم بعصمة داود من مثل هذا الجرم الخطير.. كما ذكر القرطبى والكشاف وغيرهما عدة روايات يبرز فيها الدسيس الإسرائيلى.. تذكر منها ما أورده القرطبى عن الثعلبى(١).

قال: قال قوم من العلماء: إنما امتحن الله داود بالخطيئة.. لأنه تمنى يوما على ربه منزلة إبراهيم وإسحاق ويعقوب.. وكان داود قد قسم الدهر ثلاثة أيام: يوم يقضى فيه بين الناس.. ويوم يخلو فيه بعبادة ربه.. ويوم يخلو فيه بنسائه وأشغاله.. فأوحى الله إليه: إنهم ابتلوا ببلايا لم يبتل بها غيرهم، فصبروا عليها.. فقال داود: فابتلنى بمثل ما ابتليتهم.. وأعطنى مثل ما أعطيتهم.. فأوحى الله إليه: إنك مبتلى فى شهر كذا فى يوم الجمعة.. فلما كان ذلك اليوم.. دخل محرابه وأغلق بابه.. وجعل يصلى ويقرأ الزبور.. فبينما هو كذلك.. إذ مثل له الشيطان فى صورة حمامة من ذهب.. فيها من كل لون حسن.. فوقعت بين رجليه.. فمد يده ليأخذها.. فيدفعها لابن له صغير.. فطارت غير بعيد.. ولم تؤيسه من نفسها.. فامتد إليها ليأخذها فتنحت.. فتتبعها فطارت.. حتى وقعت فى كوة.. فذهب ليأخذها فطارت.. ونظر داود يرتفع فى أثرها.. فنظر امرأة فى بستان على شط بركة تغتسل، قاله الكلبى.. وقال السدى: تغتسل عريانة على سطح لها.. فرأى أجمل النساء خلقا.. فأبصرت ظله فنفضت شعرها.. فغطى بدنها.. فزاده إعجابا بها.

وكان زوجها أوريا بن حنان فى حرب البلقاء.. مع أيوب بن صوريا ابن أخت داود.. فكتب إليه، أى إلى أيوب ابن أخته.. أن ابعث بأوريا إلى مكان كذا وكذا.. وقدمه قبل التابوت.. وكان من قدم قبل التابوت لا يحل له أن يرجع وراءه حتى يفتح الله عليه.. أو يستشهد.. فقدمه أيوب ففتح الله عليه..

(١) القرطبى ٢١/ ص.

فكتب إلى داود يخبره بذلك.. قال الكلبي: وكان أوريا سيف الله في أرضه في زمان داود.. **فطلب منه داود أن يبعثه في بعث كذا.. وقدمه قبل التابوت. ففتح الله عليه.. ولكنه استشهد في الثالثة.. فتزوج داود تلك المرأة حين انقضت عدتها. أ هـ.**

أشمتَ أيها القارىء الكريم رائحة الحقد الكريهة.. المنبعثة من خلال تلك الأقاويل المدسوسة على رسول كريم؟.. رسول.. قال الله تعالى عنه: «وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب».. «وقال عنه أيضا عنه: «نعم العبد إنه أواب»؟

ولعل هذا هو الذي دفع عليا بن أبي طالب - رضي الله عنه وكرم وجهه - لأن يقول.. رواية عن سعيد بن المسيب: «لو سمعت رجلا - يتحدث عن داود - عليه السلام - بما يرويه القصاص لجلدته ستين ومائة»(١).

لأن حد قاذف الناس ثمانون.. وحد قاذف الأنبياء ستون ومائة.

وروى أنه حدث بذلك عمر بن عبد العزيز.. وعنده رجل من أهل الحق.. فكذب المحدث به.. وقال: إن كانت القصة على ما في كتاب الله.. **فما ينبغي أن يلتمس خلافها.. وإن كانت على ما ذكرت وكف الله عنها شرا على نبيه.. فما ينبغي إظهارها عليه.. فقال عمر: لسماعي هذا الكلام.. أحبُّ إليَّ مما طلعت عليه الشمس.**

□ □ □

(١) من الكشاف والقرطبي ٢٤ / ص.

٦ ما هى الحقيقة

بقى أن نسأل أنفسنا سؤالا.. بعد أن عرضنا أغلب الآراء التى وردت عن تلك القضية.. وأثبتنا بطلانها جميعا.. فما هى الحقيقة إذن فى مسألة الخصمين والنعاج؟.. وما هو الذنب الذى تنبه له داود - عليه السلام - بعد أن حكم بين الخليطين.. وظن من أجله أنها فتنة له.. فخر راكعا.. واستغفر ربه فغفر له.. لأن له عند الله زلفى وحسن مآب؟.

تزوج أوريا بن حنان زوجة جميلة.. آية فى الجمال.. كان لها خُطَّابٌ كثيرون.. ولكنه ظفر بها من دونهم.. لما له من منزلة كبيرة بين قومه.. فهو الشاب الصالح.. التقى.. الشجاع.. الذى حمل لقب سيف الله فى زمانه.. فقد كان قائدا من قواد الملك داود.. لمع نجمه وتتابعت انتصاراته.. وذاع صيته.

واستدعى أوريا لحرب البلقاء.. وهو فى أول عهده بالزواج.. وهنا ذهبت به الظنون كل مذهب.. وتناوبته الشكوك من كل جانب.. كيف يترك زوجته تلك الجميلة.. والذئاب حولها كثير.. وأجهده هذا الأمر أيما إجهاد.. وأخيرا سنحت له فكرة.. طلب على أثرها مقابلة الملك داود.. فأذن له.

قال أوريا للملك: لقد استدعيت يا نبى الله إلى حرب البلقاء.. وأنا حديث عهد بالزواج من فتاة.. كان لها خطاب كثيرون.. ظفرت بها من دونهم.. وأخشى أن يشغلنى أمرها وأنا فى الحرب.. خشية اعتداء أحد عليها فى غيبتى.. فقال الملك: لا بأس يا أوريا أن نجعل على منزلك حرسا لتكون مطمئنا على أهلك حتى تعود من المعركة.. قال: أخشى ما أخشاه عليها من حراسها يا مولاى.. فقال الملك: وما الرأى إذن يا أوريا؟ قال: أنا لا آمن عليها يا سيدى.. إلا إذا كانت فى قصر الملك.. فهل يسمح مولاى بتخصيص جناح لها فى قصر الحريم.. حتى أعود أو يقضى الله أمرا كان مفعولا؟.. ولبى داود - عليه السلام - رغبة قائده.. وانتقلت زوجة أوريا لتكون ضيفة فى قصر حريم الملك.. مع أزواجه التسع والتسعين.. حتي يعود زوجها من الميدان.. يقول ابن العربى: إن كانت زوجاته جميعهن أحرارا.. فذلك شرعه وإن كن إماء.. فذلك شرعنا.. والظاهر أن شرع من قبلنا لم يكن محصورا بعدد. وإنما الحصر فى شريعة محمد - صلى الله عليه وسلم - لضعف الأبدان.. وقلة الأعمار(١).

وسافر أوريا إلى غزاته.. مطمئن النفس.. مرتاح الضمير.. وشاء الله أن يُستشهد فى الحرب بعد حين.

ولم يتنبه داود إلى بقاء أرملة أوريا فى قصره.. إلا بعد مضى ستة أشهر من استشهاد زوجها.. فأسرع بالإذن لها فى الخروج من القصر إذا شاءت.. فهى حديثة السن.. وقد يكون وجودها فى قصر الملك.. حائلا بينها وبين من يريد خطبتها.. ولكنها طلبت مقابلة الملك.. لما بلغها الإذن فى الخروج.. فأذن لها داود - عليه السلام - بمقابلته.

ودخلت عليه فى استحياء قالت: يا مولاى.. لقد تعودت الحياة هنا فى قصر مولاى الملك.. ولم يعد فى استطاعتى أن أعيش بين عامة الشعب

(١) من القرطبى ٢٣/ ص.

.. فهل تسمح يانبى الله ببقائى فى قصرك ولو كوصيفة من وصيفات القصر؟.

وأطرق داود - عليه السلام - برهة.. مر بخاطره فيها إخلاص زوجها وتقواه.. ووفاؤه وشجاعته.. ووجد من الوفاء له أن يتزوجها صونا لها.. وتكريما له.. مادامت تلك رغبتها.. التى فطن إليها من خلال حديثها.

وتزوجها داود - عليه السلام - وكانت هى أم ولده سليمان - عليه السلام.

وكان هذا الأمر أرضا خصبة.. تبيض فيه الشائعات وتفرخ.. فشعب داود هم بنو إسرئيل.. لم يسلم من أذاهم نبى ولا رسول.. فهم هواة الفتنة والافتراء.. وعشاق الكذب والبهتان.. بدأ الحديث همسا أول الأمر.. ثم انتشر رويدا.. رويدا.. لقد تزوج داود أرملة أوريا.. لقد رآها داود من قبل فعشقها.. ثم ضمها إلى حريمه.. لقد عمل على التخلص من زوجها فى الميدان.. و.. و.. وألَّفَ شعب إسرائيل تلك الروايات التى ذكرنا بعضها نقلا من كتب التفسير.. حتى صارت حديث الغادى والرائح.. والقائم والسارى.. كل هذا وداود - عليه السلام - غافل عما يقال.. لا يصل إلى سمعه شيء مما يشاع.. والشائعات دائما تنقطع عند صاحبها.. وخاصة إذا كان صاحبها ملكا مرهوبا مثل داود. ومن هنا يظهر خطأ داود - عليه السلام - فقد كان من المفروض أن يقى نفسه قالة السوء.. بإذاعة بيان على الشعب بما حدث بينه وبين أوريا.. يقطع به دابر الشك.. ويقضى على بذور الفتنة.. كما حصل من نبينا محمد - عليه الصلاة والسلام - عندما مرَّ به بعض الصحابة وهو واقف فى ظلمة الليل مع إحدى زوجاته.. فناداهم.. وقال لهم هذه زوجتى فلانة.. حتى لا يترك للشيطان فرصة يوسوس بها فى صدورهم شكا وريبة..

وأراد الله - سبحانه - أن ينبه رسوله داود إلى هذا الأمر الخطير.. فأرسل له ملكين.. فى صورة رجلين من الإنس.. تسورا عليه المحراب وهو في يوم عبادته.. حيث يمنع الحجاب أىَّ داخل عليه من الدخول.. ولا شك عندى أنه عرف أنهما ملكان من أول لحظة هبطا عليه فيها.. يقول ابن العربى: كان محراب داود من الامتناع بالارتفاع.. بحيث لا يرتقى إليه آدمى بحيلة.. إلا أن يقيم إليه أياما أو شهورا.. مع أعوان يكثر عددهم.. وآلات جمة مختلفة الأنواع.. وإذا شاهدت الكوة التى يقال دخل منها الخصمان.. لعلمت قطعا أنهما ملكان.. لأنها من العلو بحيث لا ينالها الأعلوى(١).

وجدهما واقفين على رأسه.. فخاف وفزع.. قالا: «لا تخف نحن خصمان بغى بعضنا على بعض فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط واهدنا إلى سواء الصراط».. مثلا ضربه له الملكان تنبيها وتذكيرا.. قال من يمثل أوريا «إن هذا أخى له تسعٌ وتسعونَ نعجةً ولى نعجةٌ واحدةٌ فقال أكفلنيها وعزنى فى الخطاب» أى طلب منى أن يضم نعجتى إلى نعاجه.. وغلبنى وأخذها منى.. يلفت نظره إلى أن هذا ما تردده الشائعات.. ولهذا كان رد داود - عليه السلام - صريحا.. واضحا.. لا لبس فيه ولا غموض.. تعبيرا عن الحقيقة الواقعة.. وقد فطن داود للأمر.. والفطنة من صفات الأنبياء.. فقال: «لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه» إن كان قد طلب منك ضمها إلى نعاجه.. فقد ظلمك.. إنه فى الحقيقة يعبر عما حصل منه.. لأنه لم يطلب من أوريا ضم زوجته إلى حريمه.. وإنما أوريا هو الذى طلب هذا الضم خوفا عليها من أعدائه.. ثم قرر داود.. تكملة وتعليقا على الحادث.. فقال «وإن كثيرا من الخلطاء ليبغى بعضهم على بعض إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم» وللمرة الثانية.. أفلا يكون داود من هذا القليل؟..

وصعد الملكان بعد أن تنبه داود إلى خطئه وغفلته عن هذا الأمر الخطير.. «فاستغفر ربه وخر راكعا وأناب».. استغفر ربه من الغفلة.. «فغفرنا له ذلك وإن له عندنا لزلفى وحسن مأب».. ولقد كان رسولنا - ﷺ - يكثر من الاستغفار.. فقيل له: لماذا تستغفر وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر.. فيقول: أفلا أكون عبدا شكورا؟ استغفر الله من الغفلة.

وصدر البيان الملكى ليوضح الحقيقة للشعب.. فقطعت الشائعات.. وخمدت الفتنة.. ولكن مازالت آثارها باقية فى تراث بنى إسرائيل.

---

(١) القرطبى ٢٢/ ص.

٧ أصحاب السبت

«واسألهم عن القرية التى كانت حاضرة البحر إذ يعدون فى السبت» ١٦٣ الأعراف.

قال ابن عباس ووهب بن منبه: أن قوما من بنى إسرائيل.. فى زمن داود - عليه السلام - سكنوا قرية على شاطىء البحر.. بين مصر ومدين يقال لها أيلة.. وقيل: إنها طبرية.. كانت أكبر ميناء على البحر الأبيض وكان عدد سكانها سبعين ألفا.. حرم الله عليهم صيد السمك.. وسائر العمل أيضا يوم السبت من كل أسبوع.. وأمرهم أن يتفرغوا للعبادة فى ذلك اليوم.

والله - جل شأنه - دائما مع عباده شئون.. واختبارات.. وبلاء.. فكان إذ دخل يوم السبت.. لم تبق سمكة فى البحر...إلا اجتمعت هناك.. وتخرج خراطيمها من الماء.. حتى لايرى الماء من كثرتها.. وفى باقى أيام الإسبوع لا يرى من السمك إلا القليل.. «إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعا ويوم لا يسبتون لا تأتيهم كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون» ١٦٣ الأعراف.. وهذا يدل على أن السبب المباشر لا بتلائهم واختبارهم.. هو فسوقهم عن أمر الله.

ويقول صاحب تفسير الكشاف فى معنى كلمة «شرعا» أى طاهرة على وجه الماء.. وعن الحسن: تشرع على أبوابهم كأنها الكباش البيض.

وسئل الحسن بن الفضيل: هل تجد فى كتاب الله: الحلال لا يأتيك إلا كفافا.. والحرام يأتيك جزافا؟.. قال: نعم.. فى قصة داود وأهل أيلة «إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعا ويوم لا يسبتون لا تأتيهم»(١).

فعمد رجال منهم.. فحفروا الحياض حول البحر.. وفتحوا لها قنوات تصل بين الحياض وبين البحر.. فإذا كانت عشية الجمعة.. فتحوا القنوات.. فيقبل الموج بالحيتان إلى الحياض.. فلا تطيق الخروج منها.. لبعد عمقها.. وقلة الماء فيها.. فإذا كان يوم الأحد أخذوها.. وقيل: إنهم كانوا ينصبون الحبال والشباك يوم الجمعة.. ويخرجونها يوم الأحد.. وفى كل هذا تحايل على الله ومكر.. والله ـ سبحانه وتعالى ـ أشد مكرا..

وانقسم أهل القرية حيال هذا الأمر.. إلى ثلاثة أصناف.. صنف امتنع عن هذا التحايل ونهى عنه.. وصنف امتنع ولم ينه.. وصنف ثالث انتهكوا حرمة الله.. «وإذ قالت أمة منهم لم تعظون قوما الله مهلكهم أو معذبهم عذابا شديدا، قالوا معذرة إلى ربكم ولعلهم يتقون» ١٦٤ الأعراف..

أى: قالت الفرقة التى لم تنه ولم تعص.. للفرقة الناهية: لم تعظون العاصين؟ إن الله سيعذبهم كما هو عهدنا.. من فعل الله بالأمم العاصية.. فقالوا لهم: إن موعظتنا لهم معذرة إلى الله لعلهم يتقون.. ويرجعون عن عصيانهم.. ومن هذا النص علمنا أنهم كانوا ثلاث فرق. ويقول المفسرون «مسخ الله العاصين منهم قردة.. ونجى الله المتقين» (٢) «فلما نسوا ما ذكروا به أنجينا الذين ينهون عن السوء، وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون. فلما عتوا عن ما نهوا عنه قلنا لهم كونوا قردة خاسئين» ١٦٥ - ١٦٦ الأعراف.

---

(١) القرطبى والكشاف / ١٦٥ الأعراف

(٢) القرطبى والكشاف والثعلبى - ١٦٥ - والأعراف.

قال بعض المفسرين: إن الطائفة التى لم تنه ولم تعص.. هلكت مع الطائفة العاصية.. عقوبة على ترك النهى.. وقال هنا ابن عباس: ما أدرى ما فعل الله بالفرقة المعتزلة.. التى لم تعص ولم تنه.. وهو الظاهر من الآية.. وقال عكرمة: قلت لابن عباس.. لما قال ما أدرى ما فعل بهم: ألا ترى أنهم قد كرهوا ما هم عليه وخالفوهم فقالوا: «لم تعظون قوما الله مهلكهم».. فلم أزل به حتى عَرَّفته أنهم قد نجوا.. فكسانى حلة(١) وهذا رأى حسن.. ومما يدل على أنه قد هلكت الفرقة المعتدية فقط.. قوله تعالى «وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس» ١٦٥ الأعراف.

كما ذكر الثعلبى رواية عن أبى نصر عن أبى سعيد الخدرى. قال: قال رسول الله (ﷺ): «ما أهلك الله قوما ولا قرنا ولا أمة بعذاب من السماء.. بعد ما أنزل الله التوراة على وجه الأرض.. غير أهل القرية التى كانت حاضرة البحر.. الذين مسخوا قردة. ألم تسمع قول الله تعالى «ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى»»؟.

وقال صاحب تفسير الكشاف والقرطبى: إن المسلمين من أهل القرية أقاموا جدارا بينهم وبين المعتدين فى السبت.. لهؤلاء باب.. ولهؤلاء باب.. ولعنهم داود - عليه السلام - فأصبح المسلمون فى مجالسهم.. ولم يخرج من المعتدين أحد.. فقالوا إن لهؤلاء شأنا.. فعلوا الجدار فنظروا.. فإذا هم قردة.. ففتحوا الباب ودخلوا عليهم.. فعرفت القردة أنسباءها من الإنس.. والإنس لا يعرفون أنسباءهم من القرود.. فجعل القرد يأتى قريبه.. فيشم ثيابه ويبكى.. فيقول ألم ننهك.. فيقول برأسه بلى (٢) أهـ.

ومعنى هذا أنهم كانوا فى أجسام القرود.. بعقول البشر.. وفى هذا حقا عذاب بئيس.. كما قيل: صار الشباب قرودا وصار الشيوخ خنازير(٣)

(١) من القرطبى والكشاف ١٦٥/ الأعراف.

(٣) نفس المصدر السابق.

وعن الحسن: أكلوا والله أوخم أكلة أكلها.. أثقلها خزيا فى الدنيا.. وأطولها عذابا فى الآخرة.

وإن كان بعض المفسرين يميلون إلى أن الله مسخهم مسخ طباع وخصال.. ولكننا لانميل إلى هذا الرأى.. لأن الله يقول «قلنا لهم كونوا قردة خاسئين» والله سبحانه. إذا قال لشىء كن .. فلابد أن يكون .. ولا داعى للخروج على ظاهر النص.. وقد أخطأ من قال: إن القردة والخنازير من نسلهم.. لأن الممسوخ مقطوع الإنجاب.. وإنما المعقول والمقبول قول من قال: إن هؤلاء الممسوخين قد ماتوا جميعا بعد ثلاثة أيام من مسخهم.

وكانت مدة داود فى الملك.. أربعين سنة.. منها سبعة أعوام وهو ملك حبرون لسبط يهوذا فقط من بنى إسرائيل.. ولبنى إسرائيل كلهم ثلاثا وثلاثين سنة.. ملكا لجميع اليهود فى صهيون..

يقول القرطبى: مات داود فيما قبل يوم السبت فجأة.. أتاه ملك الموت وهو يصعد فى محرابه وينزل..

فقال: جئت لأقبض روحك.. فقال دعنى حتى أنزل وارتقى.. فقال مالى إلى ذلك سبيل نفدت الأرزاق.. فما أنت بمؤثر بعدها أثرا..

قال: فسجد داود على مرقاة من الدرج.. فقبض نفسه على تلك الحال.. وكان بينه وبين موسى خمسمائة وتسع وسبعون سنة.. وقيل وتسع وتسعون.. وعاش مائة عام.. وأوصى إلى ابنه سليمان بالخلافة(٤).

ويقول أبو بكر الصديق رضى الله عنه: لايزال المرء ينعى أخاه حتى يكونه.. وقد يرجو الرجاء فيحول الموت دونه..

ونفس المعنى فى قول بعض الشعراء:

وإذا حملت إلى القبور جنازة
فاعلم بأنك بعدها محمول
وإذا وليت أمور قوم مدة
فاعلم بأنك عنهمو معزول

(٢) من القرطبى ١٦٥/ الأعراف.

(٤) القرطبى ٢٥/ ص.

«وورث سليمـان داود وقال يأيها الناس عـلمنا منطق الطيـر وأوتينا من كل شىء»

(١٦ من سورة النمل)

○ من نبأ سليمان عليه السلام

الفصل الأول

غلام حكيم

دخل رجلان على داود- عليه السلام - ومعه ابنه سليمان.. وكان سليمان - عليه السلام - ابن إحدى عشرة سنة.. وكان أحد الرجلين صاحب حرث.. والآخر صاحب غنم.

فقال صاحب الحرث: إن هذا الرجل انفلتت غنمه ليلا.. فوقعت فى حرثى.. فلم تبق منه شيئا.. قال له داود: اذهب فإن الغنم لك.. فأعطاه رقاب الغنم نظير إتلاف الحرث.. فقال سليمان بعد أن سمع حكم أبيه: غير هذا أرفق بالفريقين.. فقال داود.. فكيف تقضى بينهما؟ .. وعزم عليه ليحكمن فى هذه القضية.. فقال: تدفع الغنم إلى أهل الحرث.. ينتفعون بألبانها.. وأصوافها.. وأولادها.. وتدفع الحرث إلى صاحب الغنم.. حتى يصلح الحرث.. ويعود كهيئته يوم أفسِد .. ثم يترادان .. فقال داود: القضاء ما قضيت يا سليمان.. وأمضى الحكم بذلك .. اقرأ «وداود وسليمان إذ يحكمان فى الحرث.. إذ نفشت فيه غنم القوم .. وكنا لحكمهم شاهدين ففهمناها سليمان وكلا آتينا حُكما وعلما» (٧٨ الأنبياء) ونفش الغنم: انتشارها ليلا بغير راعٍ.. وقد اجتهد داود وسليمان فى الحكم.. فكان اجتهاد سليمان أقرب إلى الصواب بدليل: «ففهمناها سليمان».. وقوله تعالى «وكلا آتينا حُكما وعلما».. دليل على أنهما كانا على صواب.. فكان وجه حكم داود.. أن الضرر لما وقع من الغنم.. سلمت بسبب جنايتها إلى المجنى عليه.. ولعل قيمة الغنم كانت على قدر التلف فى الحرث - أما وجه سليمان فإنه جعل الانتفاع بالغنم.. نظير ما تلف من الحرث.. من غير أن يزول ملك المالك عن الغنم وأوجب على صاحب الغنم أن يعمل فى الحرث حتى يزول الضرر والتلف.

وجاء فى تفسير النسفى عن مجاهد: كان رأى داود حُكْما.. ورأى سليمان صُلْحا.. والصلح خير.. كما أن صاحب تفسير البيضاوى قال: إن هذا دليل على أن خطأ المجتهد.. لا يقدح فيه..

ولكل مجتهد نصيب..

ولقد تعرض المفسرون لرأى الشريعة الإسلامية.. فى مثل هذه القضية.. فكان رأى الشافعية:

ضمان المتلف بالليل.. إذ المعتاد.. ضبط الدواب ليلا.. وهكذا قضى النبى - صلى الله عليه وسلم - لما دخلت ناقة البراء بستانا وأفسدته.. فقال: «على أهل الأموال حفظها بالنهار.. وعلى أهل الماشية حفظها بالليل».

أما رأى أبى حنيفة فهو لاضمان إلا إذا كان مع البهيمة حافظ.. لقوله - صلى الله عليه وسلم - «جرح العجماء جبار»(١).

ووردت رواية فى كتاب أبى إسحاق الثعلبى.. تقول: عن أبى هريرة - رضى الله عنه: أنزل الله تعالى كتابا من السماء على داود.. فيه ثلاث عشرة مسألة.. وأوحى الله إليه.. أن يسأل عنها الخليفة من بعده.. فدعا الأحبار والرهبان.. وأجلس سليمان - وهو غلام - بين أيديهم.. ثم قال: يابنى.. إن الله أنزل من السماء كتابا فيه مسائل.. أسالك عنها.. قال سل وما توفيقى إلا بالله.

قال: ما أقرب الأشياء؟ وما أبعدها.

قال سليمان: أقرب الأشياء: الآخرة.. وأبعدها.. ما فاتك من الدنيا.

قال: ما آنس(٢) الأشياء؟.. وما أوحشها؟.

قال: آنس الأشياء: جسد فيه روح.. وأوحشها: جسد لا روح فيه.

قال: ما أحسن الأشياء؟.. وما أقبحها؟.

قال: أحسن الأشياء: الإيمان بعد الكفر.. وأقبحها: الكفر بعد الإيمان.

قال داود: ما أقل الأشياء؟.. وما أكثرها؟.

قال: أقل الأشياء اليقين.. وأكثرها: الشك

قال: ما القائمان؟.. والساعيان؟.

قال: أقل الأشياء اليقين.. وأكثرها؟.

قال: ما القائمان؟.. وما الساعيان؟.

قال سليمان: القائمان: السماء والأرض.. والساعيان: الشمس والقمر.

قال داود: ما المشتركان؟.. وما التباغضان؟.

قال: المشتركان: الليل والنهار.. والمتباغضان: الموت والحياة.

قال: ما الأمر الذى إذا ركبه الإنسان.. حمد آخره.. والأمر الذى إذا ركبه الإنسان.. ذم آخره؟.

قال: الأمر الذى إذا ركبه الإنسان.. حمد آخره: الحلم عند الغضب.

وأما الأمر الذى إذا ركبه الإنسان ذم آخره : فالحدة عند الغضب..

فقال الأحبار والرهبان : نريد أن نسأله سؤالا.. فقال داود: سلوه قالوا: ما الشىء الذى إذا صلح.. صلح كل شئ من الإنسان.. وإذا فسد فسد كل شىء منه؟.

فقال سليمان: هو القلب.. وقال الأحبار: صدقت.. ثم صعد داود المنبر.. فقال:

«إن الله تعالى أمرنى أن استخلف عليكم سليمان.. ورضى الرهبان والأحبار.. لبادرة ذكائه.. وحكمته.. صغيرا.

وقال وهب بن منبه: لما استخلف داود ابنه سليمان ـ عليهما السلام ـ وعظه فقال:

«يابنى إياك والهزل.. فإن نفعه قليل.. ويهيج العداوة بين الإخوان.. وإياك والغضب.. فإن الغضب يستخف بصاحبه.. وعليك بتقوى الله وطاعته.. فإنهما يغلبان كل شىء.. وإياك وكثرة الغيرة على أهلك من غير شىء.. فإن ذلك يورث سوء الظن بالناس.. وإن كانوا براء واقطع طمعك من الناس.. فإن ذلك هو الغنى.. وإياك والطمع.. فإنه الفقرالحاضر.. وإياك وما يعتذر منه من القول والفعل.. وعَوّد نفسك ولسانك الصدق.. والزم الإحسان.. فإن استطعت أن يكون يومك خيرا من أمسك فافعل.. وصل صلاة مودع.. ولا تجالس السفهاء.. ولا ترد على عالم.. ولا تماره فى الدين.. وإذا غضبت فالصق جسمك بالأرض.. وتحول من مكانك.. وارج رحمة الله.. فإنها وسعت كل شىء».

---

(١) الجبار كالغبار: الهدر والهباء.. يقال ذهب دم فلان جبارا أى هدرا.. وفى الحديث أيضا «المعدن جبار» اى إذا انهار منجم على من يعمل فيه.. لم يؤخذ به مستأجره.

(٢) من الأنس.

ورث سليمان داود ـ عليهما السلام ـ في النبوة والملك.. والعلم والحكمة.. وهو ابن ثلاث عشرة سنة.. دون سائر بنيه.. وكانوا تسعة عشر ولدا.

وكان سليمان أعظم مُلكا من أبيه.. وأقضى منه.. بينما كان داود أكثر تعبدا من ابنه..

وقال مجاهد عن ابن عباس: ملك الأرض أربعة: مؤمنان وكافران: فأما المؤمنان: فسليمان بن داود.. والإسكندر ذو القرنين، وأما الكافران: فالنمروذ بن كنعان.. وبختنصر(١).

وقال وهب بن منبه، وكعب الأحبار: كان سليمان.. أبيض .. جسيما.. وضيئا.. جميلا.. كثير الشعر.. يلبس من الثياب البيض.

وكان خاشعا.. متواضعا.. يخالط المساكين ويجالسهم.. ويقول: مسكين يجالس مسكينا.

وكان أبوه يستشيره في كثير من أموره.. مع صغر سنه.. لوفرة عقله وحكمته.

□ □ □

(١) النسفي ٨٣/ الكهف.

« قال رب اغفر لى وهب لى ملكا لا ينبغى لأحد من بعدى إنك أنت الوهاب »

(الآية ٣٥ من سورة ص)

ملك لاينبغى لأحـــــد

الفصـــــل الثانى

١ فتنة سليمان

قبل أن نتحدث عن الملك الذى طلبه سليمان ـ عليه السـلام ـ فى الآية التى صدّرنا بهـا هذا الفصـل : (قال رب اغفر لى وهـب لى ملكا لا ينبغى لأحـد من بعدى) ٣٥ ـ ص.

يجدر بنا أن نتحدث أولا عن الآية التى قبلها مباشرة «ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسدا ثم أناب» ٣٤ ـ ص.

قصة غريبة: غريبة.. حشيت بها كتب التفسير كلها تقريباً.. إما موجزة وإما مفصلة.. ولولا هذا لما ذكرناها فى كتابنا.. فأنا أعتقد أنها مما لا يحل فيه النقل.. لاستحالة أن يقبلها العقل أو الدين.. وسألخصها باختصار غير مخل.. قالوا:

إن سليمان بلغه خبر مدينة اسمها صيدون بجزيرة فى البحر فخرج إليها بجنوده تحمله الرياح.. فدخلها.. وقتل ملكها.

وكان للملك فتاة آية فى الجمال.. اسمها جرادة ـ أحبها سليمان.. وشغفته حبا.. فتزوجها.. ولكنها كانت دائمة البكاء.. حزنا على أبيها.. الذى كانت تحبه حبا بلغ درجة العبادة.. وحاول سليمان ـ عليه السلام ـ أن يسرى عنها حزنها.. فأمر ـ تنفيذا لرغبتها ـ بصنع تمثال لأبيها.. وُضِعَ فى حجرتها..

فكست جرادة هذا التمثال بملابس أبيها وزينته.. وصارت تسجد له هى وجواريها.. فى الصباح والمساء.. ولبث سليمان يجهل هذا الأمر أربعين يوما.. حتى أخبره به كاتبه الصديق.. آصف بن برخيا.. فحطم هذا الوثن.. وندم غاية الندم.. وحق عليه العقاب..وقالوا: إن تلك هى الفتنة التى فُتن بها سليمان.

أما إلقاء الجسد على كرسيه ـ عقابا له ـ فقالوا: إن خاتمه كان يحتفظ به.. وقت قضاء الحاجة.. أو الاغتسال.. عند إحدى زوجاته.. واسمها أمينة.. وألقى الله شبه سليمان على الشيطان ـ صاحب البحر وقالوا: اسمه صخر.. كما قالوا عنه: إنه هو الذى دلّ سليمان على الماس.. يقطع به الحجارة والفصوص وغيرها.

فذهب الشيطان إلى زوجة سليمان متمثلا به.. وأخذ منها الخاتم..اعتقادا منها أنه سليمان.. ولبسه وجلس على العرش.. بينما تغيرت حال سليمان ـ عليه السلام ـ وعرف أن الخطيئة أدركته.. فكان يتكفف الناس.. وأخذ يخدم السماكين.. نظير سمكتين كل يوم.. ولبث أربعين يوما ـ عدد ما عبد الوثن فى بيته.. وقد أنكر آصف

ابن برخيا وزعماء الإسرائيليين حكم الشيطان.. وقال أهل الحشو فى قصص الأنبياء: ذهب آصف كاتب سليمان إلى نسائه أى نساء سليمان ـ يسألهن عن تغير حاله.. فقلن له: إنه لا يدع امرأة منا فى دمها.. ولا يغتسل من جنابة.. ثم طار الشيطان.. وقذف الخاتم فى البحر..فابتلعته سمكة.. جاءت من نصيب سليمان نظير خدمته للسماكين.. فلما فتحها.. وجد فيها الخاتم.. فلبسه وعاد له ملكه.

فقبض على الشيطان.. وأدخله فى صخرة.. وألقاه في البحر(١).

تلك هى القصة المفتراة على سليمان ـ عليه السلام ـ وهى قصة لاتستحق شرف النقاش.. شيطان يكون له سلطان على ملك سليمان إلى هذا الحد.. الذى يزعم فيه الزاعمون أنه وطأ نساءه وهن حيض.. الله أكبر.. هذا بهتان عظيم.. وإفك جسيم.. فالله سبحانه ـ يقول عن الشيطان «ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون».. ليس له سلطان على المؤمن العادى.. المتوكل على مولاه.. فما بالك برسول من كبار المرسلين؟.. له عند الله زلفى وحسن مآب.. وقال عنه أيضا «نعم العبد إنه أواب».

قال أبو حيان فى تفسيره: نقل المفسرون فى هذه الفتنة.. وإلقاء الجسد.. أقوالا.. يجب براءة الأنبياء منها.. وهى مما لا يحل نقله.. فهى إما من وضع اليهود.. أو الزنادقة.. ومستحيل عقلا وجود بعض ما ذكروه.. كتمثل الشيطان بصورة نبى.. ولو أمكن وجود هذا.. لم يوثق بإرسال نبى.. فما هى إلا أقوال مسترقة من زنادقة السوفسطائية.. نسأل الله سلامة أذهاننا، وعقولنا منها.

وقد اجتهد العلماء فى استنتاج مفهوم فتنة سليمان.. ومعنى الجسد الذى ألقى على كرسيه بعد تكذيب هذا الحشو الباطل.. والزيف البين. فقال بعضهم: إن سليمان كان له ولد تآمر الشياطين على قتله تخلصا منه.. حتى لا يسخرهم بعد موت أبيه.. وعلم سليمان.. عليه السلام بذلك.. فكان يغذوه فى سحابة خوفا عليه.. ولكنه فوجىء بإلقائه على كرسيه.. ميتا.

فتنبه إلى خطئه بعدم توكله على الله فى حفظه.. فاستغفر وأناب.. هذا رأى.

ورأى آخر يقوله القرطبى عن سعيد بن جبير عن ابن عباس.. مؤداه أن سليمان.. اختصم إليه فريقان.. أحدهما من أهل جرادة.. زوجته.. وكان يحبها.. فهوى أن يحكم لصالحهم.. ولكنه عاد وقضى بينهم بالحق.. فأصابه الذى أصابه.. عقوبة له لذلك الهوى.. ولكن الرواية لم تذكر لنا ما هو الذي أصابه.

وتوجد آراء أخرى كثيرة.. ولكن لا يهمنا من تلك الآراء.. إلا أن نعرض حديثا عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ تعلق بسليمان ـ عليه السلام ـ اتخذه بعض المفسرين سندا لتأويل معنى الفتنة.. والجسد الذى أُلقى على الكرسى.

يقول الحديث: «قال سليمان لأطوفن الليلة على سبعين امرأة.. تأتى كل واحدة بفارس يجاهد فى سبيل الله تعالى.. ولم يقل ـ إن شاء الله ـ فطاف عليهن.. فلم تحمل إلا امرأة واحدة.. جاءت بشق رجل.. والذى نفسى بيده، لو قال ـ إن شاء الله ـ لجاهدوا فى سبيل الله فرسانا أجمعون (٢)» فقالوا: إن فتنة سليمان.. أنه لم يقل ـ إن شاء الله ـ وأن الجسد الذي ألقى على الكرسى.. هو الشق الذى ولدته المرأة التى حملت فى تلك الليلة.. ولنا وقفة قصيرة أمام ملاحظتين حول هذا الحديث.. فقد رواه البخارى سبع مرات.. ورواه مسلم فى كتاب الإيمان بطرق متعددة.. ولكن هذه الروايات اختلفت فى عدد النساء.. فكان ستين.. ومرة سبعين.. ومرة أخرى تسعين.. وتسعا وتسعين.. ومائة بل أورد الأستاذ عبد الوهاب النجار هذا الحديث.. نقلا عن الحافظ ابن كثير «البداية والنهاية» ونصه: «قال إسحاق ابن بشر: أنبانا مقاتل عن أبى الزناد عن أبيه عن عبد الرحمن عن أبى هريرة: أن سليمان بن داود.. كان له أربعمائة امرأة وستمائة سرية.. فقال يوما: لأطوفن الليلة على ألف امرأة.. فتحمل كل واحدة منهن بفارس يجاهد فى سبيل الله ـ ولم يستثن ـ فطاف عليهن.. الخ الحديث.

---

(١) القرطبى ـ الكشاف ـ البيضاوى ـ الثعلبى ٣٤/ ص.

(٢) ورد الحديث فى جميع كتب التفسير ٣٤/ ص.

وظاهر أن المبالغة فى عدد النساء فى تلك الرواية.. زادت عن حدها المعقول زيادة لايقبلها إلا مجرد من العقل.. هذه ملاحظة.

والملاحظة الثانية: أن الحديث لم ينص على أن هذا الشق.. الذى ولدته المرأة.. هو الجسد الذى أُلقى على كرسى سليمان.. اللهم إلا فى رواية واحدة أوردها صاحب تفسير النسفى.. زيد عليها بعد قوله «فلم تحمل إلا امرأة واحدة.. جاءت بشق رجل» قال «فجىء به على كرسيه.. ووضع فى حجره» وأعتقد أن تلك العبارة زيادة من بعض الرواة.

ولقد دفعنى عدم اقتناعى بأى رواية من الروايات السابقة.. أو رأى من آراء المفسرين.. إلى البحث عن معنى كلمة «جسد» فى اللغة.. فوجدته يؤدي معنى: البدن.. ويؤدى معنى الزعفران ونحوه من المصبغ.. كما يؤدي معنى الذهب الأحمر(١).. وقد أخبرنى صديق من قدامى المشتغلين بصناعة الذهب: أن الجسد هو الاسم الفنى القديم للذهب الخالص «الخام».

وزاد إيمانى بهذا المعنى.. قول الله تبارك وتعالى: «واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلاً جسدا» (١٤٨ الأعراف) أى عجلا ذهبا.. كما قال البيضاوى وغيره.. كما وجدت فى معاجم اللغة العربية وقواميسها حول كلمة «فتن» تقول «فتن الذهب أى اختبره.. ويسمى الصائغ الفتان».

وهنا برز فى معنى جديد للآية التى نحن بصددها.. «ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسدا» .. معنى يشرح الصدر.. ويريح النفس.. ويخاطب العقل.. ويواكب المنطق.. لقد قال المفسرون: إن سليمان تولى الملك وعمره ثلاثة عشر عاما.. وفتن بعد ما ملك عشرين عاما.. وملك بعد الفتنة عشرين عاما.. ورد هذا فى تفاسير القرطبى والكشاف والنسفى وغيرهم.

فنفهم من هذا.. أن سليمان ورث ملك أبيه ـ وهو ملك عريض ـ ولبث يحكم حكما عاديا لمدة عشرين سنة.. كانت تراوده فيها الرغبة فى عظمة الملك وفخامته وأبهته.. لا طمعا فى العظمة.. والفخامة والأبهة.. ولكن لإرهاب الشعب.. وأداء حقوق الله تعالى.. وشكره .. وسياسة ملكه.. وإقامة حدوده.. والمحافظة على رسومه.. وتعظيم شعائره.. وظهور عبادته.. ولزوم طاعته.

فصنع كرسى عرشه من الذهب الخالص وهو ـ الجسد ـ إظهارا لعظمته.. وإبرازا لمجده «وألقينا على كرسيه جسدا» لأن الله هو الفاعل في كل شيء.. ولكنه خاف أن يكون فى ذلك فتنة له.. تحيد به عن طريق المتقين الزاهدين فى الدنيا وزينتها.. فأناب إلى الله.. ورجع إليه.. يبثه أمانيه.. ويدعوه بما يبتغيه فقال «رب اغفر لى وهب لى ملكا لاينبغى لأحد من بعدى إنك أنت الوهاب» فقدم الاستغفار على طلب هبة الملك جريا على عادة الأنبياء والصالحين فى تقديمهم أمر دينهم على امور دنياهم.. وأجاب الله دعاءه.

ولعلك مشوق الآن لتعرف شيئا عن هذا الكرسى العجيب ـ كرسي سليمان ـ عليه السلام ـ وقد أوردت بعض كتب التفسير وصفا له.. منها تفسير القرطبى.. وكتاب العرائس لأبى إسحاق الثعلبى.. لا مانع من ذكره لطرافته.. ومن باب العلم بالشىء.

فقال تفسير القرطبي : قال وهب بن منبه ،وكعب، وغيرهما : إن سليمان أمر باتخاذ كرسى ليجلس عليه للقضاء.. وأمر أن يعمل بديعا.. مهولا.. بحيث إذا رآه مبطل.. أو شاهد زور.. ارتدع وتهيب.. فأمر أن يعمل من أنياب الفيلة.. مغصصة بالدر والياقوت والزبرجد.. وأن يحف بنخيل الذهب.. فحف بأربع نخلات من الذهب.. شماريخها الياقوت الأحمر.. والزمرد الأخضر.. على رأس نخلتين منهما طاووسان من ذهب.. وعلى رأس نختلين نسران من ذهب بعضها مقابل لبعض.. وجعلوا من جنبى الكرسى أسدين من ذهب.. على رأس كل واحد منهما عمود من الزمرد الأخضر.. وقد عقدوا على النخلات أشجار كروم من الذهب الأحمر.

واتخذوا عناقيدها من الياقوت الأحمر.. بحيث أظل عريش الكروم النخل والكرسي(٢).

وكان سليمان ـ عليه السلام ـ إذا أراد صعوده .. وضع قدميه على الدرجة السفلى.. فيستدير الكرسي دوران الرحى المسرعة .. كله بما فيه .. وينشر النسران والطاووسان أجنحتهما

(١) من مختار الصحاح للإمام محمد بن أبى بكر الرازى.

(٢) لعلنا الآن نرى الفتنة الملقاة على هذا الكرسى.

ويبسط الأسدان أيديهما.. ويضربان الأرض بأذنابهما.. وكذلك يحصل فى كل درجة يصعدها سليمان فإذا استوى بأعلاه.. أخذ النسران اللذان على النخلتين تاج سليمان فوضعاه على رأسه.. ثم يستدير الكرسى بما فيه.. ويدور معه النسران والطاووسان والأسدان.. مائلين برءوسهما إلى سليمان.. وينضحن عليه من أجوافهن المسك والعنبر.. ثم تناوله حمامة من ذهب ـ قائمة على عمود من أعمدة الجواهر فوق الكرسى ـ التوراة.. فيفتحها سليمان ـ عليه السلام ـ ويقرؤها على الناس.. ويدعوهما إلى فصل القضاء.. فإذا تقدم الشهود للشهادات.. دار الكرسى بما فيه وما عليه دوران الرحى المسرعة..

ويبسط الأسدان أيديهما.. ويضربان الأرض بأذنابهما.. وينشر النسران والطاووسان أجنحتهما.. فيفزع الشهود.. فلا يشهدون إلا بالحق .. واسترسلت رواية الكرسى.. قائلة.. فلما توفى سليمان.. بعث بختنصر.. فأخذ الكرسى.. فحمله إلى أنطاكية.. وأراد أن يصعد عليه.. ولم يكن له علم.. كيف يصعد إليه.. فلما وضع رجله.. ضرب الأسد رجله فكسرها.. **وكان سليمان.. إذا صعد.. وضع قدميه معا.. ومات بختنصر وحمل الكرسى إلى بيت المقدس.. فلم يستطع ملك قط.. أن يجلس عليه.. ولكن لم يدر أحد عاقبة أمره..ولعله رفع. أ هـ (١).**

□ □ □

(١) الثعلبى ـ القرطبى ٣٤/ ص.

٢ سليمان وحديث الطير

قال سليمان: «يا أيها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شىءإن هذا لهو الفضل المبين»١٦ النمل.

والنطق والمنطق كل مايعبر به عما فى الضمير.. ولو كان من أصوات الحيوان.. فإن الأصوات الحيوانية.. تعبر عن تخيلات لها.. وخاصة وأن فيها ما يتفاوت باختلاف الأغراض.. بحيث تفهم بعضها بعضا.. فمثلا.. مواء هرة محبوسة يختلف عن مواء هرة تطلب ضعاما.. فكل صوت له كيفيات ونبرات ليست فى الصوت الآخر.

والمنطق قد يقع لما يفهم بغير كلام.. وقد ذكرالأستاذ عبد الوهاب النجار فى كتابه «قصص الأنبياء» أن جريدة الأهرام نشرت فى عدد الأحد ٤ فبراير ١٩٣٧م تحت عنوأن «لغة الطير» قالت: كشف عالم ألمانى بعد ملاحظات دقيقة.. وصبر طويل.. أثرا لم ينتبه إليه أحد قبله.. وهو أن الطيور لاتصدح فقط.. ولكنها تتكلم.. ولها على مثال البشر لهجات خاصة.. مثال ذلك.. أن الشحرور النمساوى لايفهم لهجة الشحرور البلغارى.. والشحرور الفرنساوى.. لا يفهم لهجة الشحرور الإنجليزى.

وقال صاحب تفسير البيضاوى: ولعل سليمان كان إذا صوت حيوان علم بقوته الحدسيةالتخيل الذى عبر عنه بصوته.. والغرض الذى توخاه منه.. ومن ذلك ما حكى أنه مر ببلبل يصوت ويترقص.. فقال إنه يقول: «أكلت نصف تمرة فعلى الدنيا العفاء».. وصاحت فاختة.. فقال: إنها تقول: «ليت الخلق لم يخلقوا».. فلعل صوت البلبل كان على شبع وفراغ بال.. وصياح الفاختة كان على مقاسات شدة وألم. فقد أجاب الله ـ سبحانه ـ دعاء سليمان ـ عليه السلام ـ وأكرمه بخصائص لم يكرم بها أحدا من خلقه.. لا من قبل.. ولا من بعد.. ويقول رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى الصحيح: «لكل نبى دعوة مستجابة فتعجل كل نبى دعوته».. الحديث (١).

وقد ادخر ـ عليه الصلاة والسلام ـ دعوته ليشفع لنا بها يوم لقاء الله فجزاه الله عنا خير الجزاء.

لقد علم سليمان ـ عليه السلام ـ من منطق الطير.. ما يفهم بعضه من بعض من معانيه وأغراضه.

وقد ورد حديث الطير فى جميع كتب التفسير.. فمثلا.. قال صاحبى تفسير الكشاف والنسفى.. ما نصه:

---

(١) القرطبى ٣٥/ ص.

يحكى أنه مر على بلبل فوق شجرة يحرك رأسه .. ويميل بذنبه.. فقال لأصحابه:

أتدرون ما يقول؟ قالوا: الله ونبيه أعلم.. قال يقول: «أكلت نصف تمرة.. فعلى الدنيا العفاء».. وصاحت فاختة.. فأخبر أنها تقول: «ليت الخلق لم يخلقوا».. وصاح طاووس فقال: يقول «كما تدين تدان».. وصاح هدهد.. فقال: يقول «استغفروا الله يامذنبين» وصاح طيطوى.. فقال: يقول «كل حى ميت.. وكل جديد بال».. وصاح خطاف.. فقال: يقول «قدموا خيرا تجدوه» وصاحت رخمة.. فقال: تقول: «سبحان ربى الأعلى ملء أرضه وسمائه».. وصاح قمرى.. فقال: تقول: «سبحان ربى العظيم».. وقال: الحدأة تقول «كل شيء هالك إلا وجهه».. والقطاة تقول «من سكت سلم».. والببغاء تقول «ويل لمن الدنيا همه».. والديك يقول «اذكروا الله يا غافلين».. والنسر يقول « يا ابن آدم عش ما شئت.. آخرك الموت».. والعقاب يقول «فى البعد عن الناس أُنس».. والضفدع يقول «سبحان ربى القدوس(١)».

كما ذكر القرطبى: قال مكحول: صاح دراج عند سليمان.. فقال إنه يقول: «الرحمن على العرش استوى».. وذكر أن آدم.. خرج من الجنة.. فاشتكى إلى الله الوحشة.. فآنسه الله تعالى بالخطاف.. وألزمها البيوت.. فهى لا تفارق بنى آدم.. أنسا لهم.. قال: ومعها أربع آيات من كتاب الله.. عز وجل «لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا.. إلى آخر سورة الحشر».. وتمد صوتها بقوله تعالى «العزيز الحكيم».. كما ذكر الحسن ـ رضى الله عنه ـ قال: قال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «إذا صاح الديك.. قال: «اذكروا الله يا غافلين» (٢).

أعطى الله سليمان مُلكا عظيما.. وآتاه من كل شيء.. فعلمه كلاما لا يعلمه سواه.

وهذه المنحة لم تذكر فى كتب أهل الكتاب.. وإنما يذكرون أن سليمان كان عظيم الحكمة.. ولذلك يسمونه.. سليمان الحكيم.. ولا يعترفون بنبوته مطلقا.

ولم يقل سليمان « عُلمنا وأُوتينا » فخرا وزهوا.. وإنما كان هذا القول منه شكرا.. وثناء على الله.. كما كان رسولنا ـ عليه الصلاة والسلام.. يقول « أنا سيد ولد آدم ولا فخر » أى أقول هذا القول شكرا.. ولا أقوله فخرا..

(١) الكشاف والنسفى ١٦/ النمل.

(٢) من تفسير الكشاف ٢٥/ ص.

ويذكرنى هذا بسؤال.. وجهه إلىَّ بعض الطلبة النابهين.. فقال تعليقا على قول سليمان « وهب لى ملكا لا ينبغى لأحد من بعدى » قال الطالب : ألا يعتبر هذا الطلب من سليمان أنانية منه.. وحبا لذاته ؟ حيث يطلب من الله ألا يعطيه أحدا سواه ؟.

والجواب : أن سليمان لم يطلب هذا الملك.. حبا فيه.. للاستمتاع بأبهته وبذخه وعظمته.. بل ليشكر الله شكرا لا ينبغى لأحد من بعده.. بدليل أنه برغم هذا الملك الواسع العريض.. الخارق للمألوف والمعروف.. مات عليه السلام.. وهو واقف خلف عمال الجن والمردة والشياطين.. حتى لا يتراخوا فى أعمالهم.. « فلما قضينا عليه الموت ما دلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته.. فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا فى العذاب المهين » ١٤ سبأ .

فأى استمتاع هذا بذلك الملك .

وقد أخطأ الحجاج فى حق سليمان.. عندما قيل له: إنك حسود ، فقال أحسد منى.. من قال:« وهب لى ملكا لا ينبغى لأحد من بعدى » وهذا من جرأته على الله وشططه.. كمًا حكى عنه ـ أى الحجاج قال : طاعتنا أوجب من طاعة الله.. لأنه شرط فى طاعته فقال: « فاتقوا الله ما استطعتم » وأطلق طاعتنا.. فقال: « وأولى الأمر منكم » (٣) وهذا جهل منه وشطط .

وقبل أن نترك حديث الطير.. ألفت نظر القارىء الكريم.. إلى مبالغات أوردها بعض السادة المفسرين.. لا يقبلها عقل.. ولا يسيغها منطق.. ولا تخرج عن كونها من لغو الحديث.. مما يسيء إلى سليمان ـ عليه السلام ـ ويشكك فى صحة تلك المنحة التى منحه الله إياها.. فمثلا.. ذكر فى كتاب أبى إسحاق النيسابورى والثعلبى.. قصة.. أسماها : قصة العنقاء مع سليمان.. استغرقت ثمانى صفحات من الكتاب من صفحة ٣٢٥ إلى صفحة ٣٣٢.. أجبرت نفسى على قراءتها.. **وكأنى اقرأ فى كتاب «ألف ليلة وليلة».. وجبل قاف.. وجزيرة واق الواق.. وأنا لا أشك خردلة فى أنها من الدسيس الإسرائيلى.. والحشو الزائف.. ولا يجوز لى أن أشغل القارىء الكريم.. فى ضياع وقته.. فى قراءة خرافات.. ما أنزل الله بها من سلطان.**

(٣) القرطبى ١٦/ النمل.

٣ سليمان والنملة الفدائية

لم يكن علم سليمان ـ عليه السلام ـ بمنطق الطير فقط... فقد علم منطق النملة أيضا.. وإن كان تفسير القرطبي.. ذكر عن قتادة والشعبي... أن النملة طائر.. إذ قد يوجد لها أجنحة.. غير أنه ذكر عن ابن العربي.. أنه قال: من قال إن سليمان كان لا يعلم إلا منطق الطير.. فذلك نقصان عظيم.. وقد اتفق الناس.. على أنه كان يفهم كلام ما لاينطق.. ويخلق الله له القول من النبات.. فكان كل نبت يقول له: أنا شجر كذا.. أنفع فى كذا.. وأضر فى كذا.. فما ظنك بالحيوان؟..

ولهذا قالت فرقة من أولى العلم: كان يفهم منطق جميع الحيوانات.. وإنما ذكر الله الطير.. فى قوله «عُلمنا منطق الطير» لأنه كان جندا من جند سليمان.. يحتاج إليه فى التظليل من الشمس.. وفى البعث فى الأمور.. وفى كثير من المهمات.. فخصه الله بالذكر.. لكثرة مداخله.. ولأن أمر سائر الحيوان معه نادر.: وغير متردد تردد أمر الطير.. اقرأ: «وحشر لسليمان جنوده من الجن والأنس والطير فهم يوزعون»١٧ النمل.

«حتى إذا أتوا على وادى النمل قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون»١٨ النمل.

ولاشك أن نداء النملة الذى سمعه سليمان ـ عليه السلام ـ وهو فى وسط هذا الجند الضخم من الجن والإنسُ والطير.. أمر عجيب غريب.. دفع الكثير من رجال التفسير..وأولى العلم.. إلى البحث عن اسم تلك النملة.. فقالوا فى الكشاف.. والقرطبي. وغيرها: أن اسمها طاخية.. وإن كنت لا أدرى من الذى جعل لها اسما.. علما.. يدل عليها؟.. ومن الذى عرف هذا الاسم؟.. وكيف عرفه؟..إلا أن يكون سليمان ذاته.. فهو الذى جعل الله له هذا السلطان الخارق للمألوف والمعروف.. أو أن تكون هذه النملة الناطقة.. قد سميت بهذا الاسم فى التوراة.. أو الزبور.. أو فى بعض الصحف.. سماها الله تعالى بهذا الاسم.. وعرف به الأنبياء قبل سليمان.. أو بعضهم.

وخصت بالتسمية لنطقها وإيمانها ـ كما قال ذلك صاحب تفسير القرطبي.

ولقد شغلنى أمر هذه النملة الفدائية.. التى لم تدخل مسكنها.. حتى دخل جميع نمل الوادى مساكنهم.. وتضاربت فى ذهنى خواطر كثيرة.. وجالت بخاطرى أسئلة حائرة.. لاحصر لها ولا عد.. فالمعروف أن لجسم النملة ـ على ضآلته ـ جميع أجهزة الحياة.. من رأس وصدر وبطن وأطراف.. لها جهاز هضمى.. وجهاز دورى.. وجهاز تنفسى.. وجهاز عصبى.. وجهاز تناسلى.. **إلى** آخرالأجهزة التى يتكون منها جسم كل حى.. فما هو حجم صوتها الذى سمعه سليمان.. وهو فى وسط تلك الجحافل من الجيوش الجرارة التى لا يحدها حد.. ولا يعدها عد.. ولا يحصرها مد..؟.

وهل كان لها مكبر للصوت حتى سمعها النمل المنتشر فى أرجاء الوادى على رحابته وسعته وترامية؟.. أم منحها الله هى أيضا قوة خارقة معجزة.. بازدياد خلق الصوت فيها.. كما ازداد خلق السمع فى أذن سليمان فسمعها.. والله يقول: «يزيد فى الخلق ما يشاء»؟.. مرت كل تلك الخواطر ببالى.. وأخيرا سجد العقل.. واستسلم التفكيرلقدرة القادر.. وحكمة الحكيم.. وعلم العليم..

قال المفسرون عن وادى النمل: إنه وادٍ كبير.. ففى تفسير القرطبى: قال قتادة:

هو بأرض الشام.. وقال كعب: مرَّ سليمان ـ عليه السلام ـ بوادى السدير من أودية الطائف.. فأتى على وادى النمل.. فقالت نملة تمشى وهى عرجاء تتكاوس (١) مثل الذئب فى العظم.. فنادت يا أيها النمل.. الخ وقال الزمخشرى: سمع سليمان كلامها من ثلاثة أميال.. وكانت تمشى وهى عرجاء تتكاوس.. وفى تفسير الكشاف: عن قتادة: أنه دخل الكوفة.. فالتف عليه الناس.. فقال سلوا ماشئتم.. وكان أبو حنيفة ـ رحمه الله ـ حاضرا.. وهو غلام حدث.

فقال: سلوه عن نملة سليمان.. أكانت ذكرا.. أم أنثى؟.. قالوا.. أفحم.. ولم يستطع الإجابة.. فقال أبو حنيفة كانت أنثى.. فقيل له: من أين عرفت؟.. قال: من كتاب الله تعالى ـ وهو قوله: «قالت نملة» ولو كانت ذكرا.. لقال:قال نملة.. وذلك أن النملة مثل الحمامة.. وحمامة أنثى.. أو.. هو.. وهى.

«فتبسم ضاحكا من قولها» ودوافع سليمان إلى الابتسام والضحك.. لما سمعها.. أمران:

الأمر الأول.. ما يدل عليه هذا القول من رحمته ورحمة جنوده.: وشفقتهم وتقواهم.. فقولها «وهم لايشعرون» لفتة مؤمن.. أى من عدل سليمان ورحمته وشفقته هو وجنوده.. ألايحطموا نملة فما فوقها إلا إذا كانوا لا يشعرون.. وكان سرور سليمان ـ عليه السلام ـ بهذا القول منها.. سرورا كبيرا.. حيث أكد التبسم بقوله «ضاحكا».. فقد يكون التبسم من غير ضحك.. ولا رضا.. وقد يكون الابتسام غضبا.. أو سخرية واستهزاء.. أما الابتسامة الضاحكة.. فهى سرور وانشراح.. ولا يسر نبى بأمر الدنيا.. بل يسر بأمر الدين.. وعبارة «وهم لايشعرون» إشارة إلى العدل والرحمة والدين.. ولعل صوت هذه النملة.. يبلغ آذان المسئولين فى تلك الدول الاستعمارية الذين غرهم طغيانهم.. وبطشهم.. بسحق البشر فى ديارهم.. وامتصاص دمائهم.. ونهب أموالهم.. من غير رحمة.. أو شفقة.. أو وازع من ضمير.. ليروا كيف أن سليمان وجنوده.. لو شعروا أن هذا الوادى.. هو وادى النمل.. لقدسوه.. ولارتدوا عن اقتحامه.. احتراما لتلك المخلوقات الضئيلة.. لأن ضمير الإنسان.. يعلم قول الله تعالى «وما من دآبة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم» ٣٨ الأنعام.

الأمر الثانى الذى ابتسم ضاحكا من أجله سليمان ـ عليه السلام ـ هو سروره كما آتاه الله.. مما لم يؤت أحدا سواه.. من المد فى سمعه.. فيسمع ما همس به هذا المخلوق الضئيل.. وتنازعه رغبة الشكر.. وليست نزوة الاستمتاع فيقول: «رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت علىَّ وعلى والدى وأن أعمل صالحا ترضاه وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين» (١٩ النمل).

لقد ذكرت آراء كثيرة عن هذا الوادى.. وعن ذلك النمل.. فقال الكلبى: إنه كان ببلاد اليمن.. وإنها كانت نملة صغيرة.. مثل النمل المعتاد.. وقال غيره: إن النمل كان على هيئة الذباب فى العظم.. كما ذكر بريدة الأسلمى:

---

(١) التكاوس: التقلب. وفى الحديث الشريف «والله لو فعلت ذلك.. لكوسك الله فى النار.. رأسك أسفلك».

كانت كهيئة النعاج.. ورد على هذا الرأى ـ محمد بن على الترمذى (١) فقال : إن كان النمل على هذه الخلقة.. فلها صوت مسموع.. وإن افتقد صوت النمل لصغر خلقها.. وإلا فالأصوات فى البهائم والطيور كائنة.. معروفة.. ولكن قولها « لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون » يدل على أنها كانت بملأ صغيرا.. إذا لو كانت كهيئة الذباب.. أو النعاج.. لما حطمت بالوطء.

وقد وجد الإسرائيليون.. كعادتهم.. فى قصة سليمان.. وخوارقه.. ميدانا فسيحا.. وأرضا خصبة.. لأحاديثهم الكاذبة.. ومفترياتهم الضارية.. وإشاعاتهم الغاربة.. فأدخلوا على كل خارقة ومعجزة.. من خوارقه ومعجزاته.. أفكارا تحرك الشك.. وتثير الشبهات.. فأوحت إليهم شياطينهم.. إضافة خيالات شاطحة إلى حادث النملة.

وسأضرب مثلا صغيرا من تلك الأباطيل.. حرصا على وقتنا من الضياع فى لغوٍ باطلٍ.. ضرره أكبر من نفعه.

فذكر أبو إسحاق النيسابورى الثعلبى فى كتابه أو بمعنى أدق ـ دُسَّ عليه ـ أن سليمان لما سمع قول النملة.. نزل عليها .. وقال ائتونى بها.. فأتوه بها.. فقال لها لم حذرت النمل ؟.. هل سمعتم أنى ظالم ؟.. أما علمتم أنى نبى عدل ؟.. فلم قلت «لا يحطمنكم سليمان وجنوده»؟ فقالت النملة: يانبى الله.. أما سمعت قولى «وهم لايشعرون»؟.. مع أنى ما أردت حطم النفوس.. وإنما أردت حطم القلوب.. فقال لها: عظينى.. فقالت له: هل علمت.. لم سُمى أبوك داود؟ قال: لا.. قالت: لأنه داوى جراح قلبه.. ثم قالت: وهل تدرى لم سميت سليمان؟.. قال: لا.. قالت: لأنك سليم.. ثم قالت: أتدرى.. لم سخر الله لك الريح؟.. قال: لا.. قالت: ليخبرك أن الدنيا كلها ريح.. وأورد القرطبى.. تلك الرواية.. وأسندها إلى أبى إسحاق النيسابورى أيضا.

ونحن إذا أردنا مناقشة هذه المسألة.. مناقشة خفيفة.. فقل لى: كيف أتوه بالنملة من هذا الوادى الكبير؟ هل أخرجوها من جحرها؟ أو لحقوا بها قبل أن تدخل مسكنها؟.. وكيف انتقوها من بين النمل.. وعرفوا أنها هى النملة الناطقة؟.. ذكرنى هذا الموقف بحديث لبعض الأصدقاء العلماء.. الذين صدقوا أمثال هذه الترهات والخرافات ـ غفر الله لهم ـ وكان يتحدث عن مناقشة يعقوب ـ عليه السلام مع أبنائه.. بعد أن جاءوه عشاء يبكون.. وقالوا: «فأكله الذئب».

قال صاحبنا: فقال لهم أبوهم يعقوب: أحضروا لى هذا الذئب.. فأحضروه له.. وسأله عن يوسف.

فقل لى ـ بالله عليك ـ ما هو الذئب الذى أحضروه؟..

هل يمكن تصديق مثل هذا الهراء.. إلا إذا ألغينا عقولنا؟..

□ □ □

(١) من القرطبى ١٨/ النمل.

٤ سليمان والريح

ركب سليمان الريح يوما.. فمرت بحراث يحرث أرضه.. فنظر إليها الحراث.. وقال لقد أوتى آل داود ملكا عظيما.. فحملت الريح كلامه.. ونقلته إلى أذن سليمان.. فنزل حتى أتى الحراث.. وقال: إنى سمعت قولك.. وإنما نزلت إليك.. لئلا تتمنى ما لاتقدر عليه.. وإن تسبيحة واحدة يقبلها الله منك.. خير لك مما أوتى آل داود.. فقال الحراث: أزال الله همك.. كما أزلت همى(١).

وقد ورد ذكر الريح مع سليمان.. فى قوله تعالى «فسخرنا له الريح تجرى بأمره رخاء حيث أصاب» (٣٦/ ص). ورخاء أى لينة طيبة.. مع قوتها وسرعتها.. وكذلك فى قوله تعالى «ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر» (١٢ سبأ). قال الحسن ــ رضى الله عنه ــ فى القرطبى وفى كثير من كتب التفسير: كان يغدو من دمشق.. فيقيل بإصطخر ــ من بلاد فارس ــ وبينهما مسيرة شهر للمسرع .. وقال السدى مثل ذلك.

وقال ابن عباس ــ رضى الله عنه ــ فى القرطبى وغيره أيضا: كان سليمان إذا جلس نصبت حواليه أربعمائة ألف كرسى.. ثم جلس رؤساء الإنس.. مما يليه.. ثم عامة الإنس.. فرؤساء الجن ثم عامتهم.. وموكل بكل كرسى طائر.. لعمل قد عرفه.. ثم تقلهم الريح.. والطير تظلهم من الشمس.. فيعدو من بيت المقدس الى إصطخر ثم يبيت ببيت المقدس.. ثم قرأ ابن عباس «غدوها شهر ورواحها شهر» أى مسيرة شهر مساء فى الرواح.. كما قيل كان يتغذى بالرى.. ويتعشى بسمر قند(٢).

وهناك رواية.. أعرضها فى تحفظ.. لأن لى تعليقا عليها فى موضوع «سليمان والصافنات الجياد» فى فصل آخر بعد هذا الفصل.

فقالوا: عن الحسن.. شغلت سليمان الخيل.. حتى فاتته صلاة العصر.. فعقر الخيل.. فأبدله الله خيرا منها وأسرع.. وأبدله الريح.. تجرى بأمره حيث شاء.. غدوها شهر.. ورواحها شهر(٣).

---

(١) القرطبى وغيره ٣٦/ ص.

(٣) من القرطبى ١٢/ سبأ.

(٣) القرطبى وغيره ١٢/ ص

وورد وصف لبساط سليمان.. وريحه ـ فى تفسير النسفى والقرطبى وغيرهما.. فقال: نسجت له الجن بساطا من ذهب إبريم.. فرسخا من فرسخ .. وكان يوضع منبره في وسطه ـ من ذهب وفضة .. فيقعد الأنبياء.. على كراسى الذهب.. والعلماء على كراسى فضة.. وحولهم الناس.. وحول الناس الجن والشياطين.. وتظله الطير بأجنحتها .. حتى لايقع عليه حر الشمس.. فتسير به مسيرة شهر.. ثم يقول النسفي.. ويروى أنه كان يأمر الريح العاصف تحمله.. ويأمر الرخاء تسيره.. وأوحى الله إليه.. وهو يسير بين السماء والأرض: أنى قد زد ت فى ملكك.. ألا يتكلم أحد بشئ.. إلا ألقته الريح فى أذنك.. ثم أورد النسفى قصة سليمان والحراث.. التي افتتحنا بها هذا الموضوع.. ونحن لانريد أن نناقش أى رأى.. حتى نتم جولتنا السريعة.. بين حدائق التفسير الغَنَّاء.. ورياضها الفيحاء.. فنجنى الثمار.. ونقتطف الأزهار.. ولايسلم الأمر من التعرض لبعض الأشواك.. وحراب الصبار.

غير أنني ألفت النظر فقط.. إلى عبارة وردت فى حديث النسفى ـ رحمه الله ـ عن البساط «فيقعد الأنبياء على كراسى الذهب» فمن هم هؤلاء الأنبياء؟ وهل كان معه أنبياء غيره فى عصره؟ .. هذا قد يكون جائزا.. ولكن هل كانوا من الكثرة بحيث يشغلون الكراسى الذهبية.. وطبيعيا كانت بالآلاف بالنسبة إلى هذا الكرسى الرهيب؟.. إنى أكاد أشمّ رائحة الدس الإسرائيلى فى مثل هذه العبارات والمبالغات.

وقد نقد الأستاذ عبدالوهاب النجار فى «قصص الأنبياء» وصفا لبساط سليمان فيقول: إنه قرأ لبعض المفسرين: إن سليمان كان له نحو البساط من الخشب .. له ألف ركن.. فى كل ركن ألف بيت.. وتحت كل ركن ألف جنى .. يحملون ذلك الشئ الخشبى.. حتى يرتفع في الجو.. وحينئذ تسير به الريح.. وكان يخرج من المقدس.. فيقيل في إصطخر.. ثم يبيت بخراسان.. وحمل فضيلته على هذه الروايات المبالغ فيها حملة عنيفة.. عرضته لكثير من العنف من اللجنة التى شكلت لنقد كتابه المذكور.

ولعل الأستاذ النجار معذور في نقده هذا.. لما هو ظاهر فيها من مبالغات تخرج عن حد المعقول والمنقول.. ولكنه نفى سير الريح به وببساطه.. بالكلية.. واكتفى من تسخير الرياح له.. بالسير إلى جهات فى حاجة إليها للانتفاع بها في الزرع أو سير السفن.. وأدى به نقده.. إلى الحكم بأن سليمان.. لم يمتد ملكه إلى أكثر من خليج أيلة.. وفلسطين.. وشرق الأردن.. ولبنان.. وسوريا إلى شط الفرات فقط.. ليثبت أنه لم يكن هناك حاجة لتلك الريح في نقله ونقل جنوده.. بتلك السرعة.

ونحن لانقره على هذا الرأى.. فعلى أقل تقدير.. ثبت من القرآن الكريم أنه امتلك مملكة بلقيس.. وهى فى اليمن.. وفى أقصى الجزيرة العربية كلها.. وإنما كان الأولى بالنقد في الروايات السابقة: عدد نسائه الألف.. والوقوف عند تلك الأعداد الرهيبة من البيوت والأركان.. ومئات الألوف من الكراسى الذهبية المفضضة.. فوق البساط.

كان سليمان .. رجلا.. غزاء .. لايكاد يقعد عن الغزو.. وكان لايسمع بملك فى ناحية من الأرض.. يعبد غير الله .. إلا أتاه حتى يذله ويقهره.

وروى بعض المفسرين: أن سليمان .. سار من أرض العراق غازيا.. فقام بمدينة مرو.. ثم انتقل إلى بلخ.. ثم سار من بلخ إلى أرض الصين ثم عاد على ساحل البحر.. حتى أتى أرض الهند.. ثم خرج منها .. حتى أتى أرض فارس .. فنزلها أياما .. ثم غدا منها.. فقام بكسكر.. ثم رجع إلى الشام.. وأذكر هنا الحديث «ملك الأرض أربعة.. مؤمنان.. وكافران.. أما المؤمنان: فسليمان بن داود.. وذو القرنين.. وأما الكافران. فنمروذ.. وبختنصر.

وكان مستقر سليمان مدينة تدمر.. بناها له الجن بالصفائح.. والعمد.. والرخام الأبيض والأصفر(١).

---

(١) فى جميع كتب التفسير تقريبا.

وقد قال النابغة الذبيانى فى مدح النعمان:

ولا أرى فاعلا فى الناس يشبهه
ولا أحاش من الأقوام من أحد
إلا سليمان إذ قال الإله إله
قم فى البرية فاحددها عند الفند(١) .
وجيش الجن إنى قد أذنت لهم
يبنون تدمر بالصفاح (٢) والعمد

ويقول القرطبى: وجدت الأبيات الآتية منقورة فى صخرة بأرض يشكر.

أنشأهن بعض أصحاب سليمان ــ عليه السلام:

ونحن ولا حول سوى حول ربنا
نروح إلى الأوطان من أرض تدمر
إذا نحن رحنا كان ريث رواحنا
مسيرة شهر.. والغدو لآخر
أناس شروا لله طوعا نفوسهم
بنصر الله طوعا نفوسهم
بنصر ابن داود النبى المطهر
لهم في معالى الدين فضل ورفعة
وإن نسبوا يوما فمن خير معشر
متى يركبوا الريح المطيعة.. أسرعت
مبادرة عن شهرها لم تقصر
تظلهم طير صفوف عليهم
متي رفرفت فوقهم لم تنفر

إن ملك سليمان.. كان عظيما.. ملأ الأرض .. وانقادت له المعموره كلها.

ولانستطيع إنكار تسخير الرياح له.. والسير بأمره.. سواء بنقله من مكان إلى مكان.. أو بالتوجه بالغيث الرخاء إلى بلاد جدباء.. فى حاجة إلى الماء.. فكان يصرفها بأمره كيف يشاء.. كما يصرف الإنسان عنان دابته.. وكان لسليمان.. أساطيل بحرية حربية وتجارية.. تحركها تلك الرياح.. وقد ذكر النجار فى «قصص الأنبياء» مايلى :

نشرت الأهرام فى عددها الصادر فى ٢٨ مايو ١٩٣٨ ما يأتى.. تحت عنوان «أسطول سليمان» هل عثروا على أسطول سليمان الذى يرجع عهده إلى ألف سنة قبل المسيح؟..

جاء فى سفر الملوك.. أحد أسفار التوراة ما خلاصته:

وبنى الملك سليمان سفنا فى «عصيون جابر» التى بجانب أيلة.. على شاطئ بحر القلزم.. فى أرض الروم.. وقد انقضى تسعة وعشرون قرنا على هذا الحادث.

وفى هذه الأيام.. جاءت برقية فى ١٦ مايو ١٩٣٨ من بلدة «نيوهافن» بولاية كنتيكوت.. إحدى الولايات المتحدة.. فحواها.. أن الأستاذ: «ميلار بوروس» رئيس المدرسة الأمريكية للبحوث الشرقية.. أذاع أن الدكتور «نلسن غلوك» مدير فرع تلك المدرسة فى بيت المقدس.. كان على رأس البعثة التى اكتشفت ثغر «عصيون جابر».. وهو ثغر يرتقي عهده إلى ثلاثة آلاف سنة.. وقال الدكتور «غلوك» إنه عثر على أدلة تبين أهمية «عصيون جابر» كمركز تجارى للنحاس.. ومصنع لإنشاء السفن.. قبل الميلاد بألف سنة.

□ □ □

(١) أى منعها عن الخطأ.

(٢) الصفاح كالتفاح: حجارة عريضة رقيقة.

٥ سليمان والجن

قال الحسن ــ رضى الله عنه ــ ما أنعم الله على أحد نعمة .. إلا عليه فيها تبعة.. إلا سليمان ــ عليه السلام ــ فإن الله تعالى يقول له «هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب» (٣٩/ ص).

كان عطاء الله لسليمان.. عظيما.. عظيما.. عظيما.. يفوق الوصف..ويعجز الخيال.. فكان له جند من الجن والإنس والطير.. ومن الوحش أيضا فى بعض الروايات.. «وحشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير» (١٧ النمل).. وخصّ الله سبحانه ــ الطير هنا بالذكر.. دون الوحش ــ لكثرة مداخلته.. ولأن أمر سائر الحيوان معه نادر.. كما بينا ذلك سابقا.. فى حديث الطير.

كان الجن مسخرين له تسخيرا مطلقا.. يعملون له ما يشاء.. ومن يخرج منهم عن طاعته.. ويخالف أمره.. يذقه الله عذابا أليما «ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه، ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير» (١٢ سبأ).

قال المفسرون: يعذبه في الآخرة .. كما قالوا: يعذبه فى الدنيا.

وقد روى عن ابن عباس .. فى القرطبى وغيرهما: كان مع سليمان ملك بيده سوط من نار.. فمن زاغ عن أمره.. ضربه الملك بهذا السوط ضربة ــ من حيث لايراه ــ فأحرقته(١).

سخر الله تعالى له الجن والشياطين.. ولم تُسَخر لأحد قبله..فكانوا يبنون له ما يشاء.. من المبانى الضخمة.. والعمائر الفخمة.

وجاء فى سفر الملوك ــ الأول ــ أن العمائر التى قام بعملها سليمان هى:

١ ــ بيت الرب: ويقول عنه الأستاذ عبدالوهاب النجار.. أنه كان يقع على مساحة تقدر بما يقرب من ستين فدانا.. ويقول: إنه شاهد رفعته بنفسه.

٢ــ بيت الملك.

٣ ـ سور أورشليم.

٤ــ حاصور.

---

(١) القرطبى والكشاف وغيرهما ١٢/ سبأ.

٥ـ مجدو.
٦ـ جازر.
٧ـ بيت حورون السفلى.
٨ـ بعلة.
٩ـ تدمر فى البرية.

كل ذلك عدا المخازن.. ومدن المركبات.. ومدن الفرسان.. وما بناه فى سائر مملكته ومن نظر هذه الأعمال وفخامتها.. وضخامة أحجارها.. أيقن أنها ليست من صنع الإنسان.. وبخاصة مدينة تدمر.. وبعض آثارها الفخمة مازال ماثلا حتى اليوم.

يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات(١٣ سبأ).

والمحراب في اللغة كل بناء مرتفع.. وسُمى مكان الصلاة محرابا لرفعته وسموه..

وذكر القرطبى: أن سليمان أمر أن يعمل حول كرسيه ألف محراب.. فيها ألف رجل عليهم المسوح .. وأنه كان يقول لجنوده ــ إذا ركب: جميع الجنود إلى هذا العلم يسبحون الله.. وإلى هذا يهللون.. وإلى هذا يكبرون.. فتلج الجنود بالتسبيح.. والتهليل.. والتكبير.. لجة واحدة.

وقيل أيضا: إن المحاريب.. هى المساجد.

وأما التماثيل.. فكانت الملائكة والنبيين والصالحين.. فى صور متعددة.

تبين طريقة عبادتهم.. وكانت تصنع فى المساجد من نحاس ورخام.. ليراها الناس.. فيتعبدون علي هيئتها.

والتماثيل تكون للإنسان والحيوان وغيرهما.. ومنها تماثيل الأسدين والنسرين والطاووسين.. التى ذكرناها في وصف الكرسى.. إذا صعد على كرسيه.. بسط الأسدان أيديهما تحته.. ونشر النسران والطاووسان أجنحتهما فوقه.

وأغلب المفسرين.. يقولون: إن التماثيل كانت جائزة.. قبل بعث الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ــ فقال قوم: قد صح النهى عن صنعها عن النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ والتوعد لمن عملها.. أو اتخذها.. فنسخ الله بهذا ما كان مباحا قبله.. وصنع التماثيل مما يجوز أن تختلف فيه الشرائع.. لأنه ليس من قبيح الفعل كالظلم والكذب والزنا والنميمة.

ومقتضى الأحاديث الواردة في هذا.. يدل على أن التصاوير والتماثيل ممنوعة .. ثم جاء الإمكان رقما «أى نقشا» فى ثوب.. ولكن ثبتت الكراهية فيه بقوله ــ صلى الله عليه وسلم ــ لعائشة ــ رضى الله عنها.

فقد روى مسلم عن عائشة.. قالت : كان لنا ستر .. فيه تمثال طائر .. وكان الداخل إذا دخل استقبله .. فقال رسول اللّه ـ صلى اللّه عليه وسلم « حولى هذا فإنى كلما دخلت فرأيته ذكرت الدنيا » .

وقالت أيضا « دخل علىّ رسول اللّه ـ صلى اللّه عليه وسلم ـ وأنا مستترة بقرام (١) فيه صورة .. فتلون وجهه .. ثم تناول الستر فهتكه (٢) .. ثم قال «إن من أشد الناس عذابا يوم القيامة الذين يشبهون بخلق اللّه(٣)» .

وقال بعض العلماء : ويمكن أن يكون تهتيكه ـ عليه السلام ـ الثوب ـ وأمره بتحويله ورعا .. لأن محل النبوة والرسالة الكمال .

وفى الترمذى عن أبى هريرة : قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ـ «يخرج عنق من النار يوم القيامة له عينان تبصران .. وأذان تسمعان .. ولسان ينطق .. يقول: إنى وكلت بثلاث : بكل جبار عنيد : وبكل من دعا مع اللّه أحدا .. وبالمصورين » وقال أبو عيسى : حديث حسن غريب صحيح .

كما جاء فى البخارى ومسلم .. عن عبد اللّه بن مسعود ـ قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ـ: «أشد الناس عذابا يوم القيامة المصورون » .. ولعل المقصود بالمصورين .. صناع التماثيل ..

وقال القرطبى : وهذا يدل على المنع من تصوير شئ ..أى شئ .

واستثنى من هذا الباب .. لعب البنات «العرائس» .. لما ثبت عن عائشة ـ رضى اللّه عنها .. أن النبى ـ صلى اللّه عليه وسلم ـ تزوجها وهى بنت سبع سنين .. وزفت إليه وهى بنت تسع .. ولعبها معها .. ومات عنها وهى بنت ثمانى عشرة سنة » .. رضى اللّه عنك وأرضاك يا أم المؤمنين .. ففى تلك السن الحديثة جمعت من العلم والدين .. ما أنار لنا الطريق .. وهدانا سواء السبيل .. وكان عليه الصلاة والسلام ـ يقول عنك: «خذوا نصف دينكم عن هذه الحميراء » .

---

(١) القرام بكسر القاف: الستر فيه نقش.
(٢) مزقه.
(٣) من القرطبى ١٣/ ص.

وعنها أيضا: كنت ألعب مع البنات « أى العرائس» عند النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكان لى صواحب يلعبن معى ـ فكان ـ صلى الله عليه وسلم ـ إذا دخل ينقمعن منه» أى يتوارين ويجرين حياء «فيسربهن إلى أى يبعثهن» فيلعبن معى .. خرج الحديثين مسلم (١).

وقال العلماء: وذلك للضرورة .. لحاجة البنات.. حتى يتدربن على تربية أولادهن فيما بعد.. ثم أنه لابقاء لهذه التماثيل.. وكذلك ما يصنع من الحلاوة ومن العجين فلابقاء له.. فرخص فيه.. ونحن نزيد هذا الاستثناء.. ما يصنع الآن من تماثيل للحيوان والطير والنبات والأجهزة الجسمية وغيرها.. لأنها تستعمل في العلم كوسائل للإيضاح تيسر للدارس استيعاب العلوم.

وأما الجفان التي كالجواب.. من صناعة الجن لسليمان.. فكانت أطباقا للطعام.. كأنها الأحواض الكبار... وقال المفسرون: كان يقعد على الجفنة ألف رجل(٢).. لتكون هذه الجفان مناسبة لتلك الجيوش التى لايحصرها عد.. وتتلاءم مع تلك القدور الراسيات التى صنعها الجن.. لطهو الطعام فيها.

والقدور الراسيات.. أى الثابتات على قواعدها.. لاتنزل عنها لعظمها.. قال بعضهم: كانت من النحاس.. وقالوا: كانت منحوتة من الجبال الصم.. ثوابت لاتحمل ولاتتحرك من مكانها.. وقال ابن العربى: وكذلك كانت قدور عبدالله بن جدعان.. يصعد إليها فى الجاهلية بسلم.

وعبر عنها طرفة بن العبد بقوله:

كالجوابى لاتنى مترعة
لقرى الأضياف أو للمختصر

وقال تفسير النسفى: إن آثار هذه القدور باقية باليمن.

وقد فصل القرآن الكريم الشياطين إلى نوعين «والشياطين كل بناء وغواص، وآخرين مقرنين فى الأصفاد» (٣٧ ـ ٣٨ ص).

فمنهم نوع استعمله فى الأعمال الشاقة.. كالبناء والحفر.. فبنوا له.. المدائن والعمائر، والطواحين، والحمامات، والقوارير.. واحتفروا له الأنهار.. وغاصوا فى أعماق البحار .. فاستخرجوا اللآلئ، والدر، والجواهر البحرية.. واليواقيت والزمرد... وسليمان ـ عليه السلام ـ هو أول من استخرجها.

والنوع الثانى: وهم المردة.. فقد قرن بعضهم مع بعض.. فى سلاسل الحديد.. للتأديب والكف عن الفساد.

ولم يكن يفعل ذلك إلا بالكفار منهم.. فإذا آمنوا.. أطلقهم.. ولم يسخرهم.. وعن المسدى.. فى الكشاف: كان يجمع أيديهم إلى أعناقهم.. مغللين فى الأصفاد.. والصفد هو القيد.. ويسمى العطاء والإحسان صفدا(٣). لأنه ارتباط وقيد للمنعم عليه.. ومنه قول على ـ رضى الله عنه ـ «من برك فقد أسرك» «ومن جفاك فقد أطلقك» .. وكذلك قول القائل: «غل يدا مطلقها.. وأرق رقبة معتقها»

كما قال بعضهم: إن العطاء إسار.

ويعلق صاحب البيضاوى على تقييد الشياطين.. فيقول: ولعل أجسامهم شفافة.. صلبة.. فهى لاترى ولكن يمكن تقييدها(٤).

وبعد تلك الجولة السريعة بين رياض الفضل التى أنعم الله على آل داود.

نصل إلى قول الله ـ عز وجل «اعملوا آل داود شكراً» (١٣ سبأ).. لنرى أن الشكر عمل..

وليس كلمة حمد تقال.. أو تقبيل اليد ظهرا وبطنا.. مصحوبا بكلمات الحمد والثناء .. وإنما شكر النعمة بذلها.. لقول الله تعالى: «وأما بنعمة ربك فحدث» قال سبحانه ـ حدث بها .. ولم يقل حدث عنها.

وسئل الجنيد عن الشكر.. فقال: الشكر بذل المجهود بين يدى المعبود.. كما قيل: الشكور .. من يرى عجزه عن الشكر.

ومن حقنا الآن أن ننتقل إلى الفصل الثالث من قصة سليمان.. لنعرض فيه على القارئ قصة رائعة.. من أعظم القصص.. وأقوى الأفلام.. فيها الكثير من العظات البينات.. والروائع المحكمات.. التى تعيش عليها الأمم.. وتحيا فى نورها الشعوب.. ويسعد فى هداها المؤمنون.. قصة العلاقة بين آدم وحواء.. بين الرجل والمرأة.. فى تلك الحياة.. قصة سليمان وبلقيس.. ملك عظيم.. وملكة عظيمة.. قصة غرام صاحبة العرش العظيم.

---

(١) من القرطبى ١٣/ ص.

(٣) من تفسير الكشاف ٣٧/ ص.

(٢) فى كثير من كتب التفسير ١٣/ ص.

(٤) البيضاوى ٣٧/ ص.

« إنى وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شىء ولها عرش عظيم »

(٢٣ ــ النمل)

○ غرام صاحبة العرش

الفصـل الثالث

١ دقة الحاكم وحزمه

وقـفت طـويلا أمـام قول الله ــ تبـارك وتعـالى ــ «وكـذلك جعـلناكم أمـة وسطا لـتكونوا شـهداء عـلى الناس».. فنحن المسلمين بمقتضى هذا الحكم من الله العلى القدير.

شـهود عـلى جـميـع الأمم السـابقـة.. لأننـا عشـنا أحداثهـم من خلال كلام الله ــ سبحانه ــ فإذا اكتفـينا بمجـرد الاسـتمـاع إلى قـصص القـرآن يتـلى .. كـانت شهـادتنا مبنـية على السـماع.. والشـهادة على السـماع باطلة قانونا.

ولعل هذا هو المقصود.. من قوله تعالى «إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع هو شهيد».. فلم يكتف ــ سبحانه ــ بالسماع فقط.. وإنما قرنه بالشهادة.. لتكمل العـظة.. وتتم العبرة .. لأن تصـديقنا بكلام الله.. وهو يقص علينـا القصص.. لابد أن يبلغ بالـيقين درجة المشهود.

ونحن نستطيع الآن أن نـرى سليمان بن داود ــ عليهما السلام ــ وقد استتب له ملك عظيم.. لم يتـيسـر لأحد قـبله ولابـعده.. من تـسخـير الطير.. والوحش والرياح.. والجن.. والإنس.

فـبعـد أن تم له بناء بـيت المقـدس.. فى فلسـطين.. حشد حشـوده.. وجمع جموعه.. وتحركـ جنـوبا.. موليا وجهـه شطر المسجـد الحرام بمكة.. ويـقول المفسـرون ــ مهتديا بنجم السمـاء سُهيل.. حتى وافى الحرم.. ودخله آمنا.. فأقام به ما شاء الله لـه أن يقيم.. وقضى المناسك.. وأدى الشعائر .. وبـشر أهل مكة بخروج نبينا مـحمد ــ صلـى الله عليـه وسلـم ــ منهـم .. وأخبـرهـم أنـه سيـد الأنبـياء.. وخاتم المرسلين.. وهذا مـوجود عنـدهم فى التوراة والزبور.

وعن جابر بن عبدالله .. قال .. قال النبى ــ صلى الله عليه وسلـم: «كان نقش خاتم سليـمان بن داود.. لا إله إلا الله .. محمد رسول الله»(١).

---

(١) من القرطبى وغيره.

وقرب سليمان القرابين للبيت.. يقول صاحب تفسير الكشاف: أنه كان يذبح فى اليوم بمكة المباركة خمسة آلاف ناقة.. وخمسة آلاف بقرة.. وعشرين ألف شاة.. كما يقول أبو إسحاق الثعلبى: إن معسكره بمكة كان مائة فرسخ.

ثم خرج من مكة بحشده.. قاصدا بلاد اليمن.. ووصل إلى صنعاء فى وقت الظهيرة.. فرأى أرضا طيبة.. حسناء.. أعجبته خضرتها.. وشدته نضارتها.. فنزل بها.. للراحة.. والغذاء.. والصلاة.

ونحن لاننكر ما قرره كثير من المفسرين.. من أنه انتقل بجيشه.. من مكة إلى صنعاء فى غدوة من النهار.. تحمله الريح هو وجنوده.. وهى مسيرة شهر.. ولكن لايهمنا هذا.. فهو أمر معروف.. من تسخير الريح له.. «غدوها شهر.. ورواحها شهر».. بقدر ما يهمنا دقة سليمان وقدرته.. على اكتشاف غياب الهدهد.. عندما قام بعملية تفتيش.. على جميع الألوية والسرايا والفرق.. مع اختلاف أنواعها وأجناسها.. من إنس وجن وطير.. وذلك قبل استئنافهم الرحيل.

وهكذا يكون الحاكم فى تفقد أحوال رعيته.. والمحافظة عليهم.. فهذا هدهد.. مع صغره.. لم يخف أمر غيابه على سليمان.. فكيف بعظائم الأمور؟.. رحم الله عمر بن الخطاب ــ رضى الله عنه ــ حينما قال: والله لو أن سخلة(١) على شاطئ الفرات أخذها الذئب.. لسئل عنها عمر.. فما بالك بولاة.. تذهب على أيديهم البلدان.. وتضيع الرعية والرعيان؟..

ورحم الله ــ أيضا ــ ابن المبارك حيث يقول:

وهل أفسد الدين إلا الملوك

وأحبار سوء ورهبانها

ويشرق حزم سليمان ــ عليه السلام ــ بجانب دقته حيث قال بعد أن تفقد الطير «ما لى لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين. لأعذبنه عذابا شديدا أو لأذبحنه أو ليأتينى بسلطان مبين» (٢٠ ــ ٢١ النمل).

وهنا نقف وقفة قصيرة أمام آراء بعض العلماء والمفسرين.. فقال بعضهم: إن سليمان .. لما نزل صنعاء بجنوده.. لم يجد ماء.. فبحث عن الهدهد ليدلهم على بعد الماء فى باطن الأرض.. فاكتشف غيابه.. وتوعده.. بالعذاب.. أو الذبح أو العذر المقبول.

وهذا الرأى لو دققنا فيه قليلا.. لوجدناه يخالف المعقول.

فصحيح أن فرقة الهداهد.. كانت من مهمتها ووظيفتها فى جيش سليمان.. اكتشاف بُعْد المياه فى أعماق الأرض.. لأن الهدهد يرى الماء فى باطن الأرض.. كما يراه في الزجاجة.. وتلك خاصية خلقها الله فيه.. كان يخبر سليمان بموضوع الماء.. ثم كانت الجن تخرجه فى ساعة تسلخ عنه وجه الأرض كما تسلخ الشاة(٢).

ولكن هل كان فى جيش سليمان.. هدهد واحد.. عندما غاب .. بحث عنه سليمان ليدلهم على بُعْد الماء؟.. أظن هذا غير معقول.. فقد كان فى الجيش فرقة كاملة من الهداهد.. تقوم بالاستطلاع.. أمام الجيش الغازى.. فى الصحراء.. لتدلهم على الأماكن التى يقرب فيها الماء من سطح الأرض.. فينصبون الخيام.. ويعسكرون للراحة.. ويستخرجون الماء.. لأكلهم.. وشربهم.. واستهلاكهم.

وروى قتادة عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم: «أنهاكم عن قتل الهدهد.. فإنه كان دليل سليمان على الماء»(٣) فلو أن هدهدا غاب.. فغيره كثير.

فالتفقد هو التفتيش بلغة العصر.. وهو ما تقتضيه العناية بأمور الملك.. والاهتمام بكل جزء من تلك الأمور.. مهما قل أو صغر.. وهذا هو ظاهر النص.

أما قول سليمان: «ما لى لا أرى الهدهد» فكأنه كان يتفقد أمر نفسه هو.. وكأنه فهم أنه قصر في حق من حقوق الله.. وظن أنه ابتلى بنعمة الهدهد.. فقال «مالى» وقال ابن العربى: هذا ما يفعله شيوخ الصوفية.. إذا فقدوا آمالهم.. تفقدوا أعمالهم.. ويتأسف القرطبى على هذا ويقول .. هذا فى الآداب.. فكيف بنا اليوم.. وقد قصرنا فى الفرائض؟..

ولما تحقق سليمان ــ عليه السلام ــ من غياب الهدهد.. توعده بما توعده به من العذاب الشديد.

وقالوا.. إن عذاب الطير.. عند سليمان .. كان بنتف ريشه وتشميسه بعد طلاء جسمه بالقار.. أو إيداعه قفصا.. أو التفريق بينه وبين ألفه.. أو صحبة الأضداد..

---

(١) غنمة.

(٢) من القرطبى والكشاف وغيرهما ٢٠/ النمل.

(٣) القرطبى ٢١ / النمل.

وأضيق السجون صحبة الأضداد ولم يغب الهدهد كثيرا «فمكث غير بعيد».

فمـا أن وصل إلى معسكـره.. حتى قبض عـليه قائد فرقته.. وأتى به إلى سلـيمان ــ عليه السلام ــ فلما قرب منه.. أرخى ذيله وجناحيه.. يجرها على الأرض.. تواضعا ورهـبة.. فأخذ سليـمان برأسه.. يجره إليه.. فقال: يانبى الله.. اذكر وقوفك بين يدى رب العالمين .. فارتعد سلـيمان وعفـا عنه[1].. وأخبر الحسن بن محمد الثقـفى، بإسناده عن عكرمة.. قال: إنما صـرف الله سليـمـان عن ذبح الـهدهـد.. لأنه كـان بارا بوالديه.. ينـقل الطعام إليهـما فيزقـهما[2] فسأله.. أين كنت غائبا؟..

فقال ما أخبر الله به.. «فمكث غير بعيد فقال أحطت بما لم تحط به، وجئتك من سبأ بنبأ يقين» (٢٢ النمل).

□ □ □

(١) من الكشاف والقرطبي وغيرهما ٢١/ النمل وذكره القرطبى بتوسع ٤٤/ النمل.

(٢) الكشاف والقرطبى ٤٤/ النمل.

٢ بين هدهد صغير وملك كبير

لما عسكر جيش سليمان ـــ عليه السلام ـــ فى صنعاء .. وهى على بعد ثلاثة أيام من مدينة مأرب.. عاصمة مملكة سبأ.. طار الهدهد.. ليكتشف تلك البلاد وما فيها.. وسقط هدهد سليمان.. على هدهد يمنى(١).. وجده يمرح بين الحقول.. وجرى بينهما حديث.. فهم منه هدهد سليمان.. أن تلك الديار تحكمها ملكة عظيمة.. لها عرش عظيم.. وجيش عظيم.. ولم يكتف الهدهد بما سمع من صاحبه.. وإنما طار معه إلى مأرب.. ليرى بنفسه تلك الملكة وعرشها.. وعظمتها. وعظمة جيشها.. فتأخر إلى العصر وقول الهدهد: «أحطت بما لم تحط به» إلهام من الله ـــ جل شأنه ـــ ليواجه سليمان بهذا القول.. على ما أوتى .. من فضل النبوة.. والحكمة والعلوم الجمة.. والإحاطة بالمعلومات الكثيرة.. ابتلاء له فى علمه.. وتنبيها على أنه فى أدنى خلق الله وأضعفه.. من أحاط علما بما لم يحط به.. لتتحاقر إليه نفسه.. ويتصاغر لديه علمه.. ويكون ذلك رحمة له.. في ترك الإعجاب.. الذى هو فتنة العلماء.. وأعظم بها فتنة!!.

والإحاطة بالشئ علما.. هى أن تعلم الشئ من جميع جهاته.. لايخفى منه معلوم.. وفى هذا الدليل على أنه من حق الصغير.. أن يقول للكبير.. عندى ماليس عندك إذا تحقق ذلك وتيقنه..

وهذا عمر ـــ رضى الله عنه ـــ مع جلالته وعلمه.. لم يكن عنده علم بالاستئذان فقد كان حكم الإذن.. أن تنفر الحائض.. فى سبيل الله.. عند ابن عباس.. ولم يعلم ذلك عمر.. ولازيد بن ثابت.

كما كان علم التيمم عند عمار وغيره.. وغاب عن عمر وابن مسعود.. حتى قالا: لايتيمم الجنب.. ومثل هذا كثير(٢).

وجميل جدا سلاسة التعبير فى قول الهدهد «وجئتك من سبأ بنبأ».

فتركيب كلمتى: سبأ ونبأ.. مما يسميه علماء اللغة بالبديع.. وهو من محاسن الكلام.

فقال سليمان: وماذا عندك أيها الهدهد.. من بنأ سبأ.. قال:

«إنى وجدت امرأة تملكهم. وأوتيت من كل شئ ولها عرش عظيم» (٢٣ النمل).

---

(١) من الكشاف والقرطبى وغيرهما ٢١/ النمل ـــ وهذا الخبر ذكره القرطبى بإفاضة ٤٤/ النمل.

(٢) القرطبى ٢٢/ النمل

تأمل معى أيها الأخ الكريم.. أول نقد من الهدهد.. نحو تلك الملكة.. «وجدت امرأة تملكهم» يستغرب الهدهد.. من هؤلاء القوم.. أنهم يولون أمرهم امرأه؟.. وقد ناقش العلماء هذا الموضوع .. فقالوا:

فى حديث البخارى عن ابن عباس.. أن النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ لما بلغه أن أهل فارس.. قد ملكوا بنت كسرى... قال «لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة».. قال القاضى أبو بكر بن العربى: هذا نص فى أن المرأة لاتكون خليفة.. ولاخلاف فى هذا(١).

وقالوا: أجاز الطبرى أن تكون المرأة قاضية .. وهذا نقل خطأ.. وقد نقل ذلك.. عن أبى حنيفة ــ رضى الله عنه ــ وحقيقة الأمر أنها تقضى فيما تشهد فيه فقط.. وليس بأن تكون قاضية.. على الإطلاق.. كما رووا عن عمر أنه قدم امرأة على حسبة السوق.. ولم يصح.. فلايلفت إليه.. فإنما هو من دسائس المبتدعة فى الأحاديث.. فالمرأة.. لايجوز لها أن تبرز إلى المجالس.. ولاتخالط الرجال.. ولاتفاوضهم مفاوضة الند للند.. لأنها إن كانت فتاة حرم النظر إليها.. وكلامها.. وإن كانت برزة «أى كهلة لاتحتجب.. وهى مع ذلك عفيفة عاقلة.. تجلس للناس وتحادثهم» لم يجمعها مع الرجال مجلس واحد.. تزدحم فيه معهم.. وتكون مناظرة لهم.. ولن يفلح قط من تصور هذا ولامن اعتقده(٢) . اهـ.

حتى الهدهد.. لم يعجبه هذا الأمر.. وهو أول شئ لفت نظره.. بفطرته التى فطره الله عليها.. فكان أول نقده لهم «وجدت امرأة تملكهم».. فقال له سليمان: مالى ولهذا.. تحكمهم امرأة .. آتاها الله من كل شئ .. لها عرش عظيم.. كل هذا لايهمني فى شئ.. وما علاقة كل هذا بتخلفك عن الجيش؟..

ولكأنى أرى الهدهد.. يقول منفعلا بغيرة المؤمن على دينه.. لايا نبى الله «وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله.. وزين لهم الشيطان أعمالهم.. فصدهم عن السبيل.. فهم لايهتدون» (٢٤ النمل).

فتحركت فى سليمان نوازع الغيرة على التوحيد .. فعندما قال له الهدهد.. «وأوتيت من كل شئ ولها عرش عظيم» لم يستفزه الطمع.. ولا أغراه حب الزيادة في الملك.. إلى أن يعرض له.. ولكنه لما قال «وجدتها وقومها يسجدون للشمس» غاظه حينئذ ما سمع.

واستسمح القارئ الكريم.. فى الوقوف لحظة.. مع هذا الطائر.. الذى منحه الله قوة إدراك فطرية.. فاستنكر على دولة السبئيين ــ وهم من أعتى دول التاريخ ــ سجودهم للشمس .. وندد بتمليكهم امرأة عليهم.. وبهذا يكون قد سجل قاعدة أبدية.. أزلية.. عن نظام التوحيد.. وتحرير النفس من عبادة ما سوى الله .. مهما كبر حجمه .. وعظم شأنه.

فإلى أى مستوى بعد ذلك.. يهوى الإنسان الظالم من هذا المقام.. الذى يستنكر فيه هدهد.. السجود للشمس الكبرى «لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس» استنكر الهدهد أن يسجد الإنسان لأكبر كوكب سيار.. فكيف به إذا رأى الإنسان يسجد للإنسان.. والطواطم.. والتماثيل.. سواء كانت من خشب أو نحاس.. أو ذهب .. أو لحم ودم.

«ألا يظن أولئك أنهم مبعثون ليوم عظيم .. يوم يقوم الناس لرب العالمين»(٣)..

«يوم لايغنى مولى عن مولى شيئا(٤)».. «يوم لاتملك نفس لنفس شيئا(٥)».. «يوم تأتى كل نفس تجادل عن نفسها(٦)».. «واخشوا يوما لايجزى والد عن ولده.. ولامولود هو جاز عن والده شيئا(٧)».. «هنالك تبلو كل نفس ما أسلفت»(٨) .. «يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا.. وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا.. ويحذركم الله نفسه.. والله رءوف بالعباد»(٩)..

والله لو آمن الناس كما آمن هذا الهدهد.. ما انحرفت بهم أوهامهم.. ولاهوى بهم جهلهم إلى الدرك الأسفل من النار.. ولما عاشوا منافقين:«وإذا لقوا الذين آمنوا.. قالوا آمنا .. وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم..إنما نحن مستهزئون»(١٠)..

فكيف اجتمع الشرك والإيمان فى نفس الوقت؟.. أولئك لم يفهموا قوله تعالى «وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون»(١١)..

---

(١) القرطبى والكشاف ٢٢/ النمل. (٢) من القرطبى ٢٣/ النمل. (٣) ٤/ المطففين. (٤) ٤١/ الدخان.
(٥) ١٩/ الانفطار. (٦) ١١١/ النحل. (٧) ٣٣/ لقمان. (٨) ٣٠/ يونس.
(٩) ٣٠/ آل عمران. (١٠) ١٤/ البقرة. (١١) ١٠٦/ يوسف.

وكأنى أحس الثورة الجامحة فى صدر الهدهد.. وهو يتم حديثه مع سليمان فيقول معقبا. « ألا يسجدوا لله الذى يخرج الخبء فى السموات والأرض.. ويعلم ما تخفون.. وما تعلنون» ٢٥/ النمل..

***

وإخراج الخبء.. من كلام الهدهد.. لأنه يتحدث عن خاصيته هو.. فى معرفة المخبوء من الماء فى باطن الأرض.. بإلهام من يخرج الخبء فى السموات والأرض.. وخبء السماء.. مطرها وأسرارها.. وخبء الأرض معادنها ونباتها ومياهها الجوفية..

وتلك النظرة الفاحصة.. من ذوى البصائر.. الناظرين بنور الله.. تبرز شمائل كل مختص بصناعة.. أو فن.. أو علم.. فى حديثه.. ومنظره.. وحركاته. ولهذا ورد ما عمل عبد عملا.. إلا ألقى عليه رداء عمله..

ولعل الهدهد.. أدرك مؤخرا.. أنه أخطأ فى حق الله.. عندما قال عن بلقيس «ولها عرش عظيم».. فاستدرك هذا الخطأ.. قبل أن ينهى تقريره.. الذى قدمه لسليمان.. عن سبب غيابه.. فقال ندما ورجوعا إلى الله «الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم» ٢٦/ النمل..

وقبل سليمان ــ عليه السلام ــ عذر الهدهد..

وهذا دليل على أن الحاكم.. يجب أن يقبل عذر رعيته.. ويدرأ عنهم العقوبة فى ظاهر أحوالهم.. بباطن أعذارهم..

فسليمان لم يعاقب الهدهد . حين اعتذر إليه .. وإنما صار صدق الهدهد عذرا.. لأنه أخبر بما يقتضى الجهاد .. وكان سليمان يحب الجهاد .. وفى الصحيح «ليس أحد أحب إليه العذر من الله .. ومن أجل ذلك أنزل الكتب .. وأرسل الرسل (١)» ..

ولكن على الإمام.. أن يمتحن ذلك إذا تعلق به حكم من أحكام الشريعة.. وهكذا فعل سليمان.. فقال للهدهد «سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين.. اذهب بكتابى هذا.. فألقه إليهم.. ثم تول عنهم.. فانظر ماذا يرجعون» ١٧ ـ ٢٨/ النمل..

ونلاحظ هنا.. أن سليمان ــ عليه السلام ــ يُعَلِّم الهدهد.. الطريقة السليمة فى التجسس والتخابر.. حين قال له «فألقه إليهم.. ثم تول عنهم.. فانظر ماذا يرجعون».. فالمفروض.. أن يكون نظره إلى ترجيعهم القول فى شأن الكتاب.. قبل أن يتولى عنهم.. ولكنه يريد أن يقول له: إذا ألقيت الكتاب إليهم.. وظللت ظاهرا لهم.. فسيكون أمرك بالنسبة لهم أمرا عجبا.. يمنعهم من تدارس الأمر.. والتشاور.. واتخاذ القرار أمامك.. فعليك أن تلقى الكتاب.. ثم تتظاهر بأنك عدت من حيث أتيت.. بينما تكمن فى مكان تراهم فيه من حيث لايرونك.. ثم تحمل إلى تقريرا مفصلا.. عما يجرى بينهم.. بعد قراءة الكتاب

ولقد قال سليمان «فألقه إليهم» بصيغة الجمع.. يقصدها هى وقومها لأن الهدهد قال «وجدتها وقومها يسجدون للشمس»..

وفى هذا دليل.. على إرسال الكتب إلى المشركين.. وتبليغهم الدعوة.. ودعوتهم إلى الإسلام..

وقد كتب النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ إلى المقوقس .. وكسرى .. وقيصر .. وإلى كل جبار..

□□□

(١) القرطبى ٢٧/ النمل.

٣ غرام بلقيس

وينتقل بنا العرض إلى مدينة مأرب.. عاصمة مملكة سبأ.. مع الهدهد سفير سليمان ــ عليه السلام ــ لنرى بلقيس بنت شراحيل بن مالك بن الريان (١) وشهرته ــ الهدهاذ ــ ورثت عن أبيها ملك السبئيين نسبة إلى سبأ بن شجب بن يعرب بن قحطان (٢).. حكمت اليمن.. وجنوب الجزيرة العربية كلها..

وقد قرأتُ كثيرا مما كتبه أولو العلم عن المفسرين.. عن هذا الملك الواسع العظيم فى هذا الحين..

ولكننى لاستبعد بعض المبالغات فيما كتبوا.. أو كتب باسمهم.. فمثلا قالوا عن جيشها: كان لها اثنا عشر ألفَ قائد.. تحت كل قائد مائة ألف جندى(٣).. وبحسبة بسيطة.. نجد أن عدد هذا الجيش.. مليار ومائتى مليون جندى.. غير القادة.. ويخيل إلىّ أن هذا العدد.. فيه مبالغة غير مهضومة..

وأما عرشها ــ فأغلب الوصف فيه .. أنه من الذهب.. المكلل بأنواع الجواهر من الياقوت والزمرد..

يقول ابن عباس: كان عرشها.. ثمانين ذراعا.. وعرضه أربعين.. وارتفاعه ثلاثين.. مكللا بالدر.. والياقوت الأحمر.. والزبرجد الأخضر(٤) كما قيل: إن أحد أبويها من الجن (٥).

وقال ابن العربى: وهذا أمر تنكره الملاحدة.. ويقولون: الجن لايأكلون.. ولايتوالدون.. وكذبوا ـ لعنهم الله أجمعين.. هذا صحيح.. ونكاحهم جائز عقلا.. فإن صح نقلا فبها ونعمت.. ثم يناقش القرطبى هذا الموضوع.. فيقول: «خرج أبو داود من حديث عبدالله بن مسعود.. أنه قال: قدم وفد من الجن على رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فقالوا يا محمد.. انه أُمتك أن يستنجوا بعظمة.. أو روثة.. أو جمجمة.. فإن الله جاعل لنا فيها رزقا»..

وفى صحيح مسلم.. فقال ــ صلى الله عليه وسلم ــ «لكم كل عظم.. ذكر اسم الله عليه.. يقع فى أيديكم.. أوفر ما يكون لحما.. وكل بعرة علف لدوآبكم»..

فقال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ «فلاتستنجوا بهما .. فإنها طعام إخوانكم الجن».

وفى البخارى من حديث أبى هريرة .. قال .. فقلت ما بال العظمة والروثة؟...

---

(١) البيضاوى والقرطبى والكشاف ٢٣/ النمل.

(٢) من الكشاف والثعلبى وغيرهما ٢٠/ النمل.

(٣) الكشاف والقرطبى وغيرهما ٣٢/ النمل.

(٤) البيضاوى والقرطبى وغيرهما ٢٣/ النمل.

(٥) من القرطبى وغيره ٢٣/ النمل.

فقال: «هما من طعام الجن.. وإنه أتانى وفد جن يصيبين ـ ونعم الجن ـ فسألونى الزاد .. فدعوت الله تعالى.. ألا يمروا بعظمة أوروثة.. إلا وجدوا عليها طعاما».. ويستمر ـ القرطبى ـ فيقول: وهذا كله نص فى أنهم يطعمون.. وأما نكاحهم.. ففى قوله تعالى: «وشاركهم فى الأموال والأولاد»..

كما روى القرطبى ـ روى وهيب بن جرير بن حازم.. عن الخليل بن أحمد عن عثمان بن حاضر

.. قال «كانت أم بلقيس من الجن.. يقال لها: بلعمة بنت شيطان» أ هـ (١)..

كان الهذهاذ ملكا عظيم الشأن.. ملك اليمن كلها.. وكان يقول لملوك الأطراف.. ليس أحد منكم كفؤا لى لأصاهره.. فتزوج من الجن.. فولدت له بلقيس.. ولم يكن له غيرها.. وأخبر ابن ميمونة.. بإسناده عن أبى هريرة.. عن النبى: كان أحد أبوى بلقيس جنيا» ـ أ هـ.

***

ونحن فى الواقع.. لايهمنا من هذا الأمر إلا أن نعلم أنها كانت امرأة شاذة.. ونترك موضوع أمها إلى علم الله تعالى. كانت تقود الجيوش بنفسها.. وتخوض المعارك ببطشها وجبروتها.. حتى أذلت من جاورها من الملوك والحكام.. ودانت لها المنطقة بمن فيها وما فيها..

فلم تجد الرجل الذى ينبض لها قلبها بنبضات الحب.. ولم تعثر على من يفرض عليها إرادته. ليكون كفئا للزواج منها.. الجميع يقدمون لها فروض الطاعة والولاء.. ويخضعون لها بالسمع والطاعة المطلقة.. والمرأة بطبيعتها تحب أن تحس بأنوثتها.. بجانب رجل يفرض عليها قوامته.. ويرغمها على الخضوع له..

فلو أن «عربة أتوبيس» مثلا.. بها عدد من الشباب بينهم فتاة جميلة واحدة.. يتهافت عليها الجميع.. على أمل نظرة.. أو بسمة.. أو كلمة.. ما عدا شابا واحدا منهم.. أعرض عنها كل الإراض.. وشغل نفسه بكتاب يقرأه.. أو صحيفة يتصفحها.. أو نظرة تأمل فيما يحيط به من جمال الكون.. فإنى أجزم.. أنه لا يشغلها أحد من هؤلاء الشبان المولهين بها.. وإنما يشغلها هذا الشاب المعرض عنها.

(١) القرطبى ٢٣/ النمل.

(٢) الكشاف وغيره ٣٢/ النمل.

فهو وحده الذى تحكم فى تفكيرها.. وشغل فؤادها..

***

ونصل مع سفير سليمان ـ عليه السلام ـ الذى وصل إلى مدينة مأرب حاملا الرسالة بمنقاره.. ولقد لفت بشريط أحمر من الحرير.. كتاب ملكى مختوم بخاتم سليمان.. ملك أورشليم.. وكانت بلقيس فى تلك الأثناء.. ترأس اجتماعا مع الحكام والوزراء والقادة فى قاعة عرشها.. وقد جلست فى عظمة الملك.. وأبهة السلطان.. على كرسيها الذهبى الضخم.. واصطف حولها المجتمعون.. حيث أدوا لها التحية الملكية.. ثم جلس كل منهم فى مكانه المعد له.. وكل الروايات.. على أن عددهم.. كان ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلا(٢).. ولعله من الغريب أن يكون هذا العدد هو عدد جنود طالوت. الذين اجتازوا النهر معه.. وهو هو عدد المسلمين فى غزوة بدر الكبرى.. وفوجئ الجميع بسقوط الرسالة من أعلى.. فى حجر الملكة.. فنظروا وإذا بهم يجدون هدهدا.. يرفرف فوق رأسها لحظة.. ثم يتجه إلى نافذة علُيا.. من منافذ القاعة.. ثم يبسط جناحيه.. طائرا فى الفضاء.. ولكنه بعد أن دار عدة دورات فى الهواء.. وعاد ليكمن فى إحدى الشرفات.. ليسجل تقريره إلى سليمان ــ عليه السلام ــ بما يرجعون.

تقدم رئيس وزرائها.. مسرعا فتناول الكتاب.. وفتحه.. ونفضه بعيدا عنها.. خشية أن يكون فيه مخدر.. أو أى شئ مضر.. وتقدم إليها.. فى أدب وخشوع.. وقدم لها الخطاب..

***

وكانت بلقيس .. قارئة.. كاتبة .. عربية.. من نسل تبع بن شراحيل الحميرى(٣).. فمرت بنظرها فى عجل على الكتاب.. وكان نصه:

«من عبدالله ــ سليمان بن داود .. إلى بلقيس.. ملكة سبأ..

بسم الله الرحمن الرحيم.. السلام على من اتبع الهدى.. أما بعد ..

«فلا تعلوا علىَّ وأتونى مسلمين». سليمان ملك أورشليم.. وهو مطبوع بالمسك.. ومختوم بخاتمه(٤).

(٢) القرطبى وغيره ٣٢/ النمل.

(٤) النسفى وغيره ٢٨/ النمل.

فأحست برعشة.. هزت جسمها.. وخفقت قلبها.. وأحست بإحساس غريب.. فيه كل الخشوع.. وكل الخضوع.. نحو صاحب هذا الاسم.. فلأول مرة تجد إنسانا.. يفرض عليها أمره.. ويملى عليها إرادته.. فى حزم وقوة وإيجاز.. وتحركت فى نفسها طبيعة الأنوثة.. والميل.. والهوى..

يقول صاحب تفسير البيضاوى: الكتاب فى منتهى الإيجاز.. مع كمال الدلالة على المقصود.. وقال النسفى وغيره: لم يزد سليمان فى كتابه على ما نص الله شيئا.. كانت كتب الأنبياء.. جملا.. فلايطيلون.. ولايكثرون.. وبسرعة.. تمالكت نفسها.. وقالت «يا أيها الملأ إنى أُلقى إلىّ كتاب كريم «وقد يكون معنى» كريم « أنه كتاب ملكى مختوم بخاتم الملك.. ولكنى ألمح فى وصفها لهذا الكتاب.. بأنه كريم.. ما يكشف عما يعتمل فى قلبها من لواعج الحب.. ونبضات القلب.. فقال الملأ: ومن أين هذا الكتاب؟..

قالت: إنه من سليمان.. وإنه بسم الله الرحمن الرحيم. ألا تعلو علىّ وأتونى مسلمين» ٣١ ـ ٣٢/ النمل..

ثم قالت تسألهم: ما هو اسم الله هذا؟..

فقال بعض القوم: ما نظن هذا.. إلا عفريتا عظيما من الجن.. يقتدر به هذا الملك على مايريد.. ولكنها أسكتته بإشارة من يدها.. فقال آخر: أراهم ثلاثة من العفاريت.. فأسكتته أيضا.. وقال شاب يعلم: يا سيدة الملوك.. إن سليمان ملك.. قد أعطاه ملك السماء ملكا عظيما.. فهو لايتكلم بكلمة. إلا بدأ فيها بتسمية إلهه.. «والله» اسم ملك السماء.. وأظن «الرحمن الرحيم» صفتان له(١)..

وعندها قالت: «يا أيها الملأ أفتونى فى أمرى.. ما كنت قاطعة أمرا حتى تشهدون» ٣٢/ النمل..

يقول صاحب الكشاف: طلبت الفتوى منهم لاستطلاع رأيهم.. واستعطافهم.. وتطيب نفوسهم.. ليمالئوها.. ويقوموا معها ــ أ هـ.

والشورى: إما استعانة بالآراء.. وأما مداراة للأولياء..

يقول القرطبى: ربما كان من استبدادها برأيها.. وهم فى طاعتها.. وكان فى مشاورتهم.. وأخذ رأيهم عون على ماتريده.. من قوة شوكتهم.. وشدة مدافعتهم.. ثم يقول: ألا ترى قولهم لها:ـ

«نحن أولو قوة وأولو بأس شديد.. والأمر إليك فانظرى ماذا تأمرين» «٣٣/ النمل»..

يقول ابن عباس ــ رضى الله عنه ــ كان من قوة أحدهم.. أن يركض فرسه.. حتى إذا احتد.. ضم فخذيه.. فحبسه بقوته.. ولعلهم بقولهم: «أولو قوة» يقصدون الأجسام.. والآلات.. والعدد الحربية.. وبقولهم: «وأولو بأس» يقصدون الشجاعة والنجدة.. والبلاء بالحرب.. ومعنى هذا أنهم أشاروا عليها بالحرب ..وهى لاتريد هذا.. فنبضات قلب المرأة.. أقوى من كل شئ..

يقول صاحب الكشاف: فلما أحست منهم الميل إلى الحرب.. أو أرادوا.. نحن من أبناء الحرب.. لامن أبناء الرأى والمشورة.. وأنت ذات الرأى والتدبير.. رأت من الرأى.. الميل إلى الصلح.. والابتداء بما هو أحسن.. ورتبت الجواب.. فزيفت أولا ما ذكروه.. وأرتهم الخطأ فيه.. فقالت: «إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها.. وجعلوا أعزة أهلها أذلة «أى أذلوا أعزتها.. وأهانوا أشرافها وقتلوا.. وأسروا.. ليستتب لهم الأمر.. قال ابن الأنبارى: «وجعلوا أعزة أهلها أذلة» هذا وقف تام (٢) يقصد أن بلقيس لم تقل: «وكذلك يفعلون» فقال الله تحقيقا لقولها: «وكذلك يفعلون»٣٤/ النمل..

وفى هذا المعنى يقول الشاعر.. أبو القاسم الجنيد:ـ

إن الملوك بلاء حيثما حلوا
فلم يكن لك فى أكنافهم ظل
جاروا عليك وإن أرضيتهم ملوا
وإن مدحتهمو خالوك تخدعهم
واستثقلوك كما يستثقل الكل
فاستغن بالله عن أبوابهم كرما
إن الوقوف على أبوابهم ذل

كانت بلقيس لبيبة عاقلة.. مجربة لأمور الملك وسياسته.. فقالت:«وإنى مرسلة إليهم بهدية.. فناظرةبم يرجع المرسلون» ٣٥/ النمل .. وهذا الرأى من حسن نظرها وتدبيرها

---

(١) القرطبى عن وهب ٣٤/ النمل.

(٢) القرطبي ٣٤/ النمل.

.. وصدى لانفعالات وتحركت فى كوامن صدرها..
قال قتادة: يرحمها الله.. كانت عاقلة فى شركها وفى إسلامها .. قد علمت أن الهدية تقع موقعا من الناس - أ.هـ -/ وفى نفس الوقت تجرب هذا الإنسان.. الذى أجبرها على أن تسلك سلوكا لم تألفه فى نفسها من قبل.. وفى مثل تلك المواقف .. التى كانت فيها مثلا للشجاعة .. والبسالة .. والصمود ..

فقالت لهم : أجرب هذا الرجل .. بهدية أعطيه فيها من النفائس والأموال .. فإن كان ملكا دنيويا .. أرضاه المال .. فنعامله بحسب ذلك .. وإن كان نبيا .. لم يرضه المال .. ولا يرضى منا إلا اتباع دينه .. وهنا نؤمن به ونتبعه على دينه .

ثم نادت رجلا شريفا فى قومها .. اسمه المنذر بن عمرو - وكلفته بأن يكون أميرا للوفد القائم بتوصيل الهدية .. وضمت إليه بعض ذوى العقل والحكمة .. وقالت له :

إذا نظر إليك بغضب .. فأعلم أنه ملك دنيوى .. فلا تخشه ولا تهبه .. فأنا أعز منه .. وإن نظر إليك .. فى سماحة وجه وبشاشة محيا .. فهو نبى مرسل .. فتفهم كلامه .. وائتنى بما تسمع وترى ..

وبدأ تجهيز الهدية والقافلة فى الحال..

ورأى الهدهد وسمع .. وانطلق ليقدم تقريره بما حصل .. إلى سليمان - عليه السلام .. وقبل أن نتنقل إلى الوصف الرائع للهدية .. والحفل الاستقبال .. أريد أن أشير إشارة خفيفة إلى بعض آراء قالت : إن الهدهد ألقى الخطاب عليها .. وهى نائمة فى مخدعها .. بعدة روايات ..

وهذا الرأى يخالف النص الذى قاله سليمان للهدهد « فألقه إليهم » بالجمع .. ولم يقل له .. فألقه إليها ..

ولا داعى للخروج عن النص .. بدون سبب أو دليل..

□ □ □

٤ هدية وحفل استقبال

تحرك ركب الهدية.. تحت إمارة المنذر بن عمرو.. ويقول جميع المفسرين :

كانت الهدية.. عددا من الغلمان والجوارى.. واختلفوا فى عددهم.. فقال بعضهم.. ألفا.. ونزل البعض إلى المائة.. أو أقل.. ويقول ابن عباس : ألبست الغلمان والجوارى.. لباسا واحدا.. حتى لا يعرف الذكر من الأنثى..

وقالوا : حليهم.. الأساور والأطواق.. والقرط.. راكبى خيل مغشاة بالديباج.. محلاة اللجم والسرج.. بالذهب المرصع بالجواهر.. وألف لبنة.. من ذهب وفضة.. وتاجا مكللا بالدر والياقوت.. ومع الأمير علبة. بها درة غير مثقوبة.. وخرزة مثقوبة ثقبا معوجا.. ومعه أيضا خطاب.. من بلقيس إلى قبول هديتها.. كما تطلب منه معرفة الغلمان من الجوارى.. وثقب الدرة البكر.. وإدخال خيط فى الخرزة المثقوبة ثقبا معوجا(١)..

وسارت القافلة.. تقطع الفيافى والقفار.. فى سبيلها إلى سليمان..

وفى نفس الوقت بدأ سليمان ـ عليه السلام ـ فى الإعداد لحفل الاستقبال.. بعد أن أخبره الهدهد أنهم بسبيلهم إليه..

فأمر الجن.. فضربوا لبن الذهب والفضة.. وفرشوه فى ميدان بين يديه.. على امتداد سبعة فراسخ(٢).. وجعلوا حول الميدان.. حائطا.. شرفه من الذهب والفضة.. وأمر بأحسن الدواب.. فى البر والبحر.. فأحضر الجن له دوابا بحرية عجيبة.. مختلفة الألوان.. لها أجنحة وأعراف ونواصى.. ربطوها مع الدواب البرية.. عن يمين الميدان ويساره .. على لبن الذهب والفضة المفروشة فيه.. وأمر بإحضار شباب الجن.. وهم خلق كثير.. وقفوا صفوفا على الجانبين..

كما اصطفت الوحوش.. صفوفا.. صفوفا.. فى نظام مرعب.. وتحفز مخيف.. ثم جلس هو على سرير ملكه.. والكراسى آلاف عن جانبيه.. فى منظر مهيب رهيب.. وشكلت الطيور مظلة.. تقى هذا الجمع الزاخر.. من وهج الشمس.. وحرها..

---

(١) أغلب المفسرين ٣٥/ النمل.

(٢) الفرسخ ثلاثة أميال ونصف.. أى أكثر من خمسة كيلو مترات.

ووصل الوفد إلى مدخل الميدان.. فرأوا مالم يكن يخطر لهم على بال.. رأوا تلك الدواب العجيبة.. فبهتوا لما رأوها تروث وتبول على لبن الذهب.. وساروا بين صفوف فراسخ من الإنس.. والجن والوحوش.. والسباع.. والهوام.. رأوا صفوف الشياطين المردة.. وقد امتدت أجسامهم فى الفضاء.. كأنها أعمدة المعابد الضخمة.. تنبعث من عيونهم أشوظة من نار..

مشوا بين كل هذا تظلهم الطيور.. وهى لا تعلوا عن رءوسهم إلاقدر رمح.. ترفرف بأجنحتها.. فتحرك الهواء.. فوق رءوسهم .. فيجفف عرقا من أجسامهم .. رهبة.. وخشية.. ورعبا ..

حتى وصلوا إلى عرش سليمان ـ عليه السلام ـ وعلى جانبيه وزيران.. أحدهما عن الإنس.. والثانى عن الجن.. وقد جلس القادة والعلية على الكراسى المحيطة به.. إحاطة السوار بالمعصم.. ونظر سليمان إلى وفد بلقيس بوجه هاش باش طلق.. ثم قال للأمير : هات ما معك.. فناوله المنذر.. أمير الوفد.. الخطاب والعلبة.. فقرأ سليمان الخطاب بعد أن أخبر بما فى العلبة.. قبل أن يقرأ الخطاب .. ثم طلب ماء.. وأمر الغلمان والجوارى.. أن يغسلوا وجوههم.. فميز بينهم بطريقة تناولهم الماء.. فالجارية تغترف الماء باليد.. فتناوله لليد الأخرى.. ثم تضرب به وجهها.. أما الغلام.. فكلما يأخذ الماء.. يضرب به وجهه.. ثم أمر الأرضة.. فأخذت شعرة فى فمها.. ونفذت من الدرة البكر.. فثقبتها.. كما أمر دودة بيضاء.. فأخذت خيطا.. ودخلت به من ثقب الخرزة.. وخرجت من الثقب الآخر.. فدخل الخيط فى الخزرة(١)..

واتجه سليمان ـ عليه السلام ـ إلى الوفد قائلا «أتمدونن بمال.. فما آتانى الله خير مما آتاكم.. بل أنتم بهديتكم تفرحون » ٣٦ / النمل..

أى أن الله آتانى الدين.. الذى فيه الحظ الأوفر.. والغنى الواسع.. وآتانى من الدنيا ما لا يستزاد عليه.. بل أنتم الذين تفرحون بمثله.. لأنكم لا تعلمون إلا ظاهرا من الحياة الدنيا..

ثم نظر إلى أميرهم .. وقال له: « ارجع إليهم ».. ارجع بهديتك التى أتيت بها.. فرفض الهدية.. وأبى قبولها.. وردها عليهم..

وهذا يدفعنا إلى وقفة قصيرة ـ أمام رأى الإسلام.. فى قبول الهدايا..

كان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقبل الهدية.. ويثيب عليها.. ولايقبل الصدقة.. وكذلك كان سليمان والأنبياء.. وإنما جعلت بلقيس.. قبول الهدية أو ردها.. علامة على ما فى نفسها.. لأنه قال لها .. فى كتابه « ألا تعلوا على وأتونى مسلمين » وهذا الأمر لا تقبل فيه فدية.. ولا يؤخذ عنه هدية.. وليس هذا من الباب الذى تقرر فى الشريعة عن قبول الهدية بسبيل.. وإنما هى رشوة وبيع الحق بالباطل.. ولا يحل هذا..

وأما الهدية المطلقة.. للتحبب.. والتواصل.. فإنها جائزة .. من كل أحد .. وعلى أية حال..

وهذا مما لم يكن من مشرك.. فإن كانت من مشرك.. ففى الحديث : « نهيت عن زبد المشركين(٢) » يعنى.. هداياهم.. وعطاؤهم..

والهدية مندوب إليها.. وهى مما تورث المودة.. وتذهب العداوة .

روى مالك عن عطاء بن عبدالله الخراسانى

قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « تصافحوا يذهب الغل .. وتهادوا.. تحابوا.. وتذهب الشحناء » وروى معاوية بن الحكم.. قال : سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول « تهادوا.. فإنه يضاعف الود.. ويذهب بغوائل الصدور »..

وعن ابن شهاب قال : بلغنا.. أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « تهادوا بينكم.. فإن الهدية تذهب السخيمة ».. قال ابن وهب: سألت يونس.. عن السخيمة.. ما هى ؟

فقال : الغل(٣) وقال شاعر :

هدايا الناس بعضهم لبعض
تولد فى قلوبهم الوصالا
وتزرع فى الضمير هوى وودا
وتكسبهم إذا حضروا جمالا

***

قال سليمان للمنذر بن عمرو.. أمير الوفد

.. بعد أن رد الهدية «ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها.. ولنخرجهم منها أذلة.. وهم صاغرون » ٣٧ / النمل ..

وعاد المنذر بوفده وهداياه.. ليخبر سيدته بما رأى.. ويا هول ما رأى..

---

(١) فى جميع كتب التفسير تقريبا ٣٥/ النمل.

(٢) القرطبى ٣٥/ النمل.

(٣) القرطبى ٣٥/ النمل.

٥ جنود اسم الله الرحمن الرحيم

لكل شيء حقيقة.. ولكل شيء صورة .. ولا قيمة ولا تأثير للصورة.. إذا فقدت حقيقتها وروحها.. وكذلك كلام الله - سبحانه وتعالى.. فالمصحف.. والورق.. والحروف.. والكلمات . والآيات.. والسور.. والألفاظ.. كلها صورته.. وليست حقيقته ..

فهل يتصدع الجبل ويخشع ..لو أنزلنا عليه من طائرة مئات المصاحف .. أو سلطنا عليه آلاف القراء.. يتلون عليه القرآن تلاوة حرفية.. مجردة من القوى الروحية الفعالة؟.. مع أن الله تعالى يقول: «لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله».. ويقول عنه أيضا.. من ناحية الفعل والتأثير: «ولو أن قرآنا سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى» وهذا شرط جوابه محذوف.. فالقرآن بروحه وحقيقته يسير الجبال.. ويقطع الأرض.. ويكلم به الموتى: «بل لله الأمر جميعا»..

وقد رأيناه - صلى الله عليه وسلم - ليلة الهجرة.. يبدأ عند خروجه بأول سورة «يس».. ولايكاد يأتي منها عند قوله تعالى: «وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون».. حتى قامت جنود الآية بوظيفتها ومهمتها.. فغشيت أبصار أربعين متأمرا - فتى جلدا - وقفوا بباب حجرته - عليه السلام - يحمل كل منهم سيفا بتارا.. وكانوا قد أصروا وأسروا أن يقتلوه بضربة رجل واحد.. ليلة الهجرة.. بل ساعة الهجرة.. بل لحظة الهجرة ليضيع دمه بين القبائل..

لقد قرأ - عليه السلام - الآية .. فعلا .. وروحا .. وتوجها .. وإيمانا.. وإسلاما.. وإحسانا.. فانفعلت الحقائق.. ووقع الأثر..

***

وهكذا اتخذ سليمان - عليه السلام - من بسم الله الرحمن الرحيم - جنودا .. لاقبل لدولة السبئيين بها.. وكان جازم الإيمان.. بأن جند الاسم.. لاترجع.. حتى تحقق الحق.. وتبطل الباطل.. وتخرج ورثه العمالقة العادين الجبابرة.. أذلة بما عدوا صاغرين بما أشركوا.. حيث لا عز إلا بالإيمان..

وهل أرسل سليمان سوى «بسم الله الرحمن الرحيم». يحمل نصفها هذا الهدهد.. ليلقيه على بلقيس.. إلقاء روحيا بالذات.. ماديا بالصورة.. فلم تلبث أن هرولت من سبأ في اليمن.. إلى أورشليم بالشام؟..

وسنرى بعد قليل.. أنها قالت.. خاضعة.. خاشعة.. مسلمة «رب إني ظلمت نفسي.. وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين..»

وهكذا كانت رحلة جنود «الرحمن الرحيم» إلى سبأ.. رحلة موفقة.. ميمونة الطالع.. أوقفت تيارا خاطئا.. دفع الناس إلى عبادة الشمس من دون الله.. حتى أعادتهم جنود الآية الكريمة.. إلى عبادة الله وحده.. وهو

الذى يملك وحده سعادة الإنسان.. متى سبقت له الحسنى.. وكان من المؤمنين..

***

خرجت بلقيس من سبأ.. بعد أن احتفظت بعرشها.. فى مكان أمين.. وأقامت عليه حراسا.. مدفوعة بفعل تلك القوات القرآنية.. لأن الأمر فيها.. بعدم التعالى.. وإتيانه مسلمين..

ولعل يقين سليمان.. وإيمانه بتنفيذ ما أمر.. وثقته بأنهم فى الطريق إليه مسلمين.. جعله يلتفت إلى ملئه.. ويقول : « يا أيها الملأ أيكم يأتينى بعرشها.. قبل أن يأتونى مسلمين » ٣٨ النمل..

واختلف المفسرون فى السبب الذى من أجله طلب سليمان إحضار عرشها.. وخَرَّجُوا لذلك أسبابا كثيرة.. منها أنه أراد الاستيلاء على العرش قبل أن تسلم.. فلا يكون من حقه الاستيلاء على أموالها.. ومنها : ليريها قدرة الله.. ويجعله دليلا على نبوته.. لأخذه من بيوتها دون جيش ولا حرب..

ومنها : أنه أراد أن يختبر صدق الهدهد.. لما قال: « ولها عرش عظِيم »..

ورأى آخر فى أغلب كتب التفسير.. تقول : خافت الجن أن يتزوج بها سليمان.. فيولد له منها.. فيظلون فى السخرة لنسله ـ عليه السلام ـ فقالوا له : فى عقلها خبل.. ورحلها كحافر الحمار.. فأراد أن يختبر عقلها بتغيير العرش.. ويرى رحلها بإقامة الصرح(١) ولعل العقل لا يقبل كل هذه الأسباب بسهولة .

وإنما الرأى الذى تطمئن إليه : أن سليمان ـ عليه السلام ـ كان حكيما.. أراد أن يعرف أخلاق تلك المرأة.. قبل وصولها إليه مسلمة.. وهو بنور النبوة.. يستطيع أن يعرف شخصيتها.. ويسبر أغوارها.. ويقف على طباعها من منظر عرشها وتركيبه وألوانه فاللون فى الأثاث واللباس يكشف كثيرا من ميول صاحبه وسجاياه.. لذوى البصائر.. وأولى الفراسة.. من المؤمنين..

***

قال ابن عطية: ظاهر الآيات أن هذا القول من سليمان بعد مجئ هديتها.. ورده إياها.. مباشرة.. (٢) ويقول بعض المفسرين جلس سليمان على سرير ملكه فرأى رهجا (٣) قريبا.. فقال: ما هذا قالوا: بلقيس يا نبى الله.. قال أوقد نزلت منا بهذا المكان؟.. قالوا: نعم.. فقال لجنوده: أيكم يأتينى بعرشها.. قبل أن يأتونى مسلمين (٤) «قال عفريت من الجن أنا أتيك به قبل أن تقوم من مقامك.. وإنى عليه لقوى أمين» ٣٩/ النمل.. قوىٌ على حمله.. أمين على نفائسه ودرره.. والعفريت من الشياطين: القوى المارد.. قالوا: إن اسمه ذكوان.. أو دعوان.. وقال ابن عباس: هو صخر.. وفى الصحيح عن أبى هريرة.. قال. قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم: ـ إن عفريتا من الجن.. جعل يفتك علىَّ البارحة.. ليقطع علىَّ الصلاة.. وإن الله أمكننى منه.. فدعته» أى دفعته دفعا..

وفى البخاري.. «تفلت علىَّ البارحة» بدلا من «جعل يفتك علىَّ» وفى الموطأ.. عن يحيى بن سعيد.. أنه قال: أُسْرِى برسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فرأى عفريتا من الجن يطلبه.. بشعلة من نار.. كلما التفت رسول الله.. رآه.. فقال جبريل أفلا أعلمك كلمات تقولهن.. إذا قلتهن. طفئت شعلته.. وخر لفيه؟.. فقال ــ صلى الله عليه وسلم ـ بلى.. فقال «أعوذ بالله الكريم.. وبكلمات الله التامات.. التى لايجاوزهن بار ولافاجر.. من شر ما ينزل من السماء.. وشر ما يعرج فيها(٥) وشر ما ذرأ فى الأرض.. وشر ما يخرج منها ومن فتن الليل والنهار.. ومن طوارق الليل والنهار.. إلا طارقا يطرق بخير يا رحمن».

فالعفريت من الجن.. يريد أن ينقل العرش.. قبل أن يقوم سليمان من مكانه.. وكانت تلك المدة كبيرة.. عند الذى عنده علم من الكتاب.. «قال الذى عنده علم من الكتاب .. أنا أتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك»؟ ٤٠ النمل .. فمن هو الذى عنده علم من الكتاب؟.. وأى كتاب هذا؟..

اختلفوا فيه أيضا.. فقال جبريل ــ عليه السلام ــ أو ملك أيَّد الله به سليمان.. أو عبد

(١) من كل التفاسير ٣٨/ النمل.

(٢) القرطبى ٣٨/ النمل.

(٣) غبارا.

(٤) القرطبى والنيسابورى ٣٨/ النمل.

(٥) والزيادة من الموطأ.. نقلا عن القرطبى ٣٩/ النمل.

صالح من بنى إسرائيل.. أو الخضر.. أو هو سليمان نفسه وأغلب المفسرين.. على أنه.. آصف بن برخيا.. كاتب سليمان.. وأمين سره.. وكان صديقا عالما.. غير أننا نعتقد أنه واحد من اثنين.. فإما أن يكون سليمان.. أو وزيره وصديقه.. آصف بن برخيا.. وبما أن الخطاب فى عبارة «أنا أتيك به» موجه إلى سليمان.. لزم أن يكون القائل هو آصف بن برخيا..

فالكتاب المقصود هنا.. هو الكتاب الذى حمله الهدهد.. ليلقيه على بلقيس.. والذى عنده علم منه.. علم بما فيه من جنود وقوات.. هو سليمان ــ عليه السلام ــ وكاتبه وأمين سره..آصف..

يقول البيضاوى: كأن سليمان.: استبطأ الزمن.. الذى حدده العفريت.. أو أراد إظهار معجزة نقله.. فتحداهم أولا.. ثم أراهم أن يتأتى له مالا يتأتى لعفاريت الجن.. فضلا عن غيرهم.. أ هـ..

وما كانت تلك الجنود.. التى لاقبل لهم بها.. سوى المعاني الفعالة.. التى ألقيت إليهم إلقاء.. يحمل صورته كتاب منسوب فى مطلعه إلى سليمان.. وفى حقيقته إلى الله الرحمن الرحيم.. الذى لايريد برحمته.. أن يدمر قوما.. متى استجابوا لدعوته.. وما كانت «بسم الله الرحمن الرحيم» من عند سليمان بن داود ـ صاحب الزبور ـ فهى لم ترد بهذا النص فى الزبور .. وليست شعارا عند اليهود.. ولا عند المسيحيين.. لأن شعارهم «باسم الرب الإله» أو باسم الأب والابن والروح القدس.. إله واحد .. آمين .. الخ»..

وإنما استعار سليمان ــ بسم الله الرحمن الرحيم ــ من صاحب السلطان الأوحد.. على ورثة العاديين فى اليمن.. الذين هم من شعب إمامه الأعظم: محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ الذى اختصته العناية الإلهية.. من الفيض الكريم.. والذكر الحكيم.. بمزية الافتتاح «بسم الله الرحمن الرحيم» وجاءت تاجا لسور القرآن الكريم كلها.. إلا سورة التوبة.. لأنها تحوى الإنذار..

***

فإذا كان نقل العرش .. من اليمن إلى الشام .. يحتاج إلى زمن ــ أى زمن ــ فإنه لاينقل شيئا من مكان إلى مكان ــ فوق قانون **الزمن ــ إلا الذى خلق المكان.. وقدر الأوان..** لأنه وحده المهيمن الذي «وإذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون « فى غير زمن.. مهما قل» وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر».. «أو هو أقرب» أى أن لمح البصر.. يتألف من التقاء الهدبين وانفصالهما بالبصر.. وهما جزءان من الزمن.. وقدرة الله تعالى ـ لاتتأخر جزءا أول.. ثم تتحقق فى الجزء الثانى.. لأن هذا يعتبر عجزا فى اللحظة الأولى.. وهو محال على الله تعالى.. فلزم انتفاء الزمن لزوما رياضيا..

ولهذا قال «قبل أن يرتد إليك طرفك» وهى صريحة فى أنها لاتشمل زمن ارتداد الطرف.. بل قبله.. يعنى بغير زمن مطلقا.. وما كان هذا الذى عنده علم من الكتاب.. والذى هو «بسم الله الرحمن الرحيم»..

لاباسم زيد.. ولا اسم عمرو
ولا اسم بكر.. ولا اسم خالد
بل باسمه.. وحده تعالى
وجل فى سائر المشاهد
لأنه وحده.. تجلى
ومالك الكون بعد واحد
وقوله كن بغير لفظ
وغير حرف عليه وارد
بل أنه قوة وفعل
لقوله الحق.. وهو شاهد

***

وبهذا المعنى.. نجد أن ما ذكر فى بعض كتب التفسير.. حول هذا الموضوع.. يحتاج إلى إعادة النظر.. من حيث مفهوم معنى الكتاب.. الذى قالوا عنه: إنه «اللوح المحفوظ» أو « أُم الكتاب الذى به جميع المقدورات»..

ولاحق لنا فى أن نتحدث عن «أُم الكتاب».. أو أن نتصور أن أحد من العالمين يعلمها ــ ولاجبريل ــ فهذا الاسم من السمعيات.. التى يجب الإيمان بها تسليما مطلقا.. وتفويضا كاملا.. إلى علم العليم الحكيم: «وإنه فى أُم الكتاب لدينا لعلى حكيم»..

وإعادة النظر أيضا.. من حيث زمن نقل العرش.. فلا زمن مطلقا.. إذا فهمنا معنى: «قبل أن يرتد إليك طرفك» فهو ليس مدة إرتداد الطرف ولكن قبله.. ولهذا قيل «وأمره بين الكاف والنون» فالكاف والنون حرفان.. يحتاج كل حرف منهما ــ إلى زمن فى نقطة .. فكان الأمر بينهما.. لإلغاء الزمن..

قال القرطبى: أكثر المفسرين.. على أن الذى عنده علم من الكتاب.. آصف بن برخيا.. وكان صديقا.. يحفظ اسم الله الأعظم.. الذى إذا سُئل أعطى.. وإذا دعُى به أجاب.. وهو «ياحى ياقيوم.. ياذا الجلال والإكرام» كما ورد فى حديث عائشة ـ رضى الله عنها ـ وقال ابن عطية: قالت فرقة.. هو سليمان ـ عليه السلام.. والمخاطب هو العفريت لما قال: «أنا أتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك».. واستدلوا على ذلك بقوله: «هذا من فضل ربى»..

وتقول التفاسير: انخرق بعرش بلقيس مكانه.. ثم نبع بيْن يدى سليمان.. فإذا كانت «ثم» تفيد الترتيب الزمنى ـ بل مع التراخى ـ فنحن نرفضها..

ويقول القرطبى: (ويتصور ذلك.. بأن يعدم الله الجوهر.. فى أقصى الشرق ثم يعيده فى أقصى الغرب.. أو يعدم الأماكن المتوسطة ثم يعيدها)..

وقال المفسرون أيضا: رأى سليمان العرش.. مستقرا عنده.. من مأرب إلى الشام.. فى قدر ارتداد الطرف..

ولعلنا الآن قد صححنا مفهومنا عن الزمن.. فليس قدر ارتداد الطرف.. ولكن قبل هذا الارتداد.. بحسب النص القرآنى.. وفرق كبير بين المعنيين..

***

«فلما رآه مستقرا عنده.. قال هذا من فضل ربى.. ليبلونى.. أأشكر أم أكفر.. ومن شكر.. فإنما يشكر لنفسه.. ومن كفر.. فإن ربى غنى كريم» ٤٠/ النمل..

عليك سلام الله ياسليمان.. دائما الشكر نصب عينيك.. ليكون شكرك.. لاينبغى ولايتيسر لأحد سواك.. كما أوتيت ملكا لاينبغى ولايتيسر لأحد سواك..

وحقا «من شكر فإنما يشكر لنفسه» أى لايرجع نفع ذلك إلا إليه هو.. حيث استوجب بشكره.. تمام النعمة.. ودوامها.. والمزيد منها.. وقيل.. الشكر قيد للنعمة الموجودة.. وصيد للنعمة المفقودة..

وقال الواسطى.. فى تفسير النسفى: ما كان منا من الشكر.. فهو لنا وما كان منه من النعمة.. فهو إلينا.. وله المنة والفضل علينا..

وفى كلام بعض المتقدمين: إن كفران النعمة بوار.. واعلم أن سبوغ نعمة الله.. زائل عما قريب.. إذا أنت لم ترج لله وقارا..

«والله غنى كريم».. كريم بالإنعام على من يكفر بنعمته.. والمخلصون من عباد الله.. يتلقون النعمة القادمة بحسن الشكر.. كما يشيعون النعمة المودعة بجميل الصبر..

***

□□□

٦ إسلام بلقيس

ونظر سليمان.. بفراسة المؤمن.. إلى كرسى بلقيس.. «واتقوا فراسة المؤمن فإنه يرى بنور الله».. فرأى قوائمه.. من الذهب.. ولون الذهب أصفر.. وهو رمز للموت.. فعلم أن فى قلبها قسوة.. وغلظة.. وفظاظة.. ورأى ديباج الكرسى.. ذا لون أحمر.. وهو لون الدم.. فعلم أنها حربية.. مولعة بسفك الدماء.. تقود جيشها فى الحروب.. ولايؤثر فيها منظر الدم المسفوح.. فقال للجن: «نكروا لها عرشها» أى غيروا تلك الألوان ودعوه على حالته..

فاجعلوا القوائم الذهبية الصفراء.. فضية بيضاء.. يريد أن يرمز لها.. أنك امرأة.. والمرأة لاتتناسب معها القسوة والغلظة الممثلة فى لون الذهب الأصفر.. وإنما يناسبها الرحمة.. والصفاء .. والنقاء.. التى يرمز إليها لون الفضة.. الأبيض..

واجعلوا من القطيفة الحمراء.. قطيفة خضراء.. رمزا لها.. إلى أن الأنثى.. لا علاقة لها بالحروب.. ومنظر الدماء التى يرمز لها باللون الأحمر.. وإنما هى للأمومة والحنان والحب.. وكلها تتمثل فى اللون الأخضر «ننظر أتهتدى» إلى تلك الرمزيات.. إن كانت ذكية لماحة.. «أم تكون من الذين لايهتدون»؟ ٤١/ النمل..

ووصلت بلقيس ــ كما قدمنا ــ مدفوعة بـ **«بسم الله الرحمن الرحيم» فأتت ومعها ملوك قومها وعظماؤهم.. أذلة صاغرين..**

واستقبلها سليمان.. بقوله «أهكذا عرشك»؟..

وفى كلمة «أهكذا» لطيفة.. فهى كلمة واحدة.. تضم أربع كلمات: الألف للاستفهام.. والهاء للتنبيه.. والكاف للتشبيه.. وذا اسم إشارة.. فقالت: «كأنه هو».. لم تفهم غرضه.. ولم تلمح رمزياته ولكنها قالت.. تدليلا على خضوعها.. واستسلامها «وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين» ٤٢/ النمل..

والإيمان ذكاء.. وفطانة.. ولماحة.. وفراسة.. وبعد نظر.. انظر معى إلى تعليق الله ــ سبحانه ــ فى هذا الموقف يقول: «وصدها ما كانت تعبد من دون الله.. إنها كانت من قوم كافرين» ٤٣/ النمل..

وقراءة سعيد بن جبير « أنها كانت من قوم كافرين» بفتح الهمزة (١) أى صدها عن فهم رمزيات سليمان ــ عليه السلام ــ أنها كانت من قوم غير مؤمنين.. وأن على قلوبهم صدأ الشرك وغلاسته.. وحجبت ظلمات الكفر.. نور الفؤاد.. فحسبته داخل زجاجة مشكاة الصدر.. لاينفذ منها النور.. ولاترى البصيرة.. «وتراهم ينظرون إليك وهم لايبصرون».. «ومنهم من ينظر إليك.. أفأنت تهدى العمى ولو كانوا لايبصرون».. «فإنها لاتعمى الأبصار ولكى تعمى القلوب التى فى الصدور»..

وهكذا عميت بصيرة بلقيس.. عن فهم ما يريد سليمان ــ عليه السلام ــ فابتسم ابتسامة عريضة.. وطلب من الجن اختبارا آخر لها.. فأقاموا في الحال حماما.. أرضه من زجاج خاص.. من طبقتين.. بينهما فراغ.. وفى هذا الفراغ.. ماء يسبح فيه السمك.. سلطت عليه أنغاس الشياطين.. فسرت فيه سريان التيار الكهربائى.. فصار كأنه لجة موج فى نظر الرائى..

وطلب منها سليمان أن تدخل هذا الحمام.. «قيل لها ادخلى الصرح.. فلما رأته حسبته لجة.. وكشفت عن ساقيها.. قال إنه صرح ممرد من قوارير» وهنا أدركت بلقيس.. وفهمت.. أن سليمان يختبر ذكاءها.. فتقدمت إليه خاشعة خاضعة.. وقالت: «رب إنى ظلمت نفسى وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين» ٤٤/ النمل..

ولعل هذا التخريج.. وهو جديد ــ على ما أعتقد ــ يقنعنا ويغنينا عما أوردته كثير من كتب التفسير.. حول تنكير الكرسى.. واختبارها به وبالصرح.. مثل قولهم: جعلوا مقدمه مؤخره.. وأعلاه أسفله لأن الشياطين قالوا له: إن فى عقلها خبلا.. وإن رجليها كحافر الحمار وبها شعر كثيف.. فاختبر عقلها..بتنكيس الكرسى.. ورأى رجلها.. لما كشفتها عند دخول الصرح (٢)..

استغفر الله.. فسليمان بن داود ــ عليهما السلام ــ أكبر من هذا كله .. وأعظم من أن تضحك عليه الشياطين.. مع علمنا بأنها مسخرة له.. وليست ساخرة منه.

ويروى أن سليمان.. تزوج بلقيس.. وأسكنها الشام.. وقال البعض تزوجها.. وردها إلى ملكها باليمن.. وكان يأتيها علي الريح.. كل شهر مرة.. فولدت له غلاما.. سماه داود.. ومات في زمانه (٣).

وفي الأخبار: أن النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ قال: «كانت بلقيس من أحسن نساء العالمين ساقين..وهى من أزواج سليمان عليه السلام فى الجنة» فقالت عائشة رضى الله عنها ــ هى أحسن ساقين منى؟ فقال ــ عليه الصلاة والسلام ــ : «أنت أحسن ساقين منها فى الجنة..» (٤) كما ذكر القرطبى والثعلبى.. عن أبى موسى: أن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ قال «أول من اتخذ الحمامات سليمان بن داود ــ فلما ألصق ظهره الجدار فمسه حرها.. قال: قال: أواه من عذاب النار» (٥)

وقال آخرون: إن سليمان زَوَّجَها ذا تبع ملك همدان..

وقال قوم: لم يرد فيه خبر صحيح.. لافى أنه تزوجها ولافى أنه زوجها.. فعلم هذا عند ربى.. حتى حديث رسو ل الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ الذى ذكره القشيرى.. وأورده القرطبى «وهى من أزواج سليمان فى الجنة» لايدل على أنه تزوجها فى الدنيا..

وقد روى القرطبى حكاية عن الشعبى.. أن أناسا من حمير حفروا مقبرة الملوك.. فوجدوا فيها قبرا معقودا.. فيه امرأة.. عليها حلل منسوجة بالذهب.. وعند رأسها لوح رخام فيه مكتوب:

يا أيها الأقوام عوجوا معا
وأربعوا فى مقبري العيسا(٦)
لتعلموا أنى تلك التى
قد كنت أدعى الدهر بلقيسا
بعلى سليمان النبى الذى
قد كان للتوراة دريسا
وسخر الريح له مركبا
تهب أحيانا رواميسا
مع ابن داود النبى الذى
قدسه الرحمن تقديسا(٧)

٣١ ــ ص ــ ٢

---

(١) القرطبى ٤٣/ النمل.
(٢) القرطبى وغيره ٤١/ النمل.
(٣) من الكشاف وغير ٤٤/ النمل.
(٤) القرطبى ٤٤/ النمل.
(٥) القرطبى والثعلبى ٤٤/ النمل.
(٦) عوجوا: أقيموا ــ وأربعوا العيس: أى أرعوا الإبل
(٧) القرطبى ٤٤/ النمل.

(إذ عرض عليه بالعشى الصافنات الجياد)

◯ سليمان والصافنات الجياد

الفصل الــرابع

[١] هل يقطع رقاب الخيل؟

هل تصدق أن سليمان قطع رقاب الخيل وسيقانها.. مسحا بـالسيف؟ .. مع أن المثل العامي، يـقول: إن فلانا يقطع رقـاب الخيل.. للمبـالغة فى شره وأذاه.. وفـجوره وفسقه.. هذا ما قاله بعض أصحاب البدع في التفاسير..

فقالـوا.. تفسيرا لـقوله تعالى عـن سليمان ــ عـليه السـلام ــ «إذ عرض علـيه بالعـشى الصـافنات الجـياد. فقـال إنى أحببت حب الخـير عن ذكر ربى حـتى توارت بالحجاب. ردوها على فطفق مـسحا بالسوق والأعناق» ٣١ ـــ ٣٣ ص.

قالوا: غـزا سليمان أهل دمـشق ونصيبـين.. فأصاب منهم.. ألف فرس.. وقيل: ورثـها عن أبيه داود.. وكان أبوه.. قد أصابها من العمالقة.. وقيل أيضا: خرجت من البحـر.. لها أجنحة.. وابتـدعوا عن الكلبى ومـقاتل: أن سلـيمـان صـلى الصـلاة الأولى «الـظهـر» وقـعد عـلى كرسـيه.. والخيـل تعرض عليه.. وكانت ألـف فرس.. فعرض عليـه منها تسعمـائة.. فتنبه لصلاة العـصر.. فإذا الشمـس قد غربت.. وفـاتته صلاة الـعصر. ولم يُعْـلمه أحد بـذلك.. هيـبة له.. فـاغتـم لذلك.. غـما شـديدًا.. وطلـب رد الخيل عـليه.. فـردت.. فعـقرهـا بالسـيف.. فقطع سيقانها وأعناقها.. وبقى منها مائة..

ويقـولون: فـمـا بقى فـى أيدى النـاس.. من الخـيل العتاق ـــ اليوم فهى من نسل تلك الخـيل.. ذكرت هذه الرواية فى جميع كتب التفسير.. تقريبا.. باختلاف يسير في الألفاظ ولكن الروايات كلها تؤدى هذا المعنى..

***

ولكثير مـن علماء التفسيـر.. تعليقات عليهـا بالنقد والتكذيب والإبطال.. منها ما قـاله أبو عبد الله محمدُ بن أحمـد الأنصارى القرطبـى.. فى كتابه «الجـامع لأحكام القرآن» قال:

استدل الشبلى وغيره من الصوفية.. فى تقطيع ثيابهم وتخريقهـا.. بفعل سليمان هذا.. وهو اسـتدلال فاسد.. لأنه لايجوز أن ينسب إلى نبى معصوم أنه فعل الفساد..

كما ذكر القرطبى: أن ابن عـباس قال: سألت عليا عن هذه الآية: فقال ما بلغك فيها؟ فـقلت: سمعت كعبا يقول: إن سلـيمـان لما اشتغل بـعرض الأفـراس.. حتـى توارت الشمس بالحجاب وفاتته صـلاة العصر.. قال: «إنى أحببت حب الخـير عن ذكر ربـى» أى آثرت حب الخيـر.. «ردوها علىّ» يعنى الأفراس.. وكانت أربع عشرة.. فضرب سوقها وأعناقها بالسيف.. وأن الله سلبـه ملكه.. أربعة عشر يوما..

لأنه ظلم الخيل.. فقال على بن أبى طالب: كذب كعب.. لكن سليمان اشتغل بعرض الأفراس للجهاد.. «حتى توارت بالحجاب» أى غربت الشمس بالحجاب.. فقال ــ بأمر الله ــ للملائكة الموكلين بالشمس «ردوها» يعني الشمس.. فردوها حتى صلَّى العصر فى وقتها.. وأن أنبياء الله لايظلمون.. لأنهم معصومون(١)..

***

كما هاجم الفخر الرازى ــ فى تفسيره ــ أصحاب هذا الرأى.. لأنه سبحانه ــ أورد قصة داود.. ثم قصة سليمان ــ عليهما السلام ــ : فى هذا المقام .. بعد قوله لرسوله ــ صلى الله عليه وسلم ــ «اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود»... إلى آخر الآيات.. ومعنى هذا ــ أن ما أتاه داود وسليمان.. كانت أعمالا فاضلة.. وأخلاقا حميدة وصبرا على طاعة الله.. وإعراضا عن الشهوات واللذات..

ثم قال الرازى: وأنا شديد التعجب من الناس.. كيف قبلوا هذه الوجوه السخيفة.. مع أن النقل والعقل يردانها؟.. وليس لهم فيها شبهة.. فضلا عن حجة؟..

وعسى أن يكون القارئ الكريم .. مازال يذكر رواية ذكرتها ــ مع التحفظ فى موضوع ــ سليمان والريح ــ هذه الرواية نسبوها إلى الحسن ــ رضى الله عنه ــ تقول: شغلت سليمان الخيل.. حتى فاتته صلاة العصر.. فعقر الخيل.. فأبدله الله خيرا منها وأسرع.. أبدله الريح تجرى بأمره حيث شاء.. غدوها شهر ورواحها شهر..

ولعل القارئ.. يعلم الآن لماذا تحفظت فى ذكرها.. فلاشك أن تلك الروايات كلها.. من بدع التفاسير..

وإن كان بعضهم.. يعلل هذا.. بأن قتل الخيل.. لم يكن إفسادا من سليمان لأن الخيل كان مأكولة فى شريعته.. والبعض الآخر يقول: إنه قدمها قربانا لله تعالى..

ولكن كل هذه .. تعليلات.. يظهر فيها التكلف والمغالطات المنطقية.. التى لايجوز أن تكون مجالا للمناقشة العلمية..

أما ترى معى أن قتل الخيل بتلك الصورة .. إفساد للمال.. ومعاقبة من لاذنب له؟..

ويقول القشيرى(٢): ما كان فى ذلك الوقت صلاة الظهر.. ولا صلاة العصر..

***

□□□

(١) القرطبى ٣٢/ ص.

(٢) القرطبى ٣٢/ ص.

٢ سليمان يعبد .. ولايفسد

لقد جعلوا من عبادة سليمان لربه.. فى جميل خلقه إفسادا..

وأبدلوا تأمله وحنانه.. إتلافا وقسوة..

ووضعوا المعاني النبيلة السامية.. فى غير موضعها.. لتخدم أغراضهم.. وتحقق مقاصدهم فى إيذاء رسل الله الكرام.. وإسناد مالا يجوز إسناده إليهم..

ويجدر بنا أن نعرض الآيات.. لتنظر فيها بنور الله ــ إن شاء الله - بعد أن نطهر نفوسنا من أدران الشرك.. ونصفي قلوبنا من نوازع الشك.. ونكون أهلا لسريان المعانى العليا فى صدورنا..

«ووهبنا لداود سليمان نعم العبد إنه أواب.. إذ عرض عليه بالعشى الصافنات الجياد.. فقال إنى أحببت حب الخير عن ذكر ربى حتى توارت بالحجاب.. ردوها علىّ فطفق مسحا بالسوق والأعناق» ٣٠ ـ ٣٣ ص..

ولعلنا نلمح فى مطلع الآيات .. مدح الله ــ سبحانه ــ لسليمان بقوله: «نعم العبد». مسببا ذلك.. بأنه أواب.. والأواب: كثير الرجوع إلى الله أو كثير التسبيح.. فالمسبح مؤوب.. وكل مؤوب أواب.. ومنه قوله تعالى: «يا جبال أوبى معه والطير».. أى سبحى..

ومن الواضح محاولتهم تجريد سليمان ــ عليه السلام ــ من الفضل .. فيقولون: إن قول الله ــ تعالى: «نعم العبد إنه أواب» يقصد بهذا المدح داود ــ عليه السلام ــ ونسوا.. أو تناسوا.. أن الله ــ سبحانه ــ ذكر تلك الصفة أيضا عن داود من قبل هذا.. فى نفس المقام وفى نفس السورة.. واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أواب» ١٧/ ص فما الداعى لتكرارها بعد الانتهاء من ذكر داود.. والبدء فى ذكر سليمان؟.. إلا إذا كان المقصود بها سليمان.. لا داود؟.. ولكن الأغراض الخبيثة.. تدفع إلى المكابرة.. والجدل بالباطل.. وتطويع المعانى.. لخدمة تلك الأغراض..

***

كان سليمان ــ عليه السلام ــ محبا للجهاد والحرب.. فى سبيل إعلاء كلمة الله.. ونشر دينه فى كل بقاع الأرض..

ورباط الخيل.. من أول دعائم الجهاد.. فكانت عنده فصائل الخيول العراب.. الصافنات الجياد.. وقيل سميت الخيل عرابا.. لأنه جئ بها.. من بعد آدم لإسماعيل.. جزاء عن رفع قواعد البيت.. وإسماعيل عربى.. فصارت له منحة من الله فسمى الفرس

عربيا (١).. والفرس الصافن.. هو الذى يقف على طرف حافر يد أو رجل.. حتى يقوم على ثلاث:

ويقول عمرو بن كلثوم:

تركنا الخيل عاكفة عليه
مقلدة أعنتها صفونا

كما يقول شاعر آخر:

ألف الصفون فما يزال كأنه
مما يقوم على الثلاث كسيرا(٢)

والصافن من الرجال: الذى يجمع بين يديه على صدره..

وفى هذا يقول ـ عليه الصلاة والسلام:

«من سرَّه أن يقف الناس له صفونا.. فليبوأ مقعده من النار(٣)».

والصفن من الصفات الممدوحة فى الخيل.. إذ لايكون إلا فى العراب الخلص وقد وصف الله سبحانه ـ خيل سليمان «بالصافنات الجياد».. والجياد من الخيل: طويلة الأعناق.. من الجيد .. وهو العنق..لأن طويل العنق منها.. من صفات الفراهة والجمال.. أو الجياد من الجودة والسرعة والخفة في الجرى..

وقد جمع الله لها بين صفتى الصفن والجودة.. فهى ممدوحة فى وقوفها وفى جريها.. كما قال صاحب تفسير النسفى: إذا وقفت كانت ساكنة مطمئنة.. وإذا جرت كانت سراعا خفاقا فى جريها..

***

أمر سليمان ـ عليه السلام ـ باستعراض الخيل.. استعدادا لغزوة من غزواته.. ومرت أمامه مئات الخيول العراب الأصلية.. فى عزم وجمال.. وأخذته نشوة المنظر.. وقوة المخبر.. حتى مرت جميعها.. وتوارت عن بصره خلف الجدر البعيدة حول الميدان.. وتذكر سليمان أن نظره فى تلك المرة.. كان منصبا على الناحية المادية فقط من جهة الخيل.. وأنها خير.. ومال .. وعز.. فقال في نفسه:ـ كان الأولى.. ذكر الله فى جمال تركيبها.. وبديع تصويرها.. وفائق روعتها..

وتلك صفة المؤمن.. يعبد الله فى كل شئ.. فى الهواء الذى يتنفسه.. وفى الماء الذى يشربه.. وفى الطعام الذى يتناوله.. وفى الدابة التى يركبها.. وفى كل شئ خلقه الله.. يقع نظره عليه..

هذا من المؤمن.. فما بالك بنبي الله سليمان؟..

ولهذا قال بعض المفسرين: «إنى أحببت حب الخير عن ذكر ربى» قالو: الخير يغنى الخيل.. والعرب تسميها كذلك.. قال الفراء: الخير والخيل فى كلام العرب واحد..

وفى الحديث: «الخيل معقود فى نواصيها الخير»..

وفى الحديث أيضا: لما وفد زيد بالخيل.. على النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال له: أنت زيد الخير «... وهو زيد بن مهلهل الشاعر»..

وفى الخبر: أن الله تعالى.. عرض على آدم جميع الدواب.. وقيل له: اختر منها واحدا.. فاختار الفرس.. فقيل له: اخترت عزك فصار اسمه الخير من هذا الوجه(٤).

***

وعاد سليمان ـ عليه السلام ـ إلى طبيعته الأصلية فى الشكر.. الشكر الذى نراه يلازمه فى كل صغيرة وكبيرة من نعم الله عليه.. فينادى «ردوها» ردوا الخيل علىَّ.. فقد نسيت أن أذكر مبدعها.. ومصورها.. ومنشئها.. وأعادوها عليه..

يقول الزهرى وابن كيسان:

كان يمسح سوقها وأعناقها.. ويكشف الغبار عنها.. حبا لها...

وقال ذلك الحسن وقتادة، وابن عباس (٥) ولاشك أن هذا هو الرأى.. فصار يمسح بيده.. سوق الخيل.. وصدورها .. وأعناقها.. وهذا من عادة هواة الخيول العربية.. حبا.. وتأملا.. وإعجابا بكمال خلق الله.. وجمال إبداعه..

---

(١) القرطبى ٣١/ ص.
(٢) ذليلا.
(٣) الكشاف والقرطبى ٣١/ ص.
(٤) القرطبى ٣٢/ ص.
(٥) القرطبى وغيره ٣٣/ ص.

وفى الحديث: أن النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ رئى وهو يمسح فرسه بردائه.. وقال «إنى عوتبت الليلة فى الخيل» خرّجه الموطأ عن يحيى بن سعيد مرسلا والحديث فى غير الموطأ مسند متصل عن مالك عن يحيى بن سعيد عن أنس.. قوله.. عن الخيل «امسحوا بنواصيها وأكفالها»(١).

وهنا يتضح معنى «فطفق مسحا بالسوق والأعناق»...

وبقى رأىٌ.. أريد أن أمسه مسا خفيفا.. حتى يكون القارئ على علم بجميع الأراء.. وهو رأى هؤلاء الذين قالوا: طلب رد الشمس بعد غروبها بالحجاب.. وردها الله ــ سبحانه ــ إليه فصلى العصر حاضرا.. وأغلب هؤلاء... ورطوا أنفسهم.. فى كثير من بدع التفسير... فقالوا: اتفق مثل ذلك لنبينا ــ عليه الصلاة والسلام.

فخرج الطحاوى فى مشكل الحديث.. عن أسماء بنت عميس من طريقين: أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان يوحى إليه.. ورأسه فى حجر علىٍّ.. فلم يصل العصر .. حتى غربت الشمس.. فقال ــ صلى الله عليه وسلم: «أصليت يا علىٌّ»؟ قال: لا.. فقال ــ صلى الله عليه وسلم ــ «اللهم إنه فى طاعتك ــ وطاعة رسولك.. فاردد عليه الشمس» قالت أسماء: فرأيتها غربت.. ثم رأيتها بعد ما غربت.. طلعت على الجبال والأرض .. وذلك بالصهباء فى خيبر..

قال الطحاوى: وهذان الحديثان ثابتان(٢) .. ورواتهما ثقاة.. ولكن القرطبى: قال تعليقا على هذا الحديث: قلت: وضعف أبو الفرج بن الجوزى هذا الحديث: فقال: (وغلو الرافضة فى حب علىٍّ ــ عليه السلام(٣) ــ حملهم على أن وضعوا أحاديث كثيرة فى فضائله.. **منها أن الشمس غابت ــ ففاتت الصلاة عليا ــ عليه السلام ــ فردت له الشمس.. وهذا من حيث النقل محال.. ومن حيث المعنى: فإن الوقت قد فات.. وعودها طلوع متجدد.. لايرد الوقت..**

□ □ □

(١) القرطبى ٣٣/ ٥.

(٢) لعله يقصد بالحديثين.. قوله من طريقتين.

(٣) هكذا فى القرطبى ٣٣/ ص.

« وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت »

(١٠٢ ــ البقرة)

○ هاروت وماروت

الفصل الخامس

١ الشياطين يسترقون السمع

قلنا فى قصة إمام الصابرين أيوب عليه السلام «..كان إبليس يقف من السماوات حيث شاء.. لايحجب عنها.. ولايعوقه شئ عن التجول فى أرجائها...

ومن هناك .. وصل إلى آدم حين أخرجه من الجنة .. ولم يزل هو وقبيله يصعدون إلى السماء حيثما أرادوا...

حتى رفع الله تعالى عيسى ــ عليه السلام ــ فحجب الشياطين عن أربع سماوات.. فكانوا لايقعدون إلا فى ثلاث.. لهم منها مقاعد للسمع...

فلما بعث الله محمدا ــ صلى الله عليه وسلم ــ حجبوا عن الثلاث الباقية.. فهم محجوبون عن جميع السماوات.. إلى يوم القيامة.. «وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا» ٩ / الجن..

والمتكلمون فى هذه الآية هم الجن..

واستغل الشياطين ــ عصر سليمان ــ عليه السلام ــ فكانوا يسترقون السمع فى السموات **كلها ثم يضمون إلى ما سمعوا أكاذيب يلفقونها.. فيها من أفانين السحر والشعوذة.. ألوان وفصول وأبواب وطلاسم..** ويلقونها إلى الكهنة .. فيكتبها هؤلاء فى كتب.. يقدمونها إلى الناس.. فأغرت هذه الكتب الجهلة والسفلة منهم.. وصاروا يقرأونها.. ويتعلمون منها.. ويعملون بما فيها وهجروا ما أنزل الله فى التوراة والزبور.. وأوحت إليهم شياطينهم.. بعد موت سليمان ــ عليه السلام ــ أنه كان يسخر الإنس والجن والريح والطير.. بما فى تلك الكتب من سحر وطلاسم..

قال محمد بن إسحاق: لما ذكر رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ سليمان ــ سليمان فى المرسلين .. قال بعض أحبار اليهود: يزعم محمد أن ابن داود كان نبيا .. والله ما كان إلا ساحرا(١).. واليهود لايعترفون بنبوة سليمان .. ولكنهم يقولون عنه ــ سليمان الحكيم ــ فأنزل الله ــ سبحانه:- «واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان.. وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر» ١٠٢/ البقرة.

(١) القرطبى ١١٢ / البقرة.

ومُلك فى تلك الآية بمعنى عهد وزمن سليمان..

وهذا المعنى الذى قدمناه حول هذه الآية.. هو المعنى الذى اطمأن إليه القلب بعد جولة مضنية بين كتب التفسير وفيها الكثير من الأشواك التى تلازم الورود والأزهار.. أعرضُ بعضها بإيجاز على القارئ.. ليحس بنفسه ملامسة الأزهار.. من وخز الأشواك..

***

فقد قرأت فى تفسير القرطبى «الجامع لأحكام القرآن».. وفى قصص الأنبياء..لأبي إسحاق الثعلبى وغيرهما..

وقال أهل التفسير: كتبت الشياطين السحر والنرنجبات(١) على لسان آصف بن برخيا كاتب سليمان.. «هذا ما علم آصف بن برخيا.. سليمان الملك».. ثم دفنوها تحت مصلاه أو تحت كرسيه حتى انتزع الله ملكه (٢) .. ولم يشعر بذلك سليمان.. فلما مات.. استخرجوها.. وقالوا للناس: ما ملككم سليمان إلا بهذا..

وقال السدى: إن شيطانا .. تمثل على صورة إنسان.. فأتى نفرا من بنى إسرائيل.. فقال لهم: هل أدلكم على كنز لايفنى أبدا؟ قالوا : نعم .. قال: فاحفروا تحت كرسى سليمان.. وذهب معهم.. فأراهم المكان.. وقام ناحية.. فقالوا له: ادن.. فقال: لا.. ولكنى ههنا.. فإن لم تجدوه.. فاقتلونى.. وذلك أنه.. لم يكن أحد من الشياطين يدنو من الكرسى.. إلا احترق(٣) فوجدوا تلك الكتب..

فلما أخرجوها .. قال الشيطان : إن سليمان كان يضبط الإنس والجن والشياطين والطير بهذا.. ثم طار الشيطان.. وذهب.. فأما علماء بنى إسرائيل وصلحاؤهم.. فقالوا: معاذ الله.. أن يكون هذا علم سليمان.. فإن كان هذا علمه .·. فقد هلك سليمان.. وأما سفاؤهم.. وجهالهم.. فأقبلوا على تعلمه.. ورفضوا كتب أنبيائهم.. فأنزل الله ــ سبحانه ــ هذه الآية إظهارا لعذر سليمان.. وبيانا لبراءته.

ولعل شوكة حادة قد وخزتنا.. فى قولهم: إن الشياطين دفنوا هذه الكتب تحت كرسى سليمان.. حين «انتزع الله ملكه».. وقد كذَّبنا ــ سابقا ــ فكرة نزع ملك سليمان ــ تكذيبا قاطعا.. فى موضوع «فتنة سليمان».. كما كذبها غيرنا من أولى العلم.. وفقهاء المفسرين.. لما صحبها من خرافات.. لاتقبل عقلا ولا نقلا فمن شاء.. فليرجع إليها.. والشياطين الذين يعلمون الناس السحر.. قد يكونون من الجن .. وهو مفهوم الآية.. وقد يكونون من الإنس المتمردين فى الضلال..

وذلك كقول جرير:

أيام يدعوننى الشيطان من غزلى

وكن يهويننى إذ كنت شيطانا

فقال الله تعالى «ولكن الشياطين كفروا» باستعمال السحر.. وتدوينه.. ونشره بين الناس.. بعد أن كذب الله اليهود والشياطين.. فيما يزعمون عن سليمان.. من اعتقاد السحر.. وتدوينه والعمل به.. حيث قال ــ سبحانه ــ «وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر» فجعل ــ سبحانه ــ تعليم السحر كفرا.. فهل السحر حقيقة؟.. وما حكم الإسلام فيه؟..

□ □ □

(١) الطلاسم السحرية

(٢)أثبتنا أن زوال ملك سليمان خرافة «فصل فتنة سليمان».

(٣) وهذه العبارة دليل على كذب الرواية التى تقول: إن الشياطين دفنوا الكتب تحت الكرسى.

٢ السحر

قال عامة المعتزلة:

أصل السحر أنه تمويه بالحيل والتخاييل.. بأن يفعل الساحر أشياء ومعانى.. فيخيل للمسحور.. أنها بخلاف ماهى عليه.. كالذى يرى السراب بعيدا.. فيخيل إليه أنه ماء.. وكراكب القطار.. يخيل إليه أن ما يرى من الشجر والأعمدة تسير.. فقالوا: إن السحر.. لاحقيقة له.. وإنما هو إيهام.. لكون الشئ على ما هو عليه.. وأنه ضرب من الخفة والشعوذة.. واستشهدوا على صدق رأيهم بقوله: «يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى» (١) ولم يقل ــ سبحانه ــ أنها تسعى على الحقيقة.. وإنما قال: «يخيل إليه».. وبقوله أيضا: «سحروا أعين الناس»(٢).. فجعل السحر فى العين.. وسحر العين تمويه وتخاييل..

***

ولكن علماء السنة.. أكدوا وجود السحر.. وقالوا: أن التخيل من جملة السحر..

(١) ٦٦/ طه.

(٣) ١١٦/ الأعراف.

وقد ثبت أن وراء التخيل والتوهم.. أمورا جوزها العقل.. وورد بها السمع.. فمثلا الآية التى نحن بسبيلها.. تثبت أن هناك سحرا.. وتعليما له.. ولو لم يكن حقيقة.. لم يمكن تعليمه.. وأخبر الله ــ سبحانه ــ أنهم يعلمونه الناس..

كما أن الله جلّ شأنه قال عن سحرة فرعون «وجاءوا بسحر عظيم»(٣).. ولعل خير دليل على حقيقة السحر.. ما اتفق عليه المفسرون فى سبب نزول سورة الفلق(٤).. ما كان من سحر لبيد بن الأعصم.. وهو مما خرجه مسلم والبخارى وغيرهما... عن عائشة ــ رضى الله عنها ــ أنها قالت: سحر رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ يهودىٌ من يهود بني زريق.. يقال له: لبيد بن الأعصم.. الحديث وفيه أن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ لما حل السحر.. قال: «إن الله شفانى» والشفاء.. إنما يكون برفع العلة.. وزوال المرض.. فدل على أنه حقيقة وليس تمويها.. ولاتخيلا.. وقد يتردد العقل.. فى قبول هذا الحديث..

(٣) ١١٦ / الأعراف.

(٤) هذه العبارة من القرطبى ١٠٢/ البقرة

فكيف يقبل العقل بسهولة.. أن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ قد سحر؟.. ولكن العقل يسلم به.. إذا علم أن الله ــ سبحانه ــ أراد أن يمد المؤمنين بالأسلحة المضادة.. ضد قذائف السحر والحسد.. فاتخذ من رسوله ــ عليه الصلاة والسلام ــ مثلا عمليا في هذا.. ليوحي إليه بالمعوذات.. ليستخدمها المؤمنون فتكون لهم وقاية وحصنا ــ ضد آفات خطيرة فى حياة الإنسان.. ظلمة الليل.. والسحر والحسد.. ووسوسة الشيطان.

وللسحر أمور خارقة للعادة.. بما ليس فى مقدور البشر.. من مرض .. وتفريق .. وزوال عقل.. ومع هذا.. فنحن لانؤمن بأن السحر سبب مولد.. ولاعلة موجبة لوقوع هذا.. وإنما يخلق الله ــ سبحانه ــ هذه الأشياء.. ويحدثها عند حصول السحر.. كما يخلق الشبع عند الأكل.. والرى عند الشرب.. والمرض عند دخول الميكروب فى الجسد..

***

وروى سفيان عن عمار الذهبى (١): أن ساحرا.. كان عند الوليد بن عقبة.. يمشى على الحبل.. ويدخل فى است الحمار.. ويخرج من فمه.. فضربه جندب بالسيف فقتله.. وهذا هو جندب بن كعب الأزدى.. وهو الذى قال فى حقه.. النبى ــ صلى الله عليه وسلم «يكون فى أمتى رجل يقال له: جندب.. يضرب ضربة بالسيف يفرق بين الحق والباطل».. فكانوا يرونه جندبا هذا.. قاتل الساحر.

والمراد بالسحر.. ما يستعان فى حصوله بالشياطين.. والتقرب إليهم.. مما لايمكن للإنسان .. أن يستقل به.. ويصنعه بنفسه.. بدون تدخل الشيطان.. ولايكون ذلك إلا إذا كان هناك تناسب بين الساحر والشيطان.. وتوافق فى الشرارة وخبث النفس .. فإن التناسب شرط فى التضامن والتعاون.. وبهذا يمكن التمييز بين الساحر وبين النبى أو الولى..

يقول القاضى أبو بكر بن الطيب: لولا آيات الرسل.. لأجزنا السحر.. ومن أجل ذلك أجمعنا على منعه..

***

وهناك فرق كبير بين السحر والمعجزة.. فالسحر يوجد من الساحر وغيره.. بمعنى أنه قد تكون جماعة يعرفونه.. ويمكنهم الإتيان به فى وقت واحد.. أما المعجزة.. فلايمكن الله أحدا أن يأتى بمثلها.. وبمعارضتها.. ثم الساحر.. لم يدع النبوة.. فالذى يصدر منه مختلف عن المعجزة.. فإن المعجزة شرطها.. اقتران دعوى النبوة.. والتحدى بها..

وقال أبو نصر عبدالرحيم الشقيرى(٢): قال أبو عمرو: من زعم أن الساحر.. يقلب الحيوان من صورة إلى صورة.. فيجعل الإنسان حمارا أو نحوه.. ويقدر على نقل الأجسام.. وهلاكها.. وتبديلها.. فهذا يرى قتل الساحر.. لأنه كافر بالأنبياء.. يدعى مثل آياتهم ومعجزاتهم.. ولا يتهيأ مع هذا صحة النبوة.. إذ قد يحصل مثلها بالحيلة..

ولقد شاع السحر.. وذاع .. فى سابق الزمان.. وتكلم به الناس.. ولم يبد من الصحابة.. ولامن التابعين.. إنكاراً له..

وروى سفيان.. عن ابن الأعور.. عن عكرمة.. عن ابن عباس(٣) قال: علم السحر فى قرية من قرى مصر.. اسمها «الفرما».. فمن كذب به.. فهو كافر.. مكذب لله ورسوله .. منكر لما علم بالمشاهدة والعيان.

وقد ذهب طائفة من العلماء.. إلى أن الساحر كافر.. يقتل ولايستتاب.. ولا تقبل توبته.. لأن السحر كفر. مستشهدين بقول الله ــ تبارك وتعالى ــ: «وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلاتكفر»..

كما روى قتل الساحر عن عمر، وعثمان، وابن عمر، وحفصة، وأبى موسى، وقيس بن سعد، وعن سبعة من التابعين(٤).. وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم «حد الساحر ضربه بالسيف» خرّجه الترمذى.. وليس بالقوى .. انفرد به إسماعيل بن مسلم.. وهو ضعيف عندهم.

***

(١) القرطبى ١٠٢/ البقرة.

(٢) القرطبى ١٠٢/ البقرة.

(٣) القرطبى ١٠٢/ البقرة.

(٤) أسماء الرواة من القرطبي ــ والرواية فى أغلب التفاسير.

وقال الشيخ أبو منصور الماتريدى(١) رحمه الله: القول بأن السحر على الإطلاق كفر.. خطأ.. بل يجب البحث عن حقيقته.. فإن كان فى ذلك رد ما لزم فى شرط الإيمان.. فهو كفر.. وإلا فلا. إلى أن قال: وتقبل توبته إذا تاب.. ومن قال: لاتقبل فقد أخطأ.. فإن سحرة فرعون قبلت توبتهم ـ أ هـ ـ ولتوضيح عبارة الشيخ أبي منصور.. التي قال فيها «فإن كان في ذلك رد ما لزم في شرط الإيمان.. فهو كفر» أقول:

يوجد فريق من السحرة.. يسمونهم «السفلية».. وهؤلاء يستعنون بنوع خطير من شياطين الجن.. يدعون أن بينهم وبين الله تعالى نسبا.. «وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا ولقد علمت الجنة إنهم لمحضرون. سبحان الله عما يصفون» ١٥٨ الصافات.. يشترطون على من يريد ـ من شياطين الإنس ـ أن يستعين بهم فى قضاء أغراضه.. أن يجلس فى مكان نجس.. وتحت كل رجل من رجليه مصحف ويقول لهم: آمنت بكم وكفرت بالله.. ونعوذ بالله من كل ذلك.. وأذكر حادثا.. حول الاستعانة بالجن وعبادتهم.. فتلك هى عبادة الجن التى وردت فى قوله تعالى على لسان الملائكة: «قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون» ٤١/ سبأ.. هذا الحادث رواه لى صديق فاضل.. من أولى العلم.. وأهل الثقة: قال: كان فى قرية من قرى الشرقية.. شيخ يأتى بما يشبه المعجزات.. يهابه الناس.. يبتغون رضاه.. ويخشون أذاه.. فقد كان يهدد.. وينفذ ما يهدد فى التو.. ومات هذا الشيخ.. وبعد تغسيله وتكفينه.. وتجهيزه للدفن.. خرج المشيعون.. خلف خشبته.. يشيعونه إلى المقابر.. وإذا بهم يجدون النعش.. وقد طار فى الهواء.. يعلوا أكتاف حامليه.. متخطيا تلك الجموع الحاشدة.. التى تجمعت من القرى المجاورة وجرى الناس خلفه.. مهللين مكبرين.. حتى استقرت الخشبة فى مستنقع قريب..

وكان بين المشيعين.. ثرى من أثرياء القرية.. كان يشغل مركز كبيرا فى القصر الملكى.. فى هذا الحين.. ورأى تلك الكرامة المذهلة.. كما رأها المشيعون.. فأمر سعادته ببناء ضريح للشيخ فى مكانه الذى استقر فيه.. وأوقف عليه خمسة أفدنة من أملاكه الخاصة..

ترك الشيخ طفلا صغيرا.. تربى فى الأزهر.. على نفقة وزارة الأوقاف.. وكان طالبا ذكيا.. اجتاز مراحل التعليم بتفوق..

وبعد تخرجه عين مدرسا بالمعاهد الأزهرية شب الابن مؤمنا موحدا.. كثير التفكير فيما يصل إلى سمعه.. من أعمال والده وكراماته الخارقة.. ومن بينها أضرار كان ينزلها بمن يعارضه من الناس.. وليس هذا من أدب أولياء الله الصالحين.. فكر الابن كثيرا فى طيران النعش بجثمان أبيه.. وهل كان أبوه أكرم عند الله من الخلفاء الراشدين.. والصحابة والتابعين.. حيث لم يثبت طيران أجسادهم بعد موتهم؟.. وشغلته تلك الأفكار عن كل شئ.. فهو يريد أن يعرف تلك الأسرار التى أحاطت بوالده.. حيا وميتا..

***

لجأ إلى أمه فى القرية.. وسألها: كيف كان أبى يعبد الله.. وأين؟ .. قالت: كان يدخل خلوته.. التى مازالت مغلقة بجانب المنزل.. من يوم موته.. حيث كان يتفرغ فيها للعبادة الساعات الطوال.. فى أغلب الليالى.. وقرر الابن فى نفسه أمرا..

بحث فى مخلفات أبيه.. وأخذ منها المفاتيح.. وقام فى منتصف الليل.. ومعه مصباح كهربى صغير.. وعالج باب الخلوة.. حتى فتحه بعد جهد كبير.. لأنه لم يفتح من عشرين عاما.. ثم أغلق الباب خلفه.. وأضاء المصباح.. فوجدها حجرة ضيقة جدا.. لاتزيد على متر ونصف فى مترين.. غطيت أرضها بطبقة سميكة من التراب الناعم.. من طول الزمن.. ووجد فى وسطها سندانا صغيرا.. تكسوه الأتربة.. فأزال التراب عن السندان بيده.. فوجد فوقه نقوشا.. محفورة فيه.. ووجد بجانب السندان مطرقة صغيرة .. يريد تنظيفها من التراب العالق بها.. فأحدثت صوتا .. تردد فى جنابات الخلوة .. فإذا به يسمع صوتا.. آتيا من جدران المكان وكان أكثر

(١) النسفى ١٠٢ / البقرة.

من واحد.. لبيك وهزته رعدة المفاجأة هزة خفيفة.. لم تستغرق أكثر من ثوان معدودة. ونزلت على قلبه سكينة الإيمان.. فقال: من أنتم؟.. قالوا: نحن أنسباء الله وأحباؤه.. قال: وما شأنكم.. وماذا تريدون؟ .. قالوا: نحن خدام تلك الأسماء المنقوشة على السندان.. نقوم لك بما تريد.

قال: هكذا.. بدون أي شروط لكم؟ قالوا: لنا شرط واحد.. لو أديته.. يكون لك علينا السمع والطاعة.. قال: ما هو هذا الشرط؟ قالوا: أن تجلس على هذا السندان.. فى مكان نجس.. وتجعل تحت كل من رجليك مصحفا.. وتبول في إناء به لبن.. ثم تقول: آمنت بكم وكفرت بالله.. ونظير هذا نكون تحت أمرك فى كل شئ..

فقال فى ألم وأسى: وهل معنى هذا أنكم كنتم تخدمون أبى؟.. قالوا نعم ..

قال وهل نفذ لكم هذا الشرط؟.. قالوا نفذ لنا هذا الشرط.. ولكنه كان يتعبنا ويزيدنا رهقا(١) بكثرة العمل.. فانتقمنا منه.. بتلويث جثمانه فى المستنقع.. بعد تغسيله وتطهيره. وعرف الشاب كل شئ عن أبيه الكافر..

وبيقين المؤمن.. صرفهم إلى غير رجعة.. حيث دمر السندان والمطرقة..

***

ثم يقول الصديق الفاضل.. راوى هذا الحادث: لم يعجبنى فى هذا الموضوع غير خطابين متبادلين بين الابن المؤمن الموحد.. والباشا صاحب الوقف.. نشرتهما مجلة «الاثنين» وكانت تصدر فى هذا الحين.. فقد جاء فى خطاب الابن إلى الباشا:

لقد أوقفت سعادتك على والدى خمسة أفدنة .. اعتقادا منك بأنه ولى من أولياء الله الصالحين.. وقد اتضح لى اليوم.. أن والدى مات كافرا.. فأرجوا استرداد الوقف.. وهدم الضريح.. أما ما أنفق عليَّ فى تعليمى من الوقف.. فأنا على استعداد لرده مقسطا خصما من راتبى.

وجاء فى رد الباشا عليه.. تنازله عن الخمسة أفدنة له شخصيا.. نظير شجاعته الأدبية.. وإظهاره الحقيقة.. مع مرارتها.

فهؤلاء هم الذين فقدوا شرط الإيمان.. وهم الذين ينطبق عليهم قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «حد الساحر ضربه بالسيف».. ويقول البيضاوى: أما ما يفعله أصحاب الحيل بمعونة الآلات والأدوية فغير مذموم.. وتسميته سحرا على التجوز.

***

وقد أورد القرطبى.. رواية لفك السحر.. قال: قال ابن بطال .. فى كتاب وهب بن منبه: أن يأخذ سبع ورقات من سدر أخضر.. فيدقها بين حجرين.. ثم يضربه بالماء.. ويقرأ عليه آية الكرسى.. ثم يحسو منه ثلاث حسوات(٢).. ويغتسل.. فأنه يذهب عنه كل ما به.. إن شاء الله تعالى.. وهو جيد للرجل إذا حبس عن أهله (٣).

وأنا أقول: إن سلاح المؤمن ضد كل هذا.. هو المعوذات(٤).. يتلوها منفعلا بها.. واثقا من تحقق تأثيرها.. ولن يتيسر ذلك إلا للمؤمن القوى فى إيمانه.. الواثق من فضل ربه وإحسانه.

لقد اتبع اليهود.. ما أوحت إليهم الشياطين.. من السحر والشعوذة.. كما اتبعوا ما أنزل على الملكين ببابل وهاروت وماروت» (٥)

فمن هما هاروت وماروت؟

***

(١) لعل هذا معنى قوله تعالى «وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا» ٦/ الجن.
(٢) جرعات.
(٣) ١٠٢/ البقرة.
(٤) الصمد ـ والفلق ـ والناس
(٥) ١٠٢/ البقرة.

③ الملكان المفتونان

لما كثر الفساد.. من أولاد آدم ـــ عليه السلام ـــ فى زمن إدريس ـــ من قبل نوح.. تحدث الملائكة.. فيما بينهم.. عن هذا الأمر.. ووجهوا اللوم.. إلى ابن آدم بسبب عصيانهم.. وإفسادهم فى الأرض.. وقد استخلفهم الله ـــ سبحانه ـــ فى أرضه.. واصطفاهم بذلك من دون العالمين.

فقال الله لهم: أما لو كنتم مكانهم.. وركبت فيكم ما ركب فيهم.. لعملتم مثل أعمالهم. قالوا سبحانك، .. ما كان ينبغى لنا ذلك.

قال: فاختاروا ملكين من بينكم.. فاختاروا هاروت.. وماروت.. وكان هاروت اسمه عزا.. وماروت اسمه عزابيا.. وغَيَّر الله ـــ سبحانه اسميهما.. لما اقترفا الذنوب.. كما غَيَّر من قبلهما اسم إبليس بعد أن كان اسمه عزازيل.. وأنزلهما الله..إلى الأرض.. وركب فيهما الشهوة.

وقيل: كان معهما ملك ثالث اسمه عزريائيل .. لما وقعت الشهوة فى قلبه.. استقبل ربه.. وسأله أن يرفعه إلى السماء.. فأقاله ورفعه.. فسجد أربعين سنة.. ثم رفع رأسه.. ولم يزل بعد ذلك مطأطأ الرأس.. حياء من الله(١).

فما مر بهما شهر.. حتى افتتنا بامرأة.. يقول القرطبى اسمها بالنبطية «بيدخت» واسمها بالفارسية «ناهيل».. وبالعربية «زهرة».. وكانت فتنة فى شدة جمالها.. اختصمت إليهما.. وراوداها عن نفسها.. فأبت إلا إذا شربا الخمر.. والمرأة حبالة إبليس.. كما أن الخمر أم الكبائر.. فشربا الخمر وأتيا بها.. ورآهما رجل.. فقتلاه خشية الفضيحة.. وهكذا حلت عليه لعنة: شرب الخمر.. والزنا.. والقتل فخيَّرهما الله ـــ سبحانه ـــ بين عذاب الدنيا ـــ وعذاب الآخرة.. فاختارا عذاب الدنيا.. فهما يعذبان.. منكوسين.. فى سرب من الأرض.. قيل ببابل العراق.. أو بابل نهاوند.

وردت هذه القصة بهذا المعنى فى جميع كتب التفسير.. تقريبا.. ولكن فى بعضها زيادات.. سأحاول عرضها عرضا خفيفا.. إن شاء الله.. كقولهم. إن المرأة.. قبل أن يزنيا بها.. سألتهما عن الاسم الأعظم الذى يصعدان به إلى

---

(١) أبو إسحاق النسيابورى الثعلبى.

السماء.. فعلماها.. فتكلمت به.. بعد الزنا.. فعرجت إلى السماء.. فمسخها الله كوكبا ــ هو كوكب الزهرة الآن(١) ــ ويقول القرطبى عن عطاء: كان ابن عمر.. إذا رأى كوكبى الزهرة وسهيل.. سبهما وشتمهما..

ويقول إن سهيلا كان عشارا (٢) باليمن.. يظلم الناس.. وإن الزهرة.. كانت صاحبة هاروت وماروت وإن كان العقل لاينكر.. وقوع المعصية من الملائكة .. بعد أن خلق الله فيهم الشهوة.. وقد حصلت المعصية ــ قبلهما ــ من إبليس ــ وكان من ملائكة النار ــ والشهوة موجودة فى عنصر النار ــ كما بينا ذلك بإفاضة فى نبأ آدم ــ عليه السلام .. إلا أن العقل لايقبل.. أن يكون كوكب الزهرة وهو فلك سيار.. هو نفسه تلك المرأة.. صاحبة هاروت وماروت .. فقد خلق الله ــ سبحانه ــ تلك الكواكب .. يوم خلق السماء.. ففى الخبر «أن السماء لما خلقت.. خلق فيها سبعة دوارة هى: زحل والمشترى، والمريخ، والشمس، والزهرة، وعطارد، والقمر.. جمعهم الشاعر فى هذا البيت:

زحل شرى مريخه من شمسه

وتزاهرت لعطارد الأقمار

وقد حاول بعض العلماء تنزيه الملكين.. عن هذا الذى حصل.. فقرأ ابن عباس.. وابن ابزى.. والضحاك.. والحسن «الملكين» بكسر اللام فى الآية «وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت» ١٠٢ ــ البقرة.. يقصدون أنهما: داود وسليمان.. ولكن هذا القول ضعيف.. فقد روى عبدالله بن بشر المازنى(٣). قال: قال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ «اتقوا الدنيا.. فوالذى نفسى بيده.. إنها لأسحر من هاروت وماروت».

وقال العلماء.. حول هذا الحديث:

إن الدنيا .. أسحر منهما.. لأن فتنتها تدعوك إلى الحرص عليها.. والتنافس فيها.. والجمع لها.. والمنع.. حتى تفرق بينك.. وبين طاعة الله.. وتحول بينك.. وبين رؤية الحق ورعايته.. فالدنيا.. فعلا.. أسحر منهما.. وسحر الدنيا: محبتها.. والتلذذ بشهواتها.. والتمنى بأمانيها الكاذبة.. حتى تحتوى القلب.. وتعمى البصيرة.

ولهذا يقول ــ صلى الله عليه وسلم ــ «حبك الشئ يعمى ويصم» .. وقال الزجاج: روى عن علىٍّ رضى الله عنه ــ فى معنى قوله تعالى: وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت ، وما يعلمان من أحد حتى يقولا: إنما نحن فتنة فلاتكفر» ١٠٢ ــ البقرة.

يقول: إن الملكين.. يعلمان الناس.. تعليم إنذار من السحر.. لاتعليم دعاء إليه.. فيقولان لهم: لاتفعلوا كذا.. لتفرقوا بين المرء وزوجه.

كانا يقولان للناس «إنما نحن فتنة».. فلما أنبأ بفتنتهما.. كانت الدنيا أسحر منهما.. حين كتمت فتنتها.

فإذا جاءهما أحد من الناس.. لتعلم السحر.. نصحاه أولا.. وقالا له: إن الله أرسلنا إلى الناس.. ابتلاء منه لهم.. فمن تعلمه وعمل به.. كان كافرا..

ومن تجنبه.. أو تعلمه.. لا ليعمل به.. ولكن ليتوقاه.. ولكيلا يغتر به.. كان مؤمنا..

يقول صاحب تفسير الكشاف: عرفت الشر لا للشر.. لكن لتوقيه.. تماما.. كما ابتلى الله تعالى.. قوم طالوت.. بالنهر «فمن شرب منه فليس منى.. ومن لم يطعمه فإنه منى»(٤).

فيتعلم الناس ــ من الملكين ــ السحر .. الذى يكون سببا فى التفريق بين الزوجين.. من حيلة.. وتمويه.. ونفث فى العقد.. ونحو ذلك مما يحدث الله.. عنده.. النشوز.. والخلاف.. ابتلاء منه.. لا لأن السحر له أثر فى نفسه.. بدليل قوله تعالى.. بعد هذا مباشرة «وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله» ١٠٢ ــ البقرة.. بعلمه ومشيئته.. «ويتعلمون ما يضرهم ولاينفعهم» ١٠٢ ــ البقرة.. يقول النسفى: وفى دليل.. على أنه واجب الاجتناب.. كتعلم الفلسفة.. التى تجر إلى الغواية.

كما يقول السدى فى القرطبى وغيره:

كانا يقولان ــ لمن جاءهما «إنما نحن فتنة فلاتكفر».. فإن أبى أن يرجع قالا له: ائت هذا الرماد..فبل فيه.. فإذا بال فيه.. خرج من الرجل نور.. يسطع إلى السماء.. **وهو الإيمان .. ثم يخرج منه دخان أسود.. فيدخل فى أذنيه.. وهو الكفر.. فإذا أخبرهما بما رأى.. علماه ما يفرق به بين المرء وزوجه.**

---

(١) أغلب كتب التفسير: كالقرطبى والبيضاوى وأبى إسحاق ١٠٢ / البقرة.

(٢) العشار الذى يأخذ عشور الأموال

(٣) القرطبى ١٠٢/ البقرة

(٤) ٢٤٩/ البقرة

الفصل السادس

«فلما قضينا عليه الموت ما دلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته»

(١٤ ــ سبأ)

○ موت سليمان

كل ما أخبرنا به ــ سبحانه ــ عن موت سليمان عليه السلام ــ هو قوله تعالى:

«فلما قضينا عليه الموت ما دلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا فى العذاب المهين» ١٤ ــ سبأ.

مات .. وهو متكئٌ على عصاه.. ولم يعلموا بموته حينا من الوقت ولم يعلمهم بموته..إلا فعل الأرضة بعصاه.. والأرضة دويبة صغيرة.. تأكل الخشب.. أكلت طرف منسأته.. والمنسأة.. هى العصا.. من نسأت البعير.. أى طردته.. ولأن العصا يطرد بها.. سميت منسأة..فاختل توازن سليمان ــ عليه السلام ــ وخرَّ ساقطا.. على الأرض.. فعلموا أنه ميت من قبل هذا الحين.

فمن هم هؤلاء.. الذين لم يعلموا بموته.. ثم علموا أخيرا؟.

آخر الآية يدلنا على أنهم الجن.. حيث قال سبحانه:

«فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا فى العذاب المهين».

والجن ــ كما قدمنا ــ كانوا يدعون علم الغيب.. فى عهد سليمان ويتنبأون للناس بأحداث الغد.. بما كانوا يسترقون سمعه من السماوات.. فعرف الناس أنهم كاذبون فى ادعائهم.. ولو كانوا يعلمون الغيب.. لما استمروا فى عنائهم وعذابهم.. حينا من الزمن .. خوفا من سليمان.. ولم يعلموا أنه مات.

وقال أولو العلم من رجال التفسير: أن سليمان عليه السلام ــ سأل الله أن يخفى موته سنة.

واختلفوا فى سبب هذا الطلب.. فمنهم من قال: إنه أراد أن يثبت للناس.. أن الجن.. لايعلمون الغيب.. عندما يرونهم.. مستمرين فى عملهم.. وعنائهم.. وشقائهم.. خوفا منه بينما يكون هو ميتا.

وجاء فى تفسير الكشاف.. للقاضى ناصر الشيرازى: قرأ ابن مسعود هذه الآية:

«تبينت الإنس أن الجن لو كانوا يعلمون الغيب.. ما لبثوا فى العذاب المهين».

ومنهم من يقول: أن سليمان .. طلب من الجن .. أن يتمنوا بناء بيت المقدس.. الذى

أسسه أبوه داود.. فى موضع فسطاط موسى ــ عليه السلام ــ ولما علم سليمان بدنو أجله .. طلب من الله.. إخفاء موته عن الجن.. حتى يتموا بناء البيت.. وكانت هذه المدة سنة(١).

ولعل الرأى الأول.. هو الذى رأيناه من ظاهر الآية ومفهومها.. وإن كنا لم نقتنع بعد بأن مدة بقائه ميتا على عصاه.. كانت سنة.

لأن الرأى الثاني.. يوحى إلينا.. أن سليمان ــ عليه السلام ــ مات قبل أن يتم بيت المقدس.

وهذا الرأى يخالف ما بلغ إلى علمنا.. في عدة مواقف.. ومن عدة جهات.. فقد رأيناه عليه السلام.. قد انتهى من بناء بيت المقدس.. ثم زار البيت الحرام بمكة.. ومعه الحشود الحاشدة من جنوده.. ودخله آمنا.. وقضى مناسك الحج.. وأدى شعائره.. وذبح آلاف الذبائح بها.. وبشر أهل مكة بظهور.. آخر الأنبياء.. وإمام المرسلين.. من بينهم.. وكان ذلك قبل حادث الهدهد وبلقيس.

وروى إبراهيم بن طهمان(٢).. عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ قال:

«كان نبى الله سليمان بن داود ــ عليهما السلام ــ إذا صلى .. رأى شجرة نابتة بين يديه.. فيسألها: ما اسمك؟
.. فإن كانت لغرس غرست.. وإن كانت لدواء كتبت.. فبينما هو يصلى ذات يوم.. إذا شجرة نابتة بين يديه.. قال ما اسمك؟ .. قالت: الخرنوبة.. فقال: لأى شئ أنت؟ .. قالت: لخراب هذا البيت.. فقال: اللهم عَمِّ عن الجن موتى.. حتى تعلم الإنس.. أن الجن.. لايعلمون الغيب.. فنحتها عصا.. فتوكأ عليها حولا.. لايعلمون.. فسقطت.. فعلم الإنس أن الجن.. لايعلمون الغيب».

وهذا الحديث هو الذى حدد لنا مدة وقوفه ميتا.. على عصاه .. بأنها سنة.

وقد قرر جميع المفسرين.. أن سليمان ــ عليه السلام ــ ابتدأ بناء بيت المقدس .. فى السنة الرابعة.. من ملكة.. وكانت سنه وقتئذٍ سبع عشرة سنة.

كما قال القرطبى: أنه قرب بعد فراغه من بناء البيت.. اثنى عشر ألف ثور.. وعشرين ألف شاة.. واتخذ اليوم الذي فرغ فيه من بنائه.. عيدا .. وقام على الصخرة.. رافعا يديه.. إلى الله تعالى بالدعاء فقال.

اللهم أنت وهبت لى هذا السلطان.. وقويتني على بناء هذا المسجد.

اللهم فأوزعنى شكرك على ما أنعمت علىَّ.. وتوفني على ملتك.. ولاتزغ قلبى بعد إذ هديتني.

اللهم إنى أسألك لمن دخل هذا المسجد.. خمس خصال: لايدخله مذنب.. دخل للتوبة.. إلا غفرت له.. وتبت عليه.. ولاخائف.. إلا أمنته .. ولاسقيم.. إلا شفيته.. ولا فقير إلا أغنيته.. والخامس.. ألا تصرف نظرك عمن دخله حتى يخرج منه.. إلا من أراد إلحادا.. أو ظلما.. يارب العالمين.

ذكره الماوردى.

كما خرج النسائى وغيره.. بإسناد صحيح.. من حديث عبدالله بن عمرو عن النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ:

«أن سليمان بن داود.. لما بنى بيت المقدس.. سأل الله تعالى.. خلالا ثلاثا حكما(٣) يصادف حكمه.. فأوتيه.

وسأل الله تعالى. ملكا لاينبغى لأحد من بعده.. فأوتيه.

وسأل الله تعالى .. حين فرغ من بنائه المسجد: ألا يأتيه أحد لاينهزه(٤) ... إلا الصلاة فيه.. أن يخرج من خطيئته كيوم ولدته أمه».

وقد أتى الأستاذ عبدالوهاب النجار.. فى كتابه «قصص الأنبياء» حول هذه الآية «مادلهم على موته» ــ بمعنيين جديدين.. يريد بهما فضيلته أن يبطل فكرة بقاء سليمان سنة.. متكئا على عصاه.. وهو ميت.. ودفعه النقاش إلى موضوعات طويلة متشعبة.. اضطر فيها إلى التشكيك فى صحة الأحاديث الواردة.. في هذا الموضوع.

(١) فى أغلب كتب التفسير ١٤/ سبأ.
(٣) أى حكمة.
(٣) ابن كثير والقرطبى وغيرهما ٣٤/ سبأ.
(٤) لايحركه ويدفعه.

وملخص رأيه الأول: أن سليمان.. مات — كما يموت سائر الناس — ولم يعلم الجن بموته.. ولكنه أهله يعلمون.. وظل الجن فى عملهم — حتى اكتشف أحدهم.. وجود عصا سليمان.. وقد أكلتها الأرضة.. فعلم أنه مات وأخبر إخوانه الجن بهذا.

وأما الرأى الثانى الذى أتى به فضيلته: فهو أن الموت أدركه.. وهو جالس متكئ على عصاه.. فأكلت الأرضة طرف العصا.. فاختل توازنه.. وسقط .. وهذا لايحتاج إلى زمن طويل.

وعلى أى حال.. فكل خلافه.. مع الإجماع.. على زمن بقائه ميتا متكئا على عصاه.. هل هى سنة.. أم هى مدة وجيزة.

ونحن لانستطيع أن ننكر أحاديث وردت عن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وتواترت لنا بتلك المعاني.. وأخذ جميع السلف بها.

ومن الجائز أن تمر الأعياد والطقوس الدينية.. وتأتى سليمان زوجته أو غيرها.. فى عيد الفصح مثلا.. فتراه على هيئة المصلى فترجع ويرجعون وقد رأينا مثل ذلك.. مع رسولنا — صلى الله عليه وسلم — حينما كانت السيدة خديجة — رضى الله عنها — تصعد إلى الجبل — وهو يتعبد في غار حراء — قبل الرسالة — فتجده منفصلا عن الدنيا .. لايدرى بما حوله ومن حوله.. فتأخذ الطعام والشراب القديم.. الذى لم يمسه.. وتضع مكانه.. طعاما وشرابا جديدين.. لتعود في اليوم التالى.. فتصنع كما صنعت بالإمس.. وهو لايدرى بها.. وتظل هكذا. طوال شهر رمضان.. من كل عام.

لعل هيبة سليمان — عليه السلام — كانت تمنع الإنس والجن معا من القرب منه.. مادام على هيئة العبادة.. مهما طال الزمن والله أعلم.

كما يريد البعض أن يتشكك فيما ورد بحديث رسول الله — صلى الله عليه وسلم — عن حديث سليمان من النبات والشجر.

وهذا أمر روحى صرف .. والأمور الروحية .. إحساس فى أعماق النفس.. يحسه المؤمن أحيانا.. دون أن يستطيع التعبير عنه.

وقد كان لنا صديق من عباد الله المخلصين .. رحمه الله.. ورضى عنه.. يزورنا في قريتنا.. بين الحين والحين.. وكنا نسير معه.. بين الحقول.. عند الأصيل.. فنحس به يمش بجانبنا.. وكأنه طيف سار.. يتعمق في خنايا النبات.. ويتغلغل إلى أعماق الطيور.. وكأن بينهما حديثا نحسه ولانسمعه.. وتجاوبا نشعر به ولا نعلمه.. وهذا داود الضرير الأنطاكي.. يأتي في تذكرته بالعجب العجاب.. عن جميع أجناس النباتات.. وأنواعها.. وأشكالها.. وفوائدها.. ومضارها.. وأجودها.. وأردئها.. وليس في النباتات فقط .. وإنما في الحيوانات.. والجمادات أيضا.. وقد اعترفت بصحته كل الدوائر العلمية والطبية.. مع أنه ضرير.. فما بالك بنبي الله — سليمان — عليه السلام — وقد وهبه الله ملكا لاينبغي لأحد من بعده.. من تسخير الإنس والجن والطير والزيح.. حتى النملة برغم ضآلتها.. سمع صوتها.. وفهم غرضها..

عمر سليمان ثلاثا وخمسين سنة.. فملك وهو ابن ثلاث عشرة سنة.. ومدة ملكه أربعون سنة.. كما أخبر بذلك جميع العلماء والمؤرخين إلا السدى(١) .. فقال: كان عمر سليمان سبعا وستين سنة.. ملك وهو ابن سبع عشرة سنة.. وكان ملكه خمسين سنة.. ولكن الإجماع.. على الرأى الأول.

وبعد مدة من موت سليمان — عليه السلام — ظهر فى بنى إسرائيل الظلم والفساد.. وفشت فيهم المعاصى.. وعبد بعض ملوكهم الأصنام من دون الله.. فغضب الله عليهم بكفرهم.. وعصيانهم وسلط عليهم بختنصر.

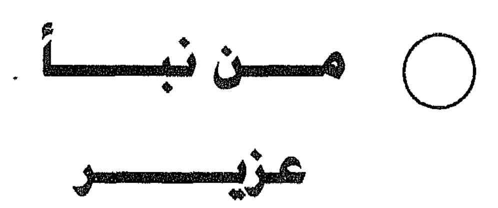
وإلى اللقاء معا.. على درب التاريخ القرآنى .. إن شاء الله تعالى..

---

(١) القرطبي ١٤/ سبأ.

﴿وقالت اليهود عزير ابن الله﴾.

(سورة التوبة الآية ٣٠)



[١] قتلة الأنبياء

كثرت الحروب .. ضد بنى إسرائيل .. بعد سليمان - عليه السلام - من الملوك المجاورين لهم بالهند وبابل « العراق » ..

فكان الله معهم .. طالما كانوا مستمسكين بتعاليم التوراة.. منفذين لأوامرها.. مجتنبين لنواهيها.. إلى أن ظهر فيهم الفساد.. وفشت بينهم المعاصى.. وعبد بعض ملوكهم الأصنام من دون الله..

أرسل الله - تعالى - لهم .. فى تلك الفترة .. عددا من الأنبياء «وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » ١٥ - الإسراء.. فكانوا يقابلونهم بالتعذيب والتنكيل والقتل .. « فبما نقضهم ميثاقهم، وكفرهم بآيات الله، وقتلهم الأنبياء بغير حق » ١٥٥/ النساء.. ومن هؤلاء الأنبياء .. نبى الله - أشعياء - وله فيهم عظات بالغات.. وآيات بينات.. رأيت أن أنقلها للقارىء الكريم.. بنصها.. رواية عن محمد بن إسحاق وغيره من أهل السير والتاريخ.. لما فيها من حكم غالية.. ودرر ثمينة.. وتبشير بنبينا - محمد - عليه الصلاة والسلام..

يقول ابن إسحاق :

بعث الله تعالى - إلى بنى إسرائيل - نبيه أشعياء .. وذلك قبل بعث زكريا ويحيى وعيسى.. وأشعياء هو الذى بشر بيت المقدس.. فقال : أبشر فإنه يأتيك راكب الحمار.. ومن بعده صاحب البعير (١)..

ثم يقول ابن إسحاق :

تنافس بنو إسرائيل فى الملك.. حتى قتل بعضهم بعضا.. وظهر فيهم البغى والفساد.. ونبيهم أشعياء فيهم.. لا يرجعون إليه.. ولا يقبلون قوله.. فلما فعلوا ذلك..

قال الله تعالى لأشعياء.. عليه السلام :

«قم فى قومك.. يوح على لسانك.. فلما قام النبى.. أطلق الله لسانه.. بالوحى.. فقال : « ياسماء اسمعى.. ويا أرض أنصتى.. فإن الله أراد أن يقضى شأن بنى إسرائيل.. الذين رباهم بنعمته.. واصطفاهم وخصهم بكرامته.. وهم كالغنم الضائعة.. التى لا راعى لها.. فآوى شاردها.. وجمع ضالها.. وجبر كسيرها.. وداوى مريضها.. وأسمن هزيلها.. وحفظ سمينها..

فلما فعل ذلك.. بطرت.. فتناطحت كباشها.. فقتل بعضهم بعضا.. حتى لم يبق منهم عظيم صحيح يجبر إليه كسير.. فويل لهذه الأمة الخاطئة.. الذين لا يدرون أجاءهم الخير أم الشر.. وأن البعير يذكر وطنه

(١) راكب الحمار عيسى وصاحب البعير عمر..

فينتابه.. وإن الحمار يذكر الآرى(١) الذى يشبع عليه فيراجعه.. وإن الثور يذكر المسرح الذى يسرح فيه فيرتاده.. وإن هؤلاء القوم لا يدرون من أين جاءهم الخير.. وهم أولو الألباب والعقول.. ليسوا ببقر ولا حمير.. وإنى ضارب لهم الأمثال إلى أن قال.. بعد أن ضرب لهم أمثالا..

« **يقولون صمنا..** فلم يرفع صيامنا.. وصلينا.. فلم تنور قلوبنا.. وتصدقنا.. فلم ترك صدقاتنا؟ .. وإن دعونا بمثل حنين الجمال.. وبكينا مثل عواء الذئاب.. لا يستجاب لنا.. فسلهم.. ما الذى يمنعنى أن أستجيب لهم؟ .. ألست أسمع السامعين.. وأنظر الناظرين.. وأقرب المحبين.. وأرحم الراحمين.. وأن رحمتى وسعت كل شيء.. إنما يتراحم الراحمون بفضلي »(٢)..

« **ولو أن هؤلاء القوم..** نظروا لأنفسهم بالحكمة..التى نورت فى قلوبهم فتدبروها.. ولم يشتروا بها الدنيا.. لأبصروا وتيقنوا أن أنفسهم هى أعدى العداة لهم.. فكيف أرفع صيامهم.. وهم يلبسونه بالزور.. ويقوون عليه بطعمة الحرام.. أم كيف أنور صلاتهم.. وقلوبهم طاغية.. تركن إلى من يحاربنى.. وينتهك محارمى؟ .. أم كيف تزكو عندى صدقاتهم.. وهم يتصدقون بأموال غيرهم؟.. وإنما أجزى عليها أهلها المغصوبين؟ .. أم كيف أستجيب لهم دعاءهم؟ .. وإنما هو قول بألسنتهم.. والعمل من ذلك بعيد.. إنما أستجيب قول المستضعف المسكين.. وإن من علامة رضاى.. رضا المساكين.. ولو رحموا المساكين.. وقربوا الضعفاء.. وأنصفوا المظلوم.. ونصروا المغصوب.. وعالوا الغائب.. وأدوا إلى الفقير واليتيم والأرملة والمسكين حقه.. إذ لو كان ينبغى لى أن أكلم البشر.. لكلمتهم.. وكنت نور أبصارهم.. وسمع آذانهم.. ومعقول قلوبهم.. وأعمرت أركانهم.. وكنت قوة أيديهم وأرجلهم.. وكنت ألسنتهم.. إلا أنهم يقولون.. لما سمعوا كلامى.. وبلغتهم رسالتى.. أنها أقاويل منقولة.. وأحاديث متواترة.. وتآليف فيما يؤلف السحرة والكهنة.. وزعموا أن لو شاءوا أن يأتوا بحديث مثله.. لفعلوا.. وأن يطلعوا على علم الغيب بما توحى إليهم الشياطين.. وهم يعلمون أنى أعلم غيب السماوات والأرض.. وأعلم ما يبدون وما يكتمون.. وإنى قضيت يوم خلقت السماوات والأرض قضاء بينته على نفسي.. وجعلت أجلا مؤجلا.. لابد أنه واقع « إلى أن قال مبشرا بإمام النبيين والمرسلين :

« فإنى باعث لذلك نبيا أميا.. لا أعمى من العميان.. ولا ضالا من الضالين.. ليس بفظ ولا غليظ.. ولا بصخاب فى الأسواق.. ولامتزى بالفحش.. ولا قوال بالخنا.. أسدده بكل جميل.. وأهب له كل خلق كريم.. أجعل السكينة لباسه.. والبر شعاره.. والتقوى ضميره.. والحكمة معقوله.. والصدق والوفاء طبيعته.. والعفو والمعروف خلقه.. والعدل سيرته.. والحق شريعته.. والهدى أمامه.. والإسلام ملته.. وأحمد اسمه.. أهدى به بعد الضلالة.. وأعلم به بعد الجهالة.. وأرفع به بعد الخمالة.. وأشهر به بعد النكرة.. وأكثر به بعد القلة.. وأغنى به بعد الفقر.. وأجمع به بعد الفرقة.. وأؤلف به قلوبا مختلفة.. وأهواء مشتتة.. وأمما متفرقة.. وأجعل أمته خير أمة أخرجت للناس.. يأمرون بالمعروف.. وينهون عن المنكر.. بآياتى وتوحيدى.. يصلون قياما وقعودا.. وركوعا وسجودا.. ويقاتلون فى سبيل الله.. صفوفا وزحوفا.. ويخرجون من ديارهم وأموالهم.. ابتغاء رضوانى.. ألهمهم التكبير والتحميد والتسبيح والتمجيد والتوحيد.. فى مسيرهم ومجالسهم ومضاجعهم ومتقلبهم ومثواهم.. يكبرون ويهللون ويقدسون على رءوس الأشراف.. ويطهرون لى الوجوه والأطراف.. ويعقدون الثياب فى الأنصاف.. قربانهم دماؤهم وقرآنهم فى صدورهم.. رهبان بالليل.. ليوث بالنهار.. « ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم » ٥٤ ـ المائدة.

فلما فرغ نبيهم أشعياء.. من مقالته تلك.. غدوا عليه ليقتلوه.. فهرب منهم .

يقول ابن إسحاق فى سيرته :

لقيته شجرة.. فانفلقت له.. فدخلها فأدركه الشيطان.. فأخذ بهدبة من ثوبه.. فأراهم إياها.. فوضعوا المنشار فى وسطها.. فنشروها حتى قطعوها.. وقطعوه وهو فى وسطها..

وكلما جاءهم نبى قتلوه.. أو حبسوه وعذبوه.. وهكذا فعلوا بنبيهم أرمياء.. حين أنذرهم سخط الله.. فظلموا العباد.. وأكثروا فى الأرض الفساد ..

«أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ، ففريقا كذبتم وفريقاً تقتلون » [٨٧/ البقرة].

---

(١) الآرى: محبس الدابة.

(٢) نفس المعانى وردت فى التوراة فى سفر أشعياء..

٢ المفسدون فى الأرض

ونجد أنفسنا أمام قضاء الله.. حيال بنى إسرائيل.. فى قوله تعالى :

« وقضينا إلى بنى إسرائيل فى الكتاب لتفسدن فى الأرض مرتين ولتعلن علوا كبيراً * فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عبادا لنا أولى بأس شديد فجاسوا خلال الديار وكان وعدا مفعولا » ٤/٥ الإسراء.

فهل هذا الإفساد منهم فى الأرض.. فى هذا الزمن الذى ذكرناه.. هو الإفساد الأول المقصود فى الآية؟ هكذا قال كثير من المفسرين.. ولنا رأى فى هذا الموضوع:-

فبعد قتل أشعياء.. أرسل الله سبحانه إليهم أرمياء.. الذى خطب فيهم..قائلا : « إن الله قال : فإنى أحلف بعزتى وجلالى.. إن لم ينتهوا.. لأقيضن لهم فتنة.. يتحير فيها الحليم.. ولأسلطن عليهم جبارا قاسيا.. ألبسه الهيبة.. وأنزع من قلبه الرحمة.. يتبعه عدد مثل سواد الليل المظلم ».

وكان هذا الجبار.. هو بختنصر البابلى.. نسبة إلى بابل.. حيث هجم من بابل على بيت المقدس.. بجيش كالجراد.. فخرب المسجد.. و قتل العلماء.. وحرق التوراة.. وذبح الكبار.. وأسر الصغار.. وأجمع المفسرون على أن عدد السبايا من بنى إسرائيل.. كان سبعين ألفا (١)..

وجاء فى موسوعة تاريخ العالم(٢) : استولى بختنصر على أورشليم « بيت المقدس » مرتين.. الأولى عام ٥٩٧ قبل الميلاد.. والثانية عام ٥٨٦ قبل الميلاد.. وكانت مدة حكم بختنصر فى بابل من ٦٠٥ ق.م إلى ٥٦١ ق.م

فهل يكون بختنصر.. هذا الملك الجبار الظالم القاسى.. الذى نزع الله من قلبه الرحمة.. وخرب بيت المقدس.. وقتل العلماء.. وحرق التوراة.. وذبح الكبار.. وأسر الصغار.. هو وجنوده.. هم عباد الله أولى البأس الشديد؟..

لا شك فى خطأ من قال بهذا الرأى.. فكلمة «عباد» وردت فى القرآن الكريم.. أكثر من سبعين مرة.. خاصة بالمؤمنين الصالحين «وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب» ١٨٦/ البقرة.

«الله لطيف بعباده» (٣).

(١) النسفى والكشاف وغيرهما ـ ٥/ الإسراء.

(٢) إصدار وليام لانجز.

(٣) ١٩ ـ الشورى.

«يا عباد فاتقون» (١).
«وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا»(٢).
«والله رءوف بالعباد»(٣).
«وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا»١٩ ـ الزخرف.
«أن أدوا إلى عباد الله» ١٨ ـ الدخان.
«عينا يشرب بها عباد الله» ٦ ـ الإنسان.
«ياعباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون» ٦٨ ـ الزخرف.
«إن عبادى ليس لك عليهم سلطان» ٦٥ ـ الإسراء.
«نبيء عبادى أنى أنا الغفور الرحيم» ٤٩ ـ الحجر.
«فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى» ٢٩ ـ الفجر.
وغيرها كثير.

ويظهر الفرق.. واضحا جليا.. بين كلمتى «عباد» و «عبيد».. فالعباد خاصة بالمؤمنين.. أما العبيد.. فهى شاملة.. تعم المؤمن والكافر.. فاقرأ مثلا :
«وما ربك بظلام للعبيد»..
«وما أنا بظلام للعبيد»..
«ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد»..

فهل بعد هذا.. يمكن أن يقال عن بختنصر وجنوده.. أنهم عباد الله أولو البأس الشديد؟.

كلا .. وإنما المتبادر إلى الذهن .. أن المقصود «بالكتاب» فى قول الله تبارك وتعالى:«وقضينا إلى بنى إسرائيل فى الكتاب لتفسدن فى الأرض مرتين» أن الكتاب .. هو القرآن الكريم..«ذلك الكتاب لا ريب».. وعلى هذا الأساس يكون إفساد اليهود فى الأرض.. وبعث عباداً لله أولى بأس شديد لسحقهم مرتين بعد نزول القرآن الكريم.. على محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ المرة الأولى.. فى صدر الإسلام.. لما ذهب راكب البعير.. عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه.. داخلا بيت المقدس ..غازيا فاتحاً.. وجاس خلال الشام «فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عبادا لنا أولى بأس شديد فجاسوا خلال الديار وكان وعدا مفعولا».

وقد لاحت بوادر المرة الثانية.. تحقيقا لوعد الله ـ تبارك وتعالى ـ فقد رد الله الكرة لليهود على المسلمين.. ولا ينبت الخير إلا بعد استواء الشر على سوقه.. أمدهم الله بالأموال.. تنساب عليهم بغير حساب.. من أمريكا وغير أمريكا كما ينساب النبع من قمة الجبل إلى الوادى فى يسر وسهولة.. وأمدهم أيضاً بالبنين.. يتدفقون عليهم من جميع الأقطار.. فى شرق الأرض وغربها.. شباباً متطوعاً حرباً وسلماً.. اقرأ معى.. والخطاب هنا لبنى إسرائيل:«ثم رددنا لكم الكرة عليهم وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيرا» ٦ـ الإسراء.. والنفير: هو الإعلام فقد كان إعلامهم قويا.. يكتسح العالم.. ويملأ الدنيا صراخا.. بأن العرب.. قوم همج ضعاف.. لا نصيب لهم من حضارة.. ولا حظ لهم فى مَدَنية.. ولا يصلحون إلا للحياة فى أكباد الصحارى.. وكهوف الجبال.. بينما هم شعب الله المختار.. أصحاب العلم.. وأئمة الفكر.. ورسل الحضارة.. وقادة المَدَنية.

أفسدوا فى الأرض . . فاغتصبوا الديار . . ونشروا الدمار . . وملأوا المنطقة بغيا وطغيانا . . وقالوا: من أشد منا قوة.. لم تردعهم هزيمتهم القريبة.. تحت ضربات «الله أكبر» فى العاشر من رمضان ١٣٩٣ هـ .. عندما قالوا : نحن أكبر قوة ضاربة فى الشرق الأوسط.. وظنوا أن حصونهم.. فى خط بارليف.. مانعتهم من الله.. ولكن الله أتاهم من حيث لم يحتسبوا.. وقذف الرعب فى قلوبهم.. لم تروعهم تلك الهزيمة.. فما أن استردوا أنفاسهم.. حتى تحركت فى صدورهم طبيعة الإفساد فى الأرض.. فعادوا إلى بغيهم وطغيانهم.. يقتلون الأبرياء.. ويسفكون الدماء.. ويشعلون الفتنة.. ويحركون عوامل الحقد بين الأخ وأخيه.. يضربون العربى بالعربى.. والمسلم بالمسيحى.. وهذا وأيم الله يبشر بقرب الانتقام الإلهي الثانى.. فى المرة الثانية.. التى لم تأتى بعد.

---

(١) ١٦ ـ الزمر .
(٢) ٦٣ ـ الفرقان.
(٣) ٢٠٧ ـ البقرة.

ونسمع صوت الله - تعالى - يناديهم. بعد أن رد الكرة لهم على المؤمنين.. وأمدهم بالأموال والبنين.. بعد هزيمتهم أول مرة.. أمام عباد الله أولى البأس الشديد.. يقول لهم:« إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها فإذا جاء وعد الآخرة » أي المرة الثانية « ليسوءوا وجوهكم ، وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة، وليتبروا ما علوا تتبيرا » ٧ - الإسراء.

فهل آن الأوان.. لأن يبعث الله عباده المؤمنين.. ليدخلوا المسجد الأقصى.. غازين فاتحين.. كما دخله عمر والمؤمنون معه.. أول مرة.. ويتبروا ما علوا تتبيرا..؟

أليس وعد الله.. هو الوعد الحق.. في قوله تعالى.. مخاطبا أحقاب المؤمنين : « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات، ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم، وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا » - ٥٥ النور وحدد - سبحانه - شرطا جزائيا واحداً نظير الاستخلاف فى الأرض والتمكين فى الدين، وإبدال الأمن مكان الخوف الذى نعيش فيه.. هذا الشرط الجزائى.. هو «يعبدوننى لا يشركون بى شيئا » ٥٥- النور.

الشرط.. عبادة الله وحده.. بتحكيم كتابه.. والركون إلى جنابه.. والالتزام بتعاليمه وتشريعاته وآدابه..

وكان الأجدر بنا.. أن نعلنها قوية.. بعد أن رأينا الله فى خط بارليف.

□ □ □

٣ عزير ورحلة الموت

عندمـا نقرأ قول الله ـ تبارك وتعالى -:« وقالت اليهود عزير ابن الله، وقالت النصارى المسيح ابن الله» ٣٠ ـ التوبة.. نجد أن قول النصارى عن المسيح معروف.. ولكن.. من هو عزير هذا.. الذى ادعى اليهود أنه ابن الله؟.. وبخاصة إذا علمنا أن اليهود.. لما تليت عليهم تلك الآية.. لم ينكروها.. مع تهالكهم على التكذيب فى كل شىء.. مما يدل على أنهم يقولون ذلك حقيقة.

لما أصاب الإسرائيليين ما أصابهم.. من بختنصر.. من قتل العلماء.. وحرق التوراة.. وقتل الكبار.. وأسر الصغار.. خرج عزير بن شرحياء.. سائحا فى الأرض.. لا يلوى على شىء.. يركب حمارا.. ومعه سلة.. فيها تين.. وزق به عصير عنب.. ودفعته الخطى.. إلى طريق المؤتفكة.

الطريق مخيف.. مرعب.. رهيب.. فهو يؤدى إلى القرية الملعونة ـ كما يسمونها - وهى قرية سدوم من بلاد الأردن .. قرية قوم لوط ـ عليه السلام ـ التى أهلكها الله ـ وجعل عاليها سافلها.. وأمطر عليها حجارة من سجيل ـ كما قدمنا فى « نبأ لوط ».. ومن يومها.. لم يسر فى هذا الطريق إنسان.. ولم ير إنسان يأتى منه.. وأصر عزير.. على اجتيازه حتى يصل إلى القرية الملعونة.. ويرى ما فيها.

ثم بلغها وطاف حولها.. بين ركام من الأحجار والعظام.. لم يجد فيها نسمة حياة حتى الوحوش والهوام والطير تتحاشى دخولها.. أو القرب منها.. فلما انتهت جولته فيها.. عاد حيث بدأ.. ثم قال : كيف ومتى يحيى الله تلك القرية.. بعد أن صارت هكذا ؟.

« أو كالذى مر على قرية وهى خاوية على عروشها، قال أنى يحيى هذه الله بعد موتها » ٢٥٩ ـ البقرة .

سؤال تردد فى جنبات نفسه.. ولكن هل هو شك منه فى قدرة الله ـ تعالى..؟ كلا.. وإنما هى خواطر تخطر فى النفس.. كما خطرت فى نفس إبراهيم ـ عليه السلام ـ عندما قال:« رب أرنى كيف تحيى الموتى ».. وقد حقق الله سبحانه ـ لإبراهيم سُؤله بذبح الطيور ثم إحيائها.. ولكن فى حالة عزير.. ليس من المعقول.. أن يحيى الله له القرية.. كلها.. بما فيها.. ومن فيها فأراه الدليل المطلوب.. فيه هو.. فما أن ركب حماره حتى انكفأ الحمار به.. وخرا ميتين.. هو وحماره.. وكان الوقت ضحى.

فأماته الله مائة عام ثم بعثه « بعثة الله .. بعد أن مات مائة عام .. وانفرجت عيناه فوجد جبريل أمامه .. يسأله « قال كم لبثت ؟ .. قال لبثت يوما » وحانت منه التفاتة إلى قرص

الشمس يميل إلى الغروب.. وكان قد نام وقت الضحى.. فقال:« أو بعض يوم » أى جزءا من يوم.. فقال له جبريل ـ عليه السلام ـ:« بل لبثت مائة عام » ونظر إلى فاكهته وعصيره.. كله على حاله.. فالفاكهة غضة رطبة.. والشراب لم يتغير.. ووجد الهيكل العظمى للحمار مفكك الأوصال.. ووصل إلى سمعه صوت جبريل يقول:« فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه وانظر إلى العظام » أى عظام الحمار « كيف ننشزها ونجمعها إلى بعضها.. ثم نكسوها لحما ».

رأى العظام تتلاصق.. ورأى اللحم يترجرج.. بدءا من الحوافر زاحفا.. ليكسو الأرجل والبطن والظهر والعنق.. ثم الرأس.. حيث يعطس.. ثم يستوى قائما.. كل هذا من غير زمن.. أقرب من لمح البصر.

مرت به تلك المشاهد.. وهو إلى الذهول أقرب.. فلما أفاق.. تذكر قولته:« أنى يحيى هذه الله بعد موتها » فخر ساجدا فى مكانه وكأنه أراد أن يدفع احتمال الشك فى سؤاله.. فقال: « فلما تبين له قال أعلم أن الله على كل شىء قدير » ٢٥٩ ـ البقرة.. بمعنى أعلم قدرة الله.. قل أن يحدث أمامى هذا الإحياء..

وركب حماره.. وعاد من حيث أتى. ورأى الناس ـ على البعد ـ إنسانا.. يركب حمارا.. قادما من الطريق الملعون لأول مرة.. بعد قرون مضت.. وتجمع الشعب.. بين الخوف والوجل.. يدفعهم حب الاستطلاع.. ليروا من هذا الإنسان.. وهل هو إنسان حقيقة.. أم هو جنى فى صورة إنسان ؟.

حتى رأوه.. وتحدثوا إليه.. وقال لهم:

أنا عزير.. فكذبوه.. فقال لهم :

هاتوا التوراة.. فأخذ يتلوها عن ظهر قلب.. وهم ينظرون فى الكتاب.. فما خرم حرفا واحدا.. ولم يقرأ التوراة.. ظاهرا.. أحد قبل عزير.. فقالوا : هو ابن الله(١) .

يقول القرطبى : قتل اليهود الأنبياء من بعد موسى.. فرفع الله عنهم التوراة ومحاها من قلوبهم.. فلما خرج عزير.. يسيح فى الأرض.. أتاه جبريل.. وسأله : أين تذهب ؟.. قال:أطلب العلم.. فعلمه التوراة.. فلما عاد إليهم.. علمهم.. وكان علماؤهم قد دفنوا التوراة.. بعد ما أصابهم الله بالفتن والبلاء.. وبعد أن قتل بختنصر العلماء.. ثم وجدوها مطابقة لما كان يقرؤه عزير.. فقالوا ابن الله .

وروى عن على ـ رضى الله عنه ـ أن عزيرا خرج من أهله.. وخلف امرأته حاملا.. وله خمسون سنة.. فأماته الله مائة عام.. ثم بعثه.. فرجع إلى أهله وهو ابن خمسين سنة.. وله ولد ابن مائة سنة.. فكان ابنه أكبر منه بخمسين سنة (٢).

ولنا وقفة قصيرة.. أمام عمره.. بعد أن مات مائة عام.. وأنه مازال عمره خمسين عاما.. فهذا هو النقص فى العمر.. والنقص فى العمر لا يكون إلا فى وسطه وليس فى البدء أو فى النهاية.. فمثلا : ـ

كتب الله ـ سبحانه ـ لعزير عمرا.. سبعين سنة.. ثم أماته وهو فى الخمسين لمدة مائة عام.. فيكون الباقى من عمره بعد بعثه عشرين عاما.. لأن الزمن وقف.. بالنسبة لهذا الجسم مائة عام..فلا غذاء ولا تنفس.. وبالتالى.. ولا نمو.. لا فى الجسم.. ولا فى الشعر.. ولا فى الأظافر.. وهى نفس الحالة.. بالنسبة لأهل الكهف.. بدليل أنهم لما قاموا من موتهم.. بعد ثلاثمائة سنة وتسع سنين.. نظروا إلى بعضهم.. وقالوا : « كم لبثتم ، قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم ».. فلو أنهم وجدوا استطالة فى الشعر والأظافر.. لما كان قولهم يوما أو بعض يوم .

وروى عن ابن عباس :

لما أحيا الله عزيرا .. ركب حماره .. فأتى محلته.. فأنكر الناس وأنكروه .. فوجد فى منزله .. عجوزا عمياء.. كانت أمة له .. خرج عنهم عزير وهى بنت عشرين.. فقال لها : أهذا منزل عزير ؟ .. فقالت : نعم .. ثم بكت .. وقالت فارقنا عزير.. منذ كذا وكذا سنة ، قال : فأنا عزير.. قالت : إن عزيرا فقدناه منذ مائة سنة، قال : فالله أماتنى مائة سنة .. ثم بعثنى .. قالت : فعزير مستجاب الدعوة للمريض وصاحب البلاء فيفيق.. فادع الله يرد على بصرى.. فدعا الله ومسح على عينيها بيده.. فصحت مكانها .. وكأنها أنشطت من عقال.. قالت: أشهد أنك عزير.. ثم انطلقت إلى ملأ بنى إسرائيل.. وفيهم ابن لعزير.. شيخ

(١) النسفى والكشاف وغيرهما ٢٥٩ / البقرة .

(٢) القرطبى ٢٥٩ / البقرة .

ابن مائة وثمانية وعشرين عاما.. وبنو بنيه شيوخ.. فقالت : يا قوم هذا والله لعزير.. فأقبل إليه ابنه.. مع الناس . فقال ابنه: كانت لأبى شامة سوداء مثل الهلال بين كتفيه.. فنظرها.. فإذا هو عزير(١).

والحديث عن عزير ـ عليه السلام ـ يجبرنا إلى وقفة قصيرة.. أمام التوراة وأسفارها.. فقد أجمعت كتب التفسير.. وأسفار التوراة.. وسجلات التاريخ.. على أن الله سبحانه ـ قد بعث عزيرا إلى بنى إسرائيل.. بعد أن أصابهم البلاء.. على يد بختنصر.. الذى ضرب ديارهم.. وقتل علماءهم.. وحرق توراتهم.. وحاول عزير .. أن يجمع شتات التوراة .. ويلم شعثها .. ويضم أجزاءها .. ولكنها ـ من غير شك ـ فقدت الكثير من أصولها .. وأصابها التحريف والتبديل والتغيير .. وتاهت فيها الحقيقة .. بين كتب مفسريهم وشروحها .

وحواشيها.. التى ذهبت بالدين بعيدا عن أصله. وهو نفس ما حصل فى الدين الزراد شتى.. ببلاد فارس والهند.. وهو دين أصله قائم على التوحيد.. الدين الذى كان يعتنقه ذو القرنين .. ولم ير التاريخ القديم إلا دعوتين تدعوان إلى التوحيد... وهما دعوة إبراهيم ـ عليه السلام ـ من الشعوب السامية.. ودعوة زراد شت من الشعوب الآرية .

ولكن كتب الدين الزراد شتى حرفت ودمرت فى حملة الإسكندر اليونانى المقدونى.. الذى يسميه ـ دانيال النبى ـ بتيس اليونان ..

وقد حاول الفرس جمع أصول دينهم.. بعد خمسمائة سنة من الإسكندر المقدونى.. فى عصر أزدشير.. ولكنه جاء محرفا مبدلا خليطا من المجوسية القديمة واليونانية والزرادشتية.. كما سنرى ـ ذلك مفصلا فى نبأ ذى القرنين إن شاء الله.. وهو نبأ دينى تاريخى ممتع ..

□ □ □

---

(١) القرطبى ٢٥٩/ البقرة.

« ويسألونك عن ذى القرنين قل سأتلو عليكم منه ذكرا »

(٨٣ ـ الكهف)

○ من نبأ ذى القرنين

١ نبذة تاريخية

عندما نريد أن نتحدث.. أو نكتب عن ذى القرنين... الذى سأل عنه كفار مكة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بإيعاز من اليهود.. فأنزل الله على رسوله : « ويسألونك عن ذى القرنين قل سأتلو عليكم منه ذكرا.. الخ ٨٣ ـ ٩٩ الكهف.. يجب علينا أولا.. أن نستعرض ـ سريعا ـ شيئا من تاريخ العالم القديم.. قبل ميلاد عيسى ـ عليه السلام ـ

ونحن نستطيع أن نقسم زمن هذا التاريخ.. الذى ننشد عرضه.. إلى أربع إمبراطوريات.. حكمت فيه المعمور من الأرض :

الإمبراطورية الأولى : وهى الإمبراطورية المصرية.. حول سنة ٣٠٠٠ قبل الميلاد .. وكانت تضم المنطقة التى يمثلها الآن : جمهورية مصر.. وفلسطين.. والأردن.. ولبنان.. بالإضافة إلى الربع الشمالى من الساحل الشرقى للبحر الأحمر..

و الإمبراطورية الثانية : وهى الإمبراطورية الآشورية .. حول سنة ٨٠٠ ـ ٧٠٠ قبل الميلاد .. وقد امتدت أملاكها إلى شمال خليج العرب.. فزادت عن الإمبراطورية المصرية منطقة العراق وسوريا وجزءا من تركيا..

والإمبراطورية الثالثة : يسميها مؤرخو التاريخ القديم.. إمبراطورية بابل الجديدة وذلك حول سنة ٦٠٦ ـ ٥٥٠ قبل الميلاد.. وأرضها تقريبا..هى أرض منطقة الإمبراطورية الآشورية ..

وأما الإمبراطورية الرابعة : فهى الإمبراطورية الفارسية.. وزمنها حول سنة ٥٠٠ قبل الميلاد .. وهذه زادت أملاكها.. عن سابقتها.. حتى شملت المنطقة كلها.. شرق خليج العرب.. إلى حدود الهند.. فضمت باكستان وأفغانستان وإيران وتركيا كلها وأرمينيا وأذربيجان وجورجيا إلى جبال القوقاز فى الشمال..(١).

ولعل الذى دفعنا .. إلى تلخيص هذا العرض السريع .. عن تلك الإمبراطوريات الأربع .. التى حكمت العالم .. قبل ميلاد السيد المسيح .. هو الوصول إلى الإمبراطورية الفارسية.. التى ظهر.. فى عصرها. .ذو القرنين..

---

(١) هذا ملخص من لوحة جغرافية ص ٤٣ جـ ١ من موسوعة تاريخ العالم إصدار وليام لانجز ..

وقد قرر كثير من المفسرين.. أن ذا القرنين.. هو الإسكندر المقدونى.. الذى بنى مدينة الإسكندرية.. فقد سجل التاريخ.. فتوحات.. وصلت من مقدونيا ومصر غربا.. إلى الهند شرقا.. ثم مات ببابل.. على نهر الفرات.. وهو فى طريق العودة من الشرق..

واستنتجوا من هذا.. أنه هو ذو القرنين.. لأن الله ـ سبحانه ـ قال عنه : إنه بلغ نهاية المعمور من الأرض غربا.. بقوله تعالى:« حتى إذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب فى عين حمئة، ووجد عندها قوما، قلنا ياذا القرنين إما أن تعذب وإما أن تتخذ فيهم حسنا، قال أما من ظلم فسوف نعذبه ثم يرد إلى ربه فيعذبه عذابا نكرا وأما من آمن وعمل صالحا فله جزاء الحسنى وسنقول له من أمرنا يسرا، ثم أتبع سببا » ٨٦ ـ ٨٩ / الكهف .. هذا من جهة فتوحاته غربا..

كما قال ـ سبحانه ـ إنه بلغ نهاية المعمور شرقا.. بقوله تعالى : ـ

« حتى إذا بلغ مطلع الشمس وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها سترا، كذلك وقد أحطنا بما لديه خبرا ، ثم أتبع سببا » ٩٠ ـ ٩٢ / الكهف ..

وكانت نهاية مطافه .. فى القرآن الكريم : ـ

« حتى إذا بلغ بين السدين وجد من دونهما قوما لا يكادون يفقهون قولا قالوا ياذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون فى الأرض ، فهل نجعل لك خرجا على أن تجعل بيننا وبينهم سدا » ٩٣ ـ ٩٤ / الكهف ..

وسنرى إن شاء الله.. كيف أقام ذو القرنين سدا مسلحا من قطع الحديد المنصهر بالفحم والحطب.. ثم صب عليه من النحاس المذاب.. حتى ساوى بين الجبلين ..

وذلك بعد أن رفض قبول المال.. الذى عرضوه عليه.. نظير إقامة هذا السد بينهم وبين أعدائهم.. حيث قال « قال مامكنى فيه ربى خير، فأعينونى بقوة، أجعل بينكم وبينهم ردما آتونى زبر الحديد حتى إذا ساوى بين الصدفين قال انفخوا حتى إذا جعله نارا قال آتونى أفرغ عليه قطراً (١) ، فما اسطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقبا » ٩٥ ـ ٩٧ / الكهف ..

□ □ □

(١) القطر : هو النحاس المذاب .

٢ الإسكندر المقدونى

وقبل أن نلتقى بأنفسنا.. فى أحضان كتاب الله الكريم.. لنشهد حياة ذى القرنين.. ورحلاته العجيبة..فى الشرق والغرب والشمال .. نرى لزاما علينا.. أن نستعرض حياة الإسكندر المقدونى.. مما كتبه عنه التاريخ القديم.. وهو ما يجب أن يلم به كل مثقف. وسأوجز ذلك فى سطور..إن شاء الله .. لنرى من خلالها.. هل هو ذو القرنين المذكور فى القرآن الكريم.. أم هو إنسان غيره ؟

فى عام ٣٣٦ ق.م.. قُتِلَ فيليب ملك مقدونيا ..

ويقال : إن قتله كان بتحريض .. من زوجته أوليمبيا.. التى كان قد طلقها.. منذ وقت قريب جدا من قتله.

وخلفه على عرش مقدونيا الإسكندر الأكبر.. ولما شاع موت فيليب.. ثارت بلاد كثيرة.. كانت تابعة لمقدونيا.. منها طيبة وأركاديا.. وأثينا.. وأيتوليا.

ولكن الإسكندر استولى بسرعة على طيبة.. ودمرها.. واسترق سكانها.. وقدم الآخرون له فروض الطاعة والولاء سنة ٣٣٥ ق.م.

ثم قام فى سنة ٣٣٤ ق.م بجيش يتكون من ٣٢٠٠٠ من المشاة و٥٠٠٠ من الخيالة.. يساعده أسطول مؤلف من ١٦٠ سفينة.. لمهاجمة الفرس.. فى شرق البحر المتوسط ..

وكان إمبراطور الفرس آنذاك اسمه « دارا الثالث » واستطاع الإسكندر أن يهزم جيش الفرس.. المكون من المرتزقة اليونانيين بقيادة « ممنون الردى » قائد الفرس فى تلك المنطقة.. هزمه الإسكندر . هزيمة تامة . . فى نفس السنة ٣٣٤ ق.م . . وساعده فى ذلك ثورة جميع المدن الإغريقية على الفرس.. ومات قائد الفرس «ممنون الردى ».. بعد أن خضعت أغلب المدن الإغريقية للإسكندر .

ودعا الإمبراطور « دارا الثالث » الجنود المرتزقة.. إلى سوريا.. وحصلت بينه وبين الإسكندر.. موقعة أسوس.. التى هُزِمَ فيها دارا.. وعرض على الإسكندر.. أن يتنازل الفرس.. عن كل آسيا غرب نهر الفرات.. وأن يدفع له جزية عشرة آلاف تالنت « العملة فى زمانهم ».. ولكن الإسكندر.. طلب التسليم.. من غير قيد أو شرط .

وخضعت للإسكندر كل المدن الفينيقية .. ما عدا صور .. ولكنها سقطت بعد حصار عسير.. دام سبعة أشهر.. فى عام ٣٣٢ ق.م.

ثم دخل مصر .. وبنى مدينة الإسكندرية.. وزار مهبط وحى آمون .. ثم غادر مصر.. فى ربيع سنة ٣٣١ ق . م . وقابل جيش الفرس وهزمه.. وسار إلى « أربلا » واستولى فيها

على كنوز كثيرة.. من الكنوز الفارسية.. ثم سقطت « بابل » و « سوسا » ..

ولقى مقاومة فى « برسيبوليس » .. فنهب البلدة.. وأحرقها.. واستولى منها على كنوز ضخمة .

وفى ربيع ٣٣٠ ق.م تعقب الإسكندر.. دارا الثالث ـ إمبراطور الفرس ـ فى « ميديا » شمال إيران الآن .. حيث لقى دارا مصرعه ..

وأخضع إقليم قزوين .. ثم اتجه إلى الجنوب.. بعد أن أعدم.. ابن بارمينيو ـ حاكم إقليم ميديا ـ على ساحل بحر قزوين .. ثم بعث رسله لقتل بارمينيو .

وفى عام ٣٢٩ ق.م.. سار الإسكندر فى طريقه إلى « بكتيريا وهى بلخ الآن.. على حدود الهند .. وتغلب على الإيرانيين بصعوبة سنة ٣٢٨ ق.م وتزوج روكسانا الفارسية ..

واستولى عليه شيطان الغرور.. ففى نشوة الخمر.. قتل صديقه الوفى.. « كليتوس ».. لأنه وجه إليه اللوم.. لما ادعى لنفسه الألوهية وأخذ يدعو.. ويحث على الاعتقاد فى ألوهيته.. ولكن اليونانيين عارضوه فى هذا الادعاء.. فأغفل هذا الأمر مؤقتا .

وفى عام ٣٢٦ ق.م.. هزم الإسكندر بوروس حاكم الهند في موقعة هيداسبيس . . وتقدم حتى بلغ هيفاسيس . . وامتنعت جيوشه عن الزحف بعد هذا ..

فعاد الإسكندر إلى المحيط الهندى وأرسل سفنه لاكتشاف المحيط بقيادة تيارخوس.. وعاد هو مخترقا الصحراء إلى كرمانيا.. ثم إلى سوسا ـ بأرض العراق ..

وعزل حكام الفرس.. وعين حكاما ـ فى الغالب ـ من المقدونيين.. وأدركه الأجل.. فمات فى بابل فى ١٣ يونيه ٣٢٣ ق.م.

□ □ □

٣ هل هو ذو القرنين

بعد هذا العرض السريع المختصر.. عن تاريخ الإسكندر المقدوني.. الذى استعرضناه بإيجاز غير مخل بالوقائع والأحداث.. من « موسوعة تاريخ العالم (١)» نلفت نظر القارىء الكريم إلى ثلاث ملاحظات.. نرجوا أن يعيها القارىء الكريم حتى نناقشها عندما نعود إلى أحضان كتابنا الكريم ..

أولاها : أن الإسكندر فتح بلادا كثيرة فى زمن وجيز جدا .. لا يتجاوز ثلاثة عشر عاما من عام ٣٣٦ إلى عام ٣٢٣ قبل الميلاد.. ولكن تلك الفتوحات كلها تقع فى الشرق.. بالنسبة إلى موطنه مقدونيا.. ولم يتجه في حروبه غرب مقدونيا مطلقا.. بينما صورة القرآن الكريم.. تعرض علينا أن ذا القرنين بلغ أقصى الغرب.. ثم أقصى الشرق ـ ثم أقصى الشمال .. حيث أقام السد بين الجبلين..

وثانيتها : أنه كان قاسيا .. فى معاملة أعدائه.. حرقا وإعداما ونهبا واسترقاقا.. بالرغم من انتصاراته المتلاحقة بينما صورة ذى القرنين فى القرآن الكريم توحى إلى النفس أنه كان رحيما.. بقوله: « هذا رحمة من ربى ».. ولم يكن نهابا.. برفضه قبول الضريبة التى عرضت عليه .

أما الملاحظة الثالثة : وهى الأهم .. أن الإسكندر المقدونى .. كان كافرا.. ادعى الألوهية .. وقتل فى سبيلها صديقه الوفى المخلص « كليتوس » لما أراد نصحه.. فهل الإسكندر المقدونى ـ وهذا تاريخه المتفق عليه.. بين مؤرخى العالم القديم .. يكون هو ذا القرنين.. الوارد ذكره فى أواخر سورة الكهف ؟.. أعتقد أن هذا غير مقبول.. لا عقلا.. ولا نقلا ..

إن صورة القرآن الكريم.. تعرض علينا شخصا.. مكن الله له فى الأرض.. وآتاه من كل شىء سببا.. وتلك عبارته تقول:« إنا مكنا له فى الأرض وآتيناه من كل شىء سببا » ٨٤ الكهف فتوحى إلينا.. أن الله أعطاه من أسباب الدين والدنيا معا.. وإن كان المفسرون قد اختلفوا فى نبوته.. إلا أنهم اتفقوا على إيمانه.. وصلاحه.. وتقواه.. حتى رفعه عمر بن الخطاب وعلى بن أبى طالب.. ـ رضى الله عنهما ـ إلى درجة الملائكة.. فعن عمر أنه سمع رجلا ينادى ابنه « ياذا القرنين.. فقال : اللهم غُفْراً.. أما رضيتم أن تسموا بأسماء الأنبياء.. حتى تسميتم بالملائكة» كما روى عن على مثل قول عمر.. سمع رجلا يدعو آخر « ياذا القرنين » فقال على : أما كفاكم أن تسميتم بأسماء الأنبياء.. حتى تسميتم بأسماء الملائكة.. قال ابن إسحاق : فالله أعلم.. أقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ذلك أم لا ؟ والحق ما قال(٢).

---

(١) موسوعة تاريخ العالم إصدار وليام لانجز ـ جـ ١ ص ١٦٤ نشر مؤسسة فرانكلين.

(٢) القرطبى ٨٣ / الكهف .

وقال المفسرون فى تفسير قوله تعالى :«إنا مكنا له فى الأرض..» سخر له السحاب .. ومدت له الأسباب.. وبسط له النور.. فكان الليل والنهار عنده سواء .. ومن بين الأسباب التى علل بها أولوا العلم تسميته بذى القرنين.. أنه كان كريم الطرفين من جهة أبيه.. ومن جهة أمه.. كما قيل : لأنه أعطى علم الظاهر وعلم الباطن.. كما قال القرطبى والنسفى وغيرهما سمى بذى القرنين.. لأنه انقرض فى وقته قرنان من الناس.. وهو حى.. وذكرت أسباب أخرى كثيرة. وقد تجتمع فيه كل تلك الأسباب ..

والمهم أنهم رمزوا لذلك بقرنين فى تاج ملكه.. كما سنرى فى تمثاله الذى عثر عليه أخيرا.. فى حفريات إصطخر بإيران.. وسنذكر تفصيل ذلك.. فى فصل لاحق إن شاء الله تعالى .

ولعلنا نذكر رواية تكررت فى جميع كتب التفسير.. تقول ملك الدنيا أربعة.. مؤمنان وكافران .. فالمؤمنان : سليمان بن داود وذو القرنين.. والكافران : نمروذ وبختنصر ..

خرج ذو القرنين .. من موطنه.. فاتحا.. داعيا إلى دين الله.. متجها إلى الغرب « حتى إذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب فى عين حمئة »..

وليس المقصود أنه بلغ إلى جرمها.. أو إلى عين تغرب فيها.. وإنما المقصود مرأى البصر وقت الغروب.. حيث انتهى إلى آخر معمور الأرض.. من جهة الغرب.. فوجدها ـ فى رأى العين ـ تغرب فى عين حمئة.. كما تراها.. وأنت واقف على شاطىء البحر.. وقت الغروب.. وكأنها تغوص فى اليم .

وقد قرأها بعض القراء « فى عين حامية » أى حارة . . وقرأها الباقون « فى عين حمئة » . . وكلمة « عين » تفيد المكان.. دارا أو أرضا.. أى فى مكان كثير الحمأة.. والحمأة هى الطينة السوداء ..

قال ابن عباس : هى « حمئة » . . وقال معاوية : بل « حامية ».. وقال عبدالله بن عمرو بن العاص : فأنا مع أمير المؤمنين.. فجعلوا كعبا بينهم حكما ـ وقد كان كعب حبرا من أحبار اليهود وأسلم ـ فقالوا : يا كعب كيف تجد هذا فى التوراة ؟.. قال أجدها تغرب فى عين سوداء .. فوافق ابن عباس(١).

وقال تبع اليمانى :

قد كان ذو القرنين قبلى مسلما.

ملكا تدين له الملوك وتقتدى.

بلغ المغارب والمشارق يبتغى.

أسباب أمر من حكيم مرشد.

فرأى مغيب الشمس عند غروبها.

فى عين ذى خلب وثأط حرمد

والخلب : الطين.. والثأط : الحمأة.. والحرمد : الأسود .

يقول وهب بن منبه : كان ذو القرنين .. ابن عجوز.. ليس له ولد غيره.. وكان اسمه الإسكندر.. فلما بلغ.. وكان عبداً صالحا.. قال الله له : ياذا القرنين.. إنى باعثك إلى أمم الأرض.. وهم أمم مختلفة الألسن.. واستعظم هو هذا الأمر على نفسه.. فقال الله له : سأظفرك بما حملتك.. أشرح لك صدرك.. فتسمع كل شىء..

وأثبت لك فهمك.. فتفقه كل شىء.. وألبسك الهيبة.. فلا يروعك شىء.. وأسخر لك النور والظلمة.. فيكونان جندا من جنودك.. يهديك النور من أمامك.. وتحفظك الظلمة من خلفك.

فلما وصل أقصى الغرب.. وجد فى هذا المكان قوما.. يقول القرطبى: هم أهل جابرس.. قوم من نسل ثمود.. من البقية التى آمنت بصالح ـ عليه السلام ـ منحه الله تعالى سلطة التصرف معهم كيف يشاء «ووجد عندها قوما قلنا ياذا القرنين إما أن تعذب وإما أن تتخذ فيهم حسنا» ٨٦/ الكهف.

ويقول النسفى وغيره : وجدهم عراة من الثياب.. لباسهم جلود الصيد.. وطعامهم مالفظ البحر.. وكانوا كفاراً (٢)...

أعطاه الله حرية التصرف معهم.. إن شاء عذبهم.. وإن شاء أحسن إليهم.. فماذا اختار ذو القرنين حيالهم؟.. لقد اختار الحسنى.. وفضل دعوتهم إلى الإيمان.

«قال أما من ظلم» ولم يتبع الهدى. «فسوف نعذبه» فى الدنيا.. «ثم يرد إلى ربه فيعذبه عذابا نكرا * وأما من آمن وعمل صالحا فله جزاءالحسنى وسنقول له من أمرنا يسرا» ٨٧/ ٨٨ الكهف...

---

(١) فى أغلب كتب التفسير كالقرطبى والنسفى والكشاف ٨٦/ الكهف.

(٢) القرطبى ٨٦/ الكهف.

٤ قورش العظيم ورؤيا دانيال النبى

وقبل أن نصحب ذا القرنين.. فى رحلة إلى مطلع الشمس.. يجدر بنا أولا.. أن نعرف من هو الرجل الذى سنصحبه فى تلك الرحلة..

يقول أبو الكلام آزاد.. وزير المعارف الهندى السابق.. فى كتاب له.. عنوانه : «ويسألونك عن ذى القرنين».. وهو كتاب قيم.. سأحاول أن ألخص للقارىء شيئاً منه.. فهو قوى فى تسليط الأضواء الكاشفة..لاكتشاف شخصية ذى القرنين.. قال فيه آزاد.

الحاصل أن المفسرين.. لم يصلوا إلى نتيجة مقنعة.. فى بحثهم عن ذى القرنين.. القدماء منهم لم يحاولوا التحقيق.. والمتأخرون حاولوا.. ولكن كان نصيبهم الفشل.. ولا عجب فالطريق الذى سلكوه.. كان طريقاً خاطئا..

فقد صرحت الآثار .. بأن السؤال .. كان من قبل اليهود .. فكان لائقا بالباحثين .. أن يرجعوا إلى أسفار اليهود .. ويبحثوا .. هل يوجد فيها شىء يلقى الضوء على شخصية ذى القرنين .. إنهم لو فعلوا ذلك لفازوا بالحقيقة ــ أ هـ.

وهذا هو الرأى.. ولذلك سأعرض شيئا مما جاء فى التوراة حول هذا الموضوع.

ففى الإصحاح الثامن .. من سفر دانيال ..

يقول دانيال:

١ ـ فى السنة الثالثة من ملك بلشاصر الملك.. ظهرت لى أنا دانيال رؤيا ..

٢ ـ فرأيت وأنا فى شوشان القصر الذى فى ولاية عيلام.. ورأيت فى الرؤيا وأنا عند نهر أولاى.

٣ ـ فرفعت عينى ورأيت.. وإذا بكبش واقف عند النهر وله قرنان والقرنان عاليان والواحد منهما وراء الآخر.

٤ ـ رأيت الكبش ينطح غربا وشمالا وجنوبا فلم يقف حيوان قدامه ولا منقذ من يده.

٥ ـ وبينما كنت متأملا.. إذا بتيس من المعز جاء من الغرب على وجه كل الأرض ولم يمس الأرض وللتيس قرن معتبر بين عينيه.

٦ ـ وجاء إلى الكبش صاحب القرنين الذى رأيته واقفا عند النهر وركض إليه بشدة قوته.

٧ ـ ورأيته قد وصل إلى جانب الكبش .. فاستشاط عليه وضرب الكبش وكسر قرنيه فلم تكن للكبش قوة على الوقوف أمامه وطرحه على الأرض

على الأرض وداسه ولم يكن للكبش منقذ من قوته.

٨ ـ فتعظم تيس المعز جدا ولما اعتز انكسر القرن العظيم وطلع عوضا عنه أربعة قرون.. ولكن ليست في قوته.

ويستمر دانيال.. في سرد رؤياه.. ثم يقول :

١٥ ـ وكان لما رأيت أنا دانيال الرؤيا.. وطلبت المعنى. إذا بشبه إنسان واقف قبالتي .

١٦ ـ وسمعت صوت إنسان بين أولادي.. فنادى وقال: ياجبرائيل فهم هذا الرجل الرؤيا.

١٧ ـ فجاء إلى حيث وقفت.. ولما جاء خفت وخررت على وجهي.. فقال لي: افهم يا ابن آدم.. أن الرؤيا لوقت المنتهى.. إلى أن قال في الآية :

٢٠ ـ أما الكبش الذي رأيته ذا القرنين فهو ملك ماوي وفارس.

٢١ ـ والتيس العافي ملك اليونان. والقرن العظيم الذي بين عينيه هو الملك الأول.

٢٢ ـ وإذا انكسر وقام أربعة عوضا عنه . فستقوم أربع ممالك من الأمة.. ولكن ليس في قوته.. إلخ (١).

وواضح أن تأويل الرؤيا .. هو اتحاد مملكتي ماوي «ميديا» وفارس. وميديا تقع في شمال غرب إيران الآن .. وفارس في جنوبها الشرقي .. وباتحاد المملكتين .. يكون ملك تلك الدولة المتحدة .. هو الكبش ذو القرنين .. ولا يقضي على هذا الكبش غير تيس اليونان .. الآتي من الغرب .. أي الإسكندر المقدوني .. وقد ثبت تاريخيا ـ كما قدمنا ـ أن الإسكندر حارب «دارا الثالث ملك فارس.. وهزمه الإسكندر في عام ٣٣٠ ق.م وقضى عليه.

فعلينا - إذاً - أن نبحث عن الملك.. الذي وحد ميديا وفارس..وجعلها مملكة واحدة.. فهو ذو القرنين.. الذي رآه دانيال كبشا ذا قرنين ثم جاء تيس اليونان.. الذي هو الإسكندر المقدوني.. وقضى على مملكته في أيام «دارا الثالث».. ولنمسك بهذا الخيط.. ونعود إلى التاريخ من قبل دارا الثالث والإسكندر المقدوني..

فنجد في موسوعة تاريخ العالم.. حوالي ٥٥٠ ـ ٥٣٠ قبل الميلاد..

١ ـ ظهر قورش العظيم.. فخلع سيده إستياجيز.. ملك ميديا.. سنة ٥٥٩ ق.م وغزا ليديا ٥٤٦ ق.م وبابل ٥٣٨ ق.م وأسس الإمبراطورية الفارسية الكبرى.. التي امتدت من السند.. إلى البحر المتوسط.. ومن القوقاز.. إلى المحيط الهندي ومات قورش العظيم عام ٥٢٩ ق.م..

٢ ـ وورثه ابنه قمبيز الذي غزا مصر عام ٥٢٥ ق.م.. أي قبل الإسكندر المقدوني بحوالي مائتي عام تقريبا..

٣ ـ وورث الإمبراطورية الفارسية « دارا الأول» بعد قمبيز من ٥٢١ ـ ٤٨٥ ق.م.

٤ ـ ويستمر عرض التاريخ إلى عام ٣٣٦ ق.م حيث كان إمبراطور فارس هو«دارا الثالث» الذي مات في عام ٣٣٠ ق.م بعد أن استطاع الإسكندر المقدوني أن يستولى على الإمبراطورية الفارسية(٢).

□ □ □

(١) سفر دانيا ص ٨.

(٢) موسوعة تاريخ العالم ـ إصدار وليام لانجز ص ٩٣ و ٩٤ من الجزء الأول نشر مؤسسة فرانكلين ترجمة محمد مصطفى زيادة...

٥ فتوحات قورش العظيم وشخصيته

من حقنا الآن.. أن نسلط بعض الأضواء.. على قورش العظيم هذا لنرى مدى تطابق فتوحاته.. وشخصيته.. مع فتوحات وشخصية وأخلاق، ودين ذى القرنين.. بالصورة التى عرضتها علينا سورة الكهف.

وقبل أن ندخل فى حروب قورش وفتوحاته.. نستقرىء التاريخ عن أصله.. وطريقة ظهوره.

فنجد أن التاريخ يحدثنا عن ظهور شخصية.. فى شمال فارس عام ٥٥٩ ق.م شخصية فذة.. فى ظروف غريبة.. لفتت نظر العالم كله إليها فجأة.

كان صاحب هذه الشخصية.. شابا من أسرة فارسية.. سماه اليونان سائرس.. وسماه العرب قورش.. استطاع هذا الشاب.. أن يخلع ملك ميديا.. وحكم فارس.. واستولى على مملكة ميديا.. وكون من قسمى إيران مملكة متحدة.. لأول مرة فى التاريخ.. ونشأت فى آسيا الغربية إمبراطورية جديدة.. وقد سجل «هيرودوتس» المؤرخ اليونانى.. وهو يعتبر بحق.. أبو التاريخ القديم.. فقد ولد سنة ٤٨٤ قبل الميلاد.. سجل حياة قورش فيما يشبه الأساطير.. وكذلك كتب «زينوفن» المؤرخ اليونانى.. فقالا :

إن جده لأمه.. واسمه «إستياغس» عزم على قتله وليدا.. إلا أن العناية الإلهية.. فتحت لهذا الوليد قلب أمير.. من أمراء البلاد فأنقذه من الموت.. وأغلقت فى وجهه أماكن التربية من مدارس وغيرها.. ففتحت له مدرسة الفطرة أبوابها.

فرباه الأمير.. فى الجبال والصحارى.. حتى أتت ساعة ظهوره فبرزت مواهبه العظيمة.. وسيرته الرشيدة.. وعقله الراجح.. فاشتهرأمره.. وذاع صيته.. واستولى على حكم فارس.. وكان من حقه.. أن ينتقم لنفسه.. من أعدائه.. الذين حاولوا هلاكه صغيرا.. ولكنه آثر العفو على النقمة.. فصفح عنهم أجمعين[1].

ثم بدأت فتوحات قورش.. وحروبه.. وانتصاراته.

ولكنها ليست حروبا لسفك الدماء.. أو طمعا فى ملك أو مال.. ولكن يبرز فيها الأمن

---

(١) من كتاب آزاد..

والعدل.. وإنصاف المظلومين.. والأخذ بيد المحرومين..

وفى اثنتى عشرة سنة.. استطاع أن يستولى على جميع المعمور فى الأرض.. غرباً.. وشرقا.. ولعل هذا يتلاءم مع قوله تعالى عن ذى القرنين: « إنا مكنا له فى الأرض، وآتيناه من كل شىء سببا فأتبع سببا» ٨٤ ـ الكهف.

ويعرض علينا التاريخ اليونانى.. ثلاث حملات حربية لقورش :

الحملة الأولى :

فتح فيها ليديا.. ومملكة ليديا هذه.. تقع فى القسم الشمالى من آسيا الصغرى « تركيا» وتسمى الآن الأناضول.. مستقر حكومة تركيا الآن.. وكانت حكومة هذه البلاد إذ ذاك.. يونانية الصبغة..

انتصر قورش فى حرب تلك الدولة.. وكانت عاقبة البلاد المقهورة فى هذا العصر.. الدمار والهلاك على أيدى الفاتحين المنتصرين.. إلا أن مؤرخى اليونان كلهم.. يشهدون بأنه لم يقع شىء من هذا.. بل عامل قورش المهزومين.. بكل سخاء وجميل.. حتى أنهم لم يشعروا بأنه كانت هناك حروب بساحتهم.. إلا مارواه هيرودوتس من أمر كروسس ـ الملك المغلوب: فقال :إن قورش.. أمر بادىء ذى بدء.. بأن يبنوا مصطبة من الحطب.. ويشعلوها بالنار.. بعد أن يقعدوا كروسس فوقها.. ولعله كان يقصد بذلك.. أن يمتحن شجاعته وثباته.. أو يبطل أوهام البلاد الوثنية.. لأن عبادة اليونان.. كانت وثنية.. ولذلك.. لما رآه جالسا.. غير هياب ولا وجل.. عفا عنه.. فعاش فى كنفه.. فى بحبوحة العيش.. ورفاهة الحياة.. إلى آخر أيامه.. وقد علمت شعوب العالم.. من تلك الحرب.. أن قورش ليس فاتحا جديدا فحسب.. بل هو معلم أخلاقى جديد كذلك.. يؤسس ـ خلافا لما كانت عليه الملوك والحكومات ـ إمبراطورية جديدة.. على أخلاق سياسية جديدة.. هذا ما قرره تاريخ اليونان..

وهنا يومض فى الخاطر.. تعبير القرآن الكريم.. عن الرحلة الأولى لذى القرنين إلى جهة الغرب «حتى إذا بلغ مغرب الشمس، وجدها تغرب فى عين حمئة.. إلخ » ٨٦ ـ الكهف. تلك هى المهمة الأولى لذى القرنين..نشر دعوته إلى أقصى الغرب..

ويظهر هنا.. أنه اتجه غربا.. فالسائر من إيران الشمالية.. إلى آسيا الصغرى.. يكون متجهاً إلى الغرب تماما..

كتب هيرودوتس ـ المؤرخ اليونانى الكبير.. يقول:

كان انتصار قورش.. سريعا جداً.. لم يتوقعه أحد.. فما مضت على موقعة « بنزيا » أربعة عشر يوما.. إلا وخضعت عاصمة ليديا المنيعة ووقع ملكها «كروسس» أسيراً بين يدى الفاتح العظيم.. فأصبحت آسيا الصغرى.. كلها.. من البحر المتوسط.. إلى البحر الأسود خاضعة لقورش.. ولم يكتف بهذا.. من جهة الغرب.. وإنما استمر سائرا.. متوغلا.. حتى بلغ آخر الغرب.. على ساحل البحر.. ورأى الشمس تغرب فى عين الخليج الساحلى..

يقول آزاد :

لنضع خريطة الساحل الغربى لآسيا الصغرى.. أمامنا.. نرى فيها معظم الساحل.. قد تقطع فى خلجان صغيرة.. لاسيما على مقربة من أزمير.. حيث يتخذ الخليج صورة عين.. وكانت «ساديز» عاصمة ليديا ـ على مقربة من الساحل الغربى.. ولا تبعد كثيراً عن موقع أزمير الحاضرة..

فلنا أن نقول : إن قورش.. لما تقدم.. بعد استيلائه على «ساديز» العاصمة.. وصل من ساحل بحر إيجه.. إلى مكان قريب من أزمير.. ورأى الساحل.. قد اتخذ صورة تشبه العين وكان الماء قد انكدر من وحل الساحل.. فرأى الشمس تغرب مساء.. فى هذه العين.. وهذا ما عبر عنه القرآن الكريم.. بقوله «وجدها تغرب فى عين حمئة» أى تراءى له.. كأن الشمس تغرب فى بقعة كدرة من الماء..

ولعلنا أدركنا الآن.. قوله تعالى .. عن ذى القرنين «ووجد عندها قوما قلنا ياذا القرنين إما أن تعذب وإما أن تتخذ فيهم حسنا قال أما من ظلم فسوف نعذبه ثم يرد إلى ربه فيعذبه عذابا نكرا، وأما من آمن وعمل صالحا فله جزاء الحسنى وسنقول له من أمرنا يسرا ثم أتبع سببا» ٨٦ ـ ٨٩ ـ الكهف..

فقد حكى لنا التاريخ.. معاملة قورش لهؤلاء القوم .. والإحسان إليهم ـ كما ذكرنا من قبل وخاصة إذا علمنا أن هيرودوتس..

كتب هذا التاريخ قبل ميلاد الإسكندر المقدونى بمائة وستين عاما.. وأنه - أى هيرودوتس - كان يونانيا.. أما قورش فكان فارسيا.. ويعتبر انتصار قورش على كروسس.. فى آسيا الصغرى - .. هزيمة لآلهة اليونان.. التى كان يعبدها كروسس.. ولكن هيرودوتس.. كتب ما كتب عن أخلاق قورش وإنسانيته ومثله العليا.. للحق وللتاريخ..

أما الحملة الثانية :

فكانت إلى مطلع الشمس.. إلى جهة الشرق.. وقد حدثنا مؤرخو اليونان.. على لسان هيرودوتس وغيره.. أن قورش.. بعد أن فتح ليديا فى الغرب.. رأى أن طغيان بعض القبائل الهمجية الصحراوية.. فى الشرق.. يدفعه إلى التوجه إليهم.. وكانوا رحالة.. لا يسكنون مدنا.. ولا يبنون بيوتا.. قال المؤرخون : هى قبائل «بكتريا» .. أى بلخ..لو نظرنا فى الخريطة.. لوجدنا بلخ - وهى فى شمال الهند - بمثابة الشرق الأقصى لإيران.. لأن الأرض بعدها ترتفع وتسد الطريق..

ويظهر أن قبائل «جيد روسيا» كانت قد أخذت تسعى فى الفساد على حدوده الشرقية.. فقام حتى وصل بلخ فاتحا.. والمقصود من جيد روسيا.. البلاد التى تسمى الآن بمكران وبلوخستان (١).

وهذا مطابق تماما.. لقوله تعالى عن ذى القرنين.. فى رحلة الشرق : «حتى إذا بلغ مطلع الشمس وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها سترا» فهم رحالة.. ليست لهم مساكن تحميهم من الشمس «كذلك وقد أحطنا بما لديه خبرا (*) ثم أتبع سببا» ٩٠ - ٩٢/ الكهف.

وأما الحملة الثالثة : التى اتجه فيها.. إلى الشمال.. إلى جبال القوقاز.. بين بحر قزوين «الخزر».. والبحر الأسود..

حيث كانت تغير.. على بلاد السهول.. قبائل تعيش على السطو والنهب.. تأتى من خلف الجبل. من البقعة الشمالية الشرقية.. من الأرض.. وهى منغوليا.. وقبائلها الرحل «منغول».. ليأمن غاراتهم .. على مملكته العريضة.. المترامية الأطراف..

ويحدثنا التاريخ.. عن طريق كتابات سجلها دارا الأول - الذى استولى على الإمبراطورية الفارسية الكبيرة.. بعد قمبيز بن قورش.. سجل كتابات تاريخية على صخور إصطخر.. ومفهومها أنه كانت توجد قبائل همجية.. تغير على آسيا الغربية.. نازلة من جبال القوقاز.. سماهم اليونانيون باسم: «سى تهين» وقد ظهرت هذه القبائل بهذا الاسم.. فى كتابة دارا الأول.. التاريخية.. ولنا عودة إلى كتابة دارا.. هذه.. بإصطخر.. فهى التى ستبين لنا.. دين قورش.. وعبادته.. وأخلاقه.. وتمثاله.. تلك الكتابة التى لم تستطع حملة الإسكندر المقدونى.. أن تخربها.. أو تمحوها.. لأنها فوق الصخور..

ويقول آزاد فى كتابه.. نجزم بأن تلك القبائل الهمجية المغيرة.. هم الذين بنى قورش السد الحديدى لمنعهم.

ويقول المؤرخ اليونانى الكبير «هيرودوتس : إن حدود الآشورين الشمالية.. كانت عرضة لغارات قبائل «سى تهين» المستمرة.. وكانت حدودها.. تمتد إلى جبال أرمينيا.. فكانت تلك القبائل.. تجتاز مضيق القوقاز.. وتشن الغارات.. على شعوب السهول.. وتقدمت جموع كبيرة منها سنة ٦٢٠ ق.م .. ووصلت إلى نينوى.. محطمة فى طريقها إيران الشمالية..

يذكر لنا التاريخ أيضا.. أن منغوليا.. هى مهد الشعوب القديمة.. وهى جزء مرتفع من الكرة الأرضية.. واقع فى الشمال الشرقى.. كان مهدا لشعوب قديمة لا تحصى عددا.. وكان معينا بشريا.. الصين فى شرقه.. وآسيا الغربية والجنوبية فى غربه وجنوبه.. وأوروبا فى الشمال الغربى منه..

يقول هيرودوتس: فى عام ٥٠٠ ق.م .. الزمن الذى ظهر فيه قورش تكونت مملكة ميديا وفارس المتحدة.. فتغيرت الظروف.. وأمنت آسيا الغربية.. من هجمات «سي تهين»..

واندفع سيل جديد من القبائل المنغولية.. فى القرن الثالث.. قبل الميلاد وانصب على الصين.. وقد سمى مؤرخو الصين هذه القبائل «هيونغ نو»..

---

(١) من كتاب آزاد ص ١٣٢.

وفى هذا العصر.. بنى إمبراطور الصين «شين هوانغ تى » ذلك الجدار العظيم.. جدار الصين.. لصد هجمات هؤلاء المغيرين.. ولازال موجودا إلى الآن.. وقد بنى فى سنة ٢٦٤ ق.م/ كما يخبرنا تاريخ الصين.. عن قبيلة أخرى.. من تلك البقعة من الأرض «أرض منغوليا» كانت تعرف باسم «يواش» .. ويقول آزاد.. الوزير الهندى.. يظهر أن هذه الكلمة مازالت تحرف.. عند الأمم.. حتى أصبحت «يأجوج».. فى العبرية(١).

وها نحن نرى الآن .. بعد تلك الجولة التاريخية السريعة .. أن حملات قورش العظيم الثلاث .. هى نفسها .. رحلات ذى القرنين .. التى كانت آخرها.. رحلة القوقاز.. التى أقام فيها السد.. « **حتى إذا بلغ بين السدين وجد من دونهما قوما لا يكادون يفقهون قولا قالوا ياذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون فى الأرض ، فهل نجعل لك خرجا على أن تجعل بيننا وبينهم سدا . قال ما مكنى فيه ربى خير ، فأعينونى بقوة أجعل بينكم وبينهم ردما» ٩٣ - ٩٥ / الكهف..**

٦ يأجوج ومأجوج

جاء ذكر هذا الاسم.. يأجوج ومأجوج فى اليونانية «فاغ ومافاغ» يقول آزاد: ذكرتا هاتان الكلمتان.. بهذا الشكل.. فى الترجمة السبعينية للتوراة.. وانتشرتا بنفس الصيغة.. فى سائر اللغات الأوروبية..

كما جاء هذا الاسم.. فى سفر التكوين.. عند ذكر أبناء أبناء نوح . ففى الإصحاح العاشر: ٢ ـ بنو يافث هم .. جومر، ومادى، وياوان، ومأجوج، وتوبال، وماسك، وتيراس. (١). وأما القرآن الكريم .. فقد ذكر يأجوج ومأجوج فى موضعين: الأول: فى سورة الكهف.. وهو الموضوع الذى نستعرضه الآن مع ذى القرنين..

والموضع الثانى: فى سورة الأنبياء «حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون واقترب الوعد الحق» ٩٦/ الأنبياء .

يقول عنهم أهل التفسير:

لما كان ذو القرنين .. فى بعض ا لطريق .. مما يلى الترك .. من المشرق الشمالى .. قالوا له : ياذا القرنين .. إن بين هذين الجبلين .. خلقا من خلق الله تعالى .. من الكشرة.. بحيث لا يحصرهم عد.. ولا يحدهم حد.. يأكلون العشب.. ويفترسون الدواب كما تفترسها السباع.. ويأكلون حشرات الأرض.. من العقارب والثعابين.. وليس لله تعالى خلق ينمو نماءهم.. فى العام الواحد.. قال الكلبى: حفاة .. عراة.. عماة عن الحق. يتسافدون مثل الكلاب.. ويتهارجون تهارج الحمير..

وقال السدى والضحاك: الترك شرذمة من يأجوج ومأجوج.. خرجت تغير.. فجاء ذو القرنين.. فضرب السد.. فبقيت فى هذا الجانب.. وقالوا: بنى السد.. على إحدى وعشرين قبيلة.. وبقيت منهم قبيلة واحدة.. دون السد.. فهم الترك(٢) ..

وقال ابن عباس..فى تفسير «حتى إذا بلغ بين السدين» إنهما جبلان شمال أرمينية وأذربيجان.. وهو كما ترى نفس موقع جبال القوقاز التى حددها التاريخ عن سد قورش..

---

(١) سفر التكوين الإصحاح العاشر.

(٢) القرطبى وغيره ـ ٩٣ ـ الكهف.

وقد روى عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: « ولد لنوح سام وحام ويافث.. فولد سام العرب وفارس والروم.. والخير فيهم وولد يافث يأجوج ومأجوج والترك والصقالبة.. ولا خير فيهم.. وولد حام القبط والبربر والسودان»..

ونجد هنا أن يأجوج ومأجوج من نسل يافث بن نوح.. كما ذكرت التوراة فى سفر التكوين.. تماما كما روى أبو سعيد الخدرى.. عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: «لا يموت رجل منهم.. حتى يولد لصلبه ألف رجل » يقصد يأجوج ومأجوج.. وهذا أيضاً.. رأى المؤرخين اليونانين.. من حيث كثرة توالدهم.. وتكاثرهم..

وفى حديث عبدالله بن مسعود.. سألت النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن يأجوج ومأجوج.. فقال: «يأجوج ومأجوج أمتان.. كل أمة.. لا يعلم عددها إلا الله تعالى.. لا يموت الرجل منهم.. حتى يولد له ألف ذكر.. من صلبه.. كلهم قد حمل السلاح(١)».. كانوا يخرجون.. من مضيق جبل القوقاز.. أيام الربيع.. فلا يتركون شيئاً أخضر.. إلا أكلوه.. ولا يابسا.. إلا احتملوه.. كما قيل:إنهم كانوا يأكلون الناس(٢).

كما قالوا: الناس عشرة أقسام.. تسعة منها.. يأجوج ومأجوج كانوا قوما..لغتهم غريبة.. لا يمكن التخاطب معهم.. لا يفهمون ولا يفهمون «حتى إذا بلغ بين السدين وجد من دونهما » أى من خلف الجبلين «قوما لا يكادون يفقهون قولا».. **ولهذا قال الناس له: «قالوا ياذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون فى الأرض، فهل نجعل لك خرجا على أن تجعل بيننا وبينهم سدا»..**

وهنا تظهر عزة الإيمان . . وعفة الإحسان . . فى ذى القرنين . . فيرفض أخذ الخراج والضريبة. . التى فرضوها على أنفسهم . . نظير قيامه . . بعمل سد . . بينهم وبين هؤلاء المفسدين فى الأرض . . فيقول لهم:«قال ما مكنى فيه ربى خير» أى ما أعطانى من النعم والخيرات . . والتمكين فى كل شىء . . خير مما تعرضونه على من أموال . . ولا أطلب منكم.. إلا المساعدة.. بفعلة وصناع مهرة.. يحسنون البناء.. ويجيدون العمل بالآلات.. «فأعينونى بقوة أجعل بينكم وبينهم ردما».. كان بين الجبلين مائة فرسخ (٣).

فأمر ذو القرنين.. بحفر الأساس.. حتى بلغ الماء.. وجعل الأساس من الصخر.. وأمر بوضع طاقة من قطع الحديد والحجارة ثم يوقد عليها الحطب والفحم بالمنفاخ.. حتى تحمى.. وإذا انصهر الحديد..صار ناراً.. ثم يؤتى بالنحاس المنصهر..فيفرغ على تلك الطاقة المستوية.. فإذا التأم واشتد.. ولصق البعض بالبعض.. استأنف وضع طاقة أخرى.. إلى أن استوى العمل.. فصار جبلا صلدا..

يقول القرطبى: عرضه سبعون فرسخا.. وارتفاعه مائتا ذراع وخمسون ذراعاً (٤).. ويصور لنا القرآن الكريم هذا العمل.. بقوله على لسان ذى القرنين «آتونى زبرالحديد حتى إذا ساوى بين الصدفين، قال انفخوا، حتى إذا جعله ناراً قال آتونى أفرغ عليه قطرا، فما اسطاعوا أن يظهروه، وما استطاعوا له نقبا » ٩٦/ ٩٧ الكهف..

وزبر الحديد: هى القطع الكبيرة.. والقطر: هو النحاس المذاب.. ومنه قوله تعالى: عن سليمان ـ عليه السلام-:«وأسلنا له عين القطر»..

والصدفان: الجبلان.. وبهذا السد بين جبال القوقاز.. صارا بابا مقفلا منيعا.. لسلامة سائر بلاد آسيا الغربية..

فأمنت جميع الشعوب.. التى تسكن آسيا الغربية.. حتى مصر من جهة الشمال.. وصارت تلك البلاد كلها فى مأمن من الغارات ولهذا قال لهم ذو القرنين:«هذا رحمة من ربى»..

وهكذا ترى المؤمن دائما.. لايسند عمل الخير إلى نفسه.. وإنما يسنده إلى الله تعالى.. مدبر الأمور.. ومسبب الأسباب ..

---

(١) القرطبى ٩٤/ الكهف.

(٢) النسفى والبيضاوى ٩٤/ الكهف.

(٣) النسفى والقرطبى وغيرهما ٩٧/ الكهف والفرسخ ثلاثة أميال.

(٤) المصدر السابق.

قال قتادة .. عن السد: هـو كالبرد المحبر (١) : . طريقة سوداء وطريقة حمراء .. ويروى أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم ـ جاءه رجل.. فقال: يارسول الله.. إنى رأيت سد يأجوج ومأجوج.. قال : «كيف رأيته»؟ قال: رأيته كالبرد المحبر.. طريقة صفراء.. وطريقة حمراء.. وطريقة سوداء..فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ «قد رأيته» (٢)..

كما جاء فى التوراة .. فى سفر حزقيال .. تنبؤات عن يأجوج ومأجوج فى الإصحاحين الثامن والثلاثين والتاسع والثلاثين .. ففى الإصحاح ٣٨ يقول حزقيال :

١ ـ وكان إلى كلام الرب قائلا ـ ٣ ياابن آدم اجعل وجهك على « جوج » أرض « مأجوج » رئيس مسك وتوبال ، وتنبأ عليه ـ ٣ ـ وقل هكذا قال السيد الرب. ها أنذا عليك يا « جوج » رئيس مسك وتوبال...(٣)

وقد تردد فى الإصحاحين ٣٨و٣٩.. تلك العبارة « جوج رئيس مسك وتوبال » عدة مرات.

وقد استنتج آزاد.. من هذا.. أن تلك النبوة.. فى سفر حزقيال.. قد صورت موقع يأجوج ومأجوج الجغرافى.. فمسك.. هى «موسكو» (٤).. **أما توبال.. فهى بلاد البحر الأسود المرتفعة..**

□ □ □

---

(١) البرد المحبر: أى الرداء الملون..

(٢) القرطبى ٩٦/ الكهف.

(٣) حزقيال ـ ص ٣٨/ ١-٣ .

(٤) من كتاب آزاد ص ١٧٠ .

٧ دين قورش ولمحة

عن دين «زرادشت»

بعد تلك الرحلة.. التى طفنا فيها .. غرب الأرض وشرقها.. مع قورش.. فى نور التاريخ .. **واتجهنا معه فيها إلى الشمال.. حيث أقام السد الحديدى بين جبال القوقاز .. ورأينا مدى تطابقها مع رحلات ذى القرنين غربا وشرقا** .. وإقامته سد يأجوج ومأجوج .. التى صورها لنا القرآن الكريم .. يهمنا بالدرجة الأولى .. أن نعرف الدين الذى كان يعتنقه قورش ... حتى نقارن بينه وبين ذى القرنين .. المؤمن الموحد ..الذى ارتفع به عمر بن الخطاب .. وعلى بن أبى طالب .. إلى درجة الملائكة .. كما ذكرنا من قبل .. بخلاف الإسكندرالمقدونى .. الذى مات .. وهو يدعى الإلوهية .. وقتل فى سبيل دعواه هذه ... صديقا مخلصا وفيا .. هو كليتوس .. كما رأينا فى حنايا التاريخ ..

وقد هيأ الله ـ سبحانه ـ لنا سبيل التعرف على دين قورش ـ تاريخيا ـ بكتابات تركها لنا «دارا الأول » ويسمونه دارا يوش .. وهو ابن عم قورش .. وخلفه فى الحكم بعد وفاته بثمانية أعوام فقط (١) ... ترك دارا تاريخا حافلا .. على أحجار إصطخر .. التى كانت عاصمة إيران القديمة ..

يقول آزاد : إنه رأى هناك تمثالا حجريا لقورش بعينه .. وجدوه منصوبا .. فى مكان يبعد عن إصطخر .. بنحو خمسين ميلا .. على شاطئ نهر «مرغاب» ...وهو تمثال .. على القامة الإنسانية .. ظهر فيه قورش.. وعلى جانبيه جناحان.. كجناحى العقاب.. وعلى رأسه قرنان كقرنى الكبش.. يده اليمنى ممتدة يشير بها إلى الأمام.. ولباسه نفس ذلك اللباس.. الذى نراه فى صور ملوك بابل وإيران..

ولعلنا نذكر رؤيا دانيال النبى.. التى ذكر فيها.. أنه رأى كبشا على رأسه قرنان... الواحد منهما وراء الآخر.. وهكذا نرى القرنين فى التمثال..

---

(١) من موسوعة تاريخ العالم.. لوليام لانجز.

وقد نقل آزاد فى كتابه عن ذى القرنين.. رسما لتمثال قورش.. رسمه السير رابرت كيربورتر.. ونشره فى كتاب «رحلة إلى إيران وجورجيا».. قبل ١٨٥١..

وقبل أن تشغلنا كتابات دارايوش الأول.. التى سجلها على صخور إصطخر.. عن الديانة التى كان يعتنقها هو وسلفه قورش.. أريد أن أعرض لمحة سريعة من التاريخ.. عن الديانة التى كان يدين بها الفرس.. فى تلك الحقبة من الزمن.. وما قبلها بقليل.. لتكون أقدامنا ثابتة.. ويقيننا قويا.. فيما نكتب أو نقرأ أو نفهم..

لم ير التاريخ القديم.. إلا دعوتين تدعوان إلى التوحيد.. فى العالم الوثنى... وهما دعوة إبراهيم - عليه السلام - من الشعوب السامية.. ودعوة زرادشت من الشعوب الآرية..

فنجد فى صفحة ٩١ من الجزء الأول - من موسوعة تاريخ العالم التى أصدرها وليام لانجز.. ما يمكن تلخيصه.. فيما يأتى: -

كانت الزراد شتية.. عبارة عن إصلاح للديانة الآرية القديمة.. القائمة على تعدد الآلهة.. وربما ولد زرادشت.. فى ميديا.. حوالى ٦٦٠ ق.م (١)... ولكن يظهر أنه عاش فى باكتيريا «بلخ».. حيث يروى أنه **اجتذب الملك واسمه «هيستابس» إلى دينه.**

وقد جمعت تعاليم هذا الدين.. فى كتاب.. اسمه «أفستا» من خمسة أجزاء.. بها ترانيم.. وتعاليم.. وطقوس دينية وأخلاقية..وصلوات وعبادات.. به نواة المذاهب الكبرى.. للزراد شتية التامة: أى التوحيد... والخلاص العام.. والحرب الكونية بين الخير والشر.. وما يجب على كل شخص أن يعمله لخلاص نفسه.. وخلاص الكون بالطاعة لأوامر الإله الطيب «أهورامزدا» أى سيد العقل.. وطبعا يقصد هنا الله - سبحانه وتعالى - وفى الأجزاء الأخيرة من «أفستا» الذى هو اسم كتاب زرادشت.. يسمى إله الشر أو الجن الأكبر.. باسم «أهريمان»..أى الروح الشريرة.. وواضح أنه يقصد هنا «إبليس»..

ثم يقول زرادشت فى تعاليمه:

وبعد الموت.. يعبر الطيبون جسر «كنفات» يقصد الصراط - حيث يلاقون ثوابهم.. أما الخبيثون.. فيقعون من هذا الجسر ويعذبون فى بيت الأكاذيب..

هذا موجز تاريخى عن دين زرادشت (٢)

ولعل الفقرة الأخيرة.. التى ذكر فيها زرادشت.. الإله الطيب.. باسم «أهورامزدا».. وإله الشر.. باسم «أهريمان».. جعلت الكثير من رجال الفكر.. يعتقدون أن الزرادشتية قائمة على المثنوية أى اعتقاد وجود إلهين اثنين فى الكون.. إله للخير.. وإله للشر.. كما كان المجوس يعتقدون.. قبل زرادشت..وهذا الظن خطأ محض.. فزرادشت جعل أصلين كونيين : أصل للخير.. وأصل للشر.. ولم يقل بإلهين متوازيين..

ويقول آزاد.. حول هذا الموضوع: أن زرادشت.. يقول بالأخلاق الثنوية.. لا بالإلوهية الثنوية.. ففى الكون أصلان: أصل للخير.. وأصل للشر.. والذى يجلب الشر هو «أهرمن» أى الشيطان فى لغته.. هذه الثنوية... بهذا المعنى.. موجودة فى الأديان المعروفة...

اليهودية.. والنصرانية..والإسلام.. فكلها تقول بوجود الشيطان أصل الشر...

ولعلنا بعد هذا العرض السريع.. للدين السائد... فى تلك البلاد.. فى هذه الحقبة الزمنية.. التى ظهر فيها قورش.. وخلفه دارايوش الأول.. نستطيع أن نستعرض صخور «إصطخر» نقرأ معا فيها.. بعض ماكتبه دارايوش عن ديانته هو وسلفه وابن عمه قورش..

وقد أورد لنا الأستاذ الكبير.. أبو الكلام آزاد.. وزير المعارف الهندى.. فى كتابه عن ذى القرنين.. الكثير مما رآه منقوشا على تلك الصخور.. ويقول:

(١) نلاحظ أن زرادشت كان قبل قورش بزمن وجيز لا يزيد على بضع عشرات من السنين.. حيث كان ظهور قورش سنة ٥٥٠ ق.م .

(٢) من موسوعة تاريخ العالم لوليام لانجز .

أما كتابات دارايوش.. فإن من حسن حظ التاريخ.. أنه اختار لها الصخور الجبلية.. التي عاشت.. على رغم الدمار الإسكندرى.. وأهم هذه الكتابات.. كتابات ذكرفيها..تفصيل ارتقائه العرش.. وثورة «غوماتا.. المجوسى» أ. هـ .

وهذه الثورة... ثورة غوماتا.. التى يشير إليها آزاد.. هى حادثة تاريخية ثابتة.. حدثت بعد وفاة قورش بثمانية أعوام.. فقد أجمع المؤرخون.. على أن قورش توفى سنة ٥٢٩ ق.م وخلفه ابنه كمبوشية «قمبيز الأول» (١). الذى استولى على مصر فى سنة ٥٢٥ ق.م .. وعلم وهو بمصر.. أن ثورة نشبت فى ميديا.. العاصمة.. قام بها شخص اسمه غوماتا، وادعى أنه الولد الثانى لقورش.. وطالب بالملك لنفسه.. فرجع قمبيز من مصر.. إلا أنه مات بالشام.. قبل وصوله إلى ميديا.. فارتقى العرش «دارايوش» ابن عم قورش.. لعدم وجود أخوة لقمبيز.. وقضى على الثورة.. وقتل زعيمها..

وأجمع المؤرخون.. على أن دارايوش.. استولى على حكم الإمبراطورية الفارسية سنة ٥١٢ ق.م ..

ونعود إلى صخور إصطخر.. فنجد على أحجارها كتابات كتبها دارايوش وقد تكرر فيها اسم «أهورا مزدا».. الذى يرجع الملك جميع مساعيه الناجحة.. إلى فضله وتوفيقه..

وقد علمنا.. سابقا.. أن «أهورا مزدا» هو الله.. فى الدين الزرادشتى.. وقد وجدنا أن الدين الزرادتشى.. يقوم على أسس أخلاقية مثلى.. «هومت» و «هوخت» و«هوروشت» ومعناها بلغة العرب: صدق النية..وصدق القول.. وصدق العمل (٢)

فإذا كان ذو القرنين يدين بدين زرادشت .. فقد أثبت له القرآن الكريم .. الإيمان بالله واليوم الآخر.. بل وجعله من الملهمين من عند الله تعالى - أليس معنى هذا .. أن دين زرادشت كان دينا صحيحا إلهيا؟ .. ويعتقد الكثير الآن .. خطأ .. أن دين زرادشت هو دين المجوسية..وعبادة النار وتلك عبادات دخيلة على الدين الزرادشتى.. كما سنبين ذلك فيما بعد.. لأن زرادشت كان أكبر حرب ضد المجوسية بجميع صورها..

لقد ثبت نهائياً.. أنه دين التوحيد والأخلاق الفاضلة.. وأن عبادة النار.. والعقيدة الثنوية.. التى نسبتا إليه.. ليستا منه بل من بقايا المجوسية.. التى **اختلطت بالزرادشتية.. فى العصور التالية.. بعد تخريب الإسكندر المقدونى لتلك الديار..**

لقد بلغ الدين الزرادشتى مجده.. فى عصر قورش.. ودارايوش.. وها نحن نرى الإمبراطور دارا.. يردد صوت الدين.. فى كتابته الخالدة.. على الصخور.. فيقول فى أحدها بالنص:

إن الإله العلى «أهورا مزدا» هو الذى خلق الأرض.. ورفع السماء.. وفتح سبل السعادة على البشر.. وهو الذى أقام دارايوش وحده حاكما على الكثيرين.. وجعله واضع الشرائع لهم..

ويقول فى كتابة أخرى :-

«**يعلن دارايوش للناس قاطبة..** بأن أهورامزدا» قد وهبنى الملك بفضله ورحمته.. وقد نجحت بتوفيقه تعالى.. فى تدعيم الأمن والسلام فى الأرض.. وإنى أبتهل إلى أهورامزدا «إلهى أن يرعانى.. أنا وأسرتى.. وجميع البلاد.. التى جعلنى حاكما عليها.. يارب» «أهورامزدا» «اسمع دعائي واستجبه»...

وكذلك يقول فى غيرها .. - «يا أيها الإنسان .. أمرك «أهورامزدا» ألا تخوض قط فى الشر .. ولاتحيد عن الطراط المستقيم أبدا.. واحذر الإثم فى جميع الأحوال «وأن ما يقوله دارايوش .. كأنه قول قورش نفسه.. وأن نسبة دارايوش ملكه ونجاحه إلى فضل «أهورامزدا» وتوفيقه ورحمته تطابق قول ذى القرنين.. فى القرآن الكريم «هذا رحمة من ربى» ..

إن الدين الزرادشتى .. حارب المجوسية .. بقوة ولم ترفع المجوسية رأسها.. إلا فى القرن الثالث

(١) موسوعة تاريخ العالم ص ٩٣ جـ١ .

٢) آزاد ص ١٤٨ .

القرن الثالث.. قبل الميلاد.. بعد قورش وذارايوش بمائتي عام..

حقا إن حرب الإسكندر المقدوني.. قضت على الإمبرطورية الفارسية..سياسيا ودينيا..

وقد أثبت التاريخ.. أن غارة بختنصر.. قضت على التوراة.. وأن غارة الإسكندر المقدوني.. قضت على كتاب زرادشت.. ففقد الدين اليهودى.. والدين الزرادشتى.. معظم عناصرهما..

وقد حاول الفرس.. بعد خمسمائة سنة من الإسكندر..فى أيام أزدشير.. أن يجمعوا كتاب زرادشت.. من جديد.. كما حاول عزير من قبل يجمع التوراة.. التى خربها بختنصر.. ولكن الحقيقة تاهت فى الديانتين.. بين الكثير من التحريفات والمدسوسات.. فجاءت التوراة.. محرفة.. كما جاءت الزرادشتية.. خليطا من المجوسية القديمة واليونانية.. والزرادشتية..

ويقول آزاد :

وزاد الطين بلة.. المفسرون بحواشيهم وشروحهم وتفاسيرهم.. التى ذهبت بالدين.. بعيدا عن أصله.. وهناك أسطورة فارسية تقول :-

إن صحيفة زرادشت الدينية المقدسة.. كانت قد دونت فى جلود اثنى عشر ألف ثور.. بحبر من الذهب.. واحترقت كلها أيام حرب الإسكندر(١). ولاشك أن عدد الجلود مبالغ فيه..

وقد ثبت أن الإسلام.. عامل الدين الزرادشتى.. معاملة اليهود والنصارى..حيث قال عليه السلام: «سنوابهم سنة أهل الكتاب».. كما روى عن على ابن أبى طالب.. أنه قال عن الزرادشتيين: عندهم شريعة يعملون بها.. وكتاب يؤمنون به.. فعاملوهم معاملة أهل الكتاب (٢)...

ونحن نعلم.. أن الإسلام.. يؤمن بأصول دين اليهود والنصارى.. وفى نفس الوقت.. ينكر عقائدهم المحرفة المبدلة.. وهذا ما فعله حيال الدين الزرادشتى.. فلم ينكر أصله بل أنكر المجوسية التى دسوها فى هذا الدين.. تحريفا وتبديلا..

ويقول آزاد.. ونحن نؤيد ما يقوله

مازال المسلمون يرون أن دين زرادشت.. فى أصله.. لم يأمر بعبادة النار.. بل أمر بالتوحيد.. وأن زرادشت.. كذلك.. كان نبيا من الأنبياء القدماء(٣)...

وقد ذكر الفردوسى.. صاحب «شاه نامه» الخالدة.. هذا الرأى.. فى أشعار ذكرها آزاد.. بلغتهم.. ومعناها: **لاتقل عن الزرادشتين أنهم كانوا يعبدون النار.. بل كانوا يعبدون الله الواحد..**

□ □ □

(١) آزاد ص ١٥٧.
(٢) آزاد ص ١٥٨.
(٣) آزاد ص ١٥٩.

٨ مبادىء وأخلاق قورش
"ذى القرنين"

الأصل فى الدين الزرادشتى.. الذى يدين به قورش «ذو القرنين».. أنه دعوة حق.. وأن المجوسية.. وعبادة النار.. دخيلة عليه.. ويكفينا.. أن نسمع صوت زرادشت.. وهو يهاجم المجوس القدماء.. قائلا: ـ

ليس هناك قوى روحية كثيرة للخير.. ولا عفاريت كثيرة للشر.. بل هو إله واحد.. اسمه «أهورامزدا».. الذى ليس كمثله شىء.. وهو الواحد الأحد.. القدوس الصمد.. وهو الحق والنور.. وهو الحكيم القادر الخالق الذى لا يشاركه فى ملكه وربوبيته شىء وأن القوى الروحية.. التى زعموها خالقة للخير.. ليست بخالقة.. بل هى نفسها من خلق «أهورامزدا».

هذا هو الدين الذى اعتنقه قورش.. وسجله خليفته دارايوش فوق صخور إصطخر.. بإيران.. وتلك هى أخلاقه.. ومُثله العليا .. التى ضربها للبشرية.. ومازال صداها يدوى فى أسماع التاريخ من ألفين وخمسمائة سنة.

وهذا هيرودوتس.. أبو التاريخ القديم.. الذى وجد بعد قورش بسنوات قليلة.. يقول:

كان قورش.. ملكا كريما جوادا سمحا للغاية.. لم يكن حريصا على جمع المال كغيره من الملوك.. بل كان حرصه على الكرم والعطاء.. يبذل العدل للمظلومين.. ويحب كل ما فيه خير البشر.. ويقول عنه.. زينوفن ـ المؤرخ اليونانى المعروف:

كان ملكا عاقلا رحيما.. اجتمعت فيه.. مع نبل الملوك.. فضائل الحكماء.. همته تفوق عظمته.. وجوده يغلب جلالته.. خدمة الإنسانية شعاره.. وبذل العدل للمظلومين دينه.. حل فيه.. مكان الكبر والعجب ـ التواضع والسماحة.

وقد دفع هذا آزاد.. لأن يقول عنه بالنص:

وأظهر ما نجد فى صفحات هؤلاء المؤرخين.. هو رفعة شخصية قورش الفذة.. فقد أجمعوا على أنه.. لم يكن من نبت عصره.. بل شخصا فذا.. كأنه سبق خلق عصره.. لم يعلمه معلم.. ولم يربه حكيم.. ولم ينشأ فى بلد متحضر.. وإنما كان ربيب الفطرة.. وصنيع أيدى الحكمة الأزلية.. مضت الأيام والليالى من حياته .. فى حجر الصحارى .. وكنف الجبال .. كان من رعاة الصحارى الشرقية من فارس .. فواعجبا .. لما برز هذا الراعى.. أمام أعين العالم.. كان أكبر مظهر للحكم.. وأعظم شخصية للحكمة والفضيلة. أ. هـ أليست تلك

الصورة.. التى يعرضها علينا التاريخ.. توحى إلينا بصورة ذى القرنين الممدوح فى الكتاب الكريم؟.

وتلك أيضا شهادة محققى التاريخ فى العصر الحاضر.

يقول مستر غراندى.. أستاذ جامعة أكسفورد.. والمتخصص الثقة فى التاريخ القديم.

يقول: لا ريب كانت شخصية قورش.. شخصية فذة.. غير عادية.. فى عصره.. فإنه أحدث فى قلوب الشعوب.. المعاصرة له.. أثرا يحير الألباب.. وقد ألف زينوفن ـ تلميذ سقراط ـ سوانح حياته.. بعد موته.. بمائة وخمسين سنة.

وإنا لنرى فى جميع الروايات..فضائله الإنسانية بارزة.. وسواء اهتممنا بها.. أم لم نهتم.. إلا أنه لا مناص لنا.. من الاعتراف.. بأن حبل سياسة ملكه.. كان مرتبطا بمحاسنه الأخلاقية.. وفضائله الإنسانية.

وإذا لاحظنا سلوكه.. مع ما كان عليه ملوك الآشور وبابل.. من السيرة نجده يتلألأ تلألؤا عظيما رائعا.

ثم يقول غراندى:

لقد كان نجاحه . .نجاحا عظيما . . كان قبل اثنتى عشرة سنة . . أميرا مجهولا . . لإمارة مجهولة .. فإذا هو نراه الآن . . وقد خضعت له جميع تلك البلاد . . التى كانت مراكز العظمة للشعوب الكبيرة السابقة . . فمن بلاد « سارغون» الملك الأساطيرى للمملكة الآكادية .. إلى بلاد بختنصر .. إمبراطور بابل .. سجدت كلها لهذا الإمبراطور الفاضل الجديد .. إنه لم يكن فاتحا عظيما.. بل حاكما كبيرا كذلك.. وأن الشعوب.. لم تقبل الدور الجديد فقط.. بل رحبت به أيضاً.. ففى السنين العشرة الأخيرة من حياته.. بعد فتح بابل.. لم تحدث ولا ثورة واحدة.. فى مملكته الواسعة.. أجل كانت رعيته تهابه.. ولكن لا تخشى قسوته.. إذ أن حكومته.. لم تعرف عقاب القتل والسلب والنهب.. بل كان الأمن والسلام يشمل الجميع.. وترفرف الطمأنينة والرفاهية على الكل.

قد محيت آثار مظالم الملوك الآشوريين والبابليين.. ورجعت الشعوب المنفية إلى أوطانها.. وأعيدت إليها معابدها.. لم يبق اعتساف ضد العوائد والعبادات القديمة.. بذل العدل لسائر الشعوب.. ومنحت الحرية التامة.. لجميع الأديان والمذاهب.. وقد حل محل الخوف العام السابق.. عدل عام.. وسماحة كريمة.. ومساواة تامة[1].

أرأيت أيها القارىء.. هذا الإجماع الرائع.. على مدح قورش العظيم.. وعدله.. ورحمته.. ورقته.. وقوته.. وهيبته.. وجلاله.. أرأيت كيف اتفق التاريخ القديم.. مع التاريخ الحديث.. على إبراز تلك الشخصية الفذة العجيبة.. شخصية إنسان.. من أبناء الفطرة.. التى خَرَّجَتْ من قبله إبراهيم – عليه السلام ـ ومن بعده خاتم الأنبياء وإمام المرسلين.. محمدا صلى الله عليه وسلم.

وهل رأيت كيف جالت الأقلام.. وصالت الأفهام.. فى وصف شخصيته وأخلاقه ومبادئه ومُثُله.. تلك الأخلاق والمبادىء والمثل.. التى **ذكرها القرآن الكريم عن ذى القرنين فى سطور قليلة.. حددت لنا تلك الصورة الجليلة الرهيبة فى عبارات موجزة؟.**

□ □ □

(١) من كتاب تاريخ العالم لهمرتن جـ ٢ ص ١٠٨٥ نقلا من كتاب آزاد..

٩ خاتمة حول السد والشيوعية

قرأت عن سد ذى القرنين.. أحاديث صحيحة.. وردت فى كثير من كتب التفسير.. وكلها تفيد.. أن هذا السد.. قائم إلى الآن.. وأن خلفه قوما يحاولون اجتيازه ولن يجتازوه إلا فى العصور الأخيرة.. من عصور البشرية.. وأنهم سيكونون فتنة للناس.. فى دينهم ودنياهم.

وما زلنا نذكر فى سفر حزقيال.. فى الإصحاحين الثامن والثلاثين والتاسع والثلاثين.. عن وصف «جوج».. بأنه رئيس مسك.. وتوبال.. واستنتج آزاد من هذا.. أن مسك أُشتق منه اسم موسكو.. وتوبال.. هى بلاد البحر الأسود المرتفعة.

ولو وضعنا أمامنا أطلسا جغرافيا.. لوجدنا أن منطقة موسكو وبلاد شمال البحر الأسود.. هى مصادر الشيوعية العالمية.. وفى نفس الوقت تقع خلف جبال القوقاز.. وفى نفس الوقت أيضاً.. نجد أن الشيوعيين من الكثرة العددية.. بحيث ينطبق عليهم قول الله ـ تبارك وتعالى ـ فى سورة الأنبياء :

«حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون» ٩٦/ الأنبياء.. ولا شك أن هذا أمر يلفت النظر..

فها نحن نرى الشيوعية.. فى عصرنا الحديث.. تزحف على الشعوب الآمنة.. من كل فج.. وكأنها طوفان.. انحدر من شمال الأرض وشرقها.. ليغرق البشرية بأفكار تنحط بالإنسان من أعلى عليين.. إلى أسفل سافلين.. وتنحدر به.. من عالم الروح والنور.. إلى عالم أحط من عالم الأنعام.. عالم المادة ـ فقط ـ الذى يحيا من أجله أقل الحيوانات.. وأدنى الحشرات.

وأبلغ وصف لتسللهم بين الأمم.. هو قوله تعالى «وهم من كل حدب ينسلون».

وقد روى أبو داود.. عن أبى بكرة.. أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال :

«ينزل ناس من أمتى بغائط(١) .. يسمونه البصرة .. عند نهر يقال له دجلة يكون عليه جسر.. يكثر أهلها .. وتكون من أمصار المهاجرين» قال ابن يحيى.. قال أبو معمر : «وتكون من أمصار المسلمين .. فإذا كان آخر

---

(١) الغائط: المكان المطمئن من الأرض..

الزمان.. جاء بنو قنطوراء.. عراض الوجوه.. صغار الأعين.. حتى ينزلوا على شاطىء النهر.. فيتفرق أهلها.. ثلاث فرق: فرقة يأخذون أذناب البقر والبرية.. وهلكوا.. وفرقة يأخذون لأنفسهم.. وكفروا.. وفرقة يجعلون ذراريهم خلف ظهورهم ويقاتلونهم وهم الشهداء»(١).

ولعل دقة الوصف ظاهرة.. في قوله ـ عليه الصلاة والسلام عن بني قنطوراء.. «عراض الوجوه.. صغار الأعين» أليس هذان الوصفان.. من أهم مميزات الجنس الشيوعي؟ .. لا شك أن الشيوعيين.. همَ بنو قنطوراء.. وهم بوادر يأجوج ومأجوج.

ولكنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ أرسل السكينة.. عبر الأحقاب.. إلى قلوب أجيال المسلمين.. الذين يواجهون بني قنطوراء.. ونكرر قولنا بأنهم هم الشيوعيون.. وأنهم بواكير يأجوج ومأجوج.. أرسل لنا ـ عليه الصلاة والسلام ـ السكينة.. في حديث.. جاء مرفوعا.. من حديث أبي هريرة.. خرجه ابن ماجه.. في السنن قال في نهايته.. بعد أن تحدث ـ عليه الصلاة والسلام عن يأجوج ومأجوج خلف السد.. ومحاولتهم اجتيازه.. قال :

«ويخرجون على الناس.. فينشفون الماء.. ويتحصن الناس منهم في حصونهم.. فيرمون بسهامهم إلى السماء.. فيرجع عليها الدم.. فيقولون قهرنا أهل الأرض.. وعلونا أهل السماء فيبعث الله ـ تعالى ـ عليهم نغفا (٢) في أقفائهم فيقتلهم بها» ثم قال «والذي نفسي بيده إن دواب الأرض لتسمن وتشكر شكرا من لحومهم (٣)».

وقال لي صديق: إنه رأى أول سفينة فضاء روسية .. عادت من الجو حمراء كالدم .. بعد أن كانت بيضاء.. وذلك بفعل التغيرات الجوية.. فهل لهذا الأمر علاقة.. بسهام بني قنطوراء التي قال الحديث عنها إنها ترجع عليها الدم؟ وكلنا يذكر قول جاجارين.. أول من ركب سفينة الفضاء.. نذكر قوله : بحثت عن الله في السماء .. فلم أجده.. فهل لهذه العبارة علاقة بقول الحديث عنهم أنهم يقولون : قهرنا أهل الأرض وعلونا أهل السماء ؟.

فأين هذا السد - إذاً - جغرافيا؟ وقد انكشف لنا سطح الأرض تقريبا.. كصفحة كتاب.. تحت منظار البشرية.. المتمثل في الأقمار الصناعية المتجسسة؟.. وإن كان العلم يعترف بأنه مازالت في الأرض أماكن لم تكتشف بعد.

غير أننا مادمنا قد استطعنا تحديد المكان.. الذي أقيم فيه السد.. تاريخيا ودينيا.. بأنه في سلسلة جبال القوقاز.. فلندرس هذا الموقع جغرافيا.. لنرى.. هل يوجد في تلك المنطقة.. سد حديدي.. بين جبلين.. وصفه القرآن الكريم.. بأنه من الحديد المنصهر.. الذي صب عليه النحاس المذاب؟.

فنجد في المنطقة.. التي يحدها بحر قزوين «الخزر» من الشرق.. والبحر الأسود من الغرب.. نجد جبلين عظيمين.. يسدان الطريق.. بين الشمال والجنوب.. ولا يوجد بينهما غير مضيق واحد.. يسمى مضيق داريال.. وفي هذا المضيق.. يوجد سد حديدي.. قفل باتصاله بالجبلين الطريق الذي كان مفتوحا.. للعبور بين الشمال والجنوب.

وقد سمي هذا السد الحديدي.. في اللغة الأرمنية.. من الدهور السالفة.. «هاك غورائي» و«كابان غورائي» ومعنى العبارتين «مضيق غورش» وغورش.. هو قورش.. ونأخذ من هذا.. أن ذلك السد.. هو سد قورش «ذي القرنين» من غير شك.. وهناك دليل آخر من لغة بلاد جورجيا.. **التي هي القوقاز نفسها.. حيث سمي هذا المضيق باللغة الجورجية .. من قديم الزمان.. باسم «الباب الحديدي» وسمي بهذا الاسم أيضا في اللغة التركية.. وهو مشهور عندهم إلى الآن.**

ويوجد جدار حجري.. في تلك المنطقة.. من قديم الزمان يسمى جدار دربند.. ظنه بعض المفسرين أنه هو سد يأجوج ومأجوج.. ولكن هذا خطأ.. لسببين:

السبب الأول: أن سد ذي القرنين.. وصفه القرآن الكريم.. بأنه بين جبلين وجدار دربند.. ليس بين جبلين.

---

(١) القرطبي ٩٤ / الكهف .

(٢) النغف بالتحريك : دود في أنوف الإبل والغنم ..

(٣) القرطبي ٩٤ / الكهف.

والسبب الثانى : أن صفة سد ذى القرنين فى القرآن.. أنه من الحديد والنحاس وهذا من الحجر.. وليس فيه حديد ولا نحاس (١).

ولعل الخطأ الذى وقع فيه بعض المفسرين.. بقولهم : إن جدار دربند.. هو سد ذى القرنين.. راجع إلى عدم معرفتهم بمضيق داربال.. وجداره الحديدى..

فلم يجدوا فى هذا المكان غير جدار دربند فظنوه السد.. المذكور فى القرآن الكريم.

إن سد يأجوج ومأجوج.. الذى رفعه ذو القرنين.. هو «سد قورش» فى اللغة الآرمنية.. أو «الباب الحديدى» كما تسميه اللغة الجورجية.. وهاتان شهادتان.. كما قال آزاد ـ تعتبران شهادة يقينية.. لأن الأرمنيين والجورجيين.. هما أقرب البلاد إلى مضيق داريال.. الذى أقيم فيه هذا السد الحديدى.

وإلى بطن الحوت لنسبح فيه.. مع رسول الله «يونس بن متى» عليه السلام ـ إن شاء الله .

□ □ □

(١) هذا الموضوع بتفصيل تاريخى جغرافى دقيق فى كتاب «ويسألونك عن ذى القرنين» لآزاد ص ١٧١ وما بعدهما.. لمن يريد التوسع..

«ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم»

(٤٨ ـ القلم)

○ من نبأ
يونس " صاحب الحوت "

١ الرســـالـــة

أرسل الله ـ تعالى ـ يونس بن متى ـ عليه السلام ـ من أرض الموصل.. إلى أهل نينوى.. لما انتشر فيها الفســاد.. وعبدوا الأصنام.. وكفـروا بخالقـهم ورازقـهم.. وكانوا أكـثر من مـائة ألف.. «وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون» ١٤٧ / الصافات..

قـال ابن عـبـاس ـ رضـى الله عنه ـ: زادوا على المائة ألف.. عشـرين ألفا.. سـماه الله «ذا النون» أى صاحب الحوت ـ لأن النون هو الحوت.. وذو معناها صاحب.

وقـال على بن أبى طـالـب: بعث الله يـونس بن متى.. إلى قـومه.. وهو ابن ثلاثين سنة.. فأقام فـيهم يدعوهم إلى الـله.. ثلاثا وثلاثين سنة.. فلم يؤمن به إلا رجـلان.. أحدهمـا اسـمه «روبيل».. وهو عـالم حكيم.. وثانيـهـمـا اسـمـه «تنوخـا».. وهو عـابد زاهد(١).

وطال الزمن بيونس ـ عليـه السلام ـ وهو يحاول جـاهدا.. أن يسـتـجـيـبـوا له فى الإيمان بربهم.. والإعـراض عن أصـنـامـهم.. والبـعـد عن غـيـهم وإفسـادهم.. والرجوع إلى خالقـهم ورازقهم .. فلم يزدادوا إلا إصـرارا على الكـفـر.. واسـتـمـرارا فى الفـسـاد.. وتمـسكا بالضـلال والعنـاد.. وبدأ اليـأس يلتمس ثغرة ينفذ منها إلى قلبه.. يقول ابن إسحاق:

قـال ـ صلى الله عليـه وسلم:- « كـان يونس بن متى فيـه عجلة وخـفة.. فلمـا حمل أعباء النبـوة.. تفسـخ تحتهـا.. تفسخ الربع تحت الحمل الثـقيل»...

وبلغ به اليأس مـبلغه.. فلم يتـمالك نفسـه.. أن قال لهم : أمـــامكـم ثلاثة أيام.. إن لم تؤمـنوا بعـدها.. فسيـرسل الله عليكم نارا من السماء تأكـل الأخضر واليـابس.. فلا تذر شـجـرا.. ولا تبقى على مـدر.. عـبارة قـالها يونس.. درجت على لسانه.. لا يدرى أبعـادها.. ولا يسـبـر أغـوارها.. فـسـرت فى المدينة مـسـرى الـريح.. تناقلتـهـا الألسنة.. والتـقطـتـهـا الأسماع.. ولاكتها الأفواه.. وسخر منها الناس..

وما إن بلغ يونس ـ عليه السلام – داره . . بعد قولته تلك . . حتى لقيتـه أخته فى لهفة قائلة له : يا يـونس.. بلـغنـى أنك قلـت لقـــومك كـــذا..

---

(١) ابن إسحاق ـ فى قصص الأنبياء .

قال : نعم .: قالت: وهل هذا التحديد الزمنى بوحى من الله إليك.. قال: لا .. ولكننى لم أعد أحتمل أكثر من هذا.. دعوتهم إلى الله.. عشرات السنين.. فلم يستجيبوا.. وأمرتهم بالمعروف والتوحيد.. فلم يأتمروا.. ونهيتهم عن المنكر وعبادة الأصنام.. فلم ينتهوا.. فلا فائدة ترجى منهم.. على أعينهم غشاوة.. وفى آذانهم وقر.. وغلفت قلوبهم بغلاف سميك من الخطايا والأوزار.. فلا ينفذ إليها بصيص من نور الإيمان.. لا طاقة لى معهم بعد هذا يا أختاه..

قالها.. مصحوبة بأنة عميقة من الأسى والألم.. وكادت نفسه أن تذهب عليهم حسرات..

ومضت الأيام الثلاثة.. وهم على ما هم فيه من جحود وكفر.. وطغيان وكبر.. ولم تنزل نار من السماء.. تأكل الأخضر واليابس..كما ادعى يونس.. فماذا يقول لهم.. بعد هذا التحدى؟.. هل يستطيع أن يواجههم بعد ذلك الوعيد المكذوب؟..

اضطربت نفسه .. واختل تفكيره .. وارتجفت أعضاؤه كما ترتجف القشة تحت وطأة ريح عاصف .. لقد رأى أنه كان متجنيا .. عندما حدد لهم زمن العقوبة .. دون أن يأتيه ذلك ممن أرسله .. فلم يجد بدا من أن يخرج متسللا من المدينة . إلى حيث يشاء الله .. دون أن يراه منهم أحد .. أو يقع بصره منهم على أحد..

وبعد خروجه.. من بينهم.. مباشرة ـ كما ذكرت كل كتب التفسير ـ أغامت السماء غيما أسود.. ذا دخان شديد.. فهبط حتى غشى مدينتهم.. يقول ابن عباس: إنهم غشيتهم ظلة.. وفيها حمرة.. فلم تزل تدنوا منهم.. حتى وجدوا حرها.. بين أكتافهم.. فهابوا.. فطلبوا يونس ـ عليه السلام ـ فلم يجدوه.. فأيقنوا صدقه.. فلبسوا المسوح.. وبرزوا إلى الصعيد.. بأنفسهم ونسائهم وصبيانهم ودوابهم.. وفرقوا بين كل والدة وولدها.. فحن بعضها إلى بعض.. وعلت الأصوات والعجيج.. وأخلصوا التوبة.. وأظهروا الإيمان.. وتضرعوا إلى الله.. وبلغ من توبتهم أن ترادوا المظالم.. حتى إن الرجل.. كان يقلع الحجر.. وقد وضع عليه أساس بنيانه.. فيرده.. فتاب الله عليهم..

يقول الإمام النسفى:

خرجوا لما نزل بهم العذاب.. إلى شيخ من بقية علمائهم.. فقال لهم: قولوا: يا حى حين لا حى.. ويا حي محيى الموتى.. ويا حى لا إله إلا أنت.. فقالوها فكشف الله عنهم العذاب.. وكان ذلك يوم عاشوراء.. وعن الفضيل.. قالوا: اللهم إن ذنوبنا قد عظمت وجلت.. وأنت أعظم منها وأجل.. افعل بنا ما أنت أهله.. ولا تفعل بنا ما نحن أهله..

□ □ □

٢ الهـــروب

خرج يونس ـ عليه السلام ـ مستخفيا.. هائما على وجهه.. ولا يلوى على شيء .. ولا يدرى إلى أين.. حائر الفكر.. خائر النفس.. ثائر الضمير.. كيف حصل منه هذا الأمر؟.. وكيف جمع به لسانه حتى قال ماقال؟..

أحاطت به الأفكار من كل جوانبه.. وحاصرته الهموم من جميع نواحيه.. لا يدرى.. هل هو يسير على سطح الأرض.. أم تخطفته الطير.. أم هوت به الأوهام إلى مكان سحيق.. «وذا النون إذ ذهب مغاضبا فظن أن لن نقدر عليه» ٨٧ ـ الأنبياء..

وقد يتبادر إلى بعض الأذهان.. أن يونس ـ عليه السلام – ظن أن الله غير قادر عليه.. وتلك جريمة خطيرة.. لا تقبل من ضعيف الإيمان.. فكيف نقبلها من نبى كريم.. مثل يونس ـ عليه السلام ـ الذى قال عنه رسولنا ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «لا تفضلونى على يونس بن متى».. وإنما هى من القدر.. بمعنى التقتير والتضييق.. وليست من القدرة.. ومنه قوله تعالى: «الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر» يبسط ويقدر.. أى يوسع ويضيق.. ومنه أيضا «وأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فقدر عليه رزقه».. أى ضيق عليه فى الرزق.. وقد حصل هذا اللبس عند معاوية.. فيقول ابن عباس : إنه دخل يوما على معاوية.. فقال : يا ابن عباس.. لقد ضربتنى أمواج القرآن البارحة.. فغرقت فيها.. فلم أجد لنفسى خلاصا إلا بك.. قال.. وما هى يا أمير المؤمنين؟.. فقرأ الآية: «وذا النون إذ ذهب مغاضبا فظن أن لن نقدر عليه».. ثم قال: أو يظن نبى الله.. أن الله لا يقدر عليه؟.. قال ابن عباس: هذا من القدر لا من القدرة(١) ويتضح هذا فى بعض القراءات «فظن أن لن نقدر عليه» بتشديد الدال وكسرها..

وهكذا حال المؤمن.. إذا أحاطت به الهموم.. واحتوشته الظنون..

وحاصرته الأوهام .. هبت عليه نسمة الإيمان .. فتذكر رحمة الله وعفوه .. وكانت له تلك الذكرى بارقة الأمل .. وحبل النجاة .. وبصيص النور .. وهو ماحصل ليونس عليه

---

(١) تفسير النسفى والكشاف ٨٧ / الأنبياء .

السلام.. لما خرج مغاضبا مع نفسه.. ثائرا مع ضميره.. نفحته رياح الرحمة.. فاعتقد أن الله سيوجد له من ضيقه مخرجا.. ويهيىء له من ضنكه فرجا.. «فظن أن لن نقدر عليه» والظن هنا يقين منه بأن الله لن يضيق عليه.. لأنه بأصفيائه رءوف رحيم..

وروى ابن إسحاق الثعلبي.. أن يونس ـ عليه السلام ـ مضى فنزل ضيفا.. عند رجل يصنع الفخار.. فأوحى الله إلى يونس.. أن يأمر صاحب الفخار بكسره.. فشتمه الرجل.. وقال له: شيء صنعته بيدي.. أعيش من ثمنه.. أنا وعيالي تأمرني بكسره؟.. فأوحى الله إليه: هذا عمل فخارا من طين.. لم تطب نفسه بكسره.. وأنت طبت نفسا.. ووطنتها على هلاك مائة ألف أو يزيدون من عبادي.. فبكى يونس.. وخرج هائما..

وساقته قدماه.. إلى ساحل البحر.. ولم يرد في كتب التفسير شيء عن المكان الذي ركب منه السفينة.. وإنما ورد في التوراة.. في سفر يونان.. ٣ ـ فقام يونان ـ وهذا هو اسم يونس في التوراة ـ ليهرب إلى ترشيش من وجه الرب.. فنزل إلى يافا.. ووجد سفينة ذاهبة إلى ترشيش.. فدفع أجرتها ونزل فيها ليذهب معهم إلى ترشيش من وجه الرب(١).

وما دام الحديث قد تطرق بنا إلى التوراة.. فسأعرض عليك فقرة صغيرة منها ـ حول يونس ـ عليه السلام ـ لنرى الذوق العام لليهود.. وسوء أدبهم.. في حديثهم عن الرب ـ جل شأنه ـ **فجاء في سفر يونان: بعد أن تحدث عن قوم يونس.. وعنادهم وكفرهم.. ثم توبتهم ورجوعهم إلى الله.. قال:**

١٠ ـ فلما رأى الله أعمالهم.. أنهم رجعوا عن طريقتهم الرديئة.. ندم الرب على الشر الذي تكلم أن يصنعه بهم.. فلم يصنعه(٢) أرأيت تحريفهم في الكتاب المقدس.. وذكرهم فيه.. أن الرب ندم.. لعنوا بما قالوا.. وتعالى الله عن ذلك علوا كبيرا.

ركب يونس السفينة.. وانطلقت بركابها.. تمخر عباب الماء.. حتى صارت في عرض البحر.. وجرت بريح طيبة.. وفرحوا بها.. وفجأة اجتاح السفينة ريح عاصف.. وجاءهم الموج من كل مكان.. وظن أهلها أنهم أحيط بهم.. فَعَلَتْ الأصوات.. وارتفع العجيج.. وهاج الركاب.. وصرخوا.. بيننا عبد آبق.. فمن هو؟.

والآبق: هو العبد العاصي.. الهارب من مولاه.. وكان من عادتهم أنهم إذا أحيط بهم في البحر.. يعلمون أن بين الركاب عبدا هاربا.. ولا سبيل لنجاتهم.. إلا بإلقاء هذا العبد في البحر.. فيكون فداء للسفينة وركابها.. حيث يسكن الريح.. ويهدأ البحر.. وتتلاشى الأمواج.. وينجو الركاب.

ومالت السفينة ذات اليمين وذات الشمال.. الرياح عاصفة.. والأمواج صاخبة.. والبحر هائج.. واختلط صراخ الناس بصخب الأمواج ينادون.. أين العبد الآبق؟.

لم يصل شيء من كل هذا الضجيج والعجيج إلى سمع يونس ـ عليه السلام ـ فهو الآن جسم.. لا هو بالحي.. ولا هو بالميت.. وماهو إلا فكر يسبح في عالم بعيد.. بعيد.. مع مولاه.. لا يسمع هذا الهياج الصاخب.. ولا يرى ذلك الهلاك المحيط.. ولا يحس شيئا مما يجري حوله.. وأخرج ربان السفينة جراب الأقلام ليجري القرعة.. التي تدلهم على العبد الآبق.. وكان في الجراب عدد من الأقلام المصنوعة من خشب الأبنوس الأسود.. ومن بينها قلم واحد مكتوب عليه باللون الأبيض.. كلمة «آبق».

وضرب الربان الأقلام في جرابها.. وبدأ يلقي على كل راكب قلما.. ولم ينتبه يونس من شروده.. إلا على سقوط القلم في حجره.. ومد يده ليأخذه.. وقرأ عليه كلمة «آبق» وأحس بالموقف.. وعلم بما يجري حوله.. فوقف مسرعا.. قائلا: هل تبحثون عن عبد آبق؟.. أنا ذلك العبد.. ثم ألقى بنفسه بين أحضان الأمواج.. وكان هذا الأمر بالنسبة له.. أمر إفراج مما هو فيه من آلام وأوهام.

ولا مانع لدينا.. من الوقوف لحظة.. أمام عملية القرعة.. وهل هي جائزة شرعا؟.

قال أولو العلم.. إن القرعة جائزة شرعا في ثلاثة مواطن.. وضربوا لها ثلاثة أمثلة:

الأول: أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان إذا أراد السفر.. أقرع بين نسائه.. فأيتهن خرج سهمها.. خرج بها معه.

---

(١) سفر يونان الإصحاح الأول ـ ٣

(٢) سفر يونان الإصحاح الثالث ـ ١٠

والثانى: أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ رفع إليه أن رجلا أعتق ستة عبيد.. لا مال له غيرهم.. فأقرع بينهم.. فأعتق اثنين.. وأرق أربعة.

والثالث: أن رجلين اختصما إليه فى مواريث.. فقال: «اذهبا.. وتوخيا الحق واستهما.. وليحلل كل واحد منكما صاحبه»(١).

ثلاثة مواطن: هى القسم فى النكاح.. والعتق.. والقسامة.. والقرعة فى تلك الحالات الثلاث.. حلت إشكالا.. أو تفادت هوى فى النفس.. ففى الحالة الأولى: لعدم إمكان الخروج بجميع النساء.. واختيار واحدة منهن إيثار.. فكانت القرعة.

وفى الحالة الثانية: العبيد ستة.. وكل اثنين يمثلان الثلث.. وهو القدر الذى يجوز فيه العتق فى مرض الموت.. واختيارهما بحسب الهوى غير جائز شرعا.. فكانت القرعة.

أما فى الحالة الثالثة: فمنعت التشاجر فى أعيان المواريث.. ولا يميز الحق إلا القرعة.. فصارت.. فى تعيين المستحق.. إذا حصل إشكال.

فالقرعة جائزة.. على هذا الأساس.. فى كل مشكل.

□ □ □

---

(١) القرطبى ١٤٤/ الصافات.

٣ رحلة الظلمات

كان الأمر الإلهى صادرا إلى الحوت.. كى يقف بين الأمواج.. فاغرا فاه.. ليستقبل فيه ضيفا عزيزا.. ونبيا كريما.

واستقر يونس - عليه السلام - فى معدة الحوت . . «وإن يونس لمن المرسلين. إذ أبق إلى الفلك المشحون . فساهم فكان من المدحضين . فالتقمه الحوت وهو مليم» ١٣٩ - ١٤٢ / الصافات.

روى الطبرى.. من حديث أبى هريرة.. قال.. قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - «لما أراد الله - تعالى ذكره - حبس يونس فى بطن الحوت.. أوحى الله إلى الحوت أن خذه.. ولا تخدش له لحما.. ولا تكسر عظما.. فأخذه.. ثم هوى به إلى مسكنه فى البحر.. إلى آخر الحديث(١).. وسنذكر نهايته إن شاء الله تعالى فى حينه.

وأحس يونس - عليه السلام - بتراكم الظلمات حوله.. ظلمة الليل.. وظلمة البحر.. وظلمة بطن الحوت.. وأشد منها ظلمات النفس الخاطئة.. وعرف أنه لم ينزل فى البحر.. وإنما نزل فى بطن الحوت.. وانفرجت شفتاه عن بسمة خفيفة.. ثم قال: إلهى لأسجدن لك فى مكان لم يسجد لك فيه قبلى إنس ولا جن.. وخر ساجدا مكانه فى معدة الحوت.. وجاء بدعاء الكرب: «سبحانك اللهم.. لا نحصى ثناء عليك.. أنت كما أثنيت على نفسك.. اللهم رحمتك أرجو.. فلا تكلنى إلى تدبير نفسى طرفة عين.. أصلح شأنى كله.. لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين».

«وذا النون إذ ذهب مغاضبا فظن أن لن نقدر عليه فنادى فى الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين. فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجى المؤمنين» ٨٧ - ٨٨ / الأنبياء.

ولنكمل معاً حديث أبى هريرة.. الذى رواه الطبرى.. حيث يقول:

فلما انتهى به.. أى الحوت - إلى أسفل البحر.. سمع يونس حسا.. فقال فى نفسه.. ما هذا؟.. فأوحى الله - تبارك وتعالى - إليه.. وهو فى بطن الحوت: إن هذا تسبيح دواب البحر.. قال: فسبح وهو فى بطن الحوت.. قال : فسمعت الملائكة

---

(١) القرطبى ١٤٣ / الصافات..

تسبيحه .. قالواربنا.. إنا نسمع صوتا ضعيفا.. بأرض غريبة.. قال: ذلك عبدى يونس.. عصانى.. فحبسته فى بطن الحوت فى البحر.. قالوا: العبد الصالح الذى كان يصعد إليك منه فى كل يوم وليلة عمل صالح ؟.. قال: نعم.. فشفعوا له عند ذلك.. فأمر الحوت فقذفه فى الساحل.

قال ابن العربى: ـ

أخبرنى غير واحد من أصحابنا.. عن إمام الحرمين.. أبى المعالى.. عبدالملك بن عبدالله بن يوسف الجوينى.. أنه سُئل عن الله.. فى جهة؟.. فقال: هو يتعالى عن ذلك.. قيل له: ما الدليل؟.. قال: الدليل عليه.. قول النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ «لا تفضلونى على يونس بن متى».. فقيل له: وما وجه الدليل فى هذا الخبر؟.. فقال: لا أقوله.. حتى يأخذ ضيفى هذا ألف دينار.. يقضى بها دينا.. فقام رجلان.. فقالا: هى علينا.. فقال: لا يتبع بها اثنين.. لأنه يشق عليه.. فقال واحد: هى على.. فقال: إن يونس بن متى.. رمى بنفسه فى البحر.. فالتقمه الحوت.. فصار فى قعر البحر.. فى ظلمات ثلاث.. ونادى «لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين».. كما أخبر الله تعالى عنه.. ولم يكن محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ حين جلس على الرفرف الأخضر.. وارتقى به صعدا.. حتى انتهى إلى موضع يسمع فيه صريف الأقلام.. وناجاه ربه بما ناجاه به.. وأوحى إليه ما أوحى.. بأقرب إلى الله تعالى من يونس فى بطن الحوت فى ظلمة البحر(١).

واختلف رجال التفسير.. فى المدة التى قضاها يونس- عليه السلام- فى بطن الحوت.. بين أربعين يوما.. وسبعة.. وثلاثة.. وقيل ساعة واحدة.

والرأى الأخير.. أقرب منطقا.. وأصدق تأويلا.. وأخذ به الحسن - رضى الله عنه - فقال: لم يلبث فى بطن الحوت.. إلا قليلا.. ثم أخرج من بطنه.. بُعَيْد الوقت الذى التقم فيه(٢) فلنا أن نقف وقفة الخضوع والخشوع والرهبة.. أمام معدة الحوت.. وعصاراتها الهضمية.. ودرجة حرارتها المرتفعة ارتفاعا يصهر الحديد والخشب.. ويجعله مادة سهلة مهضومة لغذاء الحوت.. الذى يبتلع القوارب الصغيرة بمن فيها.. فتتحول فى معدته إلى سائل مهضوم.

تلك العصارات الملتهبة.. عجزت عن تحليل تلك اللقمة التى هى جسم يونس- عليه السلام- وهضمها.. وإذا عجزت المعدة عن هضم لقمة.. صارت ألما فى البطن.. وهكذا أصيب الحوت بمغص شديد.. جعله يتلوى.. صاعداً إلى سطح الماء.. وهابطاً إلى القاع.. عدة مرات.. من شدة الألم.. ثم قذف به إلى الشاطىء.

«فلولا أنه كان من المسبحين. للبث فى بطنه إلى يوم يبعثون. فنبذناه بالعراء وهو سقيم» ١٤٣/ ١٤٥/ الصافات.

□ □ □

(١) القرطبى ١٤٣ / الصافات .

(٢) الكشاف ١٤٣ / الصافات.

٤ فى العراء

لنتخيل معاً جسم يونس - عليه السلام - خارجاً من تنور مسجور.. هو معدة الحوت بعصاراتها.. شديدة الحرارة.. عالية الارتفاع.

يقول المفسرون.. فى معنى «فنبذناه بالعراء وهو سقيم» أى طرحناه بالساحل كهيئة الفرخ الممعوط.. الذى ليس عليه ريش.. وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس: خرج به.. يعنى الحوت - حتى لفظه فى ساحل البحر.. فطرحه مثل الصبى المنفوس.. لم ينقص من خلقه شىء.. وقال أبو عبيدة: العراء وجه الأرض.. وأنشد لرجل من خزاعة:.

ورفعت رجلا.. لا أخاف عثارها

ونبذت بالبلد العراء ثيابى

ونكاد نراه - عليه السلام - فاقد الوعى.. محروق الجسم.. ضئيلاً هزيلاً.. لا يملك لنفسه شيئاً.. ولا يستطيع حراكاً.. تتلقفه يد الرحيم لتبدأ معه مرحلة العلاج.

نراه ملقى على ظهره.. فوق ساحل البحر.. رأسه تجاه البحر فى المنخفض .. ورجلاه تجاه الشاطىء فى المرتفع.. فى هيئة المحروق الملقى على سرير المستشفى.. وقد انخفض رأسه عن مستوى جسمه.. لتنظيم الدورة الدموية.. وفى التو نبتت عليه شجرة اليقطين: «وأنبتنا عليه شجرة من يقطين» ١٤٦/ الصافات.. هى شجرة القرع.. فاتجهت كل ورقة من أوراقها.. لتلتف حول جزء من جسمه المحروق.. فالتفت ورقة حول عنقه.. وأخرى حول صدره.. وكذلك حول وسطه ورجليه ويديه.. لتكون ضمادات تعالج الجلد.. الذى تحتها حتى يبرأ.. وغاب يونس فى حنايا الشجرة.. وبين أحضانها.. فكان منظرا فريدا غريبا.. ومشهدا عجيبا رهيبا.. وأخذت ثمار القرع تنبت متجهة إلى فمه تلقائيا.. لتكون له غذاء.. ولجسمه دواء وشفاء.

وقيل لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - إنك لتحب القرع.. قال: «أجل هى شجرة أخى يونس»(١).

والمعروف عن شجرة القرع.. أن الذباب لا يجتمع عنده.. وأنه أسرع الأشجار نباتا وامتدادا وارتفاعا.

---

(١) تفسير النسفى والكشاف وغيرهما ١٤٠ / الصافات

ومرت أيام على يونس ـ عليه السلام ـ وهو على هذا الحال.. حتى عادت إليه الحياة رويدا.. رويدا.. وتنبه.. فرأى تلك الشجرة وهى تحتضنه.. كما تحتضن الأم الرءوم وحيدها المريض.. ثم حانت منه التفاتة نحو قدمه.. فوجد ورقة من أوراق الشجرة.. برأ الجلد تحتها.. فجفت وذبلت وكشفت عن الجلد السليم.. ثم سقطت.. فعز عليه موتها.. وقد ضحت بنفسها فى سبيل شفاء جزء منه.. فحزن من أجلها وبكى.. فنودى يايونس.. أنت الذى لم تخلق.. ولم تسق ـ ولم تنبت.. تحزن على ورقة من شجيرة.. فأنا الذى خلقت مائة ألف من عبادى أو يزيدون.. تريد منى أن أستأصلهم فى ساعة واحدة.. وقد تابوا وتبت عليهم.. فأين رحمتى يا يونس أنا أرحم الراحمين(١).

وهكذا يتلألأ النجم القرآنى الكريم «ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك».. لقد يئس يونس ـ عليه السلام ـ من إصلاح قومه.. وهدايتهم.. بعد أن جاهدهم عددا من السنين.. دون أن يستجيبوا له.. ودفعه اليأس إلى تحديد زمن لهلاكهم.. ناسياً أن الله بعباده رءوف رحيم.. لطيف خبير.. أشد فرحا بتوبة التائب.. من ضال فى مفازة.. عثر على دابته بما حملت من زاد وماء.. بعد أن فقدها بحملها.. وبعد أن يئس من العثور عليها.

إن الله لا يظلم مثقال ذرة.. فكل بلاء يصيب الإنسان فى نفسه أو ماله أو عياله.. إنما هو منه نفسه.. لخطأ أخطأه.. أو ذنب ارتكبه «وما أصابكم من مصيبة فما كسبت أيديكم» إنما يريد الله ـ سبحانه ـ بالبلاء لعبده المؤمن .. أن يكفر عنه ذنبه ويذكره به.. فالبلاء تكفير وتذكير.. وقد رأينا فى نبأ إبراهيم ـ عليه السلام ـ أن الله لم يأمره بذبح وحيده إسماعيل.. الذى رزق به وهو شيخ كبير.. وبعد أن بلغ إسماعيل معه السعى.. ما كان ذلك إلا قصاصا لذبحه الطير.. وهو فتى حديث السن.. ليرى كيف يحيى الله الموتى.. وتسبب بذلك فى تعذيب الطيور الأربعة.. فأمر بذبح إسماعيل.. ليذوق هو ألم الذبح تكفيرا لحق الطير لديه.

وقد يقول قائل:.. وماذا فى ذبح الطير من إثم.. ونحن نذبح طيورا وأنعاما؟.. فنقول: نحن نذبح الطير والأنعام.. لنأكل لحمها.. وننتفع بها.. وتلك هى الغاية من خلقها.. **أما ذبح إبراهيم للطير.. فلم يكن لهذا الغرض.. وإنما ليرى كيف يحييها الله ـ جل شأنه ـ وستموت تلك الطيور بعد ذلك مرة ثانية.. فصارت المرة الأولى لها ألما وتعذيبا.. لا لشىء إلا ليرى إبراهيم كيف تحيا بعد موتها.**

□ □ □

(١) القرطبى ١٤٥ / الصافات .

5 السعادة فى الإيمان

شاء الله ـ سبحانه ـ أن يكون يونس ـ عليه السلام ـ آية لهداية قومه.. فمر به جماعة منهم.. ورأوه راقدا.. تحتضنه شجرة القرع وترعاه.. تضمد جسمه بأوراقها.. وتطعمه وتداويه بثمارها.. فقال أحدهم: عجباً.. إنه يونس.. وقال الباقون: أين يونس؟.. لقد ألقى فى اليم من أيام وابتلعه البحر.. وسرى خبر موته فى جميع الأنحاء..

ولكنهم تأكدوا أنه يونس.. ووجدوا فيه آية.. تدل على قدرة القادر.. وعلم العليم.. وحكمة الحكيم.. فقالوا جميعا: نشهد أن لا إله إلا الله.. وأن يونس رسول الله.. فكان هو سببا فى إيمانهم.. وآية ليقينهم.. وسرى خبره فى أهل المدينة.. فآمنوا.. وازدادوا إيمانا..

ويصور لنا القرآن دائماً.. أن الإيمان سبب فى سعادة الدنيا.. قبل سعادة الآخرة :«أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون» «٢١/ الجاثية». واقرأ أيضاً: «فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخسا ولا رهقا» ١٣/ الجن.. فهل بعد هذا ضمان؟..

وهذا نوح عليه السلام.. يدعو قومه إلى الإيمان.. جاعلا أساس الإيمان الاستغفار.. فيقول لهم: «استغفروا ربكم إنه كان غفارا، يرسل السماء عليكم مدرارا، ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا» نوح.. فيكون الاستغفار.. كمظهر من مظاهر الإيمان.. سببا فى نزول المطر من السماء والإمداد بالأموال والبنين.. وازدهار الجنات... وجريان الأنهار.. إلى غير ذلك من وسائل السعادة فى الدنيا.. قبل السعادة فى الآخرة.. وهذا واضح أيضا فى قوله تعالى.. فى سورة الرحمن: «ولمن خاف مقام ربه جنتان» ومفهوم الجنتين.. جنة فى الدنيا بالسعادة.. وتيسير وسائل الحياة فيها.. وجنة فى الآخرة للنعيم المقيم.

وقد ضرب الله ـ سبحانه ـ لنا الكثير من الأمثال.. فى هذا الباب ومن بينها قوم يونس.. فيقول ـ جل شأنه:«**فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس، لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين**» ٩٨/ يونس..

ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار.

وقبل أن نودع يونس ـ عليه السلام ـ نلفت النظر إلى بعض الحشو المكشوف.. الوارد فى قصته.. فى سطور قليلة جدا..

فقد ذكرت بعض الكتب قصصا حوله.. هى أقرب إلى الخيال.. منها إلى الواقع المعقول.. ونحن لا نبرىء منها الإسرائيليين.. فدسيسهم معروف.. وإفكهم مألوف.. كسابق عهدهم.. مع جميع رسل الله الكرام .. فقد ذكروا رواية.. أسندوها إلى عبدالله ابن مسعود.. وهو منها براء.. أوجزها فى عجالة سريعة حرصا على وقت القارىء الكريم.. من الضياع فى لغو غير مفيد..

تقول تلك الرواية:

إن يونس ـ عليه السلام ـ بعد شفائه قام يمشى .. فلقى غلاما يرعى غنما قال: يا غلام .. من أنت؟ .. قال : من قوم يونس .. قال: فإذا جئت إليهم .. فأخبرهم أنك لقيت يونس.. قال: إن كنت يونس.. فقد علمت أنه من كذب قتل.. إذا لم تكن له بينة.. فمن يشهد لى؟.. قال: هذه الشجرة.. وهذه البقعة.. قال: فمرهما.. فقال لهما يونس: إذا جاءكما هذا الغلام.. فاشهدوا له.. قالتا: نعم.. ثم قالت الرواية: إن الغلام أتى الملك.. وأخبره بوجود يونس.. واستدل بشهادة الشجرة وقطعة الأرض.. وأرسل الملك معه من سمع شهادتهما.. وأخذ الملك يد الغلام فأجلسه مجلسه.. وقال له: أنت أحق بالملك منى.. وأقام لهم هذا الغلام أمرهم أربعين سنة(١).

ولا شك.. كما ترى.. أن هذا حشو باطل.. ولغو مائل.. وإفك مفترى.. لا حاجة للمؤمن إليه..

ويقول الأستاذ عبدالوهاب النجار .. صاحب « قصص الأنبياء » : ـ يوجد ببلد اسمه «حلحول» قرب مدينة الخليل بفلسطين قبر يقال : إنه قبر « يونس » .. وبمكان غير بعيد عنه .. قبر آخر .. يقال : إنه قبر « متى » ...

□ □ □

---

(١) من القرطبى ١٤٧ / الصافات ...

﴿وزكريا إذ نادى ربه رب لا تذرنى فردا وأنت خير الوارثين * فاستجبنا له ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه﴾.

صدق الله العظيم

(الأنبياء / ٨٩، ٩٠)

○ من نبأ زكريا عليه السلام

١ أصول الدعـــاء

جاء فى الخبر ـ كما ذكر ابن إسحاق ـ أن الله تعالى أهبط آدم وحواء.. ومعهما إبليس إلى الأرض.. وقال لهم: (وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو)(١) وأصدر الأمر الحربى إلى إبليس بقوله: (واستفزز من استطعت منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم فى الأموال والأولاد وعدهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا)(٢).. والجلب لغة: هو صراخ الفارس على ظهر الحصان فى الحرب.

ثم قال سبحانه: يا آدم أجمع لك العلم كله فى أربع كلمات: واحدة لى.. وواحدة لك.. وواحدة بينى وبينك.. وواحدة بينك وبين الناس:

فأما الواحدة التى لى.. فألا تشرك بى شيئاً.

وأما التى لك.. فأجزيك بعملك.

وأما التى بينى وبينك.. فمنك الدعاء ومنى الإجابة.

وأما التى بينك وبين الناس.. فأن ترضى لهم ما ترضى لنفسك.

ونص الكلمة الثالثة من تلك الكلمات الأربع.. يفيد أنه على الإنسان أن يدعو.. وعلى الله الإجابة.. وهو نفس النص فى قوله تعالى:

(وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداعِ إذا دعانِ)(٣).

فما بالنا ندعو الله ليل نهار فلا يستجيب لنا؟.

إما أن يكون هذا لنقص فينا.. يحول بيننا وبين الإجابة.. أو لجهلنا بأصول الدعاء.

ولعلنا إذا أكملنا الآية السابقة.. تتضح لنا الحقيقة التى تعتبر أصلا للاستجابة.. فنجد أن الله ـ سبحانه ـ بعد أن قال: (أجيب دعوة الداع إذا دعان) أردفها بقوله الكريم: (فليستجيبوا لى).

وهذه العبارة الكريمة تستلزم منا وقفة قصيرة للتأمل.

فإن الله ـ سبحانه ـ يطلب منا الاستجابة له قبل أن يستجيب هو لنا.

ولنضرب لذلك مثلا بسيطاً.

فأنا إن كنت بخيلا.. شحيح النفس.. ضنينا بما آتانى الله من مال وفير.. فى مواقف

(١) ٣٦/ البقرة.

(٢) ٦٤ / الإسراء.

(٣) ١٨٦ / البقرة.

البذل ـ فهل يجوز لى وقت الحاجة أن أقول يا كريم؟.. أعتقد أن هذا غير جائز.. لأننى فى هذه الحالة أكون لست مؤمنا بأنه كريم.. وإلا لكنت مستجيبا له بصفة الكرم فى أوقات البذل والجود والعطاء.. وبالتالى عندما أقول يا كريم.. يجيبنى فى التو ليثبت لى أنه أكرم منى.. فهو مصدر الكرم..

وهكذا فى صفة الرحمة والعفو وغيرها من الصفات.

(والذين اهتدوا زادهم هدى)(١).

وأفضل لحظات الدعاء عندما يكون الإنسان ساجدا.. فالسجود مكان القرب:

(واسجد واقترب)(٢).

ولهذا يقول عليه الصلاة والسلام.. «أقرب ما يكون العبد إلى ربه وهو ساجد» جبهته.. وهى أشرف وأعلى مكان فى جسمه.. على الأرض بين يدى الله ـ تعالى ـ هنا تكون درجة القرب.. وهنا يمكن سريان الاتصال الروحى بين العبد وربه.

وأذكر حديثا قرأته عن أم المؤمنين عائشة -رضى الله عنها ـ معناه:

أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان يصلى فى ظلمة حجرتها.. تقول:

فتحت الباب فوجدته ساجدا فى الظلام.. ووجدت عمودا من النور يصل ما بين رأسه وسقف المكان.. فأغلقت الباب فى هدوء.. وانتظرت ساعة.. ثم فتحت الباب فوجدته مازال ساجدا ومازال عمود النور متصلا.. فأغلقت الباب ثم انتظرت ساعة وفتحته فوجدته مازال ساجدا ومازال عمود النور متصلا.. تقول. رضى الله عنها.. فظننت أنه قبض.. فلمست إبهام رجله اليمنى وهو ساجد.. فحرك إصبعه ثم جلس فتشهد وسلم.. ثم نظر إلى وقال:«هل ظننت أنى خست(٣) بك يا حميراء؟ أما تعلمين أنها ليلة النصف من شعبان»؟.

سجدة واحدة على مدى ثلاث ساعات!!.. فناء كلى.. وانتقال ذاتى.. وتفاعل وجدانى تنتقل فيه النفس من ظلمات الحياة الدنيا بأحوالها وأوحالها.. ومطامعها ومطاعمها.. وآمالها وآلامها.. يسرى التيار النورانى فيصل بين العبد وربه.. هنا يكون الدعاء.. وهنا تتحقق العبودية.. وتكون الإجابة أقرب من نفس يتردد.. ومن قلب ينبض.

وعلى قدر يقينك بالإجابة تكون درجة الوصول إليها.. ألم تستمع إلى قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ «ادع الله وأنت موقن بالإجابة»؟.

فإذا دعوت وأنت متردد فى دفعة الدعاء.. مرتاب فى تحقيق الرجاء.. فكذلك تكون الإجابة.. ولعل أقرب مثل يلائم هذا المقام.. هو موقف على ابن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ وهو فى غزوة خيبر.. لما كسر فى يده ترسه.. الذى يتستر به فى المعركة من ضربات السيوف.. وانكشف رأسه للعدو.. فوجد على يساره باب حصن خيبر.. وكان من الحديد السميك.. يعجز عن حمله رهط من الرجال الأشداء.. ولكن إيمانه ويقينه جعلاه يميل وهو فوق سرج جواده.. حيث يمسك بمقبض الباب.. ويرفعه صارخا باسم الله القوى.. فيرتفع الباب فى يده.. ويستعمله ترسا بدلا من الترس المكسور.. ولا عجب فإنها ليست يد على.. وإنما هى يد الله.. إنه دعاء من غير كلمات.. ونداء بدون ألفاظ.. **إنها القوة الإيمانية الكامنة فى أعماق النفس.. المتغلغلة فى حنايا الشعور والوجدان إنها تصنع المعجزات.**

وقبل أن نتنقل إلى دعاء نبى الله زكريا ـ عليه السلام- أريد أن ألفت النظر إلى قوله تعالى (ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها)(٤).. فمعرفة مجالى أسمائه تعالى من لوازم المؤمن فى حياته الدنيا.. وإلا كان كالمريض.. أمامه الصيدلية.. فيها جميع العقاقير اللازمة لعلاجه.. ولكنه يجهل استعمالاتها.. فقد يأخذ (صبغة اليود) فيستعملها قطرة لعلاج عينيه.. فتكون النتيجة عكس المطلوب.

فمثلا: عندما أريد ذبح طائر.. لا يجوز أن أقول: بسم الله الرحمن الرحيم.

فليس الذبح من مجليات الرحمة.. وإنما مجال الذبح ـ بسم الله.. الله أكبر ـ فالعبد المظلوم له أن يدعو الله باسمه ـ العدل ـ والمستذل المستضعف له أن يدعو باسمه ـ العزيز ـ والمريض له اسم ـ الرءوف والرحيم ـ وذو الضائقة المالية له اسم ـ الرزاق والكريم والوهاب ـ وهكذا على اختلاف الأسماء.. ويحسن إسناد الاسم المدعو به إلى اسم الذات ـ الله ـ فأقول: الله الرحيم.. الله الرزاق ـ الله العزيز.. إلى آخره.

(١) ١٧ / محمد .

(٢) ١٩ / العلق .

(٣) خست بك: أى ظلمتك.. يقصد أن تلك ليلتها.

(٤) ١٨٠ / الأعراف .

وهذا سر الاختلاف الأسمائى.. لاختلاف أحوال الداعين.. ومقاماتهم عند رب العالمين.

فالإنسان فى دنياه هذه محكوم بالنواميس الكونية فى خطواته وأحواله حتى يعبرها إلى مستقره الأبدى.. فراسخه الأيام والليالى.. تختلف عليه تجليات الأسماء الحسنى.. تلك الأسماء التى كونت الأسباب وخلقتها لتكون وسيلة للوصول إلى المسبب.. وفى نفس الوقت هى قادرة على إيجاد المسبب من غير سبب.. فمثلا ـ الله الرازق ـ أنبت من حبة القمح سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة ـ ليأكل الناس والأنعام.. وهو ـ سبحانه ـ قادر على إيجاد مواد الغذاء للإنسان والدواب بدون هذا السبب الذى هو أعواد القمح وسنابله.

وهكذا رأى زكريا ـ عليه السلام ـ كلما دخل على فتاته ـ مريم ـ عليها السلام ـ فى محرابها.. وجد عندها رزقا.. طعاما شهيا.. له إشعاع غريب.. شبيه بطعام الأرض.. ولكنه ليس مما تنبت الأرض:

(كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا)(١).

ولفظ (كلما) يفيد فى اللغة الاستمرار والدوام مدة من الزمن.. مما دفعه إلى سؤالها:

(قال يا مريم أنى لك هذا قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب)(٢) أى بدون سبب من الأسباب التى يألفها الناس . إنها حقيقة «يقينية» رآها زكريا ـ عليه السلام ـ فحركت فى نفسه عوامل الدعاء.. وفجرت فى صدره أمرا دفينا.. وألما مكبوتا.. وحنينا مكنونا. لقد بلغ من العمر ما يناهز المائة.. ضعف جسمه.. واشتعل رأسه.. ووهن عظمه.. وفقد أسباب الإنجاب.

ولطالما حدثته نفسه.. وتنازعته هواجسه وأفكاره أن يرزقه الله ولدا.. يكون له قرة للعين.. ووارثا للنبوة .. وامتدادا للعمر.

ولكنه سرعان ما كان يعود إلى نفسه باللوم والتوبيخ.. لخطور تلك الأفكار على قلبه بعد أن فقد كل الأسباب الموصلة إلى الأمل الميئوس منه.. فلما رأى المسببات مع فقد الأسباب.. فى الطعام المتتابع المستمر.. الهابط على فتاته مريم.. ولما سمع منها قولها:

(هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب) أى بدون أسباب (هنالك دعا زكريا ربه قال رب هب لى من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء)(٣).

ومعنى لدنك: أى خارجة عن نطاق الأسباب التى فقدتها فى جسمى الواهن الضعيف.

وكانت الإجابة:

(فنادته الملائكة وهو قائم يصلى فى المحراب أن الله يبشرك بيحيى)(٤).

□ □ □

---

(١) ٣٧ / آل عمران .

(٢) ٣٧ / آل عمران .

(٣) ٣٨ / آل عمران .

(٤) ٣٩/ آل عمران.

٢ مع آل عمران

كان عمران بن ماثان زوجا لحنة بنت فاقوذ.. وحنة بفتح الحاء.. وهو اسم غير عربى.. ويوجد بالشام دير اسمه ـ دير حنة ـ قال عنه أبو نواس:

يا دير حنة من ذات الأكيراح
من يصح عنك فإنى لست بالصاحى

وعمران زوج حنة من نسل سليمان بن داود ـ عليهما السلام ـ ويتصل نسبه بيهوذا بن يعقوب ـ عليه السلام.

وقد أجمع رجال التفسير والتاريخ على أن بينه وبين عمران والد موسى وهارون ألفا وثمانمائة سنة.

وكان نبيا وإماما لأحبار اليهود وعلمائهم.

وكان لفاقوذ والد حنة ابنة أخرى هى اليصابات ـ أو إيشاع ـ تزوجها زكريا بن آدن ـ الذى يتصل نسبه بسليمان بن داود مثل عديله عمران بن ماثان.

فكانت حنة واليصابات ـ ابنتا فاقوذ ـ تحت نبيين عظيمين.. وإمامين جليلين.. هما: عمران بن ماثان.. وزكريا بن آدن.

وهكذا نرى أن تلك الأسرة من الله بمكان. ولها عند الله أعظم درجة فى عصرها.. فهم صفوة البشرية.. وخلاصة الإنسانية:

(إن الله اصطفى آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم)(١).

والله ـ تعالى ـ دائما يبتلى أولياءه.. ويختبر أصفياءه.. فابتلى المرأتين بالعقم.. وأمسك عنهما الولد.. حتى أيست كل منهما وشابت.. وامتد بهما العمر.. وأدركهما وزوجيهما ضعف الكبر ووهن الشيخوخة.. دون ولد يكون لهما قرة عين.. أو وارث يحمل عنهما رسالة السماء.

وذات يوم جلست حنة ـ زوج عمران ـ تحت شجرة وارفة ـ وقت الأصيل ـ تتفيأ ظلالها.. وتتفكر فى خلق السموات والأرض.. وما خلق الله فيهما من آيات ـ والمؤمنون فى مثل تلك الأوقات ـ قبل طلوع الشمس وقبل غروبها.. يسبحون بأرواحهم فى ملكوت الله اللانهائى.. يطالعون ببصائرهم كتاب الفطرة الواسع المفتوح

---

(١) ٣٣ ـ ٣٤/ آل عمران.

..فتنشرح صدورهم.. وترتاح أفئدتهم.. وقد أعجبنى قول عطاء الله السكندرى - رضى الله عنه - «إذا اعتادت النفوس على ترك الآثام.. جالت الروح فى ميادين الملكوت وتعود إلى صاحبها محملة بطرائف الحكم.. ويعلمه الله من غير معلم فينطق بالحكمة.. ويتكلم بالنور».

وهذا القول مطابق لقوله تعالى (واتقوا الله ويعلمكم الله)(١).

وقوله (ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا)(٢).

ولمحت حنة - وهى فى مقامها هذا - طائرا يزق فرخا له.. فثارت فى نفسها دوافع الحنين إلى الولد.. وتمنته.. وتقبل الله دعاءها الخفى.. وحقق أملها المكبوت.. فتحركت فى نفسها عوامل الإيمان بعد اليأس وفوات الشباب.

ونرى أننا مضطرون للوقوف برهة أمام هذا الأمر الغريب.. والحال العجيب!.. امرأة لم تحمل فى صباها ولا فى شبابها.. ولا فى كهولتها حتى إذا قطعت مرحلة الشيخوخة وحان الأجل.. يتحرك فى نفسها الشوق والحنين إلى الولد.. وتكون السماء أقرب إليها من حبل الوريد!!..

فهل معنى هذا أنها لم تطلب من الله الولد من قبل؟.

أعتقد هذا.. فعلاقات المقربين بربهم لها خصائص ومميزات لا يدركها إلا المبصرون.. فهذا نبى الله أيوب.. يبتليه ربه بإفناء ماله وأنعامه وحرثه.. فيصبر ويحتسبها عند الله. ثم يبتليه بفقد أبنائه الذين كانوا قرة العين وزهرة الحياة.. فيصبر ويحتسبهم عند الله. ثم يبتليه بضياع صحته.. وشدة مرضه.. وهزال جسمه.. وضمور عوده.. حتى يصير هيكلا من العظم لا حول له ولا قوة.. تقوم امرأته رحمة بنت إفرائيم بن يوسف - عليه السلام - بقضاء حاجته.. والسعى للحصول على قوتها وقوته. وهو فى كل تلك البلايا صابر محتسب.. لم يطلب من الله أن يكشف ضرا.. أو يدفع شراً.

وقد روت كتب التفسير: كالبيضاوى والكشاف: أن امرأته رحمة دخلت عليه يوما بعد أن وصل إلى ما وصل إليه من الأسى والمرض.. فقالت له:

يا أيوب لو دعوت الله ليرفع عنك البلاء؟.. فقال لها: كم مدة رخائنا؟ قالت: ثمانين عاما.. قال: أستحيى من الله أن أدعوه وما بلغت مدة بلائى مدة رخائى.. ولم يدعه إلا بعد أن تدخل الشيطان بينه وبين ربه عند الصلاة التى كان يؤديها بجفن عينه بعد أن عجزت رأسه عن الحركة من شدة المرض.. وذلك أن إبليس يئس من أن ينال منه فتيلا أو يشفى غليلا.. فى كل أنواع البلاء التى امتحن بها أيوب.. حيث كان فى كل مرة يزداد قربا من الله.. فأراد أن يشغله عن الصلاة.. فلما اتجه بعينيه إلى القبلة ليصلى.. أتاه إبليس بتخيلات وأوهام من التماثيل والصور والنصب.. ليحول بينه وبين كمال الصلاة..

هنا فقط قال أيوب:

إلهى لقد صبرت على ذهاب مالى وعيالى وصحتى فى سبيل رضاك.. أما أن يحال بينى وبينك فهذا مالا طاقة لى به:

(إذ نادى ربه أنى مسنى الشيطان بنصب وعذاب)(٣).

وكانت الإجابة أقرب إليه من سريان هذا الخاطر فى نفسه.

(اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب. ووهبنا له أهله ومثلهم معهم رحمة منا وذكرى لأولى الألباب) (٤).

إن حنة زوجة عمران لم تطلب من الله ولدا من قبل.. فشفافية روحها.. وصفاء وجدانها.. وكمال إيمانها جعلتها تقبل عقمها فى رضى وصبر.. حتى إذا أراد الله - تعالى - تنفيذ هذا الأمر.. حرك فى ضميرها هذا الرجاء لما رأت الطائر يطعم فرخه.. ولبى الله رجاءها.

وحملت حنة.. ولم يمض وقت بعد حملها.. حتى مات زوجها عمران ثم تحرك الجنين فى بطنها.. فأخذتها نشوة الفرح بهذا الوليد المرتقب. فاتجهت إلى الله بكل أحاسيسها ووجدانها تدعو قائلة:

(رب إنى نذرت لك ما فى بطنى محررا فتقبل منى إنك أنت السميع العليم)(٥).

---

(١) ٢٨٢ / البقرة.
(٢) ٥٢ / الشورى.
(٣) ٤١ - ص.
(٤) ٤٢ - ٤٣ / ص.
(٥) ٣٥ - آل عمران.

ولعلها بهذا النذر الذى كان جائزا عندهم.. تقصد أن يكون الوليد ذكرا.. ليحل محل أبيه فى سدانة بيت المقدس وخدمته.. محررا عتيقا عن الدنيا وآمالها وزينتها وفتنتها خالصا لله ولبيته المقدس.

ولكن المولود حين وضعته جاء أنثى.. ووقعت حنة فى حيرة من أمرها.. ومن الوفاء بنذرها.. فالأنثى لا تصلح لهذا الأمر.. فاعتذرت عما نذرت.. وعادت إلى الله ـ سبحانه ـ آسفة متحسرة تقول:(رب إنى وضعتها أنثى) و«وليس الذكر كالأنثى» فى خدمة بيتك المكرم.. والعبادة فيه.. لعورتها وما يعتريها من الحيض والنفاس والأذى.. وكأنها فى قرارة نفسها وأعماق وجدانها تصر على النذر خالصا لله فقالت:

(وإنى سميتها مريم وإنى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم)(١).

واسم مريم فى لغتهم بمعنى العابدة الخادمة لله.. فلم يرد الله يدها.. وقبل منها نذرها (فتقبلها ربها بقبول حسن)(٢).

ورضى ـ سبحانه ـ بهذا النذر مكان الذكر.. ولم يقبل قبل مريم أنثى فى ذلك الأمر.

طلبت حنة من الله تعالى أن يحفظ ابنتها وما يتناسل منها من الشيطان ووسوسته وهواجسه وإغوائه بقولها:(وإنى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم) ولله فى خلقه شئون وشجون.. فلم يكن لمريم ـ عليها السلام - ذرية غير عيسى.. فانحصرت الدعوة فيهما فقط ـ مريم وابنها..

وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة قال.. قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم.

مامن مولود يولد إلا نخسه الشيطان.. فيستهل صارخا من نخسه إلا ابن مريم وأمه».. ثم قال أبو هريرة: اقرأوا إن شئتم:

(وإنى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم).

ومفهوم هذا الحديث أن كل مولود يولد يطمع الشيطان فى إغوائه وإضلاله إلا مريم وابنها.. فإنهما كانا معصومين بسبب دعوة حنة لهما.

(١) ٣٦ / آل عمران .

(٢) ٣٧ ـ آل عمران .

واستهلال المولود صارخا من مس الشيطان.. تخيل وتصور لطمعه فيه.. كأنه يمسه ويضرب بيده عليه وكأنه يقول: هذا ممن أغويهم وأضلهم.. وكله تصور وتخيل..

ويقول ابن الرومى فى هذا:

لما تؤذن الدنيا به من صروفها
يكون بكاء الطفل ساعة يولد

وأما حقيقة المس والنخس ـ كما يتوهم أهل الحشو ـ فالعقل يرفضه.

ولو سلط إبليس على الناس بنخسهم لامتلأت الدنيا صراخا وعويلا.

ـ ٣ ـ

زكريا يكفل مريم

إن تلك الأسرة التى ولدت مريم ـ عليها السلام ـ فى أحضانها.. وشبت فى ظلالها.. تتميز بالرضى والطهر.. والرحمة والحنان.. حتى السورة التى سميت باسمها فى القرآن الكريم تبدأ أول ما تبدأ بالرحمة (ذكر رحمة ربك عبده زكريا)..

وزكريا كما قلنا ـ هو زوج خالتها اليصابات.. واسم زكريا ـ فى العبرية ـ يفيد معنى دوام الذكر والتسبيح لله تعالى.. فكان له ولزوجته اليصابات نصيب من اسميهما.. فقد قرأت أن اسم ـ زكريا أصله: زكر إيلى.. كما أن اليصابات أصلها ـ إيلى صابات.. فإذا علمنا أن إيلى هو الله ـ سبحانه وتعالى.

فالإل ـ بالكسر ـ هو الله عز وجل(٣).. وجاء فى إنجيل متى فى الإصحاح السابع والعشرين ما نصه:

٤٦ ـ ونحو الساعة التاسعة صرخ يسوع بصوت عظيم قائلا: إيلى إيلى لم شقتنى.. أى إلهى إلهى لماذا تركتنى.. **على أنها العبارة التى قالها المسيح ـ عليه السلام ـ عند صلبه.**

فإذا أفهمنا هذا كان معنى كلمة (زكريا) أى كثرة ذكر الله.. وكلمة اليصابات: تعنى قسم الله ويمينه.. وهو ما يحلف به صادقا.

قال أولو العلم من رجال التفسير(٤):

إن حنة حين ولدت مريم .. لفتها فى خرقة وحملتها إلى المسجد .. وسلمتها للأحبار من

(٣) مختار الصحاح .

(٤) البيضاوى والنسفى والكشاف ٣٦ ـ آل عمران .

أبناء هارون.. وهم فى بيت المقدس كالحجبة فى الكعبة.. فقالت لهم: دونكم هذه النذيرة.. فتنافسوا فيها.. لأنها كانت بنت إمامهم وصاحب قربانهم.. فقال لهم زكريا ـ عليه السلام ـ: أنا أحق بها وعندى خالتها.. فقالوا له: نحن لا نوافق على هذا.. فإنها لو تركت لأحق الناس بها وأقربهم إليها.. لتركت لأمها التى ولدتها.. ولكن نقترع عليها فتكون عند من يعلو سهمه.. وكانوا تسعة عشر حبرا.. ذهبوا إلى نهر جار.. **يقول السدى:** هو نهر الأردن.. فألقوا أقلامهم التى يكتبون بها التوراة.. فارتفع قلم زكريا فوق سطح الماء.. وانحدرت أقلامهم ورسبت فى الماء:

(وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون)(١).

وكان زكريا ـ عليه السلام ـ رأس الأحبار وإمامهم بعد موت عمران (وكفلها زكريا). ضمها إلى خالتها.. واسترضع لها حتى شبت ونمت.. ولهذا أفتى الفقهاء بأن الخالة أحق بالحضانة من سائر القرابات ماعدا الجدة.. **وقضى بهذا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقد خرج أبو داود عن علىّ قال:**

خرج زيد بن حارثة إلى مكة فقدم بابنة حمزة ـ عم رسول الله ـ فقال جعفر: أنا آخذها.. أنا أحق بها.. إنها ابنة عمى وخالتها عندى.. فالخالة أم فقال على: أنا أحق بها.. إنها ابنة عمى وعندى ابنة رسول الله ـ ﷺ ـ فهى أحق بها وقال زيد: أنا أحق بها.. أنا خرجت إليها وسافرت وقدمت بها.

فخرج النبى ـ ﷺ ـ فذكر حديثا قال: «وأما الجارية فأقضى بها لجعفر.. تكون مع خالتها.. وإنما الخالة أم».

وذكر ابن خيثمة أن زيد بن حارثة كان وصى حمزة.. فتكون الخالة على هذا أحق من الوصى(٢).

وشبت مريم ـ عليها السلام ـ حتى إذا بلغت مبلغ النساء بنى لها زكريا محرابا فى المسجد.. أى غرفة مرتفعة يرقى إليها بسلم.. مثل باب الكعبة..

وقال وضاح اليمن:

ربة محراب إذا جئتها

لم ألقها حتى ارتقى سلما

وسمى المحراب محرابا.. لأنه مكان محاربة الشيطان والمحراب أشرف المجالس ومقدمها.. كأنها وضعت فى أشرف موضع من بيت المقدس.

وروى أنه كان لا يدخل عليها محرابها إلا زكريا وحده. (فتقبلها ربها بقبول حسن) وسلك بها طريق السعداء (وأنبتها نباتا حسنا)(٣) سوى خلقها من غير زيادة ولا نقصان.

ولا شك أنها أفضل نساء العالمين ـ فقد اصطفاها الله ـ سبحانه ـ مرتين فى آية واحدة.

﴿وإذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين﴾(٤).

وهل بعد اصطفاء الله من برهان ؟ ـ اصطفاها أولا بتقبلها من أمها.. ولم يقبل قبلها أنثى وفرغها لعبادته وأنبتها نباتا حسنا برزق من نوع جديد.. وطهرها مما يستعذر من النساء.. واصطفاها ثانية بهدايتها وإرسال الملائكة إليها تحدثها مشافهة.. وهذا هو ظاهر النص القرآنى.. وخصصها بالكرامات السنية.. كالولد من غير أب.. وتبرئتها مما قذفها به اليهود بإنطاق الطفل وجعلها وابنها آية للعالمين.

والكثير من المفسرين يقول: إنها تحدثت وهى صغيرة مثل عيسى ـ عليه السلام(٥)..

وفى هذا القول تكلف ظاهر.. لم يرد فيه نص.. لا فى القرآن ولا السنة.. ولو كان حقيقة لقال الله ـ تعالى ـ ذلك عنها كما قال عن ابنها..

نشأت مريم ـ عليها السلام ـ على الطهارة والرحمة والحنان والبعد عن الدنس.. عابدة قانتة خاشعة متبتلة.. يقول الأوزاعى: لما قالت لها الملائكة:

(يا مريم اقنتى لربك واسجدى واركعى مع الراكعين)(٦) قامت فى الصلاة حتى ورمت قدماها.

---

(١) ٤٤ / آل عمران .

(٢) القرطبى ٤٤ / آل عمران .

(٣) ٣٧ / آل عمران .

(٤) ٤٢ / آل عمران .

(٥) جاء ذلك فى البيضاوى والكشاف والنسفى وغيرهم.

(٦) ٤٣ / آل عمران .

وروى مسلم عن أبى موسى.. قال: قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم:

«كمل من الرجال كثير.. ولم يكمل من النساء غير مريم بنت عمران وآسية امرأة فرعون»(١).

ويعلق القرطبى على هذا الحديث فيقول:

قال علماؤنا: الكمال هو التناهى والتمام.. وكمال كل شىء بحسبه.. والكمال المطلق لله تعالى وحده.. ولا شك أن أكمل نوع من الإنسان الأنبياء.. ثم يليهم الأولياء من الصديقين والشهداء والصالحين.. وإذا تقرر هذا فقد قيل إن الكمال المذكور فى الحديث يعنى به النبوة. فيلزم عليه أن تكون مريم وآسية نبيتين.. وقد قيل بذلك.. ولكن الصحيح أن مريم إذا كانت نبية فذلك لأن الله تعالى أوحى لها بواسطة الملك كما أوحى إلى سائر الأنبياء.. أما آسية فإنه لم يرد ما يدل على نبوتها.. بل على صديقيتها وفضلها.

وإن كان كثير من العلماء ينكر نبوة مريم وقالوا: إن رؤيتها للملك كما رؤى جبريل فى صفة دحية الكلبى حين سأل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن الإسلام والإيمان والإحسان.. ورآه الصحابة ولم يكونوا بذلك أنبياء.. والإجماع على أنه سبحانه لم يستنبىء امرأة لقوله تعالى (وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحى إليهم)(٢).

ونحن لا يهمنا من هذا الأمر إلا أن ظاهر الأحاديث وقبلها القرآن الكريم يقتضى أن مريم ـ عليها السلام ـ هى أفضل نساء العالمين من حواء إلى آخر امرأة تقوم عليها الساعة فإن الملائكة قد بلغتها الوحى عن الله ـ عز وجل ـ بالتكليف والإخبار والبشارة.. كما بلغت سائر الأنبياء.. فهى أفضل من كل النساء الأولين والآخرين مطلقا.. ثم بعدها فى الفضيلة فاطمة ثم خديجة ثم آسية.. وكذلك بهذا الترتيب رواه موسى بن عقبة.. عن كريب.. عن ابن عباس قال.. قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ:

«سيدة نساء العالمين مريم ثم فاطمة ثم خديجة ثم آسية»(٣).

صَدَّقَت مريم ـ عليها السلام ـ بكلمات ربها.. ولم تسأل الله آية عندما بشرت بكلمة من الله اسمه المسيح.. كما سأل زكريا ـ عليه السلام ـ عندما بشرته الملائكة بيحيى.. فقال:(رب اجعل لى آية)(٤).. ولذلك سماها الله صديقة فقال:(وأمه صديقة)(٥) وقال (وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين)(٦).

إن مريم.. عليها السلام.. لم تنل شهادة ربها لها بالصديقية والتصديق إلا لمنزلتها السامية ومرتبتها القريبة الدانية..

وقد جاء فى الخبر(٧) عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال:

«لو أقسمت لبررت.. لا يدخل الجنة قبل سابقى أمتى إلا بضعة عشر رجلا هم: إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وموسى وعيسى ومريم ابنة عمران».

وهكذا سبقت جميع السابقين مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى الجنة ..

(١) ٤٢ / آل عمران .
(٢) ١٠٩ / يوسف .
(٣) القرطبى ٤٢ / آل عمران .
(٤) ١٠ / مريم .
(٥) ٧٥ / المائدة .
(٦) ١٢ / التحريم .
(٧) القرطبى ٤٢ / آل عمران .

٣ نـــــــداء خفى

تكرر دخول زكـريا عليه السـلام ـ على مريم فى محرابها.. يحـمل لها الطعام والشراب فيجـد أمامها طعـامـا يعـرفـه ولا يألفـه ولم ير له مـثـيلا مما تنبت الأرض ومما يأكل الناس.. وإنما هو طعـام غـريب.. ورزق عـجيب.. قـد يكون شـبيـهـا بطعام الدنيـا.. ورزقها.. ولكنه يرى فيـه إشباعا لا يعلم سره.. ولا يدرى كنهـه.. فيـقول لـها: يا مـريم من أين لك هذا الطعـام؟ ومن الذى يأتيك به ولم يدخل عليك أحـد سواى؟

فتـقول له: إنه يأتينى من عند الله كلما أحـسست بالجوع دون طلب منى.

«كلمـا دخل عليهـا زكريا المحراب وجـد عندها رزقا قـال يا مريم أنى لك هذا قـالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب»(١).

وقد أجمع المفسرون على أن زكريا ـ عليه السلام ـ كـان يجـد عند مريم فـاكـهـة الشتـاء فى الصـيف وفاكهة الصيف فى الشتـاء.. وفى هذا التأويل تحميل للمعـانى فوق طاقتهـا.. فإن الله ـ سبحـانه ـ قد خلق لكل فـصل من الفـصول فـاكـهـة تـتلاءم مع جـوه.. فـالمدفىء منهـا للشتـاء.. والمرطب للصـيف.. فـهل يستـسـاغ البطيخ والشمـام مثلاً فى فصل الشتـاء؟.. هذا تقدير العـزيز العليم.. البديع الحكيم.. ولا داعى للتكلف فى تفسـيرنا لكلام الله بتأولات ليس لهـا حجة مـن مـنـطـق أو عـقـل.. ولـنـا رأى فـى هذا الطعـام الذى له علاقة ظاهـرة برفع عيسى ـ عـليه السلام ـ حيث كان ينزل على مـريم ـ عليها السلام ـ قـبل حـملهـا.. ثم فى لحظة مـولده على هيـئـة مـاء ورطب.. ثم قبل رفعه مباشرة فى صورة مائدة طلبها الحواريون.. وسنعرض له إن شـاء الله فى نبأ عيسى ـ عليه السلام.

ولعل ذلك الطعام الدائـم المنزل على مريم.. ترك فى نفس زكـريا ـ عليـه السـلام ـ أمرا.. وحـرك فى ضمـيره شـجونا.. وأثار فى تفكيـره خواطر مـا كان يجرؤ على مجرد التفكير فيها.

فقد بلغ الشيخ العشرين بعد المائة.. وليس له ولد يرث ما حباهم الله به من النـبوة والملك.. فهل يجول فى ذهنه بعـد تلك السن الطاعنة فى أعمـاق الزمن.. وبعـد أن وهن العظم.. وضـعف الجسـم.. واشتـعل الرأس.. وتقـوس الظهـر.. وخـفت الصـوت.. هل يجول فى ذهنه أن يطلب من الله ولدا؟

ولم لا .. بعد أن رأى طعامـا ينزل على مريم من السماء مجردا عن الأسباب.. أسباب الحرث والزرع والسقى والاستنبات.. وبعد أن رأى أمهـا قبل ذلك تضعها بعد سنين اليأس ويأس السنين.

«هنالك دعـا زكـريا ربه قـال رب هب لى من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء»(٢).

---

(١) ٣٧ / آل عمران .

(٢) ٣٨ / آل عمران .

وقد جاء وصف دعاء زكريا فى سورة مريم بصفة الخفاء.. لقوله تعالى:

(إذ نادى ربه نداء خفيا)(١).

دعا ربه فى ضراعة وفى خفاء.. خفاء عن أعين الناس وأسماعهم فى خلوة يخلص فيها لربه يناديه فى قرب واتصال وفناء (قال رب) بغير واسطة حتى ولا حرف النداء. والدعاء سر أبعد عن الرياء.. وأقرب إلى الصفاء.. وقد يكون الخفاء فى دعاء زكريا حياء منه استعظاما لطلب خشية أن يسمعه أحد فيرميه بالخبل.. لكبر سنه وضعف جسمه وعدم إنجابه من قبل:

﴿قال رب إنى وهن العظم منى واشتعل الرأس شيبا ولم أكن بدعائك رب شقيا﴾ (٢).

وهنا لفتة جميلة من زكريا ـ عليه السلام ـ (ولم أكن بدعائك رب شقيا).

هكذا حال المؤمن.. لا يفقد ثقته فى مولاه.. فهو دائما مطمئن النفس.. كامل الثقة.. وافر اليقين بأن الله معه.. يعطيه إذا سأله.. ويعيذه إذا استعاذ به.. ويعينه إذا طلب منه العون (ولم أكن بدعائك رب شقيا).. فكم سألتك يارب وأعطيتنى .. وكم استعنت بك فأعنتنى.

وقد روي أن محتاجا سأل غنيا وقال له: أنا الذى أحسنتَ إلىّ يوم كذا.

فقال له: مرحبا بمن توسل إلينا بنا.. ثم قضى حاجته.

وقد يكون سبب الخفاء ـ كما قال بعض المفسرين ـ أن مواليه كانوا شرار بنى إسرائيل .. فخاف منهم.. وأخفى سره عنهم.. وقال ما قال بينه وبين ربه.. حيث كان صلب الدعاء قوله:

(وإنى خفت الموالى من ورائى وكانت امرأتى عاقرا فهب لى من لدنك وليا. يرثنى ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضيا)(٣).

ولعل زكريا ـ عليه السلام ـ يقصد أن يرثه فى النبوة.. ويرث من آل يعقوب الملك.

طلب زكريا من الله أن يرزقه ولدا رضيا.. ليس بجبار ولا غليظ.. ولا متبطر ولا طماع.. ولفظ (رضى) يلقى الكثير من معانى الخير.. فالرضى ليس خيره لنفسه فقط وإنما خيره يعم من حوله بالحب والخير والسلام.

وجاء دعاء زكريا عليه السلام ـ فى سورة آل عمران بطلب ذرية طيبة:

(قال رب هب لى من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء)(٤).

وفى هذا دليل على أن طلب الولد الصالح من سنن المرسلين والصديقين.. لقوله تعالى:

«ولقد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم أزواجا وذرية»(٥).

وقال عليه الصلاة والسلام: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث».

وذكر منها «أو ولد صالح يدعو له» وإن لم يكن غير هذا الحديث لكان فيه الكفاية.

ومن حديث أنس.. قال ـ صلى الله عليه وسلم:

«أى رجل مات وترك ذرية طيبة.. أجرى الله له مثل أجر أعمالهم ولم ينقص من أجورهم شيئاً».

والأخبار فى طلب الولد كثيرة.. تحث عليه.. وتندب إليه.. لما يرجوه الإنسان من نفعه فى حياته وبعد موته.. وهذا دعاء رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأنس بن مالك: «اللهم أكثر ماله وولده.. وبارك له فيما أعطيته». أخرجه البخارى ومسلم.

وفى صحيح مسلم عن سعد بن أبى وقاص قال: أراد عثمان أن يتبتل.. فنهاه رسول الله ـ وصلى الله عليه وسلم .. ولو أجاز ذلك لاختصينا.

وخرج ابن ماجه عن عائشة قالت.. قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ:

«النكاح من سنتى فمن لم يعمل بسنتى فليس منى.. وتزوجوا فإنى مكاثر بكم الأمم.. ومن كان ذا طول فلينكح.. ومن لم يجد فعليه بالصوم فإنه له وجاء».

وقال تعالى مخبرا عن إبراهيم ـ عليه السلام ـ :

(واجعل لى لسان صدق فى الآخرين)(٦).

وقال: (والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين)(٧).

---

(١) ٣ / مريم .
(٢) ٤ / مريم .
(٣) ٥ ـ ٦ / مريم .
(٤) ٣٨ / آل عمران .
(٥) ٣٨ / الرعد .
(٦) ٨٤ / الشعراء .
(٧) ٧٤ / الفرقان .

كان نداء زكريا عليه السلام ـ نداء خفيا.. فما الدعاء الخالص إلا انفعال فى قرار النفس وأعماق الوجدان.. وليست العبرة بارتفاع الأصوات وجؤار الحناجر.. من غير يقين.. ولهذا نادته الملائكة فى التو بتلبية طلبه.. وتحقيق غرضه:

(فنادته الملائكة وهو قائم يصلى فى المحراب أن الله يبشرك بيحيى مصدقا بكلمة من الله وسيدا وحصورا ونبيا من الصالحين)(١).

وفوجىء زكريا بسرعة الإجابة وتحقيق الأمل.. كيف يكون هذا وأنا شيخ فإنى بلغت من الكبر عتيا.. حطمتنى الأيام.. وهدتنى السنون.. حتى وهن عظمى.. وانحنى ظهرى.. ولم يبق لى أمل فى مثل هذا الأمر؟!!.

وزوجتى تلك العجوز العاقر التى ناهزت التسعين من سنين الزمن.. وخط اليأس فى أعماقها أخاديد وأخاديد.. هل من الممكن أن تأتينى القدرة على الإنجاب.. وأن يكون لديها وسائل الإخصاب؟!!.. إن هذا الأمر عجب.. وأى عجب (قال رب أنى يكون لى غلام وقد بلغنى الكبر وامرأتى عاقر)(٢).

ويأتيه الرد الفورى (قال كذلك الله يفعل ما يشاء).

وأخذت زكريا ـ عليه السلام ـ دهشة ملكت عليه كل شىء.. احتوشت خلجات نفسه.. وشملت نبضات قلبه.. فاندفع مع خواطره وأحاسيسه.. يسأل الله تعالى أن يريه آية.. يعلم منها كيف يتم هذا الأمر:

(قال رب اجعل لى آية قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا واذكر ربك كثيرا وسبح بالعشى والإبكار)(٣).

وأغلب المفسرين يقولون: إن الآية هى حبس لسانه عن الكلام ثلاثة أيام.. فإذا أراد أن يتكلم عجز لسانه عن النطق.. إلا إذا أراد ذكرا وتسبيحا.. هذا هو رأى جميع المفسرين تقريبا.. وقد أخذوه عن أهل الكتاب حيث جاء هذا المعنى فى إنجيل لوقا.. الإصحاح الأول.. الآيات ١٨ ـ ٢٢.

ولكن ليعذرنى القارىء إذا أنا خرجت عن هذا الرأى إلى رأى آخر يستسيغه الفكر.. ويرضاه المنطق.. ويوائم كتاب الله .

فقد عرض الله ـ سبحانه ـ هذا المقام فى سورة مريم.. بقوله تعالى:

(قال رب اجعل لى آية قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاث ليال سويا).

وزاد عليها لتوضيح هذا الأمر قوله:

(فخرج على قومه من المحراب فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشيا)(٤).

والواضح من هذا أن زكريا ـ عليه السلام ـ طلب من ربه.. وهو فى نشوة الرجاء وتحقيق الأمل المرتقب ـ أن يريه آية يعلم بها كيف سيحدث هذا الحمل بعد اليأس المزدوج بينه.. على كبره وشيخوخته ـ وبين امرأته ـ على عقرها وعقمها.. فأمره الله ـ سبحانه ـ بالاعتكاف فى المحراب بنية الصوم ثلاثة أيام مع الإكثار من ذكر الله وتسبيحه(٥) فى البكرة والعشى.. وبعدها سيرى الآية التى ينشدها.. والدليل الذى يرتجيه.

وكان الصوم فى ملة التوارة.. أحيانا.. الامتناع عن الكلام.. والاكتفاء فى معاملة الناس عند الضرورة بالإشارة والرمز.. انظر إلى قول عيسى.. عليه السلام.. لأمه لحظة ميلاده:

(فإما ترين من البشر أحدا فقولى إنى نذرت للرحمن صوما فلن أكلم اليوم إنسيا)(٦).

وهكذا فعل زكريا ـ عليه السلام ـ فدخل محرابه ناويا الصوم ثلاثة أيام.. تفرغ فيها للذكر والحمد والتسبيح.. فلما أتمها.. أراد الاغتسال قبل أن يخرج من محرابه.. وإذا به يجد أن كل مايمسه الماء من جسمه يعود إليه النضارة والشباب.. فالعظام تصلب بعد وهنها.. والعود ينتصب بعد انحنائه.. والجسم يقوى بعد ضعفه.. والشعر يسود بعد بياضه.. ويخرج على الناس.. فما أن وقع بصرهم عليه فى صورته الجديدة.. حتى سمع من أفواههم شهقات كلها استغراب وعجب.. فأمرهم بتسبيح الله القادر على كل شىء.. الذى يحيى العظام وهى رميم:

(فخرج على قومه من المحراب فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشيا)(٧).

ويخيل إلى أنه كان يرد عن نفسه قذائف الحسد التى أحسها من عيونهم الزائغة.. ونظراتهم الذاهلة.. وأفواههم الفاغرة..

---

(١) ٣٩ / آل عمران .
(٢) ٤٠ / آل عمران .
(٣) ٤١ / آل عمران .
(٤) ١٠ ـ ١١ / مريم .
(٥) قاله عطاء ـ من الثعلبى .
(٦) ٢٦ / مريم .
(٧) ١١ / مريم .

وزفراتهم الحارة لما رأوه يخرج عليهم من المحراب فى الجسم البض الفتى.

وفى نفس الوقت كما أصلح الله له جسمه.. أصلح له زوجه لتكون مهيأة للإخصاب والإنجاب.. وليأتى يحيى.. وهذا هو النص (فاستجبنا له ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه)(١).

وتمت المعجزة.. معجزة الحمل بيحيى ـ عليه السلام.

ومن الغريب أن بعض المفسرين فسر عبارة (وأصلحنا له زوجه) بأنها كانت سيئة الخلق.. فحسن الله خلقها(٢).. وقد غفل هؤلاء عن قوله تعالى:

(فاستجبنا له ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه إنهم كانوا يسارعون فى الخيرات ويدعوننا رغبا ورهبا وكانوا لنا خاشعين)(٣).

وضمير الجمع يشملها مع زكريا ويحيى.

فهل يكون المسارع فى الخيرات.. الداعى ربه رغبة فى رضاه ورهبة من غضبه.. الخاشع لله.. هل يكون هذا سيء الخلق؟.

نستغفر الله ونستعيذ به من نزغات الشياطين.

وهيا أيها القارىء الكريم لنلتقى برسول الله يحيى ـ عليه السلام ـ الذى اختصه الله ـ تعالى ـ بصفات فرائد.. كما لم يجعل له من قبل سميا.. فلم يحمل هذا الاسم قبله أحد.. ويقول عنه ـ عليه الصلاة والسلام.

«من هوان الدنيا على الله أن يحيى بن زكريا قتلته امرأة».

□ □ □

(١) ٩٠/ الأنبياء .

(٢) فى الكشاف والنسفى وغيرهما ـ ٩٠ / الأنبياء .

(٣) ٩٠ / الأنبياء .

﴿يا يحيى خذ الكتاب بقوة وآتيناه الحكم صبيا﴾.

صدق الله العظيم
(١٢ ـ مريم)

○ من نبأ
يحيى عليه السلام

١ يحيى فى الميزان

ثبت بالدليل القرآنى أن يحيى ـ عليه السلام ـ هو أول من سمى بهذا الاسم من بنى آدم.. لقوله تعالى:

«يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سميا»(١).

كما قررت الأناجيل ذلك.. ففى إنجيل لوقا.. فى الإصحاح الأول:

٥٧ ـ فأما اليصابات فتم زمانها لتلد فولدت ابنا.

٥٨ ـ وسمع جيرانها وأقرباؤها أن الرب عظم رحمته لها ففرحوا معها.

٥٩ ـ وفى اليوم الثامن جاءوا ليختنوا الصبى وسموه باسم أبيه زكريا.

٦٠ ـ فأجابت أمه وقالت: لا.. بل يسمى يوحنا.

٦١ ـ فقالوا لها: ليس أحد فى عشيرتك يسمى بهذا الاسم.

٦٢ ـ ثم أومأوا إلى أبيه.. ماذا يريد أن يسمى.

٦٣ ـ فطلب لوحا وكتب قائلا: اسمه يوحنا.. فتعجب الجميع.

ويوحنا عند أهل الكتاب.. هو يحيى بن زكريا ـ عليهما السلام.

وقد أطال المفسرون فى سبب تسميته بهذا الاسم.. فقال ابن عباس:

لأن الله تعالى أحيا به عقر أمه. وقال قتادة وغيره: لأن الله أحيا قلبه بالإيمان والنبوة. وقال الحسن بن الفضل: لأن الله أحياه بالطاعة حتى لم يتغير ولم يهم بمعصية أبداً.. ودليله ما أخبر به الحسن بن فتحوية بإسناده عن عكرمة عن ابن عباس.. أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم قال:

«ما من أحد يلقى الله ـ عز وجل ـ إلا وقد هم بخطيئة أو عملها: إلا يحيى بن زكريا فإنه لم يهم ولم يعمل».

(١) ٧ / مريم.

وذكر الثعلبي في كتابه- قصص الأنبياء- رواية عن عمر بن عبد الله القدسي: أن الله أوحى إلى زكريا- عليه السلام- أن قل لامرأتك- يسارة- وكان اسمها كذلك:« إني مخرج منكما عبدا لا يهم بمعصية اسمه.. حي.. فهبي له حرفا من اسمك» فوهبت أول حرف من حروف اسمها- الياء- فصار يحيى وصار اسمها- سارة.

وقال الأستاذ عبد الرزاق نوفل في بعض بحوثه:

إن أصل الاسم هو يوحنان- واختلف وضع الألف والنون في التعريب ليصبح ــ يوحنا ــ والألف والنون في - يوحان- زائدة.. كما هي زائدة في- المعمدان.. التي أصلها- المعمد- لأنه يعمد الناس بالماء أي يغسلهم به ليطهرهم.. وبحذف الألف والنون من يوحنا يصبح الاسم- يوحا- يحيى- ومعناه استمرار الحياة.. فقد شاء زكريا وزوجته استمرار حياتهما بهذا المولود.. فالابن امتداد لحياة والديه ولما كان إطلاق اسم الحياة على إنسان يموت يعتبر تناقضا لم يحصل من قبل أنكره أهلهم وجيرانهم.. وكانوا يريدون تسميته زكريا على اسم أبيه.. ولكن الله تعالى.. كان قد أوحى إلى زكريا وزوجته بهذا الاسم.

وهنا يتضح معنى قوله تعالى:

(يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سميا).

أي لم يطلق اسم الحياة من قبل على إنسان يموت.. فهو أول من تسمى بهذا الاسم.

كان يحيى بن زكريا- عليهما السلام- نبيا حسن الوجه والصورة.. لين الجناح.. قليل الشعر.. قصير الأصابع.. طويل الأنف.. مقرون الحاجبين.. رقيق الصوت.. كثير العبرة قويا في طاعة الله.. وقد ساد الناس في العبادة والطاعة(١).

وصفه الله- سبحانه- بصفات فرائد.. لم ترد عن نبي قبله.. فقد أخبرنا في سورة- آل عمران- بأنه ذرية طيبة.. وأنه مصدق بكلمة من الله.. وأنه سيد وحصور.. ونبي من الصالحين(٢).

كما أخبرنا تعالى عنه في سورة مريم بأنه رَضِيّ.. وأنه أخذ الكتاب بقوة.. وآتاه الحكم صبيا.. ووصفه بالحنان.. والزكاة.. والتقوى.. وبر الوالدين.. وعدم التجبر والعصيان.. وسلم الله عليه يوم مولده.. ويوم موته.. ويوم يُبعَثُ حيا(٣).

ولعله مما يلفت النظر أن تلك الأيام الثلاثة التي سلم الله فيها على يحيى وعلى عيسى أيضا عندما كان يبرىء أمه أمام قومها وهو طفل وليد عقب ولادته مباشرة.

لما قال لهم: (إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبيا) إلى أن قال لهم في النهاية:

(والسلام عليَّ يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا) (٤).

أقول إن تلك الأيام الثلاثة هي أوحش الحالات التي نحتاج فيها إلى السلام.. فهل هناك أوحش على الإنسان من يوم الميلاد.. ويوم الموت.. ويوم البعث؟

ويهمنا قبل أن نسترسل مع نبي الله يحيى عليه السلام- لنرافقه في صحراء الأردن التي قضى حياته فيها: عابدا خاشعا متبتلا.. يعمد بني إسرائيل من ماء الأردن أي يغسلهم بالماء.. وكان صوتا صارخا في البرية كما وصف نفسه بذلك في جميع الأناجيل.. حين أرسل إليه اليهود يسألونه: من أنت؟.. هل أنت المسيح؟ **قال:** إني لست أنا المسيح.. فسألوه إذاً ماذا.. هل أنت إيلياء؟.. فقال لست أنا فسألوه:أنت النبي؟.. فأجاب: لا.. **فقالوا له:** من أنت لنعطي جوابا للذين أرسلونا.. ماذا تقول عن نفسك؟ **قال:** أنا صوت صارخ في البرية.. اجعلوا طريق الرب مستقيمة.. فسألوه **وقالوا له:** فما بالك تعمد إن كنت لست المسيح ولا إيلياء ولا النبي؟أجابهم أنا أعمد بماء.. ولكن في وسطكم قائم الذي لستم تعرفونه.. هو الذي يأتي بعدي.. والذي صار قدامي.. والذي لست بمستحق أن أحل سيور حذائه.. هذا كان في بيت عبرة في عبر الأردن حيث كان يوحنا يعمد(٥).

---

(١) الثعلبي عن كعب الأحبار

(٢) ٣٨- ٣٩/ آل عمران

(٣) ١٢ - ١٥/ مريم

(٤) ٣٢- ٣٣/ مريم.

(٥) إنجيل لوقا، إصحاح ١ رقم ١٩- ٢٨.

أقول يهمنا قبل هذا الاسترسال أن نسترجع سريعا بعض صفاته لوجود بعض اللبس فى فهمها.

فهو مصدق بكلمة من الله.. وكلمة الله المقصود بها عيسى- عليه السلام..

(إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه) (١).

ويحيى أول من آمن بعيسى.. وهو سيد.. والسيد هو الذى يفوق قومه فى الشرف.. وكان يحيى- عليه السلام- يفوق قومه لأنه لم يرتكب سيئة قط.. ولا هَمَّ بها.. وينالها من سيادة: وقال الزجاج السيد هو الذي يفوق أقرانه فى كل شىء من الخير..

وبهذه المناسبة جاء فى البخارى ومسلم: أن النبى- صلى الله عليه وسلم- قال فى الحسن:

«إن ابنى هذا سيد ولعل الله يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين».

وكذلك كان.. فإنه لما قُتل أبوه على- رضى الله عنه- بايعه أكثر من أربعين ألفا وكثير ممن تخلف عن أبيه فى الجهاد.. ومن نكث بيعته.. فبقى سبعة أشهر خليفة فى العراق وما وراءها من خراسان.. ثم سار إلى معاوية فى أهل الحجاز والعراق.. وسار إليه معاوية فى أهل الشام.. فلما تراءى الجمعان بموضع يقال له مسكن- بفتح الميم وسكون السين- من أرض السواد بناحية الأنبار.. كره الحسن- رضى الله عنه- القتال لعلمه أن إحدى الطائفتين لا تغلب حتى تهلك أكثر الأخرى فيهلك المسلمون.. فسلم الأمر إلى معاوية على شروط شرطها عليه. فصدق قوله- صلى الله عليه وسلم- «إن ابنى هذا سيد».

فقد فاق قومه فى الشرف والتعقل.

وكان يحيى- عليه السلام- حصورا.. **والحصر هو الحبس.. وأحصرنى أى حبسني.. قال ابن ميادة:**

وما هجر ليلى أن تكون تباعدت
عليك ولا أن أحصرتك شغول

وقال تعالى: (وجعلنا جهنم للكافرين حصيرا)(٢) أى محبسا.

والحصور: الذى لا يأتى النساء.. كأنه يحبس نفسه عنهن.. ورجل حصور: أى بخيل.. لحبس خيره عن الناس.. وقال الأخطل:

وشارب باسم بالكأس نادمنى
لا بالحصور ولا فيها بسوار

أى ليس بخيلا ولا تأخذه سورة الخمر.

ولقد وصف الله تعالى يحيى- عليه السلام- بالحصر لأنه كان لا يأتى النساء.. ولا يدخل فى اللعب واللهو.. وليغفر لى القارئ أننى أطلت عليه شيئا ما.. فى التعليق على تلك الصفة فى يحيى- عليه السلام- وذلك لأن بعض العلماء فى أغلب كتب التفسير قرر أن يحيى عليه السلام لم يكن له عضو إلا مثل هدبة الثوب.. أو كان كالقشة.. فيكون امتناعه عن النساء لعيب فيه.. والعقل لا يرتاح إلى هذا المعنى.. ويؤيدنا فى ذلك ابن مسعود وابن عباس وابن جبير وقتادة وعطاء وابن زيد.. قالوا: الحصور يحيى.. كف نفسه عن النساء مع القدرة (٣).

وهذا هو الأصح.. لأن في هذا مدحا فيه وثناء عليه.. وقد أورد الله- سبحانه- تلك الصفة لمدحه وليس لبيان نقص فيه.. فهو يحصر نفسه عن الشهوات.. وهذا كان شرعهم.. فأما شرعنا نحن المسلمين فالنكاح.

وقال القاضى عياض فى كتابه الشفاء:

اعلم أن ثناء الله تعالى على يحيى- عليه السلام- أنه كان حصورا.. ليس كما قال بعضهم: إنه كان لا ذكر له.. بل قد أنكر هذا حذاق المفسرين.. ونقاد العلماء.. وقالوا: هذه نقيصة وعيب ولا تليق بالأنبياء..

وإنما معناه أنه معصوم من الذنوب.. أى لا يأتيها كأنه حصر عنها.

□ □ □

---

(١) ١٧١/ النساء.

(٢) ٨/ الإسراء.

(٣) القرطبى ٣٩/ آل عمران.

٢ بلاء الأنبياء

ورد حول معنى قوله تعالى:

(وإذا أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا)(١).

إن الله تعالى جمع كل أرواح بنى آدم.. وهم فى عالم الأمر قبل عالم الخلق.. جمعهم فى صعيد واحد وقال لهم (ألست بربكم)؟.. قالوا: بلى أنت ربنا لا يصرفنا عنك صارف.. ولا يمنعنا من طاعتك مانع.. فقال لهم: سأخلقكم.. وأجعل لكم أجساما.. لأبتلى مدى صدقكم في هذا العهد. قالوا جميعا: أنت ربنا لا يصرفنا عنك صارف.. ولا يمنعنا من طاعتك مانع.

فخلق الدنيا وعرضها عليهم.. فانقسموا إلى عشرة أقسام.. تسعة منها جرتهم الدنيا بزخارفها وغرتهم بما فيها من نساء وبنين وقناطير مقنطرة من الذهب والفضة.. وخيل مسومة وأنعام وحرث.. فانصرفوا إليها.. ونسوا العهد.. وبقى العشر قائما لم ينصرف.. فقال لهم: خلقت لكم الدنيا فلم تنصرفوا إليها.. قالوا: أنت ربنا لا يصرفنا عنك صارف.. ولا يمنعنا من طاعتك مانع.

فخلق الجنة وعرضها عليهم.. فانقسم العشر إلى عشرة أقسام.. تسعة منها بهرتهم الجنة بما فيها من حور وقصور .. وفواكه وطيور .. وأنهار من لبن وخمر وعسل .. فانصرفوا إليها .. وبقى عشر العشر قائما بالعهد .. فقال لهم : خلقت لكم الدنيا فلم تنصرفوا إليها .. والجنة فلم تنصرفوا إليها.. فقالوا : أنت ربنا لا يصرفنا عنك صارف .. ولا يمنعنا من طاعتك مانع.

فخلق النار وعرضها عليهم .. فانقسموا إلى عشرة أقسام .. تسعة منها لم يتحملوا آلامها وزقومها ولهيبها وزمهريرها ففروا منها .. وبقى عشر عشر العشر قائما بالعهد .. فقال الله تعالى- لهم: خلقت لكم الدنيا فلم تنصرفوا إليها .. والجنة فلم تدخلوها.. والنار فلم تفروا منها .. قالوا :

أنت ربنا لا يصرفنا عنك صارف.. ولا يمنعنا من طاعتك مانع.

فصب عليهم البلاء صبا .. واستمر الانقسام حتى المرحلة السادسة .. من تنوع أنواع الابتلاء وقسوته.

---

(١) ١٧٢/ الأعراف.

فهؤلاء الذين ثبتوا على العهد بعد كل مراحل البلاء الست.. اتخذ الله تعالى منهم الأنبياء.

ولهذا يقول عليه الصلاة والسلام:

«أشدكم بلاء الأنبياء ثم الأولياء ثم الأمثل فالأمثل».

ومن أجل هذا قسم بعضهم العبادة إلى ثلاث درجات:

النوع الأول: عبادة تجارية.. يعطى ليأخذ.. يعبدون الله ليدخلهم الجنة.. الجنة المقصودة بعبادتهم.. وهؤلاء الذين بهرتهم الجنة بما فيها يوم العهد.. فانصرفوا إليها.

والنوع الثاني: عبادة العبيد.. يعبدون الله خوفا من عقابه.. واتقاء لغضبه.. الخوف من النار هو دافعهم إلى العبادة.. وهؤلاء هم الذين لم تبهرهم الجنة بنعيمها ولكنهم فروا يوم العهد من ألم النار وعذابها.. وهؤلاء أرقى درجة من النوع الأول.

أما النوع الثالث: فهى عبادة الأحرار.. لا طمعا فى الجنة.. ولا خوفا من النار.. وإنما يعبدون الله حبا لذاته فقط.. وهؤلاء هم الذين لم ينصرفوا عن الله عندما عرض عليهم الجنة.. ولم ينصرفوا عنه عندما عرض عليهم النار.. وثبتوا لم يصرفهم عنه صارف.

، ونحن نعيش الآن مع أسرة كلها ممن ثبتوا على العهد وصمدوا أمام جميع البلايا والمحن والرزايا.. إنها بحق أسرة الشهداء.

لم يكن زكريا- عليه السلام- يدري أن فرحه بيحيى لن يطول.. فقد كتب الله- سبحانه- البلاء لمثل هؤلاء.

وذلك أن هيرودس- ملك اليهود فى ذلك الحين- بلغه أن ثلاثة من المجوس قدموا من الشرق يرقبون نجما فى السماء.. وهداهم سيرهم إلى أورشليم- العاصمة- وسألوا: أين ولد ملك اليهود؟ فاستدعاهم إليه وسألهم عما يبتغون.. فقالوا له: أيها الملك.. يوجد فى كتبنا- كتب الصابئة- وهم عبدة الكواكب.. ما يدل على أن كوكبا يظهر فى السماء.. يكون علامة على ميلاد طفل يكون له شأن كبير.. وقد بزغ هذا الكوكب وازداد تألقا فى السماء.. فجئنا بهدايا من الذهب والمر واللبان.. واهتدينا بالنجم حتى وصلنا إلى هنا.. وهذا دليل على أنه فى هذا الموقع من الأرض.. فقال لهم هيرودس الملك: ولِمَ تلك الهدايا بالذات؟

قالوا: لأنها أمثاله.. فالذهب سيد المتاع كله.. وكذلك هذا الوليد سيد أهل زمانه. والمر يجبر الكسر ويبرىء الجرح.. وكذلك هذا الوليد يشفى كل سقيم ويبرئ كل مريض.. واللبان دخانه يدخل السماء ولا يدخلها دخان غيره.. وكذلك هذا الوليد يرفعه الله إلى السماء.

وطبعا كانوا يقصدون عيسى- عليه السلام- الذي ولد فى نفس العام الذى ولد فيه يحيى - عليه السلام - وفى نفس البلاد- فلسطين- فكان هذا الأمر كافيا لأن يثير حفيظة الملك الطاغى على ذلك المولود الذى سيهدد ملكه.. وينازع ولده السيادة والشرف.. فطلب من المجوس الثلاثة أن يهتدوا إليه ويخبروه به ليكرمه.. ولكنهم بعد أن اهتدوا إلى عيسى فى بيت لحم وسجدوا له وقدموا لأمه الهدايا سرا.. أحسوا أن هيرودس يريد الغدر به.. فعادوا إلى بلادهم ولم يرجعوا إلي الملك.. وأصدر هذا أمرا بقتل جميع الأطفال الذكور الذين ولدوا فى السنتين الأخيرتين.. وخاصة أبناء الأنبياء ورجال الدين.. فهم الذين ينتظر أن يكون هذا الوليد من أصلابهم.

وغلب زكريا- عليه السلام- على أمره.. ماذا يفعل في ابنه الحبيب وقد قارب السنتين من عمره.. لا شك أن حبه له يفوق كل حب.. إنه ليس حب الوالد العادى لولده.. ولكنه حب من نوع أشد قوة وأعمق وجدانا.

لقد علم زكريا- عليه السلام- أن الله تعالى أوحى مناما إلى يوسف النجار ابن عم مريم- عليها السلام- لكى يذهب بها مع وليدها إلى مصر.. هربا من ذلك الملك الظالم الجبار.. وقد خرجوا فعلا في رحلتهم.. ونجا عيسى الوليد- عليه السلام- من يد هيرودس وزبانيته.. فماذا يصنع مع ابنه يحيى؟

طلب من زوجته اليصابات أن تحمل ابنها الذى رزقهما الله به بعد طول حرمان.. وكان لهما قرة عين فى أيامهما الأخيرة من عمرها الطويل.. وفى قلبه أنات مكتومة.. وزفرات محبوسة.. حبسها وقار النبوة وثبات الإيمان.

خرج الشيخ حزين النفس.. كاسف البال.. يسير في ظلمة الليل يحمل فى يده اليسرى بعض الطعام والماء.. وفى اليمنى عصا يتوكأ

عليها.. وهو يكاد يقتلع قدمه من الأرض اقتلاعا فى كل خطوة يخطوها.. تتبع خطاه الثقيلة زوجه الرءوم.. تحمل ولدهما الحبيب.. فهو في طريقه بهما إلى الصحراء الواسعة.. والفيافى الشاسعة.. حتى إذا خرج هذا الركب الكريم من المدينة.. وبدت الصحراء مترامية الأطراف.. بعيدة الأرجاء.. وقف الشيخ ونظر إلى زوجته وولده نظرة فيها كل شيء.. فيها الحب والشجن والحنان.. وفيها الشفقة ولوعة الوجدان.. نظرة لا يدري هل هى بمقلة العين أم بشغف الفؤاد.

زوجة وفية عاشرته من شرخ الصبا وبواكير الشباب.. تحنو عليه كما يحنو صدر الأم الرءوم على وحيدها الرضيع.. تخفف عليه وحشة الزمن وآلام السنين.

وابن حبيب رزق به بعد فقد الأمل وانقضاء الأجل.

وقف يودعهما.. وهو يحس فى قرارة نفسه أنه الوداع الأخير.. ويشعر فى أعماق وجدانه أنه لا لقاء بعده إلا فى جوار الله.

وطبيعيا لا مجال هنا لتبادل الألفاظ وتناول العبارات.. وكل ما استطاع الشيخ أن يفعله أن طبع قُبْلَةً طويلة حارة على جبين يحيى كادت من زفراتها أن تحرق وجهه البض الصغير.. ثم دعا لهما واستودعهما الله ليلقيا بنفسيهما فى أحضان الفيافى والقفار.. بعد أن سلمها ما استطاع حمله من الغذاء والماء.. ثم عاد يجر رجليه جرا.. ليستأنف دعوته إلى الله.. التى خُلِقَ من أجلها.. وليعود إلى رسالته التى اصطفاه الله لها.. ولولا هذا لذهب مع زوجته وولده إلى حيث يشاء الله تعالى.

دخل زكريا المعبد.. وناجى ربه بما يعتمل بين جوانحه.. وما يختلج به وجدانه من الخوف على فلذة كبده.. وشريكة عمره.. وفوجىء بالجند يقتحمون عليه الهيكل.. وليس فى قلوبهم ذرة من خشية الله.. أو رهبة لجلال المعبد.. فسألوه: أين ولدك يحيى ليقتل تنفيذا لأمر الملك؟.. فقال لهم: لا أعلم له مكانا.. وهو صادق فى قوله لأنه لا يدرى أين هو الآن.. ولكنهم وقد أُشربت قلوبهم القسوة.. وطبعت أرواحهم على الغلظة.. قبضوا عليه فى وحشية.. وضربوه وعذبوه ليعترف بمكان ابنه.. فكان رده أن لاأدرى أين هو الآن..

وأمر هيرودس- الملك- بقتله.. وقتلوه.. وحصلت المعجزة.. لقد اختفى جسد زكريا- عليه السلام- كيف اختفى؟ لا أحد يدرى- ولا شك أن الملائكة قد حملته إلى حيث يريد الله.

وتجمد دم زكريا- عليه السلام- فى الهيكل حتى صار قطعة حمراء من الحجر الصلد.

وفى الصباح سمعوا صوتا صارخا.. لا يدرون هل هو هابط من السماء أو منبعث من خلايا الأرض.. يقول:

قُتِل زكريا وسيصرخ دمه حتى يأتى المنتقم له.

وجاء فى إنجيل برنابا أن المسيح قال لليهود: ستأتى عليكم دماء الأنبياء الذين قتلتموهم إلى دم زكريا الذى قتلتموه بين الهيكل والمذبح..

ويوجد زكريا آخر.. له كتاب عند النصارى.. وهو «زكريا بن برخيا».

كان في زمن دارايوش- حاكم الفرس- أى قبل ميلاد المسيح- عليه السلام- بأكثر من ثلاثة قرون.. وهو الذى تكلم فى كتابه فى الفصل التاسع عن ولاية عمر ابن الخطاب- رضى الله عنه- وانتصاره على أورشليم.. ودخلوها منصورا وادعا راكبا حمارا.. يؤولونه النصارى بأنه المسيح.

ولليهود مسيح منتظر.. هو الدجال (١).

□ □ □

(١) قصص الأنبياء- للنجار.

٣ يحيى يأخذ الكتاب بقوة

سارت اليمامات ضاربة فى كبد الصحراء.. تحمل ابنها يحيى تارة .. وتجره فى يدها تارة أخرى .. تجلس دقائق لتستريح وتتزود معه بالقليل من الطعام والماء .. ثم تستأنف رحلتها الشاقة المضنية .. فإذا أدركها الليل أوت إلى مكان تتوسم فيه بعض الأمن .. تحتضن طفلها وكأنها تريد أن تشق صدرها لتخفيه بين أضلاعها .. حتى بلغا مأمنا .. عين الله تكلأهما .. وعناية ترعاهما ..

ولكن أمر الله غالب فماتت الأم بعد أربع سنوات.. وقد ناهز يحيى - عليه السلام - السادسة من عمره .. ليشب على عين الله وحده.

وقرر رجال التفسير أن يحيى - عليه السلام - شب فى الصحراء .. يأكل من الجراد الذى تدفعه إليه الرياح .. ويتفكه بأقراص العسل التى تخرج من جذوع الشجر .. ويلبس من وبر الجمال.

وهكذا قالت جميع الأناجيل .. مثل ما جاء فى الإصحاح الثالث من إنجيل متى.

«٤- ويوحنا هذا كان لباسه من وبر الإبل.. وعلى حقويه منطقة من جلد وكان طعامه جرادا وعسلا بريا(١)».

تفرغ يحيى- عليه السلام- كلية لعبادة الله من صباه:

(يا يحيى خذ الكتاب بقوة وآتيناه الحكم صبيا) ١٢/ مريم.

والحكم هنا: بمعنى الحكمة.

ويسميه أهل الكتاب فى كتبهم «يوحنا المعمدان» لأنه عمد جميع بنى إسرائيل بالماء من نهر الأردن.. وقد ذهب عيسى- عليه السلام- إلى يحيى فى البرية.. ليعمده بالماء أيضا.

وما زال المسيحيون يعمدون أبناءهم أى يُنَصِّرُونَهم- فى سن معلومة.. وهنا يتلألأ حديث رسولنا- صلى الله عليه وسلم-:

«كل مولود يولد على الفطرة فأبواه ينصرانه أو يهودانه أو يمجسانه» بمعنى أن المولود لو ترك على طبيعته- لشب مسلما.. لأن الإسلام دين الفطرة التى فطر الله الناس عليها.

---

(١) إصحاح/ ٣ أية ٤. متى

فنرى - يحيى عليه السلام- فى إنجيل مرقس:

٤- صوتا صارخا فى البرية يقول: أعدوا طريق الرب.. اصنعوا سبله مستقيمة... ٧- وكان يكرر قائلا: يأتى بعدى من هو أقوى منى الذى لست أهلا أن أنحنى وأحل سيور حذائه-٨- أنا عمدتكم بالماء وأما هو فسيعمدكم بالروح القدس.. ٩- وفى تلك الأيام جاء يسوع من ناصرة الجليل.. واعتمد من يوحنا فى الأردن(١).

وهل روح القدس غير القرآن الكريم؟.. يقول تعالى:

(وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا) (٢).

وإذا أردنا تتبع خطوات يحيى- عليه السلام- في إنجيل يوحنا الإنجيلى. نجده فى الإصحاح الأول يقول:

١٩- وهذه شهادة يوحنا حين أرسل اليهود من أورشليم كهنة ولاويين ليسألوه: من أنت؟-٢٠- فاعترف ولم ينكر قال إنى لست أنا المسيح-٢١- فسألوه: إذاً ماذا؟ إيلياء أنت؟ فقال: لست أنا.. قالوا: النبى أنت لنعطى جوابا للذين أرسلونا.. قال: أنا صوت صارخ فى البرية».

وكرر يوحنا الإنجيلى هنا العبارة التى ذكرها مرقص فى إنجيله.

أخبر- يحيى عليه السلام- بنى إسرائيل أنه ليس المسيح.. وليس إيلياء.. وإنما هو صوت صارخ فى البرية.. يمهد لمن يأتى بعده.. ويقول عنه:

إنه ليس أهلا لأن يحل سيور حذائه.. فمن المقصود هنا؟.. هل يصح أن يكون هو عيسى- عليه السلام- مع أن عيسى عمده يحيى؟.. أعتقد أن هذا غير معقول.. وخاصة إذا دققنا النظر فى مناقشة الكهنة ليحيى.. يسألونه: هل أنت المسيح؟ فيقول: لا.. هل أنت إيلياء؟ فيقول: لا.. ومعنى هذا أن هناك من اسمه إيلياء غير يحيى وغير المسيح.. فمن هوإيلياء هذا؟.

لا شك أنه أحمد- عليه الصلاة والسلام.

ولا يفوتنا أن نذكر هنا رسالة يحيى إلى عيسى- عليهما السلام- التي أوردها لوقا فى إنجيله.. فى الإصحاح السابع.. يقول:

١٩- فدعا يوحنا- يحيى اثنين من تلاميذه وأرسل إلى يسوع- المسيح- قائلا:

أنت هو الآتى.. أم ننتظر آخر؟

٢٠- **فلما جاء الرجلان إليه قالا له**: يوحنا المعمدان قد أرسلنا إليك قائلا: أنت هو الآتى أم ننتظر آخر؟ (٣).

ولم يذكر لنا لوقا رد عيسى عليه.. وإنما قال: إنه فى تلك الساعة شفى كثيرا من المرضى.. وإن عيسى قال للرسولين:أخبرا يوحنا بما رأيتما.

وهذا رد غير صريح.. والنقص ظاهر فى تلك الرواية.. مما يدل علي وجود محذوف.. وسنعود إلى هذا الموضوع بالتوضيح إن شاء الله فى- نبأ عيسى- عليه السلام- فى فصل «معجزات المسيح».

ومات هيرودس.. وكانت الشام تابعة لقيصر الروم.. فعين مكانه ولديه: هيرودس الأصغر على نصف المملكة.. وفيليبس على النصف الثاني.. بينما اشتهرأمر يحيى- عليه السلام- وصلاحه وتقواه.. فقصده بنوإسرائيل يعظهم ويرشدهم إلى طريق الحق.. ويعلمهم ما يسعدهم فى دنياهم وأخراهم.. ذهبواإليه زرافات ووحدانا.. يعلنون التوبة إلى الله.. ويبدون الندم على ما فرط منهم من الذنوب والآثام.. فكان يحيى- عليه السلام- يباركهم ويزكيهم ويعمدهم من ماء نهر الأردن.. أى يغسلهم بمائه ليطهرهم من ذنوبهم.

ويقول إنجيل متى:

«**وفى تلك الأيام** جاء يوحنا المعمدان يكرزفى برية اليهود.. قائلا: توبوا..لأنه قد اقترب ملكوت السماوات» (٤).

دعاهم إلى الحب والبر بالفقراء والعطف عليهم ومساعدة المحتاجين.. ومد يد العون إلى المساكين.. فمثلا جاء فى إنجيل لوقا:

«وسأله الجموع قائلين.. فماذا نفعل؟ فأجاب وقال لهم: من له ثوبان فليعط من ليس له.. ومن له طعام فليفعل هكذا» (٥).

(١) الإصحاح الأول- مرقص.

(٢) ٥٢/ الشوري.

(٣)الإصحاح السابع- لوقا.

(٤) الإصحاح الثالث-متى.

(٥) الإصحاح الثالث- لوقا.

وكان يحيي- عليه السلام- قويا فى ضرب الأمثال.. لوصول عظاته إلى القلوب وضرب المثل هو أقوى الدعائم التي يرتكز عليها الداعية إلى الله.

فضرب المثل في الشرك: برجل اشترى عبيدا من خالص ماله.. ثم أسكنهم دارا له.. ودفع لهم مالا يتجرون فيه.. ويأكل كل واحد منهم ما يكفيه.. ثم يؤدون إليه فضل الربح. فدفع العبيد فضل الربح إلى عدو سيدهم.

وضرب مثل الصلاة: برجل استأذن على ملك.. فأذن له.. ودخل عليه..فأقبل الملك عليه بوجهه ليسمع مقالته ويقضى حاجته.. فصار الرجل يلتفت يمينا وشمالا ولم يهتم بحاجته.. فأعرض عنه الملك ولم يقض حاجته.

وضرب مثل الزكاة: بأسير اشترى نفسه بثمن معلوم.. فجعل يعمل ويؤدى من كسبه القليل والكثير حتى أوفى ثمنه فأعتق.

وضرب المثل فى ذكر الله: بقوم لهم حصن ولهم عدو..فإذا أقبل العدو دخلوا حصنهم فلم يقدر عليهم.. وكذلك ذكر الله لا يقدر عليه الشيطان.

وضرب مثل الصيام: كمثل جنة تستر من فيها عن عدوه.

أرأيت أبلغ وأوقع وأعمق من تلك الأمثلة الحية النابضة التى تنساب إلى القلوب فى يسر وسهولة كما ينساب السهم فى إصابة الهدف؟

أرأيت عن الشرك أن سيدك كفل أمرك كله.. فلا يجوز أن تعطى فضل ما معك لسواه؟

وهل رأيت أنك فى صلاتك قائم بين يدى الملك.. الذى اتجه إليك وفتح لك أبواب الرحمة.. يريد أن يحقق أملك.. ويجيب رجاءك.. فلا تعرض عنه فيعرض عنك؟ .

وهل رأيت فى الزكاة والصدقة.. أنك تدفع قسطا من ثمنك لتعتق من النار؟

وهل رأيت فى ذكر الله إنه حصن حصين.. وركن أمين.. تلجأ إليه كلما حاصرتك الهموم.. وأحاطت بك الخطوب والأنواء؟

وهل رأيت في الصوم.. تلك الحديقة الملتفة الأشجار التي تسترك.. فلا تصل إليك أنظار الأعداء؟

وهكذا صار يحيى- عليه السلام- صوتا صارخا في البرية.. قويا فى عظاته.. حكيما في أمثاله.

وما أجمل تعبير القرآن الكريم عنه:

«يا يحيى خذ الكتاب بقوة وآتيناه الحكم صبيا» (١)

كان يحيى- عليه السلام- كثير البكاء.. طويل الدعاء.. حتى نحل جسمه.. وضمر عوده.. وصار أقرب إلى الملاك منه إلى جسم الإنسان.

أذكر أننى قرأتُ عن يحيى أنه قال: اللهم اعصمني من ألسنة الناس.

فقال له: يا يحيى لن أختصك بشىء لم أختص به نفسى.

قالت اليهود:عزير بن الله.. وقالت النصارى: المسيح ابن الله.

وقالت اليهود: يد الله مغلولة وغلت أيديهم.

وقالت اليهود: إن الله فقير ونحن أغنياء.

فكيف أختصك بشىء لم أختص به نفسى؟

قضى حياته في البرية.. ثم أتى بيت المقدس.. فجعل يعبد الله فيه مع الأحبار والرهبان.. ويأتيه اليهود من كل فج يعظهم ويهديهم سواء السبيل.

□ □ □

---

(١) ١٢/ مريم.

٤ صراع الشياطين

كان هيرودس الأصغر ملكا ظالما.. فاجرا مستهترا.. أحب زوجة أخيه فيليبس الذى يشاطره ملك الديار..
وكانت امرأة لعوبا من النوع الذي يسمونه الآن- بملكات الإغراء- واسمها- هيروديتا- بادلته حبا بحب.. وراشقته غراما بغرام.. حتى صار هذا الأمر حديث الغادي والرائح.. والقاعد والسائح.. وكانت نتيجته إشعال الحرب الضروس بين الأخوين.. ولكن فيليبس كان ضعيفا.. فهزمه هيرودس.. واستولى على ملكه وزج به بين جدران السجن.

وألسنة الناس لا ترحم..فأراد هيرودس أن يسكت الألسنة ويخرس النقاد.. وخيل له شيطانه أنه من الممكن أن يتزوج هيروديتا زوجة أخيه.. مع أنه هو متزوج.. وهي مازالت زوجة لأخيه السجين.

ولكن كيف يتم هذا.. وهو أمر ديني.. لابد أن يكون بفتوى شرعية يجيزها رجال الدين من الأحبار والرهبان.

وبلغ سمع هيرودس أمر نبى الله يحيى.. وحب الناس إياه.. والتفاف الجماهير حوله.. وخضوع القلوب له حبا وسمعا وطاعة.. فأرسل إليه العديد من الرسل ليحصل منه على تلك الفتوى الملعونة.. فلم تفلح رسله.. برغم الوعيد والتهديد.

فاستدعاه مرارا إلى قصره.. ليظهر للناس أن علاقته به لا يشوبها شئ.. ولكن يحيى في كل مرة كان يخطب في الناس يعظهم ويرشدهم.. وربما كان يُلَمح في بعض كلماته بما يريد به أن يصل إلى هذا القلب الفاسق الفاجر.. عله يرجع عن غيه.. ويؤوب إلى رشده.. ويحفظ للأُخوة حقها.. وللدين حرمته.. ولكن أنَّى لمصباح هذا القلب المظلم أن يكون له نور..؟! وقد تكتلت على زجاجته أكداس الأقذار والأغبار.. فلا ينفذ منه خيط من نور.. ولا يتسلل إليه بصيص من شعاع.

وقد صدق إمامنا الشافعى حين قال:

شكوت إلى وكيع سوء حفظى
فأرشدنى إلى ترك المعاصى
وأخبرنى بأن العلم نور
ونور الله لا يهدى لعاصِ

ونور الله فى جميع القلوب واحد.. حتى قلوب الكفرة والفسقة والعصاة.. ونضرب المثل لذلك بمصابيح الكيروسين.. كل مشتملاتها واحدة:

الإناء.. والكيروسين.. والفتيل المشتعل.. وجهاز الرفع والخفض.. فلماذا يكون هذا المصباح منيرا وذاك مظلما؟.

الفرق فى الزجاجة.. هذا زجاجته صافية نظيفة.. فانبثق منها النور ساطعا قويا.. وذاك زجاجته تراكمت عليها الأوساخ والأدخنة فليس فيه خيط من نور.. أو بصيص من شعاع.

ولهذا يقول- عليه الصلاة والسلام:

«إن القلوب تصدأ كما يصدأ الحديد وجلاؤها الاستغفار» أو قال: «ذكر الله».

وأنّى لقلب مثل قلب هيرودس أن يرى ما هو فيه من فسق وفُجْر.. وعتو وكفر.. وكيف تصل إليه عظة.. أو تمسه ذكرى.. وقد طمس الشيطان على هذا القلب.. فصار فى غلاف سميك من الخطايا والآثام وذلك مثل قولهم:

«وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه وفى آذاننا وقر، ومن بيننا وبينك حجاب» (١).

ويئس هيرودس من الحصول على ما يبتغيه من يحيى- عليه السلام- فأمربإيداعه السجن.. بحجة الخشية منه على سلامة المملكة.. وتلك دائما حجة الحاكم الظالم إذا أعجزته الحيلة.. وأعيته الحجة.. ولبث يحيى فى السجن عشرة أشهر.. بذل فيها الملك معه كل الوسائل والحيل ليثنيه عن رأيه.. أو يستميله إليه.. ولكن من غير جدوى.. فلم يجد بدا من قتل أخيه فيليبس بإيعاز من عشيقته هيروديا.. والنساء حبائل الشيطان..

فقتله ليخلو لهما الجو ويتزوجا.. قطعا لدابر الأحاديث المترددة بين الشعب.. وقضاء على النقد المتأجج لدى الجماهير.

ودعا يحيى إليه ليبلغه زوال العقبة التى كانت بينه وبين هيروديا بموت زوجها فيليبس.. وعدم وجود حائل يحول بينه وبين الزواج منها.. ولكن يحيى- عليه السلام- أصر على إنكار هذا الزواج.. وعدم الموافقة عليه.. وصمم على رأيه هذا فى قوة وحزم.. وثبات وعزم.. كم وعده هيرودس ورجاه.. وكم ساومته هيروديا وتوسلت إليه ليوافق على هذا الزواج.. استجابة لنداء قلبيهما وقد سكنهما الشيطان ليحرك فيهما نبضات الحب الآثم.. ويثير كوامن العشق المأفون.

ولكن يحيى كان كالصخرة العاتية والجبل الأشم.. فلم يزدد إلا إصرارا على الحق وثباتا على الرفض.. قائلا للملك: لا تكون لك هيروديا أبدا.. ليس بالشر يعالج الشر.. وليس بالذنب يمحى الذنب.. فأمر بإعادته إلى السجن.

وآه من قلب المرأة.. إذا أحبت حطمت الحواجز ودكت السدود فى سبيل حبها.. وإذا بغضت كان حقدها إعصارا يفتت الجبال التى تعترضها.

وقد قال بعض العلماء: إننى أخشى النساء أكثر من خشيتى للشيطان فقد قال الله تعالى عن الشيطان: (إن كيد الشيطان كان ضعيفا) (٢).

ولكنه قال عن النساء: (إن كيدكن عظيم) (٣).

وهذه هيروديا أحبت الملك هيرودس.. وعملت على التخلص من زوجها.. حتى لا يحول بينها وبين حبها.

وأبغضت يحيى لأنه لم يوافق على إتمام هذا الزواج.. فكان لزاما عليها أن تدبر أمرها.. وتعمل حيلتها.. وتنفذ انتقامها منه.

□ □ □

---

(١) ٥/ فصلت.

(٢) ٧٦/ النساء.

(٣) ٢٨/ يوسف.

٥ الحب القاتل

تذكرت هيروديتا ابنتها سالومى.. فتاة فى شرخ الصبا وعمر الزهور.. ذات قد مياس.. وعود أمشق.. شعر أسود كالليل.. يتهادى على كتفين مرمريين.. تكاد الفتنة تتفجر من جوانبهما.. يضمها صدر بارز نابض بالحياة وكأنه بندقية الصياد الماهر صوبت إلى قلب طائر وادع آمن.

خصر نحيل يحمله ردفان عريضان.. يوحيان بالفتنة.. ويصرخان بالإغراء.. فإذا عدت ببصرك إلى وجهها.. رأيت وجها جعله الله آية فى الجمال.. ورمزا للإبداع.. عينان حالمتان ساحرتان.. نامت أهدابهما في استرخاء فاتن فوق خدين أثيلين مستهما ريشة القدرة مسا رفيقا رقيقاً فكانتا زهرتين ناضرتين..ألهبهما الشوق والحنين إلى قطرات الندى فى صبح يوم صائف.

كانت سالومى بنت العاشقة الفاجرة هيروديتا.. نموذجا حيا للإغراء والفتنة.. سمعت عن يحيى. . هذا الشاب التقى الورع ابن الصحراء. . الذى أحبته الجماهير. . وعشقته الأسماع.. وسارت بذكره الركبان. . فزارته فى السجن. . من باب حب الاستطلاع. . ولكنها كانت زيارة لا تدرى أبعادها. . ولا تسبر أغوارها. . فقد رأت شابا جميل الصورة.. تام التقاطيع.. فى رشاقة تجعله كطائر يطير في الهواء.. لا كبشر يدب فوق البطحاء.. جذبها نور وجهه الصبوح.. وفتنتها رشاقته مع جلال الروح.

وكم حاولت معه سالومى بكل وسائل الإغراء المزدوج.. إغراء الطبيعة الذى قام فى كل خلجة من خلجات جسمها.. وإغراء الشيطان الذى تجسد فى هذا التمثال ليكون سلاحا مدمرا من أسلحته الفتاكة.

زارته مرارا فى سجنه فى هجعة الليل وسكون الكرى.. حيث يفتح لها السجان باب سجن يحيى- عليه السلام- بعد أن تغدق عليه من المال والعطايا.. استنفدت مع يحيى كل الوسائل والحيل.. عله يستجيب لدعائها المجنون.. ويلبى نداء قلبها المفتون.. ولكن أنَّى للشيطان مهما أوتى من أسلحة الهلاك ومعاول الدمار.. أن يقتلع ذرة من هذا الجبل الأشم!!

فكان يحيى يبسم فى بسمة عريضة.. وهو يجيبها في كل مرة بما يحاول به أن يهديها إلى سواء السبيل.. ويرشدها إلى طريق الله المستقيم.. فكان هذا منه بالنسبة إليها.. كالبترول تصبه على النار فيزيدها اشتعالا.. ويؤججها وجيئاً.. وبدأ حبها له ينقلب إلى حقد عليه.

تذكرت هيروديتا ابنتها سالومى.. وهي تعلم بما أوتيت من خبرات العشق وتجارب الهيام.. أن ابنتها مفتونة بهذا الإنسان الذى تكرهه بكل نبضة فى قلبها.. وتحقد عليه بجميع خلجات صدرها.. فوجدت فيها السلاح الذي تبتغيه.. سلاح الانتقام من يحيى.. ودبرت في نفسهاأمرا.

جاء عيد ميلاد الملك هيرودس.. وبدأت الاستعدادات الضخمة فى قصر الملك.. كما بدأت الاستعدادات الضخمة أيضا فى قلب هيروديتا.. فلابد أن تنفذ مؤامرتها فى تلك الليلة..ليلة عيد ميلاد عشيقها الفاجر.

أقيمت الزينات.. وأعدت الموائد بما لذ وطاب من أفخر الأطعمة وأجودها.. وأغلى الخمور وأعتقها.. وأكبر الراقصات والمغنيات وأشهرها.

وبدا الحفل صاخبا.. ضاحكا.. ثائرا كلماأسرف المدعوون في الأكل والشرب والمجون.

ولعبت الخمر برأس الملك.. وأخذته نشوة جعلته لا يدرى هل هو حي أم ميت.. في الحقيقة أم في الخيال.. في الأرض أم فوق السحاب.

وألقت هيروديتا قنبلتها.. فقدمت إلى الحفل بنتها سالومى بعد أن ألبستها ما خف وشف من الثياب.. وكستها حلة من الزينة لم تبديها فتاة من قبل.. وبعد أن اتفقت معها على أمر.

وتقدمت سالومى إلى الملك.. تتهادى بجسمها البض كما يتهادى غصن الورد أمام نسمات الأصيل.. وتلقاها هيرودس وهو لا يصدق أنه يرى فتاة من بنات حواء.. واحتواها بين ذراعيه طالبا منها أن تشاركه رقصة على نغمات الموسيقى الحالمة التى تملأ المكان سحرا وفتنة.. ورقصت معه سالومى بكل أحاسيسها ووجدانها وخلجاتها وكأنها رقصة المذبوح.. فهي قادمة على أمر خطير.. وصارت تغريه بين الحين والحين بالشراب.. حتى بلغت النشوة منتهاها.. وصعد السكر في رأسه إلى قمته.

والتقت كل عوامل الشر ضد يحيى- عليه السلام- الحب.. والحقد.. والفسق.. والمرأة.. والشيطان.. والظلم المتمثل فى هذا الملك الفاجر الطاغى الثمل.

وتمنعت سالومى فى دلال ورشاقة .. زادت قلبه اشتعالا .. وهيامه اضطراما .. فأصر على ذلك فى وحشية جامحة .. وبهيمية مارقة .. ونزوة خارقة .. فلم يتمالك نفسه أن دعاها إلى مخدعه غافلا أو متغافلا وجود أُمها فى الحفل.

وحانت اللحظة الحاسمة.. فقالت سالومى: حتى تقدم مهرى يا مولاى.. فقال لها: اطلبي ما شئت.. ولو كان في أعماق الثرى.. أو على متن الثريا.. لقدمته لك.. قالت: أريد رأس يحيى.

ولكأنى أرى يحيى- عليه السلام- ساجدا في غرفته بالسجن.. وقد انطلقت روحه من الظلمات الثلاث: ظلمة السجن.. وظلمة الليل..وظلمة النفس.. والمقربون يفرحون بالخلوة.. ويستلذون بالظلمة.. لينطلقوا بأرواحهم.. يخترقون الحجب.. ويسبحون في النور.. وها هو يحيي يناجي ربه مناجاة خفية ويدعوه دعاء صامتا.. بعد أن سجد بين يدى الله.. وبعد أن وصل السالب بالموجب.. وسرى التيار الذى يعلو به من ظلمات الخلق إلى نور الأمر «ألا له الخلق والأمر».. وإن كان جسمه مقيدا بالسلاسل والأغلال.

وفتح باب السجن ليدخل السياف وقد شهر سيفه في يده لينفذ الأمر العاجل الصادر من الملك.. وبضربة واحدة خاطفة.. انفصل رأس يحيى عن جسده.. وحُمل الرأس في طبق من النحاس.. ليمثل أمام الملك الفاسق وعشيقته الحاقدة الفاجرة.. بعد أن أحكمت حيلتها.. ونفذت خطتها.

وكان حضور رأس يحيي لم يطفئ نار حقدها.. فأحضرت إبرة.. وأرادت أن ترشقها فى هذا اللسان الذى استعصى عليها.. ولم تقدر على استنطاقه موافقة على زواجها الغادر الأثيم.

وقيل في بعض الروايات: إن الرأس أدخل على الملك ولسانه يقول: لا تحل لك.. لا تحل لك.. ولعل هذا هو السبب الذى جعلها تحضرإبرة وأرادت رشقها فيه.. ولكن الإبرة استعصت على السير في عضلة اللسان.. وكأنها من الصلب قدت.. فكسرت الإبرة فى يدها.. ولم تتمالك سالومى أن تنحنى على شفتيه الجامدتين لتقبلهما.. فقد امتنعتا عليها فى حياته.. فلا أقل من الحصول على أملها بعد مماته.

وكانت مفاجأة.. فقد طار الرأس من الطبق إلى حيث يشاء الله.

وصعدت روح يحيى إلى مستودعها في برزخ السماء الثانية وهذا ماورد فى حديث الإسراء والمعراج.. حيث يقول عليه الصلاة والسلام: **إنه لقى في السماء الثانية يحيى وعيسى- عليهما السلام.**

﴿إذ قال الله يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتى عليك وعلى والدتك إذ أيدتك بروح القدس تكلم الناس فى المهد وكهلا وإذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذنى فتنفخ فيها فتكون طيرا بإذنى وتبرئ الأكمه والأبرص بإذنى وإذ تخرج الموتى بإذنى وإذ كففت بنى إسرائيل عنك إذ جئتهم بالبينات فقال الذين كفروا منهم إن هذا إلا سحر مبين﴾.

[١١٠- المائدة]

○ من نبأ
عيسى بن مريم عليه السلام

١ الرزق الحسن

جاء فى جميع كتب التفسير تقريبا حول تفسير قوله تعالى:

(إن الله يرزق من يشاء بغير حساب)(١).

«أن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ أقام أياما لم يطعم طعاما.. حتى شق ذلك عليه.. فطاف بمنازل أزواجه.. فلم يصب فى بيت أحد منهن شيئا.. فأتى فاطمة ــ رضى الله عنها ــ فقال: يابنية.. هل عندك شئ آكله فإنى جائع؟.. فقالت: لا والله بأبى أنت وأمى.. فلما خرج من عندها.. بعثت إليها جارة لها برغيفين وبضعة لحم.. فأخذته منها.. ووضعته فى جفنة وغطت عليه.. وقالت: لأوثرن بها رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ على نفسى وعلى من عندى.. وكانوا جميعا محتاجين إلى شبعة من طعام.. فبعثت حسنا وحسينا إلى جدهما رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فرجع إليها.. فقالت: بأبى أنت وأمى يا رسول الله.. قد آتانا الله بشئ فخبأته لك.. قال: فهلمى به.. فأتته به.. فكشف عن الجفنة.. فإذا هى مملوءة خبزا ولحما.. فلما نظرت إليه بهتت.. وعرفت أنها بركة من الله.. فحمدت الله تعالى.. فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ: من أين لك هذا يا بنية؟.. قالت: هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب.. فقال: الحمد لله الذى جعلك شبيهة بسيدة نساء بنى إسرائيل.. فإنها كانت إذا رزقها الله رزقا حسنا فسئلت عنه قالت:- هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب.

فبعث ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى على.. فأتى به.. فأكل رسول الله وعلى وفاطمة والحسن والحسين وجميع أزواج النبى حتى شبعوا وبقى فى الجفنة.

قالت فاطمة ـ رضى الله عنها ـ: وأوسعت منه على جميع جيرانى.. وجعل فيها بركة وخيرا كثيرا.. وكان أصل الجفنة رغيفين وبضعة لحم.. والباقى بركة من الله تعالى».

وكان ـ عليه الصلاة والسلام ـ بقوله لفاطمة:

«الحمد لله الذى جعلك شبيهة بسيدة نساء بنى إسرائيل» يقصد مريم بنت عمران ـ

---

(١) ٣٧ / آل عمران.

عليها السلام ـ التى انقطعت فى محرابها عابدة قانتة متبتلة. وقد كفلها زكريا ـ عليه السلام ـ بتوجيه من الله تعالى.. لما أصابته قرعة الأقلام.. التى أقامها الأحبار والرهبان.. ليعلموا أيهم يكفل مريم.

(وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون)(١).

ويخبرنا الله سبحانه ــ عن نتيجة تلك القرعة فى قوله تعالى عن مريم:

«فتقبلها ربها بقبول حسن وأنبتها نباتا حسنا وكفلها زكريا»(٢).

وقد وضح جدا فى قوله تعالى (وأنبتها نباتا حسنا) وأن الرزق الذى كانت تأكله ليكون وسيلة النماء والإثبات فى جسمها.. كان رزقا حسنا ليصير نباته نباتاً حسنا.. وخاصة إذا استعرضنا تكملة الآية التى نحن بصدد استعراضها الآن (كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا قال يا مريم أنى لك هذا قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب). فلفظ (كلما) يفيد الاستمرار والدوام.. ومعنى هذا أن تلك الظاهرة.. ظاهرة الرزق الحسن.. كانت ملازمة لها من يوم أن دخلت المحراب.. الذى بناه لها زكريا عليه السلام ـ داخل المسجد لتنقطع فيه عابدة متبتلة ـ أى منقطعة لعبادة الله تعالى.

فما نوع هذا الرزق الحسن؟ «ومن أين يأتى؟.. ولماذا؟

من حق العقل أن يفكر دون شطط وواجب الفكر أن يتدبر الآيات دون ملل.. لقوله تعالى (كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته) (٣) وهل التدبر إلا إعمال العقل وإشغال الفكر؟

قالوا: كان زكريا ـ عليه السلام ـ يجد عندها فاكهة الشتاء صيفا.. وفاكهة الصيف شتاء.. فما الحكمة فى هذا التأويل الذى لا يقبله العقل ولا يرضاه المنطق.. لأن الله حكيم فى كل أمر يدبره.. بديع فى كل قدر يقدره؟.. إن الله ــ سبحانه ــ قد خلق لكل فصل من فصول السنة فاكهة تتلاءم مع جوه.. فالفاكهة المدفئة للشتاء.. والمرطبة للصيف.. فهل يستساغ البطيخ والشمام مثلا فى فصل الشتاء؟.

وبقى السؤال قائما .. ما نوع هذا الرزق الحسن إذاً؟.

وللإجابة على هذا السؤال .. علينا أن نتأمل قليلا .. لنرى أن هذا الرزق نزل من السماء فى حياة مريم وابنها ـ عليهما السلام ـ على ثلاث دفعات.

الدفعة الأولى: على مريم مدة من الزمن قبل حملها بعيسى.. وقد تكون تلك المدة طويلة أو قصيرة ـ الله أعلم بها ـ ولكننا نكتشف أنها مدة من الزمن.. لقوله تعالى: «كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا».

وكلما تفيد الاستمرار ـ كلما قلنا ـ مما يدل على استغراق زمن ما.

والدفعة الثانية: لحظة ميلاد عيسى ـ عليه السلام ـ عندما اشتد بها الطلق .. وجلست متألمة إلى جذع يابس من جذوع النخل .. ليس به سعف ولا كرانيف (٤) ولا عروق فى موضع يقال له ـ بيت لحم ـ بفلسطين .. كما لا يوجد به ماء.

وضغطت على الجذع بكلتى يديها.. صارخة من شدة الألم وهى تقول:

«يا ليتنى مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا» (٥).

فإذا بها تجد الحياة تدب فى هذا الجذع اليابس.. وتتدلى فوقه أسلاك البلح رطبا جنيا .. وفى نفس الوقت تنشق الأرض تحتها عن جدول رقراق بالماء العذب.. البارد عند شربه والدافئ عند استعماله .. ثم يناديها وليدها الذى لاح وجهه المشرق على الوجود فى تلك اللحظة.

«فناداها من تحتها أن لا تحزنى قد جعل ربك تحتك سريا. وهزى إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا. فكلى وأشربى وقرى عينا» (٦).

وقد سئل ـ عليه الصلاة والسلام ـ عن السرى.. فقال: هو جدول الماء (٧) فنزل عليها هذا الرزق فى تلك المرة بلحا وماء.

---

(١) ٤٤/ آل عمران.

(٢) ٣٧/ آل عمران.

(٣) ٢٩/ ص.

(٤) الكرنافة: أصل السعفة .. يسميها العوام ـ القحف ـ.

(٥) ٢٣/ مريم.

(٦) ٢٤ ـ ٢٦ / مريم.

(٧) تفسير الكشاف وغيره ـ مريم ـ

وأما فى المرة الثالثة: فبعد أن كبر عيسى - عليه السلام- وهو فى قمة صراعه مع بنى إسرائيل.. لما قال له الحواريون:

«هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء قال اتقوا الله إن كنتم مؤمنين. قالوا نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا ونعلم أن قد صدقتنا». فيما تقوله لنا من أن أمك كان ينزل عليها مائدة من السماء.. «ونكون عليها من الشاهدين».. وطلب عيسى من الله تعالى أن ينزل عليهم المائدة: قال: «اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيدا لأولنا وآخرنا وآية منك وارزقنا وأنت خير الرازقين».. واستجاب الله تعالى لرسوله:

«قال الله إنى منزلها عليكم» (١).

ونزلت المائدة من السماء.. سفرة حمراء بين غمامتين.. وهم ينظرون إليها.. فإذا بها سمكة مشوية بلا فلوس (٢) ولا شوك.. وخمسة أرغفة فأكلوا منها جميعا.. وأكل منها أيضا عيسى وأمه عليهما السلام(٣).

ونحن نرى هنا أن الرزق فى الحالة الأولى- قبل الحمل- مجهول بالنسبة لنا.. وفى الحالة الثانية كان رطبا وماء.. وفى الحالة الثالثة كان سمكة وخبزا.

ونفهم أيضا أنها كانت من مصدر واحد.. ومن عناصر واحدة.. نجهل كنهها.. ولا نعرف نوعها.. وإن اختلفت أشكالها ومسمياتها.

فأين هذا المصدر؟.. ولماذا كان؟

ولابد أن تكون هناك علاقة بين هذا الرزق وبين عيسى- عليه السلام- حيث كان تنزله: قبل الحمل به.. وفي لحظة مولده.. وقبل رفعه بزمن قصير فما هى تلك العلاقة؟.. **وما هى الرابطة التي تربط بين جسم عيسى وهذا المصدر الذي ينزل منه هذا الرزق الحسن؟**

□ □ □

(١) ١١٢- ١١٥/ المائدة.

(٢) قشر.

(٣) البيضاوى وغيره- ١١٥/ المائدة.

٢ عناصر غريبة

لعل الطريقة العجيبة في حمل مريم بعيسى من غير أب.. قد دفعت أقواما إلى الظن بأنه ابن الله تارة- كما قال النسطوريون- أو هو الله تارة أخرى- كما قال اليعقوبيون- أو هو ثالث ثلاثة- كما قال الملكيون- كل هذا لأنه ولد من غير أب.

وتصوري لهذا الأمر ببساطة المنطق.. أن الله- سبحانه- أراد أن يبرز قدرته من جميع زوايا الإمكان.. فقد خلق إنسانا من غير أب ولا أم.. وهو آدم.. ومن الزاوية المقابلة لتلك الزاوية خلق إنسانا من أم وأب.. مثلي ومثلك ومثل جميع المخلوقات.. ومن زاوية أخرى خلق إنسانا له أب وليس له أم.. وهو حواء.. خلقها من ضلع من أضلاع آدم- عليه السلام.. ولهذا يقول- صلى الله عليه وسلم-:

«خُلقت المرأة من ضلع أعوج.. إن عدلته كسرته.. وإن تركته استمتعت به على عوجه».. فلها أب وليس لها أم.. فلزم أن يخلق إنسانا له أم وليس له أب..فكان هذا الإنسان هو عيسى بن مريم- والله يقول عنه (ولنجعله آية للناس) (١).

وقد جعل الله لكل شئ سببا.. وأتبع سببا.. وهو- سبحانه- خالق السبب بقوته.. ومسببه بقدرته وحكمته.. فالسمكة مثلا إذا خرجت من الماء ماتت.. والدجاجة إذا غاصت فيه هلكت.. لأن الله قد هيأ لكل جسم ما يلائمه في البيئة التي يحيا فيها.

ويعلم الله- تعالى- أن مريم ستكون وعاء لإبراز الآية التي يريد أن يبرزها إنسانا له أم وليس له أب.. ويعلم أن هذا الإنسان سيرفع من كوكب الطين- الأرض- إلى كوكب آخر.. لا ندري عنه شيئا.. ولا نعرف له كنها.. لقوله تعالى عن عيسى:

﴿بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزا حكيما﴾ (٢)

ويعلم- سبحانه- أن هذا الإنسان سيبقى في كوكبه الآخر الجديد حينا من الدهر.. ثم يعود إلى كوكب الطين- الأرض- مرة أخرى في آخر الدهر. كما ثبت هذا بعشرات الأحاديث الصحيحة.. والتي سنوردها في مكانها- إن شاء الله- من هذا الكتاب.. وكما ثبت ذلك أيضا من نص القرآن الكريم.. في قوله تعالى له: (تكلم الناس في المهد وكهلا) (٣)..

---

(١) ٢١/ مريم.

(٢) ١٥٨/ النساء..

(٣) ١١٠/ المائدة.

وقد كلم الناس فى المهد.. ولكنه لم يكلمهم وهو كهل.. حيث رفع وهو فى شرخ الشباب قبل سن الكهولة.. فكان لزامـا أن ينزل إلى الأرض.. ويكلم الناس وهو كهل.. وهذا هو ظاهر النص..

وقوله أيضا:

(وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيدا) (١).

والضمير هنا يعود إلى عيسى.. أى أن جميع أهل الكتاب سيؤمنون بعيسى قبل أن يموت.. وذلك بعد عودته إلى الأرض فى آخر الزمان.. وهذا ظاهر النص أيضا.

كما جاء فى سورة الزخرف:

﴿وإنه لعلم للساعة فلا تمترن بها﴾ (٢).. وسياق الآية قبلها يدل على أن المتحدث عنه هو عيسى.. بمعنى أن نزوله إلى الأرض سيكون من علامات الساعة.. وقد قرأها ابن عباس- رضى الله عنه-:

(وإنه لعلم للساعة) (٣) بفتح اللام.. أى علامة على قربها:

(فلا تمترن بها).. من الريبة والشك.. والمراء والجدل.. وهذا ظاهر النص كذلك.

وهنا تتضح لنا تلك الروابط التى تربط بين جسم عيسى- عليه السلام- وبين هذا الرزق الهابط من السماء على ثلاث دفعات..

أولا: أراد المسبب- سبحانه- أن يكون بجسم عيسى-عليه السلام- من الخلايا ما يلائم حياته فى هذا الكوكب المجهول بعد رفعه إليه.. فكان الرزق يأتى منه لمريم- عليها السلام- قبل الحمل آخذا صفة الاستمرار والدوام.. ليكون ذلك الإنبات الحسن.. ولتكون الخامة التى سيتكون منها جسم الوليد جاهزة فى بطنها.. فى انتظار أمر التكوين.. لأنه ليس حملا منويا متطورا «خلقا من بعد خلق فى ظلمات ثلاث» من نطفة إلى علقة.. ومن علقة إلى مضغة.. ومن مضغة إلى هيكل عظمى غضروفى .. مثل غيره من بنى البشر.. كلا.. وإنما هو أمر من أمور التكوين المباشر (كن فيكون).

اقرأ قوله تعالى (إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون) (٤).

فلزم أن تكون الخامة جاهزة فى بطنها مسبقا وتلك هي الدفعة الأولى قبل الحمل.

ثانيا: تلك الخلايا الغريبة التى نزل بها جسم عيسى- عليه السلام- لحظة ميلاده لا عمل لها على سطح كوكب الأرض.. وإنما هى لاستعمالها فيما بعد عند رفعه إلى الكوكب الآخر الذى هو مصدر هذا الرزق.. ليكون لائقا جسميا للحياة على سطحه.. فالدجاجة لا تحيا تحت سطح الماء كما أن السمكة لا تعيش طويلا فى الهواء.. لاختلاف تركيب كل منهما. فلزم تثبيتها بالرضعة الأولى.. حيث إنه سوف يأكل بعدها مما تنبت الأرض التى سوف يعيش فوقها نيفا وثلاثين عاما وتلك هى الدفعة الثانية.

ثالثا: لما جاء موعد الرفع.. أراد الله- تعالى- أن ينبه تلك الخلايا الساكنة في جسمه.. الخامدة في تكوينه.. استعدادا لقيامها بمهامها وأداء وظيفتها.. فسبب سؤال الحواريين له:

(هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء) ١١٢- المائدة وطلبها من الله.. ونزلت السمكة والأرغفة ليأكل منها عيسى.. ولا شك أنها كانت من نفس المصدر.. ومن نفس المادة.. مادة الرزق الحسن الغريبة عن مادة الأرض.. أكل منها عيسى- عليه السلام- لتنشط تلك الخلايا الكامنة في جسمه من يوم مولده. تمهيدا لرفعه إلى مصدرها.. حيث يبقى هناك إلى ما شاء الله وتلك هى الدفعة الثالثة.

ولعلنا فيما أوجزناه في تلك العجالة قدمنا دليلا ماديا على رفع عيسى- عليه السلام- وسبحانه مسبب الأسباب.. ليخر العقل ساجدا بين يدى عظمته.. عاجزا عن إدراك جلاله وقوته.. معترفا بالقصور عن الإحاطة بحكمته.

□ □ □

(١) ١٥٩/ النساء.

(٢) ٦١/ الزخرف.

(٣) النسفى ٦١/ الزخرف.

(٤) ٥٩/ آل عمران.

٣ منحة ومحنة

ذكرت في كتابي- مريم البتول -أنني لما أردت أن أكتب في موضوع حمل مريم بعيسى- عليهما السلام- كان لزاما عليَّ أن أشهد أحداث هذا الحدث العجيب في- سورة مريم- فكانت صورة عميقة التأثير في النفس.. لم أستطع معها أن أحبس دمعات انسابت من مقلتي.. ولست أدري هل هي دمعات باردة؟ ودمعة الفرح باردة.. أم هي دمعات حارة؟ ودمعة الحزن حارة.. وسألت نفسي: هل هي دموع الأسى والشفقة على مريم في محنتها القاسية؟.. فتاة عذراء قديسة.. لا يعرف عنها أحد إلا العفة والطهر والطيبة والتقوى.. وينظر الجميع إلى أسرتها نظرة التوقير والتبجيل والتقديس.. تظهر أمام المجتمع وقد حملت في فترة خطبتها لابن عمها يوسف النجار.. قبل إتمام الزواج.. وهذا زنى في جميع الشرائع؟.. أم هي دموع الفرح والغبطة.. لأن الله تعالى قد حباها واصطفاها لتكون إناء لآية تهز العالم.. وتدفعه دفعا إلى الاعتراف بقدرة القادر.. وإرادة العزيز العليم..؟.

ولكنني تذكرت موقفا لكفار قريش.. بعد أن قتل الله عددا من أبطالهم في غزوة بدر الكبرى.. فقالوا: ثأركم بأرض الحبشة.. حيث يوجد عدد كبير من كبار المسلمين هاجروا إليها.

فجهزوا هدية للنجاشي.. وأرسلوها مع عمرو ابن العاص.. وعبد الله بن أبي ربيعة.. لاستلام المسلمين المهاجرين بالحبشة.. وردهم إلى مكة للثأر منهم.

وسمع- صلى الله عليه وسلم- ببعثهما.. فأرسل عمرو بن أمية الضمري.. وكتب معه إلى النجاشي.. فلما قرأ النجاشي كتاب رسول الله- صلي الله عليه وسلم- دعا جعفر بن أبي طالب- رضي الله عنه- ومن معه من المهاجرين.. ثم أرسل إلى الرهبان والقسيسين فجمعهم ثم قال لجعفر: هل معك شئ مما جاء به صاحبكم عن الله؟..

فقال جعفر: نعم.. فقال له النجاشي: اقرأه عليَّ.. فقرأ سورة- مريم (كهيعص).. وقام الرهبان والقساوسة تفيض أعينهم من الدمع.. فقرأ عليهم:

(ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون. وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين) (١).

يقول الرواة: بكى النجاشي حتى اخضلت لحيته.. وبكت أساقفتهم حتى اخضلت لحاهم.. حين سمعوا ما يتلى عليهم.

فقال النجاشي: إنه وما جاء به موسى وعيسى ليخرج من مشكاة واحدة.. ثم نظر إلى عمرو بن العاص وزميله.. وقال: انطلقا.. فوالله لا أسلمهم إليكم أبدا(٢).

وحقا إن لتلك السورة لأثرا يهز المشاعر.. ويحرك الوجدان.. ويوقظ الفكر.. بأسلوب أخاذ.. وتعبيرنفاذ.. وجرس موسيقى رائع.. يذرف الدمع.. ويحلق بالروح بعيدا عن ظلمات النفس وأكدار الحياة.

فتعال معى لنرى فتاة عذراء قديسة.. تخدم البيت مع يوسف النجار.. وهو يوسف بن يعقوب بن ماثان (٣).. قديس مثلها.. يتصدق من عمل يده.. حيث يعمل نجارا.. تحرر معها لخدمة بيت المقدس.

وخرجت- عليها السلام- صبيحة يوم صاف جميل.. مشرقة من بيت المقدس.. لتصعد ربوة قريبة.. كعادتها.. حيث تسبح روحها الطاهرة مع نسمات البكور.. وتغريد الطيور.. وسريان الأشعة.. وسكون الرمال.. وجريان السحب.. وصمود الجبال .. وتظل هكذا في أغلب الأيام حتى تزول الشمس.. ثم تعود إلى محرابها حتى ما بعد العصر.. ثم ترجع إلى صخرتها الشرقية متلهفة إلى أحضان الطبيعة.. وتظل في تسبيحة الأصيل حتى تودع كوكب الشمس.. وهو يغوص فى الأفق الغربى كما يودع الصديق صديقه.. والأليف إلفه.. إلى لقاء آخر قريب.

وهذا هو كتاب الكون الضخم الرهيب.. الذى ربى النبيين والمرسلين من أبى البشرية آدم.. إلى نبينا الخاتم.. ومن تبعهم من الأولياء المتقين وصالح المؤمنين.

ودائما يحرضنا القرآن الكريم على النظر فى ملكوت السماوات والأرض.. قبل طلوع الشمس وقبل غروبها.. وكأن الله- سبحانه يبكت هؤلاء الذين أعماهم الشيطان.. فلا يرون في الكون بصمات اللطيف الخبير.. الخالق المصور البديع.. فيقول جل شأنه:

(وكأين من آية فى السماوات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون) (٤).

ولكن مريم- عليها السلام- سليلة بيت النبوة والرسالة والمجد.. كانت من أولى الألباب (الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السماوات والأرض) (٥).

فى هذا اليوم تسلقت مريم- عليها السلام الصخور حتى وصلت إلى الربوة الشرقية.. واختارت لها مكانا محجوبا عن أعين الناظرين.. تشرف منه على ما حولها من صفحات الكون المفتوحة للمستبصرين:

(واذكر فى الكتاب مريم إذا انتبذت من أهلها مكان شرقيا. فاتخذت من دونهم حجابا) (٦) لتتفرغ بكل أفكارها ومشاعرها.. عابدة خاشعة.. متبتلة ضارعة.. واستقر بها مكانها:

وتلمح على البعد شابا يتسلق الصخر.. خفيفا رشيقا.. إنه جبريل- عليه السلام- فى طريقه إليها:

(فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا) (٧).

وعبارة (بشرا سويا) توحى بأنه كان في صورة شاب جميل الصورة كامل التقاطيع.. متناسب الخلق.

ويالها من مفاجأة عنيفة.. جعلتها تنتفض انتفاضة العذراء المذعورة.. لقد كانت آمنة في خلوتها.. مطمئنة بوحدتها.. وتضاربت في ذهنها الظنون والشكوك.. فصرخت مستعيذة بالرحمن:

---

(١) ٨٢- ٨٣/ المائدة.

(٢) القرطبى-- أول- مريم.

(٣) عن الكتاب المقدس وقصص الأنبياء للنجار ص ٣٧٣.

(٤) ١٠٥/ يوسف.

(٥) ١٩١/ آل عمران.

(٦) ١٦- ١٧/ مريم.

(٧) ١٧/ مريم.

(قـالت إني أعـوذ بالرحـمن منـك إن كنت تقيا)(١).

قيل: فنكص جبريل فـزعا عند ذكـر الرحمن.. وقال لهـا: لا تخافى ولا تراعـى.. فأنا لست آدميا.. أنا رسول من استعذت به إليك: (إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا) (٢) غـلاما.. يا للكارثة.. لقد زاد الأمر خطورة وتعقيدا.

ومن حقنا أن نتخيل ما أصابها من فزع.. مشوب في تلك المرة بالحياء والخجل.. حياء الفتاة العذراء.. مع شاب في الخلاء يصارحها بهذا الأمر الخطير.

يقول الأستاذ سيد قطب فى هذا المقام: إنها لم تثق بعـد بأنه رسـول من عند ربهـا.. فـقـد تكون حـيلة فاتك.. يسـتغل طيبـتها.. ويصـارحها بما يخـدش سمع الفتاة الخجول.. وهو أنه يريد أن يهب لها غلاما.. وهما فى خلوة (٣).

وكان طبـيعيـا أن تكون صريحة مـعه. كمـا كان صريحا معها.. فالحياء لا ينفع في مثل هذا الموقف الذى يمس العرض والشرف.. فقالت: كيف يحصل هذا:

(أنى يكون لي غـلام ولم يمسـسنى بشـر ولم أك بغيا) (٤)؟

إنه رد شـامل جمـع الأمر من جـانبيه: الحـلال والحرام.. فـالمس يعبـر عن الزواج وهو حلال.. والبـغاء يرمز إلى الحرام..

ولا شك أن عدة عـوامل قد تفـاعلت فى نفسـها عن الطريقة التي تنجب بهـا طفلا.. فليس في ذهنها إلى هذه اللحظة غـيـر الطريقة التي يعـرفـها الناس لإنجاب الأطفـال.. ولهذا قـالت: إنى لم أتزوج بعـد.. كمـا أنى لست زانية.. فكيف يكون لى غلام؟!!!.

فقـال لها جـبريل- عليـه السلام- (كـذلك قال ربك هو عليَّ هين ولنجعله آية للناس ورحـمة منا وكان أمرا مقضيا) (٥).

ونحن مضطرون الآن إلى الوقوف برهة.. أمام هذا المشـهد المثيـر فالقـرآن الكريم لم يبين لنا كـيف تم هذا الحمل.. وإنما يقول أغلب المفسرين:

تقـدم جبـريل- عليه السـلام- بعد أن اطمـأنت إليه.. واسـتسلمت لأمـر ربها.. فـتناول ردن قميـصـها بأصبعه.. فنفخ فيه.. فحملت من ساعتها.

وقد شط بعضهـم وتعسف في تحليل معنى النفخ والحمل.. فقالوا: إن الله تعالى لما خلق آدم.. وأخذ الميثاق من ذريته.. جعل بعض الماء في أصلاب الآباء.. وبعضه فى أرحام الأمهات.. فإذا اجتمع الماءان صار ولدا.. وأن الله تعـالى جـعل الماءين جـمـيعـا في مـريم بعـضـه فى رحمـهـا.. وبعضه في صـلبها.. فنفخ فيـه جبريل لتـهيج شهوتهـا.. لأن المرأة ما لم تهج شهوتهـا لا تحمل.. فلما هاجت شـهـوتها بنفـخ جبـريل وقع الماء الذي كـان في صلبها فى رحمها.. فاختلط الماءين فعلقت بذلك (٦).

وهذا تكلف وتعسف وشطط لا داعي له.

فما كـان ظهور جبريل- عليـه السلام- لمريم في خلوتهـا.. إلا لتنفيـذ أمر التـكوين المباشـر لتلك الخامـة المعدة من قبل في بطنها- نتيـجة للطعام الذى نزل عليها مدة من السماء والتي ناقشناها في الفصل السابق.. وأما نفـخـة الروح التي وردت فـي قـوله تعـالى فى «سـورة التحريم».

(ومريم ابنة عمران التى أحصنـت فرجها فنفخنا فيه من روحنا) (٧).

وقوله في سورة الأنبياء:

(والتي أحصنت فـرجها فنـفخنا فيـها من روحنا وجعلناها وابنها آية للـعالمين) (٨) فهى تعنى الروح التي نفخ الله منه في آدم.. بعـد أن سـواه من تراب.. فـصـار إنسانا.. نفخ منه في مريم أيضا بعد تشكيل جسم عيسى وتصويره في بطنها.. فصار إنسانا.

---

(١) ١٨/ مريم.
(٢) ١٨/ مريم.
(٣) ظلال القرآن ٢٠
(٤) ٢٠/ مريم.
(٥) ٢١/ مريم.
(٦) القرطبى- ٤٧/ آل عمران.
(٧) ١٢/ التحريم.
(٨) ٩١/ الأنبياء.

ولقد ذهب الأستاذ سيد قطب إلى هذا المعنى.. فى رأيه عن نفخة الروح فى فرج مريم- عليها السلام- فى كتابه- فى ظلال القرآن- فقال:

أما فى سورة التحريم.. فتعنى الروح الذى نفخ الله منه فى آدم فإذا هو إنسان.. نفخ منه فى فرج مريم.. فإذا البويضة حية مستعدة للنمو (١).

ولكننا نستبعد فكرة البويضة ونموها وتطورها.. فإن النفخة كانت مباشرة لتدب الحياة كاملة في جسم عيسى.. كما كانت مباشرة لتدب الحياة فى جسم آدم تماما.. ولا فرق بين الحالتين إلا أن جسم آدم كان ظاهرا أمام الملائكة.. أما جسم عيسى فكان مستورا فى بطن أمه على وشك الخروج إلى الوجود.. ويؤيدنا فى هذا المعنى قوله تعالى:

(إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون) (٢).

فقوله تعالى (كن) يفيد كمال التكوين من غير نقص.

وليغفر لى القارىء الكريم أننى أطلت فى هذا المقام.. وذلك لأن الكثير قد فهم أن حمل مريم بعيسى- عليهما السلام- استغرق زمنا عاديا كالحمل المألوف.. حتى بعض العلماء المحدثين كالشيخ عبد الوهاب النجار فى قصص الأنبياء.. وهذا بعيدا جدا.. وإلا كان حملا تطوريا من نطفة إلى علقة إلى مضغة إلى عظام إلى لحم يكسو تلك العظام.. كلا.. وإنما كان تكوينا لتلك المادة المجهولة المعدة من قبل فى بطنها.. ولا ينقصها غير التكوين والتشكيل والتصوير- كما أسلفنا- فكان كل هذا فى التو واللحظة.. بل وبدون زمن: قل أو كثر.. كما هو الحال دائما فى تنفيذ أمر الله- قبل ارتداد الطرف-

«وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر» (٣).. أو هو أقرب (٤).

بمعنى أن لمح البصر يتألف من التقاء الهدبين وانفصالهما بالبصر. . وهما جزءان من الزمن وقدرة الله تعالى لا تتأخر جزءا. . ثم تتحقق فى الجزء الثانى. . لأن هذا يعتبر عجزا فى اللحظة الأولى..

وهو محال على الله تعالى.. فلزم انتفاء الزمن لزوما رياضيا.

ولغة القرآن الكريم أيضا تؤيدنا فى أنه لم يكن حملا معتادا.. استغرق مدة الحمل المعتاد.. فالعطف فى الآية بحرف الفاء التى تفيد الترتيب مع التعقيب السريع.. حيث قال تعالى:

(فحملته فانتبذت به مكانا قصيا * فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة قالت ياليتنى مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا * فناداها من تحتها) (٥) إلى آخر الآيات.

ولو كان العطف هنا بحرف (ثم) التى تفيد الترتيب مع التراخى لجاز لنا أن نشك فى زمن الحمل قبل وضعه.. مثل قوله تعالى:

(فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة) (٦).. إلى آخر الآية.

وقوله:

(هو الذى خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم يخرجكم طفلا) (٧) إلى آخر الآيات.

فترى أن العطف هنا بحرف (ثم).. مما يدل على استغراق بعض الزمن.. مع أن هذه جزئيات من الحمل.. ولهذا نضم صوتنا إلى ابن عباس- رضى الله عنه- قال: «كانت مدة الحمل «قبل الوضع» ساعة واحدة. كما حملته نبذته» (٨).

وأتصور- اجتهادا- وللمجتهد نصيب إذا أخطأ.. ونصيبان إذا أصاب- أنه لو التقطت صورة لعيسى- عليه السلام- وهو فى شرخ شبابه- قبل رفعه- لكانت هى صورة جبريل- عليه السلام- حال ظهوره أمام عين مريم.. عند نفخة الروح.. فقد قامت عينها بما تقوم به آلة التصوير.. لتنعكس تلك الصورة على الجنين فى بطنها.. وكأنها لقطة الوحم.

وقد أوردت الأناجيل قصة هذا الحمل المعجزة.. نعرض بعضها.. لنرى كيف شطحت المفاهيم بعقول بنى البشر.. حتى أضفت على عيسى- عليه السلام- صفات الإلوهية.. وعكست الحكمة من خلقه على هذا النحو العجيب.. فشوهت عقيدة التوحيد..

(١) ظلال القرآن

(٢) ٥٩/ آل عمران.

(٣) ٥٠/ القمر.

(٤) ٧٧/ النحل.

(٥) ٢٢- ٢٧/ مريم.

(٦) ٥/ الحج.

(٧) ٦٧/ غافر.

(٨) القرطبى والكشاف وغيرهما ٢٢- ٢٤/ مريم.

ففى **إنجيل لوقا** جاء فى الإصحاح الأول ما يأتى:

«فى الشهر السادس من حمل اليصابات زوج زكريا أرسل الملاك جبريل من الله إلى مدينة من الجليل اسمها ناصرة * إلى عذراء مخطوبة لرجل من بيت داود اسمه يوسف واسم العذراء مريم * فدخل الملاك وقال سلام أيتها المنعم عليها. الرب معك. مباركة أنت فى النساء * فلما رأته اضطربت من كلامه وفكرت ما عسى أن تكون هذه التحية * فقال لها الملاك لا تخافى يا مريم لأنك وقد وجدت نعمة عند الله * وها أنت ستحبلين وتلدين ابنا وتسمينه يسوع * هذا يكون عظيما وابن العلى يدعى ويعطيه الرب كرسى داود أبيه * ويملك على بيت يعقوب ولا يكون لملكه نهاية * فقالت مريم للملاك كيف يكون هذا وأنا لست أعرف رجلا * فأجاب الملاك وقال لها الروح القدس يحل عليك وقوة العلى تظلك فلذلك أيضا القدوس وليدك يدعى ابن الله.. وها هى ذا اليصابات نسيبتك هى أيضا حبلى بابن فى شيخوختها وهذا هو الشهر السادس لتلك المدعوة عاقر * لأنه ليس شىء غير ممكن لدى الله * فقالت مريم هو ذا أنا أمة الرب ليكون قولك فمضى من عندها الملاك» (١).

وقد انفرد إنجيل لوقا بذكر بعض عبارات فى قصته هذه.. لم ترد فى الأناجيل الثلاثة الأخرى من الأناجيل الأربعة الرسمية:

وهى: متى.. ولوقا.. وبطرس.. ويوحنا.

وهذه العبارات هى: «وابن العلى يدعى» و«المولود منك يدعى ابن الله» و«ويعطيه الإله كرسى داود أبيه».

فهذه العبارات لم ترد فى غير إنجيل لوقا.

ولوقا ليس تلميذا.. ولا من الاثنى عشر.. بل هو رجل دخل فى الدين متأخرا.. وصار تلميذا لبولس الذى لم ير المسيح ولم يعاشره.

تلك العبارات مما جاء به ليزين أمر المسيح.. ويدخل على الناس تعظيمه.. والمسيح برىء منها.

ولعل قوله: « وابن العلى يدعى» عبارة مأخوذة من قول زكريا فى ابنه يحيى- عليهما السلام-: «وأنت أيها الصبى نبى العلى». فحرفت فى حق عيسى- عليه السلام- إلى قول لوقا على لسان الملك:

«وابن العلى يدعى» ليوهموا الناس أن المسيح- عليه السلام- إله وابن إله.

□ □ □

---

(١) الفقرات ٢٦- ٣٨- الإصحاح الأول- لوقا.

٤ تحت جذع النخلة

ونعود إلى مريم عليها السلام.. لنصحبها فى محنتها.. بعد أن انصرف عنها جبريل- عليه السلام- فى نفس اللحظة التى أحست فيها بالجنين يتحرك فى بطنها.. ويالها من محنة قاسية.. وموقف مؤلم.

وهى وإن كان الأنبياء والأولياء هم أشد الناس بلاء.. إلا أن بلاءها كان من نوع شديد بالنسبة إلى فتاة عفيفة طاهرة.. نقية تقية.. لم تفق من ذهولها بعد هذا الحدث الجلل.. إلا عندما أبصرت عشيرها (١) يوسف ابن عمها مقبلا نحوها من بعيد.

ذهب إلى المسجد فلم يجدها.. فعرف أنها على الصخرة الشرقية.. فأسرع إليها ليشاركها عبادتها وتسبيحها.. رأته مقبلا.. فذهبت السكرة.. وحلت الفكرة- كما يقولون-

ماذا تقول ليوسف؟.. وكيف تواجهه وهذا الجنين يتحرك فى بطنها؟.. فضيحة فظيعة.. وألم نفسى مريع.. اضطرب من أجله جسدها كما تضطرب القشة حملتها موجة طاغية.. فقامت من مكانها ذاهلة حائرة.. لتقابله وهى راعشة راجفة.. يوسف..أنا.. أنا.. وفوجئت به قبل أن تخرج الكلمة المتعثرة من فمها.. يشير إليها ألا تكمل قولها.. قائلا: أنا أعلم كل شىء يا مريم.. قالت: ماذا تعلم؟.. قال: أعلم أنك حامل.. قالت: ومن الذى أعلمك هذا؟.. قال: أعلمنى الذى كان عندك الآن.

لقد أراد الله- تعالى- وهو رحيم بمريم فى محنتها.. أن يرد عنها ظنون يوسف وشكوكه.. رأفة بها ورحمة.. باعتباره خطيبها وعشيرها.. وهو أول من يثيره هذا الأمر.. فأخبره بذلك جبريل- عليه السلام- وهو فى طريقه إليها.

وعادت إليها نفسها الحائرة المضطربة الملتاعة.. ثم قالت من أعماق قلبها.. بعد أن تنفست الصعداء.. مادمت قد علمت الحقيقة يا يوسف.. فلا يهمنى أحد سواك.. وسأتحمل كل ما سيكون من أجل هذا الوليد الزكى الطاهر.. الذى اختاره الله آية للعالمين.

---

(١) اليهود يسمون الخطيب- العشير- طوال مدة الخطبة.

وعلينا أن نستعرض سريعا بعض ما جاء عن هذا الحادث فى الأناجيل: جاء فى إنجيل متى فى الإصحاح الأول:

«لما كانت مريم أمه مخطوبة ليوسف.. قبل أن يجتمع بها.. وجدت حبلى من الروح القدس.. فيوسف رجلها إذ كان بارا.. ولم يشأ أن يشهرها.. أراد تخليتها سرا.. ولكن فيما هو يتفكر فى هذه الأمور.. إذا ملاك الرب قد ظهر له فى حلم.. قائلا.. يا يوسف بن داود.. لا تخف أن تأخذ مريم امرأتك.. لأن الذى حبل به فيها.. هو الروح القدس.. فستلد ابنا.. وتدعو اسمه يسوع.. لأنه يخلص شعبه من خطاياهم» (١).

وجاء فى الفصل الثانى من إنجيل برنابا:

«**أما مريم**..فإذا كانت عالمة بمشيئة الله وموجسة خيفة أن يغضب الشعب عليها.. لأنها حبلى.. فيرجمها.. كأنها ارتكبت الزنا.. اتخذت لها عشيرا من عشيرتها.. قويم السيرة.. يدعى- يوسف- لأنه كان بارا متقيا الله.. يتقرب إليه بالصلاة والصيام.. ويرتزق بعمل يديه.. لأنه كان نجارا.

هذا هو الرجل الذى كانت تعرفه العذراء.. واتخذته عشيرا.. وكاشفته بالإلهام الإلهى **ولما كان يوسف بارا.. عزم.. إذ رأى مريم حبلى** .. على إبعادها لأنه يتقى الله.. وبينما هو نائم.. إذا بملاك يوبخه.. قائلا: فيها.. إنما كون بمشيئة الله.. ستلد العذراء ابنا وستدعونه- يسوع- تمنع عنه الخمر والمسكر.. وكل لحم نجس لأنه قدوس الله.. من رحم أمه.. فإنه نبى من الله.. أرسل إلى شعب إسرائيل.. ليحول يهوذا إلى قلبه.. ويسلك إسرائيل إلى شريعة الرب.. كما هو مكتوب فى ناموس موسى.. وسيجىء بقوة عظيمة يمنحها له الله.. وسيأتى بآيات عظيمة.. تفضى إلى خلاص كثيرين.

فلما استيقظ يوسف من النوم.. شكر الله.. وأقام مع مريم كل حياته.. خادما لله بكل إخلاص» (٢).

ومسألة العشير عند بنى إسرائيل. . هى أن يختار الرجل لابنته عشيرا يعاشرها فى بيت أبيها مدة من الزمن.. فإذا رضيته ورضيها تم الأمر بالزواج.. ولكل منهما فى أثناء المعاشرة قبل الزواج أن يتخلى عن الآخر. على ألا يحدث بينهما اتصال جنسى فى مدة المعاشرة.. فإذا حصل كان زنى يستحق الرجم.

ونلاحظ أن ما جاء فى الأناجيل حول مسألة حمل مريم- عليها السلام- لا يختلف عما جاء فى القرآن الكريم.. ولكن الأناجيل جاء فيها ذكر يوسف النجار.. فلم يتحدث عنه القرآن الكريم.. ولكن يصح إيراده.

كما أن الأناجيل ذكرت أن حمل مريم قد انتشر خبره بين بنى إسرائيل قبل الوضع.. وهذا باطل.. لأن رؤيتهم لها تحمل ابنها كانت مفاجأة لهم.. كما هو نص القرآن الكريم.. ولهذا نعود إلى أحضان القرآن الكريم.. الذى يقول:

«**فحملته فانتبذت به مكانا قصيا.. فأجاءها** المخاض إلى جذع النخلة» (٣).

والموقف هنا- كما يقول الأستاذ- سيد قطب- أشد هولا من موقفها الأول.. فلئن كانت فى الموقف الأول.. تواجه الحصانة والتربية والأخلاق بينها وبين نفسها.. فهى هنا وشيكة أن تواجه المجتمع بالفضيحة.. ثم هى تواجه الآلام الجسدية بجانب الآلام النفسية (٤).

لم تتمالك نفسها من شدة ألم المخاض من- أن يفلت من صدرها أنين مكتوم.. أحس به يوسف ابن عمها.. وهو يسير بجانبها.. فى طريقهما إلى العودة.. فقال لها: مالك يا مريم؟.. قالت: ألم شديد تكاد تنفجر منه جوانبى.. وعرف يوسف أنه ألم المخاض.

فحاول أن يقوى من عزيمتها.. ويرفع من معنوياتها.. حتى يصلا إلى القرية.. وهى قريبة.. ولكن دفعة قوية من دفعات الطلق لم تستطع مقاومتها.. ألجأتها إلى جذع نخلة يابس يقوم على مذود ولا يوجد غيره فى هذا المكان- بيت لحم- فأسندت ظهرها إليه من قسوة الألم.. وفى نفس اللحظة جرى يوسف إلى القرية.. ليحضر لها شيئا يساعدها على الوضع..

---

(١) متى ص ١ - ١٨.

(٢) برنابا- الفصل الثانى.

(٣) ٢٢- ٢٣/ مريم.

(٤) ظلال القرآن.

فالمكان قفر.. ليس فيه غير مذود الماشية.. وبقايا النخلة.. وما يحيط بهما من كثبان الرمال.. فقد أحس يوسف أنه- المخاض-:

جلست مريم- عليها السلام- إلى هذا الجذع.. تتلوى من شدة الألم لا أنيس معها.. وحيدة فريدة.. تعانى حيرة العذراء يفجؤها الوضع فى أول مخاض لها.. ثم جاءت الدفعة الأخيرة من دفعات الطلق.. جبارة عاتية.. جعلتها تغمض عينيها فى إعياء شديد.. وتضغط على جذع النخلة بكل قوتها صارخة:

«يا ليتنى مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا» (١).

وقال أولوا العلم من المفسرين: قالت ذلك من فرط الحياء والخجل من الناس.. على حكم العادة البشرية.. لا كراهة لحكم الله.. أو لشدة التكليف عليها إذا بهتوها واتهموها وهى عارفة ببراءة ساحتها (٢).

وعزيز على النفس الحرة الأبية.. أن ترى فى نفسها الأمر العظيم.. الذى يستحق الثناء والتقدير والتوقير.. ثم تراه عند الناس لجهلهم به عيبا يعاب به.. ويعنف عليه.

وكانت اللحظة القادمة.. لحظة فيها كل شىء غريب.

لقد رأت الجذع الجاف.. وقد دبت فيه الحياة فجأة.. رأت فيه دبيب الحياة رؤية غير زمنية.. كما تم تكوين الجنين وتشكيله وتصويره فى بطنها من قريب.. وفى نفس اللحظة انشقت الأرض من تحتها عن جدول صغير يفيض بالماء العذب الزلال.. وفى نفس اللحظة أيضا.. سمعت صوت وليدها.. يناديها من تحتها:

«لا تحزنى قد جعل ربك تحتك سريا. وهزى إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا. فكلى واشربى وقرى عينا فإما ترين من البشر أحدا فقولى إنى نذرت للرحمن صوما فلن أكلم اليوم إنسيا» (٣).

يقول ابن عباس- رضى الله عنه-:

«كان جذعا نخرا. فلما هزت نظرت إلى الجذع.. فإذا السعف قد طلع.. ثم نظرت إلى الطلع قد خرج من بين السعف.. ثم اخضرَّ فصار بلحا.. ثم احمرَّ فصار زهوا.. ثم رطبا.. كل ذلك فى طرفة عين.. فجعل الرطب يقع بين يديها لا ينشدخ منه شىء» (٤).

والسرى: هو الجدول.. فقد سُئل- عليه الصلاة والسلام- عن السرى: فقال: هو الجدول (٥).

وقال الحسن- رضى الله عنه- هو السيد الكريم.. يقصد من «قد جعل ربك تحتك سريا» أى أن عيسى يقول عن نفسه بأن الذى تحتها سيد كريم.. فقال له خالد بن صفوان: إن العرب تسمى جدول الماء سريا.. فقال له الحسن: صدقت.. ورجع إلى قوله (٦).

وقد ورد عن صفة الماء الجارى فى هذا الجدول أنه كان باردا عند شربه.. دافئا عند استعماله.

يا سبحان الله.. وليد فى لحظة مولده.. ينادى أمه من تحتها.. نداء لا يزيد على سطرين فى كتابته.. فيه ذهاب لحزنها «ألا تحزنى».. وتذكير بربها «قد جعل ربك تحتك سريا». وإرشاد إلى طعامها وشرابها «فكلى واشربى» وتسكين لوجدانها «وقرى عينا».. وأمن فى مواجهة قومها «فإما ترين من البشر أحد فقولى» كذا.. معجزات متتابعة.. وآيات متلاحقة.. ثم غصن رطب جنى من جذع يابس.. وماء عذب سلسبيل فى صحراء جرداء.. وطفل وليد ينطق بالهدى والنور «كلى من الجنى.. واشربى من السرى.. وقرى بوليد نبى».

وقد فسر بعضهم: قرى عينا أى نامى (٧).. فكأنه أرشدها إلى الأكل والشرب والنوم.. ونحن لا نأخذ بهذا الرأى.. لأن قرة العين فى استكانتها واستقرارها فرحا وأمنا وسلاما.. لا نوما.

ويتضح هذا من قوله- عليه الصلاة والسلام:

«وجعلت قرة عينى فى الصلاة» وقوله تعالى على لسان المؤمنين: «ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين».

---

(١) ٢٣/ مريم.
(٢) الكشاف- ٢٣/ مريم.
(٣) ٢٤- ٢٦/ مريم.
(٤) القرطبى ٢٤/ مريم.
(٥) النسفى وغيره.
(٦) النسفى وغيره.
(٧) الشيبانى.. نقلا من القرطبى

وفى طلب عيسى - عليه السلام- من أمه أن تهز النخلة.. رمزية جميلة.. تدفعنا إلى السعى للحصول على الرزق.. فإن الذى شق الصحراء بالماء.. وأنزل الرطب من السماء.. كان قادرا على إسقاط الرطب فى حجرها.. ولا داعى لأن تهز فتاة مجهدة من آلام الوضع جذع النخلة ليسقط عليها البلح.. وإنما لزم اتخاذ الأسباب.. ولو تمد يدها فتمس جذع النخلة ويكون ذلك سببا لتساقط البلح لتأكل منه.

ويقول القرطبى:

«قال علماؤنا: لما كان قلبها فارغا لله.. فرغ جوارحها عن النصب أى- التعب- يقصد حينما كان ينزل لها الطعام فى المحراب بغير سبب.. فلما ولدت عيسى.. تعلق قلبها بحبه.. واشتغل سرها بحديثه وأمره.. وكلها إلى كسبها.. وردها إلى العادة بالتعلق بالأسباب فى عباده» أ هـ.

والبلح هو أنسب الأغذية فى مثل تلك الحالات.

وقالوا: التمر للنفساء عادة من ذلك الوقت.. وما للنفساء خير من الرطب.. ولا للمريض خير من العسل.

وقال الربيع بن الخيثم: ما للنفساء عندى خير من الرطب لهذه الآية.. ولو علم الله شيئا هو أفضل من الرطب للنفساء.. لأطعمه مريم (١).

طلب منها وليدها أن يكفيها شر ألسنة الناس.. وألسنة الناس لا ترحم- عندما يلقونها بما يلقونها به من الرمى والإفك والبهتان «وكان الإنسان» بطبيعته «أكثر شىء جدلا».

وويل للإنسان من عثرات اللسان.. قال لها: «فإما ترين من البشر أحدا فقولى إنى نذرت للرحمن صوما فلن أكلم اليوم إنسيا».

طمأن قلبها.. وأمن روعها.. من أمر فَضَّلَت فى قرارة نفسها أن تموت قبل أن تلقاه.. فكيف تلقى قومها- اليهود- وقد جبلت ألسنتهم على هتك الأعراض بالباطل.. والدس والفتن بغير حق.. فما بالها وهذا أمر واضح ملموس محسوس؟.

فتاة عذراء.. فى فترة خطبتها.. تحمل طفلا وليدا على كتفها.. وأمامها يسير خطيبها.. وهى ليست فتاة عادية- كما قلنا- مثل أى فتاة.. وإنما هى سليلة بيت النبوة والدين والخلق والفضيلة والشرف والمجد.. ألم يقل لها: إذا قابلك أحد من الناس فصومى.. واصمتى عن الكلام.. ودعى هذا الأمر لى.. فأنا كفيل بالدفاع والإقناع؟

وكان من الصيام عندهم.. الإمساك عن الكلام.

وقد نهى رسول الله- صلى الله عليه وسلم- عن صوم الصمت.. فصار ذلك منسوخا فينا (٢).

روى البخارى عن ابن عباس.. قال: بينما النبى- صلى الله عليه وسلم- يخطب إذا هو برجل قائم.. فسأل عنه.. فقالوا: أبو إسرائيل.. نذر أن يقوم ولا يقعد ولا يستظل ولا يتكلم ويصوم.. فقال- عليه الصلاة والسلام- مروه فليتكلم وليستظل وليقعد وليتم صومه(٣).

ولكن سنتنا نحن فى الصيام: الإمساك عن قبيح الكلام.. وفحش القول.. والكذب.. والنميمة.. والفتنة.. قال رسول الله- صلى الله عليه وسلم-: «إذا كان صوم أحدكم فلا يرفث ولا يجهل.. فإن امرؤ قاتله أو شاتمه.. فليقل إنى صائم».. وقال:

«من لم يدع قول الزور والعمل به.. فليس لله حاجة فى أن يدع طعامه وشرابه».

ومن بلاغة التعبير من الوليد- عيسى- عليه السلام- لأمه:

«فقولى إنى نذرت للرحمن صوما.. فلن أكلم اليوم إنسيا».

تعبير عجيب غريب.. قولى ولا تتكلمى!!.. كيف يكون القول من غير كلام؟.. لا معنى لهذا.. إلا إذا فهمنا أن القول ما هو إلا تقرير فى أعماق النفس.. يلفظه اللفظ إلى الخارج عبر اللسان.. ومن أجل هذا سميت الكلمة «لفظا» كما سميت العبارة «عبارة» لأنها تعبر بالقول من نفس القائل إلى أذن السامع.. يؤيدنا فى هذا المنطق قول الله- تبارك وتعالى: «واسروا قولكم أو اجهروا به» (٤).. وقوله:

---

(١) القرطبى.

(٢) الكشاف والنسفى والبيضاوى- ٢٦/ مريم.

(٣) القرطبى- ٢٦/ مريم.

(٤) ١٣/ الملك.

«سواء منكم من أسر القول ومن جهر به» (١).. أى أن القول قد يكون سرا فى أعماق النفس.. أو جهرا عن طريق اللفظ والعبارة.. والصوم عن الكلام كان فى الشريعة الموسوية. التى يدين بها اليهود.

وهذا ظاهر أيضا فى موقف زكريا- عليه السلام- زوج- اليصابات- خالة مريم- عندما تمنى على الله الولد.. ونادته الملائكة فى المحراب بالبشرى.. قال:

(رب اجعل لي آية قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاث ليال سويا) (٢).

وفى نفس المقام من سورة- آل عمران-:

(قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا)(٣).

وهذا يعنى أمره بالصوم ثلاثة أيام.

ونلاحظ هنا أن العبادات في الأصل واحد.. لأن المنبع واحد.. وإنما هو التطور والترقى فى العبادات.. حتى تبلغ درجة الكمال.

فالصوم فى اليهودية: إمساك عن الطعام والشراب والكلام.

وفى المسيحية: إمساك عن أكل ذى روح.. وما نتج من ذى روح.

أما فى الإسلام: فهو إمساك عن الشراب والطعام والجنس نصف يوم.. ثم يكون لك مطلق الحرية فى النصف الثانى.. وهذا من غير شك أكمل أنواع الصوم.. مناسبة للنفس البشرية.. ومواءمة للجسم الآدمى.

واستسمح القارئ الكريم فى وقفة خفيفة.. مع رأى تردد فى جميع كتب التفسير.. بغير استثناء.. هو احتمال أن يكون الذى نادى مريم من تحتها هو جبريل- عليه السلام- بل وقال بعضهم عبارة أذكرها هنا- على استحياء- هى:- وكان جبريل يقبل الولد كالقابلة (٤)- عليك سلام الله يا جبريل.. يا أمين الوحى.. ويا حامل رسالات السماء.

أذكر موقفا لجبريل- عليه السلام- عندما نزل رسول الله- صلى الله عليه وسلم- عن الجبل.. من غار حراء.. ليلة السابع والعشرين من رمضان.. فى أول ليلة نزل فيها القرآن الكريم جملة.. من مقامه العلى الحكيم.. إلى سماء العزة.. ونزل جبريل- عليه السلام فيها.. على محمد- صلى الله عليه وسلم- بأول ما نزل- اقرأ- وكررها ثلاثا: ثم قال له:

(اقرأ باسم ربك الذى خلق).. إلى آخر الآيات.

أذكر ليلتها.. عندما نزل- عليه الصلاة والسلام- فزعا مرتجفا إلى زوجه خديجة رضى الله عنها وهو يقول لها: «أخشى أن يدون هذا رئيا من الجن».. ويخبرها أنه لم يزل يراه ــ يرى جبريل ــ ولم يزل يسمع الدنيا تدوي حوله بقوله:

(اقرأ باسم ربك الذى خلق).

وهداها ذكاؤها.. ورجاحة عقلها.. إلى عمل اختبار لهذا الواقف الذى يراه محمد.. وهى لا تراه.. فأخذته - صلى الله عليه وسلم - فى حجرها.. واحتضنته من الخلف.. فقال لها - عليه الصلاة والسلام - لقد انصرف.. وهنا ظهر الفرح على وجهها الكريم.. وقالت:

والله إنه لملاك.. ولو كان شيطانا لما استحى!

ثم قالت - رضى الله عنها - قولتها المشهورة عن محمد:

«أبشر يا ابن العم واثبت.. فو الذى نفس خديجة بيده.. إنى لأرجو أن تكون نبى هذه الأمة.. ولن يخزيك الله أبدا.. إنك لتصل الرحم.. وتحمل الكل.. وتكسب المعدوم.. وتقرى الضيف.. وتعين على نوائب الحق».

لقد استحى جبريل - عليه السلام - أن يقف ويرى زوجة تحتضن زوجها من الخلف.. فهل يقبل العقل.. ويجيز المنطق.. ويرضى الذوق والحياء.. أن نتخيله تحت فتاة تلد.. ويعمل قابلة لوليدها؟؟؟..

أظن أيها الأخ الكريم. . أنه ليس من العقل. . ولا من المنطق. . ولا من الذوق والحياء بمكان. . فالجميع متفق على أن عيسى- عليه السلام - قد تكلم فى المهد- فيكون هو الذى ناداها من تحتها. . ليكفيها ألم الرد على قومها. . ولنفهم نحن أن السكوت عن السفيه واجب. . فقد قيل: ما قذع سفيه بمثل

(١) ١٠/ الرعد.

(٢) ١٠/ مريم.

(٣) ٤١/ آل عمران.

(٤) البيضاوى والنسفى- ٢٤/ مريم.

الإعراض.. وما أطلق عنانه بمثل العراض. وقيل أيضا: من أذل الناس.. سفيه لم يجد من يسافهه.

إن عيسى الوليد هو الذى ناداها من تحتها.. ولذلك أحالتهم عليه لما واجهوها بالتوبيخ والتأنيب (فأشارت إليه).

ونعود إلى مريم- عليها السلام- فنجد أنها قد اطمأنت بعد أن سمعت من الوليد ما سمعت.. فلما ذهب عنها الروع.. وعادت إليها نفسها الشاردة من العجب والذهول.. أكلت من الرطب.. وشربت من الماء.. وأصلحت من شأنها.. ولفت وليدها الحبيب فى قميصها ثم جلست إلى جانب المذود.. ترضعه الرضعة الأولى.. من ذلك اللبن الذى تفجر به ثدياها.. بعد تناولها هذا الطعام والشراب.. الهابطين عليها من السماء.. خارجين عن نطاق الأسباب.. ولتكون تلك الرضعة عملية تثبيت لهذه الخلايا الغريبة.. التى يتكون منها جسم هذا الطفل.. آية الله وكلمته ألقاها إلى مريم.. وذلك الجسم الذى سيحيا حينا من الدهر فوق سطح الأرض.. يأكل مما يأكل الناس ويشرب مما يشربون.. حتى يحين موعد رفعه إلى السماء.. كما ذكرنا فى فصول سابقة. وكأننا نرى يوسف النجار.. قادما من بعيد.. يجرى وهو يلهث بما يحمل من ماء وغذاء.. وبعض ما يلزم فى مثل هذا الموقف.. حتى إذا بلغ مكانها.. وجد هذا الأمر العجب.. وجدها تحمل رضيعها والبشر يملأ وجهها.. والماء والرطب حولها.. فألقى ما معه ونظر إليها نظرة المؤمن الواثق من قدرة العزيز العليم.. القادر الحكيم.. فقالت باسمة:

يا يوسف.. لقد حصل ما هو أعجب مما ترى.. لقد كلمنى الوليد..وقال لى كذا وكذا.. فقال: **أعلم أن الله على كل شئ قدير.. يقول للشىء كن فيكون.**

□□□

٥ عيسى فى المهد

لقد اطمأن قلب مريم.. وعلت معنوياتها.. وقوى يقينها.. بعد ما رأت من آيات ربها.. ووثقت أن الله معها.. ومن كان الله معه فكيف يخشى الناس؟.. (فأتت به قومها تحمله) (١).

يقول ابن عباس- رضى الله عنه-:

«خرجت من عندهم حين أشرقت الشمس فجاءتهم عند الظهر.. ومعها صبى تحمله.. فكان حمله وولادته ثلاث ساعات من النهار» (٢)

أتت من المكان القصى.. الذى كانت انتبذت فيه صبيحة ذلك اليوم.. وياله من موقف شديد.. موقف العذراء البتول.. العفة الخجول.. تواجه قومها بوليد تحمله على صدرها.. وخطيبها يسير أمامها.. ووالله لولا إيمانها بربها.. وثقتها بنصره.. ويقينها بوجوده معها.. لانهارت كما ينهار الثوب الذى ترفعه بين أصبعيك.. انفلت منهما فسقط على الأرض كومة صغيرة.

وتسامع القوم الخبر.. فأتوا ليعلموا حقيقة الأمر.. فاجتمع منهم عدد من الرجال والنساء.. حول مريم وابنها وعشيرها- ومدت امرأة منهم يدها لتضربها على وجهها.. وقبل أن تهوى تلك اليد على وجه مريم.. أجف الله شطر المرأة.. وحملوها مشلولة..

وقال رجل منهم: ما أراها إلا زنت.. فأخرس الله لسانه فى الحال (٣).

فوجم الجمع.. وتحاشوا أذاها.. خوفا وخشية.. وقالوا فى أدب:

(قالوا يا مريم لقد جئت شيئا فريا) (٤). أى أن هذا الذى حصل منك أمر عظيم مفترى.. والولد من الزنى.. أمر مفترى.. ما كان لك يا مريم أن تصنعيه:

(يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيا) (٥).

ومن حقنا أن نتصور الأسى والحيرة.. التى ارتسمت على وجوه قومها.. وهم يرون مريم

---

(١) ٢٧/ مريم.

(٢) القرطبى وغيره- ٢٧/ مريم.

(٣) القرطبى- ٢٧/ مريم.

(٤) ٢٧/ مريم.

(٥) ٢٨/ مريم.

..التى كانت بينهم صبيحة اليوم.. زهرة ناضرة.. ووردة عطرة.. يتنسمون فيها عبير الإيمان.. ويبتغون بالتقرب إليها رضى الرحمن.. يرونها تحمل طفلا.. ولا يعرف أحد منهم حتى تلك اللحظة غير أنها زنت فيه مع يوسف عشيرها.

وتبدو هذه الدهشة فى قولهم: (يا أخت هارون) بمعنى أنك يا مريم من أسرة هارون النبى.. خلفاء الله فى بيته.. وسدنة محرابه.. فماذا نقول لك؟.. وكيف نفهم هذا الأمر الرهيب؟

(ما كان أبوك امرأ سوء) بل كان لنا قدوة وأسوة فى الصلاح والتقوى وخشية الله.. إنه إمامنا وسيدنا (وما كانت أمك بغيا) زانية.. تعمل الفحشاء.. أو تصنع ما يغضب الرب.

وهنا تذكرت مريم وصية رضيعها لها.. بالصوم والصمت.. فوضعته بينهم (وأشارت إليه).

ويُخَيَّلُ إلىَّ أنهم إلى تلك اللحظة كانوا فى منتهى الهدوء والرهبة والخشية.. بعد الحادثين السابقين.. حادث المرأة التى شلت.. وحادث الرجل الذى أخرس الله لسانه.. ولكن بعد أن جاء ردها عليهم.. بالإحالة على رضيعها.. لا شك أنه قد جن جنونهم.. وغضبوا وثاروا.. وقالوا: أبلغ بها التبجح إلى هذا الحد؟ تزنى.. وتحمل.. وتلد.. وتلقانا وهى تحمله.. وعندما نسألها تهزأ بنا وتحيلنا إلى طفل رضيع لنحادثه؟.. والله إن استخفافها بنا لأشد علينا من زناها:

(قالوا كيف نكلم من كان فى المهد صبيا) (١)

ويلوح أمامنا مشهد عجيب.. ومنظر غريب.

فتخيل معي طفلا.. مولودا من ساعات.. وإن كان بعض المفسرين يقول:

إن مريم وابن عمها اختبآ بالطفل أربعين يوما.. حتى تعللت من نفاسها وطهرت منه (٢) غير أننا لا نأخذ بهذا الرأى.. لأنها ولادة من غير نفاس.. وإنما هو أمر مباشر من أوامر القدرة الخارجة عن نطاق الناموس الكونى والأسباب- كما بينا سابقا- والنفاس مرتبط بعملية الحمل العادى المتطور خلقا من بعد خلق فى ظلمات ثلاث: هى ظلمة خلق النطفة علقة.. ثم خلق العلقة مضغة.. ثم خلق المضغة عظاما.. حيث ينتهى الخلق الظلمانى.. وقد سماها الله- تعالى-ظلمات.. لأن الروح النورانى لم ينزل فيها بعد.. ثم بعد تلك المراحل الثلاث تنزل الروح.. والروح نور.

تلك المراحل هى التى يتخلف منها دم النفاس.. ولكن هذا الوعاء.. وعاء مريم- عليها السلام- ليس كأوعية النساء.. فقد طهرها الله- سبحانه- واصطفاها: اقرأ قول الله عنها:

(يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين) (٣).

حيث يشع أمام أبصارنا من ثنايا تلك الآية.. أنها طهر بين اصطفاءين.

وقال علماؤنا الأجلاء: إن الله طهرها من كل ما يستقذر من النساء.. وعن سائر الأدناس.. من حيض ونفاس (٤).

أقول: تخيل معى منظر ذلك الوليد العجيب.. بعد أن قالوا لأمه فى غضب وسخط (كيف نكلم من كان فى المهد صبيا). نراه قد اتكأ على يساره.. واتجه إليهم بوجهه.. يقول علماء التفسير.. تقدم إليه زكريا- عليه السلام- وهو على هذا الحال.. قائلا له: انطق بحجتك.. إن كنت أمرت بها.. فأشار الوليد بسبابته اليمنى (٥).. وهو متكىء على يساره.. متجه إليهم بوجهه.. وبصوت رفيع قوي قال:

(قال إنى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبيا * وجعلنى مباركا أين ما كنت وأوصانى بالصلاة والزكاة ما دمت حيا * وبرا بوالدتى ولم يجعلنى جبارا شقيا * والسلام علىَّ يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا)(٦).

أسكتت مريم لسانها تنفيذا لأمر الله.. فأنطق الله لها اللسان الساكت.

---

(١) ٢٩/ مريم.

(٢) فى أغلب كتب التفسير.

(٣)٤٢/ آل عمران.

(٤) القرطبى والبيضاوى وغيرهما ٤٢/ آل عمران.

(٥) القرطبى والكشاف والنسفى- ٣٠/ مريم.

(٦) ٣٠-٣٣/ مريم.

ويجبرنا هذا الموقف جبرا على الوقوف لحظة.. أمام عظمة تلك العبارات الموجزة.. التى تكلم بها عيسى عليه السلام - فى الساعات الأولى من ولادته.. والأمر فيه هو الذى تكلم(١).. أما الخلق فلا قيمة له فى هذا المقام.

ولتوضيح هذه العبارة أقول: إن الإنسان مكون من خلق وأمر:

(ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين) (٢) أو كما هو معروف.. الإنسان روح وجسم.. فالروح أمر والجسم خلق.. وعند الإخوة المسيحيين: الروح لاهوت.. والجسم: ناسوت.

فحديث عيسى - عليه السلام - هنا.. هو حديث الروح.. ولهذا بعد كلامه فى المهد.. عاد جسمه إلى طبيعته البشرية.. ولم يتكلم بعدها.. إلا بعد أن بلغ مرحلة الكلام العادى.. كأى إنسان.. قال عباراته كلها بصيغة الماضى.. لأن حقيقته فعلا أوتيت كل هذا الذى قال:

ولعلنا نرى أن الدين كله.. قد ورد فى تلك العبارات الموجزة.. التى ألقاها على الناس.. من مناسك وعبادات.. ومعاملات وأخلاقيات. فنطق أول ما نطق.. بكلمة التوحيد (إنى عبد الله) نطق بالعبودية المطلقة المجردة لله الواحد الأوحد.. الذى لم يلد ولم يولد.. فليس هو كما قال فريق اليعاقبة: الذين قالوا عنه أنه هو الله.. هبط إلى الأرض.. ولا كما **قال النسطورية:** الذين قالوا هو ابن الله.. ولاكما قال الإسرائيليون ملوك النصارى: الذين قالوا هو ثالث ثلاثة.. الله إله.. وهو إله.. وأمه إله(٣). أو الأب والابن والروح القدس.. وإنما قال: أنا عبد الله.. فقرر كلمة التوحيد.. وهى الركيزة الأولى فى الدين.

نطق عيسى - عليه السلام - وهو وليد.. بأربع آيات قصار.. كل آية منها.. ذات هدف خاص:

فالآية الأولى: جمعت قواعد الإيمان (إنى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبيا) فيها التوحيد.. والإيمان بالكتب السماوية.. وبالرسالات الهادية للبشرية.

والآية الثانية: جمعت ركائز العبادات (وجعلنى مباركا أين ما كنت وأوصانى بالصلاة والزكاة مادمت حيا) ففيها البركة بالنفع وتعليم الخير.. وفيها الصلاة والزكاة.

والآية الثالثة: جمعت أسس الأخلاقيات والمعاملات (وبرا بوالدتى ولم يجعلنى جبارا شقيا) ففيها بر الوالدين.. والرحمة.. والعدل.. والهدى.

ويقول ابن عباس - رضى الله عنه -«لما قال: «وبرا بوالدتى» ولم يقل بوالدى.. علمنا أنه شىء من الله تعالى.

الآية الرابعة: آية السلام (والسلام علىّ يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا) فيها السلام والسلام غاية الغايات.. ونهاية النهايات وطلب السلام فى أوقات ثلاثة: هى أشد الحالات على الإنسان فى الدنيا والآخرة.. وهل يحتاج الإنسان إلى أكثر مما يحتاج إليه فى لحظة الميلاد.. وساعة الموت.. ويوم البعث؟ لقد جمعت تلك الكلمة كل ما يقتضيه الدين من إيمان وعبادات وأخلاقيات ومعاملات وأمن وسلام فى الدنيا والآخرة.

ووجم القوم.. ويهرتهم رهبة الموقف.. وألجمتهم قوة الآية.. بينما نام الطفل.. كما ينام الأطفال.. حيث انحنت مريم - عليها السلام - فحملته على صدرها.. واحتوته بين أحضانها.. وانطلقت به تتبع ابن عمها يوسف النجار.. بينما وقف القوم فى ذهول غريب.. لايدرون هل هم فى يقظة أم فى منام!!.. أهى حقيقة أم مجرد أوهام!!.. ثم انصرف كل منهم إلى غايته.. فى هدوء وصمت.. تظلهم سحابة من الرهبة والخشية.. والهيبة والجلال.

(١) الأمر: يعنى الروح.. أما الخلق فهو الجسم.

(٢) ٥٤ / الأعراف.

(٣) من القرطبى وغيره.

وبدأ الحديث ينتشر رويدا.. رويدا حتى عَمَّ المدينة كلها.. فى الأندية.. والحوانيت.. والأسواق.. وألسنة الناس لا ترحم - وخاصة إذا كانت ألسنة بنى إسرائيل!! ألا تدرون؟.. لقد وضعت مريم القديسة.. سليلة النبوة والمجد.. سفاحا من ابن عمها يوسف النجار.. ومرت بولدها تحمله على صدرها.. فى فجور وتبجح!! وقد يكون أحد الموجودين فى المجلس.. ممن شاهدوا الطفل.. وسمعوه يتكلم.. فيعترض المتحدث.. قائلا: لا تخوضوا يا قوم فى عرضها.. فقد رأيت كذا وكذا.. إنه آية من الله.

ولكن أولياء الشيطان أكثر فى مثل هذه الأمور.. فينبرى له أكثر من واحد.. ساخرين هازئين.. يقولون: هل تصدقون أن طفلا.. ولد اليوم.. يتكلم؟ إلا أن يكون ذلك سحرا أصابك.. فخيل لك ما تزعم؟

وهكذا لم يؤمن بهذا الحادث إلا أقل القليل.

□ □ □

٦ هجرة إلى مصر

المسيح لقب لعيسى - عليه السلام - وهذا الاسم معرب.. أصله فى العبرية - المشيح - بالشين.. والشين فى التعريب تصير - سينا - كما عربت موشى بموسى.

وقال أبو الهيثم: المنيح ضد المسيخ.. يقال: مسحه الله.. أى خلقه خلقا حسنا.. ومسخه.. أى خلقه ملعونا قبيحا.

وقيل عن سبب تسميته بهذا الاسم.. لأنه مسح الأرض بكثرة سياحته فيها. كما قيل: لأنه كان مسيح القدمين لا أخمص لهما(١).

وقال ابن عباس: لأنه كان لا يمسح ذاعاهة إلا برىء من عاهته.. وهذا هو الأصح.. وهو ماورد عن صفته فى كتب الصابئة.. الذين وفدوا من الشرق.. يرقبون كوكبا ظهر فى السماء.. يسيرون على هديه ليلا.. فإذا أشرقت الشمس وغارت النجوم.. قبعوا فى أماكنهم حتى يظهر الكوكب فى المساء.. فيستأنفون رحليهم على هداه.

وكانوا ثلاثة من المجوس.. فأدت بهم خطاهم إلى أورشليم.. وسألوا: أين ولد ملك اليهود؟

وعلم هيرودس الملك بأمرهم.. فاستدعاهم وسألهم عن بغيتهم فقالوا له: يوجد فى كتبنا ما يدل على ميلاد طفل سيكون سيدا ذا شأن كبير.. وجئنا له بهدايا من الذهب والمر واللبان.. وهذه صفاته.. فالذهب سيد المعادن.. وهو سيد فى اليهود.

والمر يجبر الكسور ويداوى الجروح .. وهو أيضا يشفى كل مريض . واللبان يدخل دخانه فى السماء.. ولا يدخل السماء دخان سواه .. وهو كذلك يرفع إلى السماوات.. وقد ظهر نجمه فى السماء.. فاهتدينا بالنجم .. الذى أوصلنا إلى هنا.. مما يدل على ميلاده فى تلك الديار. فطلب الملك هيرودس منهم أن يبحثوا عنه.. ويخبروه بمكانه ليكرمه.. ولكن الصابئين الثلاثة فطنوا إلى أن الملك يريد قتله خشية على ملكه أو ملك ابنه من هذا الوليد .. فبعد أن وجدوا عيسى-

---

(١) الأخمص: ما دخل من باطن القدم فلم يصب الأرض.

عليه السلام - سلموا أمه الهدايا.. وتبركوا به.. ثم عادوا من غير أن يمروا بالملك.. كما طلب منهم.

فأمر الملك بذبح جميع الأطفال الذكور الذين ولدوا فى بيت لحم.

وباتت أمه ليلة ليلاء.. تتقاذفها أمواج الفكر.. وتتلقفها أعاصير الظنون.. فقد علمت أن هيرودس الظالم يطلب ابنها ليقتله.. فضمت وليدها إلى صدرها الحنون.. وودت لو نبت لها جناحان فتحمله عليهما وتذهب به بعيدا.. بعيدا.. حيث لا يوجد إنسان تخشاه عليه.. أو ملك حاقد يريد التخلص منه حرصا على ملكه.

ماذا أصنع ياربّاه؟؟.. إن هيرودس ملك ظالم طاغ.. يصنع أى شىء فى سبيل حرصه على أبهة الملك.. وعظمة الصولجان.. لا يخاف الله ولا يخشاه.. فقد أعماه الشيطان واستزله فهو له أسير. وظلت فى حيرتها طول ليلها.. لم يغمض لها جفن.. ولا يستقر بها قرار.. فكلما سمعت دبيب حشرة.. أو صفقة ريح.. حسبتها جنود الملك.. أتوا ليأخذوه منها.. فيفزع قلبها.. ويضطرب جسمها.. وتشت خواطرها.. وتذهب بها الأفكار كل مذهب.. فتعتصره بين أحضانها اعتصارا.. حتى بدأ ظهور الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر.

وإذابطرقة خفيفة على الباب.. خفق لها قلب مريم - عليها السلام - فأنصتت فسمعت صوت يوسف يناديها بصوت خافت.

وفتحت له الباب.. فبادرها قائلا: السلام عليك يا مريم.. هيا .. هيا.. فقد أمرنى الله أن أرحل بك وبعيسى إلى مصر.. حتى يأذن لنا بالعودة إلى فلسطين.. هيا.. أسرعى قبل أن يتنفس الصبح فيرانا أحد يشى بنا عند الملك.

يقول القرطبى (١): وقع فى تاريخ مصر فيما رأيت:

الظاهر أن المسيح - لما ولد فى بيت لحم - كان هيرودس فى ذاك الوقت ملكا.. وأن الله - سبحانه - أوحى إلى يوسف النجار - فى

---

(١) ٣٤/ مريم.

(٣) الكشاف ٥٠ / المؤمنون.

الحلم - وقال له: خذ الصبى وأمه واذهب إلى مصر.. وكن هناك حتى أقول لك.. فإن هيرودس مزمع أن يطلب عيسى ويهلكه.. فقام من نومه وامتثل لأمر ربه وأخذ المسيح ومريم أمه.. واتجهوا إلى مصر - ا هـ .

وقبل أن نسير مع تلك القافلة المباركة.. القادمة من فلسطين قاصدة مصر.. التى قال الله تعالى عنها فى هذا المشهد بالذات.

(وجعلنا ابن مريم وأمه آية وآويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين)(٢).

والربوة: هى المكان المنبسط المرتفع عن الأرض.. يستقر الساكن فيها.. لكثرة خيراتها.. وجريان مائها.

وإن كان الزمخشرى صاحب تفسير الكشاف وغيره من رجال التفسير.. ذكروا من بين ما ذكروا آراء تقول: إن الربوة التى ذكرها الله تعالى.. وآوى إليها مريم وابنها هى أرض فلسطين.

وذكروا حديثا عن أبى هريرة قال: «الزموا هذه الرملة - رملة فلسطين - فإنها الربوة التى ذكرها الله»(٣).

ولكن الشيخ قرر فى النهاية أنها مصر «ذات قرار ومعين» أي ذات ثمار وماء.. فمن أجل الثمار يستقر فيها ساكنها.. والمعين هو الماء الظاهر الجارى.

والمعروف أنهما أتيا مصر.. وعاشا فيها زمنا.. وآثارهما باقية بها إلى اليوم. وقبل أن نقوم بتلك الرحلة المباركة الميمونة.. مع تلك الأسرة الكريمة.. أردت أن ألقى نظرة سريعة على ما جاء فى الإنجيل حول هذا الموقف.. فوجدته لا يختلف عما أوردناه فى قليل ولا كثير.. حيث جاء في إنجيل برنابا ما ملخصه:

أن هيرودس.. لما أمر بقتل كل طفل ولد في بيت لحم.. أمر الله يوسف النجار.. فى منامه.. بأن يذهب بالطفل وأمه إلى مصر.. لأن الملك أمر بقتل كل طفل ولد فى بيت لحم.. وأخذ الطفل وأمه.. وذهب بهما إلى مصر.

ولنعد إلى رحلتنا .. حيث نلمح مريم - عليها السلام - تركب حمار يوسف النجار..

---

(٢) ٥٠ / المؤمنون.

ومعها ابنها.. ويوسف يسير خلفهما.. واضعا يده على عجز حماره.. متجهين إلى الجنوب الغربي.. يقصدون مصر.

وهاهم يقطعون الفيافي والقفار.. ترفعهم نجاد وتخفضهم وهاد.. يأكلون من أعشاب الجبال أحيانا إذا عز الغذاء.. ويشربون السراب إذا فقدوا الماء.. يفترشون الرمال ويلتحفون السماء.

وقد جعلت مريم - عليها السلام - من جسمها مهدا وغطاء لعيسى.. فكانت تنام وشق من جسمها يحمله.. وشقها الثاني يدثره.

ومرت أيام وهم يجدون في السير: يرعاهم الله برعايته.. ويكلؤهم بعنايته حتى لاحت لهم مصر الجميلة.. بأرضها المنبسطة.. وخيراتها الوافرة.. ونيلها العذب الجاري.

ووصل الركب تحفه ملائكة الرحمن إلى بئر البلسان(١) بظاهر القاهرة.. فنزلوا عنده.. وصلّت مريم ويوسف شكرا لله على نجاتهم من هذا الملك الظالم.. وكان أول همها أن غسلت ثياب عيسى على ذلك البئر.

ويقول القرطبي: فالبلسان لا ينبت ولا يطلع إلا في تلك الأرض.. ومنه يستخرج الدهن.. الذي يخالط الزيت.. الذي يعمد به المسيحيون.. ولذلك كانت زجاجة واحدة من هذا البئر.. في الأيام الخوالي.. لها قدر عظيم جدا في نفوس ملوك النصارى.. مثل ملك القسطنطينية.. وملك صقلية.. وملك الحبشة.. وملك النوبة.. وملك الفرنجة وغيرهم.. لو أهديت لأحدهم تلك الزجاجة من ملك مصر.. فكأنما أهديت له الدنيا بما فيها.. فهي أحب إليهم من كل شيء يقدم لهم كهدية.. مهما كانت قيمته.

ومن المعروف أن العائلة المقدسة.. اتجهت جنوبا إلى مصر العليا - الصعيد- حيث وصلوا إلى مدينة - أشمونين - إحدى قرى مركز ملوى.. ثم إلى القوصية.. وفيها الدير المحرق.. ومن أجل هذا يعظمها المسيحيون ويبجلونها ويزورونها دائما.. في عيد الفصح.. من جميع الأنحاء.. لأن هذا آخر مكان وصلت إليه مريم بابنها من أرض مصر.

ومن المعروف أيضا أنهم استقروا زمنا في بلدة - عين شمس- واستظلوا بشجرة هناك.. يسمونها شجرة العذراء.. بقي أصلها إلى أمد قريب.. ويهتم الناس بزيارتها بضاحية المطرية.

ومن المفروض أن نعرف الأماكن التي مرت بها مريم ومعها طفلها - عليه السلام - في أرض مصر.. حتى وصلت إلى الصعيد الأعلى.

ولقد سكتت الأناجيل الأربعة الرسمية.. عن سير تلك الرحلة في أرجاء مصر.. وعن المدة التي قضوها بها.. مما اضطرني إلى التجوال.. بحثا عن خط سيرها.. حتى هداني الله إلى خريطة صادرة من كنيسة القديسين «أباكير ويوحنا» بمصر القديمة.. وبها الهدف الذي ننشده.. بها خط سير الرحلة من العريش حتى القوصية.. التي بها الدير المحرق.. آخر مكان بلغته الرحلة.. من أرض مصر.

وبظهر الخريطة موجز مكتوب عن خط سيرها.. وهي تفيد أنهم سلكوا في طريقهم من فلسطين طرقا غير مطروقة.. خوفا من طغيان الملك هيرودس.. الذي كان جنوده الغلاظ يمعنون تقتيلا في أطفال بيت لحم «ويغوصون في دمائهم البريئة الزكية.. أثر زيارة المجوس القادمين من الشرق للصبي.. متتبعين لنجمه الذي ظهر في السماء.. بينما الطفل المقصود بتلك المذبحة الوحشية.. قد أفلت منها».

وذكروا هنا ما ورد في الأناجيل عن هذا الحدث.. ونصه:

«إذا ملاك الرب قد ظهر ليوسف في حلم.. قائلا: قم وخذ الصبي وأمه واهرب إلى مصر.. وكن هناك حتى أقول لك.. لأن هيرودس مزمع أن يطلب الصبي ويهلكه.. فقام وأخذ الصبي وأمه ليلا.. وانصرف إلى مصر.. وكان هناك إلى وفاة هيرودس».

وأنا لم أجد في الأناجيل الأربعة غير تلك العبارة.. فيما يتعلق برحلة مريم وابنها إلى مصر.

ونعود إلى خريطة الرحلة وموجزها.

فنجد أن العائلة المقدسة .. دخلت مصر .. من طريق غير الطرق المعروفة في صحراء سيناء..

---

(١) القرطبي - ٣٤/ مريم.

وإنما دخلت من العريش إلى قرية «فرمة» وكانت تسمى «بيلوزيوم» فى ذلك الوقت.. ومنها وصلوا إلى تل بسطة.. شمال بلبيس.. ثم اتجهوا شمالا حتى وصلوا إلى الفرع الشرقى لنهر النيل - فرع دمياط.. قبالة مدينة سمنود - من مدن محافظة الغربية - فعبروا النيل إليها.. ولم يمكثوا بها كثيرا.. بل استأنفوا الرحلة غربا.. إلى مدينة المحلة الكبرى.. ومنها اتجهوا شمالا.. حتى وصلوا إلى سخا.. من أعمال كفر الشيخ - حيث أقاموا بها فترة.

ويقول الموجز بظهر الخريطة: توجد فى تلك المنطقة - منطقة سخا - صخرة غريبة الشكل.. تسمى باللغة القبطية «كعب يسوع».

ثم اتجهت العائلة المقدسة غربا.. حتى عبروا النيل - الفرع الغربى - فرع رشيد - واستمروا فى سيرهم إلى الغرب.. حتى صاروا على مشارف وادى النطرون.. ثم اتجهوا فى خط مواز لهذا الوادى إلى الجنوب الشرقى.. حتى عادوا إلى النيل.. فى مكان القاهرة الآن.. وعبروا النيل إلى ناحية عين شمس - المطرية حاليا - واستظلوا بشجرة هناك.. لاتزال بقاياها قائمة حتى اليوم.. وتسمى «شجرة مريم».

ويقولون: إن ينبوعا من الماء تفجر فى هذا المكان.. حينما عطش - يسوع - وغسلت العذراء ملابسه فى هذا الماء.. ثم طرحت الماء جانبا فنبت فى هذا المكان نبات - البلسان - الذى لا يزال يستعمل زيته فى المسوح الدينية.. كما فى طقوس التعميد.. وتكريس الكنائس والذبائح.. ولايزال النبع قائما حتى الآن.. يتبرك الناس بمائه.

وهذا المكان هو المكان الذى حدثنا عنه القرطبى.. وقال عنه: إنه بظاهر القاهرة.

ونعود إلى خط الرحلة.. مع موجز الكنيسة المصرية.. فنجده نفس الخط الذى سرنا فيه من قبل بشىء من التفصيل.

وهو أنها يممت شطر الجنوب حيث أقامت فى كهف أصبح الآن جزءا من كنيسة القديس سرجيوس الشهير - بأبى سرجة - وتبين الخريطة أنهم عبروا النيل ثانية إلى الغرب.. وساروا بحذاء النيل غربا حتى وصلوا إلى بنى مزار.

وتقول بعض الكتب المسيحية(١):

إن شيخا صحبهم من هناك.. وحدثهم عن وجود ساحرة تسكن فى منطقة جبل الطير.. وهى منطقة مقابلة لمدينة - سمالوط - إلى الجنوب قليلا.. فى الشاطىء الشرقى للنيل.. وقال لهم الشيخ: إن هذه الساحرة تقوم بمعجزات خارقة.. فتعجبوا من حديثه.. وطلب الصبى الذهاب لرؤية تلك الساحرة.. فعبروا إلى الشرق فى مركب شراعى.. وبينما هم فى عرض البحر إذا بهم يجدون المرأة الساحرة تقترب منهم فوق الماء.. وتحتها قطعة من الحجر.. وما أن اقتربت منهم.. حتى تفتت الحجر تحت قدميها وغرقت.. وواصلت المركب سيرها إلى الشرق.. حيث أقاموا مدة.. عادوا بعدها إلى الغرب ثانيا.. مستأنفين السير إلى أشمونين.. ثم القوصية.. حيث يوجد الدير المحرق.. كما ذكرنا من قبل.

وقد وجدت المسيحيين مختلفين فى مدة إقامتهم بمصر.. ولكن الموجز الذى نستعرضه الآن - معا - فى ظهر الخريطة يقول:

ولم يتفق المؤرخون على مقدار الزمن الذى قضته العائلة المقدسة فى مصر.. وقدر البعض أن إقامتهم امتدت إلى سبع سنوات. وتقول مصادر الكنيسة المصرية: إن إقامتهم فى مصر تجاوزت ثلاث سنوات ونصف.

كما يقول: **ويوجد على كثب من - تل بسطا -** قرب الزقازيق.. وهو ما أشرنا إليه أنه شمال بلبيس - يقول على كثب من تل بسطا مكان يدعى - المحمة - أي موضع الاستحمام.. وقال: إن العذراء حمت الطفل يسوع وغسلت ثيابه فى عين ماء تفجرت من الأرض خصيصا لهذا الغرض - أهـ -

ولاشك أنها رحلة شاقة مضنية.. بالنسبة لتلك الفتاة العذراء.. التى تحمل وليدها الصغير.. هاربة من بطش الطغيان.

□ □ □

(١) كتاب هروب المسيح إلى مصر - طبعة ١٩٦٣ - الطبعة الثانية.

٧ معجزات المسيح فى مصر

مررنا بأحداث رحلة العائلة المقدسة فى مصر.. مرور الكرام.. بسرد موجز.. وخطوات أقرب إلى الجرى منها إلى السير العادى.

ولعل البحث يفضى إلى شىء يرد جوعة النهم إلى العلم..

«ومنهومان لا يشبعان: طالب علم وطالب مال».. وخاصة فى هذا المقام.. مقام عذراء اختارها الله - تعالى - لتكون هى وابنها آية للعالمين.

(وجعلنا ابن مريم وأمه آية) (١) ومادامت آية.. كان لزاما علينا أن نتدبر حياتهما ونسبر قدر استطاعتنا أغوار سيرتهما، فالله تعالى يقول:

(كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته.. وليتذكر أولو الألباب)(٢).

فحديثهما فى القرآن الكريم آية.. وهما فى نفسيهما آية دالة على قدرة القادر الحكيم.

(١) ٥٠ / المؤمنون.

ولكن قبل أن نطوف معهما فى أرجاء مصر.. وأنحاء فلسطين.. لنرى كيف كانت مريم - عليها السلام - تسعى للحصول على قوتها وقوت ابنها.. أريد قبل هذا كله أن أعرض حادثا.. ذكره السدى قال:

كان عيسى - عليه السلام - إذا كان فى الكتاب .. يحدث الصبيان بما يصنع آباؤهم.. وما تطبخ أمهاتهم.. ويقول للغلام: فى بيتكم من الطعام والفاكهة كذا وكذا.. وأهلك أكلوه.. أو بقى منه شىء.. فينطلق الصبى إلى أهله يبكى ويبكى.. حتى يعطوه من هذا الشىء ثم يسألوه: من الذى قال لك هذا؟.. فيقول لهم عيسى بن مريم هو الذى قال لى ذلك.. فحبس الناس عنه أطفالهم.. ومنعوهم من اللعب معه.. أو مصاحبته.. ويقولون لهم: إنه ساحر فاجتنبوه.

هذه الرواية نقلتها - وتكاد تكون بالنص - من كتاب قصص الأنبياء للثعلبى النيسابورى .. رواية عن السدى .. وهى إلى هذا الحد.

(٢) ٢٩ / ص.

معقولة.. تتمشى مع النص القرآنى على لسان عيسى - عليه السلام -:

(وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون فى بيوتكم)(١).

ولكننا إذا أكملنا الرواية معا.. فى نفس الكتاب.. نجد الشيخ يقول عن السدى أيضا:

فجمع الأهلون أبناءهم فى بيت.. وجاء عيسى يسأل عنهم.. فقالوا له: ليسوا هنا.. فقال لهم: فما فى هذا البيت؟.. قالوا: خنازير.. فقال: كذلك يكونون.. ففتحوا عليهم بعد انصرافه.. فوجدوهم خنازير.. فانتشر ذلك فى الناس.. فهمت بنو إسرائيل بقتله فلما خافت عليه أمه.. حملته على حمارها.. وخرجت هاربة به إلى مصر.. ا هـ (٢).

ولعل الفقرة الأخيرة من تلك الرواية ظاهرة البطلان.. تفوح منها رائحة الدس والإفك.

فأولا: ما ذنب الأولاد الصغار.. حتى يكون عيسى - عليه السلام - سببا فى تعذيبهم هذا العذاب الشديد.. بتحويلهم إلى خنازير؟.. وهل هناك عذاب أشد وأنكى من هذا العذاب؟.

وثانيا: علمنا أن مريم - عليها السلام - هربت بابنها وابن عمها من فلسطين.. بعد ميلاده - عليه السلام - بمدة يسيرة.. وهى المدة التى قضاها المجوس الثلاثة سيرا من بلادهم يهتدون بالنجم الذى ظهر ليلة ميلاده.. حتى وصلوا إلى أورشليم.. وقدموا له الهدايا وهو وليد صغير.. وعلم هيرودس بهذا الخبر.. فعزم على قتله.. فهربوا به.. وهذا ما أجمعت عليه كل المراجع الإسلامية والمسيحية.

وتلك المدة مهما طالت فلن تزيد على سنتين.. وليس من المعقول أو المنقول أن عيسى فى تلك السن الصغيرة جدا يذهب إلى الكتاب.. ويحدث الغلمان بما كان يحدثهم به.. ويكون هذا الحادث سببا فى فرار أمه به إلى مصر.

وإنما كان إخباره الغلمان بما يأكلون فى بيوتهم.. ويدخرون لغدهم.. فى أثناء إقامته مع أمه بمصر.. بعد أن صار غلاما بعد الرابعة أو الخامسة من عمره مثلا.. وكان يدرس العلم فى الكتاب.. ثم استمرت معه تلك المعجزة بعد عودته إلى فلسطين.. فقد كان يخاطب بها اليهود.. وهو يؤدى معهم رسالته بقوله لهم:

(وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون فى بيوتكم).

وقد قرأت عن وهب بن منبه قال:

كان أول آية رآها الناس من عيسى - عليه السلام - أن أمه كانت نازلة فى دار دهقان (٣) بأرض مصر.. أنزلها به يوسف النجار بعد مجيئهم إلى الديار المصرية.. وبقيت بها مدة من الزمن.. وكان الدهقان رجلا صالحا كريما.. يأوى إلى بيته الفقراء والمساكين..

وفى إحدى الليالى: سُرق مال من خزانة أحدا من المساكين المقيمين ببيته فى تلك الليلة.

وحزنت مريم - عليها السلام - من أجل الرجل.. ولكن مروءته أبت عليه أن يتهم هذا الرجل.. الذى يؤويهم فى بيته ويكرمهم.. ورأى عيسى - عليه السلام - أمه حزينة.

فعز ذلك عليه وقال لها: ماذا يحزنك يا أماه؟.. قالت: أحزننى يابنى ضياع مال هذا الرجل التقى الصالح.. الذى أكرمنا وآوانا.. وتمسكه بعدم جرح شعور ضيوفه المساكين باتهام أحدهم.

فقال لها: هل تحبين أن أدله على ماله المفقود؟ قالت: نعم يابنى إن كان عندك علم به فدله عليه.

فقال لها: اطلبى من الرجل أن يجمع كل المساكين الذين كانوا بالدار فى تلك الليلة.

فجمعهم الرجل.. ونظر عيسى فيهم فوجد بينهم رجلا أعمى وآخر مقعدا.. فحمل المقعد على عاتق الأعمى وطلب منه أن يقف بالمقعد على عاتقه.

---

(١) ٤٩ / آل عمران.

(٢) أبو إسحاق الثعلبى النيسابورى

(٣) الدهقاق: صانع الطعام الجيد.

فاشتكى الأعمى وقال: لا قدرة لى على القيام به.. فأنا أضعف عن ذلك.. فقال له عيسى: وكيف قويت على ذلك البارحة؟

فأنكر الأعمى فى أول الأمر.. ولكنهم ضربوه حتى قام والرجل المقعد على عاتقه.. فلما استقل قائما.. وجدوا خزانة الدهقان بجانب المقعد وهو على عاتق الأعمى.. ثم اتجه عيسى إلى الدهقان.. وقال له: هكذا احتالا على مالك بالأمس حتى أخذاه.. استعان الأعمى بقوته.. واستعان المقعد بعينيه ويديه.

وهنا قال الأعمى: لقد صدق والله.. ورد المال إلى صاحبه.

فقال الدهقان لمريم - عليها السلام - خذى نصف هذا المال حلالا لك.. هدية منى إليك.. فقالت: لم أخلق لذلك.. فقال لها: أعطيته لابنك هذا.. قالت: هو أعظم منى شأنا.

وظلت مريم - عليها السلام - بمصر سبع سنين أو نصف هذه المدة - حسب اختلاف الروايات - تسعى لكسب قوتها وقوت ابنها.. فكانت تغزل الكتان.. وتلتقط السنبل فى أثر الحصادين والحمالين.. وكانت تلتقطه والمهد (١)فى منكبها.. والجراب الذى تضع فيه السنبل فى منكبها الآخر.

حياة كلها صراع وكفاح . . عرض عليها المال من الدهقان .. فرفضته فى إباء وشمم .. وآثرت أن تأكل هى وابنها من كسب يدها..

حتى بلغ عيسى - عليه السلام - سنا تسمح له بالحركة والانتقال وتبادل الأحاديث.. ترعاه وتصونه وتحيطه بسياج من حنانها وعطفها.. وتنشئه نشأة صالحة على التقوى والبر والخير والمعروف.

ويجدر بنا الآن أن نرسم فى أذهاننا صورة لعيسى - عليه السلام - مما رأيته من صفته الجسمية.. فى كثير من المراجع التاريخية.

فقد كان أحمر مائلا إلى البياض.. ليس بسبط الرأس.. لم يدهن رأسه قط.. وكان يمشى حافيا.. ولم يتخذ له بيتا ولا حلية ولا متاعا ولا ثيابا ولا رزقا إلا قوت يومه.. وكان حيثما غابت الشمس صف قدميه وصلى حتى يصبح.. كان أشعث الرأس..صغير الوجه.. زاهدا فى الدنيا.. راغبا فى الآخرة.. حريصا على عبادة الله.. وكان سياحا فى الأرض.. يحرص اليهود على قتله.

وله معجزات خوارق.. ذكرها القرآن الكريم.. يبرىء الأكمه والأبرص.. ويحيى الموتى.. ويخبر قومه بما يأكلون وما يدخرون فى بيوتهم لغد.. ويصنع من الطين طيرا ثم ينفخ فيه فتدب فيه الحياة ويطير.

وسنرى فى حياته الكثير من المعجزات.. عندما نصحبه فى العودة إلى فلسطين.. إن شاء الله تعالى.

□ □ □

---

(١) المهد: فراش الطفل.

[٨] اليهود فى زمن المسيح

نحن الآن فى حاجة إلى جولة سريعة بين الأناجيل لنتمكن من متابعة تلك الرحلة مع عيسى ــ عليه السلام ــ فليس من شك فى أن الأناجيل هى المرجع لنا فى تاريخ تلك الأسرة المقدسة.. بعد القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة.

وقد وقف بنا القرآن والسنة عند حد الأسس ورءوس العناصر.. لاستخلاص العظات والعبر.. دون التعرض للتفاصيل.. كما هى عادة القرآن الكريم ــ دائما ــ فى عرضه للقصص القرآنى.

وقد حاول تلك المحاولة قبلنا الكثير.. ومنهم الأستاذ عبدالوهاب النجار فى كتابه قصص الأنبياء. فجال بقرائه كثيرا بين الأناجيل .. وخاصة إنجيل برنابا.. الذى لاتعترف بصحته الكنيسة الآن.

كما أن فضيلته حرص على أن يعرض على القارئ النقاط التى تناقضت فيها الأناجيل واختلفت فى سردها.. وهى من الكثرة بحيث تبعث الملل والسأم فى نفس القارئ فقد اضطر اضطرارا إلى عرضها بالنص.. حتى يمكن الوقوف على نقاط التعارض والتناقض والاختلاف.

ومن أجل هذا سأسلك إن شاء الله تعالى طريقا آخر.. بعرض الأحداث التى اتفقت فيها الأناجيل الأربعة حول حياة عيسى ــ عليه السلام ــ الأناجيل المعترف بها من الكنيسة ويسمونها الأناجيل الرسمية. وهى:

إنجيل متى.. وإنجيل مرقس.. وإنجيل لوقا.. وإنجيل يوحنا.

بجانب ما يعرض لنا من أسفار العهد القديم «التوراة» بطريقة مبسطة.. تؤدى الغرض المنشود.. فى تتبع سيرة مريم وعيسى ــ عليهما السلام.

ونحن لو استعرضنا حياتهما لوجدناها سلسلة متصلة الحلقات من الجهاد المضنى.. والصراع المهلك.. والكفاح المرير.. والمواقف الحساسة.. والنقاط الحرجة.

فها نحن أولاء نرى مريم ــ عليها السلام .. من بواكير حياتها.. قد انقطعت للعبادة فى بيت الله ــ سبحانه ــ وفى محراب خاص بها.. تسجد وتركع .. وتدعو وتتضرع.. ليكشف الله عن

بنى إسرائيل ما حاق بهم من الإثم.. وما أحاطهم من غضب الرب.. بسبب إعراضهم عن الدين.. وبُعْدهم عن شريعة موسى وإبراهيم.. وانشغالهم بالدنيا وأعراضها.. وتهافتهم على مفاتنها ومطامعها.. حتى جعلوا بيت الله سوقا لتجارتهم وعروضهم.. ومنتدى لمناقشتهم وحساباتهم وعشورهم(١).

شف قلبها .. وصفا فؤداها.. فاجتازت حجب الغيب.. فيما تقرؤه من التوراة.. فهى ترددها غدوا وعشيا.. وتتلوها ليلا ونهارا.. وسرا وجهارا.. فتحس أن السماء تتحرك لتبعث رسولا إلى بنى إسرائيل يكبح جماحهم.. ويرد شرودهم.. ويعيدهم إلى طريق الحق.. بعد أن طال عليهم الأمد فقست قلوبهم وصارت كالحجارة أو أشد قسوة.. فقد استزلهم الشيطان.. ونأى بهم عن سبيل الرحمن.. فانقسموا إلى فرق شتى:

فكان منهم **فريق الفريسيين:** والأصل فى هؤلاء أنهم المتفرغون لعبادة الرب.. والزهد فى الدنيا.. والبعد عن مفاتنها وزخارفها.. ولكنهم فى هذا الحين.. كان ظاهرهم غير باطنهم.. يظهرون العبادة والطاعة.. ويضمرون الفسق والفجور.. يتخذون من مظهرهم شراكا يخدعون بها الناس.. فيمتصون دماءهم .. ويأكلون أموالهم بالباطل.. فهم أشبه ما يكون بجهلة الصوفية عندنا الآن.

وكان فيهم أيضا فريق الكتبة: الذين يكتبون التوراة.. والأصل فيهم أنهم أهل الوعظ.. وكتاب الشريعة لمن يطلبها.. فكانوا كسابقيهم فى اغتصاب الجهلة أموالهم.. وهؤلاء أشبه ما يكون بكتبة التمائم والدجالين والمشعوذين.

وكان منهم أيضا فريق الكهنة: وخدمة الهيكل.. الذين جعلوا من أنفسهم آلهة تعبد من دون الله .. وادعوا أن بيدهم الأمر كله.. فحرفوا كلام التوراة عن مواضعه.. وتهالكوا على حطام الدنيا الفانى.. فأكلوا النذور.. ونهبوا العشور.

وكان هناك فريق رابع.. هم فريق الصدوقيين: أنكروا البعث.. وقالوا: لاتوجد حياة غير تلك الحياة.. فمن أحسن فى الدنيا أعطاه الله الخير فيها.. ومن أساء عاقبه وعذبه فيها أيضا .. فلا قيامة ولانشور.. ولاحساب ولاعقاب بعد الموت والفناء.

وجدت مريم ــ عليها السلام ــ نفسها فى هذا الجو البغيض.. ظلمات بعضها فوق بعض.. فابتهلت إلى الله ــ تعالى ــ وتضرعت إليه فى قرارة نفسها.. أن يكشف عن قومها هذه الغمة.. وينتشلهم من وهدة الضلال وحمأة الرذيلة.. بإرسال من يأخذ بيدهم إلى طريقه المستقيم وسبيله القويم.

وكانت تلك إرهاصات وتنبؤات صادقى الكهنة والأحبار وأولى العلم منهم فى هذا الحين.

واستجابت السماء لمريم.. وكانت هى محط المحنة فى حملها بهذا الرسول المنتظر.

ويالها من محنة قاسية.. عرضتها للقيل والقال.. وجعلتها عرضة لسلاطة ألسنتهم.. ولاذع سخريتهم.. وعظيم اتهامهم.. لولا دفاع وليدها عنها.. وتعرضه لهم بتلك الآية التى تسكت كل لسان.. وتقطع حجة كل ذى بيان.

ومع هذا لم ينته حديثهم عنها.. ولم ينقطع تعريضهم بها. فكانت لاتشكو بثها إلا إلى الله.. حتى تناقلت إليها الأنباء والأخبار.. بأن الملك هيرودس يطلب ابنها ليقتله.. ابنها الحبيب الذى لو وزع ما في قلبها من الحب له على الدنيا لوسعها.. فتضطرب كما تضطرب القشة فى محيط تلاطمت أمواجه.. وزمجرت عواصفه وأنواؤه.

حيث أتاها يوسف ابن عمها بأمر من السماء.. ليهاجروا إلى مصر.. فتقطع بابنها الفيافى والقفار.. حتى تصل به إلى مكان الأمن والاستقرار والسلام وهدوء البال في مصر..

مرت كل تلك الخواطر ببالها وهى فى مصر.. تنظر فى نشوة وجذل وسرور إلى ابنها.. وقد صار فتى يجري ويلعب ويذهب إلى الكتاب فيعب العلوم عبا.

وبدت عليه مخائل الذكاء والفطنة والجد.. تحس بأنه محوط برعاية الله.. تكلؤه عنايته فيزداد قلبها حبا له .. وشغفا به.. وجدنا عليه.

وفيما هى هائمة مع خواطرها .. سابحة فى أحلامها .. قريرة العين بما هي فيه الآن

---

(١) كان الكهنة يأخذون من الناس عشر أموالهم.

.. من أمن وسلام واطمئنان .. وإذا بيوسف يبلغها أمر السماء بالعودة إلى فلسطين.. فقد مات هيرودس الملك الذى كانت تخشاه على ولدها.. وكأنها لفتة من القدر.. ردتها إلى الحقيقة التى خلقت هى وابنها من أجلها.. فهما لم يخلقا للأمن والسلام.. وإنما خلقا لأمر خطير.. وشأن عظيم.. وجهاد مرير.

تقول الأناجيل .. ومن بينها إنجيل متى .. فى الإصحاح الثانى :

١٩ ــ ولما مات هيرودس.. ظهر ملاك الرب فى حلم ليوسف فى مصر.

٢٠ ــ قائلا: قم وخذ الصبى وأمه.. واذهب إلى أرض إسرائيل.. لأنه قد مات الذين كانوا يطلبون نفس الصبى.

٢١ــ فقام وأخذ الصبي وأمه.. وجاء إلى أرض إسرائيل.

٢٢ ــ ولكن لما سمع أن أرخيلاوس يملك على اليهود عوضا عن هيردوس أبيه.. خاف أن يذهب إلى هناك.. وإذ أوحى إليه فى الحلم.. انصرف إلى نواحى الجليل.

٢٣ ــ وأتى وسكن فى مدينة يقال لها ناصرة.. لكى يتم ما قيل بالأنبياء أنه سيدعى ناصريا ــ ا هـ ــ

وهكذا تركت مريم الأمن والهدوء والسلام.. لتعود بابنها إلى قرية الناصرة .. حيث يبدأ عيسى ــ عليه السلام ــ حياة جديدة.. كلها جهاد وكفاح وآلام.. من بواكير صباه.

□ □ □

٩ صـوت الحـق

لما بلغ عيسى ـ عليه السلام ـ الثانية عشرة من عمره.. خرجت به أمه ويوسف النجار إلى أورشليم ـ القدس - في عيد من أعيادهم .. ليسجدوا للرب هناك.. حسب شريعة موسى.

وبعد انقضاء أيام العيد.. عزموا على العودة إلى قريتهم الناصرة .. بحثت مريم عن عيسى.. فلم تجده.. لم تترك مكانا فى أورشليم.. إلا وبحثت عنه فيه مع يوسف.. فظنا أنه رحل مع أقرانه وسبقهم إلى الناصرة.. ولما وصلا.. سألا عنه فلم يجداه.. ولم تستطع مريم ـ عليها السلام ـ صبرا.. فعادت مع يوسف للبحث عنه.. وبعد مجهود .. وجداه جالسا فى الهيكل وسط العلماء والكهان والأحبار.. يناقشهم ويحاجهم.. ويسأل ويجيبّ .. والكل في عجب من علمه الغزير.. الضارب فى أعماق التوراة وأسرارها وعظاتها.

وتقدمت إليه أمه.. لائمة مؤنبة على تخلفه عنهم.

ففى إنجيل لوقا في الإصحاح الثانى.. ما نصه:

٤١ـ وكان أبواه يذهبان كل سنة إلى أورشليم .. فى عيد الفصح.

٤٢ـ ولما كانت له اثنتا عشرة سنة.. صعدوا إلى أورشليم ـ كعادة العيد.

٤٣ـ **ولما أكملوا الأيام..** بقى عند رجوعهما ـ الصبى يسوع ـ فى أورشليم.. ويوسف وأمه لم يعلما.

٤٤ـ **وظناه بين الرفقة..** فذهبا مسيرة يوم.. وكانا يطلبانه بين الأقارب والمعارف.

٤٥ـ **ولما لم يجداه..** رجعا إلى أورشليم يطلبانه.

٤٦ـ **وبعد ثلاثة أيام** وجداه في الهيكل فى وسط المعلمين يسمعهم ويسألهم.

٤٧ـ وكل الذين سمعوه.. بهتوا من فهمه وأجوبته.

٤٨ـ فلما أبصراه اندهشا.. وقالت له أمه: يابنى.. لماذا فعلت بنا هكذا؟.. هو ذا أبوك وأنا كنا نطلبك معذبين.

٤٩ـ **فقال لهما:** لماذا كنتما تطلبانى؟.. ألم تعلما أنه ينبغى أن أكون فيما لأبى؟

٥٠ـ **فلم يفهما الكلام الذى قال لهما.**

٥١ـ **ثم نزل معهما..** وجاء إلى الناصرة وكان خاضعا لهما.. وكانت أمه تحفظ جميع هذه الأمور فى قلبها.

٥٢ـ **وأما يسوع فكان يتقدم فى الحكمة.. والقامة..** والنعمة عند الله والناس ــ أ هـــ

أقامت مريم ويوسف فى قرية الناصرة.. وهى على بعد خمسين ميلا تقريبا من بيت المقدس.. يشتغل يوسف بمهنته.. مهنة النجارة.. وتفرغت هى لعبادة ربها.. وملاحظة ابنها.. وقد صنع الإيمان هالة من النور حول وجهها المشرق الحنون.

أما عيسى ــ عليه السلام ــ فلم تذكر الأناجيل شيئا عن حياته فى المدة: بين اثنتى عشرة سنة من عمره ..إلى أن بلغ تسعا وعشرين وهو السن الذى ذهب فيه ليعتمد من يوحنا المعمدان ــ يحيى بن زكريا ــ عليهم جميعا السلام.

وقرر الباحثون الأوربيون.. أنه ذهب في تلك المدة إلى الهند.. وتلقى علوم البوذية وآدابها في الحث على تكميل النفس وتهذيبها.. غير أنه بالمقارنة بين تعاليم المسيح وتعاليم بوذا.. نجد أن بوذا كان سلبيا.. بمعنى أنه يحث علي تجريد النفس من الشرور فقط.. وأما تعاليم السيد المسيح فكانت إيجابية.. بمعنى حث النفس على العطاء والبذل وفعل الخير.. للأعداء والأحباب.. وفرق كبير بين الحالتين.

وكل ما يهمنا من أمر عيسى ــ عليه السلام ــ أنه نشأ غيورا على الدين.. حريصا على تفهم التوراة.. واستكناه أسرارها.. شجاعا فى الحق.. لايخشى فيه لومة لائم.. يناقش العلماء .. ويسألهم ويجيبهم على أسئلتهم فى قوة وصدق وإقناع.. تمرس من صباه في بيئة كلها حكمة وعلم ودين.

كان قويا فى ضرب الأمثال التى تنطق بالحكمة.. وتتفجر بالعلم والموعظة.. وعلى قدر قوة الداعى إلى الله فى ضرب المثل.. تكون شدة تأثيره فى قلوب سامعيه.

ولأضرب لك مثلا واحدا من أمثاله:

«فشبه ملكوت السماوات بإنسان زرع فى حقله قمحا.. من أجود أنواع القمح.. وجاء عدو لصاحب الحقل وبذر فيه بذور الزوان ــ والزوان حب يخالط القمح ــ فلما نبت القمح نبت معه الزوان.. وجاء العمال فأخبروا صاحب الحقل بوجود نبات الزوان مع القمح.. فقال: لابد أن عدوا لنا فعل هذا.. فسألوه أن يذهبوا لقطع الزوان قبل نموه.. فقال لهم: لاتفعلوا حتى لاتقطعوا القمح معه.. دعوهما ينموان معا.. حتى إذا جاء الحصاد.. طلبنا من الحصادين أن يجمعوا الزوان أولا..

ويجعلوه حزما فنحرقها.. ثم نأخذ القمح ونضعه فى المخازن.

ثم فسر هذا المثل بقوله:

زارع القمح: هو الله.. والحقل: هو العالم .. والزرع الجيد: هو بنو الملكوت.. يقصد المؤمنين ــ والزوان: هم بنو البشر ــ يقصد الكافرين ــ وزارع الزوان: هو إبليس.. والحصاد: هو انقضاء هذا العالم.. والحصادون: هم الملائكة.

فكما يجمع الزوان ويحرق فى النار.. هكذا يكون فى انقضاء العالم.. يرسل الله ملائكته.. فيجمعون من ملكوته جميع المفسدين.. ويطرحهم فى النار.. بينما يضئ الأبرار.. كالشمس فى ملكوت الله(١)».

ولنصحب عيسى ــ عليه السلام ــ فى صراعه مع زعماء قومه بنى إسرائيل.. ودعوته لهم للعودة إلى الحق.. العودة إلى مفاهيم التوراة التى يؤمنون بها.. ويدينون بدينها.. ولكنهم حرفوها وفسروها بما يخدم أغراضهم.. ويمكنهم من أكل أموال الناس بالباطل.

فالتف حوله الناس.. ولنحضر معه عرس قانا.. ولهذا العرس قصة ذكرت فى جميع الأناجيل.. لنتخذ منها عبرة تلزمنا فيما بعد. فقد قُلب فيها الماء خمرا.. قدمه أهل العرس إلى الضيوف.. وأعجبوا بجودته.. ولنترك يوحنا يقص علينا وقائع تلك الوليمة فى إنجيله.. فى الإصحاح الثانى.. قال:

١ـ وفى اليوم الثالث.. كان عرس قانا ــ الجليل.. وكان أم يسوع هناك.

---

(١) هذا المثل بتعديل فى إنجيل متى: إصحاح ١٣ فقرات ٢٤ ــ ٤٣.

٢ـ ودُعِى أيضا يسوع وتلاميذه إلى العرس.

٣ـ ولما فرغت الخمر.. قالت أم يسوع له: ليس لهم خمر.

٤ـ قال لها يسوع.. مالى ولك يا امرأة.. لم تأت ساعتى بعد.

٥ـ قالت أمه للخدم: مهما قال لكم فافعلوه.

٦ـ وكانت ستة أجران من حجارة.. موضوعة هناك.. حسب تطهير اليهود.. يسع كل واحد مطرين أو ثلاثة.

٧ـ قال لهم يسوع: املأوا الأجران ماء.. فملأوها إلى فوق.

٨ـ ثم قال لهم: استقوا الآن.. وقدموا إلى رئيس المتكأ.. فقدموا.

٩ـ فلما ذاق رئيس المتكأ الماء المتحول خمرا.. ولم يكن يعلم من أين هى.. ولكن الخدام الذين كانوا قد استقوا الماء علموا.. دعا رئيس المتكأ العريس.

١٠ـ وقال له: كل إنسان إنما يضع الخمر الجيد أولا.. ومتى سكروا فحينئذ الدون.. أما أنت فقد أبقيت الخمر الجيدة إلى الآن.

١١ـ هذه بداية الآيات.. فعلها يسوع فى قانا الجليل.. وأظهر مجده.. فآمن به تلاميذه.

١٢ـ وبعد هذا انحدر إلى كفر ناحوم هو وأمه وأخوته وتلاميذه وأقاموا هناك أياما ليست كثيرة - ا هـ -

ثم صعد عيسى ــ عليه السلام ــ من كفر ناحوم إلى بيت المقدس.. ليبدأ صوت الحق يدوى فى الآفاق.. حيث كان ذلك فى يوم عيد الفصح فهاجم زعماء اليهود فى قوة زلزلت أركانهم.. وأذلت شموخهم.. وأطفأت تلك الهالة الكهنوتية التى أحاطوا بها أنفسهم.. واستغلوا بها الدهماء والبسطاء.

ولنسمع هذا من يوحنا.. فى الإصحاح الثانى نفسه:

١٣ـ وكان فصح اليهود قريبا.. فصعد يسوع إلى أورشليم.

١٤ـ ووجد فى الهيكل الذين كانوا يبيعون بقراً وغنما وحماما. والصيارف جلوسا.

١٥ـ فصنع سوطا من حبال.. وطرد الجميع من الهيكل ــ الغنم والبقر.. وكَبَّ دراهم الصيارف وقلب موائدهم.

١٦ـ وقال لباعة الحمام: ارفعوا هذه من هنا.. لاتجعلوا بيت أبى بيت تجارة.

١٧ـ فتذكر تلاميذه أنه مكتوب: غيرة بيتك تأكلنى.

وفى آية/ ٢٣ ــ قال: ولما كان فى أورشليم.. فى عيد الفصح أمه كثيرون باسمه.. إذا رأوا الآيات التى صنع.

٢٤ـ ولكن يسوع لم يأتمنهم على نفسه.. لأنه كان يعرف الجميع.. أ هـ.

وقالت الأناجيل: أنه فى هذا اليوم.. صنع كثيرا من الآيات والمعجزات التى أيدها القرآن الكريم.. من إبراء الأكمة والأبرص.. وإحياء الموتى.. وإخبارهم بما هو مخبوء فى بيوتهم.. يقول الله تعالى عنه فى سورة آل عمران:

«ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل ورسولا إلى بنى إسرائيل أنى قد جئتكم بآية من ربكم أنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله وأبرئ الأكمه والأبرص وأحى الموتى بإذن الله وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون فى بيوتكم إن فى ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين»(١).

كل هذا واليهود يتهمونه فيها بالسحر.. ويسخرون منه.. فيقولون؟

أليس هذا من نعرف أباه وأمه؟ .. أليس هو ابن يوسف النجار؟ فمن أين له تلك الآيات؟.

لقد رأيناه ــ عليه السلام ــ يهاجمهم فى المسجد.. فى يوم عيد الفصح.. حيث صنع لهم سوطا من حبال اللوف.. وطرد ما فيه من بقر وغنم.. وطرح موائد الصيارف. فبعثر أموالهم.. وهزأ بهم فى قوة لاتتوافر إلا إذا كانت مؤيدة بجنود لم يروها.. ولاقبل لهم بها.

---

(١) ٤٨ ــ ٤٩/ آل عمران.

يلازمه قلب أمه البتول. تدعو معه إلى دين الحق.. وإلى سواء السبيل.. فتعقد الندوات للنساء.. في أي مكان يحل به.. فيأتيه المذنبون والخاطئون.. والمذنبات والمخطئات.. نادمين على ما فرط منهم في جنب الله.. يسكبون دموع التوبة بين يديه.. خاشعين ضارعين.. فيمد لهم عيسى ـ عليه السلام ـ يده.. فيبرئ أسقامهم ويداوي عللهم.. جسمية كانت أم روحية.. فتبعه خلق كثير من الرجال والنساء.. يسيرون معه أينما سار.. ويتبعون خطاه حيثما اتجه.

لقد أخطأ في حقه اليهود والنصارى معا.. اتهمه اليهود بالسحر.. وأنه ابن زنى.. ففرطوا وقصروا.. ورفعه النصارى إلى درجة الإلوهية.. فأفرطوا وغلوا.. وإنما هو عبدالله ورسوله.

كم حاول اليهود أن يلفقوا له التهم.. وأن يستدرجوه في القول.. ليمسكوا عليه حجة تمكنهم من محاكمته كزنديق.. خارج على مبادىء الدين.. وقانون التوراة.

فمثلا.. كان بين النساء اللاتي لازمن عيسى عليه السلام ـ هو وأمه.. ملازمة دائمة: امرأتان جرى ذكرهما في الأناجيل.. أولاهما امرأة خاطئة.. ضبطوها متلبسة بجريمة الزنى.. فأحضروها إلى عيسى ليستدرجوه.

وسأترك يوحنا يقص علينا قصة هذه المرأة.. لترى فيها الحقد والغل.. اللذين باضا وأفرخا في قلوب الكتبة والفريسيين.. حيال عيسى.. عندما رأوه وقد التف حوله الشعب.. وتبعته الجماهير.. وكان في هذا الحين يعلم جموع الشعب في الهيكل نهارا.. فإذا جاء الليل أوى إلى الجبال.

يقول يوحنا في الإصحاح الثامن عن حادث المرأة:

١ـ أما يسوع فمضى إلى جبل الزيتون.

٢ـ ثم حضر أيضا إلى الهيكل في الصبح.. وجاء إليه جميع الشعب.. فجلس يعلمهم.

٣ـ وقدم إليه الكتبة والفريسيون امرأة أمسكت في زنى.. ولما أقاموها في الوسط.

٤ـ قالوا له: يامعلم.. هذه المرأة أمسكت وهي تزني.. في ذات الفعل.

٥ـ وموسى في الناموس أوصانا أن مثل هذه ترجم.. فماذا تقول أنت؟

٦ـ قالوا هذا ليجربوه.. لكي يكون لهم ما يشتكون به عليه.. وأما يسوع.. فانحنى إلى أسفل.. وكان يكتب بأصبعه على الأرض.

٧ـ ولما استمروا يسألونه.. انتصب وقال لهم: من كان منكم بلاخطيئة.. فليرمها أولا بحجر.

٨ـ ثم انحنى أيضا إلى أسفل.. وكان يكتب على الأرض.

٩ـ وأمامهم.. فلما سمعوا كانت ضمائرهم تبكتهم.. خرجوا واحدا فواحدا.. مبتدئين من الشيوخ إلى الآخرين.. وبقي يسوع وحده والمرأة واقفة في الوسط.

١٠ـ فلما انتصب يسوع.. ولم ينظر أحدا سوى المرأة.. قال لها: يا امرأة أين هم أولئك المشتكون عليك؟.. أما دانك أحد منهم؟.

١١ـ قالت: لا أحد يا سيد.. فقال لها يسوع: وأنا لا أدينك.. اذهبي.. ولاتخطئي أبدا ـ أ هـ.

وسارت تلك المرأة خلفه تائبة خاشعة نادمة.

ولازمت أمه في هذا الحين.. وكانت غنية ذات مال كثير.. فهي يونا زوجة خوزي وكيل هيرودس الملك.

وأما المرأة الثانية فهي مريم المجدلية.. ذكرها لوقا[1] في الإصحاح الثامن:

١ـ وعلى أثر ذلك كان يسير في مدينة وقرية.. يكرز ويبشر بملكوت الله.. ومعه الاثنا عشر.

٢ـ وبعض النساء قد شفين من أرواح شريرة وأمراض .. مريم التي تدعى ـ المجدلية ـ التي خرج منها سبعة شياطين.

٣ـ ويونا امرأة خوزي وكيل هيرودس.. وسوسنة.. وأخر كثيرات كن يخدمنه من أموالهن. ـ أ هـ ـ .

(١) لوقا. ص ٨: ١ـ٣.

ونحن نستبعد حكاية السبعة الشياطين .. التى خرجت من جسم مريم المجدلية.. وأُرجح رواية أخرى قرأتها عنها فى إنجيل آخر تفيد أنها كانت مريضة بنزيف مزمن.. عجز الطب عن علاجها.. وشفيت منه عندما مست عيسى ـ عليه السلام ـ فآمنت به واتبعته ولازمت أمه بمالها.. وكان لها مال كثير.

كما ذكرت بعض الأناجيل أيضا أن مريم المجدلية هذه كانت ممن يحترفن الدعارة ـ فى زمن المسيح ـ وكانت جميلة .. كثر عشاقها.. واقتنت من وراء ذلك أموالا كثيرة.. ثم تابت على يد عيسى ـ عليه السلام ـ وآمنت به واتبعته.

ولهذا نترك أمرها إلى علم العليم.. ولايهمنا إلا أن نعرف أنها أخلصت لعيسى ـ عليه السلام ـ وكانت تلازمه مع أمه ملازمة الظل.. تحضر دروسه وعظاته.. وكانت عونا له على التبشير بدعوته بين النساء.. وكانت مثل الحواريين.

وحضرت مع السيدة مريم عملية الصلب.. وكانت رمزا للمرأة التائبة الوفية المخلصة.

وبقيت مع مريم البتول ـ عليها السلام ـ بعد رفع عيسى .. تجاهد فى سبيل الدعوة إلى الله.. وتاب على يديها كثيرون.

□ □ □

١٠ قـوة الدعـوة.. وفطنـة الداعـى..

أصحاب الدعوات دائما (كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعهـا فى السماء)(١).. كلما هبت عليهـا الأعاصير.. وأحاطت بهـا العواصف.. مالت على أصولـها الضاربة فى أعـماق الأعـماق.. حـتى يمر الإعـصار وتتلاشى العاصفة.. ثم تقوم على سوقها شامخة سامقة.. تتحدى الزمن وتصـارع عـوامل الفنـاء.. وتزهو على الطبيـعـة بأغصانها وأزهارها وثمارها.

وهكذا حـال الأنبيـاء والشهـداء والأوليـاء.. تهب عليهم أعاصـير الزمن.. وتحيط بهم عوامل الـفتنه والشر والطاغـوت.. فـلا يزيدهم ذلك إلا رسـوخـا وإيمانا.. ويقينا وإحسانا.. اشـترى الله تعالى نفوسهم وأموالهم.. فاستبشـروا بما باعوا.. واطمأنت قلوبهم إلى الثمن الذى به باعوا: (إن الله اشـترى من المؤمنين أنفسـهم وأموالهم بأن لهم الجنة)(٢).

إنه والله لشـراء عجيـب.. وبيع غـريب.. أرأيت هذا الكرم الخارج عن نطاق الإدراك!!

الله سـبحـانه يشـترى منا أنفسنا وأمـوالنا .. مـع أن الأنـفس مـن صنـع يـده .. والأمـوال مـن فـيض عطـائه .. إنـه تعـالى يـشـتـرى منـا بضـاعتـه هو .. ويجـزل لنا الثـمن .. وهل هناك ثمن أغلى من الجنة؟.

قـال الحواريون لعيسى ـ عليه السلام ـ يايسوع مـالك لاتقـدم للناس إلا الخيـر.. فلايقـدمـون لك إلا الشر!.. فـقال قولته المشـهورة: «إنائى كله خير وأنيـتهم كلها شر.. وكل إناء بالذى فيه ينضح».

فكم قـدم الخيـر لبنى إسرائيل.. يشـفى مريضـهم.. ويعـالج سـقـيـمـهم.. ويـداوى جـريحـهم كل هذا وزعـماؤهم يتـربصـون به الدوائر.. ويكنون له الشـر.. ولكن عـيـسى ـ كلمـة الله ـ كـان من الذكـاء والفطنة بحيث لم يمكنهم مما يرغبـون.. كم حاولـوا استـدراجه ليكيـدوا بينه وبين المـلك.. ولكنه كـان لبـقـاً في الرد عليهم.. فلم يمكنهم من الوصول إلى أهدافهم.

وهذا لوقا يقدم لنا مثلا صغيرا من تلك المواقف التى تَعرَّضَ لهـا عيسى.. فيـقول فى الإصحاح العـشرين من إنجيله:

١ـ وفى أحـد تلك الأيام.. إذ كان يُعلِّم الشـعب فى الهـيكل.. ويبـشر... وقف رؤسـاء الكهنة والكـتبة مع الشيوخ.

(١) ٢٤/ إبراهيم.

(٢) ١١١/ التوبة.

٢ـ وكلموه قائلين: قل لنا.. بأى سلطان تفعل هذا.. ومن هو الذى أعطاك هذا السلطان؟

٣ـ فأجاب وقال لهم: وأنا أيضا أسألكم كلمة واحدة فقولوا لى.

٤ـ معمودية يوحنا.. من السماء كانت.. أم من الناس؟

٥ـ فتآمروا فيما بينهم.. قائلين: إن قلنا من السماء يقول فلماذا لم تؤمنوا؟

٦ـ وإن قلنا من الناس.. فجميع الشعب يرجموننا.. لأنهم واثقون بأن يوحنا نبى.

٧ـ فأجابوا.. إنهم لايعلمون من أين.

٨ـ فقال لهم يسوع: ولا أنا أقول لكم بأى سلطان أفعل هذا؟

وهذا موقف آخر أكثر لباقة.. وأحكم تصرفا.. عرضه لوقا فى نفس الإصحاح العشرين.. قال:

٢٠ـ فراقبوه وأرسلوا جواسيس.. يتراءون أنهم أبرار.. لكى يمسكوه بكلمة.. حتى يسلموه إلى حكم الوالى وسلطانه.

٢١ـ فسألوه قائلين: يامعلم إنك بالاستقامة تتكلم وتعلم.. ولاتقبل الوجوه.. بل الحق.. تعلم طريق الله.

٢٢ـ أيجوز لنا أن نعطى جزية لقيصر(١).. أم لا؟

٢٣ـ فشعر بمكرهم.. وقال لهم: لماذا تجربوننى؟.

٢٤ـ أرونى دينارا.. لمن الصورة والكتابة؟.. فأجابوا وقالوا لقيصر.

٢٥ـ فقال لهم: أعطوا إذاً ما لقيصر لقيصر.. وما لله لله.

٢٦ـ فلم يقدروا أن يمسكوه بكلمة قدام الشعب.. وتعجبوا من جوابه.. وسكتوا ــ أهـ ــ.

ومع هذا كم هاجم الكهنة والفريسيين والكتبة.. بألفاظ كالخناجر المسمومة.. والسهام المكتومة.

فقد دعاه أحد الفريسيين للغذاء.. وطلب منه أن يغسل يده قبل الأكل.. فقال له: أنتم أيها الفريسيون.. تنقون خارج الكأس والقصعة.. وأما باطنكم فمملوء لؤما وخبثا.. يا أغبياء.. أليس الذى صنع الخارج صنع الداخل أيضا؟.

ويل لكم لأنكم تعشرون (٢) النعنع والسداب وكل بقل.. وتتجاوزون عن الحق ومحبة الله.. ويل لكم فأنكم تحبون المجلس الأول فى المجامع.. والتحيات فى الأسواق.

ويل لكم أيها الكهنة والكتبة والفريسيون المراءون.. لأنكم مثل القبور المختفية والذين يمشون عليها لايعلمون(٣).

وهكذا ظل عيسى ــ عليه السلام ــ يؤدى رسالته.. بدعوة بنى إسرائيل إلى العودة لشريعة موسى.. التى لم يبق منها فى قلوبهم إلا رسمها.. ولا أثر لها فى صدورهم غير اسمها.

حرفوا شريعة الله التى أتاهم بها موسى ــ عليه السلام ــ وحادوا عن طريق الحق والخير.. فاتبعه الشعب.. كل الشعب البائس المظلوم.. المغلوب على أمره.. إلا هؤلاء النفعيون.. المتهالكون على الدنيا وزخارفها.. ومطامعها.. فلاهمَّ لهم إلا الحرص على مراكزهم ومناصبهم.. وأصبح شغلهم الشاغل.. وهمهم الماثل.. أن يتخلصوا من هذا الإنسان الذى سفه أحلامهم.. وحطم كبرياءهم..وكشف مخبوء صدورهم.. وتطاول عليهم بالسب والشتم واللعن والسخرية.

وقد حاولوا مرارا أن يقبضوا عليه.. لأى سبب من الأسباب.. وأحيانا من غير أسباب.. ولكنه كان يفلت منهم كما تفلت نقطة الزئبق من بين أصابعك كلما هممت أن تمسك بها.. وتلك قطعا عناية الله.

آمن الحواريون بعيسى ــ عليه السلام ــ إيمانا مطلقا.. واتبعوه اتباعا تسليميا.. وكانوا اثنى عشر حواريا.

وسموا الحواريين لبياض ثيابهم(٤).. وقال بعضهم: إنهم كانوا صياديـن.. وقال آخرون إنهم كانوا قصارين(٥) يدقون الثياب لتبييضها.

---

(١) كانت فلسطين فى هذا الحين خاضعة لحكم قيصر الرومان.

(٢) يأخذون من كل زرع عشرة

(٣) لوقا ص ١١ / ٢٧ ــ ٤٤.

(٤) الحور: شدة بياض العين فى شدة سوادها.

(٥) القصار صابغ الثياب

وقال عطاء: دفعت مريم ــ عليها السلام ــ ابنها وهو صغير إلى مهن شتى.. وآخرها القصارين والصباغين.. وأراد معلم عيسى السفر لبعض شئونه.. فقال لعيسى : عندك ثياب كثيرة مختلفة الألوان.. وقد علمتك الصبغة فاصبغها.. فجهز عيسى إناء واحدا من آنية الصباغة.. وضع فيه جميع الثياب.. وقال: كونى بإذن الله على ما أريد منك.. فقدم الحوارى ــ صاحب المحل ــ والثياب كلها فى جب واحد.. فقال له غاضبا: لقد أفسدتها.. فأخرج عيسى ــ عليه السلام ــ من الجب ثوبا أحمر.. وآخر أخضر.. وغيره أصفر.. حسب ما هو مكتوب على كل ثوب من اللون المطلوب.. فعجب الحوارى.. وعلم أن ذلك من الله .. ودعا الناس إليه فآمنوا به.. فهم الحواريون.

وقيل: الحواريون هم خاصة خاصة الأنبياء لنقاء قلوبهم.

وأصل الحوار فى اللغة: البياض.. فأقول: حورت الثياب بيضتها.

والحوارى أيضا: الناصر.. وقال صلى الله عليه وسلم:

«لكل نبى حوارى.. وحواريى الزبير».

والحواريات: النساء البيض.. وقال الشاعر:

فقل للحواريات يبكين غيرنا

ولا تبكنا إلا الكلاب والنوابح

كان عيسى ــ عليه السلام ــ رحالا.. لايستقر فى مكان.. ولا يهدأ فى مضجع.. تجرى خلفه الجموع شرقا.. وتندفع غربا.. ولكأنى ألمح مريم ــ عليها السلام ــ تجرى خلفه شرقا وغربا.. يدفعها الحب والحنين المشوبان بالخوف عليه.. فقد اخترق قلبها ــ الصافى الشفاف ــ حجب الغيب.. فأحست بما يحاك لابنها فى الظلام.. وتكاد ترى يد الإثم توشك أن تنقض على عنقه.. لتقديمه إلى ساحة الإعدام.

قلب حائر.. وصدر ملتاع.. ونفس قلقة.. وجسد أضناه التعب والسهر.. ترفع ناظريها إلى السماء بين الحين والحين.. فتبثها شكواها.. وتستودعها نجواها.. فتمد السماء إليها يد الصبر والرضى .. وعيسى عنها مشغول بالدعوة إلى الله.. حالت الجموع بينه وبينها.. يقول لوقا فى إنجيله.. فى الإصحاح الثامن:

١٩ـ وجاء إليه أمه وأخوته.. ولم يقدروا أن يصلوا إليه بسبب الجموع.

٢٠ـ فأخبروه قائلين: أمك وأخوتك واقفون خارجا يريدون أن يروك.

٢١ـ فأجاب.. وقال لهم: أمى وأخوتى هم الذين يسمعون كلمة الله ويعملون بها ــ أ هـ

فتخيل معى هذا القلب الحنون.. وقد حالت الجموع بينه وبين فلذة كبده.. وهى تعلم ما يكنه الكهنة والفريسيون والكتبة من الكيد له للإيقاع به ومحاكمته على أنه زنديق خارج على شريعة موسى.

وتعود مريم ــ عليها السلام ــ إلى نفسها فى خشية المؤمن.. وضراعة المتبتل قائلة:

(ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا فى أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين)(١).

وكانت الريح تحمل إليها قول الحواريين لعيسى:

(ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين)(٢).

وفجأة وجدنا أنفسنا فى أحضان كتابنا الكريم.. كتابنا الذى:

(لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد)(٣).

حقا إن له لحلاوة.. وإن عليه لطلاوة.. وإن أعلاه لمثمر.. وإن أسفله لمغدق.. وإنه ليعلو ولا يُعلَى عليه.. وإنه ليحطم ما تحته.. تلك شهادة الوليد بن المغيرة للقرآن الكريم..

---

(١) ١٤٧ / آل عمران.

(٢) ٥٣ / آل عمران.

(٣) ٤٢ / فصلت.

برغم عناده وكبره.. وعتوه وكفره.. لم يتمالك نفسه عندما سمع بعض آياته من فم رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فجابه بتلك الشهادة أبا جهل.

وهذا هو تبتل مريم ــ عليها السلام ــ لما لعبت بقلبها الظنون والأوهام:

(وكأين من نبى قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين * وما كان قولهم إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا فى أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين) (١).

وكذلك قال الحواريون:

(فلما أحس عيسى منهم الكفر قال من أنصارى إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون * ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين)(٢).

□ □ □

(١) ١٤٦ ــ ١٤٧ / آل عمران.

(٢) ٥٢ ــ ٥٣ / آل عمران.

١١ معجزات وخوارق

يروى أن بعض أهل الكتاب.. جاءوا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقالوا له: لقد جاء موسى بالعصى واليد.. وأبرأ عيسى الأكمه والأبرص وأحيا الموتى.. وجاء غيرهما بشيء من المعجزات.. بماذا جئت؟ فتلى عليهم الآيات من أول:

(إن فى خلق السماوات والأرض واختلاف والليل والنهار لآيات لأولى الألباب).. إلى قوله تعالى (والله عنده حسن الثواب)(١).

ثم قال: «جئت بهذا».

وهل هناك معجزة أقوى وأخلد من هذا الكتاب المعجز.. فى ألفاظه وعباراته.. وصدق آياته.. وخلوده وموسيقاه؟.

كان الغالب على زمان موسى: السحر.. فأتاه الله معجزة تبهر الأبصار..

كان الغالب على زمان عيسى: الطب فأتى بمعجزات عجز الطب أمامها..

وكان الغالب على زمان محمد: الفصاحة والشعر.. فأتى بمعجزة حيرت البلغاء.. وأخرست الشعراء.

وقد ذكر لنا القرآن الكريم معجزات كثيرة.. أظهرها الله تعالى على يد عيسى - عليه السلام - منها:

(أنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله)(٢).

يقول وهب: كان يطير مادام الناس ينظرون إليه.. فإذا غاب عن أعينهم سقط ميتا.. ليتميز فعل الخلق من فعل الله تعالى.

وقيل لم يخلق غير الخفاش.. لأنه أكمل الطير خلقا.. ليكون أبلغ فى القدرة لأن لها ثديا وأسنانا وأذنا.. وهى تحيض وتطهر وتلد.

ويقال : إنما طلبوا خلق خفاش .. لأنه أعجب من سائر الخلق .. ومن عجائبه أنه لحم ودم يطير من غير ريش.. ويلد كما يلد الحيوان .. ولا يبيض كما يبيض سائر الطير .. فيكون له الضرع يخرج منه اللبن .. ولا يبصر فى ضوء النهار ولا فى ظلمة الليل .. وإنما يرى فى ساعتين بعد غروب الشمس ساعة .. وبعد طلوع الفجر ساعة قبل أن يسفر الصبح .. ويضحك كما

---

(١) ١٩٠ / ١٩٥ آل عمران.

(٢) ٤٩/ آل عمران.

يضحك الإنسان.. ويحيض كما تحيض المرأة(١).

ويقال: إن سؤالهم لعيسى - عليه السلام - كان على سبيل التعنت..

فقالوا له: اخلق لنا خفاشا.. واجعل فيه روحا إن كنت صادقا.. فأخذ طينا.. وجعل منه خفاشا.. ثم نفخ فيه فإذا هو يطير بين السماء والأرض.

فكانت تسوية الطين والنفخ من عيسى.. والخلق من الله

كما كان النفخ من جبريل.. والخلق من الله فى حمل مريم بعيسى.

□□□

ومنها (وأبرىء الأكمه والأبرص) (٢).

والأكمة هو الأعمى.. والأبرص معروف.. وقد اختار الله تعالى له علاج هذين المرضين بالذات.. لأنهم عجزوا عن علاجهما.. مع اشتهارهم بالطب فى هذا الحين.. فكانت معجزته فى هذا المقام من جنس تخصصهم.

□□□

ومنها أيضا (وأُحى الموتى بإذن الله).

وقيل إن عيسى - عليه السلام - أحيا أربعة:

هم العازر - وابن العجوز - وابنة العاشر - وسام ابن نوح.

فأولهم: - العازر - كان صديقا له.. فأرسلت أخته إلى عيسى - عليه السلام - إن أخاك العازر يموت.. وكان بينهما مسيرة ثلاثة أيام فأتى هو وأصحابه.. فوجدوه قد مات منذ ثلاثة أيام.. فقال لأخته: انطلقى بنا إلى قبره.. فانطلقت معهم إلى قبره فدعا الله تعالى .. فقام وخرج من قبره .. وولد له بعدها.

وثانيهم - ابن العجوز - فإنه مر به على عيسى ميتا.. يحمل فى نعشه.. فدعا الله عيسى.. فجلس فى نعشه.. ونزل عن أعناق حامليه.. ولبس ثيابه.. وحمل نعشه على كتفه ورجع إلى أهله.. فبقى .. وولد له بعدها.

وثالثهم ــ ابنة العاشر ــ والعاشر هذا كان يأخذ عشور الأموال من الناس بالباطل.. ماتت له بنت بالأمس.. فأتى عيسى ودعا الله ــ سبحانه ــ فأحياها.

وآخرهم ــ سام بن نوح ــ فقد قال بنو إسرائيل لعيسى ــ عليه السلام ــ إنك تحيى من كان موته قريبا.. ولعلهم لم يكونوا قد ماتوا.. ولكنهم أصابتهم سكتة قلبية.. فأحى لنا سام بن نوح.. ودلوه على قبره.. فدعا الله ــ سبحانه ــ فخرج سام من قبره.

يقول الإمام الخطيب الشربينى فى تفسيره ــ السراج المنير.. والقرطبى.. وغيرهما من أصحاب كتب التفسير:

يقولون: إن سام خرج من قبره.. وقد شاب نصف رأسه خوفا من قيام الساعة.. وما كانوا يشيبون فى ذلك الزمان .. فقال: قد قامت الساعة؟ فقال: له عيسى : لا.. ولكن دعوت الله فأحياك.. ثم قال له: مت.. فقال بشرط أن يعيذنى الله من سكرات الموت فدعا الله ففعل.

□□□

كما كان عيسى.. عليه السلام ــ ينبئهم بما فى منازلهم:

(وأُنبئكم بما تأكلون وما تدخرون فى بيوتكم)(٣).

يقول سعيد بن جبير وغيره: كان يخبر الصبيان فى الكتاب بما هو مدخر فى بيوتهم.. حتى منعهم أباؤهم من الجلوس معه(٤).

وأما معجزة نزول المائدة من السماء فسنعرض لها فى حينها إن شاء الله تعالى.

□□□

أظهر عيسى ــ عليه السلام ــ لهم كل تلك المعجزات الخوارق.. ولكن غشاوة أعينهم.. ووقر آذانهم.. وأكنة قلوبهم.. تلك القلوب التى غلفت بغلاف سميك من الخطايا والأوزار.. حالت دون وصول شعاع من نور أو بصيص من إيمان إلى صدورهم.. فهى كالحجارة أو أشد قسوة.

أحل لهم بعض الذى حرم عليهم:

---

(١) القرطبى.

(٢) ٤٩/ آل عمران.

(٣) ٤٩/ آل عمران.

(٤) ناقشنا هذه المعجزة فى الفصل السابع.

(ولأحل لكم بعض الذى حرم عليكم)(١).

أحل عيسى لهم بعض ما حرم عليهم بسبب ذنوبهم.. ولم يكن محرما فى التوراة.. نحو أكل الشحوم وكل ذى ظفر.. وتلك أشياء حرمتها عليهم الأحبار لم ترد فى التوراة.. يقول تعالى:

(وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذى ظفر ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما إلا ما حملت ظهورهما أو الحوايا أو ما اختلط بعظم ذلك جزيناهم ببغيهم وإنا لصادقون)(٢).

وهكذا نجد أصحاب الدعوات يتعرضون للتكذيب والتأنيب والاتهام.. من القادة والسادة فلايزيدهم ذلك إلا تمسكا بدعوتهم.. وتفانيا فى أداء رسالتهم.. ترعاهم رعاية الرحمن.. وتكلؤهم عناية الديان يتبعهم قلة من هؤلاء الذين صفت مرآة صدورهم.. وصقلت مشكاة قلوبهم.. فمثل هؤلاء كمثل الأرض الطيبة.. التى عناها رسولنا ــ صلى الله عليه وسلم ــ فى الحديث الشريف:

«إن مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم.. كمثل غيث أصاب أرضا.. فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير.. وكان منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا منها وسقوا ورعوا.. وأصاب طائفة أخرى لكنها قيعان لاتمسك ماء ولاتنبت كلأ.. فذلك مثل من فقه فى دين الله فنفعه الله بما أنزل علىَّ فتعلم وعلم.. ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ولم يقبل هدى الله الذى أرسلت به».

ولعيسى ــ عليه السلام ــ معجزة ذكرتها جميع الأناجيل الرسمية أو القانونية.. وهى الأربعة المعروفة: متى .. ومرقس .. ولوقا .. ويوحنا.

□□□

أما إنجيل برنابا فلم تعترف به الكنيسة.. لأن كتابات برنابا فى إنجيله تكاد تتفق مع كثير من العقائد الإسلامية.. فى الحكم بعدم إلوهية المسيح.. وأنه عبدالله ورسوله.

ولهذا جمعت الكنيسة تلك الأناجيل الأربعة مع أعمال الرسل فى كتاب واحد به سبعة وعشرون سفرا.. تضم مائة وتسعين إصحاحا.. وسمته ــ كتاب العهد الجديد.

أما كتاب ــ العهد القديم ــ فهو التوراة.. التى نزلت على موسى ــ عليه السلام ــ وبها تسعة وثلاثون سفرا.. وتضم تسعمائة وتسعة وثلاثين إصحاحا.. ثم جمعوا كتابى ــ العهد القديم والعهد الجديد ــ فى كتاب واحد اسمه «الكتاب المقدس»

□□□

ونعود إلى تلك المعجزة التى أشرنا إليها.. والتى ذكرتها جميع الأناجيل الرسمية.. ويسعدنا أن ندخل تلك الأناجيل مع هذه المعجزة.. حيث نشرف فيها بلقاء ــ أحمد ــ خاتم النبيين.. وإمام المرسلين.. الذى آمنت به الرسل والأنبياء جميعا.. وأخذ الله ــ سبحانه - عليهم العهد والميثاق بنصره وتأييده والتمهيد لدعوته.. دعوة السلام والإسلام.. التى يكمل بها الدين.. ويكون فيها إسعاد البشرية فى الدنيا والآخرة.. فاقرأ معى قوله تعالى عن هذا العهد والميثاق فى سورة آل عمران:

(وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة.. ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه.. قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصرى (٣) قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين)(٤).

وللقارئ الكريم أن يعجب.. كيف يؤمنون به وينصرونه.. وهو لم يأت إلا بعدهم فى الزمن؟!!!

ولكن لو عرفنا أن اسم ــ محمد ــ إنما هو اسم الصورة الجسدية.. واسم ــ أحمد ــ هو اسم الحقيقة الروحية .. والصورة الجسدية عرض تتعلق بالكمية والكيفية والزمانية والمكانية.. أما الحقيقة الروحية فهى الأصل والجوهر.. لاتعلق لها بالكم ولا بالكيف ولابالزمان ولا بالمكان.. وقد ورد فى الخبر أنه ــ عليه الصلاة والسلام فى السماء أحمد وفى الأرض محمد..

ولهذا كان عيسى ــ عليه السلام يقول لقومه (ومبشرا برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد)(٥).

---

(١) ٥٠/ آل عمران.

(٢) ١٤٦ / الأنعام.

(٣) عهدى.

(٤) ٨١/ آل عمران.

(٥) ٦/ سورة الصف.

أى أن اسمه فى هذا الوقت ــ وقت وجود عيسى ــ كان ــ أحمد ــ لأن الصورة الجسدية الطينية التى اسمها ــ محمد ــ لم توجد بعد.. وإنما كان موجودا بحقيقته الروحية.. التى رآها جميع الرسل والأنبياء.. وآمنوا به على أساسها.. فى آية الميثاق التى ذكرناها ــ وبشر به جميع الرسل كل فى عصره.. من لدن آدم وإدريس ونوح.. إلى موسى ويحيى وعيسى .. عليهم جميعا السلام.

وقد تعرضنا لهذا الموضوع بشئ من الإيضاح فى ــ نبأ موسى ــ عليه السلام ــ فى موضوع «موسى والعبد الصالح».. وأثبتنا أنه ــ عليه الصلاة والسلام هو العبد الصالح.. فقد كشف الله تعالى عن بصيرة موسى فرأى حقيقة أحمد عند مجمع البحرين.. ورأى منه ما رأى من علم الله ليريه من هو أكثر منه علما.

□□□

تلك المعجزة التى ألمحنا إليها ــ على عهد عيسى ــ عليه السلام ــ وردت فى الإصحاح السابع عشر من إنجيل متى .. وفى الإصحاح التاسع من إنجيل مرقس.. وفى الإنجيل التاسع من إنجيل لوقا.. الذى قال بالنص على لسان عيسى ــ عليه السلام.

٢٧ـ حقا أقول لكم إن من القوام هنا.. قوما لايذوقون الموت حتى يروا ملكوت الله.

٢٨ـ وبعد هذا الكلام بنحو ثمانية أيام.. أخذ بطرس ويوحنا ويعقوب وصعد إلى جبل ليصلى.

٢٩ـ وفيما هو يصلى.. صارت هيئة وجهه متغيرة.. ولباسه مبيضا لامعا.

٣٠ـ وإذا رجلان يتكلمان معه.. وهما موسى وإيلياء.

٣١ـ اللذان ظهرا بمجد.. وتكلما عن خروجه الذى كان عتيدا.. أن يكمله فى أورشليم.

٣٢ـ وأما بطرس واللذان معه.. فكانوا قد تثقلوا بالنوم.. فلما استيقظوا رأوا مجده.. والرجلين الواقفين معه.

٣٣ـ وفيما هما يفارقانه .. قال بطرس ليسوع .. يا معلم .. جيد أن نكون هنا ... فلنصنع ثلاث مظال.. لك واحدة.. ولموسى واحدة.. ولإيلياء واحدة.. وهو لايعلم مايقول.

٣٤ـ وفيما هو يقول ذلك.. كانت سحابة.. فظللتهم.. فخافوا عندما دخلوا فى السحابة.

٣٥ـ وصار صوت من السحابة قائلا.. هذا هو ابنى الحبيب.. له اسمعوا.

٣٦ـ ولما كان الصوت وجد يسوع وحده.. وأما هم فسكتوا ولم يخبروا أحدا.. فى تلك الأيام بشئ مما أبصروه(١).

وزاد متى ومرقس فى إنجيليهما على رواية لوقا:

«وفيما هم نازلون من الجبل أوصاهم يسوع قائلا.. لاتُعْلموا أحدا بما رأيتم حتى يقوم ابن الإنسان من الأموَات» ــ أ هـ ــ

تلك المعجزة تكاد تكون بالنص فى الأناجيل الثلاثة متفقة ولاخلاف بينهم إلا فى عدد الأيام الواردة قبل حدوثها.. حيث قال بعضهم وبعد ستة أيام بدلا من ثمانية أيام.

واسم ــ إيلياء ــ ورد فى الأناجيل.. فى مواضع أخرى.. بما يشير إلى أنه ــ أحمد ــ عليه الصلاة والسلام ــ عندما كانوا يذهبون للتعميد على يد يحيى ــ عليه السلام ــ الذين يطلقون عليه اسم ــ يوحنا المعمدان ــ لأنه عمد جميع بنى إسرائيل بالماء من نهر الأردن.

وقد أشرنا إلى هذا الموضوع فى نبأ يحيى عليه السلام ــ بذكر ما ورد عنه فى إنجيل مرقص وإنجيل يوحنا الإنجيلى.. ولامانع من ذكر ما ورد عنه فى إنجيل متى على لسان المسيح نفسه.. لنزيد الأمر تأكيدا:

ففى الإصحاح الحادى عشر.. يقول السيد المسيح:

١١ـ الحق أقول لكم.. لم يقم بين المولودين من النساء أعظم من يوحنا المعمدان.

ولكن الأصغر منه فى ملكوت السماوات أعظم منه..

إلى أن قال: ١٣ـ لأن جميع الأنبياء والناموس إلى يوحنا تنبأوا..

(١) الإصحاح ٩ ــ لوقا ــ

١٤ـ وإن أردتم أن تقبلوا.. فهذا هو إيلياء المزمع أن يأتى.

١٥ـ من له أذنان للسمع فليسمع(١).

وقد ورد ذكر إيلياء فى سفر ــ ملاخى ــ فى الإصحاح الرابع:

«ها أنذا أرسل إليكم إيلياء النبى.. قبل مجئ يوم الرب.. اليوم العظيم والمخوف»(٢).

ونفهم هنا عن إيلياء أنه هو أحمد.. وليس المسيح كما يدعون.. لأن المسيح لايعترفون به نبيا.. وإنما هو عندهم إله.. ابن إله.

وقد ذكرنا فى كتابنا ــ مريم البتول ــ أن الاستاذ عبدالوهاب النجار.. ذكر فى كتاب قصص الأنبياء.. أن اليهود يظنون أن إيلياء سيأتى إليهم.

ولكن لو عرفوا أن إيلياء جملها (٥٣) مثل جمل لفظ ــ أحمد ــ لزال الإشكال.. وتبين المراد ــ أ هـ

وهذه العبارة الأخيرة التى هى (جملها ــ ٥٣ ــ مثل جمل لفظ أحمد) قد تحتاج عند البعض إلى شئ من التوضيح.. لامانع أن نذكره ــ من باب العلم بالشئ لمن لم يعلمها.

فالحروف الأبجدية .. كل حرف منها له رقم .. حسب الجدول الآتى:

الحرف	رقمه	الحرف	رقمه	الحرف	رقمه	الحرف	رقمه
ا	١	ح	٨	س	٦٠	ت	٤٠٠
ب	٢	ط	٩	ع	٧٠	ث	٥٠٠
ج	٣	ى	١٠	ف	٨٠	خ	٦٠٠
د	٤	ك	٢٠	ص	٩٠	ذ	٧٠٠
هـ	٥	ل	٣٠	ق	١٠٠	ض	٨٠٠
و	٦	م	٤٠	ر	٢٠٠	ظ	٩٠٠
ز	٧	ن	٥٠	ش	٣٠٠	غ	١٠٠٠

بترتيب أبجد هوز حطى.. إلخ.

وهو مايقولون عنه حساب الجمل.. أو حساب النجم. وعلى أساس هذا الجدول.. لو أردنا أن نحسب اسم إيلياء نجده كالآتى:

الألف (١) ــ والياء (١٠) ــ واللام ــ (٣٠) ــ والياء (١٠) والألف (١) والهمزة الأخيرة (١).. لوجمعناها نجدها (٥٣).

وكذلك لفظ ــ أحمد ــ نجده كالآتى:

الألف (١) ــ والحاء (٨) ــ والميم (٤٠) ــ والدال (٤) ويكون مجموعها أيضا (٥٣).

وبهذا يتفق الاسمان: إيلياء وأحمد فى حساب جملهما. ولله أسرار لايعلمها إلا هو.

ولم يعد عندنا شك فى أن إيلياء هو أحمد ــ عليه الصلاة والسلام ــ ظهر لعيسى بحقيقته الروحية فوق الجبل ورآه بطرس ويوحنا ويعقوب.. حسب ما ذكرت جميع الأناجيل.. كما ظهر معه موسى أيضا بحقيقته الروحية.. ليتم العهد.. ويكون تبشير عيسى بقرب ملكوت الله.. الذى تتم به شريعة موسى والنبيين من قبله.. ويكمل الدين.. ونفس كلمة (إنجيل) معناها ــ البشرى ــ أو البشارة ويحق لمحمد ــ فيما بعد أن يكون آخر كتابه المهيمن على الكتب السابقة:

(اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا»(٣).

وما دام الحديث قد تطرق بنا إلى وجود أحمد فى الأناجيل.. فسنضطر إلى إفراد فصل خاص بعنوان «أحمد فى التوراة والإنجيل» لكثرة الأدلة الناطقة.. والبراهين الصادقة.. على وجوده ــ عليه الصلاة والسلام ــ متلألئا فى أسفار العهد القديم.. والعهد الجديد.. أى فى الأناجيل وفى التوراة.

□ □ □

(١) الإصحاح/ ١١ -متى.

(٢) إصحاح / ٤ آية ٥ - ملاخى

(٣) ٣/ المائدة

١٢ أحمد في التوراة والإنجيل

وردت الإشارة إلى أحمد ــ عليه الصلاة والسلام ــ فى كثير من المواقع بالتوراة والأناجيل.

ففى إنجيل يوحنا.. حكاية عن المسيح .. في الإصحاح الرابع عشر:

١٥ـ إن كنتم تحبوننى .. فاحفظوا وصاياى.

١٦ـ وأنا أطلب من الأب أن يعطيكم معزيا آخر.. ليمكث معكم إلى الأبد.

وفى الإصحاح السادس عشر من نفس إنجيل يوحنا:

٥ـ وأما الآن.. فأنا ماض إلى الذى أرسلنى.. وليس أحد منكم يسألنى.. أين أمضى.

٦ـ ولكن لأنى قلت لكم هذا.. قد ملأ الحزن قلوبكم.

٧ـ لكنى أقول لكم الحق.. إنه خير لكم أن انطلق.. لأنه إن لم انطلق لايأتيكم البارقليط.. ولكن إذا ذهبت أرسل إليكم.

٨ـ ومتى جاء ذلك يبكت العالم على خطيئته.. وعلى بر.. وعلى دينونة.

إلى أن قال فى الفقرة ــ ١٣ ــ وأما متى جاء ذلك روح الحق.. فهو يرشدكم إلى جميع الحق.. لأنه لايتكلم من نفسه.. بل كل ما يسمع يتكلم به ويخبركم بأمور آتية.

١٤ـ ذلك يمجدنى لأنه لا يأخذ مما لى ويخبركم ــ أ هـ

وقد ثبت أن الترجمة الصحيحة لعبارة (بارقليط ــ أو باركليت) بالعربية.. هى كثير الحمد.. يعنى أفعل تفضيل من ــ حمد ــ فتكون: ــ أحمد ــ

كما جاء فى ــ رؤيا يوحنا الإنجيلى ــ فى الإصحاح التاسع عشر.. ما نصه:

١١ـ ثم رأيت السماء مفتوحة وإذا فرس أبيض.. **والجالس عليه يدعى أمينا صادقا..** وبالعدل يحكم ويحارب.

١٢ـ وعيناه كلهيب نار.. وعلى رأسه تيجان كثيرة.. وله اسم مكتوب.. ليس أحد يعرفه.. إلا هو ــ أ هـ

والمسيحيون يقولون إن المسيح هو المقصود.. فى هذه الرؤيا.. ولكن عبارة «وبالعدل يحكم ويحارب» لاتنطبق على عيسى ـ عليه السلام ، لأنه لم يحارب ولاشك أنه ـ محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ فهو الذى حارب.

وقد كان يُدعى قبل الرسالة «الصادق الأمين».. وهذا معروف ومشهور.

وجاء أيضا فى نفس كتاب «رؤيا يوحنا» فى الإصحاح التاسع عشر:

١٥ـ ومن فمه يخرج سيف ماض.. لكى يضرب به الأمم.. وهو سيرعاهم بعصا من حديد .. وهو يدوس معصرة خمر .. سخط وغضب الله القادر على كل شئ ـ أهـ

والمراد من ـ يخرج من فمه سيف ماض ـ هو القرآن الكريم ..

وقد داس النبي ـ صلي لله عليه وسلم ـ معصرة خمر .. بمعنى أنه حرم الخمر تحريما قطعيا.. أما عيسى- عليه السلام- فقد روت عنه الأناجيل أنه قلب الماء خمرا فى عرس قانا.. وقد ذكرنا تفاصيل هذا الحادث فى فصل «صوت الحق».

هذا بعض ما جاء فى كتاب العهد الجديد- الأناجيل- ولعل ما ورد فى كتاب العهد القديم- التوراة- أقوى وأصرح.. فى التبشير ببعث خاتم النبيين.. وإمام المرسلين..

(الذين يتبعون الرسول النبى الأمى.. الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم) (١).

فنجده- عليه الصلاة والسلام- فى الإصحاح الثالث والثلاثين.. من سفر التثنية..: يتلألأ فى وصية موسى- عليه السلام- ولفظه كالآتى:

-٢- فقال: جاء الرب من سيناء.. وأشرق لهم من ساعير.. وتلألأمن جبال فاران- أ هـ -

فقوله: جاء الرب من سيناء.. يقصد رسالة موسى.. من طور سيناء.

وقوله: وأشرق لهم من ساعير.. يقصد إشراقة عيسى من جبال ساعير.. وهى جبال فلسطين.. وهذا معروف.

وقوله: وتلألأ من جبل فاران: يقصد محمدا.. لأن المعروف فى التوراة ذاتها أن جبال- فاران- هى جبال مكة.. وسميت فاران.. نسبة إلى فاران بن عمليق ابن لاوذ بن سام بن نوح.. الذى نزل بمكة بعد الطوفان. فهذه واحدة.

وجاء فى سفر التثنية أيضا.. فى الإصحاح الثامن عشر:

١٥- يقيم لك الرب إلهك نبيا من وسطك.. من أخوتك.. مثلى له تسمعون..

وفى الآية-١٨- أقيم لهم آخر الزمان نبيا مثلك.. من بنى إخوتهم مثلك.. وأجعل كلامى فى فمه.. فيتكلم بكل ما أوصيه- أ هـ -

ونلاحظ هنا أن كل نبى بعث من بعد موسى- كان من بنى إسرائيل.. وآخرهم- عيسى- فلم يكن من بنى إخوتهم إلا نبينا- محمدا..- صلى الله عليه وسلم- لأنه من ولد إسماعيل.. أخى إسحاق..

وإسحاق جد بنى إسرائيل.

وهذا دليل ثان.

وهذا سفرأشعياء.. يقول فى الإصحاح الحادى والأربعين:

١ـ أنصتى أيتها الجزائر.. ولتجدد القبائل قوة.. ليقتربوا.. ثم يتكلموا.

٢ـ من أنهض من الشرق.. الذى يلاقيه النصر عند رجليه.. دفع أمامه أمما.. وعلى ملوك سلطنه.. جعلهم كالتراب بسيفه.. وكالقش المتذرى بقوسه.

٣ـ طردهم.. مر سالما فى طريق لم يسلكه برجليه.

٤ـ من فعل وصنع داعيا الأجيال من البدء.. أنا الرب الأول.. ومع الآخرين.. أنا هو -أ هـ - .

---

(١) ١٥٧/ الأعراف.

والمراد بالقبائل.. قبائل العرب.. وصاحب السيف والقوس.. هو محمد.. لأن عيسى لم يحارب أصلا.. ولم يحمل سيفا ولا قوسا.

وهذا دليل ثالث.

كما فى سفر أشعياء أيضا.. فى الإصحاح الرابع والخمسين:

١ـ ترنمى أيتها العاقر.. التى لم تلد.. أشيدى بالترنم أيتها التى لم تمخض.. لأن بنى المستوحشة أكثر من بنى ذات البعل.. قال الرب.

٢ـ أوسعى مكان خيمتك.. ولتبسط شقق مساكنك.. لا تمسكى.. أطيلى إطنابك.. وشددى أوتادك.

٣ـ لأنك تمتدين إلى اليمين.. وإلى اليسار.. ويرث نسلك أمما.. ويعمر مدنا خربة - أ هـ -

وواضح أن المقصود بالعاقر التى لم تلد أنبياء من قبل.. هى مكة.. فليس منها إلا- محمد- صلى الله عليه وسلم.

وهذا دليل آخر.

كما ذكر فاران أيضا فى سفر- حبقوق- فى الإصحاح الثالث:

٣ـ الله جاء من تيمان.. والقدوس من جبل فاران.

وغيرها كثير وكثير.

ولعلنا بعد تلك الجولة السريعة الخاطفة.. بين أسفار العهد الجديد والقديم.. قد رأينا محمدا- صلى الله عليه وسلم- نجما ساطعا.. وكوكبا لامعا.. فى التوراة والإنجيل.. كما أخبرنا القرآن الكريم بقوله:

(النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل).

ولنعد سراعا إلى أحضان كتابنا الكريم.. فى شوق وحنين.. ففيه ما يغنى فى بقية الرحلة مع عيسى- عليه السلام- لنشهد فيه أحداث الرفع والصلب.. ونناقش ما انزلق فيه غيرنا.. من إفراط وغلو.. وتعالى الله عن ذلك علوا كبيرا.

□ □ □

١٣ مـائـدة السمـاء

فى الفـصل الثانى من نبأ عيسى ـ عليه السـلام ـ تعرضنا للروابط التى تربط بين نزول الطعـام من السماء على مـريم ـ عليهـا السلام ـ فى المحـراب.. وبين رفع عيسى من كوكب الأرض إلى كوكب مجهول آخر:

(وقولهم إنا قـتلنا المسيح عيسى ابن مـريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وإن الذين اختلفوا فيـه لفى شك منه مـا لهم به من علم إلا اتباع الظـن وما قتلوه يقينا. بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزا حكيما)(١).

وذكـرنا أن هذا الطعام نزل مـن السمـاء على ثلاث دفعات:

الدفعة الأولى: قبل الحمل بعيـسى ـ عليه السلام ـ كلما دخل زكريا عليها وجد عندها هذا الرزق.

والدفعة الثانية: فى لحظة ميلاد على هيـئة ماء يجرى من تحتها.. ورطب نزلت فى جذع نخلة يابس.

وفى الدفعة الـثالثة : كانت مائدة مـن السماء .. قـبل رفـعـه بـزمن وجـيـز.. وبينا أن تـلك المواد الغـذائيـة نزلت من مـصـدر واحـد.. هو الـكوكب المجهول.. الذى رفع إلـيه عيسى.. ومازال فـيه إلى يومنا هذا.. حتى يعـود إلى كوكب الأرض فى آخـر الزمان.. كـما هو واضح من منطوق الـكتاب الكريم.. ومـفهـوم السنة الصحيحة.

وسنفرد لعودته إلى الأرض ـ قبل السـاعة ـ فصلا مستقلا لاحقا إن شاء الله تعالى.

قلنا إن نزول الغـذاء على مريم ـ عليـها السـلام ـ قبل حملها.. آتيا من الكوكب المجهول.

لتجـهيز الخامـة التى ستكون عنصرا هاما فى جسم عيسى ـ عليه السلام ـ تجعـله لائقا لمواءمة البيئة التى سيرفع إليها فيما بعد.

وضربنا لذلـك مثلا بالدجـاجة.. لاتحـيا تحت سطح الماء.. والسمكة لاتعيش طويلا فى الهواء.. وما ذلك إلا لاختلاف تركيب كل منهما.

وقلنا: إن تلك الخـلايا الغريبة فى جـسمـه.. لاعمل لها على سطح الأرض وإنما هى لاستـعمالها عند الرفع. كـمـا كـانت معـنا حواسـنا الخمـس.. ونحن فى بطون أمهاتنا.. ولكن لاعمل لها إلا بعد الميلاد.

---

(١) ١٥٧ ـ ١٥٨ / النساء.

وأراد الله ــ سبحانه ــ تثبيت تلك الخلايا فى جسم عيسى بالرضعة الأولى.. عقب مولده مباشرة.. كانت وسيلة تثبيتها ماء ورطبا.. من نفس المصدر فى الكوكب المجهول.. تناولتهما مريم ــ عليها السلام ــ ثم أرضعت منه وليدها.

ومضى الزمن بعيسى .. يأكل مما يأكل الناس.. ومما تنبت الأرض.. حتى بلغ الكتاب أجله.. وقرب أوان رفعه:

(إذ قال الحواريون ياعيسى ابن مريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء) (١)

وكانت عبارتهم (هل يستطيع ربك) محل نقاش بين جميع المفسرين من حيث إنهم حواريون.. والحواريون خاصة الأنبياء وأنصارهم.. بدليل قول عيسى لهم:

(من أنصارى إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون)(٢).

وكما ثبت أيضا فى الصحيحين.. أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما ندب الناس يوم الأحزاب.. ندبهم فانتدب الزبير.. وقال:

«إن لكل نبى حواريا وحواريي الزبير»(٣).

فكيف يشك الحواريون فى قدرة الله تعالى على إنزال مائدة عليهم من السماء؟

وكان الرأى أن هذا القول لم يكن شكا منهم فى قدرة الله تعالى على ذلك.. وإنما يقصدون: هل تستطيع يا عيسى أن تطلب من ربك هذا الطلب؟.. وهل من الممكن أن يجيبنا إلى طلبنا؟

وقد أخذت أم المؤمنين عائشة ــ رضى الله عنها ــ بهذا الرأى.. فقالت:

كان القوم لايشكون أن الله قادر على إنزال مائدة.. ولكن قالوا:

(هل تستطيع ربك) بالتاء وفتح العين وفتح باء ربك.

كما قال معاذ بن جبل ــ رضى الله عنه ــ أقرأنا النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ (هل تستطيع ربك) بالتاء.. قال معاذ: وسمعت النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ مرارا يقرأ بالتاء(٤).

وشق على عيسى هذا الطلب.. حتى أنتم أيها الخلصاء الأوفياء؟.. وأنتم الصفوة المختارة من بنى إسرائيل من دون الكهنة والكتبة والفريسيين.. تريدون أن تجربونى؟

(قال اتقوا الله إن كنتم مؤمنين) (٥).

وفى تصورى أنهم ــ كما يبدو من صيغة طلبهم ــ (هل يستطيع ربك) أو هل (تستطيع ربك).. لم يكونوا مصرين على هذا الطلب فى أول الأمر.. فقد كان مجرد استفهام منهم:

هل من الممكن ياعيسى أن تطلب من ربك إنزال مائدة من السماء؟

وهل من الممكن أيضا أن يلبى طلبك هذا؟

فلما لم يجدوا منه نهيا أو زجرا بسبب هذا الطلب الخارق.. بل قال لهم: «اتقوا الله إن كنتم مؤمنين».. كبر فى نفوسهم هذا الطلب.. وطمعوا فى تحقيقه.. وحدثتهم خواطرهم.. وماذا يضير تقوانا أو ينقص من إيماننا فى حصول هذا الأمر؟.. نريد أن يبلغ إيماننا درجة حق اليقين.. ولن يكون حق اليقين إلا بالمشاهدة والمعاينة.. ألم تر أنهم قالوا «نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا»(٦).

تماما كما قال إبراهيم ــ عليه السلام ــ «رب أرنى كيف تحى الموتى».

فلما قال الله تعالى له «أولم تؤمن»؟ «قال بلى ولكن ليطمئن قلبى »(٧).

فعلى قدر آيات الله مع عبده.. تكون درجته فى اليقين:

علما «علم اليقين»(٨) أو عينا «عين اليقين»(٩) أو حقا «حق اليقين»(١٠)

ومن هنا كان قول الله ــ تبارك وتعالى ــ:

«وكذلك نُرى إبراهيم ملكوت السماوات والأرض وليكون من الموقنين»(١١)

وهكذا كان رد الحواريين على عيسى:

(نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا ونعلم أن قد صدقتنا) فكم سمعنا منك يا نبى الله.. أن أمك كان ينزل عليها الموائد من السماء... ونحن نريد أن نأكل من موائد السماء هذه

(١) ١١٢ / المائدة.
(٢) ٥٢/ آل عمران
(٣) صحيح البخارى ــ باب المناقب.
(٤) القرطبى ــ كتاب الشعب ــ ص ٢٣٦٢
(٥) ١١٢ / المائدة.
(٦) ١١٣ / المائدة.
(٧) ٢٦٠/ البقرة.
(٨) ٥/ التكاثر.
(٩) ٥/ التكاثر.
(١٠) ٩٥/ الواقعة.
(١١) ٧٥/ الأنعام

(ونكون عليها من الشاهدين).. شهود رؤية ومعاينة.. لاشهادة سماع وعلم بالغيب.

ووجد عيسى ــ عليه السلام ــ نفسه مضطرا ــ لأن يتجه إلى ربه بالطلب.. وعلى قدر يقينك بالله فى إجابة دعائك ــ تكون درجة تحقق المطلوب.

فإذا كانت شحنة القلب قوية.. كانت الدفعة ــ بالتالى ــ قوية. تبلغ المطلوب.. وتصيب الهدف المرغوب.. أما القلب الهواء ــ الخالى من شحنات الإيمان واليقين.. فلن يصل دعاؤه ونداؤه إلى أكثر من طرف اللسان.

ولهذا يقول رسولنا ــ صلى الله عليه وسلم ــ «ادع الله وأنت موقن بالإجابة» وقلب عيسى ــ عليه السلام ــ وهو أحد الخمسة أولى العزم من الرسل ــ من القلوب المشحونة.. التى تبرئ الأكمه والأبرص وتحيى الموتى وتنفخ فى الطين فتدب فيه الحياة.. فقال:

(اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيدا لأولنا وأخرنا وآية منك وارزقنا وأنت خير الرازقين)(١).

فاستعمل هنا ــ عليه السلام ــ اسمه تعالى ــ الرزاق.

(ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها)(٢)

ومعرفة استعمال مجالى أسمائه تعالى .. من لوازم المؤمن.. وإلا كان كالمريض.. أمامه الصيدلية.. فيها جميع الأدوية والعقاقير الطبية.. ولكنه لايعرف استعمالاتها.. فقد يأخذ «صبغة اليود» فيستعملها «قطرة» لعلاج عينه.. فتكون النتيجة عكس المطلوب.

فللعبد المظلوم أن يدعو باسمه تعالى (العدل).. وللمغلوب المقهور أن يدعو باسمه تعالى (القهار).. وللمريض أن يدعو باسمه تعالى (الرءوف الرحيم).. ولذى الضائقة المالية أن يدعو بأسمائه: (الرزاق ــ الفتاح ــ العليم ــ الكريم ــ الوهاب).. وهكذا على اختلاف الأحوال المطابق لاختلاف الأسماء.. ويحسن إسناد الاسم المدعو به إلى اسم الذات.. وهو (الله) فتقول: الله رحيم.. الله كريم.. الله رزاق.. الله قهار..إلخ..

وهذا سر الاختلاف الأسمائى.. لاختلاف أحوال الداعين.. ومقاماتهم عند رب العالمين..

ومن أجل هذا.. رأينا عيسى.. عليه السلام ــ يطلب المائدة باسم الله ــ خير الرازقين ــ من حيث كونها رزقا.

وتأتيه الإجابة السريعة بالموافقة على الطلب.

(قال الله إنى منزلها عليكم فمن يكفر بعد منكم فإنى أعذبه عذابا لا أعذبه أحدا من العالمين)(٣).

ومن العجيب أن نجد بعض السادة المفسرين يقولون: إن المائدة لم تنزل من السماء على عيسى وحوارييه.. معللين ذلك باستنتاجات تبعد كل البعد عن ظاهر النص القرآنى.. رغم صراحته فى طلبها.. ورغم قول الله تعالى (إنى منزلها عليكم).

كقول مجاهد: مانزلت.. وإنما هو مثل ضربه الله تعالى لخلقه.. فنهاهم عن مسألة الآيات وطلبها.

كما قيل: إن الله وعدهم بالإجابة.. فلما قال:

(فمن يكفر بعد منكم فإنى أعذبه عذابا لا أعذبه أحدا من العالمين)..

استعفوا منها.. وقالوا: لانريد هذا.

ولكن القرطبى علق على هذين الرأيين بقوله: وهذان القولان خطأ.. والصواب أنها أنزلت (٤).

وقد ذكر الألوسى فى تفسير هذه الآية:

خَرَّج ابن جرير.. وابن المنذر.. وابن أبى حاتم.. عن عمار بن ياسر.. موقوفا ومرفوعا.. والوقف أصح.. قال:

«أُنزلت المائدة من السماء خبزا ولحما.. وأُمروا ألا يخونوا ولايدخروا لغد.. فخانوا وادخروا.. فمسخوا قردة وخنازير».

كما ذكر القرطبى نفس الحديث من تخريج الترمذى.. عن عمار بن ياسر أيضا.. وذلك بجانب عدة روايات كثيرة.. تختلف فى نوع الطعام الذى كان فى المائدة

---

(١) ١١٤ / المائدة.

(٢) ١٨٠ / الأعراف.

(٣) ١١٥/ المائدة.

(٤) القرطبى ٢٣٦٦ من كتاب الشعب.

والمقطوع به في جميع المراجع.. أنها نزلت.. وكان عليها طعام يؤكل.. يغلب أنه سمكة مشوية.

ونحن نعذر الأستاذ عبدالوهاب النجار.. فى كتابه ـ قصص الأنبياء ـ لما ضم صوته إلى الذين نفوا نزول المائدة.. معللا سبب نفيه.. بأنه قرأ روايات عجيبة عنها فى تفسير الألوسى.. وقد قرأتها أنا أيضا فى كثير من كتب التفسير.. قرأتها فى الألوسى.. والكشاف.. والبيضاوى.. والقرطبى. تلك الروايات فيها العجب العجاب.. عن طريقة نزول المائدة وطريقة كشف غطائها.. وألوان الطعام الذى كان فيها.. سمكة مشوية نضد حولها من كل بقول الأرض ما عدا الكراث.. وعند رأسها ملح وخل.. وعند ذنبها أرغفة.. على أحدها رمان.. وعلى الآخر تمرات.. وعلى غيره زيتون..

وظهرت فيها روايات ـ عن الثعلبى ـ أتى فيها بعسل.. وبيض .. وجبن .. وقديد .. و .. و..عجب كلها عجب.. أضن على وقت القارئ الكريم من أن يضيع فى خرافات استغرقت عدة صفحات.. فى إحياء السمكة.. ثم إعادتها مشوية.. وغير ذلك من التأولات والحشو.. الذى لايشك قارئ فى أن الدسيس الإسرائيلى بارز فيها.

أقول : أعذر الأستاذ / عبد الوهاب النجار .. لما ضم صوته إلى القلة الذين نفوا نزول المائدة من السماء على عيسى وحوارييه .. بسبب تلك الروايات المدسوسة على أئمتنا من رجال التفسير.. ولكنى لا أقره على هذا النفى.. كما لايقره العقل أو النقل أو ظاهر النص.

فقد نزلت المائدة.. لما قال الله تعالى:

(قال الله إنى منزلها عليكم فمن يكفر بعد منكم فإنى أعذبه عذابا لا أعذبه أحدا من العالمين)(١).

نزلت وفيها طعام يؤكل.. الغالب على أنه سمكة مشوية.. أكل منها جميع بنى إسرائيل.. وأكل معهم ـ عيسى ـ عليه السلام ـ وطعام تلك المائدة.. من نفس المصدر المجهول.. الذى نزل منه الطعام على مريم ـ عليها السلام ـ قبل حملها بعيسى.. ثم عند مولده مباشرة.

نزل فى هذه المرة ليأكل منه عيسى ـ عليه السلام ـ بعد هذا الزمن.. لتتنبه تلك الخلايا الكامنة فى جسمه من اثنتين وثلاثين عاما. وكان طعامه فيها مما تنبت الأرض.. استعدادا لأداء وظائفها.. فقد دار الزمن دورته. وحان موعد رفعه إلى كوكبه المجهول.. حيث يبقى به إلى أن يعود إلى كوكب الأرض فى آخر الزمان.

وكما قلنا من قريب سنتعرض لهذا الموضوع فى فصل لاحق إن شاء الله تعالى.

□ □ □

---

(١) ١١٥ / المائدة.

١٤ آية الرفـــع

كثر الناس حول عيسى ـ عليه السلام ـ أينما حل أو ارتحل .. يلتف حوله الآلاف من عامة الشعب وخاصتهم.. . فهذا رجل آمن بما جاء به عيسى ـ عليه السلام ـ وكانت نفسه مكبوتة على الغيظ من هؤلاء المتألهين القساة .. غلاظ الأكباد جفاة القلوب.. حتى وجد متنفسا لما فى صدره فى عيسى بن مريم .. فجرى خلفه يؤيده وينصره.

وهذا يأمل الشفاء من مرض قد ألم به

وذاك يريد أن يرى آية من الآيات التى يقوم بها عيسى .. وقد كثر الحديث عنها وتناقلتها الألسنة فى كل مكان.

وذلك يزاحم من أجل الزحام فقط.. وأمثال هذا الأخير كثير. وكلما رأى الكهنة والكتبة والفريسيون ذلك. كلما اشتعلت نار الحقد فى صدورهم .. وتحركت كوامن الغل فى قلوبهم. فقد سفه أحلامهم نهارا جهارا.. واتهمهم باستغلال الدين فى أكل أموال الناس بالباطل.. والاستعلاء على العامة بالإفك والزور والبهتان.

كم حاولوا الإيقاع به .. والكيد له .. ولكنه كان يفلت من شراكهم وكيدهم.. كما ينساب الماء من بين أصابعك.

لم يكتف هؤلاء بتشريده هو وأمه وتلاميذه .. فجعلوهم سواحا فى كل مكان.. أو هكذا أراد هو لنفسه.. وبذلوا فى أذاه كل ما يستطيعون . فسعوا إلى ملك البلاد.. واسمه (بيلاطس) وكان مشركا .. يحكم الشام من قبل قيصر الروم.. وأخبروه بأن عيسى ـ يفتن الناس .. ويفسد على الملك رعاياه.. ويفرق بين الابن وأبيه .. ويدعى أنه ابن الله.. مع أنه ابن زانية. حتى أذن بيلاطس ـ بجلده وقتله وصلبه. وكف أذاه عن الناس.

وقد رأينا شابا نحيلا. يسير وسط الزحام.. وجنود الحاكم يسيرون خلفه بأيديهم السياط يلهبون بها ظهره.. يحمل صليبا ضخما من الخشب.. وقد أحاطوا عنقه بطوق الشوك.. يجر رجليه جرا من ثقل الصليب الذى يحمله على كتفه.. وقد اختلط عرقه بدمه الذى تفجر من بعض أماكن فى وجهه وجسمه .. فإذا انهار هذا الجسم الضعيف تحت وطأة الصليب.. انهالوا عليه بسياطهم فى قسوة ووحشية .. حتى ينهض مستأنفا خطى بطيئة وئيدة.. وكأنه يقتلع رجليه من الأرض اقتلاعا. وما هى إلا خطوات قصار .. حتى يهوى ثانية إلى الأرض.. منهك القوى خائر البدن.. فتعود السياط

إلى إلهاب جسمه الواهى.. حتى يقوم بحمله الثقيل.

وكان يسير حوله هؤلاء القساة الغلاظ.. الكهنة والكتبة الفريسيون الذين أكل الحقد قلوبهم.. فلم يبق فيها مكان لنسمة رحمة .. يشبعونه ركلا وضربا وسخرية واستهزاء .. فيبصقون فى وجهه قائلين:

أنقذ نفسك الآن.. كما كنت تنقذ الآخرين.. يا من كنت تبرىء الأكمه والأبرص وتحيى الموتى .. أين معجزاتك؟.. وأين آياتك وأين خوارقك؟.

وهكذا حتى وصل بعد جهد جهيد بصليبه الضخم إلى المكان الذى صلبوه فيه.

فمن هو هذا الفتى المعذب المصلوب؟

المسيحيون يعتقدون أنه عيسى ـ عليه السلام ـ حتى مريم إلى هذه اللحظة كانت تعتقد أنه ابنها.

ومن حقنا أن نتخيل معا تلك الأم الحنون ترى كل هذا العذاب ينصب على من تظنه ابنها .. وهى تسير خلفه خطوة خطوة. حتى تم صلبه وأسلم الروح.. ثم عادت مع صاحبتها مريم المجدلية.. يقطر قلبها أسى وحسرة وتفيض روحها تمزقا وألما.

وهى لو علمت وعلم هؤلاء الحاقدون الظلمة أن هذا الذى أهانوه.. وساموه سوء العذاب.. وصلبوه ليس هو عيسى.. لوفرت هى على نفسها الأسى والحسرة.. ولوفروا هم على أرواحهم الشماتة والفرحة (ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين) (١)

اقرأ قوله تعالى:

(وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وإن الذين اختلفوا فيه لفى شك منه مالهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقينا*بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزا حكيما)(٢)

ومكر الله .. استدراجه لعباده من حيث لا يعلمون .. قال ابن عباس:

«كلما أحدثوا خطيئة جددنا لهم نعمة ».

ومكر الله فى هذا المقام. هو إلقاء شبه عيسى على غيره ورفع عيسى إليه. فذلك قوله تعالى (والله خير الماكرين) . ولذلك عده بعض العلماء من أسماء الله تعالى.. فيقول إذا دعا: يا خير الماكرين امكر لى وكان صلى الله عليه وسلم ـ يقول فى دعائه.

«اللهم امكر لى ولا تمكر علىّ».

وقيل أن نسترسل فى تلك القضية .. قضية رفع عيسى ـ عليه السلام ـ يجدر بنا أن نناقش معنى قوله تعالى: «إذ قال الله يا عيسى إنى متوفيك ورافعك إلىّ ومطهرك من الذين كفروا) (٣).

تلك العبارة التى جعلت بعض رجال التفسير يقولون: إن عيسى قد مات تمشيا مع ظاهر النص.. مع أن ظاهرالنص لا يؤدى معنى الموت..

فالوفاة تؤدى معنى النوم والموت .. اقرأ قوله تعالى: (وهو الذى يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار)(٤)

فمعنى الوفاة هنا ظاهر أنه النوم .. واقرأ أيضا (الله يتوفى الأنفس حين موتها والتى لم تمت فى منامها)(٥).

بمعنى أنه تعالى يتوفى الأنفس عند الموت .. ويتوفاها عند النوم أيضا ولهذا قال فى الآية السابقة مباشرة: (فيمسك التى قضى عليها الموت ويرسل الأخرى) النائمة (إلى أجل مسمى).. فهذا ظاهر النص الذى يتمسك به البعض.

ولهذا قال كثير من العلماء .. منهم الربيع بن أنس: هى وفاة نوم . . مستشهدا بحديث رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لما سئل أفى الجنة نوم ؟ .. قال : « لا .. النوم أخ الموت .. والجنة لا موت فيها» أخرجه الدارقطنى.. وقال جماعة من أهل المعانى منهم : الضحاك.. والفراء: إنها على التقديم والتأخير.. لأن الواو لا توجب الرتبة .. والمعنى: إنى رافعك إلىّ . ومطهرك من الذين كفروا .. ومتوفيك بعد أن تنزل من

---

(١)٥٤ / آل عمران .

(٢) ١٥٧ - ١٥٨ / النساء..

(٣) ٥٥ / آل عمران.

(٤) ٦٠ / الأنعام.

(٥) ٤٢ / الزمر.

السماء .. كقوله تعالى:

(ولولا كلمة سبقت من ربك لكان لزاما وأجل مسمى) (١) والتقدير «لولا كلمة سبقت.. وأجل مسمى.. لكان لزاما».. وقال الشاعر:

ألا يانخلة من ذات عرق
عليك ورحمة الله السلام

أى عليك السلام ورحمة الله.

وقال الحسن وابن جريج ـ رضى الله عنهما ـ: متوفيك أى قابضك ورافعك إلى السماء من غير موت.. مثل: توفيت مإلى من فلان.. أى قبضته.

وقال ابن زيد: قابضك ومتوفيك ورافعك بمعنى واحد.. ولم يمت بعد.

وكان رأى القرطبى: أن الله رفعه إلى السماء من غير وفاة ولا نوم.. كما قال الحسن وابن زيد.. وهو اختيار الطبري وابن عباس والضحاك.

وقال الإمام النسفى فى تفسيره.. حول قوله تعالى (إنى متوفيك) متوفى نفسك بالنوم.. ورافعك وأنت نائم.. حتى لا يلحقك خوف.. وتستيقظ وأنت فى السماء آمن مقرب(٣).

وليعذرنى القارىء الكريم .. إذا كنت قد أطلت عليه شيئا ما فى تلك الجولة الخاطفة بين آراء المفسرين ورجال العلم .. حول معنى (إنى متوفيك ورافعك إلىّ) .. وما ذلك إلا لنعلم يقينا أن عيسى - عليه السلام - لم يمت .. وإنما رفع نائما .. ولنلمس الفرق بينه وبين نبينا - عليه الصلاة والسلام - الذى رفع يقظا ليلة الإسراء والمعراج .. ورأى من آيات ربه الكبرى.. رأى ما رأى.. حتى بلغ من بساط ربه.. قاب قوسين أو أدنى - فعنده من القوى الروحية ما يؤهله لتحمل ما رأى فى ملكوت الله.. أما عيسى - عليه السلام - فليست لديه تلك القدرة.. فكان رفعه نائما.. إلى الكوكب المجهول الذى أشرنا إليه سابقا.. والذى لا يعلم كنهه إلا علام الغيوب.. وسيظل فيه إلى أن يعود إلى كوكب الأرض فى آخر الزمان.. كما هو صريح النص فى القرآن الكريم .. والسنة النبوية الشريفة.. وسنفرد لهذا الموضوع فصلا لاحقا خاصا.. إن شاء الله تعالى.

ونعود إلى حادث الصلب والرفع.. ومن هو الذى عذب وصلب.. بعد أن ألقى الله عليه شبه عيسى؟.

وردت رواية فى أغلب كتب التفسير(٣).. وبنص واحد هى:

روى أن رهطا من اليهود سبوه وسبوا أمه .. فدعا عليهم قائلا:

«اللهم أنت ربى .. وبكلمتك خلقتنى. اللهم العن من سبنى وسب والدتى» فمسخ الله من سبهما قردة وخنازير.. فأجمع اليهود على قتله.. فأخبره الله بأن يرفعه إلى السماء.. ويطهره من صحبة اليهود.. فقال لأصحابه:

أيكم يرضى أن يلقى عليه شبهى. فيقتل ويصلب ويدخل الجنة؟ .. فقال رجل منهم: أنا .. فألقى الله عليه شبهه فقتل وصلب - اهـ.

ولعل لتلك الرواية نصيب كبير من الصحة فى مسخ بعضهم قردة وخنازير.. ولكن بسبب كفرهم بعد أن أكلوا من مائدة السماء.. لقول الله تعالى:

(قال الله إنى منزلها عليكم فمن يكفر بعد منكم فإنى أعذبه عذابا لا أعذبه أحدا من العالمين) (٤).. فهل يوجد عذاب أشد من مسخ الإنسان قردا أو خنزيرا؟ .. لقد كفروا بعد نزول المائدة..وأكلهم منها.. فاستحقوا هذا العذاب الأليم الذى لا يعذبه الله تعالى أحدا من العالمين.

ولكن الذى ألقى عليه شبه عيسى.. مختلف عليه بين الروايات.. فبجانب الروايات السابقة روايات تقول: إنه كان بين الحواريين الاثنى عشر رجلا منافقا.. ينافق عيسى ـ عليه السلام ـ فلما أرادوا قتل عيسى .. قال لهم: أنا أدلكم عليه .. فدخل بيت عيسى.. فرفع عيسى .. وألقى الله شبهه على المنافق.. فدخلوا عليه وحاكموه وقتلوه .. وهم يظنون أنه عيسى.. وأغلب المفسرين على هذا الرأى.. وقالوا : إن هذا المنافق هو يهوذا الأسخريوطى.

(١) ١٢٩ / طه.

(٢) تفسير النسفى - ٥٥ / آل عمران.

(٣) فى الكشاف والنسفى والبيضاوى وابن كثير وغيرهم - / ١٥٧ النساء.

(٤) ١١٥ / المائدة

وإليك أيضا رواية عن ابن عباس.. تحدثنا عن الشخص الذى شبه لهم.. فتقول:

لما أراد الله تعالى أن يرفع عيسى إلى السماء .. خرج على أصحابه .. وفى البيت اثنا عشر رجلا من الحواريين .. خرج من عين فى البيت ورأسه يقطر ماء..

فقال لهم: أما أن منكم من سيكفر بى اثنتى عشرة مرة بعد أن آمن بى ثم قال: أيكم يلقى عليه شبهى فيقتل مكانى.. ويكون معى فى درجتى ؟ فقام شاب من أحدثهم فقال : أنا فقال عيسى: اجلس .. ثم أعاد عليهم .. فقام الشاب فقال: أنا. فقال عيسى : أجلس.. ثم أعاد عليهم.. فقام الشاب فقال: أنا. فقال عيسى: نعم.. أنت ذاك .. فألقى الله عليه شبه عيسى ـ عليه السلام ـ .

قال: ورفع الله تعالى ـ عيسى - من روزنة(١) ـ كانت فى البيت ـ إلى السماء.

قال: وجاء الطلب من اليهود .. فأخذوا الشبيه فقتلوه وصلبوه.

ويقول ابن كثير فى نهاية هذا الحديث : وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس(٢).

وأنا لا أريد أن أرهق القارىء جريا وراء المراجع.. فى مسألة الصلب ـ فهى كثيرة جدا .. ولكنى أريد فقط ـ فى هذا المقام ـ أن أعرض فقرة بسيطة .. وردت فى الأناجيل ـ عن لحظة الصلب ـ وسأكتفى بذكرها نقلا من إنجيل متى.. فى الإصحاح السابع والعشرين .. لأننا فى حاجة إلى مناقشتها .. حيث قال:

٢٧- فأخذ عسكر الوالى ـ يسوع ـ إلى دار الولاية .. وجمعوا عليه الكتيبة.

٢٨- فعروه .. وألبسوه رداء قرمزيا.

٢٩- وضفروا إكليلا من الشوك.. ووضعوه على رأسه .. وقصبة فى يمينه .. وكانوا يجثون أمامه.. ويستهزئون به قائلين:

السلام عليك يا ملك اليهود

٣٠- وبصقوا عليه .. وأخذوا القصبة.. وضربوه على رأسه .

٣١- وبعدما استهزأوا به .. نزعوا عنه الرداء .. وألبسوه ثيابه .. ومضوا به للصلب.

إلى أن قال بعد ذكر فنون التعذيب التى عذبوه بها:

٤٦- ونحو الساعة التاسعة . صرخ يسوع.. بصوت عظيم .. قائلا:

إيلى إيلى لما شبقتنى ؟. يعنى إلهى إلهى .. لماذا تركتنى؟ .

وتلك هى العبارة التى نريد أن نناقشها فى هدوء.

وقد قرأت ـ فيما قرأت ـ أن هذه العبارة .. فى الأناجيل اليونانية:

«إيلى إيلى لما سبختنى» .. فإذا وضعنا شينا ـ موضع السين . ووضعنا ـ كافا ـ موضع الخاء ـ كما تقتضيه طريقة تعريب اللغة العبرية..كان اللفظ هكذا «إلهى إلهى لم شبكتنى» أى أوقعتنى فى شبكة؟ (٣).

فمحال على المسيح ـ عليه السلام ـ أن يقول ذلك لربه.. فى لحظة بذل الروح فى سبيل الله .. ونحن لا نكذب النص الذى أورده متى وغيره من أصحاب الأناجيل .. ولكننا نتخذ هذا القول قرينة على أن المصلوب.. الذى قال هذه العبارة .. غير المسيح ـ عليه السلام ـ وإنما هو شخص آخر.

□ □ □

---

(١) روزنة: كوة السقف.

(٢) ابن كثير.

(٣) قصص الأنبياء للنجار. ص ٤٤٦ الطبعة الثالثة.

١٥ العودة إلى الأرض

ورد فى الآثار أن عيسى - عليه السلام - سوف ينزل إلى الأرض.. فى آخر الزمان.. كما رفع قبل حادث الصلب.

وقد ناقشنا هذا الموضوع - موضوع رفعه.. من الناحية المادية فى جسمه.. وأثبتنا عقليا أنه الآن موجود - وجودا مؤقتا - فى مكان مجهول يتلاءم مع طبيعة كيانه الجسمانى.. حتى يعود إلى الأرض فيموت عليها.

والأناجيل الأربعة المعترف بها لدى جميع المسيحيين - تقول: إن عيسى قتل مصلوبا.. ثم قام من الموت فى اليوم الثالث وصعد إلى السماء.. كما تتفق معنا على طبيعة عيسى المجهولة التى تمتزج بطبيعته البشرية.. إلا أن عقيدتهم هذه تطوحت بهم إلى جعله إلها.

ولعل عبارة وردت فى إنجيل - متى - فى الإصحاح السادس والعشرين.. عندما كان رئيس الكهنة يناقش عيسى فى المحاكمة.. وقال له:

أستحلفك بالله الحى أن تقول لنا: هل أنت المسيح ابن الله؟..

وقال له يسوع: أنت قلت.. وأيضا أقول لكم: من الآن تبصرون ابن الإنسان جالسا على يمين القوة.. وآتيا على سحاب السماء(١) - أ هـ

وقد وردت هذه العبارة بنفس الصيغة تقريبا فى باقى الأناجيل.

أقول: لعل هذه العبارة تشير من قريب.. أو من بعيد إلى نبوءة العودة - آتيا على سحاب السماء.

كما وردت عشرات الأحاديث الصحيحة الصريحة.. التى تؤكد هذا الأمر.. ولكن قبل أن نورد تلك الأحاديث.. علينا أن نرجع إلى القرآن الكريم.. فهو مرجعنا الأول.. قبل السنة الشريفة:

فتطالعنا صوادق الآيات.. وصوادع البينات.. بما يؤكد أن عيسى - عليه السلام - لم يمت. اقرأ قوله تعالى:

(وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم) إلى أن قال: (وما قتلوه يقينا. بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزا حكيما)(٢).

---

(١) ص ٢٦ - آية ٦٤/٦٥ - متى.

(٢) ١٥٧ - ١٥٨ / النساء

فلا بد أن يعود إلى الأرض.. حتى يموت فيها.. لأن الله تعالى قال:

(كل نفس ذائقة الموت)(١).

فهذه واحدة.

كما أن القرآن الكريم قد أكد على أن جميع أهل الكتاب سيؤمنون بعيسى قبل موته.. وقد جاء هذا التأكيد مزدوجا - باللام والنون الثقيلة - فى قوله تعالى: (وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته)(٢) بعد أن قال تعالى: (بل رفعه الله إليه) مباشرة.. فالضمير فى (ليؤمنن به) يعود إلى عيسى - عليه السلام - وطبيعيا لن يكون إيمان اليهود به - وهم من أهل الكتاب.. إلا بعد نزوله إلى الأرض فى آخر الزمان.. ليظهر للعالم حقيقة الرسالة المحمدية.. ويعترف بتبعيته لإمام النبيين وخاتم المرسلين.

وهذه واحدة.

وكان القرآن الكريم صريحا جدا.. فى قوله عن عيسى:

(ويكلم الناس فى المهد وكهلا ومن الصالحين)(٣).

وفى قوله: (إذ أيدتك بروح القدس تكلم الناس فى المهد وكهلا)(٤).

وواضح أنه كلم الناس فى المهد.. ولكنه لم يكلمهم وهو كهل.

حيث اتفق الجميع على أنه رفع وهو فى مرحلة الشباب.. قبل سن الكهولة .. فكان لزاما أن ينزل إلى الأرض ليكلم الناس وهو كهل.

قال أبو العباس : كلمهم فى المهد ـ حين برأ أمه فقال: (إنى عبد الله) إلى آخر الآيات .. وأما كلامه وهو كهل.. فإذا أنزله الله تعالى من السماء .. أنزله على صورة ابن ثلاث وثلاثين سنة .. وهو الكهل.. فيقول لهم:

(١) ١٨٥ / آل عمران.

(٣) ٤٦ / آل عمران.

(٥) القرطبى ٤٦ / آل عمران.

(٧) النسفى وغيره - ٦١ / الزخرف.

(إنى عبد الله) كما قال فى المهد(٥) .

وهذ واحدة .

ويتلألأ أمام بصيرتنا دليل آخر .. فى قوله تعالى فى سورة الزخرف :

(وإنه لعلم للساعة فلا تمترن بها) (٦).

وسياق الآية قبلها .. يدل على أن المتحدث عنه هو عيسى .. بمعنى أن نزوله فى آخر الزمان سيكون من علامات الساعة .. ولهذا قرأها ابن عباس ـ رضى الله عنه ـ وإنه لعلم للساعة) (٧) بفتح العين واللام وهو العلامة .. أى أن نزوله علامة للساعة (فلا تمترن بها) فلا ريبة فى هذا ولا شك.

وهذ واحدة .

فإذا خرجنا من القرآن الكريم..

بعد أن تزودنا بهذا الزاد .. جاز لنا أن نعود إلى أحضان حديث رسولنا ـ صلى الله عليه وسلم ـ ففيه البيان الكافى.. والتفصيل الشافى:

فقد ثبت فى صحيح مسلم.. وابن ماجة .. عن أبى هريرة.. قال .. قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم:

لينزلن ابن مريم حكما عادلا. فليكسرن الصليب.. وليقتلن الخنزير.. وليضعن الجزية.. ولتتركن القلاص(٨) فلا يسعى عليها .. ولتذهبن الشحناء والتباغض والتحاسد .. وليدعون إلى المال فلا يقبله أحد».

وعن أبى هريرة أيضا .. قال .. قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلمَ:

«كيف أنتم إذا نزل ابن مريم فيكم.. وإمامكم منكم»؟ .. وفى رواية.

«فأمكم منكم»؟ قال ابن أبى ذئيب: هل تدرى ما أمكم منكم ؟..

قلت تجربنى ؟ قال : فأمكم بكتاب ربكم وسنة نبيكم ـ صلى الله عليه وسلمَ .

(٢) ١٩٥ / النساء.

(٤) ١١٠ / المائدة.

(٦) ٦١ / الزخرف.

(٨) القرطبى - ٦١ / الزخرف.
والقلاص: هى النوق الصغيرة.

كمـا ذكر الإمام النسفى. أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال:

«ينزل عيسى .. خليفة على أمتى .. يدق الصليب.. ويقتل الخنزير .. ويلبث أربعين سنة .. ويتزوج .. ويولد له .. ثم يتوفى.. وكيف تهلك أمة أنا فى أولها وعيسى فى آخرها»؟(١)

وقال الحسن ـ رضى الله عنه .. قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لليهود: «إن عيسى لم يمت وإنه راجع إليكم قبل يوم القيامة»(٢).

وقد قرأت عشرات الأحاديث الواردة حول هذا الموضوع .. ولكننى اخترت حديثا سأعرضه الآن .. فقد قرأته فى كثير من أمهات كتب التفسير .. ومنها تفسير الحافظ بن كثير .. وتفسير القرطبى ..

فيقول القرطبى حول الآية (ويكلم الناس فى المهد وكهلا ومن الصالحين)(٣).

فى صحيح مسلم عن أنس بن مالك .. قال .. قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم : «ليس من بلد لا يطؤه الدجال إلا مكة والمدينة» . وجاء فى حديث عبدالله بن عمرو «إلا الكعبة وبيت المقدس».. ذكره أبو جعفر الطبرى.

وزاد أبو جعفر الطحاوى «ومسجد الطور» .. رواه من حديث جنادة بن أبى أمية .. عن بعض أصحاب النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن النبى .

وفى حديث أبى بكر بن أبى شيبة عن سمرة بن جندب .. عن النبى .. صلى الله عليه وسلم:

«وأنه ـ أى الدجال ـ سيظهر على الأرض كلها .. إلا الحرم وبيت المقدس .. وأنه يحصر المؤمنين فى بيت المقدس».

وفى صحيح مسلم:«فبينا هو كذلك.. إذ بعث الله المسيح بن مريم .. فينزل على المنارة البيضاء . شرقى دمشق .. بين مهروتين (٤) .. واضعا كفيه على أجنحة ملكين .. إذا طأطأ رأسه قطر.. وإذا رفعه انحدر منه جمان(٥) كاللؤلؤ.. فلا يحل لكافر يجد نفسه إلا مات.. ونفسه ينتهى حيث ينتهى طرفه.. فيطلبه ـ أى يطلب الدجال ـ حتى يدركه بباب لد(٦) فيقتله».

فما هى حقيقة المسيخ الدجال هذا ؟

قال ابن الأعرابى: المسيح : الصديق.. والمسيخ : الأعور.. وبه سمى الدجال.

والمسيح : ضد المسيخ.. يقال : مسحه الله: أى خلقه حسنا مباركا.. ومسخه : أى خلقه خلقا ملعونا قبيحا.

وقد نظر بعض أولى العلم.. إلى أن مسألة المسيخ الدجال ما هى إلا رمزية للخرافات والدجل والقبائح التى تكثر فى آخر الزمان.

وقد ورد هذا الرأى فى تفسير المنار.. فذكر أن الأستاذ الإمام ـ محمد عبده ـ سئل عن المسيخ الدجال وقتل عيسى له .. فقال: إن الدجال رمز للخرافات والدجل والقبائح.

وقد كنا نأخذ بهذا الرأى.. ولكن القرائن والأحداث أثبتت أنه حقيقة لابد واقعة.

فعند اليهود وعد من بعض أنبيائهم. بقيام دولة لهم فى فلسطين . وعندها يأتيهم المسيح .. أى الملك. يسمونه أحيانا: مسيا.. وأحيانا أخرى يسمونه إيلياء.. الذى يسوس أمرهم.. ويصلح شأنهم.

وما كذبوا عيسى عندما قال لهم أنا المسيح إلا بحجة أنه ابن زنى. ـ كما يدعون ـ فليس ببعيد الآن ـ وقد قامت لهم دولة فى فلسطين .. أن يظهر فيهم من يدعى أنه المسيح المنتظر .. الذى وعدوا به على لسان بعض أنبيائهم.. ويقيمونه ملكا عليهم.. وحينئذ تكون فتنة الدجال.. **حيث يبعث الله عيسى فيقتله .. كما ذكرت الأحاديث .. ويوحد الدين.. ويجمع الكل على كلمة سواء.. وتكون كلمة الله هى العليا.. وكلمة الذين كفروا السفلى.**

□ □ □

(١) النسفى ـ ٥٥ / آل عمران.
(٢) ابن كثير ٥٥٠ / آل عمران.
(٣) ٤٦ / آل عمران.
(٢) أى: شقتين أو حلتين.
(٥) جمان: حبات من الفضة.
(٦) لد: مدينة اللد بفلسطين.

[١٦] مناقشة هادئة

مع المسيحية واليهودية

اختلف المسيحيون بعد صلب عيسى ـ عليه السلام ـ ورفعه.. كما يعتقدون .. إلى فرق مختلفة .. وكان اختلافهم خطيرا .. فيما يتعلق بالعقيدة .

فمنهم من غلا فيه فجعله ابن الله .. وهؤلاء هم النسطورية..

ومنهم من قال إنه هو الله .. تجسد فى بطن مريم .. ونزل إلى الأرض فى جسم آدمى .. وهم فريق اليعقوبية.

ومنهم من قال هو ثالث ثلاثة. الله إله .. وهو إله .. وأمه إله .. وهؤلاء هم فريق الملكية.

ومنهم فريق رابع .. آمن بما بعثه الله به .. على أنه عبد الله ورسوله وابن أمته.. وهؤلاء هم المسلمون منهم .. وعلى رأسهم برنابا.. صاحب الإنجيل المعروف باسمه .. وهو قديس من قديسيهم.. ورسول من رسلهم.. وركن من الأركان التى قامت عليها الديانة المسيحية الأولى.

ويقول الأستاذ الشيخ أبو زهرة فى كتابه «محاضرات فى النصرانية» عن برنابا «إن إنجيله يدل على أنه كان من الحواريين الذين اختصهم المسيح بالزلفى إليه .. والتقرب منه .. وملازمته فى سرائه وضرائه.. ولكن كتب المسيحيين .. غير هذا الإنجيل .. لا تعده من هؤلاء الحواريين .. وإن كانت تعده من الرسل .. الذين يبلغون مكانة الحواريين فى هذا الدين بعد المسيح.

ومهما يكن من شىء فى هذا الأمر .. وهو كونه من الحواريين أو ليس منهم .. فإن برنابا حجة عند المسيحيين .. وهو من الملهمين فى اعتقادهم .. فكل ما يرد فى إنجيله حجة عليهم .. طالما كان أقرب إلى التصور والتصديق .. وهوأصح سندا .. وأقرب بالمسيحية الأولى رحما.

والمسيحيون يحرمون قراءة إنجيل برنابا لصدقه وصراحته فى الإيمان بعبودية عيسى ورسالته .. وأنه بشر كغيره من الناس .

يقول الدكتور سعادة ... وهو الذى ترجم إنجيل برنابا إلى اللغة العربية : يذكر التاريخ أمرا أصدره البابا - جلاسيوس الأول - الذى جلس على الأريكة البابوية سنة ٤٩٢ ميلادية .. يعدد فيه أسماء الكتب المنهى عن مطالعتها .. وفى عدادها كتاب يسمى «إنجيل برنابا»

ويذهب بعض العلماء المدققين إلى أن أمر البابا- جلاسيوس - المنوه عنه برمته تزوير.

ويستطرد الدكتور سعادة فيقول:

ولكن التاريخ أصح وأصدق من قول هؤلاء

العلماء .. وإن كانوا محققين . . فأقوال العلماء والمؤرخين تترى فى تحريم قراءة أناجيل كثيرة .. فإذا فعل ذلك البابا جلاسيوس فقد سار على سنة أسلافه - اهـ -

وقد ثبت تاريخيا أنه كانت توجد أناجيل كثيرة فى العصور الأولى للمسيحية.. تأخذ بها فرق مختلفة.. ولا تعتقد كل فرقة إلا فى إنجيلها.

يقول الأستاذ أبو زهرة.

«**أجمع مؤرخو المسيحية** على كثرة الأناجيل كثرة عظيمة.. ثم أرادت الكنيسة فى أوائل القرن الثالث.. أو أواخر القرن الثانى الميلادى.. أن تحافظ على الأناجيل الرائجة فى ذلك الحين.. فصارت هذه الأناجيل هى المعتبرة عندهم.. دون سواها. الأناجيل هى المعتبرة عندهم.. دون سواها.

غير أن إنجيلا جديدا كشف عنه البحث العلمى.. وقد حمل من الأمارات ما يدل على أنه يمتد بنشأته إلى أبعد أعماق التاريخ المسيحى.. وهو يشبه باقى الأناجيل القائمة.. فى أنه يحكى قصة المسيح من ولادته.. إلى أتهامه.. ويحكى محاوراته ومناقشاته وخطبه.. ولكن الكنيسة لم تعترف به وانكرته.. فهو ليس معتبرا عند المسيحيين مصدرا دينيا.. ولكنه متداول بين علماء الأمم الأوربية.. وقد اتجهوا إليه بالبحث والعناية والاهتمام.. ولم يمنعهم من ذلك انكسار الكنيسة له.. وذلك الإنجيل هو إنجيل برنابا» - أهـ -

ولعلنا بهذا العرض الموجز حول برنابا وإنجيله.. وما كان هذا العرض إلا استطرادا للحديث عن فريق المسلمين من الفرق المسيحية.. أقول لعلنا بهذا العرض لا نفتأت عليهم.. ولا نقحم أنفسنا فيما ليس لنا من إملاء عقيدة على المسيحيين فى دينهم.. ولكننا نشير إشارة خفيفة إلى مافى إنجيل برنابا من أخبار دقيقة.. وأنباء صادقة عن التوراة.

يقول عنه الدكتور سعادة:

«إنك إذا أعملت النظر فى هذا الإنجيل.. وجدت لكتابته إلماما عجيبا بأسفار العهد القديم - وهى التوراة- لا تكاد تجد له مثيلا بين طوائف النصارى.. إلا فى أفراد قليلين من الإخصائيين الذين جعلوا حياتهم وقفا على الدين.. كالمفسرين.. أنه ليندر أن يكون بين هؤلاء أيضا من له إلمام بالتوراة بقرب من إلمام كاتب إنجيل برنابا».

وإنجيل برنابا فيه ميزات واضحة عن باقى الأناجيل.. فهو واسع الأفق.. دقيق العبارة.. سلس الأسلوب.. قوى التصوير.. منسجم المعانى.. يقول بعضهم: لو لم يكن كتاب دين.. لكان أقوى كتاب فى الأدب والحكمة.

وفى هذا الإنجيل تبشير صريح باسم النبى محمد - صلى الله عليه وسلم - وإن كانت هذه الصراحة تسببت فى نقاش طويل بين العلماء.. لأن المعهود فى البشارات أن تكون رمزية ولا تكون صريحة.. ولكن البعض يوعز هذا التصريح باسم - محمد - راجع إلى الترجمة.. فالمترجم الذى عرب هذا الإنجيل قد فهم النص الإيطالى بهذا الفهم.. فكانت ترجمته صريحة .. كما يفعل المسيحيون فى كثير مما ترجموا من كتب أصلها عبرى.

وبرنابا صريح فى رأيه فى عبودية عيسى ورسالته - كما ذكرنا - ففى مقدمة إنجيله قال:

«أيها الأعزاء .. إن الله العظيم العجيب .. قد افتقدنا فى هذه الأيام بنبيه يسوع المسيح .. برحمة عظيمة للتعليم .. والآيات التى اتخذها الشيطان ذريعة لتضليل كثيرين بدعوى التقوى .. مبشرين بتعليم شديد الكفر .. داعين المسيح ابن الله .. ورافضين الختان الذى أمر الله به دائما .. مجوزين كل لحم نجس .. الذين ضل فى عدادهم أيضا بولس - الذى لا أتكلم عنه إلا مع الأسى وهو السبب الذى لأجله أسطر ذلك الحق الذى رأيته».

ويقول فى الفصل الثالث والتسعين .. فى محاكمة عيسى عليه السلام: «أجاب الكاهن.. أن اليهودية قد اضطربت لآياتك وتعليمك .. حتى أنهم يجاهرون بأنك أنت الله .. فاضطررت بسبب الشعب إلى أن آتى إلى هنا مع الوالى الرومانى .. والملك هيرودس .. فنرجوك من كل قلبنا . أن ترضى بإزالة الفتنة التى ثارت بسببك .. لأن فريقا يقول إنك الله .. وآخر يقول: إنك ابن الله .. ويقول فريق : إنك نبى.

أجاب يسوع : وأنت يا رئيس الكهنة .. لماذا لم تخمد الفتنة .. وهل جننت أنت أيضا؟ .. وهل أمست النبوات وشريعة الله نسيا منسيا؟. أيتها اليهودية الشقية التى ضللها الشيطان ».

ولما قال يسوع هذا .. عاد فقال:

«إنى أشهد أمام السماء .. وأشهد كل ساكن على الأرض .. أنى برىء من كل ما قال الناس عنى .. من أنى أعظم من بشر .. لأنى بشر مولود من امرأة .. وعرضة لحكم الله .. أعيش كسائر البشر .. عرضة للشقاء العام ».

ويقول فى الفصل السبعين:

«أجاب يسوع: وما قولكم أنتم فىّ؟ .. أجاب بطرس . إنك المسيح ابن الله .. فغضب حينئذ يسوع .. وانتهره بغضب قائلا : اذهب عنى .. لأنك أنت الشيطان .. وتريد أن تسيء إلىّ ».

وقد وردت هذه العبارة الأخيرة فى الأناجيل الأربعة الرسمية .. المعترف بها من الكنيسة .. ولكن بشيء من التغيير والتحوير .. فقالوا : إن عيسى سأل التلاميذ عن نفسه .. فقال بطرس له: «أنت المسيح فى إنجيل مرقس».. «وأنت المسيح ابن الله الحى فى إنجيل متى» .. وذكروا أن المسيح انتهرهم كى لا يقولوا لأحد عنه.. وبعدها مباشرة قالوا: إن المسيح انتهر بطرس قائلا: اذهب عنى يا شيطان .. لأنك لا تهتم بما لله .. ولكن بما للناس » (١).

وقد استخلص الدكتور سعادة من إنجيل برنابا .. نقاطا هامة .. أهمها:

أن مسيا .. أو المسيح المنتظر .. ليس هو يسوع .. بل محمد .. وقد ذكر برنابا محمدا باللفظ الصريح المتكرر فى فصول .. ضافية الذيول .. وقال إنه رسول الله.. وإن آدم لما طرد من الجنة .. رأى سطورا كتبت فوق بابها بأحرف من نور« لا إله إلا الله محمد رسول الله».

وقال المسيح ـ كما جاء فى إنجيل برنابا:

«إن الآيات التى يفعلها الله على يدى .. تظهر أنى متكلم بما يريد الله .. ولست أحسب نفسى نظير الذى يقولون عنه .. لأنى لست أهلا لأن أحل رباطات أو سيور حذاء رسول الله.. الذى تسمونه مسيا .. الذى خلق قبلى وسيأتى بعدى بكلام الحق.. ولا يكون لدينه نهاية».

لقد كان الأولى بالمسيحية .. ألا تقف موقف العداء من إنجيل برنابا.. بعد العثور على أول نسخة منه فى عام ١٧٠٩ .. وثبت تاريخيا أنه أقدم الأناجيل .. بل كان المفروض أن يوازنوا بين ما جاء فيه وما جاء فى غيره من كتبهم.. ويؤخذ بما هو أقرب إلى التصوير والتصديق .. وما هو أصح سندا.. وأقرب بالمسيحية الأولى رحما.

ولم يختلف إنجيل برنابا عن الأناجيل الأربعة الرسمية إلا فى أمور:

١ - أن المسيح عبدالله ورسوله.

٢ - وأن الذبيح الذى تقدم به إبراهيم الخليل ـ عليه السلام ـ للفداء هو إسماعيل وليس إسحاق.

٣- وأن المسيح لم يصلب .. ولكن شبه لهم .. ألقى الله شبهه على يهوذا الأسخريوطى.

وقال الأستاذ أبو زهرة:

«إن أجل خدمة تسدى إلى الأديان والإنسانية.. أن تعنى الكنيسة بدراسته ونقضه ..وتأتى لنا بالبينات الدالة على هذا النقض.. وتوازن بين ما جاء فيه .. وما جاء فى رسائل بولس.. ليعرف القارىء والباحث أيهما أهدى سبيلا ..وأقرب إلى الحق.. وأوثق به اتصالا» ـ أهـ.

وقد ذكرنا فى الفصلين الحادى عشر والثانى عشر من هذا البحث - حول نبأ عيسى - عددا كبيرا من الأدلة الواضحة.. من نصوص الأناجيل الأربعة المعترف بها..

ومن نصوص التوراة.. مما يؤكد تبشير عيسى وموسى بمحمد - عليهم السلام - منها ما جاء على لسان عيسى فى الإصحاح السادس عشر من إنجيل يوحنا:

٥- وأما الآن فأنا ماض إلى الذى أرسلنى .. وليس أحد منكم يسألنى أين أمضى.

٦- ولكن لأنى قلت لكم هذا .. قد ملأ الحزن قلوبكم.

٧- لكن أقول لكم الحق . إنه خير لكم أن أنطلق .. لأنه إن لم أنطلق لا يأتيكم البارقليط .. ولكن إذا ذهبت أرسل لكم.

٨ - ومتى جاء ذلك .. يبكت العالم على خطيئة .. وعلى بر .. وعلى دينونة.

---

(١) إنجيل مرقس - الإصحاح الثامن - ٢٩/ ٣٣ .

وقد ثبت من الترجمة الصحيحة لكلمة «بارقليط» أو «باركليت» بالعربية هي ـ كثير الحمد ـ يعني أفعل تفضيل في لغة العرب من ـ حمد ـ فتكون - أحمد - . وهنا نفهم قول عيسى - عليه السلام - لقومه.. في كتابنا الكريم في سورة - الصف - (ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد).

أليست عبارة القرآن الكريم هذه على لسان عيسى.. هي نفسها عبارة إنجيل يوحنا على لسان عيسى أيضا؟؟؟(١).

لقد ثبت تاريخيا أن المسيحيين ظلوا على خلافهم العقائدي ثلاثة قرون.. ثم نبع لهم مسلك من الملوك اليونانيين.. يقال له قسطنطين.

يقول الحافظ بن كثير عنه: إنه دخل في المسيحية حيلة ليفسد دينهم.. فإنه كان فيلسوفا.. وقيل جهلا منه.. إلا أنه بدل لهم دين المسيح.. وحرفه.. وزاد فيه ونقص منه.. وأحل لهم لحم الخنزير.. وصلوا له إلى الشرق.. وصور لهم الكنائس وزاد في صيامهم عشرة أيام من أجل ذنب ارتكبه - فيما يزعمون - وصار دين المسيح هو دين قسطنطين إلا أنه بنى لهم من الكنائس والمعابد والصوامع والأديرة.. ما يزيد على اثنى عشر ألف معبد.. وبنى المدينة المنسوبة إليه - القسطنطينية - واتبعته الطائفة الملكية منهم.. وهم في هذا كله قاهرون لليهود(٢).

كما تعرض الأستاذ: سيد قطب في كتابه «في ظلال القرآن» لموضوع قسطنطين هذا.. فقال:

ولقد جمع الإمبراطور الروماني قسطنطين مجمع الأساقفة.. وهو أحد المجامع الثلاثة المشهورة.. بلغ عدد أعضائه ألفين ومائة وسبعين أسقفا.. فاختلفوا في عيسى اختلافا شديدا.. وقالت كل فرقة فيه قولا.. قال بعضهم: هو الله.. هبط إلى الأرض.. فأحيا ما أحيا.. وأمات من أمات.. ثم صعد إلى السماء.

وقال بعضهم: هو ابن الله

وقال بعضهم: هو أحد الأقانيم الثلاثة: الأب.. والابن.. والروح القدس.

وقال بعضهم: هو عبد الله ورسوله.. وروحه وكلمته.

وقالت فرق أخرى أقوالا كثيرة.. ولم يجتمع على مقالة واحدة أكثر من ثلثمائة وثمانية.. اتفقوا.. على قول.. فمال إليه الإمبراطور.. ونصر أصحابه.. وطرد الآخرين.. وشرد المعارضين.. وبخاصة الموحدين(٣).

(فاختلف الأحزاب من بينهم فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم)(٤).

ولتوضيح قولهم: الأقانيم الثلاثة.. نقول: يقولون جوهر واحد.. من ثلاثة أقانيم.. أي ثلاثة أصول.

فالأقنوم هو الأصل.. ويعتقد صاحب - مختار الصحاح - أنها كلمة رومية.. فقالوا: أقنوم الأب.. وأقنوم الابن.. وأقنوم روح القدس.

يقصدون بأقنوم الأب: الذات.. وبأقنوم الابن: العلم.. وبأقنوم روح القدس: الحياة.

فيكون تقديره عندهم: الله ثلاثة.. وإلا فتقديره الآلهة ثلاثة (٥) ويمكن تركيز دعوة عيسى - عليه السلام - كما هو واضح في تعاليمه كلها.. في الأناجيل المعتمدة لدى الكنيسة.. في ثلاثة أصول:

(١) التسليم بأن الله وحده هو السلطة العليا.. فاقرأ مثلا في إنجيل لوقا.. في الإصحاح الثامن عشر.. بالنص:

١٨ - وسأله الرئيس قائلا: أيها المعلم الصالح.. ماذا أعمل لأرث الحياة الأبدية؟.

١٩- فقال له يسوع.. لماذا تدعوني صالحا.. ليس أحد صالحا إلا واحد وهو الله.

٢٠ - أنت تعرف الوصايا: لا تزن.. لا تقتل.. لا تسرق.. لا تشهد الزور.. أكرم أباك وأمك(٦).

(٢) طاعة أحكام النبي.. بوصفه نائبا ممثلا عن هذا السلطان.

(٣) قانون الله هو الذي يحدد القيود والتحليل والتحريم.. أما القوانين المفروضة فباطلة(٧).

ومن المعروف أن اليهود ينتظرون نبيا - من زمن مريم - عليها السلام - حسب تنبؤات أنبيائهم.. وإرهاصات كهانهم وأحبارهم..

---

(١) باقي الأدلة من الأناجيل والتوراة في الفصلين ١١و١٢

(٢) ابن كثير ٥٥/ آل عمران.

(٣) في ظلال القرآن - ٣٨/ مريم.

(٤) ٣٧/ مريم.

(٥) الكشاف ١٧١/ النساء.

(٦) لوقا ص ١٨ آيات ١٨ - ٢٠.

(٧) بتعديل من كتاب - تفهيم القرآن - لأبي الأعلى المودودي.

ويسمون هذا النبى - مسيا أحيانا .. أو إيلياء أحيانا أخرى.

وهذا واضح من مناقشة رسلهم إلى يوحنا المعمدان - يحيى بن زكريا - عليهما السلام - وقد وردت هذه المناقشة فى جميع الأناجيل:

ففى إنجيل يوحنا.. فى الإصحاح الأول:

١٩- وهذه شهادة يوحنا حين أرسل اليهود من أورشليم كهنة ولاويين ليسألوا يحيى: من أنت؟

٢٠- فاعترف ولم ينكر .. وأقر أنى لست المسيح.

٢١- فسألوه : إذاً ماذا .. إيلياء أنت؟ .. فقال: لست أنا. النبى أنت؟ فأجاب لا.

٢٢- فقالوا له من أنت حتى نعطى جواباً للذين أرسلونا.. ماذا تقول عن نفسك؟.

٢٣- قال: أنا صوت صارخ فى البرية (١).

كما ورد اسم إيلياء فى إنجيل متى .. على لسان المسيح نفسه فى الإصحاح الحادى عشر.. يقول المسيح :

١١- الحق أقول لكم .. لم يقم بين المولدين من النساء أعظم من يوحنا المعمدان.. ولكن الأصغر منه فى ملكوت السماوات أعظم منه.

إلى أن قال:

١٣- لأن جميع الأنبياء والناموس إلى يوحنا تنبأوا.

١٤- وإن أردتم أن تقبلوا .. فهذا هو المزمع أن يأتى.

١٥- من له أذنان فليسمع (٢).

فها نحن نرى أن اليهود يسألون يحيى.. الذى يذهبون إليه جميعهم ليعمدهم من ماء الأردن .. كما عمد هو المسيح أيضا .. يسألونه: هل هو المسيح؟ فيقول لا . هل هو إيلياء فيقول : لا .. هل هو النبى؟ .. فيقول :لا

كما نرى المسيح نفسه يقول لهم: هذا هو إيلياء المزمع أن يأتى .. لأن جميع الأنبياء والناموس إلى يوحنا تنبأوا به.

ومعنى هذا أن اليهود ينتظرون المسيح .. وينتظرون إيلياء أيضا بعد المسيح .. فلما أرسل الله إليهم المسيح ـ عيسى بن مريم ـ كذبوه لأنه متهم لديهم بأنه ابن زنا .. فكيف يقبلونه على أنه المسيح الذى يمهد لهم سبل الرب مستقيمة لمن يأتى بعده ؟

المسيحيون يعتقدون أن إيلياء هو عيسى .. وواضح جدا أن هذا وهم باطل لمخالفته لنصوص كتبهم .. التى يعبدون بها ربهم .. فكيف يكون عيسى ـ عليه السلام ـ هو النبى المنتظر .. مع أن يحيى يبشر بنبى يأتى بعده.. أقوى منه .. ويقول عنه : إنه ليس أهلا لأن ينحنى ويحل سيور حذائه .. وقد رأينا يحيى ـ عليه السلام ـ هو الذى عمد المسيح من ماء الأردن .. فكيف يعمده وفى نفس الوقت ليس أهلا لأن يحل سيور حذائه ؟.

لقد أثبتنا أن محمدا يتلألأ فى جميع أسفار التوراة .. علاوة على الأناجيل(٣) .. بما لا يدع مجالا للشك فى صدق قول الله تعالى :

«الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل» (٤).

---

(١) يوحنا ص ١.

(٢) متى ص ١١.

(٣) فى الفصلين ١١ و ١٢.

(٤) ١٥٧ / الأعراف.

١٧ واقترب الوعد الحق

لقد أثبتنا أن إيلياء هو نفسه محمد - عليه الصلاة والسلام(١).. واليهود ينتظرون إرسال إيلياء إليهم فى عصرنا هذا.. بعد أن قامت لهم دولة معتقدين أنه المسيح المبشر به عندهم.

ولعلنا نسمع قريبا أن أحد اليهود يظهر فى إسرائيل مدعيا أنه المسيح المنتظر.. وهنا تصدق نبوءة المسيخ الدجال..الذى سوف يهبط عيسى - عليه السلام - ويقتله عند اللد(٢).. ثم يوحد الجميع على كلمة الإسلام ..كما بشر بذلك رسولنا ـ عليه الصلاة والسلام ـ وكما ظهر من مفهوم كثير من آيات كتابنا الكريم (٣).. كما بشر بذلك رسولنا .. عليه الصلاة والسلام- عن نزول عيسى فى آخر الزمان.. ويكون علامة للساعة.. (وإنه لعلم للساعة) التى قرأها ابن عباس (وإنه لعلم للساعة) بفتح العين واللام.. يعنى علامة للساعة (فلا تمترن بها)..

وقد ظهرت أشراط الساعة وعلاماتها.. واضحة جلية لكل ذى بصيرة - كما أخبرنا عنها المعصوم - صلوات الله وسلامه عليه - فى الحديث الذى رواه عمر ابن الخطاب - رضى الله عنه-:

«بينما نحن جلوس عند رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إذ دخل علينا رجل شديد بياض الثياب.. شديد سواد الشعر.. ليس عليه أثر السفر.. ولا يعرفه منا أحد.. فجلس قبالة الرسول حتى حاذت ركبته ركبته.. ثم قال: يا محمد.. أخبرنى عن الإسلام» إلى آخر الحديث المعروف.

فبعد أن سأله بعد الإسلام عن الإيمان.. ثم عن الإحسان.. والسائل يقول صدقت بعد كل إجابة من الرسول.. حيث يقول عمر: فعجبنا كيف يسأله ثم يصدقه.. قال السائل لرسول الله - ﷺ -:أخبرنى عن الساعة فقال له - عليه الصلاة والسلام-: «ما المسئول عنها بأعلم من السائل» فقال: فما أشراطها؟.

قال: «أن تلد الأمة ربها.. أو قال - ربتها - وأن ترى الحفاة العراة رعاء الشاة يتطاولون فى البنيان.. وأن ترى النساء كاسيات عاريات.. مائلات مميلات.. على رءوسهن كأسنمة البخت».

لقد نفذت بصيرته - عليه الصلاة السلام - مخترقة حجب الغيب.. متغلغلة فى المستقبل من خلال أحقاب القرون.. فوصف لنا عصرنا بما فيه من وسائل الفتنة وعوامل الإغراء.

---

(١) اقرأ نهاية الفصل الثانى عشر من هذا الكتاب - نبأ عيسى -

(٢) الأحاديث عن المسيح الدجال فى الفصل ١٥ من - نبأ عيسى -

(٣) اقرأ الفصل ١٣ من نبأ عيسى.

فهل رأيت تلك العلامات .. ومن أبرزها الحفاة العراة رعاء الشاة .. وهم يتطاولون ويتسابقون فى إقامة العمائر .. وتشييد ناطحات السحاب؟

وهل رأيت المرأة وهى كاسية عارية .. يشف لباسها عما تحته من مفاتن جسمها .. مائلة على كعب حذاءها العالى .. مميلة للذين فى قلوبهم مرض فزادتهم مرضا؟

وهل رأيت على رأسها .. تلك ـ الباروكة ـ أو ما صنع هذا ـ الكوافير ـ من شعر أشبه بسنام الجمل المنفوش الشعر؟

أليست كل هذه من أشراط **الساعة صريحة** فى حديث رسولنا ـ ﷺ ؟

ولنعد إلى أحضان القرآن الكريم .. لنرى فيه ظهور يأجوج ومأجوج كعلامة من علامات الساعة فى قوله تعالى:

(حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون * واقترب الوعد الحق) (١).

وقد أثبتنا ظهور يأجوج ومأجوج فى عصرنا هذا .. كحقيقة واقعة .. نلمسها فى هؤلاء الشيوعيين .. الذين ينسلون حولنا من كل حدب .. ويتسللون من كل جانب إلى جميع بقاع العالم .. ينشرون سمومهم .. ويبثون كفرهم وإلحادهم .. ويفسدون فى الأرض بعد إصلاحها.

أثبتنا ذلك دينيا من القرآن الكريم والتوراة والسنة .. وتاريخيا من التاريخ اليونانى من كتابات المؤرخ اليونانى الكبير ـ هيرودوتس ـ أبو التاريخ .. ومن موسوعة تاريخ العالم ـ لوليم لانجر ـ ومن تاريخ أرمينيا وجورجيا .. المجاورتين لمنطقة السد.. ووصلنا جغرافيا إلى موقع هذا السد الحديدى الذى أقامه ذو القرنين ليحول بينهم وبين النزول إلى منطقة الشرق الأوسط الذى كانوا يخربونه فى الربيع من كل عام .. وقد أشبعنا هذا الموضوع بحثا فى نبأ - ذى القرنين ـ فى هذا الكتاب ـ لمن شاء الاقتناع(٢).

وهنا تلزمنا وقفة .. نوجه فيها صرخة إلى المؤمنين من أهل الكتاب وأصحاب الرسالات .. الذين يؤمنون بالله تعالى ربا .. وبالأنبياء رسلا .. وبالبعث نشرا .. وبالقيامة حشرا.. وبالثواب سعادة .. وبالعقاب شقوة .. إلى هؤلاء جميعا نوجه صرخة عالية مدوية .. تملأ أسماع الدنيا.. لعلهم يفيقون من سباتهم.. ويصحون من غفوتهم :(ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق)(٣).

ألم يئن الأوان بعد .. لأن يستيقظ هؤلاء وهؤلاء .. على فحيح الأفاعى الشيوعية.. المنكرين لوجود إله .. المكذبين برسل الله .. المعتقدين أنه لا بعث ولا قيامة ولا ثواب ولا عقاب .. القائلين ما هى إلا بطون تدفع .. وأرض تبلع .. وأن الدين أفيون الشعوب؟.

أما كان الأجدر بالمؤمنين بالدين كله : مسلمين كانوا أو مسيحيين أو يهودا .. أن يفطنوا لهذا الخطر الداهم.. والخطب الجسيم .. من يوم أن سمعوا ـ جاجارين الشيوعى ـ أول راكب لسفينة فضاء .. وهو يقول : بحثت عن الله فى السماء فلم أجده !!!.

إنى لأكاد أسمع صوت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول عن يأجوج ومأجوج .. فى حديث أبى بكرة الذى رواه أبو داود: أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال (٤):

«ينزل ناس من أمتى بغائط (٥) يسمونه البصرة .. عند نهر يقال له دجلة .. يكون عليه جسر .. يكثر أهلها .. وتكون من أمصار المهاجرين» . قال ابن يحيى .. قال أبو معمر «وتكون من أمصار المسلمين .. فإذا كان آخر الزمان .. جاء بنو قنطوراء (٦) .. عراض الوجوه .. صغار الأعين حتى ينزلوا على شاطىء النهر .. فيتفرق أهلها .. ثلاث فرق:

فرقة يأخذون أذناب البقر والبرية .. وهلكوا.

وفرقة يأخذون لأنفسهم .. وكفروا.

وفرقة يجعلون ذراريهم خلف ظهورهم ويقاتلون وهم الشهداء»

فقسم ـ عليه الصلاة والسلام ـ الناس حيالهم إلى ثلاثة أقسام:

قسم يهرب بماله وعياله .. وهؤلاء هالكون .

وقسم ينافقهم ويمالئهم .. ويأخذ لنفسه منهم .. وهؤلاء كافرون .

---

(١)٩٦ / الأنبياء.

(٢) اقرأ الفصلين السادس والتاسع من ـ نبأ ذى القرنين ـ فى هذا الكتاب.

(٣) ١٦ / الحديد .

(٤) القرطبى ـ ٩٤ / الكهف

(٥) الغائط: المكان المطمئن من الأرض.

(٦) هكذا سماهم رسول الله ـ يقصد يأجوج ومأجوج.

وقسم يتحصن ويستعد لقتالهم وجهادهم. وهؤلاء هم الشهداء والأولياء والمؤمنون.

وقد لفت نظرى حديث آخر.. جاء مرفوعا من حديث أبى هريرة .. خرجه ابن ماجة فى السنن .. قال فى نهايته بعد أن تحدث ـ عليه الصلاة والسلام ـ عن يأجوج ومأجوج خلف السد .. قال:

«ويخرجون على الناس .. فينشفون الماء .. ويتحصن الناس منهم فى حصونهم .. فيرمون بسهمهم إلى السماء .. فيرجع عليها الدم .. فيقولون : قهرنا أهل الأرض وعلونا أهل السماء .. فيبعث الله عليهم نغفا (١) فى أقفائهم .. فيقتلهم بها».. ثم قال:

«والذى نفسى بيده .. إن دواب الأرض لتسمن وتشكر شكرا من لحومهم» (٢) وأشكر الضرع: أى امتلأ لبنا.

أقول لفت نظرى هذا الحديث .. لأمر حدث فى عصرنا هذا .. فقد قال لى صديق: إنه رأى أول سفينة فضاء ـ سفينة جاجارين ـ بعد أن عادت من الجو حمراء كالدم تماما .. وقد عرضت أمام فندق ـ هيلتون ـ بميدان التحرير بالقاهرة .. ولم يكن لى نصيب فى رؤيتها حين عرضها فى الستينات .. عادت من الجو حمراء مثل الدم بسبب التفاعلات الجوية بعد أن كانت فضية اللون ..

فهل لهذا علاقة بسهام بنى قنطوراء؟. أطلقوها بسهم إلى السماء .. وعادت مخضبة بلون الدم . وعاد جاجارين إلى الأرض يقول: بحثت عن الله فى السماء فلم أجده .. أليست هذه العبارة التى قالها جاجارين تساوى تماما العبارة التى وردت فى الحديث الشريف على لسان بنى قنطوراء بقولهم: ـ قهرنا أهل الأرض وعلونا أهل السماء؟؟؟

فمن أى الأقسام الثلاثة نحن؟ تلك الأقسام التى أشار إليها الحديث الشريف .. هل نحن من الهاربين الهالكين .. أم من المنافقين الكافرين .. أم من المجاهدين المؤمنين؟؟؟

لقد انشغل أصحاب الدين بعضهم ضد بعض .. يهودا كانوا أم نصارى أم مسلمين .. مع أن الدين واحد .. وأصحاب الديانات أولى بالتضامن والتعاضد ضد من لا دين له.

(قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله .. فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنَّا مسلمون) (٣).

أما آن لهؤلاء وهؤلاء أن يستجيبوا لنداء السماء .. **لتتحد كلمتهم وتترابط عزيمتهم .. وتقوى شكيمتهم .. ضد هذاالطاغوت الزاحف من الشرق قبل فوات الأوان؟.**

□ □ □

---

(١) النغف بالتحريك . دود يكون فى أنوف الإبل والغنم ـ أى جراثيم وبائية.

(٢) القرطبى ٩٤ / الكهف.

(٣) ٦٤ / آل عمران.

«أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا»

«الآية ٩ سورة الكهف»

○ من نبأ
أهل الكهف

١ العمل الصالح ينجى فى الشدائد

قال النعمان بن بشير الأنصارى:

سمعت رسول الله - ﷺ - يقول:

«إن ثلاثة نفر خرجوا يرتادون لأهليهم .. فبينما هم يمشون .. إذا أصابتهم السماء .. فأووا إلى الكهف .. فانحطت صخرة من الجبل عليهم .. فانطبقت على باب الكهف .. فأوصدته عليهم.. فقال قائل منهم: كل منكم يذكر أحسن عمل عمله .. فلعل الله يرحمنا .. فقال رجل منهم: قد عملت مرة حسنة ..

كان لى أجراء يعملون عملا لى .. فاستأجرت كل رجل منهم بأجرة معلومة .. فجاء رجل منهم ذات يوم وسط النهار فاستأجرته بشطر أصحابه .. فعمل فى بقية نهاره كعمل رجل منهم نهاره كله .. فرأيت على من الإكرام .. أن لا أنقصه شيئا مما استأجرت به أصحابه .. لما اجتهد فى عمله فقال رجل منهم: أتعطى هذا مثل ما أعطيتنى .. ولم يعمل إلا نصف النهار .. فقلت له ياعبد الله: أنا لم أبخسك شيئا من شرطك .. إنما هو مالى .. أحكم فيه بما شئت .. قال فغضب وذهب وترك أجرته .. فوضعت حقه فى جانب من البيت ما شاء الله .. ثم مر بى بعد ذلك بقر .. فاشتريت به فنميته .. فبلغت ماشاء الله..

فمر بى بعد ذلك شيخ ضعيف لا أعرفه .. فقال لى : إن لى عندك حقا.. فقلت له: اذكره لى حتى أعرفه .. قال: فذكره.. فقلت له: إياك أبغى.. وهذا حقك.. وعرضتها عليه .. فقال: ياعبد الله .. لا تسخر بى.. إن لم تتصدق علىّ فأعطنى حقى.. فقلت له : ما أسخر.. إن هذا لحقك .. ومالى فيه شىء .. فدفعتها إليه .. اللهم إن كنت فعلت هذا لوجهك الكريم .. فافرج عنا ..فانصدع الجبل حتى أبصروا الضوء..

وقال الثانى : قد عملت حسنة مرة:

كان لى فضل مال .. وأصاب الناس شدة فجاءتنى امرأة تطلب منى معروفا .. فقلت: والله ما هو دون نفسك .. فأبت على وذهبت .. ثم أنها رجعت .. فذكرتنى بالله.. فأبيت عليها.. وقلت لها: والله ما هو دون نفسك .. فأبت على وذهبت .. ثم أنها رجعت إلىّ تنشدنى بالله ..فأبيت عليها .. وقلت لها: والله ما هو دون نفسك ..فلما رأت ذلك أسلمت إلىّ نفسها .. فلما كشفتها ارتعدت ..فقلت لها: ماشأنك؟ فقالت: إنى أخاف الله رب العالمين .. فقلت لها خفتيه فى الشدة .. ولم أخفه فى الرخاء ..فتركتها .. وأعطيتها ما تحب ..

لوجـهك الكريم .. فافـرج عنا .. فانـصدع الجبل حـتى تعارفوا ..

وقال الآخر: قد عملت حسنة مرة ..

كان لى أبوان كـبيران .. وكان لى غنم فـكنت أطعم أبوىّ وأسقـيهما .. ثم أرجـع إلى غنمى..قال فـأصابنى يوما غيث فحبسنى حـتى أمسيت .. فأتيت إلى أهلى .. وأخذت مـحلبى .. فحلبـت غنمى وتـركتهـا قائـمة .. ومضيـت إلى أبوى فوجدتهـما قد ناما.. فـشق علىّ أن أوقظهـما .. وشق عـلىّ أن أترك غنـمى .. فمـا برحت جالسا .. ومـحلبى فى يدى .. حتى أيقظهـما الصبح .. فسقيتهما .. وعدت إلى غنمى ..

اللهم إن كنت فعلت ذلك لوجـهك الكريم فافرج عنا ما نحن فيه..

وقال الـنعمـان: لكأنـى أسمع مـن رسول الله ـ ﷺ ـ قال «كأن الجبل طبق .. ففرج الله عنهم فخرجوا».

ولاشك أن هذا حـديث جلـيل .. جمع مـن مكارم الأخـلاق أمهـاتها .. فـيه الأمـانة .. وحـفظ الحقـوق .. وصيانتها..وردها إلى ذويها .. وفيه كبح جماح النفس.. وحبسها عن شهواتها .. خشية من الله.. ورهبة من غضبه وسخطه .. وفيه إكرام الوالدين .. ورعايتهما.. والحدب عليـهما .. إلا أن بعض رجـال التفسـير .. كالبيـضاوى وأبى إسحـاق الثعلـبى .. أوردا هذا الحديث .. عـلى أنه المقصود بأصحاب الكهـف.. الوارد قصصهم فى القرآن الكـريم . حيـث قال الثـعلـبى عن الـنعـمان بن بـشيـر الأنـصـارى قـال: «إن ثـلاثـة نفـر خـرجـوا يرتـادون لأهليهم..» إلى آخر الحديث الذى ذكرناه..

ولست أدرى أيـة علاقة بـين هؤلاء الثـلاثة .. الوارد ذكرهم فى هذا الحديث .. وبين الفـتية الذين آمنوا بربهم وزادهم الله هدى .. وهربوا بدينهم .. وأووا إلى الكهف .. وضرب الله ـ سبحانه على آذانهم فى الكهف سنين .. بلغـت ثلاثمائة وتـسعا .. ثـم بعثـوا بعد تلك الـقرون . **حسب سـياق القصـة الواردة فى سورة .. سمـيت باسم الكهف .. والتى بدأها الله سبحـانه بقوله «أم حسبت أن أصحـاب الكهف والـرقيم كـانوا من آياتـنا عجـبا» ٩/ الكهف.. وحقا إنها لآية عجب..**

□ □ □

[٢] مساجلة مع اليهود

روى أنه لما ولى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ الخلافة .. أتاه قوم من أحبار يهود.. وسألوه عن مفاتيح السماوات .. ماهى؟

وعن قبر سار بصاحبه ؟

وعمن أنذر قومه .. لاهو من الجن .. ولا من الإنس؟

وعن خمسة .. مشوا فى الأرض .. ولم يخلقوا فى الأرحام؟

فقال لهم عمر: ـ رضى الله عنه ـ

لا عيب بعمر إذا سئل عما لا يعلم .. أن يقول لا أعلم. وكان فى المجلس .. سلمان الفارسى ـ رضى الله عنه ـ فوثب من مجلسه .. وأخبر بذلك عليا ـ رضى الله عنه وكرم الله وجهه ـ فأقبل على .. يرفل فى بردة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فلما رآه عمر .. وثب قائما . فاعتنقه .. **وقال يا أبا الحسن** .. أنت لكل معضلة وشدة تدعى .. فدعا على اليهود .. فقال لهم سلوا ماشئتم .. سؤالا .. سؤالا .. فقالوا:

أخبرنا .. عن مفاتيح السماوات؟

قال: قوله لا إله إلا الله .. فإن قول لا إله إلا الله .. لو جمعت السماوات السبع .. والأرض السبع .. لخرقتها حتى تبلغ إلى ربها .. قالوا : صدقت ..

فأخبرنا عن قبر سار بصاحبه ؟

قال: الحوت .. الذى التقم يونس بن متى ـ عليه السلام ـ فسار به فى البحر . قالوا: صدقت فأخبرنا عمن أنذر قومه .. ليس من الجن .. وليس من الإنس؟..

قال: هى نملة سليمان بن داود ـ عليهما السلام ـ قالت : «يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون» قالوا: صدقت ..

فأخبرنا عن خمسة مشوا فى الأرض .. ولم يخلقوا فى الأرحام؟ قال : ذلكم . آدم ، وحواء، وناقة صالح، وكبش إبراهيم، وعصا موسى.

وكان الأحبار .. ثلاثة .. **قال اثنان منهم: نشهد أن لا إله إلا الله .. وأن محمدا رسول الله .. فهذا ما هو موجود عندنا فى التوراة..**

فوثب الحبر الثالث من مجلسه .. وقال: يا على . لقد وقع فى قلبى صاحباى .. ما وقع من الإيمان والتصديق .. وبقى لى سؤال .. فأخبرنى عن قوم ماتوا قرونا .. ثم أحياهم الله .. فما كان من قصتهم ؟..

قال علي ـ رضى الله عنه-: هـم أصحاب الكهف .. وقد أنزل الله علـى نبينا .. قرآنـا .. فيه قصـصهم .. وإن شئت قرأتها عليك ..

قال: كثيـرا ما سمعنا قراءتكم .. ولكـن أخبرني عن أسمائـهم .. وأسم مدينتـهم .. وملكهم .. وقصـتهم .. فـقصهـا علـيهـم .. وهو نفـس السـؤال .. الذى سـأل المشركون رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عنه بإيعاز من الـيهـود .. فـأنزل الله على رسـوله « أم حـسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا» إلى آخر الآيات ٩-٢٦/ الكهف..

فـإذا كنا نعـلم أن الكهـف .. هو النقـب المتسـع فى الجبل .. وما لم يتسع .. فهو غار .. فما معنى الرقيم ؟

اختلف المفسـرون فـى معناه .. حتى قال ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ كل شيء فى القرآن أعلمه .. إلا أربـعـة (١): غـسلـين .. وحـنـان .. والأواه .. والرقيم..

وقال ابن زيد: الـرقيم كتاب .. غم الله علـينا أمره .. ولـم يشرح لنا قصته ..

وإن كان بعضهم قال: هو اسم القرية .. التى خرجوا منـها .. أو الـوادى الذى مـشوا فـيـه إلى الكـهف .. أو صخرة كانت على الكهف كما قيل: هو جبل فى الأردن فيـه كهفـهم ولكن المعنى .. الذى يلائم لغـة العرب .. وهى لغة القرآن الكريم .. أنه كـتاب .. كما قال ابن زيد ـ كتب فيه تاريخ هؤلاء الفتية.. وأسماؤهم .. وأنسابهم .. ودينـهم .. وممن هربـوا .. ولفظ الـرقيـم مأخـوذ من الرقم .. أى الكتابة .. ومنه «كتاب مرقوم» .. ومنه أيضا سمى الأرقم لتخطيطه ..

ولا مانع أن يكون هذا الكتاب لوحا من الرصاص .. **نقش فيـه تاريخهم .. ووضع فى تابوت مـن النحاس .. علـى باب الكـهف .. كـما قـال ذلك كـثيـر من رجـال التفسير ..**

□ □ □

---

(١) القرطبى ٩ / الكهف .

٣ الفرار بالدين

تدور أحداث هذه القصة.. كما أجمع المفسرون.. فى مدينة من مدن الروم.. اسمها أفسوس.. وسماها العرب طرسوس.. وهى فى جنب تركيا الآن.. ويقول علماء الآثار إن أحداث هذة القصة كانت فى عمان- عاصمة الأردن وكان اسمها- فلادلفيا وهذا هو الأصح لاكتشاف آثارهم حديثا فى تلك البلاد. ولم يشذ من المفسرين.. غير ابن عطية.. الذى يقول: يوجد بالأندلس فى جهة،غرناطة.. بقرب قرية.. تسمى لوشة.. كهف فيه موتى.. ومعهم كلب رمة.. وأكثرهم قد تجرد لحمه.. وبعضهم متماسك.. مضت عليهم القرون السالفة.. ويزعم ناس.. أنهم أصحاب الكهف.. دخلت عليهم.. ورأيتهم.. سنة أربع وخمسمائة .. وهم بهذه الحالة .. وعليهم مسجد .. وقريب منهم بناء رومى. . يسمى الرقيم.. كأنه قص مخلق.. قد بقى بعض جدرانه.. وهو فى فلاة من الأرض خربة.. وبأعلى غرناطة.. مما يلى القبلة.. آثار مدينة رومية قديمة. يقال لها مدينة دفيوس.. وجدنا فى آثارها غرائب من قبور ونحوها- أ هـ ـ (١).

والمهم عندنا.. أن تلك المدينة سواء كانت فى جنوب تركيا.. أو فى الأندلس أو فى الأردن. ظالم كافر.. اسمه دقيانوس.. وكان ذلك فى حكم الرومان فى زمن الإمبراطور الرومانى- ترجان- فى سنة ١١٢ ميلادية.. وكان هذا الملك كافرا جبارا.. يعبد الأصنام.. ويقدم لها القرابين.. ففتن قومه.. وسلط أهل الكفر.. على أهل الإيمان.. يجمعون له.. فيقدمهم إلى المذابح التى يذبح فيها للطواغيت. يخيرهم بين القتل. وبين عبادة الأوثان.. وتقديم القرابين للأصنام.. فمنهم من تغلبه شهوة البقاء فى الحياة الدنيا.. ويرهب القتل.. فيفتن عن دينه.. ومنهم.

---

(١) القرطبى ٩ / الكهف .

من يأبى أن يعبد غير الله .. فيقتل .. وجعل أهل الإيمان يسلمون أنفسهم للقتل والعذاب .. فيقتلون ويقطعون .. ثم تربط أجزاء مما قطع من أجسادهم.. وتعلق على سور المدينة .. من جميع نواحيها .. **وعلى كل باب من أبوابها .. حتى عظمت الفتنة على المؤمنين فمنهم من كفر فترك .. ومنهم من صلب على دينه بقى.**

اتخذ هذا الملك الجبار ستة وزراء له .. فتية من أبناء أشراف القوم .. وقيل كانوا من أهل بيت الملك .. فى أول مرحلة الشباب .. ثلاثة منهم مجالسهم عن يمين الملك .. وثلاثة عن يساره .. وأسماؤهم أعجمية .. والسند فى معرفتها واه..

اختلف المفسرون فى أسمائهم.. ولكن الغالب على أن الثلاثة الأول هم: يمليخا، ومكسلمينا، ومحسلمينا.. والثلاثة الآخرون هم: مرطونس، وكشطونس، ودينموس.. وورددت فى كتب التفسير بأسماء مختلفة كثيرة.. وإنما المتفق عليه أكبرهم سنا وهو مكسلمينا.. وأصغرهم وهو يمليخا. كانوا على دين الملك. وكان الملك يستشيرهم فى كل أمر.. ثم شرح الله صدورهم للإيمان.. وكان كل منهم يكتم إيمانه فى سويداء قلبه.. خشية الفتنة.. وخوفا من الكافر الجبار.. سماهم الله سبحانه - فتية.. كما سمى من قبلهم أبو الفتيان إبراهيم - عليه السلام - لأنهم شباب أحداث.. وحكم الله لهم بالفتوة.. حين آمنوا بلا واسطة.. وقيل: الفتوة بذل الندى.. وكف الأذى.. وترك الشكوى.. واجتناب المحارم.. واستعمال المكارم.. كما قيل: إن الفتى من لا يدعى قبل الفعل.. ولا يزكى نفسه بعد الفعل..

وكان الستة يأكلون كل يوم عند واحد منهم .. وكان يوم يمليخا.. فأكلوا وشربوا.. ولم يأكل يمليخا ولم يشرب معهم فسألوه: مالك؟

فقال: وقع فى قلبى شىء منعنى من الطعام والشراب والمنام.. وهنا خفقت قلوبهم.. واختلجت أوصالهم.. وقالوا: ماهو هذا الأمر يايمليخا؟ قال: لقد أطلت فكرى فى هذه السماء.. من يرفعها سقفا محفوظا.. بلا علاقة من فوقها.. ولا دعم من تحتها؟..

ومن أجرى فيها شمسها وقمرها؟.. ومن زينها بالنجوم؟.. ثم أطلت فكرى فى الأرض.. من سطحها على ظهر اليم الزاخر؟.. ومن حبسها وربطها بالجبال الرواسى لئلا تميد؟..

ثم أطلت فكرى فى نفسى.. فقلت: من أخرجنى جنينا من بطن أمى؟.. ومن غذانى وربانى؟.. إن لهذا صانعا ومدبرا سوى دقيانوس وآلهته.. وأخذوا يعانقونه ويقبلونه.. وقال كل واحد منهم: وقع فى قلبى.. ما وقع فى قلبك.. وتعارف الفتية الستة على الإيمان..

وانتشر خبر إيمانهم.. لما امتنعوا عن تقديم الذبائح للطواغيت.. وبلغ الملك أمرهم.. فاستدعاهم.. ودعاهم إلى عبادة أصنامه وتقديم الذبائح إليها..

ويهب مكسلمينا أكبرهم.. فى وجه الظالم.. قائلا: إن لنا إلها نعبده.. ملأ السماوات والأرض.. بعظمته وجلاله.. لن ندعو من دونه إلها أبدا.. فاصنع بنا مابدا لك .. اقرأ قول الله - تبارك وتعالى - عن هذا المشهد «نحن نقص عليك نبأهم بالحق.. إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى. وربطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا ربنا رب السموات والأرض لن ندعو من دونه إلها لقد قلنا إذاً شططا. هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة لولا يأتون عليهم بسلطان بين فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا» ١٣ - / ١٥ الكهف..

ربط الله سبحانه - على قلوبهم.. وثبت اليقين فى صدورهم.. وأزال الخوف من نفوسهم.. فقاموا بين يدى الظالم.. وجابهوه بالحقيقة.. دون رهبة أو وجل..

فنزع عنهم الكافر لباس العظماء.. وهددهم.. وتوعدهم.. ولكنه أجل قتلهم.. لحداثة سنهم.. علهم يرجعون.. ولأوثانه يعبدون.. وازداد الملك فى ظلمه وطغيانه.. وبغيه وكفرانه.. يقتل فى كل يوم عددا من المؤمنين.. ويقطع أجزاء من أجسادهم.. فحزن الفتية لذلك.. وتملكهم الأسى والألم.. واعتزلوا قومهم.. حتى تغيرت الوانهم.. ونحلت أجسامهم.. **واستعانوا بالصلاة والصيام.. والتسبيح والتحميد.. والتهليل**

والتكبير.. والبكاء والتضرع إلى الله عسى أن يوجد لهم من هذا الضيق مخرجا.. فقالوا: «ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيىء لنا من أمرنا رشدا» ١٠ / الكهف..

وروى أن دقيانوس الظالم.. ذهب إلى نينوى.. فاتفقوا على الهروب.. قبل أن يعود (١) فأخذ كل منهم من بيته نقودا.. تصدقوا ببعضها.. واحتفظوا بالباقى مع يمليخا -- وكان أرجحهم عقلا.. وخرجوا من المدينة.. هاربين بدينهم.. فارين بإيمانهم.. ترعاهم رحمة الرحمن.. ويهديهم نور الإيمان ولعلهم عندما تصدقوا ببعض مالهم.. قبل فرارهم إلى الله كانوا يحسون أن مناجاة الله.. تحتاج إلى صدقة بين يديها.. «وقدموا بين يدى نجواكم صدقة» تطهرهم وتزكيهم.. ليكونوا أهلا لمناجاة مولاهم.. ولهذا يقول الله تبارك وتعالى - لرسوله «خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها»..

وحملهم المال عند فرارهم.. دليل على أن حمل النفقة.. وما يلزم المسافر هو رأى المتوكلين على الله دون المتكلين على الظروف والاتفاقات.. **وروى عن بعض العلماء..** أنه كان شديد الحنين إلى بيت الله .. فقالوا: له ما يمنعك عن السفر إليه؟ .. قال: ما لهذا السفر.. إلا شيئان: شد الهميان.. والتوكل على الرحمن.

والهميان بكسر الهاء: الدراهم.. وهى كلمة معربة(٢).

وروى أنهم خرجوا.. يلعبون بالصولجان والكرة.. يدحرجونها فى طريقهم.. اقرأ: «وإذا اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله .. فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته ويهيىء لكم من أمركم مرفقا».

١٦ / الكهف / وهذه الآية صريحة.. فى الفرار بالدين والهجرة.. وها نحن نرى النبى - صلى الله عليه وسلم والصحابة.. يهاجرون.. رجاء السلامة بالدين.. والنجاة من فتنة المشركين.. وقد فضلها جماعة علماء المسلمين.. وخاصة عند ظهور الفتن وانتشار الفساد.. لقد اعتزلوا قومهم.. والعزلة: اعتزال الشر وأهله بقلبك وعملك .. إن كنت بين أظهرهم.

وجاء فى الخبر «إذا كانت الفتنة.. فأخف مكانك.. وكف لسانك..» وقال عقبة بن عامر.. لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - ما النجاة يا رسول الله؟.. فقال: «ياعقبة.. أمسك عليك لسانك.. وليسعك بيتك.. وأبك على خطيئتك»..

هذا عند اشتداد الفتن، إذا عزت الهجرة.. أما فى الأيام العادية.. فمخالطة الناس أوجب.. مع تحمل أذاهم.. فقد قال - صلى الله عليه وسلم - «المؤمن الذى يخالط الناس ويصبر على أذاهم أفضل من المؤمن الذى لا يخالطهم.. ولا يصبر على أذاهم»(٣).. وقال ابن المبارك: العزلة: أن تكون مع القوم فإذا خاضوا فى ذكر الله .. فخض معهم .. وإن خاضوا فى غير ذلك .. فاسكت .. وجاء رجل إلى وهب بن منبه .. فقال : إن الناس قد وقعوا فيما فيه وقعوا .. وقد حدثت نفسى .. ألا أخالطهم .. فقال : لا تفعل .. إنه لابد لك من الناس .. ولابد لهم منك .. ولك إليهم حوائج ولهم إليك حوائج .. ولكن .. كن فيهم .. أصم سميعا .. أعمى بصيرا .. سكوتا نطوقا..

ولعلك يا قارئى العزيز .. قد قرأت فى كتب التفسير .. سببا آخر لإيمانهم وهروبهم .. فقد ورد فى كثير منها .. أن أحد الحواريين أراد دخول مدينتهم .. فأجر نفسه من صاحب الحمام .. وتبرك به صاحب الحمام.. وعرف الحوارى الفتية فدعاهم إلى الإيمان .. فآمنوا به واتبعوه.. واشتهر أمرهم.. وأتى ابن الملك بامرأة .. أراد أن يخلو بها فى الحمام. فنهاه الحوارى عن ذلك .. ولكن ابن الملك .. أصر على تنفيذ ما يريد .. .واختلى بصاحبته .. فماتا فى الحمام.

واتهم الحوارى وأصحابه بقتلهما.. ففروا جميعا .. ولكننا نميل إلى الرأى الأول.

فهم فتية آمنوا بدون واسطة .. كما آمن من قبلهم أبو الفتيان . إبراهيم ـ عليه السلام .. كما أن سياق القرآن الكريم .. يبين أنهم جابهوا الظالم بإيمانهم .. وطعنوا فى آلهته وأوثانه .. **وربط الله على قلوبهم عندما قاموا أمامه وقالوا: « ربنا رب السماوات والأرض .. لن ندعوا من دونه إلها » كما بينا ذلك سابقا..**

---

(١) من جامع البيان فى تفسير القرآن للطبرى

(٣) القرطبى ١٠ / الكهف.

(٢) من تفسير النسفى ١٩ / الكهف..

٤ الضرب على آذانهم رحمة

لجأ الفتية إلى الله .. وقالوا: « ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيىء لنا من أمرنا رشدا».

وهل يلجأ المؤمن فى الشدائد إلا إلى مولاه يسأله الرحمة؟ .. وكان صلى الله عليه وسلم - إذا حزبه أمر لجأ إلى الصلاة..

فاستجاب الله - تعالى - لهم .. وألهمهم أن يهاجروا .. وأن يأووا إلى الكهف .. بعد أن اعتزلوا قومهم .. وما يعبدون من دون الله زمنا ..

وفى الطريق لقيهم راع مؤمن .. يرعى غنمه فى الوادى .. عرف بغيتهم .. وأراد صحبتهم .. وكان مؤمنا يكتم إيمانه .. فسار معهم .. وصاروا سبعة .. وتبعهم كلب.. يغلب أنه كلب الراعى .. وفى كل كتب التفسير .. تقريبا .. قصة غريبة عن هذا الكلب .. قرأتها فى أمهات كتب التفسير .. كالقرطبى .. والنسفى .. والبيضاوى .. والطبرى . وغيرهم - وليس على قدرة الله شيء يستغرب - فقالوا - رواية عن كعب - إن الكلب تبعهم .. فطردوه .. فعاد.. فطردوه مرارا .. فقام الكلب على رجليه .. ورفع يديه كهيئة الداعى .. فنطق.

فقال : لا تخافوا منى .. أنا أحب أحباب الله .. فدعونى أحرسكم .. فازدادوا إيمانا بالله .. وقال كعب: وهذا معنى «وزدناهم هدى».

قال ابن عطية حدثنى أبى رضى الله عنه - قال: سمعت أبا الفضل الجوهرى.. فى جامع مصر.. يقول على منبر وعظه.. سنة تسع وستين وأربعمائة:

إن من أحب أهل الخير.. نال من بركتهم.. كلب أحب أهل فضل وصحبهم.. فذكره الله فى محكم تنزيله.. حيث قال: «وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد».

وروى فى الصحيح عن أنس بن مالك.. قال: بينا أنا ورسول الله - صلى الله عليه وسلم - خارجان من المسجد.. فلقينا رجل.. عند سدرة المسجد.. فقال: يا رسول الله.. متى الساعة؟ **فقال - صلى الله عليه وسلم - له «ما أعددت لها»؟.. قال أنس:** فكأن الرجل استكان.. **ثم قال: يا رسول الله.. ما أعددت لها كثير صلاة ولاصيام ولاصدقة.. ولكنى أحب الله ورسوله..**

قال: «فأنت مع من أحببت».. قال أنس: فأنا أحب الله ورسوله وأبا بكر وعمر.. فأرجو أن أكون معهم.. وإن لم أعمل عملهم.

ويقول القرطبي: وكذلك تعلقت أطماعنا بذلك.. وإن كنا مقصرين.. ورجونا رحمة الله.. وإن كنا غير مستأهلين.. كلب أحب قوما.. فذكره الله معهم.. فكيف بنا.. وعندنا عقد الإيمان.. وكلمة الإسلام.. وحب النبي عليه الصلاة والسلام؟..

ولجأ السبعة إلى الكهف.. في جبل يقول المؤرخون: اسمه جبل بنجلوس .. ومعهم الكلب.. وقد يقول قائل: إن القرآن الكريم.. لم يصرح بحقيقة عددهم حيث يقول: «سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم، ويقولون خمسة سادسهم كلبهم، رجما بالغيب، ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم قل ربي أعلم بعدتهم ما يعلمهم إلا قليل» ٢٢/ الكهف..

ويقول ابن عباس: أنا من ذلك القليل الذي استثناه الله كانوا سبعة وثامنهم كلبهم(١)

وقد استدل ابن عباس على ذلك.. من نص الآية: **«قال قائل منهم كم لبثتم» وهذا واحد.. وقالوا في الإجابة عليه» «قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم» وهو جمع.. وأقل الجمع ثلاثة فصاروا أربعة.. ثم قال: «قالوا ربكم أعلم بما لبثتم» وهؤلاء جمع آخرون.. فصاروا سبعة..**

لقد أخبر الله رسوله بجدال سيحدث بين أهل التوراة.. أو بين النصارى.. حول عددهم.. فروى أن وفدا من نصارى نجران حضروا النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ وجرى ذكر أصحاب الكهف.. فقال اليعقوبية: كانوا ثلاثة رابعهم كلبهم.. وقال النسطورية: كانوا خمسة سادسهم كلبهم.. وقال المسلمون كانوا سبعة وثامنهم كلبهم.. ولم يذكر الله ــ سبحانه ــ عبارة «رجما بالغيب» بعد العدد الأخير.. وإنما ذكرها بعد العددين الأول والثاني وهذا دليل على أن العددين خطأ.. وأن العدد الأخير.. الذي لم يقدح الله فيه بشيء.. هو الصواب.

ومما يلفت النظر.. أن القرآن الكريم.. لم يذكر الواو في ثلاثة رابعهم.. ولا في خمسة سادسهم.. وذكرها في سبعة وثامنهم.. وقيل تعليلا لذلك: إن قريشا.. كانت تقول في عدها: ستة سبعة وثمانية.. فتدخل الواو في الثمانية فقط.. كما قيل: إن العرب ينتهي العدد عنهم إلى سبعة.. فإذا احتيج إلى الزيادة عليها.. استؤنف عدد آخر بإدخال الواو.. وهذا يتضح في قوله تعالى من سورة التوبة «التائبون .. العابدون.. الحامدون.. السائحون.. الراكعون.. الساجدون.. الآمرون بالمعروف» فانتهى ــ سبحانه ــ إلى سبع صفات.. بدون إدخال الواو.. ثم قال في الصفة الثامنة «والناهون عن المنكر» بإدخالها.. واقرأ كذلك من سورة التحريم «خيرا منكن.. مسلمات.. مؤمنات.. قانتات.. تائبات.. عابدات.. سائحات.. ثيبات» فكانت سبعا.. وزيدت الصفة الثامنة بالواو.. فقال «وأبكارا»..

ولما ذكر ـ سبحانه أبواب جهنم ــ وهي سبعة «لها سبعة أبواب» قال «حتى إذا جاؤها فتحت أبوابها» بدون ذكر الواو قبل فتحت .. ولكن لما ذكر الجنة قال: «وفتحت أبوابها» فأدخل الواو فالسبعة نهاية العدد عند العرب .. ولهذا يذكرها القرآن الكريم دائما للإشارة عن العدد الكبير.. «كمثل حبة أنبتت سبع سنابل»و «في سلسلة ذرعها سبعون ذراعا» و «الذي خلق سبع سماوات طباقا» و«إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم» وغيرها كثير.. وكما نقول نحن بلغتنا الدارجة: فلان مثل القطط له سبعة أرواح.. أي أرواح كثيرة لا تحصى.. ونقول على سبيل الاستحالة: والله لو عملت السبعة.. نقصد أكبر العدد.

---

(١) الطبري والنسفي والقرطبي وغيرهم ٢٢/ الكهف..

ولعلنا نفهم الآن.. أن تحديد أبواب جهنم بأنها سبعة.. دليل على أن الأبواب الموصلة إلى جهنم كثيرة .. لايحصرها عد.. ولايحدها حد.. نعوذ بالله منها.. ونستعين به فى البعد عنها واجتنابها..

وقال قوم: ذكر الله الواو فى «وثامنهم» لينبه على أن هذا العدد هو الحق.. فقد كانوا سبعة وكلبهم الثامن.. ألقى الله ــ تعالى ــ عليهم النوم.. وعلى الكلب معهم.. «فضربنا على آذانهم فى الكهف سنين عددا» ١١/ الكهف. وخص الله ــ سبحانه ــ الآذان.. لأن النوم.. **لايتم إلا من جهة الأذن.. ولايستحكم النوم.. إلا من تعطل السمع.. وقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «ذاك رجل بال الشيطان فى أذنه» بمعنى أنه طويل النوم لايقوم الليل..**

وعاد الملك الكافر ــ دقيانوس ــ من رحلته.. وبحث عنهم.. فلم يعثر عليهم.. فاقتفى أثرهم بأعوانه.. حتي انتهى به الأثر إلى الكهف.. وعرف أنهم فى داخله.. فأقام عليهم سدا ليموتوا فيه جوعا وعطشا..

هكذا أراد الله ـ سبحانه ـ تكريما لهم.. وحفظا لأجسامهم.. فلا يحول ولا يطوف بها شيء ولعل الرعب الذى ضربه الله ــ تعالى ـ حولهم.. هو الذى منع دقيانوس من الدخول عليهم .. أو الاقتراب منهم..

فأمر بسد الكهف عليهم .. وكان فى بيت دقيانوس .. رجلان مؤمنان .. يكتمان إيمانهما اتفقا على كتابة تاريخ هؤلاء الفتية .. فى لوح من الرصاص .. كتبا فيه شأنهم وأسماءهم .. وأنسابهم .. وتاريخ فرارهم بدينهم .. وأخفوا اللوح فى تابوت من نحاس .. وختموه بخاتمهما.. ووضعوه بين ظهرانى بناء السد.. وهذا هو الرقيم .. الذى أشرنا إليه من قبل ..

لقد لجأ الفتية إلى الكهف ينشدون الرحمة .. فبعد أن قالوا: «ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيىء لنا من أمرنا رشدا » ألهمهم الله ـ سبحانه وتعالى ـ اللجوء إلى الكهف .. بقوله: « فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته ويهيىء لكم من أمركم مرفقا» فماذا كانت تلك الرحمة؟ كانت الرحمة «فضربنا على آذانهم فى الكهف سنين عددا» .. يا سبحان الله ، الضرب على آذانهم فى الكهف رحمة ، نعم .. تلك هى الرحمة بهم .. ينامون حتى يأتى وعد إعلاء كلمة الله .. وحتى تخفق أعلام التوحيد تملأ الدنيا .. بالحب والحق .. والخير والسلام .. ليروا أن الباطل مهما علا وارتفع .. فلابد من أن يقذف الله عليه بالحق.. فيدمغه فإذا هو زاهق .. وتلك هى الرحمة التى ينشدونها .. وليكونوا لمن خلفهم آية عجبا..

□ □ □

٥ فى الكهف

عرض الله ـ تعالى ـ علينا مشهد الكهف.. فى صورة رائعة رهيبة.. ففى وقت الشروق.. تميل الشمس عن كهفهم.. وعند الغروب.. تتركهم فلا يصيبهم منها شىء.. وكأن للكهف حاجبا من جهة الجنوب.. وحاجبا من جهة الشمال.. وهم في زاوية منه.. لا تصيبهم الشمس.. لا فى الصباح.. ولا فى المساء.. « وترى الشمس إذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين وإذا غربت تقرضهم ذات الشمال» ١٧ / الكهف.. وقيل فى معنى تقرضهم : أنه يصيبهم منها اليسير.. عند الغروب.. لصلاح أجسامهم.. ولفظ « تقرضهم » من قراضة الذهب والفضة أى البرادة الدقيقة منهما .

لكأنى أراهم نائمين.. فى فجوة منه « وهم فى فجوة منه ».. والفجوة : المتسع.. ومنه قول الشاعر العربى .

ونحن ملأنا كل واد وفجوة

رجالا وخيلا غير ميل ولا عزل

أكاد أراهم .. فى ضجعتهم تلك .. عيونهم مفتوحة .. تبدو على ثغورهم بسمة رقيقة.. يخيل للرائى أنهم أيقاظ.. تكاد الكلمات تخرج من بين ثناياهم المتلألئة .. « وتحسبهم أيقاظا وهم رقود » راقدون فى مكان واسع منفسح من الكهف.. ينالهم فيه روح الهواء.. وبرد النسيم.. لتحتفظ الأجسام بلينها وطراوتها وحيويتها.. تتنزل عليهم ملائكة الرحمن.. لتقلب أجسامهم يمينا تارة.. ويسارا تارة أخرى.. حتى لا تأكل الأرض أجسامهم.. أو تتحجر تلك الأجسام.. إن لم يصبها البلى.. «ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال».

وهذا كلبهم.. قابع بالباب أمامهم.. وقد بسط ذراعيه.. رافعا رأسه.. ناظرا إلى لا شىء « وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد » .. والوصيد .. هو الباب .. ومنه قول الشاعر:

بأرض فضاء لا يسد وصيدها

علىّ ومعروفى بها غير منكر

منظر مهيب رهيب.. يبعث فى النفس الخوف والرعب.. « لو اطلعت عليهم لو ليت منهم فراراً ولملئت منهم رعبا » ١٨ / الكهف .

وروى عن معاوية .. أنه غزا الروم .. فمر بالكهف .. فقال : أريد أن أدخله .. وكان معه ابن عباس .. فقال له : لقد قيل لمن هو خير

منك: **«لو اطلعت عليهم لوليت منهم فرارا» .. ودخله جماعة بأمر معاوية .. فأحرقتهم ريح(١).**

يقول عمرو بن دينار : إن مما أخذ على العقرب .. ألا يضر أحدا قال فى ليله أو نهاره .. «سلام على نوح» .. ومما أخذ على الكلب ألا يضر من حمل عليه إذا قال «وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد».

وقد أجاز الشرع اقتناء الكلب .. للصيد والزرع والماشية .. ومن حقنا الآن .. أن نقول لهؤلاء الذين يزعمون أن الملائكة لا تدخل بيتا فيه كلب.. نقول لهم: إن الملائكة كانت تنزل على أصحاب الكهف تقلبهم وتقلب معهم كلبهم.

ومرت الأعوام والقرون .. عاما إثر عام .. وقرنا تلو قرن .. وقد حفهم الله ـ تعالى ـ بالرعب .. واكتنفهم بالهيبة .. خشية مرقدهم .. وجلال مكانهم .. لينفر الناس عنهم .. لا يجرؤ أحد على الدنو من هذا المكان .. ويقول بعض المفسرين : كان الفرار منهم .. لطول شعورهم وأظافرهم..

ويذكرنى هذا الرأى . بندوة تعليمية .. كانت بدار المعلمين بطنطا ـ على ما أذكر لنقد الكتاب المدرسى .. وكان ذلك فى أوائل الستينات .. وشاركت فى تلك الندوة بنقد كتاب التربية الدينية .. للصف السادس الابتدائى .. وكان فيه قصة أهل الكهف .. وذكر فيه مؤلفه ـ غفر الله له ـ أنهم قاموا من نومهم .. وقد طالت أظفارهم .. واسترسلت شعورهم . ولم يكتف المؤلف بهذا القول .. بل عرض قبالته صورة جميلة ملونة مصقولة .. ظهر فيها أصحاب الكهف .. حال قيامهم من النوم .. وقد استرسلت لحاهم إلى أسفل بطونهم أشبارا .. وامتدت أظفارهم . فصارت أمتارا..

وعرضت هذا الكلام ..وذلك المنظر . على السادة المشرفين على الندوة .. وقلت لهم لو أن تلميذا ذكيا . سألنى وأنا أدرس للتلاميذ هذه القصة .. وقال لى يا أستاذ .. إذا كان منظرهم هكذا .. عند قيامهم من النوم .. فلماذا قالوا لبثنا يوما أو بعض من يوم .. وهم يعلمون أنهم ناموا شبابا .. ويرون الآن أنفسهم فى تلك الأجسام الضاربة فى الشيخوخة؟ .. فبماذا أجيب هذا التلميذ؟

الحقيقة .. أن الزمن .. توقف بالنسبة لتلك الأجسام .. فلا تنفس .. ولا غذاء .. وبالتالى لا تطور .. ولا نماء.

ومدة نومهم تلك .. تعتبر نقصا من العمر .. غير محسوبة فيه.. والنقص من العمر لا يكون فى طرف من أطرافه وإنما يكون فى وسطه .. بمعنى: إذا كان أحدهم قد نام وعمره عشرون سنة .. يقوم من نومه بعد تلك القرون .. وعمره مازال عشرين سنة.. وله ما بقى من عمره المقدور .. تماما كما حصل لنبى الله ـ عزير ـ عليه السلام ـ حيث نام مائة عام.. والنوم موت «فأماته الله مائة عام ثم بعثه» وكانت سنه قبل موته خمسين عاما كما روى عن على ـ رضى الله عنه وكرم وجهه ـ أن عزيرا خرج من أهله .. وخلف امرأته حاملا .. وله خمسون سنة .. فأماته الله مائة عام . ثم بعثه .. فرجع إلى أهله .. وهو ابن خمسين .. وله ولد ابن مائة سنة .. فكان ابنه .. أكبر منه بخمسين سنة .. كما ذكرنا ذلك فى نبأ عزير.

«ولبثوا فى كهفهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعا» ٢٥ / الكهف.

وهنا سر من الأسرار الفلكية . فى القرآن الكريم .

وكم فيه من أسرار لا يعلمها إلا الله .. فقد ثبت فلكيا .. وبالحساب الدقيق.. أن الثلاثمائة سنة ميلادية .. تزيد تسع سنوات بالتاريخ الهجرى ..تماما .. لا تفرق دقيقة ولا ثانية ولا ثالثة ..فكأن الله حدد مدة نومهم ميلاديا

---

(١)النسفى والبيضاوى ١٨ / الكهف ..

وهجريا .. فسبحان مقدر السنين والحساب.

ويبدو من نص القرآن الكريم .. أن الناس قد انقسموا إلى حزبين .. فى تقدير مدة نومهم .. لقوله تعالى: «ثم بعثناهم لنعلم أى الحزبين أحصى لما لبثوا أمدا» والأمد.. هو الغاية .. لقول النابغة:

الا لمثلك أو من أنت سابقه

سبق الجواد إذا استولى على الأمد

ولهذا عندما حدد الله ـ سبحانه ـ مدة نومهم بثلاثمائة سنين وازدادوا تسعا .. قال:

«قل الله أعلم بما لبثوا لـه غيب السماوات والأرض» ٢٦/ الكهف.

قاموا من تلك النومة الطويلة .. المتغلغلة فى أعماق الزمن . أجسامهم على حالها.. لم يمتد لهم شعر .. أو يطل ظفر .. أو تتغير خلية فى جسم .. أو تتبدل هيئة فى وجه .. ولم يبل لهم ثوب «وكذلك بعثناهم ليتساءلوا بينهم قال قائل منهم كم لبثتم» بعثناهم على حالهم التى كانوا عليها .. من هيئة وثياب وأحوال .. كما زدناهم هدى.. وضربنا على آذانهم .. وقلبناهم كذلك أيقظناهم.

قال امرؤ القيس :

وفتيان صدق قد بعثت بسحرة

فقاموا جميعا بين عاث ونشوان

والسحرة : وقت السحر.

وتمطى أحدهم متثائبا..قال: «كم لبثتم» ؟ فقال جماعة منهم: يخيل لنا أننا نمنا يوما كاملا .. أو أغلب اليوم «قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم». وقال الباقون: «قالوا ربكم أعلم بما لبثتم» وتركوا الأمر لله .. فهو الذى يعلم الحقيقة .. لأن النائم لا يستطيع أن يحدد مدة نومه .. «فابعثوا أحدكم بورقكم هذه إلى المدينة ، فلينظر أيها أزكى طعاما فليأتكم برزق منه وليتلطف، ولا يشعرن بكم أحدا» ١٩/ الكهف.

قاموا ينهش الجوع أحشاءهم .. ويلوى الضوى أمعاءهم .فطلبوا من يمليخا خازن أموالهم .. وأصغرهم سنا .. أن يدخل المدينة متنكراً .. فى لطف ولين جانب حتى لا يعرفه أحد .. من أتباع الملك ـ دقيانوس ـ فيشى به وبهم إليه .. ويعرف عيونه مكانهم .. الذى اختبأوا فيه «إنهم إن يظهروا عليكم يرجموكم أو يعيدوكم فى ملتهم ولن تفلحوا إذاً أبدا» ٢٠/ الكهف.

والرجم أقسى أنواع القتل .. وأقسى منه الارتداد فى الكفر بعد الإيمان.

وأوصوه بانتقاء أزكى الطعام .. يقصدون الطعام الطيب الحلال .. الذى ليس فيه لحم مذبوح باسم آلهة ـ دقيانوس ـ وإن كانت أزكى تفيد معنى الأكثر .. لقول الشاعر:ـ

قبائلنا سبع وأنتم ثلاثة

وللسبع أزكى من ثلاث وأطيب

بمعنى أكثر .. **وعلى هذا يكون الحلال الجيد** .. وإن قل .. أكثر من الحرام الخبيث وإن كثر.

ويقول بعض المغرمين بالعد فى الحروف والكلمات: إن كلمة «وليتلطف» تقع من ناحية عدد حروف القرآن .. فى منتصف القرآن تماما.. بمعنى أن النصف الأول من الكلمة وهو «ولى» هى آخر النصف الأول من القرآن.. ونصفها الثانى وهو «تلطف» هى أول النصف الثانى منه.

□ □ □

٦ آيــة البـعــث

هلك دقيانوس .. الملك الكافر الظالم .. وهلك بعده ملـوك وملوك .. تـقوم دولة .. لـتزول دولـة .. وزالت دولة الطاغوت .. وحلت مكـانها دولة الإيمان .. وحكم أفسوس ملك صالح.

يقول المفسرون والمؤرخـون .. إن اسمه تيدوسيس .. وأنه ملك ثمانيا وستين سنة (١)

ويقول المؤرخون إن تيدوسـيس حكم تلك البلاد من عـام ٤٠٨ مـيلاديـة .. ومن هنـا نلـمس صـدق القـرآن تاريخـيا .. حـيث فر الفـتيـة بدينهـم فى أيام دقيـانوس الظالم سنة ١١٢م وقاموا من نومـهم فى أيام تيدوسيس الذى حكم من سنة ٤٠٨م

وكان الـناس أحزابا .. فـمنهم من يـؤمن بالله .. ويعـلم أن السـاعـة آتيـة لا ريب فـيهـا .. وأن الله يبعث الأرواح والأجساد معا .. ومنهم من يؤمن ببعث الأرواح لا الأجساد .. واختـلفوا فى ذلك اختلافا كـثيرا .. وإن كانوا مـتفقين عـلى كلمة الـتوحيد.. وقـد حاول الملك الصالح .. تيدوسيس أن يوحد بين قومه فى عقيدة البـعث .. فلـم يستـطع .. واغتـم لذلك غـما شـديدا..

ولجأ فى هذا الأمر إلى الله .. ليظهر آية تجعل أعناق القوم لها خاضعين .

وأجمع المفسرون على أن هذا الملك الصالح .. لبس المسوح . ودخـل محرابه .. وأغـلق عليه بـابه .. وجلس علـى الرماد.. وبـقى على هـذا الحال .. لـيلاً ونهـاراً .. يتضـرع إلى الله .. ويبكى .. طـالبا منه حـجة وبيـانا عن البعث لهداية قومه.

وقبـل أن نستطـرد فى رحلتنـا تلك .. مع أصـحاب الكهف وبعثـهم .. بعد نومهم هذا الطويل .. أسـتسمح القارىء الكريم.. فى وقفة قصيـرة .. أمام عقيدة البعث لمناقشة أفكار رسخت فى أذهان عامة الناس حيالها..

فـالناس يعـتقـدون أن الله ـ سبحـانه يبـعث تـلك الأجسام بشحمها ولحمـها .. وحجتهم فى ذلك أن اليد هى الـتى سـرقت وبطشـت .. والعين هـى التى نـظرت وزنت .. والـلسـان هو الـذى كـذب ونم .. والأذن هى التى تسـمعت وتجسسـت. فلزم أن تعود تلك الأعـضاء يوم البعث لتذوق العذاب .. وهذا اعتقاد خاطىء .. لأن تلك الأعضاء أمانات خلقها الله لنا..

---

(١)الطبرى .

لاستعمالها فى نواحى الخير .. فأسأنا نحن استخدامها .. فالمسئولية علينا .. لا عليها .. تماما كالجندى .. سلمته الدولة سلاحا.. لحفظ الأمن .. فاستعمله استعمالا خاطئا .. فالعقاب .. فى هذه الحالة يقع على الجندى لا على السلاح. ولتوضيح هذا المعنى .. نقول إننا نرى على شاشة السينما أو التليفزيون .. ممثلين ومغنيين .. ماتوا من عشرات السنين .. نراهم الآن رأى العين .. بأيديهم وأرجلهم وأعينهم وآذانهم وذواتهم .. ونسمع أصواتهم بألسنتهم .. هذا التسجيل لهم لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها..وهو جزء من كتاب حسابهم يوم البعث.

فحياة الإنسان مسجلة عليه .. من لحظة ميلاده .. إلى لحظة موته .. فى سجل .. تبلو فيه السرائر... وتبرز الخواطر .. وهذا المعنى ظاهر بوضوح.. فى قوله تعالى : «هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق، إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون » (١) .. فهذا العمل المنسوخ المصور هو نفسه شاهد علينا يوم البعث .. ومنه يبرز معنى قوله تعالى: «يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون» (٢) فأرى نفسى ..وأنا أسرق أو أزنى أو أقتل .. ولنسترسل معا .. مع الآية «وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا»(٣).

فإذا فهمنا من هذا النص .. أن الجلود هى الأعضاء التى هى ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم .. جاز لنا أن نستعرض قول الله ـ تبارك وتعالى ـ «كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب»(٤) أى كلما بليت ألسنتهم وأيدياً وأرجلهم .. بدلهم الله ألسنة وأيديًا وأرجلا أخرى .. غير التى بليت .. ليذوق أصحاب تلك الأعضاء العذاب وليس العذاب للأعضاء بذواتها .. وإلا فما ذنب غيرها؟ .. الأعضاء التى أخطأت عذبت وبليت .. فما ذنب الأعضاء الجديدة؟؟.

وقد أدى هذا الفهم الخاطىء .. إلى تفسير خاطىء يقوله العوام .. فى معنى قوله تعالى «منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى»(٥) فقالوا: (منها خلقناكم) للعمل والأجر والثواب .. وهذا صحيح وحق .. «وفيها نعيدكم» أى للدود والتراب.. وهذا خطأ وباطل.. لأن الله - سبحانه - يقول: «وفيها نعيدكم» ولم يقل وإليها نعيدكم وإنما هى إعادة للحياة الثانية .. اقرأ معى «كما بدأنا أول خلق نعيده» (٦) واقرأ .. أيضا «كما بدأكم تعودون» (٧) .. وتأمل «وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه » (٨) وانظر «فسيقولون من يعيدنا قل الذى فطركم أول مرة»(٩) .. وأعتقد أن الإعادة فى كل تلك الآيات وغيرها تفيد معنى الإعادة بالخلق الجديد بعد الموت .. فالله ـ سبحانه يقول على لسان المشركين الذين لا يؤمنون بالبعث «يقولون أئنا لمردودون فى الحافرة؟ أذا كنا عظاما نخرة؟ قالوا تلك إذاً كرة خاسرة» (١٠) أرأيت معنى الرد فى الحافرة .. أى الإعادة فى القبر الأرضى؟.. إنها هى الإعادة للروح بالجسم الجديد .. الذى لا نعلم كنهه وتركيبه .. ولا نعرف الآن عناصره وتكوينه .. لأن الله يقول: «ولقد علمتم النشأة الأولى» (١١) علمتم الأولى فقط .. التى تحبون بها الآن .. ولا شأن لكم ولا علم بالنشأة الثانية .. ولأنه يقول أيضا «وننشئكم فى مالا تعلمون» (١٢) .. فكيف نقول إننا نعلم البعث بتلك الأجسام الطينية؟

ستكون الإعادة فى القبور .. بأجسام جديدة لا نعلمها.. فلا تقوى هذه الأرض على حملها.. لأنها ليست من مادتها .. ولا من عناصرها .. فتضطرب الأرض وترجف .. وتلقى من عليها إلى الأرض الجديدة «يوم تبدل الأرض غير الأرض» (١٣) .. وهذا المشهد واضح فى قوله تعالى: «يوم ترجف الراجفة تتبعها الرادفة» (١٤) وفى آية أخرى .. حول نفس المشهد «فإنما هى زجرة واحدة فإذا

---

(١)٢٩ / الجاثية

(٢)٢٤- النور.

(٣)٢١ - فصلت.

(٤)٥٦ / النساء

(٥)٥٥ - طه.

(٦)١٠٤ -الأنبياء.

(٧)٢٩ / الأعراف.

(٨) ٢٧ - الروم.

(٩) ٥١ - الإسراء.

(١٠) ١٠ - النازعات.

(١١) ٦٢ - الواقعة.

(١٢) ٦١ - الواقعة.

(١٣) ٤٨ - إبراهيم.

(١٤) ٦ - النازعات.

هم بـالسـاهرة» (١) .. هى الأرض الجـديدة .. وتـكون تلك الزجرة .. أو هذه الرادفة .. هى مـعنى قوله تعالى: «ومنهـا نخرجـكم تارة أخرى» أى نـخرجكم مـن تلك الأرض .. إلى الأرض الجديدة البديلة .

وهذا واضـح أيضـا فى قولـه تعـالى: (وإذا الأرض مدت وألقت ما فيها وتخلت) (٢).

وعلى هذا يكـون معنى الآية «منهـا خلقناكم وفـيها نعـيدكم ومـنهـا نخـرجـكم تارة أخرى» أى مـن هذه الأرض خلقـناكم.. وفى بـطنهـا نعـيدكـم يوم البعـث بأجسام أخرى لا تعرفونـها الآن .. ومنها نخرجكم تارة أخـرى .. إلى الأرض الجـديـدة المبـدلـة .. للنعـيم أو العذاب .. بالنسبة لنا .. لا لأجسامنا .. حيث تتعدد معنا الأجـسـام .. بدليـل ماذكـر الله عـن أهل جـهنم كـلمـا نضجـت جلودهم بدلنـاهم جلودا غيـرها «كمـا بينا أن الجلود هى الأعضاء . فالأجسام قابلـة للتبديل والتغيير . لأنها خلق .. أمـا الأرواح فهى من عالم الأمـر لا تتبدل ولا تتغير .. ونعود إلى الكهف..

فقـد ألقى الله ـ تعـالى ـ فى نفس أحد الرعـاة ..أن يهدم الـبنيان الذى عـلى فم الكهف .. لـيبنى بأحـجاره حظيرة لغنمـه .. فاستأجر لذلك عامـلين .. ينزعان تلك الحجارة .. ويبنيان بها الحظـيرة حتى فتح باب الكهف.. وأخفـى الله التابـوت عن أعين العـاملين ..وحـجب الله الفتـية عن الناس بـالرعب .. فكان أشجـع الناس .. من يدخل من باب الكهف..ويتقـدم .. فيرى الكلب بالباب فيغلبه الرعب .. ويعود فارا .. لا يلوى على شىء ..

وعادت إليـهم الحياة .. وتنـاقشوا فى أمـرهـم .. وما ينتظرهـم من بلاء الملك الكافر وفتنته .. ولولا ألم الجوع .. لما طلبـوا من يمليـخا .. أن يأتيـهم بالطعـام .. بعد أن يتحسس لهم الأخبار .. فى صمت وسرية ..

وتنكر يمـليخا قـدر استطاعـته .. بملابس الراعى .. وخرج مسـتعينا بالله .. عـلى أداء ماكلفه به أصـحابه .. ومعه بعض النقود الفضيـة التى كانت معهم .. ومنقوش عليها اسم الملك دقيانوس .. وتاريخ عصره..

وتسلل يمليخا على حذر .. ناحية المدينة ..

فرأى طرقـا لم يألفـها .. من قبـل .. ففرك عيـنيه .. وبدأ يشك فـى نفسه .. هـل هو نائم أم يقظـان .. ولكنه استـأنف السير .. حـتى وصل إلى باب المدينة .. فـوجد عليه لافتة بها شعـار الإيمان والتوحيد .. بدلا من أشلاء الشهداء .. ورأى وجوها غريبـة عليه .. وسمع أحاديث مما يهـمس به الناس .. تدل علـى أن كلمة الله هى العـليا فازداد عجبـا .. وتملكته الحيرة .. فظن أنه سلـك طريقا آخر .. أدى به إلى مدينة أخرى ..

فسأل بعض المارة .. ماسم هذه المدينة؟ .. قال: إنها مدينة أفسوس يا عبد الله .. وكـأنه يناجى نفسه .. ما هذا الذى حدث بين الأمس واليوم؟ ..

وراودته نفسـه .. أن يعدو إلى أصحابه .. ليـخبرهم بما رأى.. وهـويتهـم عقـله .. ولكنـه تذكـر جوعـهم .. فذهب إلـى أحد التجـار .. وأخرج من جـيبه قطـعة من النقود.. وناوله إياها.. قائلاً: بعنـى بهذه طعاما ياعبد الله .. فأخـذها الرجل .. ونظـر إلى ضربهـا ونقشهـا .. فى دهشـة . وناولـها إلـى بعض جلسائـه .. الذين أخـذوا يتطارحونـها .. من رجل إلى رجل .. ويتشاورون فـيما بينهـم .. لابد أن هذا وجد كنزا دفـينا .. به تلك الـنقود الأثرية .. وظن يمليخا أنهم يتآمرون على تسليمه للملك دقيانوس..

فـقال لهـم: أعطونى نـقودى .. ولا حـاجة بـى إلى طعامكم .. قالوا : من أنت أيهـا الفتى .. وما شأنك؟ .. وأين هذا الكنز الذى وجدت فيه تلك النقود؟..

وسكـت يمليـخا .. قالـوا: إن لم تدلنا علـى الكنز .. ذهبـنا بك إلى الـسلطان .. فـلم يجـد يمليـخا جـوابا .. فطوقوه بشيابه .. وذهبوا به فى الطريـق .. وتجمع الناس حوله .. يقـولون: إن هذا الفتى غريـب .. ليس من أهل مدينتنا ..

(١) ١٤ - النازعات .

(٢) ٣ - الانشقاق.

وربما خطرت فى نفسه الخواطر .. سيحضر أبوه وإخوته وأهله .. فيخلصونه من بين أيديهم .. فهو من أبناء أشرافهم وذهبوا به إلى حاكم المدينة .. وظن أنه سيلقى الجبار دقيانوس .. فصار يتلفت كالمجنون .. والناس حوله .. فرفع بصره إلى السماء قائلا، والدمع يملأ عينيه : اللهم إله السماوات والأرض .. أولج معى روحا منك اليوم .. تؤيدنى به عند هذا الجبار.. وجعل يبكى .. **ويقول فى نفسه :لقد فرق بينى وبين إخوتى .. ليتهم يعلمون ما يجرى .. ليتهم يعلمون أنى فى سبيلى إلى لقاء هذا الطاغى .. إذاً لحضروا لنواجهه معا .. وليكن ما يكون..**

وسكنت روحه .. لما وجدهم أدخلوه على شخص آخر .. غير دقيانوس .. وهو حاكم المدينة .. ونائب الملك تيذوسيس .. وكان اسم هذا الحاكم - آريوس(١)..

ونظر آريوس فى قطعة النقود مليا .. ثم رفع بصره إلى يمليخا .. وقال له: أين هذا الكنز أيها الفتى ؟ قال: إنى لم أجد كنزا .. وإنما هذه نقود آبائى .. ونقش هذه المدينة وضربها .. ولكنى والله .. لا أدرى ما شأنى .. ولا أعلم ماذا أقول لكم ..

فقال له: من أين أنت ؟

فقال : كنت أرى أنى من هذه المدينة .

قال : فمن أبوك ؟ ومن يعرفك بها؟

فذكر لهم اسم أبيه .. فلم يعرفه منهم أحد.

فقال بعض الموجودين: أنت كذاب .. لا تقول الحق فلم يدر ماذا يقول .. غير أنه نكس بصره إلى الأرض وقال آخر: إنه مجنون .. أما ترون نظراته الشاردة؟.

وقال ثالث: إنه ليس مجنونا .. بل يتصنع الجنون ليفلت منكم..

ونظر أحدهم إليه .. بعمق .. وقال له يابنى نحن لا يمكن أن نصدقك .. فى أن هذا مال أبيك .. وهو مضروب من أكثر من ثلاثمائة سنة .. وأنت غلام حديث السن .. وها أنت ترى سراة القوم وولاة المدينة سنعذبك حتى تعترف.

فقال لهم : أجيبونى على سؤال واحد.. أين دقيانوس الملك الذى كان يملك تلك المدينة بالأمس؟.

قالوا: إن دقيانوس الكافر.. هلك من عدة قرون.

فقال يمليخا: إنى إذاً لحيران.. لقد فررنا بديننا من دقيانوس بالأمس.. وعلى أى حال.. انطلقتم معى إلى الكهف فى جبل بنجلوس.. أريكم أصحابى.. مادام دقيانوس قد مات.

فقال الحاكم - آريوس-: ياقوم .. لعل.. فى هذا الأمر آية من آيات الله - تعالى - جعلها على يد هذا الفتى.. وانطلق معه الحاكم.. ومعه من سراة القوم.. وسمع الفتية الجلبة تقترب منهم.. فظنوا أن أمرهم قد انكشف.. وأن يمليخا وقع فى يد دقيانوس.. وأن الجنود فى الطريق إليهم .. للقبض عليهم.. فاستعدوا لملاقاة يمليخا عند الجبار.

ودخل آريوس ومن معه.. وأمامهم يمليخا.. وعرفوا الحقيقة.

رأى آريوس.. على باب الكهف تابوتا من نحاس.. مختوما بخاتم من فضة.. فتحه بمحضر من الجمع.. واستخرج منه لوحا من الرصاص.. نقشت فيه أسماؤهم.. وأنسابهم وتاريخ فرارهم بدينهم من دقيانوس.. ولجوؤهم إلى هذا الكهف.. وقيام الملك الكافر.. بإقامة السد عليهم.. ليموتوا جوعا وعطشا.. ورأى الناس آية البعث.

□ □ □

(١) من الطبرى.

٧ عودة الموت

وأرسل آريوس فى طلب ملكه الصالح - تيدوسيس - ليرى الآية التى مازال يلح على الله فى طلبها .. وحضر الملك فى موكبه .. وتقدم من الفتية فى رهبة وخشوع .. وهم جلوس .. يسبحون الله .. ويحمدونه .. فعانقهم وقبلهم .. ودعوا له قائلين :

نستودعك الله .. ونعيذك من شر الجن والإنس ثم عادوا إلى مضاجعهم .. وتوفى الله أنفسهم فألقى الملك عليهم ثيابه .. وأمر لكل واحد منهم بتابوت من الذهب .. فرآهم فى المنام كارهين للذهب . فجعلها من خشب الساج.. وبنى على باب الكهف مسجدا «وكذلك أعثرنا عليهم ليعلموا أن وعد الله حق، وأن الساعة لا ريب فيها إذ يتنازعون بينهم أمرهم، فقالوا ابنوا عليهم بنيانا، ربهم أعلم بهم، قال الذين غلبوا على أمرهم لنتخذن عليهم مسجدا» ٢١/ الكهف.

ويجدر بنا هنا أن نقف وقفة قصيرة قبل أن نطوى صفحة أصحاب الكهف .. أمام إقامة المساجد على القبور.

فقد روى أبو داود والترمذى عن ابن عباس .. قال: **«لعن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - زوارات القبور . والمتخذين عليها المساجد والسرج».**

وروى أئمة عن أبى مرثد الغنوى .. قال: سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : «لا تصلوا إلى القبور ، ولا تجلسوا عليها » «لفظ مسلم» أى لا تتخذوها قبلة فتصلوا عليها .. أو إليها .. كما فعل اليهود والنصارى .. فيؤدى ذلك إلى عبادة من فيها .. كما كان السبب فى عبادة الأصنام.

وخرج أبو داود والترمذى أيضا .. عن جابر .. قال: «نهى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن تجصص القبور، وأن يبنى عليها، وأن يكتب عليها، وأن توطأ».. قال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح.

وقال على بن أبى طالب .. لأبى الهياج

الأسدى : «ألا أبعثك على ما بعثنى عليه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ألا تدع تمثالا إلا طمسته ، ولا قبرا مشرفا إلا سويته».. وذهب الجمهور إلى أن هذا الارتفاع .. المأمور بإزالته .. هو مازاد على التسنيم .. ويبقى للقبر ما يعرف به ويحترم .. والتسنيم فى القبر قدر شبر.. مأخوذ من سنام البعير .. ويرش عليه بالماء .. لئلا ينتشر بالريح .. وفى الصحيح عن سعد بن أبى وقاص .. أنه قال فى مرضه الذى مات فيه : «اتخذوا لى لحدا .. وانصبوا على اللبن نصبا .. كما صنع برسول الله ـ صلى الله عليه وسلم (١)

وإلى لقاء كريم .. مع رسول المرسلين .. وإمام النبيين ـ «محمد خاتم الرسل» عليه صلاة الله وسلامه وعليهم أجمعين.

(١) القرطبى ٢١ / الكهف .

بسم الله الرحمن الرحيم

خاتمة المجلد الأول

بعد تلك الجولة الواسعة بين رياض كتب التفسير .. وموسوعات تاريخ العالم .. وأسفار التوراة .. وإصحاحات الأناجيل .. وبعد أن صحبنا الركب مع رسل الله الكرام .. من آدم ـ عليه السلام ـ إلى أصحاب الكهف .. بعد عيسى بن مريم ـ عليهما السلام ـ وشهدنا مواقع الأحداث الرسالية ..وأماكن وقوعها جغرافيا .. يحق لنا أن نقف وقفة نسترد فيها الأنفاس .. فقد أصابتنا في جولتنا وخزات الأشواك ..مما دسه المغرضون على أئمتنا الكرام .. من رجال التفسير وأولى العلم .. من أوهام الإسرائيليين.. وشعوذة المجوس.

وقد سلطنا عليها الأضواء .. لنكشف ما حوت من خرافات وترهات .. ليكون القارىء بمنأى عن المزالق .. وليخرج من قراءته بحكم صادق .. يطابق العقل .. ويوائم الفطرة .. فطرة الله التى فطر الناس عليها.

ولعلك أيها القارىء الكريم قد رأيت كيف اتهم اليهود بالباطل هؤلاء الرسل فى عديد من المواقف .. **ووصموهم كذبا بالكثير من الدنايا والآثام .. والخطايا والأوزار.**

وقد انقسم الكتاب المحدثون حيال القصص الرسالى إلى قسمين :

قسم رأى أن يقف عند ماورد فى الكتب القديمة وقفة جامدة .. سواء طابق العقل أم لم يطابقه..

ويقول: هكذا وردت .. وهكذا قرأتها .. وهى تراث يجب أن نحافظ عليه .. وأن يقبله على علاته .. ولا مجال للعقل فى مناقشتها.

وفى هذا ما فيه من الخطورة على فكر الشباب .. حيث يجدون فى أنفسهم رفضا لتلك الأفكار .. ونفورا من قبولها .. ولا سبيل أمامهم إلا الفرار.. والإعراض عن قراءتها .

وفى هذا تعطيل لعنصر من أهم عناصر القرآن الكريم.. عنصر القصص:

«وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك فى هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين»(١).

● **والقسم الثانى ..** هاجموا تلك الخرافات والترهات .. فهدموها .. وتركوها مهدومة .. دون أن يقيموا بناءها ثانية على أساس من الإقناع العلمى والعقلى .. وهذا الفكر يجتذب الشباب ..ويودى بهم فى مهاوي الشك والريبة .. فهو أشد خطرا على فكر الشباب من سابقه.

ونحن نستغفر الله أن نكون متهمين أحدا من القسمين بسوء النية .. فأصحاب القسم الأول وقفوا عند النص الوارد فى الكتب القديمة .. ورأوا أن يكتفوا بالنقل .. دون نظر إلى العقل.

● **وأصحاب القسم الثانى ..** عرضوا الأمر على العقل .. فنفوا غير المعقول .. وكان عليهم أن يجتهدوا لإيجاد بديل .. ولهم أجر إن أخطأوا .. وأجران إن أصابوا.

ولعلك ياقارئى الكريم .. قد مررت بالكثير من تلك المواقف .. حين تجوالنا مع رسلنا الكرام .. فى رياض تلك المقدسات الفكرية .. ولحظت أننى كنت حريصا غاية الحرص .. على

---

(١) ١٢٠ - هود.

إقامة البديل المقنع .. عقب هدم الدسيس مباشرة.. فالبديل لابد أن يقوم على حقائق علمية وعقلية.. يتذوقها الشاب الذى شرح الله صدره للإسلام فى سهولة ويسر.. فالإسلام هو الدين الوحيد.. الذى يخاطب العقل مباشرة.. دون واسطة أو كبير إقناع..

وأذكر موقفا ذكره لى أحد تلامذتى النابهين.. وهو الآن محام يشغل منصبا مرموقا فى مؤسسة كهرباء مصر.. قال:

جمعنى فطور رمضان.. عند إحدى قريباتى.. مع أستاذة فرنسية فى جامعة القاهرة.. وهى مسيحية اعتنقت الدين الإسلامى.. واتفقنا على أن نتخاطب معا باللغة الإنجليزية.. لأننا لا نجيد الفرنسية.. وهى لا تجيد العربية.

قلت لها: ما هى الدوافع التى دفعتك إلى ترك المسيحية دين آبائك وأجدادك واعتناق دين الإسلام؟

قالت: لقد نشأت فى أسرة مسيحية متدينة.. درست الأناجيل والرسائل فوجدت فيها اختلافا كبيرا فى العقيدة.. مما أوجد فى نفسى بعض الشك.. فدرست أسفار التوراة والتلمود والكتب اليهودية القديمة.. فوجدتها أشد اختلافا فى العقيدة من كتب المسيحية..

فدرست القرآن.. وكتب الإسلام.. فوجدته هو الدين الوحيد الذى يخاطب العقل مباشرة.. إنه هو الدين الذى يساير الفطرة.. ويوائم الطبيعة البشرية فى جميع عصورها ويكفل لها الانطلاقة الحرة مع الكون.. دون قيود أو أغلال.

ثم استرسلت فى كلامها قائلة.. والأسى يبدو من خلال عبارتها: ولكننى أحمد الله أن اعتنقت الإسلام قبل أن آتى إلى بلادكم.. فأنتم مسلمون بالوراثة.. ولكنكم لا تعرفون شيئا عن روح الإسلام وقوته وقيمه ومثله.

ثم قالت: إن الشباب فى أوروبا الآن..عنده فراغ دينى تام..ولو أن علماء الإسلام..عندهم من القوى الروحية..ما يمكنهم من إبلاغ هذا الدين بروحه وقوته وقيمه ومثله إلى ذلك الشباب الأوروبى..لأقبل عليه فى نهم بلا تردد.. لأن الإسلام يقيم الحجة على العقل بأدلة منطقية لا تقبل نقاشا ولا جدالا.

ولاشك أن قول الدكتورة الفرنسية حقيقة.. لم يصل إليها الكثير منا.. لطول الأمد.. وقسوة القلوب.

فالإسلام روح.. والقرآن روح.. وكل شىء فى الحياة الدنيا جسم وروح.. وإذا فقد الجسم روحه صار لا شىء.. فالله تعالى قال عن القرآن الكريم:

«لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله».

فهل لو أننا حلقنا بطائرة فوق جبل.. وألقينا عليه من الطائرة ملايين المصاحف.. هل يتصدع الجبل ويتشقق؟

إننا نكون قد أنزلنا عليه أجساما من غير روح.. لاأثر لها.. بينما يقول تعالى عن روح القرآن:

(ولو أن قرآنا سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى) وهنا محذوف تقديره: «لكان هو هذا القرآن» بروحه وقوته تسير به الجبال.. وتقطع به الأرض.. ويكلم به الأموات.. وذلك لأن الأمر لله جميعا.

هذه الروح هى التى خرج بها - عليه الصلاة والسلام - من حجرته.. ليلة الهجرة.. وهو يتلو من أول سورة (يس) تلاوة روحية:

(وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون)

تلاها - عليه الصلاة والسلام - وهو خارج.. ليمر بين أربعين سيفا مسموما.. يريد أصحابها أن يضربوه بها ضربة رجل واحد.. ليضيع دمه بين القبائل.

فانفعلت روحه بروح الآيات.. فغشيت أبصارهم.. فهم لا يبصرون.. ومر بينهم وهو على ثقة من قوة ما ألقى عليهم.. وبلغت ثقته بها أنه لم يسرع فى الهروب من بينهم.. بل انحنى إلى الأرض وتناول حفنة من التراب ذراها على رءوسهم.. وهم واقفون مفتوحة أعينهم.. ولكنها لم تبصر.

وهى نفس الروح .. التى أرسل بها سليمان - عليه السلام - كتابه إلى بلقيس ملكة سبأ - كما رأينا فى (نبأ سليمان) وفى الكتاب

قوات وجنود لا قبل لهم بـها.. تلك هى قوات (بسم الله الرحـمن الرحـيم) بروحـها ـ وليـس بحروفـها ـ جـاءه عرش بلقيس من اليمن إلى أورشليم ـ القدس ـ من غير زمن مـطلـقا .. قـبل أن يـرتد إلـيه طـرفه .. ثـم جـاءته خاضعة مسلمة قائلة :

(رب إنى ظلمت نفسى وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين) .. لأنه ألقى إليها ..بواسطة سفيره الهدهد (إنه من سليمان وإنه بسم الله. الرحمن الرحيم ألا تعلوا علىّ وائتونى مسلمين).

ومن أجل هذا .. كان لزاما علينا .. أن يعرض على الشباب أنباء الرسل .. بهـذا الأسلوب القصصى السهل المشهود ..وأن نضع يده على ما دسه المغرضون فى كتب أئمتنا الكرام .. من أوهام الإسرائيليين وشعوذة المجوس .. ودجل المخرفين.

ولعلك يا أخى قد رأيت أنهم دسوا فى تلك الكتب خرافات .. لا يقبلها عقل .. ولا يسيغها منطق .. منها ما دسوه مثلا فى تفسير الإمام الـكبير القرطبى.. حول قصة نوح ـ عليه السلام ـ

«لم يكن فى الأرض قبل الطوفان نهر ولا بحر»(١).

فـماذا نقـول لشـاب قـرأ تلك العـبـارة فى تفـسيـر القرطبى .. وسألنا:

كيف كان الـناس يحيون على الأرض قـبل الطوفان .. وليس فيها نهر ولا بحر ؟

وهل نصدق أن ابن عبـاس ـ رضى الله عنه ـ قال فى تفسير قوله تعالى:

(قال اركبوا فيها بسم الله مجريها ومرساها)(٢).

قال «تعلق إبليس بذنب الحمار .. وكانت يدا الحمار قد دخلتـا فى السفينـة .. فجعل الحمـار يضطرب .. ولا يستطيع أن يدخل .. فصاح به نوح: ادخل ويلك .. وإن كان معك الـشيطان ـ فدخل ـ ووثب الشيطان فدخل »

هل نصـدق أن ابن عبـاس يقـول هذا؟ .. وهل يحـتاج الشيطان إلى مثل ذلك ؟..

مع أن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول: (٣)

«إن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم»؟

ماذا نقـول لشاب قرأ فـى أمهات كـتب التفسـير أن إبراهيم ـ عليـه السلام ـ ابن آزر ـ عدو الله ـ مع أنـه يقرأ فى نفس الكتب قول رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم:ـ

«خـرجت مـن نكـاح ولم أخـرج من سـفـاح .. لـم يصبنـى من سفاح الجاهليـة شىء .. فأنا خيار مـن خيار من خيار .. من لدن آدم إلى أن ولدنى أبى وأمى». أليس وجود عـدو الله ـ آزر ـ فى سلسلة الخيار بفسدها . لأن محمدا من نسل إسماعيل بن إبراهيم ؟

كما أن الله تعالى يقول لحبيبه محمد:

(وتوكل على العزيز الرحيم. الذى يراك حين تقوم.. وتقلبك فى الساجدين) أى أن الله يـرى تقلبك وانتقالك من ظهر ساجد إلى ظهر سـاجد.. فكيف يكون ظهر آزر من **ظهور الساجدين)؟(٤).**

ماذا نقول لشاب قرأ فى بعض كتب التفسير أن لوطا – عليه السلام – قد عاشر بنته معاشرة زوجية؟

وماذا نـقول لـشـاب قرأ فى كـتب الـتفـسيـر أن يوسـف – عـليه السـلام – وهو الكريم ابـن الكريم ابن الكريم ابـن الكريم .. يوسف بـن يعقـوب بن إسـحاق بن إبـراهيم .. فـقد جـمع مـربعـا كامـلا من النبـوة.. إذا قرأ عنه حـول قوله تعـالى: (ولقد هـمت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه) أنه حل تكة سراويله.. وقعد بين شعبهـا الأربعة.. وأنه سمع صوتا: إياك إياك.. فلـم يكـتـرث له.. فـسـمعـه ثـانيـا.. فلـم يعـمـل به..

(١) ٣٨ - هود ص ٢٢٦ الشعب.

(٢) ٤١ - هود.

(٣) ارجع إلى نبأ نوح ص ٤٥ من هذا المجلد (الأول)

(٤) ارجع إلى نبأ إبراهيم ص ٩٦ من هذا المجلد (الأول).

فسمع ثالثا: أعرض عنها فلم ينجع فيه.. حتى مثل له أبوه يعقوب عاضا على أنملته؟..

كما قالوا: إن يعقوب ضرب بيده على ظهره.. فخرجت الشهوة من أنامله..

وقالوا: كل ولد يعقوب له اثنا عشر ولدا.. إلا يوسف.. فإنه ولد له أحد عشر ولداً من أجل ما نقص من شهوته.. حين هم بها.

بل وقال بعضهم فى كتاب - النيسابورى - أوردها على لسان ابن عباس.. - وابن عباس منها براء - قال:

عندما همت به وهم بها.. فإذا بكف قد بدت فيما بينهما.. ليس لها عضد ولا معصم.. مكتوب فيها: (وإن عليكم لحافظين. كراما كاتبين. يعلمون ما تفعلون) فقام هاربا وقامت.. فلما ذهب عنهما الروع والرعب.. عادت وعاد.. وإذا بالكف بدت بينهما.. ليس لها عضد ولا معصم.. مكتوب فيها: (واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله).. فقام هاربا وقامت.. فلما ذهب عنهما الروع والرعب.. عادت وعاد.. وإذا بالكف بدت بينهما.. ليس لها عضد ولا معصم.. مكتوب فيها:

(ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا)..

وفى تبجح وجرأة.. بعد هذه الاتهامات لهذا النبى الكريم.. قال الراوى الكذاب: ثم قال الله تعالى:

(كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين)؟

إلى أين نذهب بعقولنا وأفكارنا؟ .. وكيف يكون هذا الهراء والسخف فى كتب تدرس .. ويتداولها الشباب .. بل ويتحدث بها بعض من يدعون العلم والوعظ والإرشاد؟..

فإذا رددتهم .. قالوا لك: هى فى كتاب كذا .. فكيف تجرؤ على تكذيبها(١)؟

ماذا نقول لشاب قرأ فى كتب التفسير .. أن داود - عليه السلام - دخل محرابه .. ووقف يصلى .. ويقرأ الزبور .. إذ مثل له الشيطان فى صورة حمامة من ذهب. فيها من كل لون حسن .. فوقفت بين رجليه .. فمد يده ليأخذها فبعدت .. فتبعها فطارت .. وظل داود ينظر إليها ويرتفع فى أثرها .. فرأى امرأة فى بستان تستحم على شاطىء بركة .. قاله الكلبى ..وقال السدى: تستحم عريانة ـ والكلبى والسدى من هذا بريئان براءة الذئب من دم ابن يعقوب - قال : فرأى - يقصد داود - أجمل النساء خلقا .. فأبصرت ظله .. فنفضت شعرها .. فغطى بدنها ..فزاده إعجابا بها .. وكان زوجها أوريا بن حنان فى حرب البلقاء .. مع أيوب بن صوريا .. ابن أخت داود .. فكتب داود إلى ابن أخته .. أمد ابعث بأوريا إلى مكان كذا وكذا . واجعله أمام التابوت .. وكان من يتقدم أمام التابوت .. لا يحل له أن يرجع إلا بالنصر أو الشهادة .. فقدمه أيوب فانتصر ..فكتب إلى داود يخبره بذلك .. ثم يقول هذا الراوى الكذاب: **(قال الكلبى):** وكان أوريا سيف الله فى أرضه فى زمان داود .. فطلب منه داود أن يبعث به فى بعث كذا .. واجعله أمام التابوت . فانتصر أوريا ثانية .. ولكنه استشهد فى المرة الثالثة .. فتزوج داود تلك المرأة .. حين انقضت عدتها.

فلماذا نقول لهذا الشاب .. بعد أن شممنا معه رائحة الحقد الكريه .. المنبعثة من خلال تلك الأقاويل المدسوسة . على رسول كريم .. رسول قال الله عنه:

(وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب).

وقال عنه أيضا (وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب).

وقال كذلك عنه (نعم العبد إنه أواب).

لقد نسبوا له عددا من الجنايات الإنسانية والدينية .. ماتكفى واحدة منها .. لأن تهوى بالإنسان من أعلى عليين.. إلى أسفل سافلين.

ولعل هذا هو الذى دفع عليا بن أبى طالب ـ رضى الله عنه وكرم وجهه - .. فى رواية عن سعيد بن المسيب:

---

(١) ارجع إلى نبأ يوسف ص ١٤١ هذا من المجلد (الأول) .

«لو سمعت رجلا يتحدث عن داود ـ عليه السلام ـ بما يرويه القصاص.. لجلدته ستين ومائة»(١).

وذلك لأن حد قاذف الناس ثمانون جلدة.. وحد قاذف الأنبياء ستون ومائة..؟؟(٢).

ماذا أقول لشاب قرأ عن نبى الله أيوب.. أن إبليس نفخ فى منخريه نفخة أشعل منها جسده.. فذهل.. وخرج به من رأسه إلى قدمه تآليل مثل اليات الغنم.. ووقعت فيه حكة لا يملكها.. ولا يتماسك عن حكها.. فحك بأظفاره حتى سقطت كلها.. ثم حكها بالحجارة الخشنة.. فلم يزل يحكها حتى نزل لحمه.. وتقطع.. وتغير وأنتن.. فأخرجه أهل القرية.. فجعلوه فى مكان قذر.. رفضه خلق الله كلهم.. غير امرأته.

وقالوا: وقعت دودة من فخذه على الأرض فأخذها.. وردها إلى موضعها.

وقال لها: كلى.. فقد جعلنى الله طعاما لك.

ونسبوا إليه أنه قال فى دعائه:

«إلهى.. تقطعت أصابعى.. وتساقطت لهواتى ولحم رأسى.. فما بين أذنى من سداد.. بل إحداها ترى من الأخرى.. وأن دماغى ليسيل من فمى.. إلى أن قالوا عنه زورا: إنه قال فى دعائه:

«إن قضاءك هو الذى أذلنى وأدنانى وأهاننى.. وإن سلطانك هو الذى أسقمنى.. وأنحل جسمى».

فهل يقبل العقل.. أن يبتلى الله عبده أيوب ـ عليه السلام ـ بهذا المرض القذر.. المنتن المنفر.. الذى يؤذى الأعين.. ويزكم الأنوف.. ويقزز النفوس.. وينفر الأصدقاء.. فيتناثر الدود من جسمه.. ويتجنبه الناس.. لعدم قدرتهم على تحمل نتنه؟.

مع أن أول الصفات الواجبة للأنبياء: الطهارة.. والنظافة.. والذوق الجميل.. والصورة الحسنة؟.

وهل يجوز أن يتصور أن النبى النقى الصابر أيوب.. يناجى ربه بهذا الأسلوب اليائس القانط.. وقد قال الله عنه: (إنا وجدناه صابرا نعم العبد إنه أواب)؟.

وكيف يسيغ الفهم هذه الدعوات من أيوب ـ عليه السلام ـ وقد رأينا معا.. أنه قال لزوجته رحمة بنت اقرائيم بن يوسف.. عندما طلبت منه أن يدعو الله ليكشف عنهم البلاء.. قال:

«استحى من الله أن أدعوه.. وما بلغت مدة بلائى مدة رخائى(٣)؟.

وحول قصة ذى القرنين.. التى أوردها القرآن الكريم فى سورة الكهف.. تكثر أسئلة الشباب:

من هو ذو القرنين فى تاريخ العالم؟ ومن هم يأجوج ومأجوج الذين بنى عليهم ذو القرنين السد؟ وأين هذا السد.. وقد أصبحت الأرض صفحة مفتوحة ظاهرة بعد التقدم الجغرافى.. ووجود الأقمار الصناعية التى صورت الأرض جغرافيا.

يقرأ الشباب فى بعض الكتب الدينية.. أن ذا القرنين هو الإسكندر المقدونى ثم يقرأ فى سجلات التاريخ عن الإسكندر المقدونى أنه ظهر فى عام ٣٣٦ ق.م وأنه غزا العالم شرق مقدونيا.. وخضعت له أغلب المدن الإغريقية.. ثم دخل مصر.. وبنى مدينة الإسكندرية.. وزار مهبط وحى آمون.

ثم غادر مصر فى ربيع سنة ٣٣١ ق.م.. وحارب الفرس.. وانتصر عليهم.. واستولى على كنوز كثيرة من الكنوز الفارسية.. وسقطت تحت يده (بابل) و(سوسا).. ونهب بلدة (برسيبوليس) وأحرقها بأهلها.. واستولى منها على كنوز ضخمة.

ثم أخضع إقليم ـ قزوين ـ واتجه إلى الجنوب.. حيث وصل بجيوشه إلى بكتريا ـ بلخ الآن ـ وهزم ـ بوروس ـ حاكم الهند فى موقعة (هيداسبيس) وتقدم حتى بلغ ـ (هيفاسيس).. وامتنعت جيوشه عن الزحف بعد ذلك(٤).

---

(١) من الكشاف والقرطبى ـ ٢٤ / ص.

(٢) ارجع إلى نبأ داود ص ٣٢٠ من هذا المجلد (الأول).

(٣) ارجع إلى نبأ أيوب ص ١٩٠ من هذا المجلد (الأول).

(٤) موسوعة تاريخ العالم ـ وليم لانجر ـ جـ ١ ص ١٦٤ وما بعدها ـ نشر مؤسسة فرانكلين.

واستولى عليه شيطان الغرور.. فادعى الألوهية.. وفى نشوة الخمر.. قتل صديقه الوفى ـ كليتوس ـ لأنه وجه إليه اللوم لادعائه الألوهية لنفسه. ثم أدركه الموت.. عند عودته.. فمات فى بابل فى ١٣ يونية سنة ٣٢٣ ق.م.

ومن دراسة هذا التاريخ.. نلاحظ ثلاث ملاحظات:

الملاحظة الأولى: أن الإسكندر المقدونى.. فتح بلادا كثيرة.. ولكنها كلها تقع شرق مقدونيا.. ولم يتجه فى حروبه غرب مقدونيا مطلقا.. بينما صورة القرآن الكريم فيها أن ذا القرنين.. بلغ أقصى الغرب.. بقوله تعالى:

(حتى إذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب فى عين حمئة)(١).

وليس المقصود هنا أنه بلغ إلى جرم الشمس.. أو إلى عين تغرب فيها.. وإنما المقصود مرأى البصر وقت الغروب.. حيث انتهى إلى آخر معمور الأرض من جهة الغرب.. فوجدها ـ فى رأى العين ـ تغرب فى عين حمئة.. كما تراها أنت وأنت واقف على شاطىء البحر.. وكأنها تغوص فى الماء.

وكلمة (عين) تفيد المكان دارا أو أرضا.. أى مكان كثير الحماة.. والحمأة: هى الطينة السوداء.

● **والملاحظة الثانية:** أن الإسكندر المقدونى.. كان ظالما قاسيا.. فى معاملة أعدائه.. حرقا وإعداما ونهبا واسترقاقا.. بينما صورة ذى القرنين فى القرآن الكريم.. توحى إلى النفس..أنه كان عادلا رحيما.. يقول تعالى عنه..

(قلنا ياذا القرنين إما أن تعذب وإما أن تتخذ فيهم حسنا * قال أما من ظلم فسوف نعذبه ثم يرد إلى ربه فيعذبه عذابا نكرا * وأما من آمن وعمل صالحا فله جزاء الحسنى وسنقول له من أمرنا يسرا)(١).

وانظر إلى قوله.. عندما بنى السد.. ليمنع يأجوج ومأجوج عن الإفساد فى الأرض.. ونهب منطقة الشرق الأوسط فى فصل الربيع من كل عام.. قال:

(هذا رحمة من ربى) (٣).

لقد كان ذو القرنين رحيما عادلا.. ولم يكن ظالما نهابا.. لقد رفض قبول الضريبة التى عرضت عليه لبناء السد.. اقرأ:

(قالوا ياذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون فى الأرض فهل نجعل لك خرجا على أن تجعل بيننا وبينهم سدا * قال ما مكنى فيه ربى خير فأعينونى بقوة أجعل بينكم وبينهم ردما(٤).

رفض أن يأخذ منهم خراجا ـ ضريبة ـ وإنما طلب منهم قوة عمالية من الصناع.. تعمل معه لبناء هذا السد.

أما الملاحظة الثالثة: وهى الأهم.. أن الإسكندر المقدونى كان كافرا.. ادعى الألوهية لنفسه.. وقتل فى سبيل دعواه صديقه المخلص ـ كليتوس ـ لما نصحه.

فهل يكون الإسكندر المقدونى.. وهذا تاريخه ـ الذى أتفق عليه مؤرخو العالم القديم.. هل يكون هو ذا القرنين.. الوارد ذكره فى القرآن الكريم فى آخر سورة الكهف؟..

نعتقد أن هذا غير مقبول.. لا عقلا.. ولا نقلا.

إن الله ـ تعالى ـ قال عن ذى القرنين:

«إنا مكنا له فى الأرض وآتيناه من كل شىء سببا»(٥).

وهذه الآية.. توحى إلينا أن الله تعالى أعطاه من أسباب الدين والدنيا معا. وقد اختلف المفسرون فى نبوته.. إلا أنهم متفقون على إيمانه وصلاحه وتقواه. حتى رفعه عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ إلى درجة الملائكة.. فعن عمر أنه سمع رجلا ينادى ابنه: ياذا القرنين؟.. فقال عمر: أما كفاكم أن تسموا بأسماء الأنبياء.. حتى تسموا بأسماء الملائكة؟

---

(١) ٨٦ / الكهف .

(٢) ٨٦ـ٨٨ / الكهف .

(٣) ٩٨ / الكهف .

(٤) ٩٤ـ٩٥ / الكهف .

(٥) القرطبى ٨٤ / الكهف .

وقد ورد نفس المعنى.. عن على بن أبى طالب ـ كرم الله وجهه ـ ثم قال ابن إسحاق: فالله أعلم..

أقال رسول الله ذلك أم لا؟.. والحق ما قال(١)..

وهناك رواية تكررت فى جميع كتب التفسير.. تقول:

«ملك الدنيا أربعة: مؤمنان وكافران.. فالمؤمنان: سليمان بن داود وذو القرنين والكافران: نمروذ وبختنصر»

مما دفع الكثير من المفسرين إلى قولهم إن ذا القرنين ليس هو الإسكندر المقدونى.. ولكنهم لم يكلفوا أنفسهم عناء البحث عن حقيقة ذى القرنين.. فى كتب التاريخ: وعمن هو؟.. مع أننا مكلفون بالنص بالبحث.. وتدبر آيات الكتاب..

(كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته) وقوله:

(أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها)؟

وقد أخبرنا التاريخ عن جميع الملوك والغزاة.. من زمن (حجر بالرمو).. وهو أعظم المصادر التاريخية القديمة.. وهو حجر به تاريخ البشر من قبل الأسرة الخامسة للفراعنة(٢).

فمن هو ذو القرنين من بين هؤلاء الملوك والغزاة؟.

كما قال بعضهم عن سد يأجوج ومأجوج.. إنه سور الصين العظيم.

وهذا رأى خاطىء أيضاً.. لأن سور الصين حجرى.. بينما السد فى القرآن الكريم سد معدنى.. اقرأ قول الله عنه.. على لسان ذى القرنين.. لمن طلبوا منه إقامة السد بينهم وبين هؤلاء المفسدين.. قال:

«آتونى زبر الحديد حتى إذا ساوى بين الصدفين قال انفخوا حتى إذا جعله نارا قال آتونى أفرغ عليه قطرا فما اسطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقبا»(٣).

أى أنه طلب منهم قطع الحديد.. ورصها بين الجبلين إلى قمتهما.. وبالنفخ فى الحديد انصهر.. وإذا انصهر الحديد صار نارا.. ثم أفرغ عليه القطر ـ وهو النحاس المذاب ـ فإذا اختلط النحاس المنصهر بالحديد المنصهر صار سبيكة معدنية.. فهو سد معدنى.. فأين هذا السد جغرافيا.

ولعلك أيها القارىء الكريم.. قد رأيت أننا فى نبأ ذى القرنين.. قد هدانا الله ـ تعالى ـ **إلى شخص ذى القرنين تاريخيا**.. وإلى موقع السد جغرافيا **بأدلة علمية لا تقبل نقاشا ولا جدلا**.. ورأينا تمثال ذى القرنين فى مكا يبعد عن اصطخر ـ بإيران ـ بنحو خمسين ميلا.. على شاطىء نهر ـ مرغاب ـ وهو تمثال حجرى على قدر القامة الإنسانية.. ظهر فيه ـ قورش العظيم ـ وعلى جانبيه جناحان كجناحى العقاب.. وعلى رأسه قرنان كقرنى الكبش.. يده اليمنى ممتدة يشير بها إلى الأمام.. ولباسه كالذى نراه فى صور ملوك بابل وإيران.

كما رأينا معا يأجوج ومأجوج ـ وهم من كل حدب ينسلون ـ ممثلين فى الشيوعية.. التى تحرق البشرية بنارها.. ونارها أشد من النار المادية.. فالنار تحرق المادة.. أما نار الشيوعية.. فإنها تحرق المادة والروح معا(٤).

أما موضوع الخضر.. فقد كثرت الأقاويل عن العبد الصالح.. الذى تعلم موسى على يديه..

وقد تورط الكثير.. فقالوا: إنه ولى شرب من عين الحياة.. فهو حى إلى يوم القيامة.. وهؤلاء نسوا.. أو تناسوا قول الله تعالى:

(وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد)

وسئل عنه شيخ الإسلام ـ ابن تيمية ـ

---

(١) القرطبى ٨٣ / الكهف .

(٢) موسوعة تاريخ العالم ص ٤٧ جـ ١ ـ لوليم لانجر .

(٣) ٩٦ ـ ٩٧ / الكهف .

(٤) ارجع إلى نبأ ـ ذى القرنين ـ ص ٤٠٣ من هذا المجلد (الأول).

فقال: «لو كان حيا.. لوجب عليه أن يأتي إلى النبى ـ صلى الله عليه وسلم - ويؤمن به.. ويتعلم منه.. ويجاهد معه».

كما قال إبراهيم الحربي.. عندما سئل عن حياة الخضر وخلوده.. فقال:

«من أحال على غائب لم ينتصف منه.. وما ألقى هذا بين الناس إلا الشيطان» واعترض الإمام النسفى ـ فى تفسيره ـ على قول من قال إنه ولى شرب من عين الحياة..

فقال: «وقد زلت أقدام قوم من الضلال.. فى تفضيل ولى على نبى.. وهو كفر جلى.. حيث قالوا: أمر الله موسى بالتعلم من الخضر.. وهو ولى.. ومن المحال أن يكون الولى وليا.. إلا بإيمانه بالنبى.. ثم يكون النبى دون الولى" ـ اهـ.

ولكن هؤلاء جميعا.. لم يذكروا لنا.. من هو هذا العبد الصالح!!..

وقد اتفقنا كما اتفق من قبلنا على ضرورة التدبر والبحث فى آيات الله.. فالأمر الإلزامى ـ كما ذكرنا ـ وهذا ما قمنا به ـ بعون الله تعالى ـ فبحثنا عن صاحب الصفات التى ذكرت عنه فى كتاب الله تعالى.. وليس بعد كتاب الله من دليل:

أولا: أنه عبد من عبادنا..

ثانيا: آتيناه رحمة من عندنا..

ثالثا: علمناه من لدنا علما.

ولعلك يا قارئى الكريم.. قد اطمأننت إلى ما وصلنا إليه عنه ـ صلى الله عليه وسلم (١) وقد وفق الأستاذ عبد الوهاب النجار.. فى كتابه ـ قصص الأنبياء ـ فى قوله عنه نقلا من الكتب القديمة ـ أن اسمه أحمد الخضر(٢).

وها نحن قد ساقتنا رحلة الرسالات.. لنشرف بلقاء أحمد ـ خاتم الرسل ـ عليه الصلاة والسلام.

والحمد لله الذى بدىء منه الحمد.. وإليه يعود كل شىء كذلك.. لا إله إلا الله..

اللهم اغفر لنا شركنا وخطأنا وتقصيرنا.. واغفر للمؤمنين والمؤمنات.

□ □ □

---

(١) ارجع إلى فصل ـ موسى طالب علم ـ ص ٢٩٥ ـ من هذا المجلد الأول.

(٢) ص ٢٩٦ ـ ط ٣ ـ قصص الأنبياء للنجار.

إلـى اللـقـاء

إلى اللقاء مع قمة الوجـود.. مع محمد خاتم الرسل ــ عليه الصلاة والسلام.. فقـد ذكر رجال التفسير وأولو العـلم.. أن الله تـعالـى خلق مـن بنـى آدم مائـة وأربعـة وعشريـن ألف نبى اصطفى منـهم ثلاثمائة وثلاثـة عشر رسولاً.. عـلى مافى حـديث أبى ذر.. الذى رواه أحـمد وابن حبـان فى صحـيحه.. وذكـره ابن قيم الجـوزية فى كتابه زاد المعاد(١).

وذكـر الله تعالـى لنا من الـرسل خـمسـة وعشـرين رسولاً فى كتابه الكريم.

ثم اخـتـار ــ سـبحانه ــ من هؤلاء أولى العـزم من الرسل.. وهم خمسة: نوح وإبـراهيم وموسى وعيسى.. وقمة الجميع محمد ــ عليه الصلاة والسلام ــ

وقد اجتمع أولو العزم من الرسل فى قوله تعالى:

«وإذ أخـذنا من النـبيين مـيـثاقـهم ومنك ومـن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم» (٢).

واجتمعوا أيضا فى قوله تعالى:

«شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا إليك وما وصـينا به إبراهيم ومـوسى وعيسى أن أقـيموا الدين ولاتتفرقوا فيه»(٣).

فكان مـحمد ــ صلى الله عـليه وسلم ــ هو صـفوة الخمسة.. وقمة الوجود.

وحياته ــ عليه الصلاة والسلام ــ تنقسم إلى أربع مراحل:

● **المرحلـة الأولى:** من عـالـم الأمـر.. قـبل عـالـم الخـلـق.. حـيـث كـان هـو أول مـن لـبـى الـنـداء وقال بلى.. فى حديث العهد.. عند قوله تعالى:

(وإذ أخـذ ربك من بـنى آدم من ظـهورهـم ذريتـهم وأشهـدهم على أنفـسهم ألسـت بربكم قالـوا بلى)(٤) فكان هو ــ عليه الصـلاة والسلام ــ أول مـن لبى نداء ربه.

وستراه فـى تلك المـرحلة.. يـنتـقل من الأصـلاب الطيـبة.. إلى الأرحام الـطاهرة.. من لدن آدم.. إلى أبـيه عبدالله بن عبدالمطلب.. سلالة اخـتصها الله تعالى بالكرم والمروءة.. والمجـد والـسـؤدد.. والـعـزة والشـرف.. والشـجاعـة والسـيادة .. مـن كابـر إلى كابـر.. ومن ساجـد إلى سـاجد.. وتلك هـى المرحلة الـتى يشـير إليها ــ سبحانه ــ فى قوله له:

(الـذى يـراك حين تـقـوم * وتـقـلـبـك فـى الساجدين(٥)).

أى انتقالك من ظهر ساجد إلى ظهر ساجد.

● **والمرحلة الثـانية:** من يوم مـولده ــ عليـه الصلاة والسـلام ــ إلى يوم مـبعـثه.. حـيث نراه قـمة فـى المثل العـليا.. وذروة فـى الخلق الـعظيـم: طفولـة.. وصبـا .. وشـبـابا.. فـنجـده صادقـا أمينـا.. سهـل الخلـق.. لين الجانب.. ليس بفظ ولاغليظ.. ولاصخاب ولافحاش.. ولاعـياب ولامـزاح.. فـكان يمزح ولايـقول إلا حـقـا.. يقـابل السيـئة بالحسنة.. يصل مـن قطعه.. ويعـطى من حرمـه.. ويعفـو عمن ظلمـه.. تراه فيـها يرعى الـغنم.. ويشتغل بالتجارة.. ويكسب قوته من عمل يده.

---

(١) ص ١٩ جـ ١.

(٢) ٧ ـ الأحزاب.

(٣) ١٣ ـ الشورى.

(٤) ١٧٢ ـ الأعراف.

(٥) ٢١٨ ــ ٢١٩ الشعراء.

أسخى الناس كفا.. وأشدهم حياء.. وقد كساه الله حلة من الوقار والهيبة.. والجلال والكمال.. حتى اصطفاه لرسالته.. واختصه بنبوته لما بلغ الأربعين..

● **والمرحلة الثالثة:** نراه قد حمل الرسالة.. وأدى الأمانة.. ودعا إلى الفضائل.. ونهى عن الرذائل.. وتحمل فى سبيل ذلك ما تحمل من الأذى.. فكان فيها جبلا أشم.. فى قوة الصبر وعظيم الاحتمال.. حلمه يسبق غضبه .. لاتزيده شدة الجهل عليه إلا حلما

تكتلت ضده جميع قوى الشر.. وتحالفت عليه شياطين الإنس والجن.. فلم يزده ذلك إلا ثباتا ويقينا.. وصمودا وإصرارا.

عرت عليه مفاتن الدنيا.. من مال وعز وجاه.. فقال قولته الخالدة:

«والله ياعمى.. لو وضعوا الشمس فى يمينى .. والقمر في يساري.. على أن أترك هذا الأمر.. ماتركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه».

أوذى وعذب وطرد.. حتى أذن الله لدينه أن تحتضنه يثرب ـ دار هجرته ـ حيث أوى الرسول إليها.. مع السابقين المهاجرين.. والصفوة من الصديقين.

أما المرحلة الأخيرة: حيث تبدأ دولة الإسلام.. وعزة المسلمين.. ويخرج جند الله .. رهبانا بالليل.. فرسانا بالنهار.. حتى يرفعوا أعلام الإسلام خفاقة تملأ الدنيا بالحب والخير والسلام.

فالإسلام دين ودولة.. عبادة وسياسة.. زهد وكياسة. فإلى رحاب محمد ـ خاتم الرسل ـ عليه الصلاة والسلام..

والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم.

□ □ □

فهرس المجلد الأول من كتاب
من أنباء الرسل

فصل | الموضوعات | الصفحة رقم

فصل	الموضوعات	الصفحة رقم

فصل	الموضوعات	الصفحة رقم

فصل | الموضوعات | الصفحة رقم

فصل | الموضوعات | رقم الصفحة

إنتـــهى بحـمــد الله

المجـلـد الأول مــن

كـتــاب (مـن أنبـاء

الرسل) (٩ أجزاء)

ويـلـيــه إن شـــاء

الله المجلـد الثـــانى

(محمد خاتم الرسل)

مَطابعُ مؤسسَة دار الشعبْ - للصحافة والطباعة والنشرُ

٩٢ شارع قصر العيني - القاهرة ت: ٣٥٥١٨١٠١ - ٣٥٥١٨١٨ - ٣٥٤٣٨٠٠


مطبوعات الشعب
ثقافة وعلوم إنسانية لكل الشعب
٩٢ شارع قصر العيني ت: ٣٥٥١٨١٠٠ - ٣٥٥١٥٩٩